مستقبل الديمقراطية

للاستاذ الدكتور طه حسين بك

انا واثق بأنه ليس على الحضارة الانسانية خطر حقيقى من هذه الحرب مهما يعظم هولها ، وأنا واثق بأن الديمقراطية هى خير ما عرف الناس من نظم الحكم ، وأنا من أجل هذا مطمئن الى ان الحضارة ان خرجت ظافرة من هذه الحرب ، فستخرج الديمقراطية معها ظافرة

ما أضيق العيش لولا فسحة الامل ــ كذلك قال الطغرائى منذ قرون طوال ــ وكان موفقا كل التوفيق الى الحق والصواب فيما قال . وما أظن ان أحدا من الذين يعيشون فى هذه الايام يستطيع ان ينازع فى هذه الحكمة القديمة الجديدة سواء أكان من الذين يصلون نار الحرب من قريب أم من الذين يصلونها من بعيد.فليس من شك فى أن الحياة التى نحياها الانسانية الآن ضيقة الآفاق ضئيلة الخطر قليلة الغناء لولا أن فى كل نفس انسانية حية سراجا قويا يشق آفاقها المظلمة وينفذ بالنفس الانسانية الى عالم آخر.وراء هذه الآفاق تستطيع الآمال ان تنطلق فيه حرة خفيفة سريعة قادرة على أن ترتفع حتى تبلغ ما شاءت فى جو السماء وقادرة على أن تمضى أمامها الى غير أمد . وماذا تنتظر من هذه الحياة التى نحياها الآن وقد أخذها الشر من جميع أنحائها فلا يكاد الانسان يفكر فى أمسه الا امتلأت نفسه حسرات على أنه قد مضى بكثير من الطيبات كنا نستقلها ونزدريها فأصبحنا نستكثرها ونود لو أتيح لنا بعضها ولا يكاد الانسان يحاول التفكير فى غده حتى يتساءل أمدرك هو هذا الغد أم مقصر هو عن ادراكه.والغريب ان طبيعة الحياة الانسانية لم تتغير فهى فى كل وقت كما هى الآن معرضة للخطر الذى يأتيها من حيث ينتظر الناس ، ومن حيث لا ينتظرون،ولكن هذه الحوادث الهائلة والكوارث المنكرة التى تتكشف عنها الحرب فى كل لحظة قد جلت طبيعة هذه الحياة للناس وأشعرتهم بغرورهم وخداعهم لانفسهم فواجهوا الحقائق كما هى ، وعرفوا ان مثل الحياة الدنيا كمثل هذا الهشيم الذى تذروه الرياح والذى ضربه الله لهم فى القرآن الكريم ، فهم يؤمنون به اذا تلوا الآية أو سمعوا الوعاظ ، ولكنهم لا يلبثون أن ينسوا ما تلوا وان يعرضوا عما سمعوا

وأن يقبلوا على لذاتهم وأهوائهم كدأبهم قبل أن يتلوا الآية وقبل أن يسمعوا الوعاظ .

فأما الآن فكل لحظة من لحظات حياتهم تتلو عليهم هذه الآية وكل نبأ يصبحهم به النهار أو يمسيهم به الليل يتحدث اليهم حديث الوعاظ ويذكرهم بأن الحياة الدنيا هشيم تذروه الرياح وهم من أجل ذلك خليقون ان يدركهم اليأس وكثير منهم يدركه اليأس فيفنى فى التشاؤم المهلك أو يندفع الى التفاؤل المهلك ، ولكن نفس الانسان أقوى من اليأس وأقوى من احداث الزمان فهي تستطيع دائما أن تأمل وهي تستطيع دائما أن تذكر أمس وان تفكر في غد وان تستمتع بذكريات الماضى وان تحلم بطيبات المستقبل . والشر المطلق لا وجود له كما ان الخير المطلق لا وجود له أو قل اذا شئت ان الانسان العادي لا يستطيع ان يتصور الشر المطلق كما انه لا يستطيع ان يتصور الخير المطلق فهو يسعد بمقدار الا أن يفسد الغرور عليه أمره ، وهو يشقى بمقدار الا أن يفسد اليأس عليه أمره . وهو من أجل ذلك ينتفع بالكوارث لانها ترده وتصرفه عن غيه وتشعره بأن الحياة لا ينبغى ان تؤخذ على أنها هزل خالص ، ولا على أنها جد خالص وانما هي مزاج من هذا وذاك فيها الرضى والسخط ، وفيها الفرح والحزن ، وفيها الابتسام والعبوس

ولست أدرى ما الذى يدفعنى الى هذا التفكير القاتم بل لست أدرى ما الذى يدفعنى الى التعبير عن هذا التفكير القاتم الذى صحبته أو صحبنى منذ تتابعت أهوال الحرب ، ولكنى احتفظت به لنفسى وضننت به على غيرى أو ضننت بغيرى عليه . لست أدرى ما الذى يدفعنى الى هذا الحديث القاتم ولم يطلب الى أن أعظ الناس ولا أن أبصرهم بجد الحياة وهزلها وانما طلب الى أن أتحدث عما أنتظره للديمقراطية بعد هذه الحرب

وليتنى أدرى أيمكن ان تأتلف هذه الكلمات بعد هذه الحرب فقد طالت هذه الحرب وثقلت وتتابعت أهوالها وتوالت كوارثها وتعمقت آثارها حياة الناس الذين يشعرون ويفكرون ويحسون التضامن الاجتماعى . طالت هذه الحرب وثقلت حتى أنستنا الماضى وصرفتنا عن المستقبل وشغلتنا باللحظات التى نحياها أو التى يتاح لنا أن نحياها وحتى لو أرسلنا أنفسنا على سجيتها لخيل الينا أن ليس لهذه الحرب قبل ولا بعد .. ولكنا مع ذلك نذكر ان قد كان لهذه الحرب قبل وانا قد أنفقنا أعواما وأعواما كانت تمر فيها بنا الايام والليالى والاسابيع والشهور ونحن فارغون لحياتنا الخاصة مقبلون على ما ينفعنا وينفع الناس لا يصرفنا عن ذلك شيء من هذه الكوارث التى لا يكاد العقل يتصورها والتى تأخذ الحضارة من كل وجه وتسعى اليها من كل صوب . نعم لا نزال نذكر ان قد كان لهذه الحرب قبل ، نعم الناس فيه بلذات السلم واستمتعوا فيه بالعافية ولا يزال تذكرنا لهذا الدهر القريب البعيد يحبب الينا العودة اليه أو الى شيء يشبهه ويثير فى نفوسنا الامل فى أن يكون لهذه الحرب بعد ينعم الناس فيه بالسلم ويستمتعون فيه بالعافية

وما يخطر لى أن أتصور هذا الدهر الذى ستنجلى عنه الحرب ولا ان أشيد فيه القصور الاسبانية ، وانما أنا أرى هذه الحرب كما كان شعراؤنا القدماء يرون الليل اذا شكوا طوله

فظنوا ان نجومه قد شدت بالحبال الى الجبال فهى لاتكاد تنتقل والناس مع ذلك يذكرون فينعمون بالذكرى والناس مع ذلك يحلمون فيستمتعون بالاحلام . فلنتحدث الى أبنائنا وشبابنا عن تلك الايام التى لم تكن فيها حرب وانما كانت كلها سلما وأمنا ولذة ونعيما . ولنتحدث الى أبنائنا وشبابنا عن أيام مقبلة لا حرب فيها ولا ضرب ولا قتال فيها ولا نزال وانما فيها السلم والامن واللذة والنعيم وفيها الآمال العراض والامانى الباسمة والمطامع البعيدة والطموح الذى لا حد له والسعى فى آثار المثل العليا والظفر بكثير مما تطمع فيه النفوس وتطمح اليه القلوب والثقة بأن ما يعسر على بعض الاجيال قد ييسر لبعضها الآخر وبأن الابناء قد يبلغون ما قصر عنه الآباء ، وبأن الغد قد يحقق ماعجز عن تحقيقه الامس .

واذا تحدثت الى نفسى عن مستقبل الديمقراطية بعد أن تنتهى هذه الحرب فان لى فى هذا الحديث لغتين : احداهما لغة التشاؤم والشك لاننا شهدنا حربا مضت ورأينا بعدها سلما شملت الناس وكنا نضيق بتلك الحرب الماضية كما نشقى بهذه الحرب الحاضرة ، وكنا نعقد بتلك السلم التى انقضت آمالا واسعة ونتوط بها أمانى لا تنقضى . فلما أقبلت السلم لم تحقق من آمالنا الواسعة الا قليلا ولم تتح لنا من أمانينا البعيدة الا أهونها شأنا وأقلها خطرا وكنا نظن أن الحرب الماضية قد قتلت نفسها وان السلم قد عفت على آثارها وان أمور الناس ستصير الى عافية دائما وان مشكلاتهم ستحل بينهم بالرضى والثقة المتبادلة . وكنا نظن أشياء كثيرة وكنا نأمل أكثر مما كنا نظن . فلم تكد تتقدم الايام بتلك السلم حتى تبين أن ظنوننا انما كانت لغوا وان آمالنا قد ذهبت هباء وان الحرب لم تقتل نفسها وان السلم لم يعف آثار الحرب ، فلا غرابة اذا فكرنا فى غد مع كثير من التحفظ والاحتياط والاشفاق أن تكون عاقبة هذه الحرب كعاقبة الحرب الماضية وان تكون السلم المنتظرة عقيما مجدبة كالسلم التى انقضت فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ . فهذه احدى اللغتين اللتين أتحدث بهما الى نفسى اذا فكرت فى مستقبل الديمقراطية

فأما اللغة الثانية فلغة أمل ورجاء وثقة . ذلك أن الانسان لم يُعَلَّمْ الا ليعلم كما قال الشاعر القديم وان من طبيعته الانتفاع بالحوادث والاستفادة من التجارب وقد أسرف فى الامل على نفسه أثناء الحرب الماضية فأسرف عليه اليأس بعد انقضاء تلك الحرب . فالخير اذن أن يقتصد فى الامل وان يكون رجاؤه معتدلا وان تكون أمانيه معقولة تحد بطاقة الناس وقدرتهم على الاصلاح . وقد ظن الاوروبيون فى أعقاب الحرب الماضية أنهم قهروا الطغيان الى أمد بعيد جدا وأنهم قد أقاموا على انقاضه عالما قوامه العدل والقسط والانصاف ولكنهم حين ظنوا ذلك لم يخدعوا أنفسهم وانما خدعوا كثرة الناس . ذلك أنهم لم يكونوا فيما بينهم وبين أنفسهم واثقين بأنهم قتلوا الطغيان حقا والطغيان الالمانى لا يقتل بهزيمة تلقاها المانيا خارج حدودها وانما يقتل فى موطنه حين تقتحم الحدود الالمانية وحين يزول السلطان الالمانى وحين تذوق المانيا فى وقت طويل أو قصير مرارة

الغزو التى أذاقتها للآخرين ومرارة التسلط الاجنبى الذى بعد عهدها به . هنالك ينتظر ان يثوب الى الشعب الالمانى شىء من رشد وحظ من قصد وهنالك ينتظر أن يبرأ الشعب الالمانى من بعض غروره ويؤمن بأنه كغيره من الشعوب قد يتاح له النصر وقد تقضى عليه الهزيمة . وهنالك يعتدل الشعب الالمانى فى اطماعه ويكبح من جماحه ويطمئن الى أنه يستطيع ان يقنع بالمساواة بينه وبين غيره من الشعوب ويومئذ يمكن ان يقبل مخلصا على التعاون مع غيره فى اقامة النظام الجديد على أساس من العدل والقصد وعلى رغبة فى المساواة والانصاف . فأما ان ينهزم الشعب الالمانى خارج حدوده كما انهزم فى الحرب الماضية ، فذلك شىء يريح الناس من الطغيان الالمانى وقتاما . ولكن الشعب الالمانى نفسه لا يلبث ان يتساءل عن هذه الهزيمة التى لم يرها رأى العين ولم يذق اثارها فى أرضه ثم لا يلبث أن ينكرها ثم لا يلبث ان يرى نفسه مظلوما ثم لا يلبث ان يحاول انصاف نفسه، والمظلوم معرض متى استطاع الى أن يصبح ظالما مسرفا فى الظلم ، فحدود الانصاف ليست واضحة والفروق بين الانصاف والانتقام ليست بينة . وكما أن الذين نظموا العالم بعد الحرب الماضية لم يكونوا واثقين بالانتصار فهم كذلك لم يكونوا واثقين بأنفسهم أو بعبارة أدق لم يكونوا مخلصين لانفسهم فى تلك الثقة التى كانوا يظهرونها فلم تكد معاهدة الصلح تمضى حتى جحدتها الولايات المتحدة الامريكية، ولم تكد عصبة الامم تنشأ حتى هجرتها الولايات المتحدة الامريكية ، فتركت أوروبا لنفسها فلم تصنع شيئا وهى لم تصنع شيئا لانها لم تخلص لنفسها وانما قام سوء الظن أساسا لما كان بينها من الصلات فألمانيا مغلوبة، فهى تسيء الظن بغالبيها وهم يسيئون بها الظن وايطاليا ترى أنها قد ظفرت من الغنيمة بأقل مما كانت ترجو وانجلترا وفرنسا تتنافسان فى سيادة البر والبحر، وقد انحازت روسيا الى نفسها وعكفت على ثورتها وفرغت لبغض الغالب والمغلوب جميعا . ولذلك مضت الحرب الكبرى دون أن يجنى الناس منها الا شرها ، وأقبلت سلم عرجاء لم ينتفع بها الا المهرة الذين يحسنون الصيد فى الماء العكر ويحسنون ملء حقائبهم وجيوبهم اذا أظلم الليل

وكذلك فرغت أوربا من حرب الشعوب، ولكنها لم تنته الى السلم وانما انتهت الى الهدنة والى هدنة غير خالصة الى هدنة فى السياسة الخارجية والى حرب بين الطبقات فسدت بها السياسة الداخلية للامم فسادا عظيما . ولم تمض أعوام قليلة على السلم حتى استيقن أولو البصائر ان الحرب مقبلة لا محالة وان الشعوب عائدة الى شر مما كانت فيه وان النظم السياسية والاجتماعية التى كانت تقوم عليها أمور أوروبا لم تكن صالحة للبقاء وانما كانت موقوتة تنتظر من يسبق الى هدمها وقد سبق الثائرون فى روسيا فهدموا من ناحيتهم وحاولوا البناء . ثم سبقت ايطاليا ثم تبعتها المانيا وانقسمت أوروبا الى قسمين متباعدين أشد التباعد احدهما يقوم على دكتاتورية مهلكة لحرية الفرد والجماعة وكرامة الانسان والآخر يقوم على ديمقراطية مزعزعة مسرفة فى حرية الفرد والجماعة مقصرة مع ذلك

فى انصاف الفرد من الجماعة وفي انصاف الضعفاء من الاقوياء والفقراء من الاغنياء والعاملين من الذين لا يعملون . ولم يكن الانسان محتاجا الى كثير من الذكاء ليفهم ان دوام تلك الحال قد كان من المحال ولم تلبث الحوادث ان أثبتت ان الحياة الاوروبية لم تكن معقولة ولا قادرة على البقاء .

كل هذا قد تعلمه الانسان في هذا العصر الذى انقضى بين حربين . فواحدة من اثنتين : اما أن يكون الشاعر صادقا حين قال « وما عُلِّمَ الانسان الا ليعلم » ، وان يكون التاريخ صادقا فيما أنبأنا به من أن الانسان منتفع دائما بالحوادث مستفيد دائما من التجارب ماض دائما الى أمام ، واذن فمن حقنا أن نرجو وأن نأمل وأن نثق بأن للديمقراطية بعد الحرب مستقبلا رائعا مزهرا ، واما أن يكون ظننا بحكمة الحكماء وفلسفة الفلاسفة وعبر التاريخ واستعداد الطبيعة الانسانية للرقى وقدرة العقل الانسانى على قهر المصاعب والخروج من الخطوب منتصرا عليها كاذبا . واذن فهو اليأس لا من الديمقراطية وحدها ولكن من الحضارة الانسانية كلها

والحمد لله على انى لست من اليائسين وعلى انى لا أفهم لليأس معنى مع الحياة كما كان يقول مصطفى كامل رحمه الله فهذه الكارثة الهائلة التى تخضع لها الانسانية الآن ليست الكارثة الاولى ولن تكون الكارثة الاخيرة مع الاسف وقد تعرضت الحضارة الانسانية لكوارث أخرى ساحقة ماحقة فظهرت عليها وانتفعت بها وخرجت منها أشد تألقا وأكثر اشراقا مما كانت قبل أن تلم بها الكارثات

ولست أدرى لم لا تخرج الحضارة ظافرة من هذه الكارثة كما خرجت من الكوارث الماضية وهى الآن أشد ايدا وأصلب عودا وأمضى حدا وأقدر على المقاومة وأقدر على النفوذ أيضا . أنا اذن واثق بأن ليس على الحضارة الانسانية خطر حقيقى من هذه الحرب مهما يعظم هولها وأنا اذن واثق بأن الديمقراطية هى خير ما عرف الناس من نظم الحكم من الناحيتين السياسية والاجتماعية . وأنا من أجل هذا كله مطمئن الى ان الحضارة ان خرجت ظافرة من هذه الحرب فستخرج الديمقراطية معها ظافرة لان الحضارة الصحيحة فى هذا العصر لا تستطيع ان تقوم الا على الحرية .. الحرية التى تسع الافراد والجماعات والشعوب . الحرية التى تمنع الأفراد من أن يظلم بعضهم بعضا وتمنع الشعوب من أن يظلم بعضها بعضا وأكاد أعتقد أن هذه الحروب التى خضعت لها الانسانية والتى عرضت الحضارة لشر عظيم انما هى لون من ألوان الجهاد الذى تبذله الانسانية لتظفر بهذه الحرية والذى تشقى به الانسانية كثيرا بين وقت ووقت لتنعم بما تنتج لها من الحرية كثيرا أيضا . والشىء الذى لا أستطيع أن أشك فيه هو أن العقل الانسانى قد وصل الى حد من الرقى لا يستطيع معه أن يقبل الضيم أو يصبر على الذل أو يعيش الا فى ظل الكرامة . وأنا أعلم ان نظم الطغيان قد قامت فى أوروبا وانها تكلف

الناس من أمرهم شططا فى هذه الايام، ولكنى أعلم أيضا ان هذه أزمات تعرض لها الحياة الانسانية بين وقت وآخر وان هذه الازمات رهينة بالاشخاص الذين يثيرونها أو بالظروف الطارئة التى تقتضيها، فمتى مضى هؤلاء الاشخاص ولا بد من أن يمضوا، ومتى تغيرت هذه الظروف ولا بد من أن تتغير لان الحياة تغير مستمر استأنف العقل الانسانى طريقه فى سبيل الرقى • وهذه الطريق جميلة رائعة تقوم فيها من حين الى حين عقبات وصعاب ولكنها تمضى دائما فى ظلال رائعة من الحرية والكرامة والامل والمثل العليا

فاذا أردت أن تعرف رأيى فى مستقبل الديمقراطية اذا انتهت هذه الحرب فلست أستطيع ان أعرض عليك رأيا بعينه ولا إن أرسم لك صورة بعينها وانما أستطيع أن أعرض عليك ثقة متينة وأملا باسما • فأما الثقة فبانتصار الحضارة والنور على الجاهلية والظلمة وأما الامل ففى أن يستفيد الناس من دروس الحرب الماضية والسلم الماضية أيضا وفى أن يذكروا انهم قد أقاموا الصلح الماضى على سوء الظن وعلى سوء النية وعلى سوء التقدير وعلى التنافس والتحاسد وعلى الخديعة والمكر فجنوا من هذا كله شرا عظيما فهم الآن خليقون الا يتورطوا فيما تورطوا فيه أمس وان يقيموا صلحهم المقبل على حسن تقدير الامور وعلى أخذها بالحزم والعزم وعلى الثقة الصادقة والتعاون القائم على الاخلاص • ويخيل إلى أن تجنب الاغلاط التى اقترفت فى وضع معاهدة فرسايل وفى تنفيذها كفيل بأن يضمن للناس ديمقراطية لا أقول كاملة فليس الى الكمال من سبيل ولكنها ديمقراطية قريبة من العدل يستمتع فيها الفرد بحريته وكرامته وينعم فيها بطيبات الحياة لا يظلمه القوى ولا يستغله الغنى وتأخذ فيها الشعوب بحظوظها من الحياة الحرة لا تستأثر فيها الشعوب القوية بالسيادة والغنى من دون الشعوب الصغيرة وانما تقوم حياة الافراد والجماعات والامم على شىء من الحب والرفق والعدل والانصاف

منى ان تكن حقا تكن أحسن المنى ... والا فقد عشنا بها زمنا رغدا

طه حسين

◘ فى كل بلد وطأته أقدام الجيوش الألمانية وبوليس النازى نبتت وترعرعت كراهيــة الألمان . وقد تمر القرون قرناً قرناً ، ولن يذهب ذلك الحقد وتلك الكراهية من ذكريات البشرية . ونحن لا نستطيع أن نمزق ستار الغيب فنرى كيف يكون الخلاص ، ومتى يكون ، ولكن شيئاً واحداً مؤكداً وهو أن آثار أقدام هتلر ، وكل وصمة من وصماته ، وكل اصبع من أصابع تآمره ستغسل وتطهر ، وإذا دعا الأمر ، فانها ستزال من وجه البسيطة الى الأبد (تشرشل)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لماذا انا ديمقراطى ؟

بقلم الاستاذ عباس محمود العقاد

لماذا أنا ديمقراطى ؟ لاننى لست بالمذل ، ولا بالذليل ، ولست بالمؤمن بصلاح الاستبداد فى جميع الاحوال ، وهذه هى الاسباب التى تبغض الى الاستبداد حيث كان ، وتحبب الى الديمقراطية حيث كانت

يسألنى « الهلال » لماذا أنا ديمقراطى ؟ وعندى ان الميول النفسية الكبرى التى تستولى على الانسان وتمتزج بعقائده وميوله طوال حياته لا يمكن أن ترجع الى مصدر واحد بل لا بد لها من مصدرين : أحدهما فطرى « لدنى » كما يقول المتصوفة فلا يسهل تعليله وتفصيل أسبابه ، والآخر عقلى تجريبى أو كسبى كما يقول المتصوفة أيضا فهو قابل للتعليل ، واستقصاء أسبابه غير عسير .

وكراهتى للقيود التى تفرض على فرضا هى المصدر الفطرى الذى يرجع اليه حبى للديمقراطية وسخطى على الاستبداد ، وأذكر من أيام طفولتى حادثا كان له أكبر الاثر فى توجيه فكرى وتكوين آرائى الدينية والسياسية بعد أيام الطفولة ، وذلك هو دعوتى الى الصلاة فى سن العاشرة على النحو الذى اختاره والدى رحمه الله . فقد كان شديد التقوى كثير الصلاة والصوم ، وكان على رفقه وفرط حنانه يحسب ان الرفق فى الدعوة الى الصلاة متى وجبت الدعوة أليها هوادة فى حقوق الله لا تستحب من أحد فضلا عن الوالد المطاع ، وكان يستيقظ قبل الفجر ويقضى الوقت الى موعد صلاته فى القراءة والتسبيح ترتيلا مسموعا تارة وهمسا غير مسموع تارة أخرى ، فخطر له أن يوقظنى فى تلك الساعة المبكرة لاحضر معه الصلاة فى أوانها ...

وتلك هى العثرة كما يقول شكسبير . فقد كان من عادته أن يستصحبنى الى مجالس العلم كما كان يصنع عند ذهابه الى مجلس الاستاذ الجداوى الذى كان يفسر القرآن أحيانا ويشرح المقامات الحريرية والبديعية فى بعض لياليه ويتخلل دروسه كلها بالطرف والفكاهات التى كان مطبوعا عليها . فكنت ألح على والدى فى استصحابى الى تلقى

الدروس ولا أنتظر حتى يدعوني اليها ، وكنت أصوم رمضان قبل أن يجب على الصيام ولا أحتاج الى أمر ولا اغلاظ فى التنبيه ، ولم تكن عندى صعوبة فى تلبية أمر الصلاة لولا ذلك الاستيقاظ الباكر قبيل الفجر فى سن العاشرة أى فى السن التى يهبط فيها النوم على جفون الاطفال كما تهبط الجبال التى لا تتزحزح ولا سيما بين السحر والصباح • فلما تكرر ايقاظى يوما بعد يوم بعد يوم على غير أمل فى الانتهاء تمردت ذات صباح وأبيت أن أتحرك من السرير ولو قتلت فيه وأعلنت فى أصرح عبارة اننى لن أصلى الصبح ولا مابعد الصبح اذا أنا لم أستيقظ باختيارى ولم أتقدم الى الصلاة بغير زجر ولا وعيد • وكان لهذا الحادث الذى لا أنساه ـ لانه وحيد فى تاريخ طفولتى ـ أكبر الأثر فى فهم معنى العقيدة ومعنى الاختيار ومعنى حرية الفكر والارادة

وكان الوصول الى وظيفة حكومية فى ذلك العهد أشرف ما يتمناه الشاب ويتمناه له أهلوه • فلما سعى أهلى لادخالى فى احدى الوظائف ونجحوا فى مسعاهم كان ظن أصحابى المدرسيين انى سعيد بما ظفرت به واننى سأتيه عليهم بهذا الشرف العظيم • ثم استقلت من وظيفة بعد وظيفة فى خلال سنتين لفرط ما أثقلنى من قيود الموظفين وغطرسة الرؤساء ، فكنت أعجوبة كأعاجيب البحر الموصوفة فى الاساطير عند أولئك الاصحاب ! وكان بعضهم يحسب خروجى من الوظيفة كخروج ابليس من الجنة طردا من نعمة الله !

ذلك هو المصدر الفطرى فى نفسى لحب الديمقراطية ، وتعليله لا يتجاوز الاشارة والشعور بوجوده • فهذا أقصى ما يستطاع له من تعليل

أما المصدر الذى تستقصى أسبابه فخلاصته أن المرء انما يحب الاستبداد لانه صاحب مصلحة فى الذل أو فى الاستذلال ، أو لانه يرى فيهما مصلحة لقومه وللعالم بأسره اذا تجاوز النظر الى مصلحته ومصلحة ذويه • ولا مصلحة لى فى الذل ولا فى استذلال أحد بل أنا أنظر الى الرجل الذى يذل نفسه كأنه يلوث نفسه بالقذر والخباثة ، وانفر من النظر الى تلك النفس كما أنفر من النظر الى رجل يلوث جسمه بالاقذار المحسوسة : كلا المنظرين كريه لدى ومن يلوث النفس أكره لدى ممن يلوث الجسد • وأعجب ما أعجب له ولع بعض الناس بأن يتزلف اليهم المتزلفون ويضرع بين أيديهم الضارعون• فهم حقراء يستحقون عندى الرثاء والازدراء ولا يستحقون الغبطة والاقتداء

واتفق من أسباب بغضى الاستبداد وحبى الحرية اننى أشتغل بالكتابة وأعنى بالبحث والدراسة ، وحاجة الباحث الى فضاء الحرية ألزم من حاجة الطائر الى الفضاء • فقد يؤمر الصانع بأنجاز عمله فينجزه على أحسن الوجوه • أما المفكر فلا يؤمر بأنجاز تفكيره

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولا يتلقاه من ألسنة المسيطرين عليه ، وحتى الصناعات لا يتأتى فيها التجويد المبتكر والاختراع الجديد بغير حرية واستقلال بالمشيئة ، ولذا كانت الاختراعات فى عصر الديمقراطية أوفر وأنفع من اختراعات الامم فى جميع العصور

وهيامى بالديمقراطية لا ينسينى عيوبها ومآخذها . فلا أحسب أن أحدا من أنصار الاستبداد يعرف من تلك العيوب والمآخذ فوق ما أعلم ، وما لم أعلمه بالقراءة والسماع قد علمته بالمشاهدة والاختبار فى حياتى النيابية وفى حياتى الصحفية وفى علاقاتى الطويلة بالاحزاب والحكام

فأنا لا أحب الديمقراطية حب اليافع فتاته التى يحسبها مثال الجمال والكمال ويجهل عيوبها ثم يصر على جهلها ويأبى ان ينبهه أحد اليها . ولكننى أحبها حب الرجل زوجة طالت عشرته لها وطال علمه بمحاسنها ومساوئها ودلائل قوتها واعراض مرضها ، وهى - أى الديمقراطية - بعد هذا أحب الى من كل مذهب يبشر به فلاسفة الحكم وأئمة الاصلاح

فلا ريب فى أن الحرية ثوب واسع على بعض الامم ، وان بعض الامم لا يستحق نعمة الديمقراطية

ولكن لا ريب كذلك فى أن السلطان المطلق ثوب واسع على كل فرد كائنا من كان وهذه المشكلة هى التى تنتهى بنا الى تفضيل الديمقراطية بحذافيرها على الاستبداد بحذافيره

هذه الامة لا تستحق الحرية !

نعم قد أكون معك فى ذلك ، ولكن أين هو الفرد الذى يستحق أن يلغى حرية عشرين مليونا أو أربعين أو خمسين ؟

وهذا العمل العظيم لا يتم اذا توزعت الارادات .

نعم قد يصح ما تقول ، ولكن من لك بالارادة التى تنفرد ولا تتوزع ثم تقف عند حدها ولا تفسد ما أصلحته بيديها ؟ ومن لك اذا وجدتها مصادفة واتفاقا فى بعض الفترات أن تخلفها بنظيرها ولا تسلم الحكم بعدها الى نقيضها ؟

عشرون مليونا لا يستحقون حريتهم وفرد واحد يستحق أن يجمع فى يديه حرية عشرين مليونا ! .. كيف يتفق هذا ؟ واذا اتفق مرة فكيف يتفق اطراده وتكراره على التعاقب فى جميع المرات

ومن رأيى ان الامم فى جهالتها أو فى استنارتها لم تعرف حكما غير الحكم الديمقراطى وان تزيا فى ظاهره بزى الاستبداد ، وانما يأتى المستبدون بديمقراطية مزيفة أو بديمقراطية من الطراز الوضيع يشتبه فيها الرضى المختار بالرضى المخدوع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أليست الديمقراطية هى الحكم برضى المحكومين ؟ فأين هو الاستبداد الذى استغنى عن ارضاء محكوميه بالكذب والخداع ان عز عليه ارضاؤهم بالصدق والصراحة ؟

ففى العصور القديمة كانت الشعوب تطيع الحاكم الظالم لاعتقادها انه مسلط عليها بأذن الله وان عصيانه عصيان لامر الله ، وهذا هو الحكم بالرضى المخدوع .. فهو حكم ديمقراطى مزيف يدلنا على فضيلة الحكم الديمقراطى الصحيح، وانه حكم لايستقيم على غير أساسه بناء حكومة من الحكومات

وكلما ذكر الذاكرون لى عيوب الديمقراطية جاريتهم فيها جدلا أو اعتقادا وانتقلت بهم الى عيوب الاستبداد ، ثم سألتهم : أين تذهب العيوب التى تحول بين الشعوب والانتفاع بالحكم الديمقراطى اذا هى خضعت لمشيئة المستبدين ؟ اين يذهب الجبن والاثرة والرشوة والاستغلال وتقديم الصغائر على الكبائر وضعف التميز بين المصلحين والمفسدين ؟ كل هذه العيوب لا تزول ولا تنصلح بل تبقى ضارة فى عهد الاستبداد أشد من اضرارها فى عهود الحرية . الا فلتات تعرض شذوذا نادرا ولا يصح القياس عليها بحال

فالحرية فى أقبح اوصافها خير من الاستبداد فى أقبح أوصافه ، أما الحرية فى صورتها الحسنى فلا شك فى تفضيلها على الاستبداد فى احسن صوره ، لما فيها من النفع وما فيها من الكرامة وما ثبت من تجاربها فى الامم الحرة كلما امكن دوام الحرية وامكنت سلامتها من النكسات

وقد شبع العالم من عيوب الحكم المطلق الوفا بعد الوف من السنين

فان لم يكن فى الامر الا انه انصاف ومساواة فلنعط الحرية مثل ما اعطينا الحكم المطلق من زمن طويل ومن فرص واسعة ، وهى لما تستوف بعد عشر معشار آجال الاستبداد فى عصور الظلمة وعصور النور ؟

لماذا أنا ديمقراطى ؟ لاننى لست بالمذل ولست بالذليل ولست بالمؤمن بصلاح الاستبداد فى جميع الاحوال ، وهذه هى الاسباب التى تبغض الى الاستبداد حيث كان وتحبب الى الديمقراطية حيث كانت ، ولو كانت بين اناس لا يستحقونها احسن استحقاق

عباس محمود العقاد

انجلترا معقل الديمقراطية ، وزعيمة دولها ، وملجأ المضطهدين من زعماء الديمقراطية فى البلاد الأخرى ـ ذلك ما تناوله فى هذا المقال النفيس سعادة أمين عثمان باشا ، وقد تحدث فيه عن أهم النواحى التى تمتاز بها ديمقراطية الانجليز

انجلترا معقل الديمقراطية

بقلم سعادة امين عثمان باشا

انجلترا اليوم هى معقل الديموقراطية وزعيمة دولها على الرغم من وجود الطبقات الثلاث التى يتألف منها الشعب البريطانى ، العليا ، والمتوسطة ، والفقيرة . واعتراف كل طبقة منها بمكانة الطبقتين الاخريين والتسليم بحقوقها ، فى احترام وتقدير

فالطبقة العليا فى انجلترا لا تغمط الطبقة الفقيرة ولا تبخسها حقها من التقدير ، لانها تعتقد اعتقادا راسخا أن أفراد هذه الطبقة العاملة المجدة هم العنصر الرئيسى الذى يتكون منه مجموع الشعب البريطانى ، وأنه لا قيمة لافراد بقية الطبقات الا اذا تعاونوا معهم وقدروهم حق قدرهم .. ولعلهم يفعلون ذلك تحت تأثير تلك القصة التاريخية التى تتناقلها الاجيال عن ملك فرنسا « القديس لويس » ـ وهو الذى قدم الى مصر وعسكر بجيوشه فى المنصورة ـ وماجرى له مع طائفة النبلاء فى عهده ، مما كان له أبلغ الأثر فى اعتراف الطبقة العليا بالطبقة الثالثة ، طبقة الفقراء والفلاحين ، اذ لاحظ ذات يوم ان أحد النبلاء الفرنسيين يمعن فى تحقير أحد هؤلاء الفلاحين ، فدعاه مع نفر من زملائه النبلاء الى وليمة فاخرة قدم لهم فيها أشهى ألوان الطعام والشراب ، ولكنه تعمد ألا يقدم لهم شيئا من « الخبز » فكانت مفارقة حملت أحدهم على ان يجترىء على سؤال الملك عن سبب خلو المائدة من الخبز ، فأجابه الملك يومئذ اجابته التاريخية ذات المغزى العظيم : « كما أنكم لم تشعروا بلذة هذا الطعام الشهى الفاخر بغير خبز ، كذلك لا قيمة لنا جميعا بغير الفلاحين » !

***

والديموقراطية متأصلة فى الشعب البريطانى من قديم الزمن ، وهو يدين بها عن عقيدة وايمان ويفهمها على معناها الصحيح ، لا كما يفهمها بعض الشعوب الاخرى التى تدين بالشيوعية أو الاشتراكية مثلا ، أو كما يفهمها الشعب الفرنسى نفسه ، وهو الذى يتخذ الحرية والمساواة والاخاء شعارا له ، ولكن بالاسم فقط ، بينما تقوم الديموقراطية فى بريطانيا على أساسين رئيسيين ، أولهما « قوة القانون والعدالة » وثانيهما « صيانة حقوق الفرد » بأوسع معانى الصيانة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فالكل فى بريطانيا سواء أمام القانون •• ومع أن هذا المبدأ مقرر فى معظم بلاد العالم كقضية مسلم بها ، الا أنه يتجلى فى بريطانيا أكثر منه فى أى بلد آخر ، حتى لتراه يسرى فى دم كل بريطانى ، حاكما كان أو محكوما على السواء •• أما صيانة حقوق الفرد فان الشعب البريطانى يرى فيها محققا للمساواة الفعلية بين الجميع ، فينال كل فرد حقه فى حدود طبقته ، وتنال كل طبقة كذلك حقوقها كاملة ، فلا يجوز لبريطانى أن يعتدى على حقوق مواطن له ، ولا يجوز أيضا لطبقة ان تعتدى على حقوق طبقة أخرى بحال من الاحوال •••

***

ولم يكتسب الشعب البريطانى هذه الروح الديموقراطية المتأصلة فى نفسه عفوا ، وانما اكتسبها تدريجيا ، وبعد دروس وتجارب دفع ثمنها غاليا •• ولا أشك فى أن الثورة الامريكية وما أسفرت عنه كانت احدى هذه التجارب وتلك الدروس ، فخرج الشعب منها بعقيدة ما لبثت ان رسخت فى ذهنه ، وهى ان « الديموقراطية » هى التى يجب أن تسود ••

وكان من نتائج هذا التطور فى علاقات طبقات الشعب بعضها ببعض ، وعلاقات الشعب نفسه بالحكومة ، تلك الخطة الحكيمة التى نهجتها الحكومة البريطانية بعد انتصارها فى « حرب البوير » فمنحتهم الحرية والاستقلال من تلقاء نفسها مما لم يسبق له مثيل فى تاريخ الحروب والثورات ، برغم أنها فقدت فى محاربتهم كثيرا من الضحايا والأموال ، ثم انتصرت عليهم بقوة السلاح ••

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

***

اذا قارنا هذا المثل التاريخى الحى بما لايزال يقع فى مختلف أنحاء العالم وجدنا الفرق شاسعا •• وهذه هى « الجزائر » مثلا ما تزال ترسخ تحت نير الاستعمار الفرنسى بأوسع معانى الاستعمار حتى اليوم ، فى حين قد منحت بريطانيا « البوير » وبقية سكان جنوب أفريقيا كافة حقوقهم كمواطنين بريطانيين ، مع ان معظمهم ليسوا من أصل بريطانى ، بل هم فى الواقع يرجعون الى أصل هولندى أو جرمانى • ولكن الروح الديموقراطية هى التى أوحت بهذه السياسة الحكيمة فكان لها أكبر الاثر فى تعلق الانجليز بالديموقراطية حكومة وشعبا ، وبذلك استطاعوا ان يعالجوا فى ضوئها مشكلة « الامبراطورية » وان يكونوا هذا الاتحاد القوى الذى يضم ممتلكاتها المستقلة التى نرى ابناءها يقفون الى جانب الجيوش الانجليزية فى حروب الامبراطورية عن عقيدة وايمان ، ورغبة صادقة فى الدفاع عن أمهم « بريطانيا » معقل الديموقراطية

***

وفى انجلترا تقوم العلاقات بين الآباء والابناء على أساس الصداقة قبل كل شىء ، فترى

الاب يرشد ابنه ويسدى له النصح ، فى الوقت الذى يحتفظ فيه الابن لوالده بكل حقوق الابوة بغير انتقاص

وفى الجامعات والكليات تسود الروح الديموقراطية العلاقات مابين الاساتذة والطلاب، وخصوصا فى المحيط الجامعى • ولكن للاستاذ حقوقا كما أن للطالب حقوقا، مهما ارتفعت الكلفة من بينهما لا يفكر أحدهما فى الاعتداء على حقوق الآخر•• ومن هنا نرى الطلاب يحتفظون لاساتذتهم فى أوقات الدرس بحقوق الآباء على أبنائهم ، فى حين يعتبر الاساتذة تلامذتهم أصدقاء لهم فى أوقات الفراغ •••

***

وانجلترا معروفة من قديم الزمن بأنها معقل الديموقراطية الذى تلجأ اليه الطوائف المضطهدة من الشعوب الاخرى • مثال ذلك ما فعلته مع البروتستانت أيام اضطهادهم فى عهد لويس الرابع عشر ، فما لبثت ان فتحت لهم أبوابها • وكذلك كان حالها مع النبلاء الفرنسيين الذى لجأوا اليها أيام الثورة الفرنسية ، فآوتهم لا كنبلاء ، وانما كأفراد عاديين ، وعملت على أن تحميهم من اضطهاد بقية طبقات الشعب الفرنسى الثائر، وبخاصة الرعاع

وها هى حالها فى الحرب الحاضرة •• ألا تراها قد فتحت أبوابها للطوائف الحرة من شعوب مختلف البلاد التى اجتاحتها النازية فاتخذوا لانفسهم منها وطنا ثانيا الى أن تعود لبلادهم حريتها وتسترد استقلالها

وما أظن انجلترا قد فتحت أبوابها لهذه الطوائف بحكم موقفها من النازية واشتباكها معها فى الحرب ، وانما أعتقد انها فعلت ما فعلت بتأثير الروح الديموقراطية ، وبدافع من رغبة أهلها الصادقة فى ايواء كل مضطهد ورفع الظلم عن كل مظلوم

***

وخلاصة القول أن انجلترا هى اليوم معقل الديموقراطية وزعيمة دولها بلا مراء • ولو اننا قارنا الديموقراطية الانجليزية بالديموقراطية الفرنسية أو بغيرها لوضح الفرق لكل ذى عينين • وما هى حديقة «هايد بارك» ما تزال كما كانت دائما المنبر الذى تسمع من فوقه مختلف الآراء مهما تكن مخالفة لروح الحكم دون ان يجد خطباؤها من يحد من حريتهم أو يعمل على تقييدها ، وهذه هى الديموقراطية الحقة

أمين عثمان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الاســلام والديمقــراطية

بقلم الاستاذ محمد فريد وجدى

الامر الفذ فى الانقلابات التى توالت على المسلمين فى حياتهم الديمقراطية هو ان كل مساس بها لدى الامم صحبه تحوير فى دستورها ، الا الديمقراطية فى الاسلام

للاسلام ناحيتان ، احداهما دينية والاخرى دنيوية ، تماشيا مع الجبلة البشرية ، وتحقيقا للتوفيق بين عنصريها الروحى والمادى . وهو فى كلتا الناحيتين قام على نهايات الاطوار الديموقراطية للفلسفة والاجتماع معا

قلت الديموقراطية لان للدين ديموقراطية ، وهى التحرر من سلطان الزعماء الدينيين، والاعتقاد بأن النفوس لا تتفاضل بالجاه الدنيوى ، والتبسط المادى ، ولكنها تتفاضل بالتكمل الخلقى ، والتطور الادبى

فمن الناحية الروحية قرر الاسلام المسئولية الشخصية للفرد ، وعلق نجاته على رقيه الذاتى ، ومذخوره الادبى ، وتطوره العقلى ، لا على تبعيته لمتأله خطير ، ولا لذى صلة بالعالم العلوى كبير ، ورمز هذا الاصل الاصيل فى الاسلام ، قول النبى صلى الله عليه وسلم لابنته : « اعملى يا فاطمة فانى لا أغنى عنك من الله شيئا » . فهذه ديمقراطية دينية لا يزال الذين لا يفهمونها من المسلمين أنفسهم يحاولون التخلص من تكاليفها ، ميلا منهم الى التواكل ، ولكنها فى الاسلام متجلية تجليا لا يمكن تأويله ، وستكون من كبريات آياته يوم تصل الثقافة عند المسلمين الى الحد الذى وصلت اليه عند الغربيين

ومن الناحية الاجتماعية يعلن الاسلام المساواة المطلقة فيخاطب كتابه الناس كافة ، لا آحادا معينين ، ولا جماعة ممتازين ، يقول : « يا ايها الناس » و « يا أيها المؤمنون » ولم يوجه القول مرة واحدة لامة واحدة ، ولا لطائفة معينة ، ويضع الشورى أساسا للحكم قولا وعملا ، فوصف اتباعه الصالحين بقوله : « وأمرهم شورى بينهم » وقال لرسوله : « وشاورهم فى الامر » ، ففعل فيما لم ينزل فيه أمر الهى من طريق الوحى ، وأمضى رأى الكثرة ولو خالف رأيه

وقد ورد ذكر المساواة ، وهو ركن الديموقراطية الركين ، فى القرآن نفسه ، قال

تعالى : « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم ، ان الله عليم خبير » • فسوى هذا الاصل بين الناس كافة ، بل عمم هذا المبدأ على الجماعات البشرية ايضا ، فمحا به ما بين الناس من فروق فى القوميات والاصول واللغات والالوان ، ورفع التفاضل بينهم كذلك كله ، وحصره فى المواهب النفسية والادبية ، وفى الفضائل الخلقية والعقلية • وشرح النبى صلى الله عليه وسلم هذا الاصل الجلل فقال : « لقد اذهب الله عنكم رجس الجاهلية وتفاخرها بالآباء ، لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لابيض على أسود ، الا بتقوى الله أو بعمل صالح »

وجرى رسول الله نفسه على هذا المبدأ ، فكان يسوى بين الغنى والفقير ، والسيد والمسود ، فى المعاملة وفى اسناد المناصب العامة • فقد عهد الى بلال ولاية المدينة ، وكان أصله عبدا زنجيا ، نائبا عنه أثناء غيابه فى غزوة ، يؤم أهلها فى الصلاة ، ويحكم فى منازعاتهم ، وفى المدينة اذ ذاك سادات العرب ، وذوو الانساب الرفيعة منهم

وولى اسامة بن زيد قيادة جيش فيه ابو بكر وعمر وكبار الرجال ، وهو واحد من الموالى الذين كان العرب يعاملونهم معاملتهم للبهائم • واتفق ان توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ان يزحف هذا الجيش على العدو ، وانتخبت الامة ابا بكر أميرا للمؤمنين ، فاستأذن أسامةفى التخلف للاضطلاع بمهام منصبه الخطير،فأذن له وخرج يشيعه ماشياعلى قدميه وهو راكب • فقال له اسامة : يا امير المؤمنين اما ان تركب واما ان أنزل • فقال امير المؤمنين : لا هذا ولا ذاك ، أنكره أن اعفر قدمى ساعة فى سبيل الله ؟

اتباع المسلمين لسنة رسولهم فى القيام على الديمقراطية

لما انتقل صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الاعلى ولم يعين من يخلفه ، جريا على مبدأ سلطان الامة ، عمد أصحابه الى الرجوع لرأى الجماعة ، فاجتمع الناس وتبادلوا النظر فيمن يصلح لتولى شئون الامة ، فاختلفوا ثم اتفقوا على اسناد الامارة لابى بكر ، فجرى فيها على السنة النبوية

ولما حضرته الوفاة سأل الناس : هل يوكلونه عنهم لينتخب لهم من يخلفه ، أم يدعهم أحرارا يختارون من يشاءون من المسلمين ؟ فرأوا أن يوكلوه ليختار لهم،فوصاهم بمبايعة عمر بن الخطاب ، والمبايعة أجلى مظهر لسلطان الامة ، لانها فى الواقع اذن فى تولى الحكم، وهذا كله لا يمكن ان يكون الا فى ظلال الديمقراطية

ولما ادرك عمر انه لا محالة ميت من تأثير ضربة بخنجر اصابه بها رجل من المجوس ، طلب اليه الناس أن يسند الخلافة لابنه عبد الله ، وهو من هو علما وفضلا وأدبا ، فأبى واستقدمه وأوصاه بأن لا يقبلها لو عرضت عليه بعد موته • فطلبوا الى عمر أن يختار لهم رجلا يرضاه كما فعل سلفه ، فلم يقبل وقال لهم : ان كان ولا بد فاختاروا واحدا من ستة رجال توفى رسول الله وهو عنهم راض

فلما توفى عمر جمع الناس من عناهم فى دار ، وكلفوهم ان ينتخبوا واحدا منهم فاختلفوا ، فاقترح احدهم أن يتنازل عن حقه فى الخلافة على شريطة ان يقبلوا من يشير به • فقبلوا شرطه • فتركهم وخرج يسأل الناس خاصتهم وعامتهم عمن يصلح للحكم بعد عمر ، فآنس منهم اجماعا على اختيار عثمان بن عفان ، فاختاره

هذا مظهر من الديموقراطيـة ان لم يوف بشروطها شكليا فانه من طبيعتها موضوعيا ، وقد قضى به قصور الاداة الدستورية ولم تكن قد كملت فى أى بلد من بلاد العالم

مما يدل على رسوخ مبدأ الديمقراطية فى المجتمع الاسلامى أن أمير المؤمنين عمر لما ضرب وعجز عن أن يؤم الناس فى الصلاة ، أمر أن يقوم مقامه فى الصـلاة صهيب ، وصهيب هذا كان من الموالى ، أى انه كان رقيقا وأعتق ، وهو رومى الاصل ، فلم ينظر عمر الى حالته السابقة ولا الى أنه كان أجنبيا عن العرب ، وقدمه فى الصلاة بالناس على من كانوا سادة قريش وأقطاب أهل المدينة قبل الاسلام

ولما عرض عليه أن يختار لهم من يخلفه سمى رجالا وقال لو كان واحد منهـم حيـا لعهدت اليه الخلافة،وكان منهم سالم مولى أبى حذيفة ، وهو من الموالى الذين كان لايقيم لهم العرب وزنا • وهذه ديمقراطية لم تصل اليها الامم العريقة فيها بعد

وحدث فى عهد خلافة الفاروق ان ابن عمرو بن العاص والى مصر ضرب رجلا وهو يقول انا ابن الاكرمين • فلما كان موسم الحج سافر الرجـل الى المدينـة ورفع أمره الى أمير المؤمنين • وكان عمرو بن العاص وابنه حاضرين • فلما ثبتت التهمة على الجانى أمر الخليفة الرجل ان يضرب خصمه كما ضربه ، ففعل • عند ذاك التفت عمر الى الجانى وقال له : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟!

وعن الحسن البصرى تاج المحدثين أنه حضر باب عمر سهيل بن عمرو بن الحارث وابو سفيان بن حرب فى نفر من قريش من تلك الرؤوس ، وصهيب وبلال مـن تلك الموالى الذين شهدوا بدرا • فخرج اذن عمر بدخول هؤلاء الموالى • فقال ابو سفيان لم أر كاليوم قط ، يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا لا يلتفت الينا ؟

فقال سهيل بن عمرو : أيها القوم انى والله أرى الذى فى وجوهكم ، ان كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم ، دعى القوم ودعيتم ، فأسرعوا وابطأتم ، فكيف بكم اذا دعوا يوم القيامة وتركتم ؟

وقد شرح الفاروق مبدأ الديمقراطية أحسن شرح وعلله تعليلا فلسفيا ، فقد روى انه قال لسعد بن أبى وقاص وهو يعهد اليه قيادة الجيش الذى بعث به لحرب الفرس :

« يا سعد ، سعد بنى وهيب ، لا يغرنك من الله ان قيل خال رسول الله ، وصاحب رسول الله ، فان الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ، ولـكنه يمحو السيء بالحسن ، فان الله ليس بينه وبين أحد نسب الا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة » • • العافيـة الصحـة

الكاملة والمراد بها هنا صحة الدين وخلوصه من الشوائب

وخلف عثمان بن عفان عمر كما رأيت ، ثم خلفه على بن أبى طالب على السمت الديموقراطى . واتفق أن هبت ثورة فى تلك الاثناء قتل فيها عثمان ، فاتهم معاوية ابن أبى سفيان، وكان واليا على الشام، عليا بالتأليب عليه ، وحمل من معه على رأيه ، وقاتل بهم الخليفة الجديد . ثم تراضيا على التحكيم ، والتحكيم وسيلة من الوسائل الدستورية ، وكان ما تراضى عليه الطرفان ان يخلع كل من المحكمين صاحبه ويترك الامر للامة لتختار لنفسها من شاءت . وهذا القرار من لباب الديموقراطية ، وهو اعتراف صريح بسلطان الامة . ولكن قبل البت فى هذا القرار حدثت محاولة من مندوب معاوية قصد بها التملص منه ، ففشل مجلس التحكيم فى مهمته ، وانصرف المحكمان كل منهما الى معسكره

ماذا حدث بعد ذلك ؟

حدث ان ثلاثة من المتحمسين هالهم سفك دماء المسلمين بين رجلين يتنازعان الخلافة ، فخيل اليهم أن من المصلحة التخلص منهما ، فقرروا اغتيالهما ، هما وثالثا معهما اتهموه بايقاد نار الشر بينهما، فنجح غريم على بن أبى طالب ، وخاب الآخران . فانتخب الناس الحسن بن على للخلافة، ولكن الحسن رأى حقنا للدماء ان يتنازل لمعاوية عن امارة المؤمنين على أن يكون وليا لعهده . واتفق ان مات الحسن ، فرأى معاوية ان الفرصة قد سنحت لان يأخذ البيعة لابنه يزيد، وان يقلب الحكم وراثيا فى عقبه ، وهى شهوة لم تجش فى صدر أحد من الخلفاء قبله محافظة على الاصل الاسلامى الصريح فى وجوب احترام سلطان الامة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هنا يجب أن ننبه ان الملكية الوراثية الدستورية لا تنافى الديموقراطية ان كانت الامة نفسها هى التى قررتها حسما لمادة الفتن عند موت كل قائم بالامر . وهذه انجلترا زعيمة الديموقراطية فى العالم وحكومتها ملكية وراثية

ومما زاد الامر صعوبة ان يزيد بن معاوية كان مترفا خليعا لا يصلح للولاية ، فزاد ذلك فى شذوذ عمل معاوية ، وكان مضيه فيه مصارحة لا تقبل التأويل بأنه يريد تحطيم الاصل الاسلامى المقرر لولاية الحكم ، وهو أن السلطان للامة

استخدم معاوية كل وسيلة لاخذ البيعة لابنه يزيد ، بالوعد والوعيد والرشوة ، فأجابه الكثيرون على مضض ، وامتنع القليلون ، فاكتفى معاوية بما تم له . فلما مات وتولى ابنه مؤيدا من أنصار أبيه بالشام ، أبى أهل المدينة مبايعته ، وكان بها عدد كبير من الصحابة لا يزالون أحياء . وبايع أهل مصر والعراق ومكة عبد الله بن الزبير . فوجه يزيد الى أهل المدينة بجيش نكل بهم تنكيلا ، وخاب الجيش الذى وجهه لابن الزبير بمكة ، فأمهله ريثما يتهيأ له الايقاع به . وكان أجله قصيرا فمات قبل أن يتم كل ما كان يطوف برأسه من الخيالات الاستبدادية . ولكن مبدأ سلطان الامة كان قد أصيب بضربة قاصمة

فتحطم ، وتحطمت الديموقراطية على أثره . وكان من آثار هذه الضربة استبداد أسرة أمية التى كان ينتمى اليها معاوية بالامر ، فبقى رجالها محتكرين للخلافة مئة واثنتين وثلاثين سنة . وتلتها أسرة العباسيين فسارت على أثرها فى تجاهل الديموقراطية الاسلامية،وانشقت عنها خلافة لبنى أمية فى الاندلس ، وأخرى فاطمية بمصر والمغرب. ثم تلتها جميعا الاسرة العثمانية . ولما تحرر الترك من ربقة هذه الاسرة ألقوا بأنفسهم بين أحضان الديموقراطية ، وأعلنوا انهم سيكونون من حماتها فى العالم كله

الامر الفذ فى هذه الانقلابات التى توالت على المسلمين فى حياتهم الديمقراطية هو أن كل مساس بها لدى الامم صحبه تحوير فى دستورها ، الا الديمقراطية فى الاسلام فلم يصحب العدوان عليها تحوير فى دستور الامة، لان دستورها القرآن نفسه،والقرآن لا يقبل التحوير ولا التبديل ، والمسلمون يدينون لكل مبدأ فيه دينونة لا تقبل التأويل ، فهم بهذا الاعتبار أعرق الامم فى الديموقراطية.فان كانوا قد قصروا فى حمايتها عملا ، فانهم يحنون اليها فى كل دور من أدوار حياتهم الاجتماعية ، ويعملون على القيام عليها بكل ما تيسر لهم من الوسائل ، حتى سمحت الظروف بقيام دولتها لديهم فقابلوها هنا وفى جميع البلاد الاسلامية بأبلغ مظاهر الارتياح قائلين : « هذه بضاعتنا ردت الينا »

محمد فريد وجدى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحرية : للمرحوم اسماعيل صبرى باشا

أحب التوحيد فى ثلاثة :

١ ـ الله ٢ ـ المبدأ ٣ ـ المرأة

وأحب الحرية فى ثلاثة :

١ ـ حرية المرأة فى ظل زوجها

٢ ـ وحرية الرجل تحت راية الوطن

٣ ـ وحرية الوطن فى ظل الله

الديمقراطية بين الشعوب

بقلم الاستاذ الدكتور محمد عوض محمد

وكيل كلية الآداب بجامعة فؤاد الاول

ان الشعب الذى يرضى حكما قوامه البطش والقهر ، والقضاء على حرية الرأى وتعذيب افراده فى السجون . وتجنيد ابنائه وحشدهم فى حروب دموية ، لا يمكن ان يكون ارقى الشعوب

كثيراً ما يصف الناس شخصاً بأنه «ديمقراطى» إذا كان كثير التحدث إلى الفقراء والضعفاء شديد العطف عليهم ، ولا يأنف من مجالستهم ومصاحبتهم . وليس من الضرورى أن يكون المحسن إلى الفقراء ، الذى يجزل لهم العطاء والهبات ديمقراطياً . بل قد يرسل بأمواله إلى الجمعيات الخيرية وهو فى قصره الفخم ، ووسط حدائقه الغناء ، لا يخالط من الناس الا من كانوا من بيئته وعشيرته . ومثل هذا الشخص بعيد كل البعد عن الديمقراطية الصحيحة

ويشبهه فى هذا رجل العلم ، المنزوى فى مكتبته ، أو فى معمله ، يعيش فى برج من الفولاذ ، يدرس ويبحث ، ولكنه لا يخالط الجهال ، بل ينفر منهم ، ويأنف من مجالستهم

كذلك يتحدث الناس عن الديمقراطية بأنها هى النظام « البرلمانى » . ومع هذا فمن الجائز أن يكون الحكم النيابى تنقصه الديمقراطية الصحيحة ، فيكون التشريع الصادر عن تلك البرلمانات حريصاً على المصالح المادية لطبقة خاصة ، وتتعطل فيها القوانين التى يراد بها إنصاف الفقير من الغنى ، أو الضعيف من القوى . ولدينا ويالالأسف أمثلة لهذا فى برلماننا المصرى . وليس تعطيل قانون ضريبة الميراث فى مجلس شيوخنا سوى مثال لما قد حدث أو يحدث فى أى قطر خاضع لهذا الطراز الخاص من النظام الديمقراطى

بديهى اذن أن الديمقراطية لفظ ليس من السهل تحديد معناه ، وربما كان الأوفق أن ننظر الى الديمقراطية بأنها « روح » تسود مجتمعاً أو قطراً من الأقطار ، ومن أخص مظاهرها انتشار العطف بين جميع أفراد ذلك المجتمع . واذا كان محو الأنانية وحب الذات محواً تاماً ليس بالأمر الذى يسهل تحقيقه ، فان الروح الديمقراطية الصحيحة متى انتشرت ، عملت على انقاص الأنانية وحب الذات الى أدنى حد ممكن . فيعيش الفرد للمجتمع ، ولخدمته ، وتندمج المصالح الخاصة فى المصلحة العامة

هنالك لا يبقى مجال لأن يستبد فرد بفرد ، أو طبقة من الناس بطبقة أخرى ، أو أن يزهى صاحب العلم أو المال أو الجاه ، على الذين حرموا العلم والمال والجاه

والديمقراطية الصحيحة بعيدة كل البعد عن البطش والعنف ، بل تعالج الأمور بالرفق واللين ، وفى النظام الديمقراطى الصحيح لا تستبد الأكثرية بالأقلية ، بل تبذل جهدها فى ملاطفتها وملاينتها والتودد اليها حتى تستميلها وتسترضيها . واذا انتصرت الأكثرية بعد ذلك فى رأى أو عمل ، فان هذا النصر لا يترك فى نفوس الأقليات حزازة أو ألماً

وسيقول قائل إن هذا القول انما ينصرف الى الاشتراكية أو الشيوعية . والرد على هذا أن النظام الديمقراطى قد يؤدى الى شىء من الاشتراكية ، ولكن هذا اذا حدث ، فانه يحدث من غير اكراه أو عنف ، بل عن رضى واقتناع . ولقد رأينا نظماً اشتراكية وشيوعية يسودها البطش والأنانية والاستبداد والظلم . فهى بعيدة كل البعد عن الروح الديمقراطية

* * *

بهذه المقدمة التي لم يكن بد منها ــ رغم قصورها ــ قد مُهد القول لأن نتساءل : أليس من الممكن ــ وقد فهمنا كيف تسود الروح الديمقراطية المجتمع أو القطر من الأقطار ــ أن يتسع ميدانها فيتناول العالم كله شعوباً وأمماً ، باعتبارها وحدات فى مجتمع كبير يمثل النوع البشرى كله ، برغم ما بينها من الفروق الهائلة ، فى الصور والاشكال ، والثقافة والحضارة ، والقوة والضعف ، وبرغم تعدد الألسنة واللهجات ، والنظم والعادات ، والعقائد والديانات ؟

ان جميع الأمم والشعوب قد تألف كل منها من قبائل ووحدات صغيرة ، كانت من قبل متعادية متنافرة . ثم اندمجت واتحدت ، وزال ما بينها من العداوة والبغضاء . فهل من الممكن أن نتصور عهداً تصبح فيه شعوب العالم ، يسودها روح العطف والمودة ، ويزول ما بينها من العداوة والتناحر ، والتنافر والتفاخر؟

لقد ظهرت فى تاريخ النوع البشرى نزعات ترمى الى التفريق بين الجماعات ، بحيث تعتز كل جماعة بنفسها ، وترى فى نفسها فضلا على غيرها . وكانت هذه النزعات ترجع فى الغالب الى العزلة ، وقلة الاتصال بين الناس . والمثل المعروف « من جهل شيئاً عاداه » يصور هذه النزعات أحسن تصوير

ومن هذا الطراز النظريات التى ظهرت فى جميع العصور ، ونادى أصحابها بفضل قوم على قوم ، أو طبقة من الناس على طبقة أخرى ، أو جنس خاص على سائر الاجناس ، وليس هنالك بأس كبير فى أن يوجد رأى كهذا الرأى ، لولا ما يستتبعه من أن للشعب المفضل حق البطش والسيادة على الجماعات التى يراها دونه

* * *

كانت الشعوب القديمة التى ضربت فى الحضارة بسهم ، تقسم سكان الارض قسمين : الاول الشعب الذى ينتمون اليه . والقسم الآخر سائر شعوب العالم . وكان اليونان يتحدثون عن أنفسهم ، ويطلقون على سائر الشعوب اسم « البرابرة » . وهى كلمة مشتقة من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أصوات اللغات التي لم يفهموها . وانتقلت هذه الكلمة بعد ذلك الى اللغة اللاتينية ، فكان الرومان يطلقون على جميع الشعوب الذين لا يتكلمون لغتهم أو اللغة اليونانية اسم البرابرة . ونظراً لان هذه الشعوب ـ ومنها بالطبع سكان المانيا وبريطانيا واسكندناوة فى الوقت الحاضر ـ كانت دون شعوب روما حضارة ، فقد أصبحت الكلمة بمعنى التحقير والازدراء ، ومن العجيب أن بلاد الصين كانت الى منتصف القرن الماضى فى عزلة عن العالم ، ولم يصل اليها النفوذ الاجنبى . فكان سكانها وحكامها ، يصفون الشعوب غير الصينية بأنها شعوب بربرية ـ والكلمة الصينية التى تؤدى هذه الفكرة معناها الاشخاص الذين يجلسون القرفصاء على الارض ، ومن المعقول أن الصينيين ، فى عزلتهم وحضارتهم ، يجهلون أن ليس فى العالم شعب ذو حضارة تضارع حضارتهم

كذلك كانت العرب تقسم سكان الارض الى عرب وعجم ، ويدخل فى العجم جميع الفرس والروم والترك والديلم ، وجميع الشعوب غير العربية . ولم يكن العرب يميزون أنفسهم على العجم فى الحضارة والمدنية . بل فى الفصاحة والابانة عن القصد عند الكلام ، فاذا أفصحت عما تريده فقد أعربت ، والا فقد أعجمت

وبالطبع كان العربى يرى نفسه أفضل الشعوب كما كان اليونانى والرومانى والصينى يرى قومه أفضل الاقوام وأرقاهم : تلك هى دعوى الجاهلية التى حاربها النبى العربى ، وأصحابه ، الذين بذلوا جهوداً عنيفة فى الدعوة الى المساواة بين القبائل والشعوب

وبالرغم من نشأة علم الانسان (الانثروبولوجيا) والمحاولات الكثيرة التى تبذل لاقامته على أسس علمية خالصة ، فان دعوى الجاهلية هذه قد تدخلت فى علم الانسان ، ونادت بفضل جنس على جنس وسلالة على سلالة

وربما كان أكبر وأعنف مظهر لهذه الدعوي فى العصر الحديث ، الزعم الذى يسود السياسة الالمانية بتفوق جنس أطلقوا عليه اسم الجنس الآرى . وقد ظهرت هذه النزعة فى القرن الماضى على أيدى رجلين أحدهما جوبناو الفرنسى وهوستن تشمبرلين الانجليزى . وخلاصة دعوى هذين الرجلين ان الجنس القوقازى أفضل الاجناس جميعاً ، وان هنالك سلالة قوقازية وهى التى تدعى الجنس التيوتونى أو الآرى ، هى أرقى السلالات والاجناس جميعاً

ولم يلبث كثير من غلاة الكتاب فى المانيا أن تشبثوا بهذه الدعوى ، وأخذوا يعملون ما فى وسعهم لاذاعتها ونشرها ، وترديدها فى كل وقت وفى كل مناسبة . حتى أصبحت المؤلفات التى تتناول هذه الدعوى بالشرح والتفسير ، أو بالنقد والتجريح ، توشك أن تؤلف مكتبة عظيمة

وقد ذهب الغلاة من المتشيعين لهذه الدعوى الى ان كل حضارة ظهرت فى العالم ، وكل تقدم للشعوب البشرية ، انما تم على أيدى جماعات تنتمى الى السلالة التيوتونية . ولم يكن بد من تحريف حوادث التاريخ ، والتجرؤ على كثير من الحقائق البسيطة المسلم بها ، لكى يغدو من الممكن

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الادلاء بأدلة أو بما يشبه الأدلة على صحة هـذه المزاعم

* * *

على انه ـ بالرغم مما اشتملت عليه هـذه الآراء من التطرف والغلو والتشويه للحقائق ـ ليس هنالك بأس كبير فى أن يظن شعب انه أسمى الشعوب وأرقاها ، فيدفعه ذلك الى أن يسلك فى أعماله مسلك النبل والشرف ، وان يحرض أفراده على أن يعيشوا عيشة حرة ، وأن يكون لهم فى ترقية الحضارة البشرية أكبر قسط وأوفر نصيب.

ولكن هذه النظريات تغدو شديدة الخطر عظيمة الأذى والضرر ، اذا دفعت أصحابها لا الى ان يعيشوا عيشة الرق ، فى ظلال الفنون والعلوم ، بل الى أن يتوهموا انهم لا بد لهم ان يسودوا العالم ، وأن يسيطروا على مصير الامم ، وأن يحكموا الشعوب لمصلحة شعبهم ، فلا يبلغون العزة ، الا باذلال الشعوب الأخرى ، ولا يتمتعون بالرفاهية والترف ، الا على حساب شعوب يذيقونها الجوع والحرمان ، ولا ينعمون بالسعادة الا بالباس أقوام عديدة ثياب الشقاء والبلاء

لقد كانت فكرة التوسع سائدة فى عدة عصور ، ولكنها فى الازمنة القديمة كانت عبارة عن اتساع رقعة دولة كالدولة الرومانية أو الدولة العربية ، قد يكون للعنصر الفاتح فيها أول الامر بعض الميزات ، ولكن لا يلبث الجميع أن يصبحوا أعضاء فى دولة واحدة ، وبينهم شيء كثير من المساواة . ومثل هذا يقال حتى عن امبراطورية نابليون نفسه . غير ان الاستعمار الحديث قد اتخذ سنة جديدة ، وذلك باستغلال مرافق أقطار عديدة لمصلحة الدولة ذات السيادة . وليس من شك فى ان وراء سياسة الاستعمار اقتناع الاوربيين بأنهم أرقى شعوب الارض ، وانهم لذلك يستحقون هذه السيادة عن جدارة وأن يتمتعوا بما تجره من ميزات

وقد قال الكاتب الفرنسى منتسكيو فى كتابه روح القوانين متهكماً بدعاة الاستعمار : « لو انى أردت أن أقول كلمة فى تأييد ما لنا من الحق فى استعباد الزنوج ، لقلت :

ان الشعوب الاوربية بعد أن قضت على سكان أمريكا الاصليين لم يكن لها بد من أن تستعبد شعوب افريقية لكى تستثمر هذه المساحات الواسعة من الاراضى . وليست هذه الاقوام سوى جماعات سوداء الجلد من قمة الرأس الى اخمص القدم ، ولها أنوف شديدة الفطس بحيث يوشك أن يكون من المستحيل ان يرثى لهم احد . وليس من السهل ان نتصور ان الاله سبحانه وتعالى ـ وهو كائن حكيم جداً جداً : قد وضع ارواحاً ـ وعلى الأخص ارواحاً صالحة ـ فى أجساد حالكة السواد »

ومن الجائز ان دعاة الاستعمار لن يدلوا بآرائهم او يفسروا مذاهبهم بمثل هـذه الألفاظ ، ولكن ليس من شك فى أن غلاة المستعمرين ترتكز اعمالهم على فكرة السيادة ، وحق استغلال الشعوب الراقية ! . للاقطار التى يسكنها شعوب « متأخرة »

وكان الاستعمار في قبل هذه الحرب لا يتناول سوى أقطار خارجة عن القارة الأوربية . الى أن جاءت ألمانيا الحديثة ، فذهبت الى أبعد من هذا ، وبسطت سلطانها ، على شعوب أوربية لا تقل عنها حضارة ومدنية . ولم تزل ماضية في هذه السياسة قبل الحرب وبعد شبوب الحرب الحاضرة ، حتى أصبح الجزء الأعظم من أوربا يستغل في الوقت الحاضر لمصلحة دولة واحدة وشعب واحد ، سواء في ذلك الدول المستسلمة مثل دانمارك أو التي تحت الحماية مثل بوهيميا ، أو الحليفة مثل رومانيا وبلغاريا ، أو التي غزيت وفتحت بالسيف مثل فرنسا وبلجيكا وهولندة . ومن الجائز أن الشقاء والحرمان الذي يعانيه سكان هذه الأقطار في الوقت الحاضر ، يرجع بعضه الى ضرورات الحرب الحاضرة . ولكن من الصعب أن نتصور أن سيحدث تغيير كبير اذا تم للنازيين النصر الساحق على جميع أعدائهم . فان مذهب التفوق الجنسي ، الذي يدفع هذا الجنس الى سيادة العالم ، لا بد أن يكون حكمه للشعوب قائماً على استغلالها لصالح الشعب الممتاز

في الناس كثير من السفهاء وضعفاء الفكر ، قد بهرتهم قوة ألمانيا النازية ، وما أعدته من قوات حربية هائلة ، فسلموا في سذاجة بأن هذا دليل على الرقي والسمو والتفوق المطلق ، ثم انتقلوا من هذا الى التسليم بأن هذه المقدرة على التخريب والتدمير والقتل تعطى هذا الشعب حقاً في السيادة والتحكم في مصير الشعوب . وقديماً أغار المغول على الدولة الرومانية فخربوها وعلى الحضارة العربية فدمروها ، ولم يقل قائل بأن هذا دليل على أن همج المغول أسمى وأرقى من الرومان والعرب

ان الشعب الذي يرضى حكماً قوامه البطش والقهر ، والقضاء على حرية الرأي ، وتعذيب أفراده في السجون ومعسكرات الاعتقال ، وتجنيد أبنائه وحشدهم في حروب دموية لا طائل تحتها . حكماً يقوم على الاكراه والعسف ، وسوق الجماعات كارهة دون أن يكون لها رأي فيما تساق اليه ، حكماً يقوم على جاسوسية لم يعرف العالم أفظع ولا أبشع منها . مثل هذا الشعب لا يمكن أن يكون أرقى شعوب العالم وأفضلها

ولكننا مع ذلك وان سلمنا بأن الشعوب تتفاوت ، وفيها المتقدم والمتخلف في مضمار الحضارة والانتاج . فاننا نرى أن من المنطق المريض أن يكون من نتائج هذا التفاوت أن يبطش القوى بالضعيف ، والغنى بالمحروم ، والكثير الانتاج بالقليل الانتاج . ولئن وجدت الروح الديمقراطية لقتل هذه النزعات الشريرة بين أفراد الشعب الواحد ، فان انتشار هذه الروح لا بد أن يؤدي الى زوالها بين شعوب العالم

ان من الممكن اذا صحت العقول ، واستنارت الأذهان ، أن تدرك الشعوب القوية أن من مصلحتها في النهاية أن تنهض الشعوب العاجزة ، وأن ترقى الجماعات المتأخرة . ولقد جربت أنواع مختلفة من السياسات الاستعمارية في أقطار متعددة . فجربت مثلا في شرق أفريقية سياسة القهر

والبطش ، وأن تحكم البلاد لمصلحة الدولة ذات السيادة . فكان من جراء هذه السياسة تقهقر ظاهر فى حالة تلك الأقطار الاقتصادية ، وجربت فى غرب افريقية سياسة أخرى ترمى الى انهاض الشعوب الوطنية ، ومساعدتها على الرقي ، وعلى استثمار أرضها لمصلحة بنيها . فكانت النتيجة التى أدهشت حتى المستعمرين أنفسهم ، أن رقى تلك البلاد كان لمصلحة الدولة ذات السيادة أيضاً

من الواضح أن فى العالم أقطاراً تسكنها جماعات لا تستطيع أن تقف وحدها وسط العواصف السياسية والاقتصادية التى تكتسح العالم فى الوقت الحاضر . والنظرة الصحيحة لامثال هذه الجماعات هى أنها تؤلف أعضاء فى الاسرة البشرية وأن على القوى أن يأخذ بيد الضعيف ، والقادر أن يعاون العاجز . على أن يكون مفهوما أن هذا لا يكسب القوى حقاً أو ميزة مادية ، سوى ما تجنيه الاسرة البشرية كلها حين يرقى أفرادها جميعاً ، ويتقدمون فى الحضارة والانتاج

***

ليس تطبيق الروح الديمقراطية على الشعوب بالامر المستحيل التنفيذ ، اذا صفت نفوس الدول من شوائب الغرور ، والانانية . ولقد خطا العالم بعد الحرب الماضية خطوة عرجاء — ولكنها خطوة للامام على كل حال — نحو تحقيق هذا المبدأ السامى . وذلك بانشاء عصبة للامم يجتمع أبناؤها فى شبه برلمان دولى ، ولها مجلس يشبه أداة حكومية دولية ، ومحكمة العدل تفصل بين المتنازعين ، ومكتب للعمل يسهر على ألا يرهق العمال فى جميع الاقطار من أجل التنافس الاقتصادى بين الشعوب ، وإحلال مبدأ الوصاية محل الاستعمار . وهذا المبدأ السامى لو نفذ تنفيذاً دقيقاً مخلصاً ، لكان خير حل للمشكلة الاستعمارية كلها

ان فشل عصبة الامم حادث محزن ، ولكن يجب ألا نجعل من هذا الفشل سبباً لان ننادى بأن علاقات الشعوب لا يمكن أن تبنى على أسس من الشرف والتعاون . وذلك لان محاولة واحدة هى الاولى من نوعها — قد فشلت ، بل نستطيع أن نؤكد أنه لو أن الدول الكبرى مثل الولايات المتحدة وروسيا والمانيا اشتركت فى هذه العصبة منذ بداية أمرها ، ولو أن بعض الدول استطاعت أن تكبح جماح أطماعها وكبريائها ، فلم تسخر من العصبة وقراراتها . ولو أن دولا أخرى لم تجعل العصبة وسيلة لتحقيق أغراضها وخدمة مصالحها دون مصلحة العالم ودوله وشعوبه المختلفة . ولولا أن الدول التى اشتركت فى العصبة لم تكن جميعها خالصة النية سليمة الغرض تماما . لولا ذلك لكان هنالك ما يبعث على الامل بأن هذه المحاولة النبيلة وأمثالها قد يتكلل بالنجاح

ولقد يجوز لنا فى النهاية أن نرجو أن تنتصر الروح الديمقراطية فى هذه الحرب ، وأن نرى من بعدها محاولة أخرى أكثر نجاحاً وتوفيقاً لتطبيق تلك الروح على الصلات التى تربط بين الامم والشعوب

محمد عوض محمد

الديمقراطية الأنجليزية وأغراضها

بقلم الاستاذ سامى الجريدينى

اذا أردنا فهم ما يسمونه « ديمقراطية » على حقيقتها وجب أن نتجرد عن الأخذ بالألفاظ وبقشور الاشياء دون لبابها

ووجب قبل كل شيء أن ننظر نظرة صحيحة الى الغرض من الأنظمة مهما يكن شكلها أو لونها . واضعين نصب أعيننا الهدف الأسمى الذى ترمى اليه الحكومة اذا استطعنا الى ذلك سبيلا فكثيراً ما تحجب الوسيلة الغاية وهذا هو البلاء

وقد مضى على هذه الانسانية المعذبة حقب لا عد لها من الدهر تمكنت بعدها من التواضع على ما رأت فيه خيرها . فقال قائلها إن الغرض من الحكومة أو من أى نظام يقصد الى الاخذ بزمام الجمعية الانسانية هو أن تتوافر فيه عناصر أهمها أن تكون مصلحة الجمهور مقدمة ، أى أن ترمي الهيئة الحاكمة الى خدمة المحكومين لا الى استخدامهم، وانه يجب أن يكون لهؤلاء المحكومين الكلمة العليا فى انتقاء رعاتهم . وانه يجب أن تسير الحكومة على مبدأ الاخذ والعطاء أو على مبدأ التسامح فى الرأى فلا إكراه فى اصلاح ولا إرغام على قبول مالم يأت زمنه مهما ظُن انه صالح موافق هذه أسس تقوم عليها الديموقراطية

فماهى الديموقراطية التى تلوك الألسن لفظها فى هذه الايام فى كل أنحاء العالم ؟ . وأين معقلها ؟ وأى الامم أخذت منها بنصيب يصح لنا أن نحتذيه ؟

وليس الغرض تحديد اللفظة أو تعريفها تعريفاً لغويا أو قانونياً

انما الغرض تبيين ما أجمع زعماؤها اليوم على انه مقصود منها

فاذا كان الأمر كذلك صح لنا أن نقول أن الديموقراطية نظام أساسه الحرية

وهذه الحرية تشمل القول والفكر والعمل

وأساس آخر لا يقل عن الحرية شأناً ، هو تمجيد الفرد والعمل على إنماء كيانه الادبى والمادى والخلقى . فالفرد غاية فى الديموقراطية وليس كمية مهملة

فقد يقول أصحاب المذهب الفاشى أن العبرة بالدولة وبمجموع الامة فهى الغرض الأسمى فى الحضارة وما الفرد بذى قيمة قائمة بنفسها ، ان هو الا حجر فى زاوية بناؤها هذا الهيكل الذى يسمونه دولة

أما الديمقراطية فتقدس الفرد فى ذاته على انه الأساس الذى تقوم عليه الدولة أو الحضارة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وليس المقام مقام تفضيل الديموقراطية على غيرها فهذا أمر مفروغ منه وقد أجمع الناس أمرهم على أن هذا النظام خير لهم وأجدى الا فى فترات من الزمن يصاب بها القوم بمن يسمونهم «عظماء» أو « نوابغ » وليسوا إلا أنانيين يضحون بالعامة فى سبيل شهواتهم متخذين الكلمات الطنانة الرنانة ذريعة لامتطاء ظهور العباد . فما يكاد الشعب يشبع من « المجد » و « مواطن الشرف » حتى يقرصه الجوع فيفيق من سباته بعد أن يكون الدكتاتوريون قد شبعوا وقضوا أوطارهم على حسابه

فاذا كان الأمر مقضياً وكانت الديموقراطية أفضل الأنظمة حق علينا أن نرى أثرها فى الممالك التى اعتنقتها مذهباً عسى أن نوفق الى اقتباس شىء من قواعدها

* * *

اذا كانت الحكومة الديموقراطية هى هذه التى تقوم لفائدة الشعب بواسطة هذا الشعب ومن هذا الشعب فلا نزاع أن الأمة الانجليزية قد بزت الأمم كلها فى الأخذ بالمبدأ الديموقراطى

ودع عنك انها ملكية فانها أقامت دعامة عرشها على أساس متين من التقاليد والتاريخ جعلت وجهته خدمة القوم لا يحكم ولا يحيد عن رأى الحكومة القائمة حتى كأن الملكية فى انجلترا ظل لحقيقة أخذوا منه رمزاً للوحدة ولعظمة السلطان ومنعوه أن يهوى الى الاستبداد أو انتباذ مكان قصى فى معزل عن رأى الأمة أو عن مشيئتها

فهذا ملكهم ادوارد الثامن اعتزل العرش وخلع التاج على رغم ما كان عليه عند الشعب من المحبة والاجلال ذلك بانه ظن أن لحياته الخاصة مجالا لا يتفق مع رأى الأمة الاعلى وكان هذا الرأى ممثلا فى الكنيسة وفى تقاليد الاعيان وفى أخلاق العامة . فلما جهر رئيس الحكومة بهذا الرأى أبى ان يصعر خده وأذعن لقول الأمة

ودع عنك أن فى انجلترا طبقة من الاشراف يسرى فى دمائهم تاريخ الفتح والضرب فى مواطن القتال أجيالا وسنين . فهذه الطبقة تؤمن بخدمة المجموع ولم يعرف عنها أنها وقفت فى وجه الشعب يوماً على انها وقفت معه فى وجه الملك أياما

وأمعنت فى ديموقراطيتها فأصبح اللورد الانجليزى مرة ابن كابر عن كابر لا كثر من خمسة أو سبعة قرون وتارة ابن بدال أو فحام عصامى قح لا زرقة فى دمه

فصارت طبقة الاعيان متكيفة مع الوسط لم تنتبذ من الشعب مكانا قصياً أسوة بأخواتها فى قارة أوربا فبقيت وعاشت ودب فيها روح الشباب على حين أخنى الدهر على الاعيان الاوربيين فصاروا أسماء على أجسام بالية تحمل عقولا متحجرة

وبضدها تتبين الاشياء

فهذه فرنسا ودعواها فى الديموقراطية طويلة عريضة منذ الثورة الكبرى حتى البارحة وأما

حقيقة أمرها فانها بعيدة كل البعد عن الديموقراطية فنظامها البرلمانى تشوبه الفوضى وتتحكم فيه الاحزاب لأغراض شخصية وتخضع مع شتى الحكومات التى تقوم فيه وتقعد لنفر من الماليين هم أصحاب الأمر والنهى فى بنك فرنسا وفى الصناعات الكبرى حتى صار الامر حكم فئة قليلة وتكاد تكون دولية تسير أمور دولة ملأت الجدران العامة بكلمات الحرية والاخاء والمساواة

فاذا أردنا أن نرى الديموقراطية التى ننشد والتى نتمنى أن تسود أحكامها العالم لا نجد مكاناً نلقاها فيه الا هذه الجزر البريطانية

ولماذا هذا ؟ وما الذى جعل بريطانيا ما هى عليه الآن ، حصناً حصيناً للديموقراطية ؟

فى مذهبنا أن الأسباب عديدة وربما كان أهمها كون بريطانيا جزيرة وكونها أخذت بالتوسع التجارى والاقتصادى وسيلة الى امتداد السلطان على خلاف الامبراطوريات التى سبقتها فى كل أنحاء التاريخ

ولابد من شيء من التفصيل

قال راوية ان ممتحناً فى مدرسة انجليزية تقدم الى تلاميذه الصغار يطلب منهم تعريف الجزيرة فأجاب كل بما تعلم إلا واحداً قال ان الجزيرة بقعة من الارض يحدها الاسطول من كل جانب وهذه هى حقيقة بريطانيا

فهؤلاء القوم الذين سكنوا الجزر البريطانية أرادوا أن يظلوا كما هم بعيدين عن القارة الأوربية . فبنوا الاسطول وأتقنوا فن الملاحة فبقوا أولاد الجزيرة اذا أشاروا الى أوربا قالوا أنها القارة

فلما أن انتحوا مكاناً خاصاً وحصنوه بالاسطول دفعهم العيش والمكافحة فى سبيله الى التوسع عبر البحار فأمعنوا تجاراً ومستعمرين يجوبون البعيد من الأرض حتى أصبحوا فاذا بهم أصحاب امبراطورية لا تغرب الشمس عنها رغم رجال حكوماتهم ورغم رجال السياسة

ذلك ان مبدأ تبادل المنافع يضع الحجر الاساسى فى بناء الديموقراطية لأنه يقوم على غرض الوصول الى الهدف ولما كان السلام أضمن من الحرب وصولا الى الهدف التجارى كانت الروح الانجليزية أميل الى الاخذ بالتي هى أحسن الا اذا اضطرت الى امتشاق الحسام دفاعا عن كيانها

فأصبحت الديموقراطية عقيدة فى حياتهم العملية ثم سارت مثلا أعلى لا يحيدون عنه

ولا نخالنا مخطئين حين نزعم ان هذه الروح التجارية كانت ركن الديموقراطية المكين

فالأخذ والعطاء وتبادل المنافع والايمان بأن رفاهية عميلك تؤدي الى رفاهيتك — كل هذه أمور تبعد عن روح الاستعلاء والأثرة والأخذ بمبدإ امتصاص دماء الضعيف لاشباع نهم وقتى

فقد ظن الفاتحون — غير الانجليز — أن العبرة فى أن يأخذ الفاتح كل شيء ويستعبد الديار المفتوحة وغاب عنه أن العاقبة افقار الديار وافقار أهلها ثم يتلو ذلك فقر مدقع يلحق الفاتحين

وكم هو خليق بنا نحن الشرقيين أن نعتبر ونحل التجارة محلها اللائق بها فى حياتنا الاجتماعية فلقد ربانا دهرنا القديم الطويل على النظر الى الشعوب طبقتين حاكما ومحكوماً . ذلك يأمر وهذا يأتمر . ذلك يأخذ وهذا يجد ويعمل ليعطي

حتى كان من أمر أكبر فيلسوف عمرانى عربى بز الأقران فى صحة التقدير والاستنتاج أن يحمل على التجار والتجارة ويجعلها وقفاً على السوقة مفسدة للأخلاق

ونعنى ابن خلدون وما جاء فى مقدمته عند ما ذكر التجارة

وحتى قال المتنبي يرثى أختاً أو أماً لسيف الدولة فيضعها فى أعلى مقام ويصف جنازتها مفاخراً أنه لم يمش بها تجار ولا سوقة

فهذه النظرية أدت الى إفقار الدول العربية على التخصيص والشرقية على التعميم حال كون المبادىء الأدبية والدينية التى تدين بها هذه الشعوب قائمة على الروح الديموقراطية وحال كون ميدانها رحباً واسعاً تسير فيه الجياد الديموقراطية غير ذات شكل

فأحر بنا أن نأخذ المبادىء الانجليزية فى عالم التجارة نبراساً نهتدى به . واذا قلنا التجارة رمينا الى كل ما يتصل بها من صناعة وصيرفة واقتصاد

ومن غريب ما بذرته الفكرة الديموقراطية فى نفوس الأمة البريطانية أنها أبقت على مظاهر لا تمت الى الديموقراطية بسبب كالملكية وطبقة الأشراف وما اليهم من طبقات أصحاب المال ولكنها لم تطفىء شعلة الديموقراطية فى نفس واحد من هؤلاء القوم وليست هذه الشعلة إلا الحرية . الحرية الممثلة فى الكلام وفى الخطابة وفى التفكير

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ان اطلاق الحرية على هواها فى الجزيرة البريطانية هو دون سواه المبقى على نظامها فترى العرش ووراءه أرباب تيجان كبيرة وصغيرة توارثها أصحابها من أيام الفاتح النورماندى حتى الآن الى جانب العامل الخامل — كلهم عشاق حرية يتألبون كتلة واحدة للدفاع عنها اذا ظنوا أن قد مسها الخطر أو كاد

لذلك لا يعيش الحكام بأمرهم فى بريطانيا ولا ينمون . ذلك لأن الانجليز يعتقدون أن النظام الديموقراطى أكفأ من النظام الفردى . أى انه أكثر إنتاجاً فى إسعاد الأمة لأنه يرمى الى الترفيه عن الفرد أما النظام الاستبدادى فقائم على التضحية بالفرد فى سبيل مايسمونه دولة وليست هذه الدولة الا شيعة الحاكم بأمره وعصبته

بقيت ناحية من نواحى الروح الديموقراطية نود أن نلفت اليها أنظار الذين تغرهم مظاهر الدكتاتورية ونجاحها الموقوت . فان الديموقراطية تمهد لابن آدم أن يعيش حياته مليئة بشتى أنواع النشاط الذى وضعته الطبيعة فى مجارى دمه . وقد يغفل الكثيرون عن أهمية هذه الناحية فانه لا يخفى أن الانسان كائن تجمعه المادة والروح . الأرض والسماء — المثل الأعلى والطبقة

الدنيا . ، فهو خليط لا تتم حياته الا اذا أعطى لكل العوامل التى تظهر متناقضة مجالها للانطلاق

وليس من مجال يفسح للمرء المتاع فى شتى طرق الحياة الا المجال القائم على الحرية

أما اذا تولى الامر حكام آمرون ناهون فأول ما تصبو اليه نفوسهم طبع الناس على طابعهم وتسييرهم على غرارهم فاذا فرضنا فيهم النية الحسنة والغرض الشريف كانوا دعاة إصلاح بالقوة وتهذيب بالنبوت وهذه أمور لا تستقيم مع الحرية ولا تلبث حتى تنقلب شراً بعد ذهاب « المصلح » اذ يحل محله « نصاب » ليس فيه داء الاصلاح ولا النية الطيبة

وعلى عكس هذا النظام الديموقراطى الحر فهو اذ يمشى الهوينا يترك للفرد هواه ضمن القانون فيشبع مطامعه فى شتى نواحيها المادية والروحية

حتى قالوا ان الانجليزى يعبد الله ستة أيام فى بنك انجلترا وفى اليوم السابع فى الكنيسة الانجليزية

فقد مد له نظامه الديموقراطى فى الحرية فأصبح مقامراً سكيراً فى ساعة وصائماً مصلياً فى ساعة أخرى . تاجراً تتكدس لديه أموال الربح باليمين وتتبعثر فى سبيل المستشفيات والمدارس وعمل البر بالشمال . محارباً يقسو على عدوه لا يلين وعضواً عاملا فى الصليب الأحمر يواسى وينفق عن سعه

* * *

فهل يتاح لنا نحن أن نأخذ أخذ هؤلاء القوم فى ديموقراطيتهم

اننا نستبعد الأمر جداً

فهذا الذى تقدم الالمام بالتنويه اليه من ديموقراطيتهم أتاهم من موقعهم الجغرافى ومن إقليمهم ومن أسطولهم ومن تجارتهم ومن دمهم الخليط

أما نحن الذين نمت الى الدينين السماويين بسبب متين ـ المسيحية والاسلام ـ فلنا أمتن دعامة ديموقراطية من مبادىء هذين الدينين

انما غلبنا على أمرنا وأمرها ماض طويل عريض لا تكاد تظهر فيه الديموقراطية الا بمجهر عظيم . فلماذا ؟

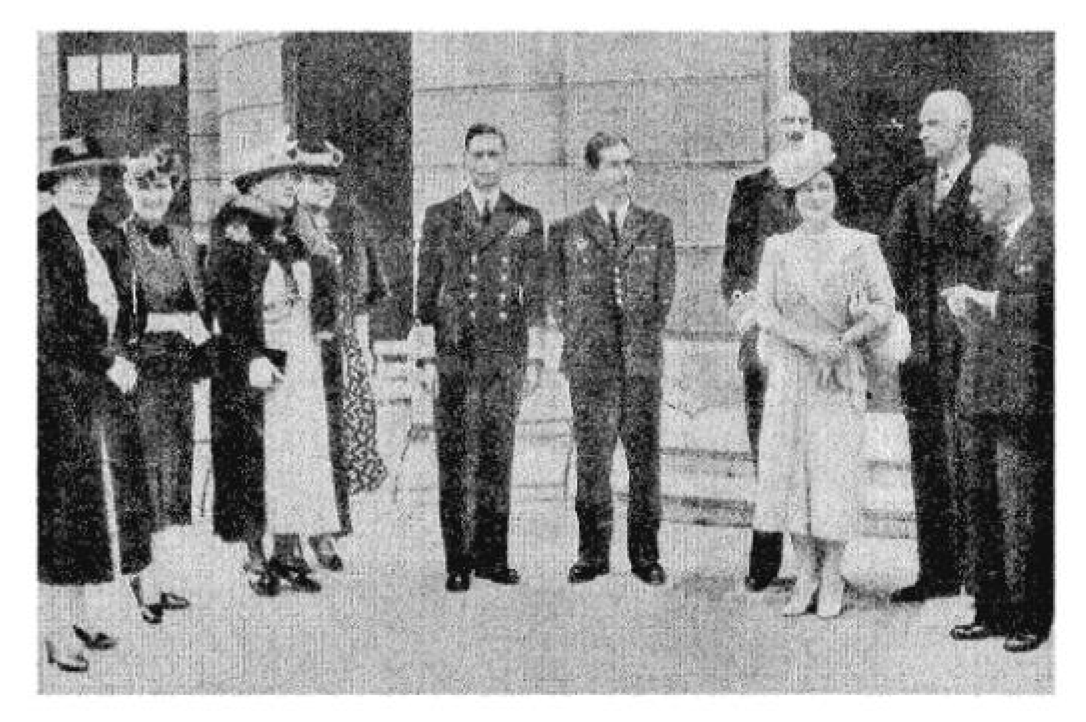
لعل مرجع الأمر الى الأصل والى الاقليم والى الصحارى تحيط بنا من كل جانب والى تاريخ ساده الفرد واتزوت الجماعة

ذلك حتى يصح قول القائل ان التقليد فى أنظمة الحكومة خلال فالعبرة فى نظام يرمى الى خدمة الجمهور ويستوى بعد ذلك اسمه ومعناه

وان الشعوب مهما تحاول من تقليد فهى راجعة الى أصلها مما اعتادته من نظام وأساليب والى ما ورثته من تقليد وعادات وشيء آخر يتغلغل فى الدم ويستعصى على التعيين والتسمية

سامى الجريدينى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



أوربا الديمقراطية فى قصر بكنجهام

تجمع هذه الصورة بين ملكى الانجليز وملوك ورؤساء الدول الاوربية المغلوبة على امرها فى احدى حفلات الاستقبال بقصر بكنجهام فى لندن . ونرى من اليمين الى اليسار : الدكتور بنيش رئيس الدولة التشيكوسلوفاكية ، المسيو راكيفيز رئيس جمهورية بولونيا ، جلالة الملكة اليزابث ، جلالة الملك هاكون ملك النرويجى ، جلالة الملك بطرس اليوجوسلافى ، جلالة الملك جورج ، مدام راكيفيز ، جلالة الملكة ولهلمينا الهولندية ، مدام بنيش ، فالملكة مارى اليوجوسلافية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لندن عاصمة الديمقراطية

توالت النكبات على دول أوربا دولة بعد دولة ، وغزت جحافل هتلر ودباباته وطائراته قطراً بعد قطر . بيد أن الانتصارات الالمانية لم تحل دون هروب رؤساء الدول المغلوبة على أمرها وحكوماتها من قبضة النازية والنزوح عن القارة الاوربية الى العاصمة الانجليزية . فأصبحت لندن بحق عاصمة الديمقراطية إذ تضم رؤساء دول : تشيكوسلوفاكيا ، بولونيا ، النرويج ، هولندا ، فرنسا الحرة ، يوجوسلافيا ، واليونان . والى جانب هؤلاء الرؤساء تقوم حكومات حالفت انجلترا ولا تزال تعمل وتساهم بكل ما أوتيت من قوة ووسائل لنصرة الديمقراطية فى حربها الحاضرة ضد الديكتاتورية . وفى انجلترا وميادين القتال قوات مختلفة من أبناء دول أوربا المحتلة من فرنسيين وتشيكوسلوفاكيين وبولنديين ويونانيين ويوجوسلافيين وهولنديين وغيرهم . وفى البحار تمخر سفن هذه الدول متنقلة بين أطراف العالم تنقل الى انجلترا وغيرها من ميادين القتال المؤن والزاد والعتاد

الثقافة بين الديمقراطية والدكتاتورية

بقلم الدكتور أمير بقطر

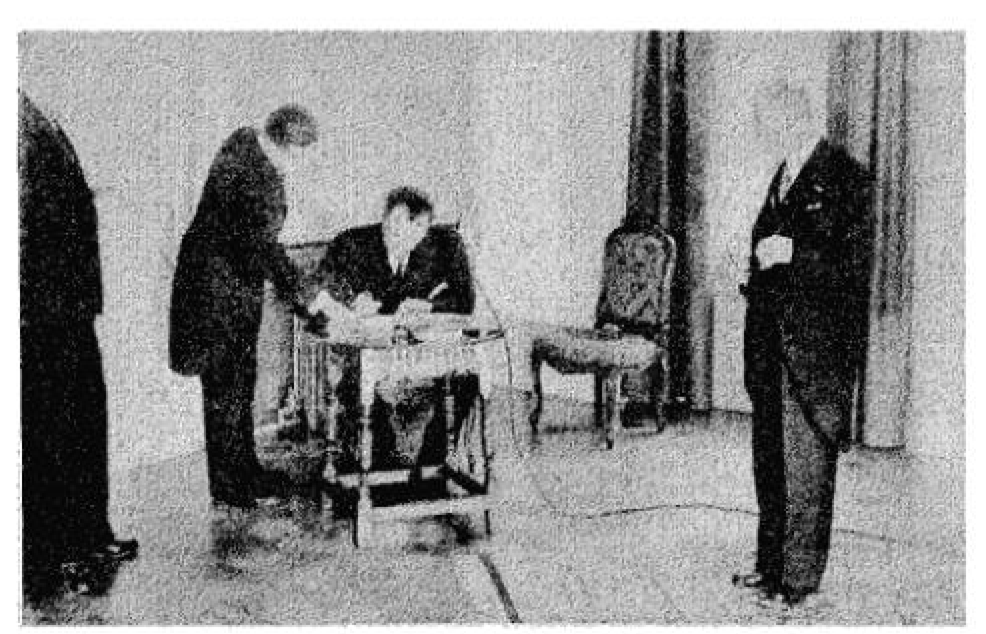
الثقافة فى جميع مظاهرها لا تعيش الا فى جو من الهدوء والاستقرار ، ولا تترعرع الا فى تربة تسقيها مياه الحرية والطمانينية ، ولكنها من الناحية الأخرى لا تزهو بيئة من الحرية الزائفة المرادفة للفوضى

الثقافة كالزهرة ، لا تترعرع على السواء فى جميع الاجواء التى تحيط بها ، ولا تزهو فى جميع الاهواء التى تستنشقها، ولا تنمو فى كل تربة تغذيها، ولا تأنس لكل يد ترعاها أو كل مياه تسقيها . قرأت، منذ سنوات عدة كتابا لكاتبة أوروبية ، لا أذكر اسمها ولا جنسيتها . وقد محى من ذاكرتى كل أثر عنها ، سوى أنها من عشاق الزهور ، وغاب عنى كل ماجاء فى كتابها ، سوى عبارة واحدة لاتفتأ ترتسم فى مخيلتى، وترن فى أذنى، كلما رأيت زهرة تسقى ، أو عودا تلعب به أنامل الجنان . ومغزى هذه العبارة ، أن الزهور لاتعيش ما لم تحب ساقيها ، ولا تتفتح أكمامها، ما لم يغرم بها البستانى . وأعجب ما فى العبارة ان الكاتبة لم تقصد بها المجاز والاستعارة، ولكنها عنت الحقيقة بعينها، اذ أنها كانت تختبر الجنان قبل توظيفه ، فى متر مربع من الارض وحفنة من البذور ، فاذا ترعرعت الزهور على يديه أبقته ، واذا فشل فى الامتحان عزلته

الثقافة ونوع الحكم

كذلك الثقافة تتأثر بمناخ البلاد ، وتقاليد الامة وعاداتها ومعتقداتها ، وآمالها وأمانيها ، وسلالة أهليها ولغاتهم وأديانهم ، وأحوالهم الاقتصادية ونظمهم المدرسية والاجتماعية ، ولكن هذه جميعها لا تقاس بشىء بجانب نظام الحكم، وصفة الحاكم ، وعلاقته بالمحكوم . فهذه الاخيرة هى التى تكسب الثقافة لونها، وترسم قوامها ، وتفصل زيها . ألا يذكرنا التاريخ بالادب والعلم والفلسفة والفن فى أزهى العصور الذهبية باسم حكامها ؟ ألا يذكر لنا عصور رمسيس وكسرى ، وبركليس ، ويوليوس قيصر ، والقرد الكبير ، والمأمون ، واليصابات ، واسماعيل ، وكأنه ينبهنا الى علاقة الثقافة بالحاكم ؟

منذ كتب أفلاطون جمهوريته ، ان لم يكن منذ أقدم المدنيات ، لم تتجاوز أنواع



تشيكوسلوفاكيا كانت هذه الدولة أولى دول اوربا التي وقعت تحت نيران النازية (بعد ضم النمسا) . وقد التقطت هذه الصورة في يوليو سنة ١٩٤٠ يوم ألف الدكتور ادوار بنيش رئيس الدولة التشيكوسلوفاكية حكومة جديدة برياسة المسيو سراميك ، وقد جلس احد الوزراء يوقع وثيقة الولاء لادكتور بنيش الذي وقف الى اليمين يشاهد توقيع وزرائه على الوثيقة



بولونيا : وعلى أثر اجتياح المانيا للدولة البولونية تكونت في فرنسا حكومة بولونية جديدة لم تلبث بعد انهيار فرنسا أن انتقلت الى لندن . ويرأس هذه الحكومة اليوم الجنرال سيكورسكى الذى تراه فى هذه الصورة الى اليمين يؤدى التحية العسكرية بعد وضعه اكليلا من الزهر على قبر الجندى المجهول فى لندن

الحكم اثنين ، فهى تتذبذب بين الحرية والعبودية ، أو الديمقراطية والدكتاتورية ، وان تنوعت الاسماء

الثقافة فى الدكتاتورية جندى مدجج السلاح ، من هامة رأسه الى أخمص قدمه ، يستيقظ مبكرا على صوت البوق ، وينتظم فى سلك زملائه الجنود فى نظام وترتيب ودقة ترسمها القيادة العليا ، ويسير على نغمات الموسيقى وفق خطة مرسومة ، ويتلقى التدريب العسكرى طبق ارشاد ضباطه ورؤسائه • وليس لهذا الجندى أن يفكر ، لان رؤوسا أكبر من رأسه تفكر له ، وليس له ان يتعلم ما يشاء ، لان الحقيقة فى نظر زعمائه ليست بنت البحث ، وانما هى مايلقنونه اياها تلقينا • ولما ان كان هذا الجندى فى سن التلمذة ، لم تعده المدرسة ان يحيا حياة الفرد الحر الطليق ، أو أن يعيش عيشة كاملة مليئة بطيبات الحياة ، ولكنها خلقت منه آلة صماء تتحرك كما يريدها أولو الامر أن تتحرك • وقد كانت مدرسته يسود فى جوها النظام والتنظيم والرهبة ، كالمعسكر ، تبدأ الدراسة فيها بقصف المدفع ، عنوان الكفاح والتضحية واراقة الدماء فى سبيل الواجب ، والشجاعة وذوبان الفرد كالحديد المصهور ، فى المجموع • وكان المتفرج على مدرسته لا يسعه الا الاعجاب بوحدة الغرض والتفكير وتجانس السير والعمل ، وسلامة الخطة • وهنا ساد « النظام »

أما الثقافة فى الديمقراطية ، فعلى النقيض من هذا ، فتاة متواضعة ، فضفاضة الثياب ، حرة الذهاب والاياب فى نطاق مرن مما يسمونه القانون ، طليقة التفكير والتعبير فى حدود مهلهلة مما يسمونه المعقول • يعنى أولو أمرها بها كفرد من الافراد ، أكثر من عنايتهم بالمجموع ، ولذا تراها تسير بالخطى التى تشاء ولا تتقيد بالمجموع ، وتتخبط فى سيرها على غير هدى الى ان يستقر لها حال ، وينقصها النظام والتنظيم ورسم الخطط بالدقة التى ينشدها محبو النظام • ولما كانت فى سن التلمذة ، كانت نواقيس المدرسة تقرع ايذانا بالدخول ، كأجراس الكنائس ، وكأنها تذكر الطلاب بالسلام والطمأنينة والتسامح فى سبيل الانسانية ، فكانت تتلقى دروسها بهذه الروح الطليقة ، فلا تقبل المعلومات على علاتها ، ولا تسمح لأحد ان يلقنها المواد كما شاء واضعوها ان تكون ، ولكنها شبت على الشك الحلال ، فكانت تزن الامور بميزان العقل ، وتغربل الحنطة قبل طحنها وعجنها وخبزها • وهنا سادت « الفوضى »

التأليف والخطابة فى الديكتاتورية والديمقراطية

الثقافة فى الدكتاتورية قلما تؤلف أو تصنف ، لانها من أنصار « كل ما قل ودل » ،



النرويج : وأفلح جلالة الملك هاكون ملك النرويج وولى عهده ورجال حكومته فى النزوح عن بلادهم المغزوة الى انجلترا حيث واصلوا الجهاد فى سبيل تحرير النرويج . وها هو ذا الملك هاكون يلقى خطبة فى اجتماع البحارة النرويجيين ، وقد ظهر أمامه ولى عهده البرنس أولاف فى ثياب أميرال (الاول من اليسار)



البلجيك واذا كان ملك البلجيك قد استسلم الالمان ووقع فى قبضتهم فان حكومته أبت التسليم وغادرت البلاد . وتقيم هذه الحكومة الآن فى الكونغو البلجيكية وتساهم فى قضية الديمقراطية بمحالفتها مع انجلترا ومواصلة الجهاد بكل وسيلة ممكنة . ويرأس هذه الحكومة المسيو بييرلو الذى تراه فى هذه الصورة يتقدم ليضع إكليلا من الزهر على نصب قتلى الحرب فى ليموج الفرنسية ، وقد سار عن يساره المسيو فان كوفلارت رئيس النواب البلجيكى والمسيو جيلون رئيس الشيوخ

ولان التأليف مقيد بقيود ، والتفكير محدد بحدود . واذا ألفت فقلما تجد من الرسائل والمتون والمجامع والحواشي والتعليق سوى ما يوحيه الرأس الاكبر،وما يريده ولى الامر . والعقل الانسانى كالنبات اذا حبس عنانه وقف عن النمو والامتداد

أما الثقافة في الديمقراطية فتطول،فى التأليف وتصول،وتبارى،فى حلبةالقول وتجول، وليس من يقيم من دونها سداً . فلا عجب اذا لم يقف دولاب الطباعةفيها دقيقة واحدة ، ولا غرابة اذا أخرجت لنا الغث بجانب السمين ، والكفر بجانب الايمان ، واختلط فيها الشك باليقين ، والعنف باللطف ، والخصام بالوئام . والعقول الانسانية كالنبات يندس فيه الحسك فى الياسمين والزنبق ، والشوك فى الورد والرياحين

وتتجلى صفات الثقافتين فى المجالس النيابية ، ففى الدكتاتورية ، يتفق الخطباء قولا واشارة وحماسة . ويتفق السامعون،من الاعضاء ميلا،ورضا،وسخطا،وتصفيقا وتصفيرا . يتفقون سلفا على ما يريدون سماعه، وما يوحى اليهم بقبوله أو رفضه.أما فى الديمقراطية فالمجلس النيابى مزرعة للدجاج « يكاكىء فيها من يشاء » على حد قول هتلر . أو كما قيل عن الكونجرس الاميركى يعتلى منبره أحد من الاعضاء فلا يقول شيئا ، ومتى جلس أمن الاعضاء على أقواله أو اختلفوا ، تبعا لاتجاه الريح ...

الثقافة فى ظل الحرية

ومن الناس من يؤثر النظام ، وان اختنقت تحت كلكله الثقافة ، ومنهم من يؤثر الحرية وان أصبحت الثقافة تحت جناحها مرادفة لمعنى الفوضى وتبلبل الالسن . على أن هناك حقيقة لا ريب فيها ، وهى أن الثقافة فى ظل الحرية ، قد تسىء الحرية . فيطالب أهلها بالعبودية ، كما حدث أخيرا فى فرنسا،والثقافة فى يد العبوديةقدتموت،فى عنفوان شبابها فيثور أهلها مطالبين بالحرية كما سنرى فى الصفحة التاريخية التالية ، والتاريخ أصدق حكم :

فى غضون القرن الثامن عشر أخذ روسو ينادى بوجوب تحرير الطفل من كل قيد يعرقل حريته ، وتركه كما أرادته الطبيعة ان يكون . وقد أخذت نظرية روسو تطبق فى التربية والثقافة عامة منذبداية القرن العشرين . وقد أبان كل من لامرك، وهيجل ، وداروين ، أن الانسان كسائر الاحياء ، يحمل بين جنباته مبدأ التطور ، والنزوع الى سمو النوع ، فوجب ان يزال كل ما يعرقل هذا التطور . بناء على هذه الآراء قامت فى المانيا عام ١٩٠٦ حركة ثقافية كبيرة ، وتجربة خطيرة ، تبعها مثلها فى ايطاليا بصورة مصغرة . وكان محور هذه الحركة الثقافة الحرة ، التربية الحرة . فقام نفر من شبان المعلمين



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هولندا وتقيم ملكة هولندا في لندن ضيفة على ملك الانجليز ، ويرأس زوج ابنتها الامير برنار دي ليب القوات الهولندية التي تعمل الى جانب انجلترا في سبيل نصر الديمقراطية . وها هو ذا يزور أحد المطارات في انجلترا (الثاني من اليمين) في صحبة بعض ضباط الطيران الانجليز والهولنديين

والوالدين يوحون الى تلاميذهم وأبنائهم ، ألا يخضعوا للكبار من معلمين ووالدين ، والا يطيعوهم طاعة عمياء ، لانهم من أبناء الجيل البائد ومن عصر الاموات ، وما كاد الصغار والمراهقون يسمعون ذلك حتى أخذوا يرددون هذه النغمة ليلا ونهارا ، وهم ينشدون « نحن النشء الحديث ، أبناء الجيل القادم ، العالم لنا »

وتشكلت فى المانيا جماعة كبيرة اسمها « Jugendbewegung » فكونت أندية ، للرحلات سيرا على الاقدام (hiking) للتعرف على « الطبيعة والارض والوطن » ، وكان مطمح أعضائها أن يخالفوا الكبار عادات ومسالك . فأنشئت مدارس حرة ، شعارها حرية الطلاب ، كمدرسة كارل ماركس ، ومدرسة أودنفالد ، التى لم يكن المعلمون فيهما سوى مستشارين للطلبة لا غير ، يلقون عليهم من الدروس ما يريد الطلبة ، وكان المفروض فيها ـ اسميا على الاقل ـ ان تكون السلطة والادارة فى أيدى الطلبة . وكانت العقوبة محرمة تحريما باتا ، لم يكن للمعلم ان يوبخ طالبا . غاية ما فى الامر ان المعلمين كانوا يحاولون ان يسيروا دفة الامور ، دون أن يشعروا الطلبة بذلك . فكانت النتيجة ان خرج الطلبة يلاقون الحياة بفكرة عن الحرية خاطئة ، وما كادت تطأ أقدامهم ميادينها ، حتى فوجئوا بقيود وحواجز لم يألفوها فى حياتهم المدرسية ، وقد أدهشهم كيف أن القيد والحرية ، والنظام والفوضى ، والقانون والاباحة ، تعيش فى هذا العالم جنبا الى جنب . ومن ألطف ما يذكر ان المانيا اسمه كلاوس ، وضع رواية شهيرة كانت تمثل فى برلين سنة ١٩٢٥ ـ اسمها « أنجا واشير » ابان فيها ان النشء بالرغم من تغنيه بهذا النوع من الحرية فى تلك المدارس والاندية ، كان يتألم لهذه الحرية ويتوق الى زعيم بيد من حديد يكبح جماحه . وقد كان المؤلف من خريجى تلك المدارس . وقد طغت على ايطاليا موجة من هذه المدارس ، وان كانت أخف وطأة وأقل تطرفا

ولم تكن حركة الحرية هذه بين شبان ايطاليا والمانيا الا ثورة على القرن التاسع عشر . فقد كانت كل من ايطاليا والمانيا بعد الحروب النابوليونية مقسمة الى مقاطعات وممالك ودويلات ، وكان بعض أجزاء ايطاليا تابعا لفرنسا والنمسا . وكان حكام هذه الاجزاء المفككة من دوقات وأمراء وملوك ، مطلقى السلطة ، يحكمون رعاياهم بقسوة وعنف . وبينما تم اتحاد انجلترا فى منتصف الجيل السابع عشر ، بعد حرب الثلاثين ، اذا بالمانيا كانت فى ذلك العصر تتألف من ٣٥٠ دويلة مستقلة بعضها عن بعض . وفى أواخر القرن الثامن عشر هبط عددها الى ١٧٠ ثم الى ١٢٠ بعد حروب نبوليون ، ثم أصبحت فى عهد بسمرك ٢٦ دويلة ، ولم تصبح المانيا دولة متحدة سوى فى عهد هتلر

سمع الناس فى المانيا وايطاليا الكثير عن الحرية فى فرنسا ، فتاقت نفوسهم اليها وجاهدوا



فرنسا وفى لندن بدأت نواة حركة الفرنسيين الأحرار وتألفت اللجنة الوطنية تحت رياسة الجنرال دى جول ، فلم تلبث هذه اللجنة ان ضمت تحت لوائها عشرات ومئات الألوف من الفرنسيين الذين أبوا إلا أن يواصلوا الجهاد . وها هو الجنرال دى جول يفتش فرقة شرف من قوات الفرنسيين الاحرار

في سبيلها • وبعد محاولات عدة لاضرام نار الثورة اتحدت ايطاليا سنة ١٨٦١ على يد كافور ، وفى حكم فكتور عمانوئيل الاول ، وأصبحت دولة ديمقراطية•ولما كان المثل الاعلى الاول فيالقرن التاسع‌عشر القومية ، والثاني الديمقراطية، فقد تحقق كلاهما فى تلك الدولة • وبعد ذلك بتسع سنوات اتحدت المانيا كذلك على يدى بسمرك نوعا ما ، كما سبق القول ،وبذلك تحققت القومية ، ولكن لم تتحقق الديمقراطيـة حتى سنـة ١٩١٩ ، فى ظروف وملابسات غير ملائمة ، عقب الحرب العالمية الكبرى

في غضون هذه الظروف وجد كل من النشء الالمانى والايطالىحريته ، ولكنها كانت حرية بغير هدف واضح ، فتخبط فيها بين سنى ١٩١٩ ـ ١٩٣٠ على غير هدى • ولما ان ألفوا هذهالحريةخلوة من كل أمل ورجاء ، خاوية جوفاء ، طغت على نفوسهم موجة من اليأس • وخروجا من هذا المأزق ظهر موسولينى أولا ، وهتلر ثانيـا ، فضربا الحرية عرض الحائط ، وتقبل النشء الاستبداد على العين والرأس

ما يقوله انصار الديكتاتورية

وسواء نظرنا الى الثقافة فى النظم المدرسية والجامعية ، أم فى الصحافة والتأليف ، أم فى الخطابة وطرق العبادة • فان لها أنصارا يريدونها ان تستظل بالدكتاتورية ، كما أن لها انصارا لا يريدون رؤيتها خارج نطاق الديمقراطية • يقول أنصار الدكتاتورية ان المربين يظنون خطأ ان الاطفال يحبون الحرية كما يحبها الكبار ، فى حين ان كل حزم وشدة يقابل منهم بالشكر ، وان لم يبد منهم ذلك • نرى الطفل (والمراهق) يقـاوم ويحارب كل من‌يقف‌فى سبيله ، فنظن ان الباعث له على ذلك حب الحرية ، فى حين ان الحقيقة انه انمايقاوم لانه يحب المقاومة ويحارب لانه يحب الحرب • كذلك الـكتاب والمؤلفون يحبون الحزم والشدة ، وان لم يبد منهم ذلك لانهم يعلمون ان التأليف فى ظل الحرية المطلقة اباحة وفوضى•ويقولون انهذا قد تجلى‌فى‌النشء الالمانى (والطليانى) الذى عافت نفسه المعلم الطرىء الناعم وهرع الى فرق التدريب العسكرى،حيث الشدة والحزم والزعامة والنظـام • وأقوى العـوامل التى تدفع النشء الى ذلك هو وضوح الهدف فى الدكتاتورية ، وان كان الغير يرون فيه ما لا يتفق والقانون الادبى

الثقافة لا تنمو فى جو العبودية

ويقول أنصار الديمقراطية ان الثقافة بمعناها الحقيقى لا تنمو فى جو العبودية ، اذ ان التفكير والابتكار والاختراع كلها توجه الى توطيد السيادة والعنف ، والدكتاتورية فى



يوجوسلافيا واجتاحت المانيا يوجوسلافيا فى أيام وطار ملكها الشاب وبعض رجال حكومته وفريق من طياريها بالطائرات اليوجوسلافية الى الشرق . وهاهو الملك بطرس يتوسط الطيارين من أبناء وطنه الذين يعملون الآن فى الشرق الاوسط الى جانب قوات بريطانيا وحلفائها وذلك قبيل انتقاله الى انجلترا



اليونان وكانت اليونان أخرى ضحايا النازية فى أوربا بعد نضالها المجيد الذى دام شهوراً ضد قوات إيطاليا أولا ثم قوات المانيا واستطاع الملك جورج وبعض رجال حكومته النجاة من قبضة الالمان فانتقلوا من اليونان الى مصر ثم الى انجلترا . وقد التقطت لجلالته هذه الصورة فى محطة القاهرة يوم سفره منها الى انجلترا وهو يحادث السير مايلز لامبسون السفير البريطانى قبيل ركوبه القطار

تظرهم لا تقوم لها قائمة الا بأطفاء شعلة الذكاء ، واخماد التفكير العلمي الصحيح الخالى من الغرض ، وايقاظ الغرائز السفلى فى الانسان ، وقتل الشخصية ، اذ ان الفرد لا وجود له الا بوصفه حلقة فى سلسلة يقود بها الزعيم المجموع • وفى حين ان أنصار الدكتاتورية يعيرون الديمقراطية بتقاليدها البالية وبأنها حكومة الشيوخ العجزة (geronto cracy) الذين يسيرون وعيونهم فوق ظهورهم ، اذا بأنصار الديمقراطية يعيرون الدكتاتورية بأنها عدوة الثقافة، لانها عدوة السلام، اذ أن الحرب فيها هى الحياة العادية والسلام فترة بين حربين أو مجرد هدنة ، وان سياستها لا ترمى الى تجنب الحرب ولكن الى التأهب لها فى كل حين ، وان القوة الغاشمة والاسلحة الميكانيكية هى العامل الوحيد للنجاح • والدكتاتورية فى نظر أعدائها تنادي بكراهية الامم الاخرى ، وتعتقد ان المسيحية لم تخلق الا للعبيد والاغبياء ، لانها تنادى بالاخاء الانسانى • ويستشهدون بقول هتلر « انه يدرب وحوشا مفترسة تخر أمامها الانسانية صرعى » ويقول موسولينى « ان عجلات التاريخ تزينها دماء الابطال ، والعدالة الدولية تقوم على القوة »

الخلاصة

الثقافة فى جميع مظاهرها لا تعيش الا فى جو من الهدوء والاستقرار ، ولا تترعرع الا فى تربة تسقيها مياه الحرية والطمأنينة ، ولكنها من الناحية الاخرى لا تزهو فى بيئة من الحرية الزائفة المرادفة للفوضى، ولا تنبت فى تربة تعبث بها الاحزاب السياسية، وتنال منها البيروقراطية وسوء النظام

امير بقطر

الشعب الديمقراطى يحارب لحرصه على الحياة الحرة ،
والشعوب المستعبدة تساق الى الحرب كارهة لها زاهدة فيها ·

« طه حسين »

ARCHIVE http://archive.sakhrit.com

ديمقراطية عمر بن الخطاب

بقلم فضيلة الاستاذ عبد العزيز البشرى

كان عمر بن الخطاب صورة خالصة صادقة للديمقراطية الحق

إذا زعم زاعم أن عيش البداوة بالديمقراطية أشكل ، وعليها أطبع ، فتعليل ذلك سهل يسير. وخاصة بين سكان الصحارى حيث يشيع الجدب، ولا تجود الارض ، إن جادت ، الا بالضئيل النزر. فهذا البدوى الذى لا يجد الأمن إلا فى ظل ترسه ورمحه ، والذى يضرب فى الارض ليصيب المرعى لدابته ، وهى مركبه فى مغداه ومراحه . وبألبانها ولحومها يغتذى ، (والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين) . هـذا البدوى ترى ما الذى ينزله على هوان ، بل ما الذى يخضع نفسه العاتية لسلطان ؟

ثم كيف يأذن مثل هذا العيش بقيام الناس طبقات بعضها فوق بعض : ففريق هم الاشراف السادة ، وفريق هم المسودون السوقة . وأناسى يباح لهم ما يحظر على غيرهم . وآخرون يحظر عليهم ما يباح لسواهم . وقوم يتحلون من الالقاب والكنى ما ينبغي أن يعرى منه سائر الناس ؟

نعم ، لا يأذن بهذا ، ولا يمكن أن يأذن به ، عيش البداوة بحال . على أن الطبيعة قد حبت ناساً بالجود والكرم ، وحبت ناساً بالنجدة والبطولة ، وحبت آخرين بالحكمة وجودة الرأى الخ مما يجدى العشيرة ويعود عليها بالخير والمنعة والهداية فى الحياة سواء السبيل . فهؤلاء اذا شرفوا وعظموا ، وحلت لهم الحبي ، وخلعت عليهم الألقـاب المترجمة عن حقيقة صفاتهم ومزاياهم ، وفعالهم ، فالجمهرة هى التى أنزلتهم هذا المنزل ، وأضافت اليهم هذا الشرف ، وجازتهم على حسن الصنيع جزاء وفاقا

هذا الى أن حياة العشيرة لا تستقيم الا اذا كان لها حماة ذادة . ورجالات يمحضونها الرأى فى مدلهمات الامور ، والا شاعت الفوضى وهى آية الفناء فناء الجميع !

كذلك كان شأن العرب فى جاهليتهم . فلما جاء الاسلام لم يحد من حرية الافراد ، وانما كف عن البغى . ولم يكتف بالقدر الذى كان من المساواة ، بل لقد زادها توثيقا ، ووكدها بين الناس

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

توكيداً . ومع أنه أنشأ حكومة لجمع الشمل ، وإقامة الحدود ، وتصريف الشئون ، والقيام على المنافع العامة . فانه لم يجعل فضلا لحاكم على محكوم ، ولا لعربي على عجمى ، ولا لانسان على انسان إلا بتقوى الله (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، صدق الله العظيم . وبما قدمت يداه للخير العام و (خير الناس أنفعهم للناس) صدق رسول الله

ولا ريب أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، كان أعظم الناس شأنا ، وأعلا العالمين قدراً ، وأكرمهم عند الله مقاما ، ومع هذا القدر كله ، والشرف أجمعه ، كان لا يبتغى صدر المجلس ، ولا يطلب المكان المميز ، بل كان يجلس فى أقرب موضع لقيه ، حتى إذا دخل الغريب سأل: أيكم رسول الله ؟ فيدل عليه !

ولقد نهى ، صلى الله عليه وسلم ، صحبه عن أن يقوموا له إذا أقبل عليهم ، لأن هذا من فعل الأعاجم !

وبهذا يعنى أن تسويد إنسان على انسان ، واختصاص امرئ بمظاهر التعظيم ، ليس من حكم الاسلام . ولو كان هذا التعظيم لأعظم عظيم . الله أكبر ! . وكذلك يجلو الاسلام الديمقراطية الحق فى أروع الصور ، لم تدانها قط ديمقراطية فيما غبر ولا فيما حضر !

عمر بن الخطاب

وبعد ، فقد سألتنى « دار الهلال » أن أدير المقال ، فى هذا العدد الخاص ، على (ديمقراطية خليفة) ، ولا ريب ان الناس إجماع على أن المثل الاعلى لأكرم الديمقراطيات ، هو الخليفة (عمر بن الخطاب) ، رضى الله عنه وأرضاه

ولقد كان عمر صورة خالصة صادقة للديمقراطية الحق . كان صورة صادقة لها فى سره واعلانه يأخذ بها نفسه ، ويأخذ بها ولاته وعماله ، ويأخذ بها سائر الناس . لا يجد فى شىء من ذلك حرجا. ولا ينحرف عنه قيد شعرة ، مهما تسكن الأحوال وكيفما كانت الأسباب . بحسبك أن يقول للناس ، فى خلافته وهو يخطبهم : « من رأى منكم فىّ اعوجاجا فليقومه » . فيقول له رجل من رعيته : « والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » فلا ينكر هذا منه ، ولا يتبرم به ، بل لقد أدخل السرور على قلبه ، وبعث لسانه بشكر الله تعالى على أن جعل فى المسلمين من يقوم بسيفه خليفة المسلمين

أما مظهر ديمقراطيته فى مأكله وملبسه وسائر وسائل عيشه ، فلقد كان المثل الرائع فى خشونة العيش ، والاستجابة لدواعى الفقر ، بحيث لا يزيد فى شىء من ذلك على أشد الناس فاقة وأقلهم من الرزق حظا ، وبين يديه بيت المال تجبى اليه جلائل الأموال من أخصب رقاع الأرض وأحفلها بمختلف الثمرات !

وان من الخير ان أورد هذه القصة ففيها أبلغ العبرة فى أخذه نفسه بالزهد ، وأخذه به من يعملون له فى مختلف الأقطار :

قال الربيع بن زياد الحارثى : «كنت عاملا لأبى موسى الأشعرى على البحرين . فكتب اليه عمر بن الخطاب يأمره بالقدوم عليه هو وعماله . وأن يستخلفوا من هو من ثقاتهم حتى يرجعوا . فلما قدمنا أتيت يرفأ (١) فقلت : يا يرفأ ، ابن سبيل مسترشد . أخبرنى أى الهيئات أحب إلى أمير المؤمنين أن يرى فيها عماله ؟ فأومأ الى الخشونة . فاتخذت خفين مطارقين . ولبست جبة صوف . ولففت رأسى بعمامة دكناء . ثم دخلنا على عمر فصفنا ما بين يديه . وصعد فينا نظره وصوب . فلم تأخذ عينه أحدا غيرى . فدعانى فقال من أنت ؟ قلت : الربيع بن زياد الحارثى . قال : وما تتولى من أعمالنا ؟ قلت : البحرين . قال : فكم ترزق ؟ قلت : خمسة دراهم فى كل يوم . قال : كثير ! فما تصنع بها ؟ قلت : أتقوت منها شيئا ، وأعود بباقيها على أقارب لى ، فما فضل منها فعلى فقراء المسلمين . فقال : لا بأس. ارجع إلى موضعك . فرجعت إلى موضعى من الصف . . . ثم دعا بالطعام ، وأصحابى حديثو عهد بلين العيش . وقد تجوعت له . فأتى بخبز يابس وأكسار بغير إدام . فجعل أصحابى يعافون ذلك ، وجعلت آكل فأجيد الاكل

وقال بعد أن راجعه الربيع فى شأن طعامه ، ولوح له بالطيبات : لو نشاء لملأنا هذه الرحاب من صلائق (٢) وسبائك (٣) وصناب (٤) ولكنى رأيت الله نعى على قوم شهواتهم، فقال : أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها

ثم أمر أبا موسى أن يقرنى وأن يستبدل بأصحابى

وهذه القصة تدلك على شيئين معاً : ١ ـ كيف كان يعيش خليفة المسلمين ٢ ـ ما الذى كان يحب من ولاته وعماله فى مختلف البقاع

ولا تظنن أنه كان ينكر منهم اتخاذ الطيبات من الرزق ، لان ذلك فى نفسه محرم أو منكر فى حكم الدين ، (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) . بل انما ينكر ذلك منهم خشية أن يصيبوه من الأموال العامة التى يقومون على جبايتها لبيت المال ، أو يصيبوه بقوة المنصب من ظلم إنسان ، أو مصانعة آخر على حساب النفع العام

هذا إلى أن ظهور الولاة والعمال فى الأبهة، وتقليب الأعطاف فى المناعم ، مما يثير حسد العاجزين، ويستدرج القادرين لعيش الترف والاقبال على أسباب النعيم . وفى هذا وهذا بلاء عظيم

* * *

أما حمايته للحريات العامة ، وشدة حرصه على المساواة بين الناس، لا تفريق فى ذلك بين كبير

(١) يرفأ : مولى عمر (٢) الصلائق : ضرب من اللحوم يطبخ أو يشوى
(٣) السبائك : الرقاق (٤) الصناب : طعام يتخذ من خردل وزبيب

ARCHIVE http://Archive...

وصغير ، ولا تمييز بين سوقة وأمير . فاليك ، على هذا أنصع الأمثال :

عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال :

« كنا عند عمر بن الخطاب ، إذ جاءه رجل من أهل مصر ، قال : يا أمير المؤمنين ، هـذا مقام العائذ بك . قال : ومالك ؟ قال : أجرى عمرو بن العاص الخيل بمصر ، فأقبلت فرس لى ، فلما تراءاها الناس، قام محمد بن عمرو ، فقال : فرسى ورب الكعبة . فلما دنا منى عرفته ، فقلت: فرسى ورب الكعبة ، فقام يضربنى بالسوط ، ويقول : خذها وأنا ابن الأكرمين !

وبلغ ذلك عمرا أباه ،فحبسنى فى السجن ، فانفلتُّ منه ، وهذا حين أتيتك

قال أنس : فوالله ما زاد عمر على أن قال : اجلس . ثم كتب الى عمرو : إذا جاءك كتابى هذا فاقبل ، وأقبل معك بابنك محمد . وقال للمصرى : أقم حتى يأتيك

فدعا عمرو ابنه ، فقال : أحدثت حدثا ؟ أجنيت جناية ؟ قال : لا ! قال : فما بال عمر يكتب فيك ؟ فقدما على عمر

قال أنس : فوالله انا لعند عمر بمنى اذ نحن بعمرو ، وقد أقبل فى ازار ورداء . فجعل عمر يلتفت ، هل يرى ابنه . فاذا هو خلف أبيه . فقال : أين المصرى ؟ فقال : هأنذا . قال : دونك الدرة (١) ، اضرب ابن الأكرمين !

قال (يعنى أنس) : فضربه حتى أثخنه . ونحن نشتهى أن يضربه . فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين ! ثم قال : أحلها على صلعة عمرو ، فوالله ما ضربك الا بفضل سلطانه . فقال : يا أمير المؤمنين ، لقد ضربت من ضربنى . ولقد استوفيت واشتفيت . فقال : أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه ، حتى تكون أنت الذى تدعه . أيا عمرو ، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ فجعل يعتذر ويقول : انى لم أشعر بهذا . .

ثم التفت إلى المصرى فقال : انصرف راشدا ! فان رابك ريب فاكتب إلى

***

ومن أسطع الأمثال كذلك على الانتصاف للمظلوم ، والاقتصاص من الظالم ، مهما جل قدره وعلا مكانه . ما روى من أن جبلة بن الأيهم (آخر ملوك بنى غسان) لما أسلم وقدم مكة حاجا ، مضى يطوف بالبيت ، فداس رجل من بنى فزارة ذيل ردائه ، فانحلت أزراره ، فلطمه جبلة على وجهه . فاستعدى الفزارى عليه عمر ، رضى الله عنه ، فدعا به وخيره بين أمرين : إما أن يرضى الفزارى ، وإما أن يقيده (٢) منه . قال : يا أمير المؤمنين ، أتقيده منى وأنا ملك وهو سوقة ؟ قال ! ولكن الاسلام قد سوى بينكما !..

(١) الدرة ، بكسر الدال : السوط يضرب به (٢) القود بفتحتين : القصاص

وان من أبلغ الآيات على إيثاره للمنفعة العامة . وليغضب ، بعد ذلك ، من يشاء ، ولو تعلق مقامه بأسباب السماء :

ماروى من أن أبا سفيان ابتنى ، فى خلافة عمر ، داراً بمكة . (وأنت تعرف من أبو سفيان . سؤدد فى الجاهلية وشرف في الاسلام) . فأتى أهل مكة الى عمر ، فقالوا : قد ضيق علينا الوادى ، وسيل علينا الماء . فأقبل عمر ، ومعه الدرة ، فاذا أبو سفيان قد نصب أحجاراً ، فقال له : ارفع هذا ، فرفعه . ثم قال : وهذا وهذا . حتى رفع أحجاراً خمسة أو ستة . ثم استقبل الكعبة فقال : الحمد لله الذى جعل عمر يأمر أبا سفيان ببطن مكة فيطيعه !

وهذا الذى أوردنا من دلائل ديمقراطية الخليفة عمر بن الخطاب قليل جداً من كثير جداً ، لقد احتفلت به كتب التاريخ وكتب السير جميعاً . على أن فيه غنى وكفاية فيما حررنا له هذا المقال . فمن شاء مزيداً فليطلب ما شاء من تلك الكتب ، ففيها الآيات الكثار ، والمناهل الغزار

***

وبعد ، فلعله تتعاظمك من عمر بن الخطاب هذه الشدة أو هذه الغلظة ، كما يصفون . على أنك ، لو حققت النظر ، وحددت الفكر ، لرأيت أن الأسلام والعروبة كليهما مدينان لهذه الشدة أو هذه الغلظة بقدر كبير . فان عدم ترخص الرجل فى اليسير الذى لا بأس به ، ولا يلحق منه جليل أثر ، إنما كان اتقاء لما قد يفضى إليه هذا اليسير من الشر الكثير . وهذا من باب « سد الذرائع » فى تعبير الفقهاء

ولا تنس ، بعد هذا ، أن الرجل كان يضطلع بأعباء أمة ناشئة ، لها فى الأرض مطالب حق ضخام . فهى أحوج ما تكون إلى شيوع البطولة ، والعفة ، والقصد ، والحمل على النفس ، واجتناب البغى ، والتعالى على الغير ، والبعد عن أسباب الترف ، والتقلب فى مناعم الحياة . وأنت خبير بأنها مما تضعف معه النفوس ، وتسترخى العزائم ، وتتزايل الارادات . وهذا مما لا يتسق لأمة تريد أن تبنى المجد الضخم ، وهى إنما تبنيه على شدة العقول ، وقوة العزائم ، كما تبنيه على أسلات الرماح

وما لنا نخوض فى هذه القضايا النظرية ، وبين أيدينا ما أجدت غلظة عمر على العربية والأسلام .

هذه غلظة عمر ، أو هذا حزم عمر وعدل عمر ، لا يلبث أكثر من بضع عشرة سنة ، حتى يفتح بين يدى أولئك الأعراب من سكان الصحراء ، أعز البلاد منعة ، وأخصبها رقعة ، وأعظمها شانا ، وأقواها سلطانا . وعند امبراطوريتى فارس والروم وملك مصر الجواب الصريح

عبد العزيز البشرى

مكانة الأقطار العربية فى الحرب الحاضرة

بقلم الاستاذ محمد عبد الله عنان

للاقطار العربية مكانة هامة فى هـذه الحرب . وللرأى العام العربى أثر خاص فى باقى الأمم الاسلامية . وقد كان العالم العربى دائما منطقة هامة من مناطق التوجيه السياسى فى السياسة الشرقيـة لمعظم الدول الـكبرى . وهى أهمية تضاعفها حوادث الحرب الحاضرة التى يقوم فيها الصراع بين الديمقراطية والديكتاتورية كما ترى فى هـذا المقال

كانت الامم العربية حينما نشبت الحرب الكبرى فى سنة ١٩١٤ ينضوى معظمهـا تحت لواء الدولة العثمانية ، وكانت تشعر فى قرارة نفسها بأن نشوب هذه الحرب انما هو نذير الخلاص من أسرها الطويل ، فلما دخلت تركيا الحرب الى جانب الدول الوسطى أدركت ان ساعة العمل قد حانت ، ولم تتردد فى اختيـار الطريق الذى اعتقـدت أنه يؤدى الى تحقيق أمانيها • وانضمت الى جانب بريطانيا العظمى وحلفائها ، وانتهت الحرب الكبرى بهزيمة المانيا وتركيا ، وانحلال الدولة العثمانية الذاهبة ، وخلاص الامم العربية من نيرها

ولكن سرعان ما أدركت الامم العربية انها لم تجن من انتصار الحلفاء ما كانت تؤمل ، وان الظافرين لم يعنوا بتحقيق الوعود التى قطعوها على أنفسهم ابان المحنة من معاونة الامم العربية على نيل استقلالها وانشاء الدولة العربية الكبرى ، وما الى ذلك من وعود ذهبيـة كانت تملأ جوانح العرب ، واختتمت الحرب بمأساة الانتداب وعهد بلفور ، وتقسيم الامم العربية ووضعها تحت أنواع جديدة من الوصاية

واضطرت الامم العربية الى خوض مراحل جديدة من الـكفاح • وكان مما يشـدد عزائمها ، ويسدد خطواتها ، أن فريقا من ساسة الحلفاء بعد الحرب ، كانوا ينعـون على الدول الظافرة نقضها لعهودها وينادون بخطأ السياسة التى اتبعت فى فرساى ثم فى مؤتمر سان ريمو (مؤتمر الانتدابات) ويجاهرون بعطفهم على أمانى العرب ومطالبهم المشروعة . وقد تمخضت هذه الجهود فى الاعوام الاخيرة عن عهـد جديد من التفاهم بين العرب وحلفائهم القدماء ، واستطاعت بعض الامم العربية ان تحقق شطرا من أمانيهـا وان تفوز بنوع من الاستقلال الذاتى

***

ونشبت الحرب الحاضرة والامم العربية تجيش بمختلف الآمال والامانى وترقب تقلبات الحرب ومصايرها بمنتهى اليقظة والاهتمام. ذلك أنها تشعر بخطورة البواعث التى أذكت ضرام هذا النضال بين القوتين العالميتين الفاشستية والديمقراطية ، وخطورة النتائج التى يمكن أن يسفر عنها ، وتشعر بعد الذى رأته من انهيار صروح الامم الاوربية العريقة تحت ضربات النازية الوحشية ، ان الامم الضعيفة لم يبق لها حساب فى الوجود ، وأنه اذا قدر الفوز فى هذه الحرب للقوة الغاشمة التى تبطش بأقدس الحقوق القومية وتسحقها فانها أى الامم العربية ، لا يمكن الا أن تغدو فريسة لاشنع ضروب الاستعمار والاستعباد

على أنه اذا كانت الامم العربية تشعر من هذه الناحية بضعفها المادى فهى تشعر فى نفس الوقت بأهميتها ومكانتها الخاصة فى الحرب الحاضرة. وقد عرفت منذ الحرب الكبرى أهمية الدور الذى يمكن ان تؤديه فى مصاير هذا النضال الذى ينشب للمرة الثانية بين نفس القوتين الخصيمتين، وهى ترى اليوم نفسها الى جانب الديمقراطية وبريطانيا العظمى. وليس وقوفها الى جانب هذا الفريق محض مصادفة ، فان الامم العربية ميالة بطبيعتها وطبيعة تكوينها التاريخى الى حب الحرية ومناصرة النظم الحرة، وهى تنشد اليوم استقلالها وحرياتها ، فليس ينتظر منها أن تناصر نظما كالنازية والفاشستية ، تغرق فى الطغيان وتنادى بسحق الامم الضعيفة ، ولا ترى فى الشعوب الشرقية سوى أمم منحطة خلقت للاستعباد والاستغلال

وهذه المكانة الخاصة التى تشعر الامم العربية بتبوئها فى النضال الحالى ترجع الى عوامل جغرافية وعسكرية كما ترجع الى عوامل سياسية واجتماعية . فأما العوامل الجغرافية والعسكرية فتبدأ بمصر وقناة السويس . ومن المسلم به ان لموقع مصر الجغرافى أهمية خاصة فى الحرب الحاضرة ، فهى مفتاح الشرق الادنى ، وهى باحتوائها على قناة السويس تعتبر مجاز الامبراطورية البريطانية وشريانها الحيوى ، وثغرها الاول ملاذ الاسطول البريطانى فى شرقى البحر الابيض المتوسط ، هذا فضلا عن أنها قاعدة حيوية لتموين القوات الامبراطورية فى سائر ميادين الشرق الادنى. ولكل من سوريا وفلسطين أهميتها الاستراتجية أيضا ، فسوريا متاخمة لتركيا والعراق ، ومنها يمكن رد القوات الغازية ومعاونة تركيا الحليفة أو مهاجمة تركيا الخصيمة . وفلسطين منتهى طريق الهند البرى ومخرج أنابيب الزيت الممتدة من العراق . وأما العراق فأهميتها الجغرافية والعسكرية واضحة فهى تحتوى على منابع الزيت الغنية فى الموصل ، وهى حلقة حيوية فى طريق الهند البرى ولاشرافها بثغرها البصرة على الخليج الفارسى أهمية خاصة، وقد كانت العراق دائما هدفا من أهداف السياسة الامبراطورية الالمانية ، وكان مشروع خط برلين ـ

بغداد والاشراف على الخليج الفارسى يحتل المقام الاول بين مشاريعها الاستعمارية • وقد لمسنا فى الحوادث العسكرية التى جرت منذ أشهر فى العراق ثم فى سوريا مبلغ الاهمية الاستراتجية التى يعلقها الفريقان المتحاربان على احتلال هذين القطرين ، ورأينا كيف حرصت بريطانيا على ان تطهر سوريا والعراق ثم ايران من آثار النفوذ الالمانى ، وان تجعل من هذه الاقطار جبهة دفاعية موحدة ضد أى غزو محتمل تقوم به قوات المحور

وأما عن العوامل السياسية والاجتماعية ، فقد دلت الحوادث غير مرة على ما يعلقه الفريقان المتحاربان من أهمية خاصة على عطف العالم العربى ومناصرته الادبية ، وللرأى العام فى العالم العربى أثر خاص فى باقى الامم الاسلامية التى تمتد من مراكش غربا حتى الهند وجزائر الهند الشرقية شرقا ، وتحتل مصر فى هذا التوجيه الادبى المقام الاول – فهى زعيمة التفكير العربى وحاملة لواء الثقافة الاسلامية، ولنفوذها الادبى والثقافى أثر ملحوظ فى جميع الامم العربية والاسلامية • وقد كان العالم العربى دائما منطقة هامة من مناطق التوجيه السياسى فى السياسة الشرقية لمعظم الدول الكبرى ، وهى أهمية تضاعفها حوادث الحرب الحاضرة ، ومن المعروف أن الدعاية الالمانية لم تدخر وسعا فى استمالة العالم العربى بمختلف وسائل الاغراء والدرس والخديعة ، وقد بدأت جهودها فى ذلك السبيل قبل الحرب بأعوام ، وأسفرت هذه الجهود فى بعض الاحيان عن نتائج خطيرة ، كما دلت عليه فتنة العراق الاخيرة • وتحاول السياسة البريطانية من جهة أخرى ان تطمئن الامم العربية على مستقبلها السياسى ، وان تمحو بوعودها الحاضرة ما تركته سياسة الحلفاء عقب الحرب الكبرى فى الامم العربية من أثر سيىء ومن خيبة أمل ، ولم تدع تصريحات مستر ايدن التى ألقاها منذ بضعة أشهر فى هذا الصدد مجالا للريب فى ان بريطانيا العظمى تشعر بما تحمل من تبعات والتزامات أدبية نحو الامم العربية ونحو العمل على تحسين مستقبلها وتحقيق أمانيها • ولا ريب ان الامم العربية يحق لها بما بذلت فى الحرب الماضية وما تبذل فى هذه الحرب من جهود مادية وأدبية لمؤازرة بريطانيا العظمى وقضية الديمقراطية ، أن تتطلع الى وفاء السياسة البريطانية بعهودها والى تحقيق أمانيها

والخلاصة ان الامم العربية تشعر شعورا قويا بالمكانة التى تشغلها فى النضال الحالى بين الدول العظمى ، وهى مكانة لها أهميتها وخطورتها سواء من الناحيتين الحربية أو السياسية • وهى ترقب تطورات هذا النضال بقظة غير غافلة ، محاولة ان تستشف من حجب المستقبل مصاير أفضل من مصايرها الحاضرة ومثلا للحياة الكريمة الحرة تتفق مع ماضيها العريق وتراثها التالد

محمد عبد الله عنان

التعاون الحربي

بين العرب والامم الديموقراطية فى الحرب الماضية

أتاحت الحرب العالمية الماضية الفرصة للعرب والدول الديموقراطية للتعاون معا ليس فقط في ميدان السياسة بل أيضا وعلى الاخص في ميادين الحرب شرقا وغربا • وقد تم ذلك التعاون على أوسع وجه وأسفر عن نتائج باهرة

فقد إشتبكت الدول الديموقراطية ـ أى الحلفاء ـ في سنة ١٩١٤ فى حرب مع المانيا وحليفاتها النمسا وتركيا وبلغاريا ، وكان العرب الخاضعون للحكم العثماني في ذلك الوقت يتوقون الى التحرر منه • كما أن شعوبا عربية أخرى كانت خاضعة لحكم فرنسا وانكلترا • فماذا فعلت تلك الشعوب وأية مساعدة حربية قدمت للحلفاء وهل كانت لمساعدتهم قيمة تذكر ؟

اليك الجواب عن هذه الاسئلة ؟

عند ما نشبت الحرب في سنة ١٩١٤ كان الخلاف قد بلغ حده الاقصى بين رجال تركيا الفتاة من ناحية وزعماء الحركة العربية اللامركزية من ناحية أخرى • ولا نقول الحركة « الانفصالية » لان العرب ما كانوا وقتئذ يريدون الانفصال عن الدولة العثمانية ، بل كانوا يطالبون بانشاء نظام لامركزي للحكم ، تتمتع بموجبه الاقطار العربية بنوع من الاستقلال الداخلي الضيق ، ضمن نطاق الامبراطورية العثمانية • أو بعبارة أخرى ، كان العرب يطالبون بأن يكون لهم نصيب أوفر من الادارة والحكم

لكن سياسة الباب العالي أدت الى فشل كل محاولة قام بها قادة الحركة اللامركزية ، ومن ثم الى تحويل هذه الحركة الى عداء صريح فثورة مسلحة

وجاءت الحرب العالمية فأعطت العرب فرصة نادرة لكي يأخذوا بالقوة ما كان الترك يرفضون اعطاءهم اياه بالحسنى ، ويمكن أن يقال هنا أن العرب طبقوا بالرغم منهم قول المثل السائر : « الحرية تؤخذ ولا تعطى »

الثورة العربية

نشبت الثورة العربية اذن في الحجاز حيث رفع لواءها المغفور له الملك حسين ـ وكان في ذلك الوقت يلقب بشريف مكة ـ فهرع العرب من مختلف الاقطار والامصار ، وعلى الخصوص من العراق وسورية ، الى الانضواء تحت ذلك اللواء ، واندفعوا خفافا شجعانا الى ميادين القتال لكي يأخذوا من الترك ما رفض هؤلاء ان يعطوه

وتألف جيش الثورة العربيـة من نوعين من المقاتلين : من الجنود النظاميين ، ومن المتطوعين من رجال القبائل البدوية • وكان يقود الجيش النظامى القائدان جعفر باشـا العسكرى ونورى بك السعيد (وهو نورى باشا الآن) ويقود القبائل الثائرة زعماؤها ومشايخها ، تحت اشراف أنجال الحسين وهم على وفيصل وعبد الله

وكان التعاون تاما بين الجيوش العربية العاملة فى الحجاز وبادية الشام وشرق الاردن، وبين الجيوش الحليفة العاملة فى فلسطين وفيما بعد فى العراق • فان كل حركة كان يقوم بها العرب فى الميادين المخصصة لهم ، كانت تتم بالاتفاق مع القيادة العليا لجيوش الحلفاء فى الشرق ، أى مع الجنرال اللنبى وأركان حربه • وقد ظل هذا التعاون قائما الى نهاية الحرب ، فاستخلص العرب من أيدى الترك ولاية الحجاز ، والبقاع الواقعـة شرق فلسطين ، ودخلوا دمشق وحمص وحماه وحلب وبيروت • ولعب الكولونيل لورنس وغيره من البريطانيين أدوارا هامة فى ذلك الزحف الموفق من مكة الى ساحل البحر الابيض المتوسط

عرب افريقية الشمالية

وبينما كان رجال الثورة العربية يتعاونون فى الشرق الادنى مع الجيوش الحليفة ، كان مئات الآلاف من عرب أفريقية الشمالية يجودون بأرواحهم فى الميادين الغربيـة ويدهشون البريطانيين والفرنسيين وحلفاءهم بما يقومون به من أعمال البطولة والفروسية النادرة • فان فرنسا وجهت فى ذلك الوقت نداء الى سكان المغرب والجزائر وتونس والصحارى الافريقية دعتهم فيه الى التطوع وحمل السلاح فى صفوف جيشها للدفاع عن « الحرية والعدالة وحقوق الشعوب » فاندفع أولئك العرب الاشاوس اندفاع السيل لتلبية النداء ، وخاضوا غمار المعارك فى فرنسا من أول الحرب الى آخرها

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

المهاجرون

وليس هذا كل ما حدث • بل ان عددا كبيرا من السوريين واللبنانيين تطوعوا أيضا فى الفرقة الاجنبيـة الفرنسية ، أو فى جيش الشرق الفرنسى الذى اشترك فى الحملة على فلسطين وسورية ، فأخذوا نصيبا وافرا من المعارك التى دارت رحاها فى الشرق والغرب

وفى الوقت نفسه، تقدم آلاف من العرب المهاجرين الى أمريكا يطلبون التطوع فى الحملة الامريكية التى أرسلت الى فرنسا بعد دخول الولايات المتحـدة الحرب بجـانب الحلفاء ، فساهم أولئك المهاجرون العرب فى الجهاد المشترك الذى قام به اخوانهـم فى الدولة العثمانية وأفريقية الشمالية

نصيب مصر فى هذا التعاون

ويمكن القول أيضا بأن مصر أخذت نصيبها من ذلك التعاون الحربى مع الحلفاء فى تلك الملحمة العالمية ، فقد أرسلت حملة مصرية الى الحجاز، وقامت فرقة العمال المصريين بمجهود عظيم كان له أكبر أثر فى بلوغ النصر النهائى فى الشرق الادنى

فالتعاون الحربى بين العرب والحلفاء فى الحرب العالمية الماضية كان اذن واسع النطاق ولم يقتصر فقط على البلدان العربية نفسها بل تعداها الى أوربا فحارب العرب فى فرنسا والبلقان فى الوقت الذى كانوا يحاربون فيه أيضا فى الحجاز وفلسطين وبادية الشام والعراق

فائدة هذا التعاون

وأما الفائدة التى جناها الحلفاء من تعاون العرب معهم فى تلك الحرب ، فانها لاتنكر، وقد اعترف بها الحلفاء أنفسهم وأقروا بأنها كانت عاملا من العوامل الفاصلة التى أدت الى النصر

ففى الشرق الادنى ، كانت الثورة العربية سببا لتمزيق وحدة الجيش التركى بحمل الجنود العرب فيه على التهاون والتمرد والفرار للالتحاق بأخوانهم الثائرين . وبدل ان يحارب العرب فى صفوف الترك راحوا يحاربونهم ، فكأن شطرا كبيرا من الدولة العثمانية قد انفصل عنها للانضمام الى أعدائها

وفى الغرب ، أى فى فرنسا ، حمل الجنود العرب من أبناء أفريقيا الشمالية جزءا من العبء الثقيل الذى ألقى على عاتق الجيش الفرنسى، وضمن لفرنسا زيادة قوتها من ناحية، والاطمئنان على الامن فى ممتلكاتها العربية ، لان سكان المغرب والجزائر وتونس لزموا السكينة وصاروا يتطلعون الى اخوانهم المحاربين فى الميدان الغربى ، راجين لهم الانتصار على أعداء فرنسا وقد أصبحوا أعداءهم

وأما العرب الذين تطوعوا فى الفرقة الاجنبية والجيش الامريكى ، فقد ساهموا فى احراز النصر مساهمة فعالة حملت الحكومتين الفرنسية والامريكية على مكافأتهم والاقرار بفضلهم

واذا كان العرب اليوم يقفون فى صف الديموقراطية ويتعاونون معها ، فليس فى هذا ما يدعو الى الدهشة . فالعرب ديموقراطيون بالفطرة . والمبادىء التى تحارب الدول الديموقراطية من أجلها، هى مبادىء يقدسها العرب ويريدون لها أن تسود العالم. فعسى الديموقراطيات إن تخرج من هذه المحنة ظافرة موفقة ، فتعم الحرية الشعوب صغيرها وكبيرها ، ويتمتع بالاستقلال من حرم منه ، وتحقق الامانى القومية التى تخالج نفوس العرب فى مختلف أوطانهم

ح . ج

بلاد العربية

حلفاء طبيعيون للدول الديمقراطية

بقلم الدكتور محمود عزمى

ما كان لبلد من بلاد العربية الا أن يقف من دول الديمقراطية بموقف التضامن معها والتأييد لها . وهو الموقف الذى تحتمه مصلحة كل بلد من هذه البلاد

أريد هذا المقال واقعيا : أتجه به الى العقل الخالص ، وأستند فيه الى المنطق المحبوك ، وأعالج خلاله المنفعة الحقيقية

والواقع ان هناك حربا طاحنة بين فريقين من الدول الكبرى ، اصطلح على نعت أحدهما بالديمقراطى لانه يرعى اعتبار الكرامة البشرية ويقيم وزنا للشخصية الانسانية وعلى نعت ثانيهما بالدكتاتورى لانه لا يعبأ الا بكلية الدولة ولا يعرف غير سطوة الزعيم، وان كنت أحسب ـ واقعيا ـ ان التنافس بينهما انما هو فى سبيل السيطرة على العالم يريدها كل منهما لنفسه خالصة كاملة ولا تدخل فيها الاعتبارات الديمقراطية أو الدكتاتورية الا دخول أساليب الاخذ ووسائل التحقيق

هذا واقع • وواقع الى جانبه ان تلك الحرب الطاحنة تمس جميع بلاد العالم ـ وقد أصبح بفضل تجاوب التيارات فيه وتفاعل المصالح متضامن الاحساس ـ وتعنى صميم بنى الانسان لا يفلت من أثرها أحدهم ولا لا يكترث لها الا من أراد لنفسه ان يكون فى عداد الحيوان أو الجماد • وواقع الى جانب هذا وذاك ان بلاد العربية تتجاوب التيارات فيها وتيارات سائر البلاد وتتفاعل مصالح أقوامها ومصالح سائر الأقوام • فكان طبيعيا ان يساورها الاهتمام بموقفها من ذلك النضال القائم بين الفريقين المتسابقين

وبلاد العربية هى ذلك الكل المتلاصق من المحيط الاطلنطى الى الخليج الفارسى ومن جبال طوروس والاكراد الى أواسط أفريقا والمحيط الهندى شاءت الاوضاع الجغرافية و « الاتنولوجية » ان تجعل منه ثلاث كتل تتوسطها رابعة متجانسة عناصر كل منها

تجانسا تاما : كتلة المغرب من مراكش الى برقة ، وكتلة المشرق من فلسطين وسائر بلاد الشام الى العراق ،وكتلة العربة الاصيلة من الحجاز ونجد الى اليمن وحضرموت ، توسطها أو تنظم عقدها ـ وهى فيه ـ كتلة مصر والسودان والصومال ، كما شاءت ان يحكم أواصر حقبة طويلة من التاريخ حادثان عظيمان : تعاليم الاسلامية ، ولغة قحطان

والفريقان المتحاربان:فريق الديموقراطية انجلتراوروسيا والولايات المتحدةالاميريكية وفرنسا رغم كبوتها ، أو ان شئت تعبيرا أقرب الى الواقع « والفرنسيون » ، وفريق الدكتاتورية المانيا وايتاليا واليابان • فالى أيهما اذن يسوق بلاد العربية عقلها الخالص ويميل بها منطق الاشياء المحبوك وتدفعها منفعتها الحقيقية ؟

ذلك هو السؤال • ويقتضى الجواب رجوعا الى بعض اعتبارات سياسية والقاء نظرة على خريطة الكرة الارضية • أما الاعتبارات السياسية التى نقصدها فنقرر ان علاقات قامت خلال فترة التاريخ الحديث بين انجلترا وفرنسا والمانيا وايتاليا من ناحية وأقطار من بلاد العربية من ناحية ثانية ، وتنطق ـ واقعيا ـ أنها لم تكن من العلاقات التى ترضى عنها بلاد العربية لكنها تنطق كذلك أنها كانت محل تطور الى خير ـ قليل أو كثير بطىء أو سريع لكنه خير فى عموم ـ بين هذه البلاد ودولتى انجلترا وفرنسا ، كما تنطق صارخة بأنها كانت محل تطور الى شر فى عموم أيضا بينها وبين دولتى المانيا وايتاليا • يدل على الخير ما صارت اليه العلاقات الانجليزية المصرية والانجليزية العراقية من معاهدة صداقة وتحالف وما هى صائرة اليه العلاقات الفرنسية السورية والفرنسية اللبنانية من اعتراف بالاستقلال وتعاقد بمعاهدة ، وما هى صائرة اليه كذلك العلاقات الانجليزية الفلسطينية بعد استقرار الامور فى سورية وفى لبنان ، والعلاقات الفرنسية المغربية اذا ما امتدت يد الفرنسيين الاحرار الى شؤون تونس والجزائر ومراكش قياسا على ما كان من أمرهم حين تولوا شؤون سورية ولبنان • ويدل على الشر ما آلت اليه العلاقات الايتالية اللوبية والايتالية الجبشية ـ قبل استرداد الحبشة ـ من اعتبارات الضم ومطاردة الاهلين الاصيلين للاستيلاء على مناطقهم الساحلية الخصبة والدفع بهم الى الجدب والصحراء كما يدل عليه أيضا ما كان من وحشية العلاقة وحيوانية المعاملة بين الالمان ومنهم وسكان المناطق التى كانت مبتلاة باستعمارهم قبل الحرب العالمية الماضية

وكذلك تقرر تلك الاعتبارات السياسية ان لم يكن بين بلاد العربية وروسيا اتصال مشين ، ولم يكن بينها وبين الولايات المتحدة الامريكية الا كل عطف من جانب الامريكيين وعرفان من جانب « العربيين » ، تنطق بهما تلك المنشئات التهذيبية والخيرية الاميريكية المنتشرة خلال بلادالعربية ، كما تنطق نتيجة الاستفتاء الذى جرى فى بلاد الشام عقب هدنة سنة ١٩١٨ فاتجهت رغبة الناس فيه الى الولايات المتحدة اتجاها جليا

وأما النظرة الىخريطة الكرة الارضية فتظهر قرب الجوار بين بلاد العربية والولايات المتحدة الاميريكية عن طريق ساحل مراكش الاطلنطى وهو الساحل الذى اعتبرته أميريكا

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

حدا لنصف الكرة الغربى ، وتظهر هذا القرب بينها وبين روسيا عن طريق تركيا وايران المتاخمتين لبلاد الشام والعراق ، كما تظهره بينها فى أفريقيا وآسيا على السواء وبين الامبراطورية البريطانية ما دامت أفريقيا الجنوبية جزءا من أجزائها المستقلة ومادامت الهند صائرة الى هذا الاعتبار ذاته

ويضاف الى قرب الجوار وسهولة الاتصال اعتبار التبادل الاقتصادى وانجلترا وامريكا بتفوقهما الصناعى هما العميلان الاولان بين عملاء بلاد العربية التى لا تزال فى الفترة الزراعية من حياتها الاقتصادية ، وذلك على الرغم مما كانت ايتاليا وكانت المانيا وكانت اليابان تبذله قبل الحرب القائمة من منافسة فى الاسواق

***

والى هنا نقف بالتدليل دون أن نعرج الى اعتبارات ما يفصل بين تعاليم الاسلامية العربية وتعاليم النازية والفاشية من هوة سحيقة يكتنفها الانشاء والتسامح والمساواة بين الاجناس والاديان والالوان من ناحية والهدم والتعصب والتميز بالدم الموهوم من ناحية مقابلة • ذلك بأنا نريد الا ندخل العاطفة والذاتية فى هذا المقال بل نريده كما قدمنا واقعيا عقليا منفعيا ليس غير

ويصل بنا ما سقنا من تدليل الى ان العقل السليم والمنطق المحبوك والمنفعة الحقيقية تصرخ كلها بأن طبيعة الاشياء فى بلاد العربية تقتضى بان تكون وجهة هذه البلاد هى وجهة التضامن المتين مع دول الديموقراطية فيما هو قائم بينها وبين دول الفاشية من عراك على الحياة أو الموت

والواقع ان بلاد العربية قد ولى القادر منها تلك الوجهة بالفعل ، ولا شك ان غير القادر منها الآن يولى نفس الوجهة حين تفك عنه قيود حرية الاختيار كما هو الحال فى تونس والجزائر ومراكش وان كانت هذه البلاد مولية بالفعل تلك الوجهة ولا تنقصها الا القدرة على الاعلان

الا ترى الى فلسطين وقد اختطت لنفسها خطة الهدوء بعد القيامة حتى لا تعرقل جهود انجلترا فى سبيل الدفاع عن امبراطوريتها ؟ أولا ترى الى شرق الاردن وقد هبت قواته تجتاز الحدود العراقية الى الرطبة لتقضى فيها على حركات انصار رشيد عالى حين قام بثورته وانقلابه ؟ أولا ترى اليه وقد عادت قواته بعد ان اشتركت فى اخماد ثورة العراق الى الاشتراك فى محاربة جيوش « فيشى » فى سورية فكان لها فضل الاستيلاء على « تدمر » ؟ أولا ترى الى رجالات العراق وقد تكاتفوا بعد اخماد ثورة رشيد عالى ليقروا الامور فى نصابها ويعلنوا تضافرهم فى سبيل تنفيذ المعاهدة العراقية الانجليزية تنفيذا كريما صريحا؟ أفلا ترى الى ما كان من أمر سوريا ولبنان بمجرد ان دخلتهما قوات الحلفاء من تنفس الصعداء واطمئنان الى المستقبل بعد اعلان استقلال سوريا وقبيل اعلان استقلال لبنان ؟ ثم الا ترى الى مصر وقد اختارت بالفعل طريقها وحددت بالذات موقفها منذ قيام الخلاف

ARCHIVE

بين الديموقراطيين والدكتاتوريين ، فقطعت علاقاتها الدبلوماتية بدولتى المحور بمجرد اعلان كل منهما الحرب على دولتى الديموقراطية ، وأحسنت اقبالها على تنفيذ ارتباطاتها فى المحالفة القائمة بينها وبين بريتانيا العظمى ، ونسقت نشـاطها العسكرى والداخلى والخارجى مع وجهات نظر الحليفة ، وحرصت على ان تسود العلاقات بينهما روح التفاهم والود والتضامن ، وقابلت بالفرح انتصارات الديموقراطية فى برقة وفى الحبشة واسرعت الى التهنئة عليها من كل جانب ، وتدخلت لدى حكومة رشيد عالى اشفاقا ان يكون من جراء موقفها الانقلابى تبطئة لحركة جزء ولو ثانوى من اجزاء آلة النصر الديموقراطى ؟

***

ذلك هو التدليل على تضامن بلاد العربية ودول الديموقراطية ، وهذا هو الموقف الذى وقفته بلاد العربية فعلا من دول الديموقراطية ، وهو الموقف السليم الذى تمليه اعتبارات العقل الخالص والمنطق المحبوك والمنفعة الحقيقية الى جانب اعتبارات العواطف والكرامة التى قصدنا الى عدم تناولها بالبحث فى هذا المقال قصدا

وما كان لبلد من بلاد العربية ان يقف غير هذا الموقف الذى تحتمه مصلحة كل بلد من هذه البلاد، ذلك بان بلاد العربية حلفاء طبيعيون لدول الديموقراطية

محمود عزمى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لسنا نجهل أن نظام العمل الحر هو الأساس الأول للديمقراطية العاملة ، ولا نجهل أن من الأعمال الأولى التى قامت بها دكتاتوريات المحور محو جميع المبادىء والمقاييس التى استطاع العمال وضعها لحفظ كيانهم ورقيهم ، فمبادىء اتحاد العمال فلسفة محظورة بموجب هذه القواعد التى وضعها الدكتاتوريون المخربون ، لأنها مبادىء ساعدت على إعطاء كل من يكد ويعمل المركز الذى يستحقه من الكرامة والمهابة (روزفلت)

وحدة التقاليد الديمقراطية
هى سياج الأمم البريطانية الحرة

بقلم الاستاذ الدكتور احمد محمد ابراهيم
مدير ضرائب القاهرة

أثبت سير الحوادث ان الاشتراك الحر بين أجزاء الامبراطورية البريطانية هو أقوى من سائر الروابط القانونية وأن وحدة المثل العليا والتقاليد الديمقراطية هى سياجها القوى ، ودرعها المكين

نزعات واتجاهات عامة : يقول « سلفادور دى ماداریاجا » الكاتب والسياسى الاسبانى المشهور أنه اذا كانت الامبراطورية الاسبانية قد غلبت عليها منذ نشأتها العاطفة الدينيـة ومن ثم كان الاعتقاد السائد فيها أن على الدولة المستعمرة واجب تنصير السكان الوطنيين وأنه اذا كانت الامبراطورية الفرنسية قد لازمتها العاطفة الفكرية ومن ثم كان الاعتقاد السائد فيها أن على الدولة المستعمرة واجب نشر اللغة والثقافة الفرنسية بين الاهلين ، فان الامبراطورية البريطانية على العكس من ذلك لم تقم على عاطفة دينية أو فكرية،وانما كانت وليدة قوة النماء المتدفقة من الجسم البريطانى ، وهى قوة لا تعرف سوى القوى الاخرى التى تعترض سبيلها ، فاذا كانت قوة النمـاء أعظـم من تلك القوى حطمتها ، واذا كانت أضعف منها دارت حولها

ومن شأن قوة النمـاء الدافعة فى الجسم البريطانى ان تجعل السياسة البريطانية فى حركة مستمرة ، وفى هذه الحركة تتجلى روح التعاون التى هى من طبـائع الانجليز وغرائزهم الاساسية ، والتى تحمل الاحزاب المختلفة ــ على الرغم من تنافسها ــ على التساند فى سبيل الغاية المشتركة ، كما هى الحـال عنـدهم فى مباراة الكرة اذ يتعاون الفريقان المتنافسان على تحقيق اللعب ونجاح المباراة . وكذلك شأنهم هنا ، فبينا يعمـل المحافظون على توسيع الامبراطورية يقوم الاحرار فيأخذون عليهم ذلك،ثم اذا ما أرضوا ضمائرهم بهذا الاحتجاج عمدوا بدورهم الى تدعيم البناء الجديد الذى أضافه المحافظون

وذلك بطلائه بطلاء من الحرية والديموقراطية يتخذ شكل استقلال ذاتى أو حكومة تمثيلية أو ما أشبه

بيد أنه اذا كان كل شيء داخل الامبراطورية يتحرك ويتطور كما تقدم ، فانه فى تطوره لا يسير على قواعد واحدة معلومة ولا يتقيد بخطة مرسومة ، شأنه فى ذلك شأن سائر الشئون والنظم البريطانية، ولهذا يبدو على الامبراطورية مسحة التناقض وعدم المنطق • وقد أشار الى هذه الحقيقة المستر رامزى ماكدونالد فى خطبة له بمناسبة يوم الامبراطورية فى ٢٤ مايو سنة ١٩٣٢ فقد جاء فيها ما يأتى « ان بناء امبراطوريتنا غير منطقى ، ولكننا نعلم ان التقيد بالمنطق فى ميدان النظم السياسية يفضى برجال السياسة الى الافلاس •••• انالامبراطورية كائن حى كلما تعاقبت الاجيال وجب ان تتخذ صورا واشكالا جديدة ليتسنى لها أن تعبر عن حقيقة روحها تعبيرا أحسن فأحسن »

وما من شك فى أن الوزير البريطانى حين ألقى هذا القول كان ينظر الى المستقبل من خلال الماضى،وكان يتمثل فى خاطره بالاخص الادوار المختلفة التى مرت بها أنظمةالحكم فى الممتلكات البريطانية التى يطلق عليها اسم الدومينيون ، والتى أفضت بها من مجرد مستعمرات تخضع لسلطان حكومة لوندرة المركزية الى مجموعة من الامم الحرة تؤلف مع بريطانيا العظمى ما يطلق عليه اليوم اسم "British Commonwealth of Nations" (بريطانيا العظمى ـ كندا ـ اتحاد أفريقية الجنوبية ـ استراليا ـ زيلندا الجديدة ـ دولة ايرلندا الحرة) وهو ذلك النظام السياسى العجيب الذى لم يكن له مثيل فى أى عصر من العصور ، والذى لايدخل فى عداد أى نوع من أنواع النظم السياسية المعروفة ، فهو ليس دولة موحدة ولا اتحادا من دول • وهو أيضا ليس تحالفا دوليا • ولكنه شيء جديد غير هذا • ولكى نحيط بأمره يجب أن نرجع قليلا الى الوراء وان نتابعه فى بعض أدوار ارتقائه وتطوره

ونحن فى هذا انما نقصر القول على الممتلكات البريطانية التى هاجر اليها منذ البداية الجنس الابيض الاوربى وبخاصة من المستعمرين الانجليز وتناسل فيها وأصبح يتكون منه السواد الاعظم من سكانها والتى تشتهر اليوم باسم الدومينيون ، ولكننا نترك جانبا النوع الثانى من الممتلكات البريطانية وهى التى تقطنها شعوب غير بيضاء وليس للجنس الابيض فيها سوى السلطة والادارة الرئيسية والتى يطلق عليها اسم مستعمرات التاج ، ويتصل بها الى حد كبير الهند وبلاد الانتداب وتلك التى تحت الحماية ، وهذه جميعا مع تطور بسيط نحو نظام الحكم الذاتى لا تزال خاضعة لسلطة الحكومة البريطانية مباشرة •

الامبراطورية الاولى : ففى الدور الاول وهو ما يطلق عليه اسم دور الامبراطورية الاولى ، كانت الدومينيون مجرد توابع اقتصادية لانجلترا ، وظيفتها الاولى ان تنتج

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

المواد الاولية الغذائية التى تحتاج اليها انجلترا وان تكون سوقا لتصريف منتجات الصناعة الانجليزية ، ومن ثم كان يجرى استغلالها وفاقا لقواعد يتكون منها ما يعرف بالعهد الاستعمارى (Pacte Colonial) وبمقتضى ذلك كان لا يجوز للمستعمرة فى معظم الحالات ان تشترى بضائعها الا من انجلترا والا تبيع لغير انجلترا منتجاتها من المواد الاولية والغذائية، والا تنشىء فيها مصانع لنسج الاقمشة وصنع الحديد والصلب وتكرير السكر ، وبالجملة الا تقوم فيها صناعات تنافس الصناعات الانجليزية والا تنقل تجارتها الخارجية الا على سفن انجليزية

ويظل هذا الدور قائما حتى تنشب الحرب بين انجلترا ومستعمراتها الامريكية فى سنة ١٧٧٤ ، وذلك من جراء ما كانت تعانيه الثانية من عنت الاولى وتحكمها فى شئونها الاقتصادية وفرض بعض ضرائب عليها لم تقبل اداءها ، والحاحها فى المطالبة بألا تفرض عليها الضرائب الا بموافقة مجالسها النيابية ، وقد انتهت هذه الحرب بأعلان استقلال الولايات المتحدة وانفصالها عن انجلترا

الامبراطورية الثانية : وهنا يبدأ دور الامبراطورية الثانية ، وفيه تتمتع الدومنيون بقسط وافر من الحكم الذاتى والحرية الاقتصادية ، ولكن مع احتفاظ حكومة لوندرة بجملة مسائل أساسية تجعلها صاحبة الكلمة العليا فى الدومينيون

وقد كان يظن عقب استقلال الولايات المتحدة ان كندا سوف تحذو حذوها • وان سكان هذه البلاد وقد كان جلهم من الفرنسيين سوف يخلعون نير الحكم الانجليزى سريعا لا سيما وان جيرانهم الامريكيين كانوا قد أرسلوا اليهم بجيش يشد أزرهم فى انتزاع استقلالهم ، ولكن ما يكاد يعد معجزة فى تاريخ البشر تحقق وقتئذ ، فقد رفض الكنديون ان يثوروا ضد حكامهم الانجليز ، وكان الفضل فى ذلك راجعا الى تقاليد الانجليز الاستعمارية ، فهم كما تقدم لا يميلون الى فرض لغتهم وثقافتهم على أبناء البلاد التى يسودونها ، وقد كان فى استطاعة الانجليز فى ذلك العصر الذى ساد فيه استعمال القوة الغشوم ان يحملوا سكان كندا الفرنسيين على هجر لغتهم وثقافتهم بل ودياناتهم الكاثوليكية ، ولكنهم لم يفعلوا شيئا من ذلك وتركوا للقوم حرية التحدث والتعلم بلغتهم واقامة شعائرهم الدينية كما يشاءون • وهكذا نرى انه بقدر ما كانت انجلترا مستبدة وقصيرة النظر فى المسائل الاقتصادية ازاء الثلاث عشرة مستعمرة الامريكية التى انفصلت عنها كانت معتدلة ومتسامحة ازاء كندا وبخاصة فى مسألة الجنسية، وهذا التسامح هو من أظهر صفات الامبراطورية الثانية ، فقد كانت أبواب المستعمرات فيها مفتوحة على مصراعيها يدخل منها الاجانب كما يشاءون ، يعيشون فى المستعمرة ويضربون فى مناكبها على قدم المساواة فى الحقوق مع البريطانيين

وقد كان لكندا منذ سنة ١٧٩١ حكومة تمثيلية (Representative Government)

وكان لها بمقتضى ذلك برلمانها الخاص الذى يؤدى وظيفته التشريعية ، ولم يكن فى ذلك شىء جديد لان المستعمرات الامريكية القديمة كان لها مثل هذه الحكومة التمثيلية ، ولكن الجديد فى الامر هو أن « بيت » ووزراءه أخذوا بعد استقلال الولايات المتحدة يعملون الفكر لجعل الدستور الكندى مماثلا للدستور الانجليزى حتى يكون الكنديون فى كندا محكومين بقدر المستطاع على منوال الانجليز فى بلادهم

وكان أهم ما يشكو منه الكنديون عدم كفاية الصفة التمثيلية لحكومتهم ، لانهم وان كانوا يتمتعون بوجود مجلس نيابى يمثلهم الا ان أعضاء السلطة التنفيذية لم يكونوا مسئولين أمامه وانما أمام الحاكم العام الذى كان له وحده حق تعيينهم ، وكانوا يظلون فى مناصبهم حتى لو لم تكن أغلبية المجلس تؤيدهم ، لذلك كان الكنديون يطالبون بمبدأ الحكومة المسئولة (Responsible Government) والذى بمقتضاه تصبح السلطة التنفيذية مسئولة أمام برلمان كندا وليس أمام الحاكم العام الذى تعينه حكومة لوندرة . وقد انتهت الحكومة الانجليزية الى تقرير هذا المبدأ فى سنة ١٨٤٥ حيث أصدرت تعليماتها الى الحاكم العام بأن يتخذ الوزراء من أشخاص يكونون مسئولين أمام برلمان بلادهم . وقد كان نجاح هذا النظام فى كندا داعيا الى تطبيقه بعد ذلك فى استراليا وزيلندا الجديدة وأفريقية الجنوبية ونيوفوندلاند . وقد كان من أثر ذلك ان أصبحت هذه البلاد تتمتع بأهم مظاهر الشخصية القومية والاستقلال الداخلى ، ولكن مع بقائها فى حظيرة الامبراطورية . وفى هذا الدور وصلت الدومينيون الى درجة العضو (member) فى الامبراطورية ، ولكنها لم تكن بلغت بعد درجة الشريك (partner)

وبالرغم مما نالته الدومينيون من الحقوق الواسعة فقد ظلت حكومة لوندرة فى هذا الدور محتفظة لنفسها بأدارة دفة الشئون الدولية وتنظيم الدفاع الوطنى والتجارة الخارجية فى هذه البلدان جميعا ، وبذلك ظل مبدأ الوحدة السياسية مصونا . وقد كان من أثر احتفاظ حكومة لوندرة بهذه المسائل الثلاث ان أصبحت سلطة الحكومات الوطنية فى الدومينيون مقصورة على الشئون الداخلية، على حين كان فى وسع الحاكم العام ان يتدخل فى كل وقت فى شئون هذه المستعمرات حتى الداخلية منها أحيانا لارتباطها بالمسائل الثلاث المحتفظ بها لحكومة لوندرة . وعلى هذا النحو كان لحكومة لوندرة الكلمة العليا والاشراف الفعلى على التشريع بل على النشاط السياسى فى جملته داخل الدومينيون

(ويلاحظ هنا وجه الشبه بين ذلك وبين ما كانت عليه الحال فى مصر بمقضى تصريح ٢٨ فبراير الذى احتفظت فيه انجلترا بالمسائل الاربع المشهورة)

نحو الامبراطورية الثالثة : ثم لا يكاد ينقضى قليل من الزمن بعد ذلك حتى تظهر فى الدومينيون نزعة شديدة الى التخلص من هذه القيود التى تحد من حريتها واستقلالها ــ ومن هنا يبدأ التطور الذى أدى الى ظهور الامبراطورية الثالثة ، وهى الامبراطورية

كما تبدو لنا اليوم ، وفيها تكون الدومينيون مع بريطانيا العظمى مجموعة من الامم متساوية في الحقوق هي التي اطلقنا عليها اسم جماعة الامم البريطانية الحرة • وبين ثنايا هذه الامبراطورية الثالثة تتحقق فكرة التعاون التي اشتهر بها الانجليز تحقيقا عمليا ، وتبدو فكرة مباراة الكرة كما يفهمونها في احسن مظاهرها ، فكما ان الزميل في اللعب ليس عدوا وانما هو شريك وان نجاح المباراة لا يتحقق على الرغم منه وبدون ارادته فكذلك الامبراطورية في حياتها السياسية لا تبلغ غايتها الا عن طريق المشاركة الاختيارية

ومن الغريب حقا ان رغبة الدومينيون في الحرية والاستقلال لم تكن تشوبها اية نزعة انفصالية ، وهنا يبدو التناقض العجيب في هذا الموقف ، فقد كانت هذه الامم تود ان تظل مرتبطة بانجلترا ولكن على قدم المساواة ، فلا يكون ثمة تابع ومتبوع ولا سيد ومسود • وعند نقطة التحول هذه التي تعد خطوة خطيرة في تطور الامبراطورية اظهر رجال السياسة في لوندرة من المرونة وبعد النظر ما يدعو الى الاعجاب ، فقد تحاشوا مصادمة هذه النزعة الاستقلالية ولم يحاولوا اخمادها عنوة وقسرا • وكانوا كلما التبس عليهم الامر تذكروا حرب استقلال الولايات المتحدة وما جرته عليهم من ضياع مستعمراتهم الامريكية

وكانت كندا اول من تقدم لتحطيم التحفظات السالفة الذكر ، وكان ذلك بمناسبة سياسة انجلترا بشأن التجارة الخارجية ، فقد اخذت منذ سنة ١٨٤٦ تسير في طريق حرية التجارة .وتمعن في ذلك ، فتبعا لمبدأ الوحدة الجمركية بينها وبين اعضاء الامبراطورية كان يتعين على الدومينيون ان ينتهج هذه السياسة ايضا ، ولكن كندا كانت ترغب في حماية بعض صناعاتها الناشئة ، ولذلك عمدت في سنة ١٨٥٨ الى رفع رسومها الجمركية ضد البلاد الاجنبية جميعا ومن بينها انجلترا ، فاغضب ذلك رجال الصناعة في انجلترا واثار احتجاج وزير المستعمرات البريطاني ، ولكن وزير مالية كندا رد عليه بقوله : ان مبدأ الحكومة المسئولة في كندا ليكونن عبثا من الوجهة العملية لو ان في وسع انجلترا ان تفرض سياستها الجمركية على كندا ، وانه اذا كان مبدأ حرية التجارة يلائم انجلترا لان صناعتها بلغت من التقدم درجة عظيمة فلم تعد تخشى المنافسة الاجنبية فالامر على خلاف ذلك بالقياس الى كندا التي لا تزال صناعتها في دور النشء والتكوين ، وكان وزير كندا على حق فيما يقول ، ومن ثم آثرت الحكومة الانجليزية التسليم بوجهة نظره • ومنذ ذلك الحين حصلت كندا على استقلالها الجمركي واصبح لها حق تنظيم تجارتها الخارجية كما تشاء • ثم ما لبث ان ظفر بهذا الحق ايضا كل من استراليا وزيلندا الجديدة

ثم يمضي على ذلك نيف وعشر سنوات واذا بثاني الحقوق التي احتفظت بها انجلترا وهو حق الدفاع الوطني ينهار ايضا ، فقد احتجت الدومينيون بانها لا تستطيع ان تحكم نفسها بصفة استقلالية طالما انها غير قادرة على الدفاع عن نفسها بنفسها ، وفي هذه المرة ايضا لم يسع حكومة لوندرة الا القبول ، واخذت منذ سنة ١٨٧٠ تسحب الحاميات الانجليزية

من اغلب الدومينيون التى اصبح لها ان تذود عن ديارها بوسائلها الخاصة . وفى بداية الامر كان عبء الدفاع البحرى على عاتق الاسطول الانجليزى وحده ، ولكنه بعد سنة ١٨٧٧ اخذت الدومينيون تساهم فى ذلك عن طريق انشاء قطع حربية تضاف الى الاسطول البريطانى أو تكون منها بعض وحدات محلية

واما الحق الثالث وهو حق ادارة دفة السياسة الخارجية فقد ظل متروكا لحكومة لوندرة وحدها ، اذ على هذا الحق يتوقف السلم والحرب فى الامبراطورية ، ولم يكن للمستعمرات فى هذا الميدان شىء من المران والخبرة . ومع ذلك فانك لتجد منذ سنة ١٩١١ وزير خارجية انجلترا السير ادوارد جراى يتصل بالدومينيون ويطلعها من وقت لآخر على تطورات الحالة الدولية

الحرب العظمى واثرها فى تطور الامبراطورية : وعلى النحو المتقدم استطاعت الدومنيون منذ أوائل القرن العشرين ان تعيش جنبا الى جنب مع انجلترا على قدم المساواة ، وان يكون فى كل منها برلمان منتخب انتخابا حرا ووزارة وطنية مسئولة امام البرلمان عن كل الشئون اللهم الا شئون السياسة الخارجية . وقد كان مجرد النظر الى هذا النظام قبل الحرب العظمى (١٩١٤ ــ ١٨) يلقى فى الروع أحيانا ان هذه الامم على وشك الانفصال عن انجلترا ، وانه اذا ما وقعت حرب اوربية فان هذه المستعمرات التى لم تعد تحفل بشئون القارة الاوربية سوف تمتنع عن خوض غمارها بجانب انجلترا ولو ادى ذلك الى انفصال الرابطة بينها

ولكن سير الحوادث بعد ذلك ما لبث ان خيب هذه الظنون وامثالها ، فانه ما كادت تعلن الحرب حتى سارعت الدومينيون الى الوقوف بجانب انجلترا ، وأرسلت الى ميادين الوغى عددا وفيرا من زهرة شبانها ، وكان مفهوما انها انما تحارب لاجل انجلترا وبجانبها من أجل قضية هى قضية الجميع

وهناك بين صليل السيوف ودوى المدافع شعر ابناء هذه البلاد بانهم قد اكتسبوا حق المساواة التامة فى الحقوق مع انجلترا ، وانه قد اصبح لزاما ان ينص على ذلك رسميا ، وهذا ما حدث فعلا فى ٢٦ اغسطس سنة ١٩١٧ والحرب فى ابان اشتعالها اذ قرر المؤتمر الامبراطورى المبدأ الآتى : انه من المسلم به صراحة ان الدومينيون هى دول مستقلة داخل الشركة الامبراطورية . وفى ١٥ مارس سنة ١٩١٩ حين كانت مفاوضات الصلح جارية وبعد ان طالبت الدومينيون بالتوقيع على معاهدة الصلح كوحدات سياسية مستقلة ظفرت بتقرير هذا المبدأ الآخر : ان نظام الامبراطورية يقوم على قاعدة المساواة بين أعضائها . وكنتيجة للمبدأين سالفى الذكر تقرر فى أكتوبر سنة ١٩٢٣ ان لكل حكومة من حكومات الدومينيون الحق فى عقد المعاهدات مع الدول الاجنبية

وقبل ذلك وعلى اثر التصديق على معاهدة الصلح وعهد عصبة الامم امام برلمانات

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الدومينيون استقر الرأى فى كل منها على ان تنشىء لها وزارة خارجية تتولى النظر فى العلائق مع الدول الاجنبية • بيد انه ظل مفهوما ان حق الدومينيون فى عقد المعاهدات الاجنبية انما هو مقصور على المسائل التى تخص الدومينيون وحدها اما فى المسائل العامة التى تمس الامبراطورية كلها فواجب على ممثلى الدومينيون ان يتشاوروا ويتفقوا مع حكومة لوندرة على السياسة الواجب اتباعها فى المسائل المشتركة

ومن ذلك يتضح جليا ان الحرب العظمى ساعدت الدومينيون على تحقيق ما كانت تصبو اليه منذ زمن بعيد اذ حققت المساواة التامة بين شعوبها والشعب الانجليزى ، حتى لقد أصبح اصطلاح "Dominion Citizenship" معادلا لاصطلاح "British Citizenship"

ولا بد من الاشارة الى ما انتهت اليه حال ايرلندا فى ظل هذا التطور ، فقد كان من شأن الاضطرابات العنيفة التى حصلت فيها سنة ١٩١٦ والمعارك الدامية التى دارت رحاها بين الجنود الانجليز ورجال حزب السين فين ان اثبتت بجلاء للحكومة البريطانية ان ايرلندا الكاثوليكية لن تهدأ ثائرتها الا اذا اصبحت دومينيون مستقلة ، ومن ثم عقد بين البلدين فى سنة ١٩٢١ معاهدة ابتدأت بالعبارة الآتية : « ان ايرلندا فى اتحاد الدول التى يطلق عليها اسم الامبراطورية البريطانية يجب ان يكون لها نفس النظام السياسى الذى لكندا » • اما « الصتر » التى هى من جنس اسكتلندى وتدين بالبروتستانتية فقد بقيت فى دائرة الاتحاد مع انجلترا واسكتلندا ، وظلت ترسل ممثليها الى برلمان وستمنستر ، بينما اصبحت بقية الجزيرة تكون ما يطلق عليه اسم « دولة ايرلندا الحرة » ولها نظامها البرلمانى الخاص وحكومتها المسئولة على منوال نظام الحكم فى كندا • وهى اليوم تتطلع الى ابعد من هذا ، وقد انتهزت أخيرا فرصة تخلى الملك ادوارد الثامن عن العرش واصدرت قانونا بالغاء منصب الحاكم العام ، وبذلك اصبح فى مقدورها ان تصدر من القوانين ما تشاء بدون ان تمهر بالتصديق الملكى اذ كان الحاكم العام فيها هو الذى يمثل الملك

آخر مراحل التطور : ثم جاء المؤتمر الامبراطورى فى سنة ١٩٢٦ فضمن الحقوق التى ظفرت بها الدومينيون فى ميثاق اشتمل على التصريح الآتى : « ان بريطانيا العظمى والدومينيون هى امم مستقلة داخل الامبراطورية البريطانية متساوية فى كيانها القانونى غير خاضع بعضها لبعض سواء اكان ذلك من وجهة المسائل الداخلية ام الخارجية ولكنها مرتبطة برابطة الولاء المشترك للتاج ومتحدة اتحادا حرا باعتبارها اعضاء فى مجموعة الامم البريطانية » وفى ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣١ تكلل ميثاق سنة ١٩٢٦ بالتصريح الآتى : « ان التاج (الملك) هو رمز الاتحاد الحر بين اعضاء الامم البريطانية ، ومن حيث ان جميع الاعضاء مشتركون فى الولاء للتاج فان كل قانون فى تعديل وراثة العرش وفى لقب الملك يجب ان يعرض على برلمانات الدومينيون جميعا كما يعرض على البرلمان الانجليزى »

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفي هذا العام ايضا صدر قانون وستمنستر النظامي فاكتسبت فيه المبادىء السالفة الذكر صفة قانونية ونص فيه على ان أى قانون يصدره البرلمان البريطاني لا يطبق على الدومينيون الا اذا رغبت فى ذلك ووافقت عليه صراحة،وألغى مايعرف بقانون (Colonial Validity Act) الذى كان يقضى ببطلان كل تشريع فى المستعمرات يكون منافيا للتشريع البريطانى

وكان لزاما وقد بلغ التطور هذا الحد ان يصبح الحاكم العام فى الدومينيون مجرد ممثل لملك انجلترا بعد ان كان ممثلا لوزارة المستعمرات فى لوندرة ، وهو اليوم لا يرفع على قصره العلم الانجليزى وانما علم الملك ، ولا يملك التصرف ـ مثله فى ذلك كمثل ملك انجلترا ـ الا بناء على رأى وزراء الدومينيون المسئولين امام برلمانات بلادهم ، وكأن الملك يقيم فى عاصمة كل دومينيون وكأن له هيئة وزارة مستقلة • كما اصبح لزاما وقد اعطيت الدومينيون حق عقد المعاهدات ان يكون لها ممثلون سياسيون فى الدول الاجنبية • وهى ان لم تكن جميعا قد استعملت هذا الحق الا ان بعضها قد عمد فعلا منذ بضع سنوات الى تعيين ممثلين له لدى بعض الدول ، فلكندا اليوم ممثلون فى وشنجتون وطوكيو وباريس، ولايرلندا ممثلون فى وشنجتون وباريس وبرلين ، ولافريقية الجنوبية ممثلون فى وشنجتون وروما ولاهاى • وللحكومة البريطانية مندوب سام فى عاصمة كل دومينيون (وهو غير الحاكم العام الذى يمثل التاج) كما ان لكل دومينيون مندوبا ساميا فى لوندرة ، وقد اعطت استراليا أخيرا لقب وزير مفوض لممثلها فى لوندرة

وعند هذا الحد من التطور يقف الباحث متسائلا : ما الذى تبقى اذن من الوحدة الامبراطورية البريطانية ، وهل هى لا تزال تعتبر وحدة دولية • وعلى هذا يجيب الانجليز بان التاج البريطانى المشترك هو رمز وحدة الامبراطورية ودعامتها ، وهو تارة تاج واحد يمثل الامبراطورية كلها ويعمل بمشورة جميع حكوماتها وذلك فى المسائل المشتركة التى تمس الامبراطورية كلها ، وهو تارة تيجان متعددة يعمل فى كل جزء بمشورة وزراء هذا الجزء وذلك فى المسائل الخاصة التى تهمه دون غيره • ويجيب آخرون بان لفظ « الامبراطورية » لم يعد يصلح اسما لهذه المجموعة من الامم ، وان ليس ثمة اسم آخر معروف يمكن ان يطلق عليها ويعبر عن حقيقتها

وما من شك فى ان هيكل الامبراطورية البريطانية فى صورته الحاضرة يبدو غريبا وسرا عجيبا لذوى الافهام فى البلاد الاخرى،وقد يحار فى فهمه رجل الفقه الفرنسى أو العالم الالمانى • وها هو ذا « جاك باردو » الفرنسى مؤلف كتاب "L'Ile et l'Europe" لم يتمالك ان يبدى من الدهشة اشدها ازاء بعض صور الحياة السياسية فى الامبراطورية وان يعبر عن ذلك فى أسلوب قوى خاص فيقول « ملك واحد فى خمسة أو ستة أشخاص ، هامة واحدة لستة تيجان ، ستة عروش لملك واحد ، يا له من سر دستورى عجيب ! واذا ما راق لاحد خلفاء جورج الخامس ان يتخذ مقامه فى كندا فهل يا ترى يعين حاكم عام لبريطانيا العظمى ، وهل يكون هناك ست مخصصات مالية ملكية أم يكون

هناك خمس ملكيات مجانية وواحدة بأجر . وعند ما يكون هناك عدد من السفراء البريطانيين لدى احدى الدول فأيهم ياترى يمثل الدومينيون التى ليس لها ممثل خاص؟»

على أن هذا الذى يبدو للفرنسى أو الالمانى شاذا غريبا يراه الانجليزى بطبائعه الخاصة بسيطا مألوفا ، وهو يؤمن بسلطان الزمان وقدرته على تسوية الاشياء ووضع الامور فى نصابها دون تقيد بأحكام المنطق والنظم المكتوبة ، ثم هو يوقن بأن الآله الذى شمل بعنايته انجلترا القديمة وسوى أمورا لها أكثر تعقيدا سوف يظل يأخذ بناصرها ويوليها عطفه وتأييده

***

واليوم - وبتلك المعالم الخاصة التى وصفناها - تواجه الامبراطورية البريطانية أكبر أزمة عرفتها فى التاريخ . ولما ان غلبت فرنسا على أمرها فى صيف عام ١٩٤٠ ووصلت القوات الالمانية شواطىء المحيط الاطلسى ظن كثير من الناس كما ظنوا فى عام ١٩١٤ من قبل أن الانهيار مصير الامبراطورية المحتوم ، ولكن ظنهم خاب فى ذلك مرتين ، ومرتين فى خلال جيل واحد استطاعت الامبراطورية البريطانية ان تقف فى وجه خصومها وان تكون سدا منيعا بين الديكتاتورية والديموقراطية ، وان تعمل فى سبيل ذلك - مع ما يبدو من قلة تماسكها واتساقها - ما عجزت ان تعمله دول أخرى أكثر منها تماسكا واتساقا . وقد أثبت سير الحوادث بين ثنايا ذلك ان الاشتراك الحر بين أجزاء الامبراطورية البريطانية هو أقوى من سائر الروابط القانونية ، وان وحدة المثل العليا والتقاليد الديموقراطية وأيضا الاخطار المشتركة التى تهدد المدنية الخاصة التى تمثلها تلك الامم هى سياجها القوى ودرعها المكين

احمد محمد ابراهيم



ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com


الزعيمان تشرشل وروزفلت يلتقيان على ظهر المدرعة « برنس أوف ويلز »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

زعيما الديمقراطية في العالم

تشرشل - روزفلت

بقلم الاستاذ محمد محمد توفيق

هذه الحرب الطاغية الباغية ان تكن تسمى الحرب الشاملة ، والحرب الميكانيكية ، فني وسعنا أن نسميها أيضا حرب الزعماء . فلقد تجلت فيها الزعامة كما لم تتجل في حرب أخرى قط . الزعامة لدى الفريقين المتحاربين والمعسكرين المتناحرين . واحتل الزعماء المكانة التي كانت للقواد في كل الحروب . واذا كان المعسكر الدكتاتوري قد سبق غريمه إلى ابتداع الزعامة وتركيز كل السلطات والقوى والآمال في شخصي رجلين من رجاله هما هتلر وموسوليني ، فأن المعسكر الديمقراطي لم يقصر طويلا في بلوغ هذه الغاية . وها هما رجلان يقودان مصائر الديمقراطية وقد وقف احدهما فوق صخرة بريطانيا العظمى ووقف الآخر في مواجهته على الشاطىء المقابل للمحيط . . كلا الرجلين باسل وخطيب ، وكلاهما يمثل الديمقراطية وقد لبست ثياب الحرب وشهرت حسامها

تشرشل زعيم الانجليز

حاولت كثيراً أن أقنع نفسي بأن ونستون تشرشل هو زعيم الأنجليز والديمقراطية الانجليزية ، فلم أقتنع

وقرأت عنه الكثير كما قرأت عن الشعب الانجليزي ، فازددت يقيناً بأنه ليس زعيما بالمعنى الذي نقصد اليه من الزعامة

فنحن اذا قلنا ان جيانغ كاي شيك هو زعيم الصين كنا صادقين ، وان غاندي هو زعيم الهند كنا كذلك

إن الصين والهند أمتان لم تكتمل لهما الوحدة الداخلية ، ولا ائتلفت قلوبهما ، وهما بعد في كفاح من أجل الاستقلال والكيان الحر نفسه . وكلا الزعيمين فيهما يمثلانهما ، ويمثلان آمالها وغاياتهما من الجهاد الداخلي والخارجي ، كلا الزعيمين تبلورت فيهما الآمال والغايات ، فهما في دست الزعامة حتى تتحقق أو يموتا دون تحقيقها

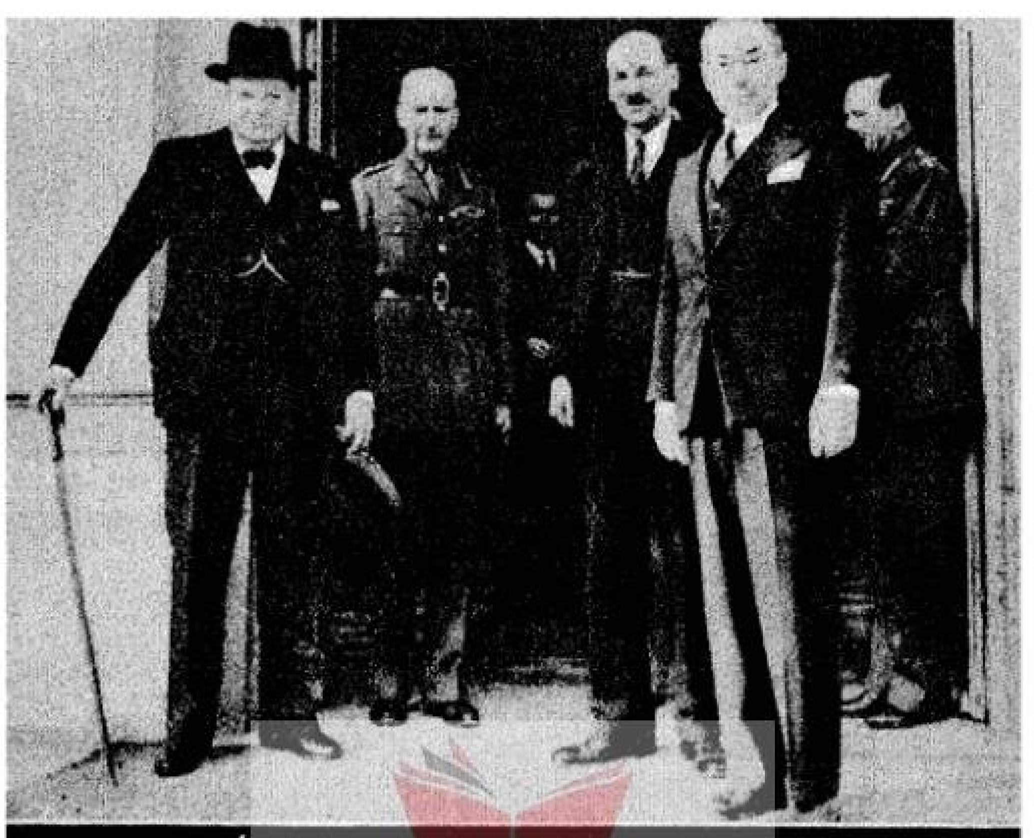
أما انجلترا - هذا البلد الكامل والشعب الكامل - فما حاجتها الى الزعامة والزعيم ..!

انها من غزوة النورمنديين لم يلق فاتح بجزائرها مرساه . تسعة قرون كاملة مرت عليها وهي في شبه عزلة سعيدة وراء أمواج البحر الزرقاء ، لا تعنى بشيء إلا بالقدر الذي يصون لها مواصلاتها ومجالها الحيوي فيما وراء البحار ، ولئن هددتها بعض القوى الأوربية مرة أو مرتين ، فقد حماها أسطولها العتيد في كل مرة من نير الفاتحين



تشرشل يحيي الجماهير في إحدى طوفاته

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com



بول رينو وونستون تشرشل يجتمعان فى باريس قبيل انهيار فرنسا بأيام

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

انها منذ قتلت ملوكها المستبدين أو غلت أيديهم بالماجنا كارتا لم يجلس على عرشها ملك مستبد. ودستورها بلغ من الكمال درجة لم يعودوا معها يعنون بتسجيل بعض مالهم من حقوق ، ان تسجيل حقوق الانسان فى صكوك قد غدا شأن الشعوب الأخرى التى ما تزال ترسف فى الاغلال. أما هم فلهم قوانينهم وتقاليدهم غير المكتوبة ، تعيها القلوب لا الصكوك

فما مكانة ونستون تشرشل في الشعب الانجليزى إذن ؟

انه فى الحقيقة « أحد » رجال الانجليز له لون خاص وطابع خاص ، وفى الظاهر « زعيم » يقارعون به « الفوهرر » و « الدوتشى »

فالمسألة إذن هى مباهاة ومقابلة بالمثل . طائرات ميسر شميدت تقابلها طائرات « سبتفاير » ، وهتلر يقابله تشرشل !

وفيما عدا ذلك فهو «أحد» الانجليز كما قلنا ، أعدوه وأعدوا أمثاله كثيرين لحالات الحروب، كما أعدوا جمهرة آخرين لعهود السلام أو عهود ما قبل الحروب . وماله — ولا لغيره — شأن أو خطر فى ذاته . انما الشأن كله ، والخطر كله ، للديموقراطية الانجليزية التى تمتع أبناءها بكل شىء فى عهود السلام ، وتحرم عليهم كل شىء فى الحروب ، فلا يفرحون بما يأتيهم به السلام علماً بأنه



رئيس الوزراء البريطاني يتفقد وسائل الدفاع على الشاطىء الشمالي الشرقي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عارية وأمانة في أعناقهم ، ولا يأسون على ما تحرمه عليهم الحرب الضروس علماً بأنه أمانة في أعناق حكامهم وسيعود اليوم ، فهم كذلك في حلل السلم والطمأنينة أو في دروع القتال سواء ، لا جديد عليهم كما لا جديد تحت الشمس

* * *

وزعامة تشرشل بهذا المعنى الدقيق ألوان صارخة تكاد تدخل في عوالم أخيلة الشعراء

فهو ضخم الجرم . حديدي ناري متدفق الحيوية والفتوة

وهو صادق في عالم سياسي حربي لا يعرف الصدق

وهو مندفع وسط شعب عرف بالجمود

وهو حار في بلد بارد ، وشعب بارد

وهو يخطب مثل تميستوكل اليونان أو كاتو الرومان ، وكلماته ، وخيالاته ، ونبرات صوته كلها تعبق بالنفحات الكلاسيكية وتتلون بقوس قزح العالم القديم

ولو أن شاعراً صوره لقال إنه هوميروس الانجليز ينشدهم الملاحم ويحمسهم لمقاتلة أهل جرمانيا وإنقاذ « الحرية » الحسناء من بين براثنهم ، كما كان هوميروس اليونان ينشدهم الملاحم



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الزعيم البريطاني يلقي احدى خطبه البليغة



مستر تشرشل يختبر إحدى الدبابات البريطانية الجديدة

ARCHIVE

وتحمسهم لمقاتلة أهل طروادة وإنقاذ الحسناء « هيلين »

أما زعامته من الناحية الدستورية فقد حددها هو فى احدى خطبه بقوله : « أنا على رأس حكومة تمثل جميع أحزاب الدولة ، وجميع مذاهبها ، وكافة طبقاتها ، وكل رأى عام فيها معترف بوجوده . وأنا وأعضاء حكومتى ـ تحت ظلال تاج ملكيتنا العريقة ـ يدعمنا برلمان حر وصحافة حرة ، وثمة وحدة تربطنا جميعاً وتعصمنا من السقوط فى نظر الرأى العام ـ ألا وهى تأهبنا للمخاطرة القصوى ، وتحمل هذه المخاطرة ، وفرضها على الجميع . بهذا وحده تستطيع الشعوب فى مثل هذه الاوقات العصيبة أن تصون حرياتها » . وقد اكتملت له الزعامة الدستورية عندما انتخب زعيماً لحزب المحافظين خلفاً لمستر تشمبرلين الذى استقال فى ١٣ اكتوبر سنة ١٩٤٠

وقد حدد هو رسالته للشعب الانجليزى فى غايتين : الحفاظ على العظمة البريطانية ، وضمان الدوام التاريخى لحياة الجزيرة البريطانية

وأداته لبلوغ هاتين الغايتين هى مصادرة أعز ما يمتلكه الانجليز ـ الحرية ـ حتى تضع الحرب أوزارها فيقوم عن كرسيه طائعاً لغيره من أقطاب السلام بعد رد « الأمانة » الى أهلها

وليس عنده ـ على حد قوله هو ـ غير العرق المتصبب ، والدموع . . !



جلالة الملك جورج والملكة اليزابث ومستر تشرشل يشاهدون أثر الغارات في حديقة القصر الملكي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

روزفلت زعيم الاميركيين

الديموقراطية فى هذا الزمان لها أعداء كثيرون وأصدقاء أكثر

ولعل أوفى أصدقاء الديموقراطية الآن شعب الولايات المتحدة الأميركية

فى الوقت الذى يطالب فيه الناس بالحد من الديموقراطية وتركيز لا مركزيتها ، يقول مفكر أميركى : « إن العلاج الوحيد لأدواء الديموقراطية ، هو المزيد من الديموقراطية ! »

وعلى رأس هذا الشعب العجيب والرأى العام الموهوب يقوم فرانكلن روزفلت الذى انتخب لرياسة الدولة الأميركية ثلاث مرات متواليات ، وهو شرف لم ينله رئيس أميركى من قبل

فلماذا هذا الاصرار على إبقائه فى دست الزعامة ، ولماذا هذا الوفاء ؟

السبب فى ذلك واضح لكل من يقرأ شيئاً عن روزفلت . فهو ديموقراطى يوصل الديموقراطية الى مرتبة الايمان . ويعطرها بنفحات الأديان . وهو شعبي ونظامه المشهور « The new Deal » صرخة مدوية زلزلت أركان الرأسمالية وأنعشت الملايين من بنى جنسه الفقراء . وهو فوق كل ذلك « رجل طيب » يذهل المحيطين به بسماحة خلقه وتدينه

ولا تقف ديموقراطيته عند حدود بلده . إنه ينظر الى ما وراء الأفق من فوق أمواج الاطلانطيق فيرى الأمة البريطانية تهوى على أم رأسها المطارق النازية فيصب لعناته على



روزفلت يقسم يمين الاخلاص للامة

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com


فرانكلين روزفلت فى شبابه وقد وقف خلف والديه

الدكتاتورية والديكتاتوريين ويستمطر الرحمات على الديموقراطيين . ويرى شعباً كالشعب اليونانى يدوسه الحذاء المحورى الضخم فتثور فى نفسه روح تشبعت بديموقراطية اليونان وعبقرية أثينا . وينظر الى الاكروبول التاريخى فيخال إنه يسمع سقراط يعظ ، وبركليس يمجد ، وتيمستوكل يخطب ، فيبادر الى مساعدة اليونان وحلفاء اليونان بقلب ينبض بتمجيد الديموقراطية التى بزغت شمسها فى أرض يونان . .

ويرى الاهوال النازية تنصب على شعوب أوروبا ، والاخطبوط الهتلرى يطوقها بأذرعه الحديدية ، والعجلة الألمانية تهرس فى طريقها كل شىء ، فيهوله ما يرى ، وتنبثه غريزة البقاء أن الدور لابد آت على شعوب أميركا وأن البحر المحيط لم يعد كما كان عاصما من الفاتحين . . وهذه غواصات هتلر تجوب البحار وتدخل المياه الاميركية ، وهذه طرابيد هتلر تقصم المدمرات والسفن الأميركية . . فماذا وراء ذلك غير الخطر الأكيد والغزو الذى ما منه محيد . ؟ وأفجع من ذلك كله ــ فى رأيه ــ أن تشن النازية حرباً على العقائد والاديان . ان الديموقراطية عقيدته وعقيدة شعبه . والمسيحية دينهما . وهذا الرجل الطاغية يريد محو الديموقراطية ، وازالة الاديان من عالم الوجود . . وثمة مشروع تبلغه أنباؤه «ينص على الغاء جميع الاديان الحالية من بروتستانتية وكاثوليكية وهندوكية وبوذية ويهودية واسلامية . . على أن يصادر النازيون ممتلكات جميع الكنائس ويحظروا ظهور شعائر الاديان ورموزها كالصليب وغيره . يريد النازيون أن يكموا أفواه القسس الى الابد بعقوبة الزج فى معسكرات الاعتقال التى يعذب فيها اليوم كثيرون من الدين لايهابون شيئاً لأنهم يرفعون الله فوق هتلر . .» على حد قوله هو فى خطبة له أخيرة

من أجل ذلك يمجد هو الديموقراطية ، لأنها ــ فضلاً عن فضائلها الكثيرة ــ تصون الاديان

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com



رئيس الولايات المتحدة الامريكية يتسلى بلعب الورق

وتضمن بقاء الصلبان والمآذن والمعابد على ظهر الارض تمجيد كلمة الله، داعية الى توحيده

ومن أجل ذلك نعده زعيماً « مجتهداً » من زعماء الديموقراطية ، لم يكتف بما لها من حسنات وطيبات ، بل راح يحيطها بهالة من اللاهوت ويمجد ويتكرم في معانيها ومراميها

ان الديموقراطية كلمة يونانية الاصل مشتقة من « Demos » بمعنى الشعب و « Kratien » بمعنى الحكم ، فهي حكم الشعب لنفسه . وروزفلت يحاول أن يقنعنا بأنها هي أيضاً حكم الله للشعب ، وأنعم به من حكم إلهي أزلي سرمدي

وثمة اجتهادات أخرى لهذا الزعيم :

فمع ما يقف «الحزب الديموقراطي» الأميركي الذي يتزعمه رمزاً له منذ تأسس في عام ١٧٨٧ ، نرى روزفلت قد أدخل في برنامجه الاصلاحي سياسة انشائية جديدة قوامها محاربة البطالة بجهود قومية شعبية ، والتعاون الوثيق بين الولايات المتحدة الاميركية ، وعدم التردد في تعديل الدستور نفسه وتهذيبه ان ثبت انه لا يضمن هذا التعاون الوثيق ، ومناهضة الاحتكار في مختلف صوره وأشكاله ، وحماية حقوق العمل والعمال ، والتأمين الاجتماعي ، ومد يد المساعدة لصغار الفلاحين . وفي الناحية الخارجية للديموقراطية الاميركية وضع مبادىء الجوار الطيب واتباع السياسة الطيبة



روزفلت يخطب فى سكان ولاية جورجيا فى أبريل عام ١٩٢٩ قبيل
رحيله الى واشنجطون ، ويقول لهم : سأعود اليكم اذا لم تنشب الحرب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



صورة طريفة للمستر روزفلت فى لحظة سرور وانشراح

بين الشعوب مع اعتناق مذهب مونرو وميثاق كيلوج وعدم التسلح — قبل الحرب طبعاً — وحظر أرباح الحرب الفاحشة ، مع عدم التساهل فى تحصيل الديون الاميركية التى تكدست فى ذمم دول أوربا منذ الحرب العالمية الماضية

والحزب الديموقراطى الذى يتزعمه روزفلت يعتمد فى سياسته على أعوانه فى ولايات أميركا الجنوبية « الجنوب المتين » كما يسمونه . . وهو يحتل ٢٦١ مقعداً من ٤٣٥ مقعداً يتألف منها مجلس الأمة الأميركى ، و ٦٩ مقعداً من ٩٦ مقعداً فى مجلس الشيوخ

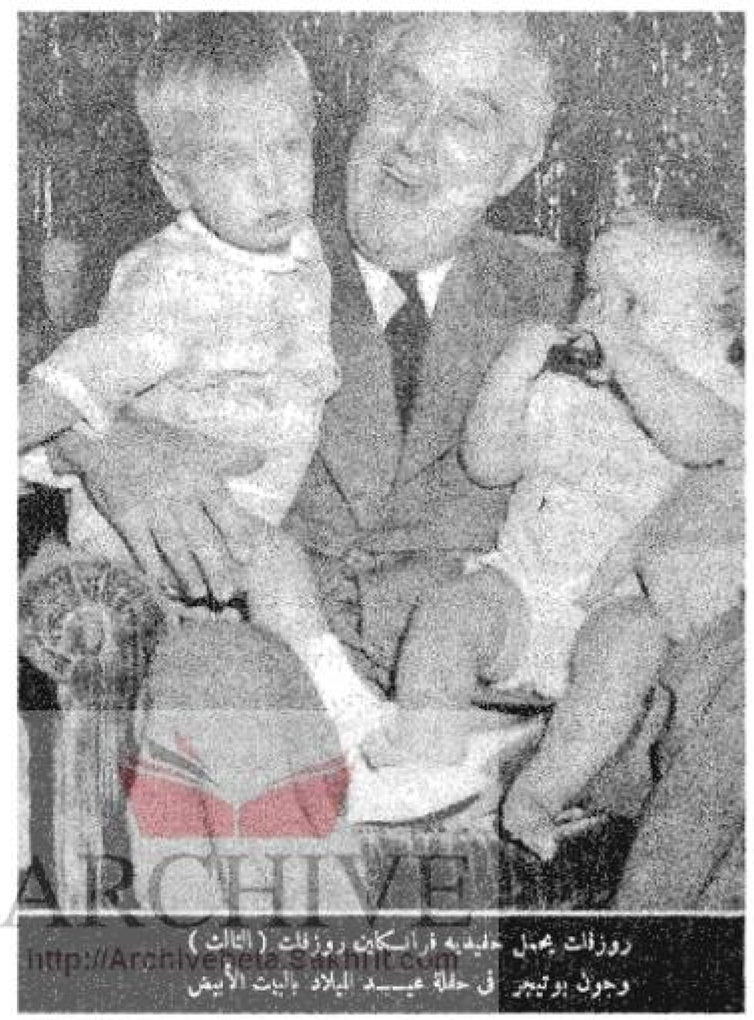
ولعل أكبر اصلاحاته وأعمق « اجتهاداته » فى عالم الديموقراطية الاميركية هو برنامجه الاصلاحى الكبير « The new deal » . وهو فى هذا البرنامج يخرج مؤقتاً من عالم الديموقراطية الحرة إطلاقاً الى ديموقراطية مقيدة نوعاً لخدمة قضية الديموقراطية نفسها . وقد دل بهذا التقييد المؤقت على شجاعة وجرأة رفعته الى مصاف كبار المصلحين

وقد وضعه فى عام ١٩٣٣ ليتغلب به على موجة جارفة من الأزمات الاقتصادية التى اجتاحت أميركا والعالم كله — فى ذاك الحين . وهو عبارة عن سلسلة جهود اقتصادية واجتماعية مختلفة ترمى الى إنعاش الشعب الاميركي وتحريره من نير الرأسمالية الطاغية والاحتكار الضيق للمقوت



الرئيس روزفلت يتوسط أعضاء أسرته على اليخت « امبرجاك الثانى »

فبدأ أولا بما يسمونه قانون الانعاش الوطنى « N.R.A. Legislation » الذى صدر فى ١٣ يونيه سنة ١٩٣٣ وهو ينص على تدخل الحكومة فى حياة الشعب الاقتصادية ويضع مصائر الصناعات والزراعات الكبرى فى يدى رئيس الحكومة الأميركية ـ لأول مرة فى حياة الشعب الديموقراطية . ثم بدأ الانعاش برنامج قوامه تشغيل الايدى العاملة فى سلسلة الاعمال الانشائية العامة ومن أجل ذلك تشكل ما يسمونه Public Works Administration وقد أخذت هذه الادارة على عاتقها رفع القدرة الشرائية للشعب كله . ومن أجل ذلك هبطوا بسعر الدولار الاميركى بنسبة ٤٠ فى المائة



روزفلت يحمل حفيديه فرانكلين روزفلت (الثالث) وجون بوتيجر فى حفلة عيد الميلاد بالبيت الأبيض

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثم شرع فى سياسة واسعة النطاق لبناء مساكن الاهلين بالجملة « Housing policy » وصدر عنها قانون « The National Housing Act » فى عام ١٩٣٤ ، ونص هذا القانون على انشاء ادارة للمساكن تساعد الاهلين بشتى الوسائل لبناء مساكنهم أو ترميمها أو تجديد طرزها وأشكالها . وقد أقرضت هذه الادارة وأنفقت ما ينيف على ٢٫٤٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال فى حوالى أربع سنوات ! وأنشأت ما ينيف على ١٦٠٫٠٠٠ منزل للأسر التى لا يزيد ايرادها على خمسة أضعاف أجرة سكنها . ! وهناك هيئات أخرى كثيرة تقوم بنفس العملية بضمان حكومة الولايات المتحدة نفسها

وأسست ادارات أخرى وهيئات مختلفة لشتى ضروب الانعاش ، منها ادارة لضمان تقدم الاعمال ، وأخرى للمحافظة على كيان المدنيين الاجتماعى بتوفير أسباب العمل والسلامة الاجتماعية .



المستر روزفلت يداعب كلبـه « فالا » قبيل ركوبه اليخت « بوتوماك » ليرحل به الى مقابلة المستر تشرشل فى الاطلانطيق

وتوسعوا فى صرف الاعانات للعمال العاطلين ، وشجعوا نمو النقـابات ، وشركات التأمين الاجتماعى . وصدر قانون لحماية صغار المزارعين باقراضهم مبالغ كبيرة . فضلا عن فرض الرقابة الصارمة على مختلف أعمال المصارف والشركات الكبيرة بشكل لم يعد يسمح بتحكم غنى فى فقير ، ولا كبير القـام فى الصغير الحقير

ومع أن نظام روزفلت الجديد لم يقطع دابر البطالة فى أميركا فان عـدد العمال العاطلين هبط فى بضع سنوات من سبعة عشر مليونا الى حوالى سبعة ملايين — وهى نتيجة لا غبار عليها . ويأخذ معارضو الزعيم عليـه انه أنفق مبلغاً ضخماً من المال يتعدى الملايين الى البلايين من الدولارات على نظامه الجديد . ولكن روزفلت لا يعبأ بهم ، ويؤثر إدخال البلايين فى جيوب المعسرين على تضخمها فى جيوب الأغنياء الذين طغوا فى الأرض وخلت قلوبهم من الرحمة . وما دام هو قد أرضى عامة الشعب وهم قوام الديمقراطية ، فماذا يهمه من أمر عدد من المثرين يعدون على الأصابع

والطريف فى زعامة روزفلت بعد كل ذلك انه يعد نفسه فى حرب مع دكتاتوريتين : إحداهما فى القارة الأوربية والأخرى فى الولايات المتحدة الاميركية نفسها — أعنى دكتاتورية أصحاب الملايين ، ويقاتل دكتاتورية المـال بنفس الصرامة والشدة اللتين يعدهما لحرب الدكتاتورية المحورية

محمد محمد توفيق

http://Archivebeta.Sakhrit.com



تشرشل وروزفلت يتحدثان في أثناء مقابلتهما التاريخية في عرض الأطلانطيق

قوام الديمقراطية

بقلم الاستاذ على أدهم

الديمقراطية فى حاجة الى تغيير أساليب التربية وتقويم الاخلاق ، وشحذ البديهة الاخلاقية ، وتقوية الشعور بالعدل ، والنفور من الظلم ، وذلك هو الاعداد الذى يمكن كل انسان من صحة الحكم ودقة التقدير ، وتمييز الاعمال ، ووزن الرجال

تقوم آراؤنا السياسية فى الاعم الاغلب على تصورنا للطبيعة الانسانية ، وتقديرنا لها ، فالذين يسيئون بها الظن ، ويرون صدوفها عن الخير ، وعطولها من الفهم ، يؤثرون الحكم المطلق واليد الحديدية . والذين يحسنون بها الظن ، ويعلقون عليها الآمال يطلبون لها حق التصرف فى مصيرها وتحقيق ذاتها ، وأقل مقدار من الضغط والحد من الحرية وفرض القيود

والانسان كما يبدو خلال تطورات التاريخ واستحالاته حيوان قابل للتعليم ، وقد اعانه على تذليل العقبات وكشف الظلمات قدرته على الاستيعاب والتحصيل واستثمار التجارب والمشاهدات واستخلاص القوانين والمبادىء ، ولكنه مع ذلك حيوان غرير ، وكثيرا مايعوق طريقه ويعترض تقدمه سهولة اغتراره وسرعة انخداعه . ومن أمثلة ذلك الانخداع والاخذ بالظواهر اعتقاد مفكرى القرن التاسع عشر ان الديمقراطية قد استوسق أمرها وتم انتصارها وظهرت حجتها ، وقد ظل هذا التفاؤل الهين على قوته وتماديه حتى قضت عليه الحرب الكبرى السالفة وكشفت عن ضعفه بما خلفته من فوضى مادية وروحية . وقد أخذ الطغاة بعد ذلك يرددون ان الديمقراطية نظام عتيق غير صالح ، وان عهدها قد تولى ، وقد يكون هذا غير صحيح ولكن اشد الناس اخلاصا للديمقراطية وأقواهم حرصا على مناصرتها ، لا يستطيعون ان ينكروا ان الديمقراطية تناضل اليوم عن كيانها وتستميت فى الدفاع عن نفسها والابقاء على حياتها ، فكيف تنجو الديمقراطية من الهلاك المحقق وكيف يتجدد شبابها وتستعيد نضارتها ؟

فى اعتقادى انه لا يكفى لدرء الخطر عن الديمقراطية تغيير الاداة الحكومية أو اصلاح الادارة ، وتعديل طرائق الانتخاب . واقالة عثار الديمقراطية والنهوض بها من كبوتها لا يكون الا بالرياضة الاخلاقية والتربية العقلية ، التى تعين على انماء البصيرة الادبية وتعهدها . ويستلزم ذلك نشر التعليم العام وتوزيع الثروة توزيعا عادلا ، وضمان الحياة لكل فرد ، ولقد قال اناتول فرانس : « ان التفكير مرض ولكنه لحسن الحظ محصور النطاق قليل التفشى » . ولكن الساخرين بالانسان الشاكين فى قدرته على التفكير لايستطيعون ان ينكروا ان فى كل فرد قدرة على التمييز مهما تكن ضئيلة ، وان هذه القدرة كثيرا

ما تجد ما يصرفها عن القصد ويضللها أو يعمل على اضعافها . والديمقراطية تقوم على حب الافراد للحق واستجابتهم له ، وعلى نفورهم من الباطل واعراضهم عنه ، فهى لا تتعلق بالاوهام ولا تجرى وراء الخيالات اذا عالجت ملكة التميز الاصيلة فى الانسان وأزالت عنها الغواشى والحجب وانما هى تستنبط الماء من اعماق الطبيعة الانسانية

ومن الناس من يشك فى بقاء الديمقراطية ويعتقد انها مثل اعلى لا يمكن تحقيقه ، ولكن اكثر امثال هؤلاء الناس لا يسألون انفسهم هل استوفوا بحث ممكنات الطبيعة الانسانية قبل ان ينكروا وجود الاساس الصالح لبناء الديمقراطية ؟

ان فشل الديمقراطية فى بعض الامم لا يقدح فى جوهرها ، وانما يدل على ان حكومة تلك الامة لم تعد الوسائل ولم تهيىء الاسباب اللازمة لاقامة البناء الديمقراطى الصحيح . ولقد وجدت ديمقراطيات زائفة كانت فى حقيقتها حكومات طغيان تختال فى ثياب الديمقراطية لتخدع الجماهير ، وتخلب الباهم ، وتستغل سذاجتهم ، وتوهمهم ان لهم فى الحكم صوتا مسموعا وكلمة مطاعة ، والواقع أن التصويت العام وحرية الصحافة وحرية ابداء الرأى والاجتماع ، وما الى ذلك من طرائق الديمقراطية ، ليست جميعها ضمانا على أن الحكومة قد ظفرت بتأييد الاكثرية ، فقد يتفق ذلك مع تخدير مشاعر الشعب وانامة تفكيره . فهل هناك استعداد فى جميع الناس رجالا ونساء مهما كان نصيبهم من العلم والفهم يجعل الحكم بموافقة الجميع ممكنا ومتينا ثابت القواعد لا تعصف به العواصف ولا تعدو عليه العوادى ؟ وهل ساعدت على ذلك دراسة علم الاجتماع وعلم النفس وكشفت عن هذه الناحية وأشارت الى ذلك الاساس ؟ وهل حقيقى أنه يلزم ان يصبح الناس ملائكة مطهرين أو أبطالا أفذاذا قبل ان يستطيعوا الاضطلاع بحكومة قوية بارة ثابتة تستطيع أن ترد غارة الاعداء من الخارج وتكبح جماح الطامعين فى السلطة والنفوذ فى الداخل ؟ وهل يستلزم ذلك أسمى الذكاء وأقوى الاخلاق ؟ وهل يجب أن يرتفع الناس فى الديمقراطية الى مستوى الانبياء وأصحاب العصمة ؟

واذا لم يكن ذلك صحيحا فما هو اذن المستوى الذى يجب ان يصل اليه الناس والصفات التى يجب ان تتوفر فيهم ليكونوا ديمقراطيين حقيقيين ؟ وهل الديمقراطية فى متناول الناس العاديين ؟

وهنا تواجهنا مشكلة فرعية ، وهى ان حرية اختيار الافراد الذين يعهد اليهم الحكم تستلزم أن يكون للناخبين مقدار من الفراغ ونصيب من التعليم والثروة وضمان الحياة وبغير ذلك لا يكون هناك حرية رأى ولا حرية اختيار ، فهل منح هذا المقدار من الفراغ والتعليم والثروة من وراء طاقة الحكومات الحاضرة ؟

يؤكد الاقتصاديون ان الثروة لو وزعت توزيعا حسنا لكفت الناس شر الحاجة ورفعت مستواهم ، على أن الثروة قد يساء استعمالها والتعليم قد يعلمنا الخضوع والاستسلام الاعمى والانقياد للاوهام ، وضمان الحياة أو الرخاء العام قد ينقلب وسيلة من وسائل

الظلم والاضطهاد والتهديد مع بقاء حرية الاجتماع والتصويت العام ، وذلك لان الفضيلة تشمل صفات شتى والعقل كثير الالوان جم المناحي ، وضمان الديمقراطية يستدعى انماء العقلية الخاصة التى تجعل الحكومة بمنجاة من التقلبات والعوارض

على أن استتباب الامن وتوفر الرخاء والفراغ وانتشار العلم والمعرفة قد ينيم القوى الفعالة ، وينضب العطف الانسانى ، ويزهدنا فى التضحية الجريئة ، وعصور القلق والاضطراب قد تحفزنا الى صنائع النبل ومواقف البطولة

فلنحصر المشكل اذن فى المران العقلى والاخلاقى الذى نستطيع ان نعتمد عليه ونثق به فى وقاية الديمقراطية اذا انقاد لها الرخاء المادي

أكثر مذاهب التربية والاخلاق قائمة على قواعد عامة وليس فيها ما يشجع على النظر الخاص والحكم المستقل فى الحالات المعينة التى تصادفنا فى الحياة الواقعة وما يغرينا بأن نحتقر كل خروج عليها وانحراف عنها ، فالتربية اليوم تقف فى سبيل بناء الاساس العقلى والاخلاقى الذى تستلزمه الحكومة القائمة على موافقة الجميع ، واذا لم يتغير ذلك فلن تتحقق الديمقراطية الحقة • واذا كان أساس الديمقراطية هو موافقة المحكومين على أعمال الحاكمين ، فان بقاء الديمقراطية رهن بقدرة الناس على صحة الحكم على الرجال والحوادث من ناحية العدل والظلم والشجاعة والجبن والرغبة فى الخير أو تعمد الشر ، أما مجرد الاستحسان أو الانذار والتهديد فلا يكفى • واذا تعهدنا انماء هذه القدرة فى الناس أمكن انتخاب أحسن الناس وصفوة الامم وأقدر الرجال على العدل والانصاف وأصلحهم لسياسة الحكم وسن القوانين التى تحقق الخير وتقتلع الشر

والديمقراطية فى حاجة الى تغيير أساليب التربية وتقويم الاخلاق وشحذ البديهة الاخلاقية وتقوية الشعور بالعدل والنفور من الظلم ، وذلك هو الاعداد الذى يمكن كل انسان من صحة الحكم ودقة التقدير وتمييز الاعمال ووزن الرجال

وكثير من المتحمسين للديمقراطية يقيمون أملهم فى انتصارها على الاعتقاد بصلاح الطبيعة الانسانية ، وغالى البعض فصور الانسان البدائى مثالا للفضائل • والديمقراطية الحقة انما تقوم على التمييز بين الخير والشر وان يؤخذ الانسان بهذا المران من الصغر ليتعود ذلك خلال الحياة وفى مختلف المواقف وشتى الشؤون ، وعلم النفس الحديث يعلمنا ان فى كل كائن حبا غريزيا للنفس ، ورغبة جامحة فى الظهور ، وحرصا شديدا على اخضاع الغير وتسخيره ، وحسدا وغيرة لمن يخملون الانسان ويسمون عليه • وهى دوافع موروثة تكاد تهدد مصلحة الانسان والمجتمع ، فمن اللازم للحكومات القومية ان تقدر هذا الجانب المظلم فى الطبيعة الانسانية وان تتعهده بأن تعلم الناس من الصغر احترام الحق وكراهة الباطل لتشربهم الولاء الخالص للعدل والمقت الشديد للظلم وتحذرهم من حب الظهور وطلب الاستعلاء على النظراء بطريق الحسد والغيرة والكراهية والدس

ويرى بعض خصوم الديمقراطية ان حكومة الاكثرية ، هى اشد الحكومات ايغالا فى

الحكم المطلق والاستبداد الشامل ، لان الاقليات فى هذه الحالة لا يسهل عليها الانفلات من قبضة الاكثرية والفرار من طغيانها • وهذا الرأى يفترض ان اكثرية المجتمع ينقصها تقدير القيم الاخلاقية • واذا صح ان الاكثرية تظل ، بعد تهيئة الجو العقلى والاخلاقى الملائم للديمقراطية الحقة ، على حالها من ضعف التمييز بين الباطل والحق والعدل والظلم والصالح والطالح وإيثار الطغيان ومجافاة الاعتدال فمعنى ذلك انه ليس هناك أمل فى الديمقراطية ولا فائدة فى اصلاحها

ويردد بعض نقاد الديمقراطية ان نفس أفراد الحكومة الديمقراطية ينتظرهم قضاء صارم ومصير محزن ، وذلك لان الحكومة القائمة على موافقة الجميع ستجعل من المجتمع وحدة اوتقراطية ، ومن ثم متى تم تغليب الحكومة واشرافها على مختلف الامور فانها ستحد من حرية كل فرد وتهدم حرية التفكير والقول والاجتماع لان كل نقد يوجه الى الحكومة فى هذه الحالة سيعد خيانة وتجديفا ، وامثال هؤلاء النقاد يتصورون الديمقراطية فى صورة وحش فظيع يأكل ابناءه ، ولو ان افراد الحكومة الديمقراطية كانوا من قصر النظر وافن الرأى بحيث يسمحون بذلك لاستحقوا ما يحل بهم من العقوبة وما ينالهم من سوء المصير وقسوة الخاتمة ، واذا ظل البشر سخفاء اغبياء حتى بعد ان تتاح لهم احسن الفرص لانماء مواهبهم واظهار استعداداتهم فليس هناك رجاء ولا علاج ولدل هذا على ان النوع الانسانى غير جدير بالبقاء وانه مشرف على التدهور والفناء

وليست الديمقراطية هى الحرية المطلقة او الفوضى المطلقة كما ينعتها البعض ، وانما هى الحرية فى حدود الاخلاق وحدود الحق لانى قد اريد ما يضر المجتمع وافكر فيما يجانب الحق • فحرية الفكر والعمل اذن هى الخضوع للحق والجمال والخير ، والذى يعترض ذلك ويقف بيننا وبينه يعادى الحقيقة وينأى بنا عن الينابيع الاصيلة التى تلهمنا وتسمو بنا وتجعل لحياتنا قيمة • فالحرية فى الديمقراطية هى حرية التقيد بالحقائق واحترامها ، والحرية فى العلم قائمة على الملاءمة بين احترام السلطة والتقاليد والحافز الشخصى والموهبة الفردية وهذا ما يجب ان يعم نواحى الحياة جميعها فى الامم الديمقراطية

على أدهم

■ إن جوهر نضالنا ، وكفاحنا هو أن يتمتع جميع الناس بحريتهم . ولن تكون هناك حرية حقيقية للرجل العادى من دون سياسات اجتماعية متنورة ، وسيتبين لكم فى آخر الدرس والتمحيص ان هذه السياسات هى المبادىء التى من أجلها تقاتل الديمقراطيات اليوم ، فما يهمكم يهم جميع الشعوب الديمقراطية (روزفلت)

المسرح والديمقراطية

للاستاذ زكى طليمات

مفتش شؤون التمثيل بوزارة المعارف

شواهد التاريخ كثيرة على أن المسرح يستجيب دائما دعوة الديمقراطية، ويردد صيحاتها مدوية مؤثرة، ثم لا يلبث أن يتأثر هو نفسه بكل حدث ديمقراطي

المسرح ، أو فن التمثيل ، احد مرائى الحياة الاجتماعية بنواحيها المختلفة ، ينعكس فيه روح المجتمع ومزاجه وتيارات أفكاره وبدوات واعيته . وشأن المسرح فى هذا شأن ألوان الادب ومختلف الفنون الشكلية مثل النحت والتصوير والزخرفة والرقص وغير الشكلية مثل الموسيقى والسينما

والديمقراطية أمرها معلوم ، فهى قلق روحى للخروج من حال سيء الى حال طيب ، وهى هبة ذهنية نحو التحرر من قيود ، وهى مطالبة بحقوق أحسها الانسان بفطرته السليمة فغدت اتجاها انسانيا استولده الطبع الانسانى على هدى المحن والتجاريب التى تمرس بها ، وهكذا كانت ديمقراطية الفكر . ثم هى تصبح ، بعد نضال دام طويلا بين الفرد وبين غصاب حقوقه والمستأثرين بالحرية ، نظاما من انظمة الحكم تقيم حقوق الفرد نحو نفسه ونحو الدولة ويكفل استمتاعه بالمجال الحيوى المشروع ، ويحدد فى الوقت نفسه حقوق الدولة على الافراد ، فكأن ديمقراطية الذهن سبقت ديمقراطية الحكم ، جاءت الثانية بعد ان استكمل الفرد شعوره بكيانه المعنوى وبذاتيته كوحدة قائمة بنفسها ، قائمة بغيرها ، لها الحق فى حياة تقوم على المساواة والحرية والتعاون المشترك

ولسنا فى مقام نعالج فيه تاريخ الديمقراطية ، وقد أصبحت عقيدة انسانية تكاد تكون عامة على اختلاف صيغها الشكلية ، سجلت طابعها على نتاج الذهن وميول النفس فاذا بالفن والادب يصهران فى بودقتها ويستقيمان على نهجها ، واذا بهما يشقان بالانسان آفاقا نحو دنيوات جديدة تشرق فيها شموس لا ينهض كيان أحدها على فناء الآخر

وفن التمثيل فى هذا الصدد أصدق المرائى،لانه ليس عاملا واحدا فى تسجيل الروح الاجتماعى،بل هو يتألف من عدة عوامل متلاحمة شدتها وشائج قربى وثيقة، فهو وحدة

يجتمع فيها عدة فنون : الشعر والنثر فى حوار رواياته ، والرسم والتصوير والنحت والزخرفة فى قطع استاره وتزاويقها ومهماتها ، والاوضاع الجسمانية فى وقفات الممثلين والماثلين (١) ، والرقص والموسيقى تتخلل أحيانا مشاهد التمثيل ، فكان أمرا طبيعيا ، والحالة هذه ، ان يغدو المسرح النبض الجلى الصادق الذى يسجل ما تختلج به واعية الانسانية وقد فاضت اعراقها بالروح الديمقراطى

كل هذا أمره معلوم وفيه ما يقيم الحجة القاطعة على أن فن التمثيل فى تنفسه عن روح هذه العقيدة أصدق وأكمل من الادب وسائر الفنون

تاريخ المسرح من تاريخ التحرر الفكرى

والمتأمل شأن التمثيل فى عهده الاول ، المستقصى حالات تطوره فيما بعد ذلك ، يطالعه أمر ذو بال جدير بالتنويه لاقامة الحجة على أن المسرح أصيل فى ديمقراطيته

كانت نشأة التمثيل الاولى فى ساحات المعابد الوثنية الفرعونية (٢) أولا ، ثم فى أثينا الاغريقية ثانيا ، وكان مداه فى هذا يتجاوز شئون العقائد الدينية فى الدعاية لها وتيسير فهمها ليقيم صلة بين الآلهة والناس ، ولينشىء رابطة بين المجهول والمعلوم ، فكان المسرح بذلك مصدر تعليم ومجال افهام وابانة • ثم ترك المسرح شئون الدين وأخذ فى معالجة شئون الدنيا ، وذلك فى القرن السادس قبل الميلاد لدى الاغريق • فسرعان ما أشرب ثقافة الفلسفة الاغريقية فى البحث والتحقيق فيما هو كائن وفيما هو وراء الطبيعة ابتغاء التحرر من قيود الظلام المخيم على الذهن ، والمسرح فى ذلك يستجيب نداء النفس الى المعرفة • فاتجه المسرح نحو القوى العلوية المجهولة التى تسيطر على اقدار الناس وسجل ذلك الصراع القائم بين الانسان وبين تلك القوى • ثم جاءت تعاليم سقراط أبى الفلسفة الاغريقية ، الذى أنزل الفلسفة من السماء الى الارض وأدخلها المدن والبيوت معالجا الاخلاقيات وشئون السياسة ، وهى فوق ذلك تعاليم تلخص بعضها تلك القولة المنقوشة على واجهة معبد دلف مفادها « تعرف نفسك بنفسك » فسرعان ما أخذ المسرح سمت النفس البشرية ينقب فى خباياها ويكشف عن الغامض المجهول فيها

---

(١) الماثلون هم (النكرات) الذين يبدون على المسرح من غير أن تند ألسنتهم بكلام ، ويناظر هذه الكلمة فى الفرنسية les comparses

(٢) نشرنا فى عدد مارس سنة ١٩٤٠ من مجلة الهلال بحثا أثبتنا فيه ــ استنادا على ما انتهى اليه البحث فى العاديات الفرعونية التى كشف عنها التنقيب فى الحفائر الاثرية الحديثة ــ ان المسرح الدينى لدى الفراعنة سبق المسرح اليونانى القديم فى معالجة شئون الالهة • وسيكون لنا بحث آخر فى الاسباب التى حجزت المسرح الفرعونى عن تخطى ساحات المعابد الى البيت والطريق ليعالج شئون الناس

والكلام في الفلسفة الاغريقية طويل المدى ، الا اننا نأتي منه بما لا غنى عن ذكره ، وذلك باعتبار أنها أساس في تنشئة المسرح فنقول ، انها فلسفة مبعثها طلب المعرفة لذاتها، وهي حياة الفكر الانساني في جهاده لتحصيل هذه المعرفة . والمعرفة الخالصة ، كما لا يخفى ، تؤدي الى الاستقلال الذاتي والتحرر من قيود الاوهام وغيرها . فمنهج هذه الفلسفة وقصدها الثورة ، ثورة التفكير ، لتحصيل أسرار ما هو كائن وملموس ومعلوم ولاستقراء ما هو غير ملموس ولا معلوم . والفلسفة الاغريقية في منهجها هذا وقصدها ليست مثل فلسفة القرون الوسطى التي غرضها خدمة ما سلمت به النفوس من العقائد بالبرهان العقلي

هذه الفلسفة الاغريقية هي التي أوجدت « ديمقراطية أثينا » في الدين والعقائد ، وجعلت الآثينيين يقفون من آلهتهم موقفهم من حكامهم وأولي الامر منهم، موقف المطالب اليقظ الذي يجادل ويقرع الحجة بالحجة ، لا موقف الذليل الخاضع الذي يقبل الشيء على علاته ويخنع مستضعفا صامتا. وهذه هي نفس الفلسفة التي أوحت النقد والسخرية وأطلقت الذهن البشري من عقاله في النظر الى المعنويات والحسيات

من هذه الفلسفة تغذى المسرح الاغريقي في مهده الاول ، فلا عجب ان كان المسرح في كل أدواره أداة انارة تجلو ظلام النفس ، وعامل تحرر من قيود الفكر ، ومظهرا من مظاهر القلق الروحي الذي يحفز على استكناه الحقائق ويبعث الطموح الى استبطان دخائل ما هو غامض ومستور ، وكل هذا من عناصر ديمقراطية الذهن

وثمة أمر جدير بالاعتبار : وهو أن ازدهار المسرح الاغريقي في مرحلة استكمال مقوماته لدى الاغريق ، عاصر قيام أول حكم ديمقراطي سجله التاريخ في أمة ذات مدنية . فقد استقامت (ديمقراطية اثينا) على يد الزعيم (بركليس) في القرن الخامس ق . م . وهو نفس العهد الذي كتب فيه أشهر كتاب الاغريق ، وفي مقدمتهم سوفوكل وايروبيد ، أروع الروايات التمثيلية . ولم يكن عجيبا بعد ذلك ان نطالع في فكاهيات ارستوفان (١) الشيء الكثير من الحرية في النقد الذي جاوز الافراد والجماعات الى الهيئة الحاكمة نفسها والقائمين عليها ، وان نتذوق الفكاهة المملحة بغبطة المزاج ويقظة الذهن في السخرية التي امتدت الى تناول كل شيء، وهاجمت رذائل عصره في الاجتماع والسياسة

وقد تطول وقفتنا اذا أزمعنا ان نؤرخ ديمقراطية المسرح في ذلك العصر . ونركب نفس المركب اذا أردنا ان نؤرخ لها في مدارج تطور المسرح بعد ذلك

---

(١) ارستوفان شاعر ومؤلف مسرحيات فكاهية طريفة عاش في أثينا بالقرن الخامس قبل الميلاد. ومن أشهر رواياته : السحب والزنابير والضفادع والسلم

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

المسرح سلاح ديمقراطى خطير !

الا أن هناك شيئا لا بد من ذكره ليضيف جديدا الى ما نحن بصدده • فقد حدث فى أواخر القرن السادس ق • م • ان تولى أمر الحكم فى (أثينا) طاغية اسمه (بزسترات) أزال النظام الديمقراطى الذى كان يعطى لكل طبقة من الشعب شيئا من الحرية ، وذلك بعد أن خدع ذلك الشعب بالتقرب اليه والعطف عليه ، وأراد ان يصرف الشعب عن التفكير فى الامور السياسية فاتخذ ضمن ما اتخذه لذلك من الوسائل ، فن التمثيل ، فكان أن أجرى المال بسخاء لم يعرف من قبل على المؤلفين والممثلين وأقام الحفلات التمثيلية على نفقات الدولة بحال اشتغل معه الشعب بعض الشىء • ولكن الطاغية أخطأ التقدير اذ أراد أن يتخذ من ربيب الديمقراطية ، وهو المسرح ، قاتلا لها ، وان يصطنع من الحارس المدافع عنها سجانا يكبلها بالقيود • وكان فى شأنه هذا شأن من يتخذ من الضرغام للصيد بازة ، فسرعان ما انقلب عليه التيار الذى أطلقه بعد أن تنبه الشعب الى حريته المسلوبة مما يشاهده على المسرح ، وسرعان ما تصيده الضرغام فيما تصيده ، فكان أن انتبذه الشعب وأسلمه الى المنفى البعيد هو وأسرته وأرجع النظام الدمقراطى الى معقله !!

والعجيب فى أمر فن التمثيل أنه ، على نشأته الديمقراطية الاصلية ، كان موضع رعاية الملوك والحكام المستبدين فى القرون الوسطى وفى عصر النهضة وفيما تلاها ، فقد كفلته رعاية الحكام والامراء الارستقراطيين ، ووسعته أبهاء قصورهم ، وذلك فى سنى شدائده وقبل ان تشيد له الدور الخاصة وتنظم أموره ويغنيه الثراء القائمين بشئونه• فهل جهل الملوك والامراء حقيقة عنصره ومدى خطورته ، أم أنهم كانوا يدرون هذا ولكنهم كانوا يفعلونه اتقاء شره بطريق الاحسان اليه والسيطرة على رجاله والعاملين فيه ؟؟ لقد كان الممثلون فى عصر الملكة الياصبات (اليزابث) وقبله يسمون « بخدام جلالة الملك » !

الثابت ــ وهو من العجب العاجب ــ ان فن التمثيل كان يجازى فى النهاية بالجحود كل احسان تمده اليه يد الحكام المستبدين وأعداء الديمقراطية ، وأنه كان يلجأ فى أيام ضعفه ومحنته الى عطفهم ، وكأنه كان ينطوى على نفسه مخبئا حقيقة حاله ، بل انه كان يتملق أحيانا شعور الاستبداد كلما أيقن ان النضال معه لا يفيد • ولكن ما أن تلوح فى الافق بوارق ديمقراطية ، وتلحظ بادرة جهاد فى سبيلها ، حتى ينسرح ويثب فى أول الصف ولا يتوانى عن ضرب اليد التى كانت تعطف عليه أيا كان العطف الذى لقيه منها! والى القارىء مثلا من أمثال كثيرة تضمنها صفحات التاريخ

يدين المسرح الفرنسى الى الملك لويس الرابع عشر برعاية منقطعة النظير فى تنظيم شئونه وتشجيع مؤلفيه والعاملين فيه وحمايتهم من رجال الدين ودفع غوائل الفاقة عنهم،

فلويس الرابع عشر هو الذى أصدر أمرا ملكيا بجمع صفوف الممثلين وانشاء الفرقة التى عرفت بعد ذلك باسم (الكوميدى فرنسيز) ، وأجرى عليهم أرزاقا ثابتة ، وهو الذى شمل بحمايته المؤلف العبقرى (موليير) سيد كتاب الفكاهيات الاخلاقية من اضطهاد رجال الكنيسة بعد أن استعداه عليهم بمسرحية (القس تارتوف) ، وهو الذى كان يفتح أبهاء قصوره لحفلات التمثيل ، ومع كل هذا ، وما يضيق المقام عن نشره ، فان المسرح لم يتوان بمسرحياته عن الاشتراك فى التمهيد للثورة الفرنسية التى قوضت عرش الملكية من فرنسا وأطاحت برأس الملك لويس السادس عشر حفيد لويس الرابع عشر • وما مؤلفات الكاتب بومارشيه (١) الا دعوة صريحة للمطالبة بحقوق الافراد ونداء مقنع الى الشعب الفرنسى ان يهب للمطالبة بحقوقه المشروعة من حرية ومساواة

المسرح يحطم قيوده

شواهد التاريخ كثيرة على أن المسرح يستجيب دائما دعوة الديمقراطية ويرد: صيحاتها مدوية مؤثرة ، ثم لا يلبث ان يتأثر هو نفسه بكل حدث ديمقراطى فلا يبالى أن يحطم من قيوده، ويغير من أوضاعه ويبدل من صيغه التى يكون الناس قد تعارفوا عليها• ولعل المسرح الانجليزى أسبق المسارح الاوروبية الى تحطيم القيود وتغيير الاوضاع • ومرجع هذا قدم عهد الامة الانجليزية بالديمقراطية وتقاليدها • فقد خرج العبقرى (وليم شاكسبير) على الاوضاع الموروثة عن الرومان فى صياغة المسرحية، محطما وحدة الزمان والمكان (٢) فى حبكة الرواية ليشق بالمسرحية أفقا جديدا نحو التحرر من القيود والمحذورات فى معالجة شخوص مسرحياته ، كما أطاح بقيود للشعر ليقر الشعر الحر غير المقيد Blank verses فى كتابته المسرحية • وبهذا أنشأ المذهب الحر فى الصياغة المسرحية وفى الاسلوب ، وهو المذهب الذى أصبح بعد ذلك سنة الكتاب فى العالمين

هذه الثورة فى كيان المسرحية ، هذا الحدث الهام فى تاريخ التمثيل يمت ، على ما نعتقد ، بأكثر من سبب الى حدث ديمقراطى سبق عصر شاكسبير بأكثر من قرنين ، هذا الحدث هو : اصدار الملك جوان (الماجناشارتا) وهى وثيقة ديمقراطية فيها الكثير من المنح فى حقوق الانسان (٣)

وكما أن المسرح مناصر للديمقراطية فان حظه ارتبط بحظها ، والامثلة عديدة فى

---

(١) بومارشيه مؤلف فرنسى للمسرح عاش فى القرن الثامن عشر واشهر مؤلفاته (حلاق اشبيلية) و (زواج فيجارو)

(٢) ان تجرى حوادث الرواية فى نهار واحد وفى مكان واحد

(٣) هذه هى اول وثيقة رسمية منحت الشعب الانجليزى شيئا من حقوقه ، وكان ذلك فى عام ١٢٥٠

التاريخ ، ونكتفى بذكر واحد منها لاتصاله المباشر بالمسرح المصرى

هل يدري القارىء ان السبب الذى سارت من أجله أول قافلة للتمثيل باللسان العربى الى وادى النيل ، قادمة من سوريا ، يرجع الى اضطهاد الاتراك العثمانيين للفرق التمثيلية التى كانت تعمل هناك باللسان العربى قبل أن يعرف التمثيل فى مصر باللسان العربى ؟!

خشى الحكام العثمانيون ، وعلى رأسهم السلطان ، أمر التمثيل فى تنوير الأذهان وتحفيز الهمم للمطالبة بالحقوق المشروعة فاضطهدوا التمثيل والممثلين وطاردوهم فى أرزاقهم !

كل هذا يشهد على أن التمثيل فن ديمقراطى بنشأته وبتاريخه وبتطوراته وبأحداثه

ديمقراطية التركيب والتعاون !

وثمة ناحية أخرى من ديمقراطية فن التمثيل لا يعرفها غير رجل المسرح المتمرس بفنونه المستبطن دخائله ...

فن التمثيل ــ كما سبق القول ــ لا ينهض بعنصر واحد ، بل هو يقوم على عدة عناصر مستقلة فى ذاتها ولكل كيانه التام ، فهو من خالص الادب ومن خالص التصوير والنحت والزخرفة والرقص والموسيقى . كل هذه تؤلف بحق جمهورية فنون وديمقراطية عناصر للتعبير تشترك كلها فتنهض بكيانه وتتعاون لتحقيق أغراضه تعاونا لا يخالطه القسوط والتعسف ، لا يهدر فيه جانب عنصر على حساب عنصر آخر ، بل كل هذه العناصر تعمل مع احتفاظ كل منها بكيانه الذاتى وبحقه من منازل التعبير الاجماعى وفاقا لما تقضى به الوحدة الفنية التى تؤلف بين اشتات هذه العناصر

حتى فن الاخراج من الناحية الخاصة بالاداء التمثيلى للرواية خاضع لشرعة هذه الديمقراطية : فالممثل فى اداء دوره لا ينفرد بالتمثيل لذاته ولاعلاء شأن نفسه فحسب ، بل هو يؤدى دوره وكأنه وحدة فى صف ، انتقالاته وحركاته رهينة بما تقيدت به الوحدات الاخرى فى سبيل اعلاء معانى المسرحية وتحقيق أغراضها الفنية والادبية

وكذلك توزيع أدوار المسرحية ، فانه يجرى على طريقة لا تمت الى الاستبداد فى شىء ، اذ أن المرجع فى هذا كفاية الممثل واقتداره وليس لمركزه الاجتماعى أو أى اعتبار آخر دخل فى التوزيع . بل ان فن الاداء التمثيلى يصاب بالهزال الفنى يوم تتحكم الرأسمالية فيه وتملى ارادتها ، وذلك بأن يغتصب مدير الفرقة أو أصحاب الشأن المادى فيها الادوار الرئيسية اللامعة

أفلا يصح بعد كل هذا ان نقرر ، جازمين فى ديمقراطية ، ان فنا هذا صميم لبابه ، وأصل نشأته ، ومدارج تطوره لا يمكن الا ان يكون خادما أمينا للديمقراطية وبوقا صداحا من أبواقها ؟

زكى طليمات

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

مبادئ الديمقراطية المعنوية

للسيدة اليانور روزفلت

قرينة رئيس الولايات المتحدة

تشارك السيدة اليانور روزفلت زوجها الرئيس فرانكلين روزفلت ايمانا بأن الديموقراطية خير ما انتجه المفكرون وخير ما اتخذته الشعوب من صور الحكم ونظم الاجتماع ، وتوجيها للشعب الامريكي — ومن ورائه سائر الشعوب — الى ادراك ما فى الديموقراطية من المزايا وتلافى ما لا تزال تشكوه من المثالب ، وللسيدة امريكا الاولى من شهرتها الذائعة ، ومن ثقافتها الواسعة، ومن ادراكها الناضج ما يسر لها ان تجارى زوجها فى تنبيه الاذهان وتوجيهها ، بما تنشئه من الرسائل والفصول ، وتذيعه من الخطب والاحاديث ، اذ هى أديبة ، صحفية، محاضرة ، خطيبة من الطراز الاول ، ولعل فيما نلخصه من رسالتها الحديثة عن « الديموقراطية » ما يفصح عن شئ من مدى ثقافتها ومتجه تفكيرها

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الفرد فى الديمقراطية

حين تضطرب أمور هذا العالم فيغدو الآلاف من أهله جياعا هائمين ، يحق على كل منا أن يفكر فى مبادئنا واتجاهاتنا السياسية والدينية ، ليتبين من خلالها ما يتخذه فى حياته من الطرائق وما يتجه اليه من الاهداف. فليسأل نفسه اليوم اذن : مامعنى الديموقراطية، ما معناها عند كل فرد منا ؟

اذا نظرنا الى فلسفات الحكم التى تخضع لها طوائف الشعوب فى هذه الايام ، نجد بينها الفلسفة الديكتاتورية التى لاتقيم وزنا للفرد عندما يجرد من علاقته بدولته، ويستوى فى ذلك المبادىء الشيوعية والفاشستية والنازية التى يختفى فيها الفرد وسط المجموع ، فيما عدا فرد واحد ، هو هذا الديكتاتور الذى يمثل ارادة الدولة والذى ينزل له الناس عما لهم من الحقوق

وأول ما يترتب على تضحية هذه الحرية الفردية التى ينزل عنها الفرد للزعيم — بعد أن كان أبوه يؤثر الموت مستشهدا فى سبيلها — ان يفقد المرء ثقته بنفسه ، كما فقدها الرقيق القدماء حين كانوا يعتمدون على سادتهم اعتماد الرقيق المعاصرين على زعمائهم . فما زال الرق موجودا فى كثير من شعوب العالم الكبرى ، وان كانت بشرة الرقيق تغير لونها من السواد الى البياض

اما فكرة الديموقراطية فى الحكم وفى الحياة فتقوم على مناهضة حكم الفرد الذى يستغرق المجموع فى ثنايا ارادته وسلطته ، ففيها يوجه كل فرد حكومته الى حد ما بفضل ما يتاح له من المساهمة الفعالة في اختيارها ، دون ان يفرض عليه الا ان يخضع لرأى الاغلبية بعد أن تبديه فى حرية واختيار وصراحة

القوة المحركة فى نظرية الحياة الديموقراطية تصدر عن يقين بأن الافراد يجب ان يحيوا متعاونين،على أن يؤدى كل منهم أقصى جهده لخدمة المجتمع الذى تأويهم رحابه، وبأن المقياس الذى يقاس به نجاحنا واخفاقنا فى هذه الحياة انما هو مقدار ما نؤديه من الخير أو الشر لمن يعيشون فى جوارنا القاصى أو الدانى • وعلى هذا فالرجل الذى ينال مركزا فى المجتمع نتيجة ما أداه من الخدمات يجب ان يعد أكثر توفيقا وأعلى مكانا من هذا الذى نال مالا أو جاها ينفع به نفسه وحدها

عدالة الديمقراطية

تقتضينا الامانة مع أنفسنا ان نقرر ان الديموقراطية ما زالت فى طور التجربة ودور النماء • فهى اذا لم تحقق كما يخيل الى كثير من الناس ، بل لم تنفذ بعد على صورتها المثلى • ذلك أن الديموقراطية الحقيقية هى التى تمنح الانسان فرصة ليحيا •• ليحيا حياة تمكنه من أن يساهم فى اختيار الحكومة وتوجيهها،وفى فهم المجتمع وخدمته، ولا يتيسر له هذا الا بعد أن يستكمل لنفسه اسباب المعيشة الصحيحة • ولكنا لم نؤمن بعد الايمان الكامل بالديموقراطية ، ذلك انها تقوم على اساس من المسؤولية الفردية التى ما نزال نخشى حمل اثقالها ، وما نزال نؤثر اتقاء تبعاتها

ولكن هذا لا يعنى ان يتساوى الافراد فى جميع اسباب الحياة ، سواء المادى منها والمعنوى • فلن يتيسر هذا ما بقى الناس متفاوتين فيما يحملونه من المواهب يوم ان يدلفوا الى هذه الدنيا • وانما هم الديموقراطية فى أن تتيح لكل فرد فرصة استمتاعه بكمية معقولة من الصحة الجيدة ومن التعليم الصالح ومن فرص الحياة المادية ، مما يمكنه من أن يحيا وينجح بقدر ما تؤهله له مواهبه وقواه الاولى • ويجب ان تتوافر هذه الفرصة سواء لمن يعمل برأسه ولمن يعمل بيده ، لتكون الديموقراطية متعادلة الجوانب ممثلة للشعب جميعا

عند ما قلت للناس ذات مرة ان فريقا منا يملك من نتاج هذه الدنيا شيئا عظيما يفرق بينه وبين الآخرين ممن دونه حظا،ويجعل من العسير عليه أن يفهم بشاكل الحياة اليومية فى نطاقها الضيق فهما واضحا دقيقا ــ عند ما قلت ذلك قوبلت بعاصفة من الاعتراض أساسها ان هذا الفريق هو الذى يفتح للناس آفاق الدنيا ويهيىء للجميع فرص الحياة ، فان ما لهم من وفرة المال وسعة الفراغ مكنهم من أن يتذوقوا الفنون فيقدروها بما ينشئون لها من معارض ومتاحف ، تتيح للفقراء والمتوسطين فرصة الاستمتاع والاستفادة من

آثارها ، وبسر لهم ان يتخيلوا مدى ما يمكن ان تؤدي اليه البحوث العلمية من النتائج الخطيرة اذا أجزلوا لها المنح والعطاء ، فشيدوا معامل البحث التى تزيد معرفتنا وقدرتنا يوما فيوما ، وحملهم على أن يؤلفوا من الجماعات ويقيموا من مؤسسات الخير ما يفتح شيئا من منافذ الحياة الطيبة أمام من أوصدت فى وجوههم ابوابها

الدين منبت الديمقراطية

تنبت الديموقراطية التى عرفتها امريكا من جذور الدين ، سواء كان هذا الدين بروتستانتية أم كاثوليكية أم يهودية أم ما سواها ، فقد تعلمنا منذ نشأتنا الاولى ان الخلاف الدينى من ضرورات الروح الديموقراطى الصحيح ، الذى يعنيه ان تتوافر « عقيدة ما » فى ذاتها ، تاركا للفرد أن يتخذ « أية عقيدة » يشاء . وتطور الامر فيما بعدفصارللفرد الحق فى أن يدين بأى دين يراه ، وله الحق فى ألا يتخذ دينا مطلقا . ولكن ظلت الديموقراطية على أى حال تنهض على اساس من هذه النصيحة التى وجهها الانجيل فى كلمة : « أحبب لجارك ما تحب لنفسك »

هل الدين عنصر ضرورى للديموقراطية ؟ ان الاجابة عن هذا السؤال تكشف لنا عن جوهر الامر بوضوح ، فالدين ـ أى روح التعاون الاجتماعى ـ لا بد منها فى علاقات الناس بعضا ببعض اذا أرادوا أن يعيشوا معا عيشةطيبة نافعة سعيدة . واذن فعلينا جميعا ـ وعلى الشباب بوجه خاص ـ ان يقربوا الدين الى قلوب الناس والى حياة الافراد ، فما من شك فى ان اكثر الناس يتخذون فى الحياة طريقا تدل على ان عقيدتهم الدينية شىء لا صلة له ولا تأثير فى حياتهم واعمالهم وعلاقاتهم معا . وقد حاول زعماء الاديان اجيالا واجيالا ان يحملوا الناس على اتخاذ الدين طريقا لرياضة أرواحهم وتثقيفها ، وهذه الايام التى نعانى شدائدها خليقة بأن تحمل شباب الجيل على تحقيق هذه الفكرة ، وهى جعل الدين حقيقة ملموسة فى حياتهم العملية ، وبذلك يهيئون لمستقبل بلادهم ، ولمستقبل العالم جميعا ، ما يغير نظرتنا للحياة وتقديرنا للحضارة

الديمقراطية الأمريكية

انى أعلم ان توافر المبادىء اللازمة لقيام الديموقراطية الكاملة لن يأتى سريعا ، بل قد يتطلب الامر تطورا بطيئا يستغرق سنين عددا ، ولا سيما اذا قدرنا ان أهم هذه المبادىء أن يتفاهم الناس ويتعاونوا متكاتفين مخلصين مهما اختلفت أجناسهم وتفاوتت أديانهم . وقد يكون هذا البلد ـ أمريكا ـ خير مثال لهذه الحال التى يتعلم فيها أشتات الناس كيف يعيشون جنبا لجنب ناسين ما بينهم من خلاف ذاكرين ما يجب عليهم من الاتحاد ، فان هذا الشعب يضم ممثلين لجميع شعوب الارض ولكل ما ظهر عليها من أديان وعقائد ، دون ان يؤدى هذا الى تفكيك وحدته أو فصم عراه الوثيقة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نعم ، جاء حين من الدهر طغت فيها على هذا الشعب أمواج من التعصب والعناد . ومازالت الى اليوم اثارة من التحيز تمنع كثيرا من الناس من تقدير بعض الطوائف حق قدرها برغم ما أضافته الى ثقافة الشعب وحضارته ، ولكن تظل الحقيقة الثابتة وهى انا نحيا معا حياة سعيدة منتجة ، وانا ندمج بعضا فى بعض يوما بعد يوم ، حتى ليأتى يوم قريب لا نفرق فيه بين من انحدروا من مختلف الاجناس والاقطار . وهذا ما يدعونا الى ان نتفاءل بدلا من ان نتشاءم ، فنؤمل فى أن يتطور الجنس البشرى تطورا ظاهرا ، وان كان بطيئا يستغرق السنين والاجيال ، تجاه تضامن وحداته المشتتة المتنازعة ، وتعاونها معا على مجابهة بعض الاخطار واجتياز بعض المشاق مما نعانيه فى حياتنا الراهنة

واذا كان لكل شيء بداية ، فان أمريكا هي بداية هذا الطريق الذى يوصل الى الحياة المرجوة ، فان لها من مواردها الطبيعة السخية ــ أكثرها ما زال بكرا أو لم يستغل الا قليل منه ــ ما يكفل لاهلها جميعا ان يعيشوا جنبا الى جنب غير متنازعين متعادين، بل متعاونين معا على استغلال هذه الموارد والافادة من هذا الثراء . كما أن لها من شبابها ما يسر لها ان تستجيب للافكار الجديدة التى يتعذر على الشيوخ ان يلينوا لها قناتهم فيكيفوا حياتهم وفق مطالبها واتجاهها ، على نقيض الشعب الامريكى الذى يسهل عليه ان يتحور ويتطور حسب ما تمليه أوضاع الحياة الجديدة

ماذا ، ولماذا ، نضحى ؟

سؤالان يواجههما الناس فى هذه الايام :

ماذا ينبغي أن نضحى للتحفظ ، والتعزيز ، نظام الحكم الديموقراطى ؟

وما الثمار الذى نجتنيها من هذا الحكم اذا نحن أدينا ما يتطلبه من التضحية ؟

أما أول ما ينبغى ان نضحى به فهو « الانانية » التى تحملنا على ان نفكر وان نعمل لانفسنا وحدها ، كما كان شأن اسلافنا الاوائل منذ عهود لا يعيها التاريخ ، فلما تقدمت حضارة الانسان أخذ الناس يتطورون من التفكير فى أنفسهم الى التفكير فى عائلاتهم، ثم الى التفكير فى الجماعة القليلة التى ينتمون اليها بصلة القربى والجوار، ولكن ظل راسبا مختبئا فى حنايا قلوبنا عنصر الانانية الذى يدفعنا ويحركنا فى هذه الحياة . فاذا أردنا أن ننشىء ديموقراطية كاملة فان علينا أن نفكر أول ما نفكر فيما ينبغى للشعب جميعه من حقوق وفيما يعود عليه من الخير . وليس معنى هذا أن يتفق كل اثنين فى الشعب على ما هو خير أو شر وعلى ما هو نافع أو ضار ، بل معناه ان يرضى كل فرد بأن يخضع فيما يرى وفيما يعمل لما تريده وتراه غالبية الناس .

وما هذه بالتضحية القليلة ، لانها لا تقتضينا فحسب الا نستأثر لانفسنا بكل ما تنتجه أعمالنا من الثمار بل نشرك الآخرين فى تذوقها والتغذى بها ، ولكن لانها تفرض علينا أن نبذل أقصى ما نملك من الجهد فى اداء ما نقوم به من الاعمال ، وان نوجه أنفسنا دائما

للعمل الذي نرى فيه الخير لاكبر عدد من الناس • وهذه ولا شك تضحية ثانية

وثمة تضحية ثالثة هي ان نساهم فى أعمال الحكومة مساهمة تدل على الرغبة وعلى الذكاء • فاذا اجتمع مثلا مجلس المدينة أو المقاطعةهذه الليلة فينبغى ألا يكون لدينا عمل أنفع ولاأجدى من شهود هذا المجلس أو التحدث عما تناوله من الامور • وبذلك نساهم فى ادارة عجلة الديموقراطية التى تبدأ حركتها الاولى من أدنى لا من أعلى ، أى من الشعب لامن الحكومة•ان الخطأ الاكبر يقع كلما حسبنا ان ما يحدث فى القرار لا يغير شيئا ولا يجدى نفعا ، مع أن الواقع يثبت ان ما يحدث فى هذه الطبقة الدنيا هومايعزز مايظهرعلى سطح الذروة العليا • ولا شك ان خير طريقة لاصلاح كل ما نشكوه فى اداة الحكم من مثالب وسيئات هو أن يساهم أفراد الجمهور فى تفهم وتتبع أعمالها ، اذ يكون موظف الحكومة مسؤولا لا أمام رئيسه وانما أمام كل فرد من أفراد الشعب ، ولا يتاح له ان يسلك فى عمله مسلكا بعيدا من العدالة أو اليقظة أو اداء الواجب وتقدير المسؤولية •

فاذا أدينا هذه التضحيات فماذا نفيد من ورائها ؟ ان قليلا من رجال الاجيال القديمة حاولوا ان يكونواجديرين بالقوةالعظيمة التى تخولها الديموقراطيةلمن يعيشون فى ظلالها• ولكن شباب الجيل وما يليه من الاجيال خليق بأن يعد نفسه بهذه القوة اعدادا صحيحا فيجعل من الديموقراطية حقيقة تلمس بالايدى وترى بالاعين • أى انه خليق بأن يجعل من حكومة بلاده ممثلة صادقة للشعب بجميع طبقاته وشتى ميوله،ومسؤولة عن رغبات هذا الشعب وحاجاته مؤدية كل ما يفرضه عليها من التبعات • وهو خليق ـ فضلا عن هذا ـ بأن يجعل ميول الشعب وحاجاته نتيجة ما يراه بعين الادراك الصحيح والتقدير الدقيق بعد ان يتزود بكمية كبيرة من التعليم الراقى ومن الامن الاجتماعى الشامل•فان الشعب الجاهل المحروم يؤثر ان يختلس بعضه من بعض ، على أن تسعى جميع طبقاته وأفراده الى اعطاءكل ذى حق حقه ونشر العدالة بينها جميعا على السواء

اننا لن نستطيع ان نلغى بواعث الآلام وعوامل الاخفاق من حياة الجنس البشرى ، وما تدعى الديموقراطية ان فى وسعها ان تفعل شيئا من ذلك ، ولكنها تستطيع ان تمنح كل فرد فرصة التحرر من هذه القيود التى يصفده به الآن من أوتى أكثر منه مالا وجاها • وما الحرب الا صورة من هذا العدوان فى صورة أوسع وأشمل نطاقا ، ولهذا كانت الديموقراطية أقسى حرب تشن على الحروب ، وأحسن اداة لتمهيد طريق السلام وما تنشب الحرب رغم كراهة الناس لها الا لان كل فرد ، وكل شعب ، يرى انه أعطى دون مايستحق،فهو يناضل الآخرين ليلغى هذا الظلم ويحق مايعتقده حقا،وهذا ماتسعى اليه الديموقراطية دون أن توقد النار وتريق الدماء وتثير القتال

هذا ربح الفرد وربح الجماعة من الديموقراطية ، وانه لربح جدير بكل ما يتطلبه من تضحية مهما عظم أمرها

الأنجليز والأمريكيون
الذين خدموا الآثار العربية

بقلم الاستاذ محمد عبد العزيز مرزوق

الأمين المساعد بدار الآثار العربية

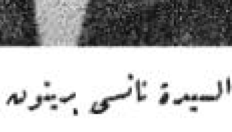
كانت معرفتنا بالحضارة الاسلامية لا تتجاوز كثيراً ما سجلته كتب التاريخ ، وظل الأمر كذلك حتى ولد علم الآثار فى القرن الثامن عشر ، وشب واستقام عوده فى القرن التاسع عشر ، فأخذ العلماء الغربيون يدرسون ما خلفه الأقدمون ، وانصرف فريق منهم الى دراسة آثار الأوائل من المسلمين ، وما كان التراث الفنى الاسلامى جديداً على هؤلاء العلماء الأجانب بل عرفته أوربا منذ أن جاورت النصرانية الاسلام فى العصور الوسطى : فى صقليه ، وحول ايطاليا ، وفى الأندلس ، وفى الأراضى المقدسة وما جاورها . عرفته فى ذلك الوقت وأحبته ، وأعجبت به ، وتأثرت به فى فنونها ، وترسمت خطاه فى مصنوعاتها ، وانتهت من هذا الاعجاب والتقدير الى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



السيدة جرترود بل





السيدة نانسى بربتونه

النظام الاقتصادى

فى الدول الدمقراطية والدول الدكتاتورية

بقلم الاستاذين

احمد عبد الخالق
مراقب مصلحة مصايد الاسماك

محمد بدران
مدير ادارة الترجمة بوزارة المعارف

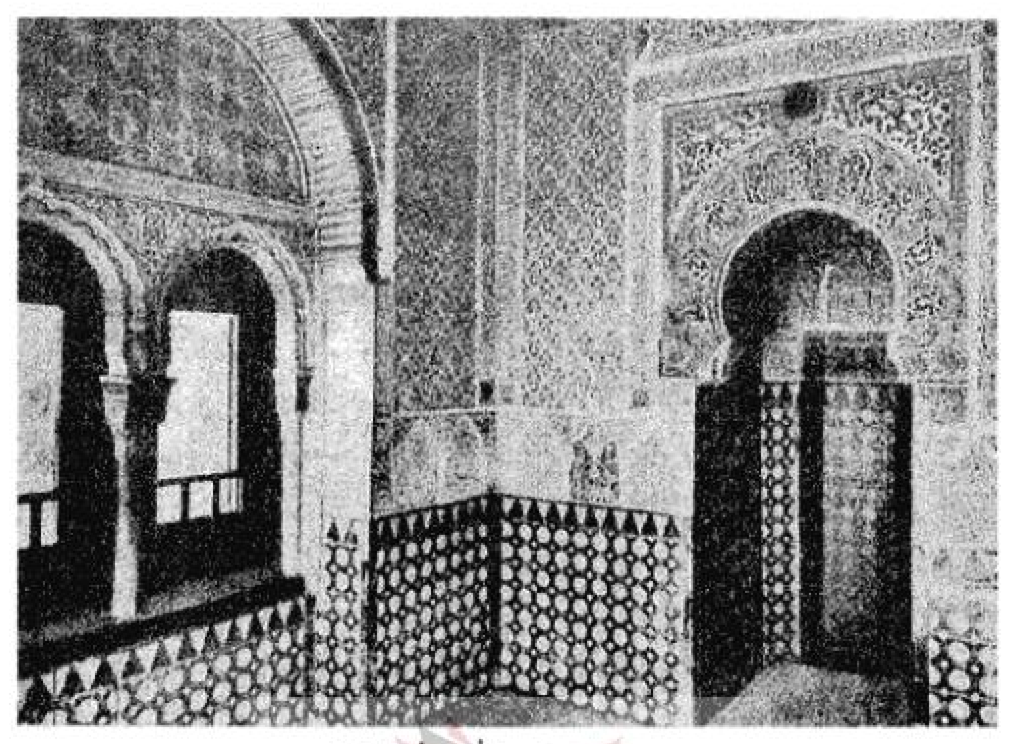
لسنا نشك في أن مجلة الهلال حين أرادت أن يكتب اليها مقال فى النظام الاقتصادى في الدول الدمقراطية والدول الدكتاتورية[1] انما كانت تقصد وصف النظام الاقتصادى أو على الاصح النظم الاقتصادية فى هذين النوعين من نظم الحكم فى الاوقات العادية لا فى أوقات الحرب ، وذلك لأن الحرب تقلب جميع الاوضاع السياسية والاقتصادية وتستبدل بها أوضاعا جديدة . ويخضع النظام الاقتصادى كما يخضع النظام السياسى للضرورات الحربية ويكون أكبر هم النظامين اعداد الجيوش وتموينها لكسب الحرب. والدول الدكتاتورية والدمقراطية فى ذلك سواء ، وان اختلفت فانما تختلف فى الدرجة لا فى النوع . لا شك اذن فى أن المقصود بالبحث هو النظام الاقتصادى فى الاوقات العادية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

البلاد التى يقوم فيها الحكم الدمقراطى معروفة ، فبريطانيا العظمى فى العالم القديم والولايات المتحدة الامريكية فى العالم الجديد تعدان بحق زعيمتى الدول الدمقراطية وان اختلف نظام الحكم فى كلتيهما عن الأخرى بعض الاختلاف . وقد كانت بلجيكا وهولندة ودول اسكندناوة دولا دمقراطية قبل أن تجتاحها الجيوش الألمانية . وتعد مصر أيضاً دولة دمقراطية وان لم تبلغ فى دمقراطيتها ما بلغته الدول سالفة الذكر . ويحسن أن نعرف النظام الدمقراطى حتى لا يكون مدلول هذا اللفظ أمراً مشكوكا فيه ، فنقول إن الدمقراطية نظام للحكم تتولاه مجالس نيابية تشرف على وزراء الدولة المسئولين ، وان النواب فى هذه المجالس يراقبهم الرأى العام مراقبة متفاوتة الدرجات ، ويرشدهم الى العمل أو يدفعهم اليه دفعاً . كما أن من قواعد الدمقراطية أن الوزراء الذين تشرف عليهم المجالس النيابية فى المسائل الكبرى يتمتعون في الوقت نفسه بالسلطة

---

(١) رجعنا فى كتابة هذا المقال الى كتاب الاقتصاد السياسى تأليف الدكتور عبد الحكيم الرفاعى والى ترجمتا العربية لكتابى «نظام أوربا الجديد» و «الدمقراطية» وكتاب Statesman's Year Book والى بعض المجلات الانجليزية والعربية



جانب من مسجد قصر الحمراء فى الاندلس

دراسته دراسة علمية صحيحة فى وقت كان المسلمون أنفسهم غافلين عن هذا التراث

ولقد ساهم الانجليز والأمريكيون فى هذه الدراسة بأوفر نصيب ، وأولوها أقصى عنايتهم ، ولم يتركوا جانباً من جوانب الآثار الاسلامية الا تناولوه بحثاً . وها هى مؤلفاتهم وحفائرهم ومؤتمراتهم ومعارضهم ومجموعاتهم الخاصة خير دليل على ذلك

الاهتمام بالعمارة الاسلامية

ولقد بدأ الاهتمام بالعمارة الاسلامية . لأن العمارة عامة أهم ما يدرسه علماء الآثار من مخلفات الماضى نظراً لارتباطها الوثيق بحياة الانسان ، ولأنها تعكس فى تصميمها وزخارفها ماتسلمه الخلف من السلف ، وما أضافه هذا الخلف الى التراث القديم ، وما خطاه من خطوات فى سبيل التقدم . لذلك رأينا المهندس الانجليزى اون جونز Owen Jones يخرج من انجلترا فى سنة ١٨٣٤ قاصداً أسبانيا ويمكث فى قصر الحمراء - أروع الآثار الاسلامية فى الأندلس - ستة أشهر مواصلا دراسة هذا القصر من حيث التصميم والزخرفة ثم يخرج لنا بعد ثمانى سنوات مؤلفه العظيم عن هذا الأثر الاسلامى الهام الذى بين فيه ما يمتاز به هذا القصر العظيم من دقة الصنع وجمال التصميم وحلاوة الزخرف

الكافية للعمل بوحي أفكارهم ،وذلك لأنهم اذا لم يكن لهم هذه السلطة لا يمكن أن تقع عليهم أية تبعة ، وقد ينسى الناس أحيانا أن المسئولية الحكومية تتطلب أن يعطى المسئولون سلطة فعالة [1] ذلك هو موجز الحكم الدمقراطى وان اختلف فى أجزائه وتفاصيله

النظام الاقتصادى في الدول الدمقراطية

والنظام الاقتصادى فى الدول الدمقراطية مزيج من مذهبين متناقضين ، مذهب حرية العمل ومذهب التدخل الحكومى ، فهو يأخذ بقسط من هذا وقسط من ذاك ويشتد ميله الى كل منهما حسب مبادىء الاحزاب التى تتولى الحكم . وأهم المبادىء التى يقوم عليها مذهب الحرية الاقتصادية ان الباعث على النشاط الاقتصادى هو المصلحة الشخصية ، وانها تتفق الى حد كبير مع المصلحة العامة . ولذلك يدعو أنصاره الى الحرية فى مرافق الحياة وترك الافراد أحراراً فى الأعمال الصناعية والتجارية وترك البضائع تنقل من مكان الى مكان من غير أن توضع عليها قيود . وهم يرون أن خير نظام اقتصادى هو الالتجاء الى القوانين الطبيعية وأن لا فائدة مطلقا من معاكسة الطبيعة . ويتلخص مذهبهم فى العبارة المأثورة اتركه يعمل - أتركه يمر Laissez faire-Laissez passer

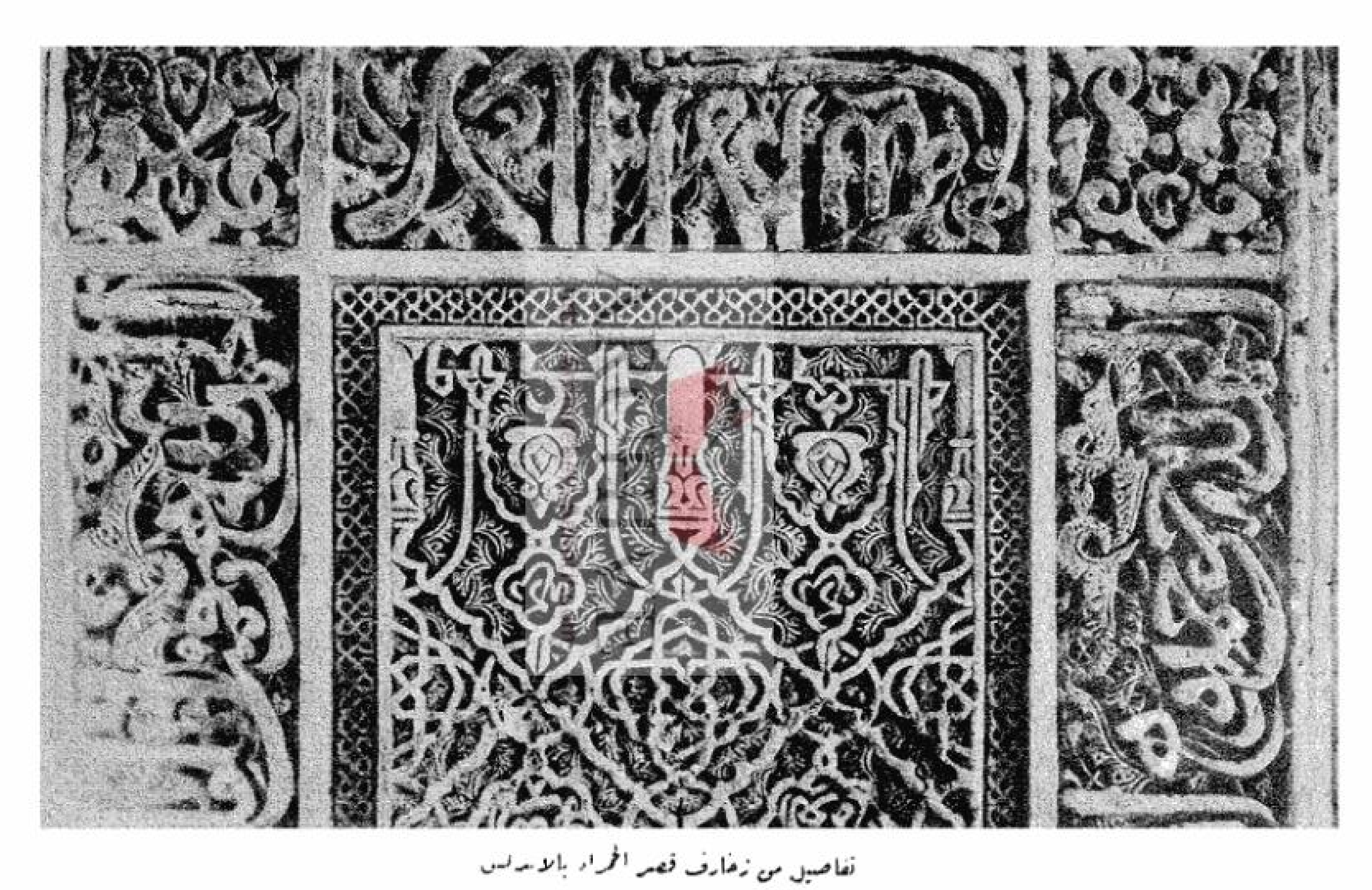
أما مذهب التدخل فيقول إن على الحكومة أن تقوم بكل عمل لا يستطيع الافراد أن يقوموا به أو أن يحسنوا القيام به . ويقول أنصاره إن هناك تناقضاً بين المصالح الخاصة يوجب تدخل الدولة فى بعض الأحوال كما أن انتشار المشروعات الكبيرة وتجمعها فى يد هيئات اقتصادية كبيرة واحتكار السوق ظاهرة يحسن ألا تقف الدولة أمامها مكتوفة اليدين . يضاف الى هذا أن من واجب الدولة وهى الأمينة على المصلحة العامة أن تحمى الجمهور من الغش الذى يعمد اليه بعض التجار والصناع [2]

وعلى هذا الأساس تترك الدول الدمقراطية للافراد والشركات أن يقوموا بنصيب كبير من الأعمال الزراعية والتجارية والصناعية أى بعمليتي الانتاج والتوزيع ، وهى فى الوقت نفسه تتدخل تدخلا غير قليل فى هذه الأعمال إما بطريق التشريع أو باستغلال بعض موارد الثروة استغلالا مباشراً بوساطة البلديات والهيئات الحكومية الأخرى، وتتدخل كذلك فى التجارة الدولية بفرض الرسوم الجمركية المانعة والحامية وتخفيض الرسوم على بعض الواردات

فكثير من الحكومات فى الدول الدمقراطية تستغل بنفسها بعض موارد الثروة استغلالا مباشراً على يد الهيئات الحكومية والبلدية . وأكثر ما يستغل بهذه الطريقة المشروعات التى تشبع حاجة ضرورية وهامة مشتركة بين جمهور الشعب كالماء والنور والسكك الحديدية ونحوها.

(١) من كتاب الدمقراطية للجنة التأليف والترجمة والنشر
(٢) من كتاب الاقتصاد السياسى للدكتور عبد الحكيم الرفاعى

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com



تفاصيل من زخارف قصر الحمراء بالأندلس

فالحكومة المصرية مثلا تستغل السكك الحديدية والتلغراف والتليفون وتستغل أراضى زراعية . والبلديات فى كثير من المدن هى التى تقوم بتوريد الماء والنور . لكن معظم المشروعات يقوم بها الأفراد والشركات ، إما عن طريق المنافسة الحرة أو عن طريق الامتياز . فالترام والنور والماء فى القاهرة تدار بطريق الامتياز ، والمتاجر الكبرى والمصانع متروكة للمنافسة الحرة

وهناك طريقة أخرى من طرق الاستغلال وهى أن تقوم به شركات الاقتصاد المختلط ، وتتكون مثل هذه الشركات من اشتراك الافراد مع السلطات العامة كالدولة أو البلديات ، فتساهم الدولة أو البلدية بجزء من رأس المال ويساهم الأفراد بالجزء الباقى ويكون للدولة ممثلون فى مجلس الادارة ونصيب من الأرباح . وهذا النظام موجود فى الدول الدمقراطية والدكتاتورية الا أنه فى المانيا أكثر منه فى أى بلد آخر . وبمثل هذه الطريقة أنشأت الحكومة المصرية بنك التسليف الزراعى . وللحكومة البريطانية نصيب من أسهم شركة قنال السويس وشركة البترول الفارسية وشركة الأصباغ البريطانية وشركة كنراد Conrad للملاحة

وقد اتسع نطاق المشروعات العامة التى تديرها الحكومات والبلديات أو تشترك فى إدارتها بعد الحرب الماضية ، وذلك لحاجة الدول الى المال الذى تدره عليها أرباح هذه المشروعات ، ولرغبة الجمهور فى أن تحل الدولة محل الشركات لمنفعته هو كانشاء المساكن الرخيصة للعمال ، ولرغبة بعض الحكومات فى نشر نفوذها والسيطرة على الموظفين والعمال ، فيزيد بذلك سلطانها على الناخبين ، فحكومة نيوزيلند مثلا تحتكر التأمين ضد الحوادث والحريق

ومن أهم مظاهر الاقتصاد الحديث فى الدول الكبرى ظاهرة التركز . ويشمل هذا جميع الصناعات فى أقاليم معينة وحلول الانتاج والمشروعات الكبيرة محل الانتاج الصغير والمشروعات الصغيرة . وتظهر آثار هذا التركز فى الصناعة والتجارة أكثر من ظهورها فى الزراعة . ومن هذه المظاهر أيضاً اندماج المشروعات الكبيرة فى الدول الصناعية والتجارية الكبرى مثل ألمانيا وانجلترا والولايات المتحدة الامريكية . وقد اتسع نطاق هذا الاندماج حتى تخطى حدود الدول فأصبح بعضها دولياً بعد أن كان قومياً . وهذا الاندماج على أنواع متعددة ففى بعضها تفقد المشروعات المندمجة استقلالها وتصبح وكأنها مشروع واحد كبير موحد الادارة ، وفى بعضها يبقى لكل مشروع استقلاله وشخصيته ، ويعرف النوع الاول بالترست Trust والثانى بالكارتل Cartel ويوجد النوع الاول فى انجلترا والولايات المتحدة بنوع خاص وأكثر ما يكون النوع الثانى فى المانيا وتشبهه النقابات الفرنسية .

ولا بد من الاشارة هنا الى نظام التجارة ومبدأى الحماية والحرية التجارية . ولقد كان كثير من البلاد وبخاصة انجلترا يدين بمبدأ حرية التجارة وعدم فرض رسوم جمركية عالية على البضائع الاجنبية ، غير أن الدول بوجه عام أخذت بعد الحرب الكبرى تتبع مبدأ الحماية التجارية وتحولت

ولئن كان جونز قد كشف فى القرن التاسع عشر عن عظمة الفن الاسلامى ودقته ، وجماله وروعته ، فان كرسول K. A. C. Creswell فى القرن العشرين قد جلا فى مؤلفه الضخم فضل المسلمين على العالم فى فن العمارة (١) . وفى الحق ان مؤلفه هذا ليعتبر أوفى وأدق وأصدق مرجع لنشأة العمارة الاسلامية وتدرجها فى سبيل الكمال فى عهد الدولتين الأموية والعباسية . ولقد طوق هذا الانجليزى بمؤلفه هذا جيد المسلمين والشرقيين عامة بجميل لا ينكره الا جاحد

وبين جونز وكرسول كثيرون ممن بحثوا فى العمارة الاسلامية فى الشرق وفى الغرب يطول القول اذا ذكرناهم جميعاً ويكفى أن نشير الى بعضهم أمثال رتشمند وبرجز وكوربت وسمث E.T.A. Richmond, E.W. Smith, E. Corbet, M Briggs

الاستاذ كرسول أستاذ الآثار الاسلامية فى جامعة فؤاد الاول

العناية بفنون الاسلام الرفيعة

وكما اهتم الانجليز والأمريكيون بدراسة العمارة الاسلامية كذلك اعتنوا بالفنون الرفيعة من خزف وسجاد ، ومعادن ، وعاج ، وتصوير وتجليد وخشب ونسيج . وفى مقدمة من بحث فى هذه الموضوعات ومن له بحق قصب السبق فيها ستانلى لين بول Stanely Lane Poole الذى أخرج فى سنة ١٨٨٦ كتابه « الفن العربى فى مصر » The Art of Saracens in Egypt . ولئن كنا نشعر اليوم ، معشر المشتغلين بالآثار الاسلامية ، ببعض أوجه النقص فى هذا الكتاب فان العالم الأمريكى ديماند M.S. Dimand قد كمل هذا النقص فى كتابه A Handbook of Mohammedan Decorative Arts

---

(١) اسم هذا المؤلف Early Muslim Architecture وهو مكون من جزءين يتناول الاول العمارة فى صدر الاسلام والدولة الاموية ويبحث الثانى فى العمارة فى الدولة العباسية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اليه انجلترا نفسها بالتدريج ففرضت رسوماً عالية على بعض الواردات الاجنبية واتبعت مبدأ تفضيل منتجات بلاد الامبراطورية بما فيها الاملاك المستقلة . ولم يطبق هذا المبدأ على كل الواردات بل استثنيت منه بعضها كمواد الغذاء والمواد اللازمة للصناعة . وتسير السياسة التجارية فى الولايات المتحدة حتى فى أيام الرئيس روزفلت على هذا المبدأ نفسه وذلك بقصد مساعدة الزراعة وانعاش الصناعة . وكانت الدول فى الفترة التي تلت الحرب الماضية تتبع بوجه عام سياسة الاكتفاء القومى وتعمل على أن تنتج فى بلادها معظم ماتحتاج اليه من غلات ومصنوعات ، وكانت هذه السياسة من أكبر العوامل فى الازمات الاقتصادية التي أعقبت الحرب العالمية الماضية

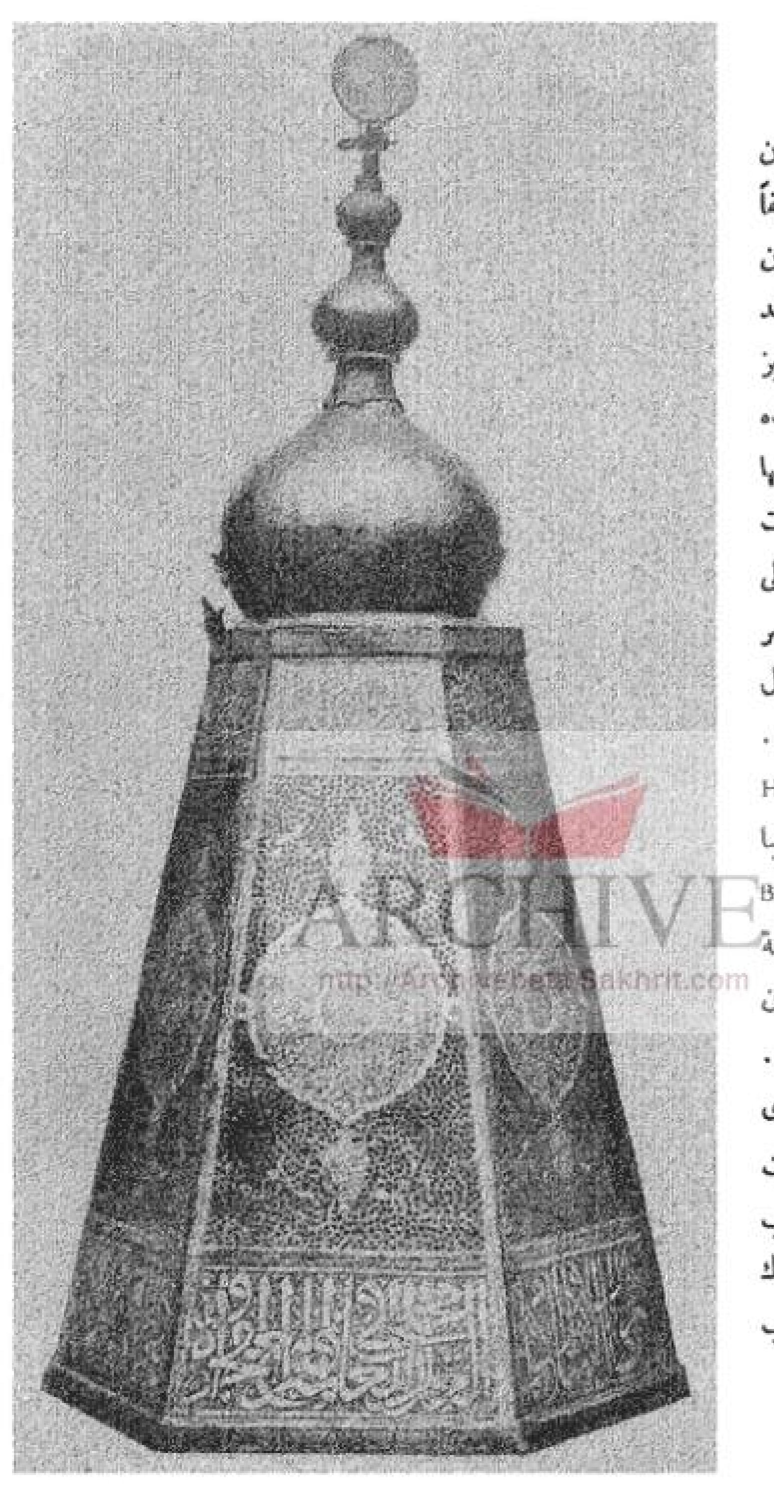
ولا يكمل هذا البحث من غير أن نشير الى نقابات العمال فى البلاد الدمقراطية وهى التى يؤلفها العمال من تلقاء أنفسهم دون ايعاز أو ارغام من حكوماتهم لترعى مصالحهم وتحميهم من عنت أصحاب الاعمال . وقد كان لهذه النقابات أكبر أثر فى تحسين حال الطبقات العاملة ورفع مستوى حياتها ومنع استغلالها لمصلحة الرأسماليين . وشبيهة بها من بعض الوجوه جمعيات التعاون التى ينشئها المستهلكون لتمنع عنهم جشع التجار أو ينشئها المنتجون لتضمن لهم بيع محصولاتهم بأثمان مربحة والحصول على أدوات الانتاج بأثمان معقولة

النظام الاقتصادى فى الدول الدكتاتورية

تلك كلمة عامة عن النظام الاقتصادى فى الدول الدمقراطية . أما الدول الدكتاتورية فنوعان الدكتاتورية الشيوعية والدكتاتورية الفاشية (وأختها النازية) فأما النظرية الشيوعية فتقرر أن الدكتاتورية ضرورية لمحو سيطرة الرأسماليين على المجتمع ، ويقول أصحابها انها تعبر تعبيراً صادقاً عن عقيدة الكتلة العاملة ويعتقدون أنها وسيلة لاقامة نظام خال من نظام الطبقات ويعدون كل خروج على هذا الرأى دليلا على انحطاط الخلق وكل خارج عليه مأجوراً للرأسماليين . وتؤمن الفاشية وأختها النازية بوجود الزعيم الملهم الذى لا يقبل النقد ، والذى يعمل مع فئة قليلة من الانصار المختارين ليقيموا مجد الامة المختارة (فى ألمانيا) أو يعيدوا مجد بلادهم الى ما كان عليه فى الزمن القديم (فى ايطاليا) . وتفترض النظرية الفاشية أن الناس كلهم خدام للأمة الممثلة فى الدولة وأن أشرف الاعمال وأنبلها هى الحرب « توقد نارها من أجل السلم » . تلك هى الفاشية من الوجهة السياسية . أما من الوجهة الاقتصادية فان هذا النظام يقضى بالتدخل فى جميع الاعمال الاقتصادية وهو نقيض المذهب الحر القائل بترك الاعمال الاقتصادية للأفراد والجماعات . فالحكومة تتدخل فى كل شىء وتحدد كل شىء ، فهى التى تقرر ما يجب انتاجه ومن من الناس ينتجونه ومقدار ما ينتجون . وأهم مظهر له فى ايطاليا هو النقابات Syndicates المؤلفة من العمال وأرباب الاعمال . وتمثل النقابة جميع المشتغلين باحدى المهن ، ولكنها ليست نقابة بالمعنى الصحيح فان

الذى بسط فيه المؤلف فنون الاسلام الرفيعة بسطا دقيقاً

وبين العالم الانجليزى لين بول والعالم الأمريكى ديماند علماء كثيرون من الانجليز والامريكان ، بحثوا فى هذه الموضوعات ، ونشروا فيها المؤلفات المطولة والمقالات المختصرة ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ممسون ومحفرد وترسال الذين كتبوا فى السجاد . والس وهبسون H. Walls R.L. Hobson اللذين كتبا فى الخزف . ودين B. Dean الذى كتب فى الاسلحة وبرون وأرنولد وبينيون الذين كتبوا فى التصوير . وكرستى A.H. Christie الذى كتب فى الخشب ولونجهرست Longhurst الذى كتب فى الزجاج . وكندرك A.F. Kendrick الذى كتب فى النسيج



ثريا مصنوعة من النحاس تزدانه بزخارف محفورة وأخرى منزلة بالفضة تحمل اسم السلطان قايتباى وهى احدى روائع التحف الاسلامية بمتحف فيكتوريا والبرت فى لندن.

جهود السيدات

ولم تتخلف الانجليزيات والامريكيات عن العمل فى الآثار الاسلامية فالسيدة بل

العمال لا يؤلفونها باختيارهم بل تؤلفها لهم الحكومة . ولقد قضى النظام الفاشى فى ايطاليا على جمعيات التعاون وصادر أموالها . وقد تكون النقابات الفاشية الجديدة أحسن من النقابات الحرة نظاماً وأقوى صلة وأكثر خضوعاً لمظاهر الفخار القومى واذعاناً واستسلاماً لسياسة الحكومة ، ولكنها لا تشبه نقابات العمال الحقة الا كما يشبه الفيلق من الجيش النادى أو كما يشبه السجن المدرسة . والحقيقة أن نقابات الصناع الفاشية انما هى رجوع بالصناع الى تبعيتهم القديمة التى كانوا عليها أيام مدنيات الاسترقاق القديمة . وهذه هى الحال بعينها فى الدكتاتورية الشيوعية فمهما تكن النظرية الشيوعية وعلاقتها بالحركة العمالية فان نقابات الصناع فى بلادها ليست جمعيات اختيارية بل هى من انشاء طائفة صغيرة من القائمين بالحكم فى البلاد . ولن تكون للعمال نقابات بالمعنى الصحيح الا اذا أنشأها العمال أنفسهم لرعاية مصالحهم ولم ينشئها لهم غيرهم

ويختلف النظام الفاشى عن النظام الشيوعى بأنه لا يعمل للقضاء على الرأسمالية بل يعمل على تنظيمها وعلى منع أرباب الأعمال من استغلال العمال . وهو يؤيد الملكية الخاصة فى حين أن النظام الشيوعى يعمل للقضاء عليها آخر الأمر

وتتدخل الحكومة الايطالية فى الأعمال الصناعية لانقاص تكاليف الانتاج وتمنع إنشاء المشروعات التى لا تتفق مع حالة الاقتصاد القومى وتستغل الأراضى البور وتزرع الغابات

والنظام الدكتاتورى – النازى – فى ألمانيا وليد الحركة الهتارية . ولقد وجه هتلر كل جهوده للاستعداد للحرب ، فالنظام الاقتصادى بأكمله مسخر الى هذه الغاية . والنازية كالفاشية لا ترى للافراد قيمة الا على أنهم أدوات فى بناء الجماعة . وتسيطر الدولة على الشؤون الاقتصادية سيطرة تامة فالدولة هى التى تحدد الانتاج والتوزيع والاستهلاك أى أنها هى المسيطرة على الزراعة والتجارة والصناعة لضمان زيادة الانتاج ومنع التلف ، وتسيطر الدولة كذلك على أسعار النقد ، وقد أفلحت فى تثبيت سعر المارك الالمانى فى الداخل على الأقل الى أجل طويل . وأهم ظاهرة من ظواهر النظام النازى الاقتصادى مشروع السنين الأربع الذى كان خطوة واسعة فى إعداد الأمة من الوجهة الاقتصادية الى الحرب بالقضاء على العطلة وتحقيق الكفاية الاقتصادية وزيادة الانتاج ومنع التلف

وتتبع ألمانيا منذ عام ١٩٣١ سياسة التوسع النقدى . وتقضي هذه السياسة بأن لا يسمح بتعطيل انتاج البلاد بسبب نقص الموارد المالية بل يحدد مقدار هذا الانتاج بما يمكن الحصول عليه فيها من مواد أولية وعمل ومقدرة صناعية وما يؤدى فيها من خدمات [١]

وتتدخل الدولة كذلك فى الأثمان فتحددها الى آجال طويلة ، وفى أرباح الأسهم والسندات فلا تسمح بأن تزيد على ٦٪ . وكانت التجارة الخارجية الألمانية حتى قبل الحرب الحاضرة خاضعة لسيطرة الحكومة فهى التى تحدد نوع الواردات ومقدارها ، وكانت فى أثناء تدخلها السلمى فى

(١) مأخوذ من ترجمتنا لكتاب « النظام الجديد فى أوربا »

G. Bell لها مؤلفات عديدة يكفي أن نذكر منها ذلك الكتاب الذى أصدرته فى سنة ١٩١٦ عن قصر ومسجد الاخيضر « Palace and Mosque of Ukhaidir » والذى أثبتت فيه ببحثها القيم أن هذا القصر اسلامى ، وأيدت رأيها بحجج دامغة وقضت على الرأى الذى كان يقول بأنه يرجع الى ما قبل الاسلام. والسيدة ايفانز Lady Evans اشتغلت بالخزف الاسلامى ولها فيه مؤلف قيم اسمه « الخزف ذو البريق المعدنى Lustre Pottery » . والسيدة نانسى Nancy Britton اشتغلت بالمنسوجات الاسلامية ولها فيها مؤلف يعتبر أحدث ما كتب فى هذا المجال ، تناولت فيه بالدراسة طائفة من المنسوجات الأثرية الاسلامية الموجودة فى متحف الفنون الجميلة بمدينة بوسطن بأمريكا ، وتحدثت فيه عن نشأة الفن الاسلامى وعن الكتابة العربية ، وعن الناحية الفنية لصناعة النسيج عند المسلمين ، وبينت أهمية هذه الناحية لمؤرخى الفن

المجموعات الخاصة

ولقد أقبل الانجليز والامريكيون على اقتناء التحف الاسلامية ، وبذلوا أقصى جهدهم فى سبيل الحصول عليها ، وتنافسوا فى ذلك حتى تكونت لديهم مجموعات خاصة لها قيمتها العملية فى دراسة نواحى النشاط الفنى والصناعى لدى المسلمين، واذا كان المجال يضيق عن أن نذكر هذه المجموعات الخاصة جميعاً فلا أقل من أن نشير الى بعضها مثل مجموعة نيوبرى Newberry فى المنسوجات الاسلامية المطبوعة . ومجموعة جدمان Godman فى الخزف والزجاج . ومجموعة تشستر بيتى Chester Beaty فى الصور الاسلامية الصغيرة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهيئات الانجليزية والامريكية التى اهتمت بالآثار الاسلامية

واذا كان هذا الذى بسطناه يفصح فى جلاء عن مدى عناية الانجليز والامريكيين كأفراد بالآثار الاسلامية فان اهتمامهم بهذه الناحية كهيئات وحكومات أشد من ذلك وأعظم . ففى انجلترا وأمريكا توجد عشرات المتاحف التى تنطوى جوانحها على مجموعات قيمة من التحف الاسلامية نذكر منها متحف فكتوريا والبرت ، والمتحف البريطانى ، والمتحف الملكي الاسكتلندى بانجلترا ، ومتحف المتروبوليتان ، ومتحف بوسطن ، ومتحف كولومبيا ، ومتحف شيكاجو بأمريكا . وجميع هذه المتاحف بمجموعاتها النفيسة هى فى الحقيقة سفير دائم للحضارة الاسلامية فى بلاد الغرب ، ولسان صدق يردد بين أرجاء العالم ما بلغه المسلمون فى سالف أيامهم من الرقي والتقدم . ولئن كانت هذه التحف غريبة فى تلك البلاد الا انها نالت وتنال فيها من التقدير والاجلال نصيباً وفيراً . فقد كانت ولا تزال موضع الدراسة والبحث . بل لقد تضاعفت عناية الامريكيين بها فأخذوا يدرسونها فى بعض جامعاتهم مثل جامعة بنسلفانيا ومتشيجان وفيلادلفيا ، ويصدرون كراسات دورية يتناولون فيها الاكتشافات الحديثة ، ويتابعون البحث وراء إظهار مجد المسلمين التالد

جنوب أوربا الشرقى تدفع أثماناً عالية للمحصولات الزراعية لكى يصعب على أهل هذه البلاد أن يبيعوها لغير الألمان. وكانت تحرص على عقد اتفاقات طويلة الأجل مع المنتجين الزراعيين على أساس أثمان محدودة لعدة سنوات قادمة ، ففى اكتوبر من عام ١٩٣٨ قام وزير الأقتصاد القومى بجولة فى جنوب أوربا الشرقى ليقنع الحكومات التى زارها بأن تبيع لألمانيا كل الفائض من صادرات بلادها بأثمان محددة

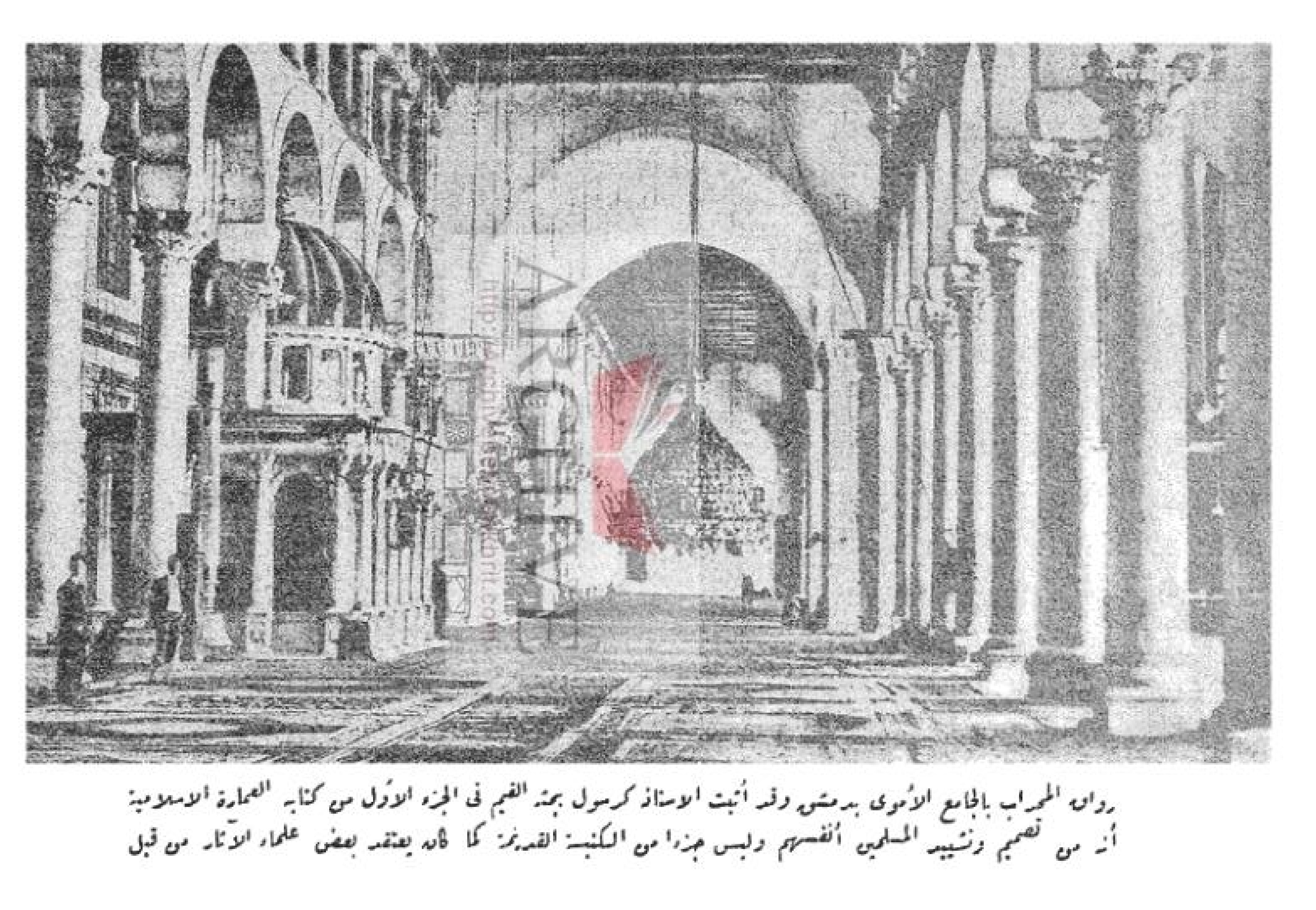
واتبعت المانيا فيما يختص بتجارتها الخارجية نظام المقايضة أى أن تدفع أثمان وارداتها من أثمان صادراتها ، وجرت على السياسة الأقتصادية المعروفة بمقاصة الصرف وخلاصتها أن يدفع المستوردون فى كل دولة أثمان مشترياتهم فى حساب خاص ومن هذا الحساب يستولى المصدرون من نفس الدولة على أثمان صادراتهم بدل أن يدفع المستوردون الثمن مباشرة الى المصدرين فى خارج البلاد بتحويل الأموال اليهم عن طريق سوق النقد الخارجية

وتعمل المانيا على نقل الصناعات الهامة من البلاد التى تحتلها الى داخل بلادها هى ، وعلى تفريق الصناعة بدل تركيزها ، وعلى أن تقوم الزراعة الى جانب الصناعة حتى يتمتع السكان بفوائد العمل فى الزراعة وفى الصناعة فيرتفع مستوى حياتهم دون أن تضعف أجسامهم

وترغب المانيا اذا تم لها النصر وأنشأت نظامها الجديد فى أوربا أن تكون فى مركز يسمح لها بأن تفاوض بأسم أوربا كلها مجتمعة فى وحدة كبرى فتمتنع بذلك المنافسة بين المصدرين حتى لا تنخفض أثمان صادراتهم ، وبين المستوردين فلا ترتفع أثمان ما يستوردون . وفوق هذا أيضاً سيكون من الممكن فى هذه الحال أن تخفض حاجيات أوربا مجتمعة بالنسبة للعالم كله . وسيكون من نتائج التوسع فى الصناعات الألمانية وتنظيم الزراعة فى البلاد الداخلة فى نظام أوربا الجديد أن تخفض الواردات من المصنوعات والغلات الزراعية غير الأوربية ، وسيؤدى التوسع فى استعمال أصناف بدل أصناف أخرى الى تخفيض الواردات الأوربية على اختلاف أنواعها

وتطبق الدكتاتورية الشيوعية النظام الاشتراكى فى حدود واسعة . ولقد نص الدستور السفييتى الأول على ألغاء الملكية الخاصة للارض وعلى جعل جميع الأراضى ملكا عاما للشعب بأجمعه وعلى أن تكون الغابات والمناجم والقوى الطبيعية والكهربائية والبنوك ومجارى الماء ذات الأهمية القومية ملكا للدولة كذلك . وتمتلك الدولة جميع المصانع الكبيرة والمناجم والسكك الحديدية وغير هذه من وسائل الانتاج والنقل ولكن فى وسعها أن تؤجرها للافراد أو الهيئات . وتمنع القوانين انتقال الثروات بالارث ، غير أن الادخار لا يزال مستطاعا فى الروسيا عن طريق شراء سندات الدولة وأسهم الجمعيات التعاونية . وقد وضعت الحكومة الروسية فى عام ١٩٢٨ مشروعا يعرف بمشروع السنوات الخمس يقصد به مضاعفة الانتاج الزراعى والصناعى والاستغناء عن غيرها من البلاد ، فأنشأت لذلك الغرض عدداً كبيراً من المصانع وقررت للعمال أجورا قليلة . وقد كان نجاح

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



رواق المحراب بالجامع الأموي بدمشق وقد أثبت الأستاذ كرسول بحثه القيم في الجزء الأول من كتاب العمارة الإسلامية أنه من تصميم وتشييد المسلمين أنفسهم وليس جزءاً من الكنيسة القديمة كما كان يعتقد بعض علماء الآثار من قبل

هذا المشروع سببا فى تكراره لمدة خمس سنوات أخرى من ١٩٣٣ - ١٩٣٧ ، وبفضله صارت الروسيا من كبريات الدول الصناعية ،وزادت غلاتها الزراعية زيادة كبيرة ، وقلت المزارع الصغرى وقضى على المجاعات التى كانت تهدد البلاد من آن الى آن

ولا بد من أن نشير هنا الى ما أدخله دستور ستالين على النظام الشيوعى الاقتصادى من تعديلات . فقد اعترف هذا الدستور بالملكية الشخصية الى جانب الملكية الاشتراكية والملكية الجماعية أو النقابية .غير أن الملكية الشخصية لاتزال مقصورة على بعض فئات معينة وليست عامة لجميع أفراد الشعب

وقد ادخل ستالين على الدستور السفييتى تعديلات أخرى سياسية ليس هنا موضع الكلام عليها

تلك كلمة موجزة عن النظام الاقتصادى بنوعيه ومن أراد التوسع فى الموضوع فعليه بالرجوع الى المطولات التى رجعنا اليها نحن

احمد عبد الخالق   محمد بدران


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لماذا نحارب الديمقراطية

اننا نحارب فى سبيل حرية ضمير الفرد ، نحارب من أجل حرية العقيدة الدينية ، نحارب ضد المظالم والاضطهادات حيثما وجدت . نحن نحارب من أجل الديمقراطية ، والقضاء على الروح العسكرية ، وعلى حشد الأسلحة الذى من شأنه إفقار أوربا ، ومن بينها المانيا أيضاً . ولا يمكن أن تحصل أوربا على السلامة ،وتنجو شعوبها من الافلاس والخراب الا بالقضاء على هذه الأسلحة الديكتاتورية

(تشمبرلين)

على أن الأمر لم يقتصر على اصدار تلك الكراسات الأمريكيـة الدورية بل أنشئت مجلات خاصة لنشر الأبحاث الأثرية الاسلامية مثل « Iraq, Ars Islamica »



بساط مسجد اردبيل وهو من أشهر وأعظم الابسطة الاسلامية القديمة فى العالم وتمثل الصناعة الايرانية فى أروع عظمتها وهو عظيم الاهمية لانه يحمل اسم صانعه وتاريخ نسجه (٩٤٦ هـ - ١٥٤٠ م) . وهو موجود الآن فى متحف فيكتوريا والبرت بلندن

الحفائر والمعارض

ولقد قام كثير من الهيئات العلمية والجامعات بالحفر فى المناطق الأثرية مثل حفائر المعهد البريطانى للآثار فى العراق ثم حفائر جامعة بنسلفانيا فى ايران . كما نسقت المعارض المختلفة لعرض روائع الآثار الاسلامية فى بلاد مختلفة وأزمان متباينة ، وتعاون فطاحل العلماء فى اصدار كتب جامعة فى الآثار الاسلامية مثل الـكتاب الذى أشرف على إخراجه بوب واركرمان Pope, Arckerman المسمى « Survey of Persian Art » والذى يتكون من سبعة أجزاء مزينة بأجمل الصور متوسط عدد صفحات الجزء الواحد ٩٠٠ صفحة تقريباً من القطع الكبير (٢٨ × ٤٠ سم)

***

هذا استعراض موجز لما للانجليز والأمريكيين من الفضل على الآثار الاسلامية ولما بذلوه من الجهد فى سبيل اظهار مجد المسلمين التالد . وليس هناك من شك فى أنهم قد فتحوا أعيننا معشر الشرقيين على الحضارة المادية لأجدادنا المسلمين ، وبصرونا بما فى تراثهم الفنى من مجد وعظمة

محمد عبد العزيز مرزوق

http://Archivebeta.Sakhrit.com

العلم والعلماء

بين الديمقراطية والديكتاتورية [1]

العلم والعالم تراث الانسانية جمعاء ، فالعلم لا وطن له ، بل كل بلد وطن العالم . هذه مبادىء قررها الانسان منذ عهد بعيد فلم يكن من داع اليوم لنقدها ولا ذكرها ، لولا ان الديكتاتورية الحديثة أصابت العالم بنكسة عنيفة اضطرته الى ان يتحدث فى هذه الايام عما تقرر للعلم والعالم قديما من حريات وحرمات

تتلخص روح العلم فى كلمة لاتينية اتخذتها مجامع العالم الكبرى شعارا ، ومعناها ان العلم لا تحده ولا تقيده كلمات أى انسان Nullinsin verba . فالعلم الحق لا يتقيد بما يقوله عالم مهما بلغ من المكانة والذكاء ، ولا بما تقرره نظرية مهما بلغت من القوة والذيوع ، ذلك أن جانب الخطأ والنقص مفروض فى بحث العلماء قبل أن يفرض فيه جانب الصحة والكمال . ولولا ذلك لتحجرت العلوم فى قوالب صلدة تؤدى بها الى الجمود والموت . ولكنا نشهد فى السنين الاخيرة دولا فى الذروة من دول العلم والحضارة تريد أن تقيد العلم لا بأقوال العلماء ، فقد يهون الامر ويقبل القيد عندئذ شيئا ما ، ولكنها تريد ان تصفد العلم بأغلال من مذاهب السياسة وأقوال رجالها !

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فلسفة الاجناس

ليس لنا أن نعترض على هذه الكلمات الخلابة التى تجرى على ألسنة الالمان وأقلامهم عن « الجنس ، والدم ، والارض » حين أراد زعماؤهم ان يوقظوا الشعب ويستثيروا قواه . اما ان تتخذ قواعد وأصولا تقام عليها البحوث العلمية وتدور فى مرادها أقوال العلماء ، فهذا ما يذهب بحرية العلم ويلغى حرمة العالم ويضيع على الانسان مئات من السنين امضاها يجاهد ويناضل ويضحى فى سبيل الحرية الفكرية

يقول علماء النازى ان للحياة قانونين : قانون الكفاح فى سبيل الوجود ، وقانون بقاء الاصلح . واذن فشريعة الغاب سليمة مقبولة ، اذ تقرر أن أوفر الناس قوة وأقدرهم على الغلبة هو الذى يبقى ويظهر ويسود . فلماذا تنكرون هذه الشريعة على الالمان حين يتخذونها أساسا يقيمون عليه فلسفتهم فى الحياة ؟ ولماذا تعيبون عليهم سعيهم الى ان يكونوا أقوى الناس ليظهروا عليهم بالغلبة والسيادة ؟

---

(١) بعض ما فى هذا المقال مستقى من رسالة عنوانها « العلم فى اغلال Science in Chains » للعالم الانجليزى الكبير Sir Richard Gregory

ولو شاء علماء النازى ان يجيبوا هم عما تساءلوا عنه لقالوا ان العلماء الذين قرروا نظرية التطور قالوا ــ وأعادوا هذا القول كلما تحدثوا ــ أن التطور ينطبق على الانسان من جانبه المادى وجانبه المعنوى على السواء ، فهو يتطور من حيث جسمه كما يتطور من حيث روحه ، أى ان ارتقاءه المادى يقابله ارتقاء فى أخلاقه الاجتماعية ٠ اما ان تعتبر القوة وحدها عنصر ارتقاء الانسانية فهذا ما يهبط بالنوع البشرى الى مجرد حيوان يكافح ويقاتل فى سبيل شهوة الطعام والجنس .

واذن فنظرية التطور لا تلتئم مع شريعة الغاب ولا تبررها ، فهذه لا تعترف الا بالقوة وحدها وتلك تقول بتطور الجسم والروح معا

واذن ففلسفة النازى تريد أن تزيف العلم تزييفا لتتخذ منه مستندا تبرر بها مبادئها ، وتريد أن تفتن العلماء عن أنفسهم فتنة عمياء حين تسخرهم فى تثبيت أقوال ساستها وزعمائها ٠

فالعالم فى ألمانيا الحديثة مخير بين أمرين : اما ان يبحث ويقرر وفق ما تريده الدولة ويفرضه الزعماء مهما يكن بين ذلك وبين الحق العلمى من تنافر وخلاف ، واما ان يحبس نفسه بعيدا عن البحث العلمى ، أو يهجر وطنه ويضرب فى آفاق الدنيا ، أو أن يزج به فى معتقل تزهق فيه روحه أو يسام العذاب ٠ وذلك كله على شريطة أن يكون آرى الدم لم تسر فيه « اللوثة اليهودية » التى تحرم على صاحبها أن يطرق أية ناحية من نواحى العلم والتعليم مهما تكن كفاءته ومكانته

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

النظريات والتجارب

كذلك يريد علماء الاشتراكية الوطنية أن يبرروا ما تنزل من العسف والكيد بكثير من العلماء ، متذرعين بدعوى لا يسيغها العقل العادى فضلا عن أن تقرها طبيعة العلم وتاريخه الطويل ٠ فهم يقسمون العلماء طائفتين : العلماء النظريين أو اليهود ، والعلماء العمليين أو الآريين ٠ وهؤلاء هم الاخيار الذين يجب أن يكرسوا أنفسهم لتمجيد ألمانيا ، وأولئك هم الاشرار ــ ولا سيما اذا كانوا يهودا ــ فيجب أن يستأصلوا من ميادين العلم

ونظرة عابرة الى تاريخ العلم وأسماء العلماء ترينا حقائق ثلاثا : الاولى ، انه ما من شعب اختص نفسه بأحد الجانبين ، النظرى والعملى ، فى بحوثه ، بل أضاف كل ما وسعه من نظريات العلم وتجاربه على السواء ٠ والثانية ، أنه اذا كان ثمة شعب غلب فيه البحث النظرى على الكشف العملى فليس هو الشعب اليهودى ، وانما هو الشعب الاغريقى القديم ٠ والثالثة أن كثيرا من علماء الالمان الآريين قد أضافوا الى النظريات العلمية وحدها ما خلد أسماءهم فى ثبت العلماء البارزين دون ان يكون لهم أى شىء فى الناحية التجريبية من العلوم

هـذا الى أن من البديهيات أن النظريات والتجارب يكمل بعضها بعضا : فلا قيمة للنظرية اذا لم تبرزها التجربة الى الوجود ، ولا تعدو التجربة عملا يدويا تافها اذا لم تقم على أساس نظرى صحيح ، واذن فهذا عذر لا يقبل وتلك ذريعة لا تجدى ، وخير أن يجهروا بأنهم اضطهدوا العلماء لانهم ينكرون الحرية ويخشونها ، ويعلمون علم اليقين أن لا حياة لهم اذا ترك العلماء أحرارا يغذون عقول الناس غذاء دسما غير مسموم

اضطهاد العلماء

اضطهدت ألمانيا فى السنين الاخيرة مئات ومئات من العلماء ، منهم اليهود ومنهم الالمان على السواء . ولاداعى لان نعود هنا الى قصة الادباء والمفكرين والفنانين الذين نفوا وشردوا أو الذين قتلوا وعذبوا ، ففيما أنزل بفرويد ولودفيج ومان وكريزلر ما يغنى عن روايتها الاليمة . وانما نقصر الحديث هنا عما لاقاه العلماء وحدهم من الارهاق والاضطهاد ، وعما وجه اليهم من الصروف والخطوب ، لان جريمتهم ان أرقامهم ومعادلاتهم وأجهزتهم ومعاملهم لا تقر آراء الساسة ولا تشبع نهم الزعماء

كل باحث أو مدرس علمى لا ينحدر من أصل آرى أولا يساهم ببحثه ودرسه فى فرض سيادة ألمانيا على العالم ، يعد فى ألمانيا « عدوا للدولة » ! . تقرر هذا المبدأ فى مؤتمر عقدته جامعة هيلدبرج سنة ١٩٣٥ ، اذ أعلن اتحاد أطباء ألمانيا وجوب تحرير الطب الالمانى من « الشر اليهودى » . وكان يحمل أكثر العلماء الذين تحدثوا فى هذا المؤتمر صفة لم يعهدها العلماء الذين أخلصوا للعلم فكرهم وجهدهم ، وهى صفة « عضو فى حزب النازى » ، فكانوا يتكلمون معبرين عن جانب من آرائهم السياسية ، خائفين من جانب على وظائفهم ومناصبهم فى الجامعات والمعاهد . ولهذا قال أحد كبار المتمدنين فى المؤتمر ما نصه : « ان مسؤولية الطبيب الكبرى فى الدولة الاشتراكية الوطنية هى المحافظة على مايختص به الشعب الالمانى من الدم والجنس والصحة والكفاءة » أى ان البحث الطبى فى الدولة التى كان لها السبق فى هذا المجال لم يعد يرمى الى ما فيه خير النوع الانسانى جميعا ، بل تنحصر مهمته فى زيادة قوى « الشعب السيد » الذى يريد ان يحكم الدنيا . وهكذا كان الطب شعلة تضىء ظلام الانسانية ، فغدا نارا تلهبها وتأكل منها ..

على هذه القاعدة حرمت جامعات ألمانيا ومعاهدها من أساتذتها البارزين ، لا لان تهمتهم اليهودية فتلك قد فرغت ألمانيا من أمرها منذ بادىء الامر ، بل لانهم لم يستطيعوا أن يوجهوا بحوثهم وفق ما تمليه ارادة النازى وتقتضيه سياسة الريخ . وقد لخص الاستاذ كريك عميد جامعة هيلدبرج مهمة العلم فى خطاب قال فيه : « انا اليوم فى مستهل عصر جديد ، لا من الوجهة السياسية فحسب ، بل ومن جهة التعليم والبحث العلمى كذلك . فنحن نتجه فى العلم الى أهداف جديدة ، سالكين اليها طريقا عينته لنا شخصيتنا المستقلة وتاريخنا القومى . وعلى هدى هذا الطريق الجديد ستجرى فى اثرنا - ان عاجلا وان

آجلا ـ الشعوب الشقيقة » • وهو يعنى بتلك الشعوب الاقليات الالمانية المبعثرة فى أرجاء أوربا ، والتى كانت دعوى اضطهادها ذريعة اتخذتها المانيا مرارا لتبرير عدوانها على استقلال كثير من الدول المستضعفة »

فالعلم اذن قد غدا فى نظر هؤلاء العلماء عملا سياسيا وقوميا ، لا يعنى بالحقيقة ولا بالانسانية وانما بما يريده زعماؤها

وما جرى على الجامعات جرى على المؤتمرات العلمية • ففى سنة ١٩٣٥ أعلن وزير الدعاية الالمانية ان تمثيل المانيا فى أى مؤتمر علمى أخضع لرقابة هيئة حكومية تراجع مناهج البحوث التى تعرض على المؤتمر ، وأسماء الذين ينوبون فيها عن المانيا • وتختار هذه الهيئة لرئاسة الوفود التى تمثل المانيا رجالا موثوقا بآرائهم السياسية، وغالبا ما يكونون أعضاء فى حزب النازى • وأصدر وزير المعارف الالمانية سنة ١٩٣٦ قرارا ينص على أن كل من يرأسهم من العلماء والاساتذة والطلاب اذا أرادوا ان يقصدوا دولة أجنبية ليتعلموا أو يبحثوا أو يحاضروا أو يشهدوا مؤتمرا فيها ، فعليهم ان يتصلوا حالما يصلون ثلاث جهات : ممثل ألمانيا الرسمى ، وممثل حزب النازى ، وممثل مكتب تبادل الثقافة الالمانى فان تعذر عليه ذلك قدم للوزير تقريرا عما حال دون اتصاله بهذه الهيئات

واذن لا سبيل لان يبحث هؤلاء الطلاب أو هذه الوفود ما يعرض لهم من مسائل العلم بحثا نزيها جريئا ، بل عليهم ألا يقبلوا أو يقروا مما تقبله وتقره الجماعات العلمية الا ما يوافق فلسفة النازى ومبادئه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فى البلاد المحتلة

أعنف وأقسى ما عانى العلماء من اضطهاد المانيا هو ما يشهده علماء البلاد المحتلة،حيث سيق رجال العلم وأساتذة الجماعات سوق الانعام ، الى مرابطها تارة والى مذابحها تارة أخرى

فى تشيكوسلوفاكيا وحدها طرد عقب اتفاق ميونيخ ألف ألف نسمة من وظائفهم فى المعاهد العلمية والفنية وفى معاهد التعليم والثقافة • ولما دخل الالمان براغ بعد ذلك بسنة أوقف كل نشاط علمى وفكرى فى تلك البلاد ، فجردت مكاتبها من كل كتاب وصحيفة لاتوافق عليهما سلطات النازى ، كما نقل الى المانيا كثير من الكتب والاجهزة العلمية التى كانت تحفل بها جامعات التشيك ومعاهدهم ومتاحفهم • وفى نوفمبر سنة ١٩٣٩ ، أغلقت جامعة براج وهى من أقدم جامعات أوربا، كما أغلقت معاهد طبية وتعليمية كبرى ، وحكم بالموت على زهاء ألف رجل من مدرسى الجامعات وطلابها ومن مدرسى المدارس الثانوية ذلك أنهم أبوا ان ينسوا فى دروسهم ان لوطنهم تاريخا مجيدا يجب ان يعرفوه ويذكروه وأضف الى هؤلاء الالف الذين قتلوا سبعة آلاف من رجال الثقافة وطلابها زج بهم فى سجون بلادهم أو سيقوا الى معاقل المانيا • أما الذين اتاهم الحظ فنجوا من الموت والسجن

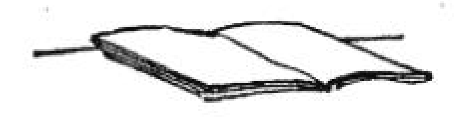
فجردوا من أسباب العمل والرزق ، وحرم عليهم ان يكتبوا أو يبحثوا أو يقولوا شيئا
وكذلك كان أمر بولندة عندما هوت تحت أعقاب الالمان، فهذا معهد الطبيعيات التجريبية فى جامعة وارسو جرد من كل ما كان يحفل به من الاجهزة العلمية الثمينة وأرسلت الى جامعات ألمانيا وأعدم الاستاذ بيالوبرسكى أستاذ الطبيعيات النظرية وأحد العلماء البارزين ودعى أساتذة جامعة كراكاو الى اجتماع لتلقى عليهم محاضرة فى معنى الاشتراكية الوطنية الالمانية ، فقيل لهم ما يجب ان يعرفوه وما يجب ان يعلموه تلاميذهم ، ولكن ما ان غادروا قاعة الاجتماع حتى وجدوا عربات نقل كبيرة تنتظرهم ، فأقلتهم الى حيث سيقوا الى سجون المانيا • وكانت الجريمة التى اتهم بها الجستابو مائة وثمانين من هؤلاء الاساتذة ان جامعتهم ظلت مدى خمسة قرون قلعة للروح البولندى !! هذا الى تهمة أخرى هى أنهم بدأوا يحاضرون الطلاب دون ان يستأذنوا من السلطات الالمانية ، فكانت رغبة الاساتذة فى أن يعلموا ويدرسوا جريمة تستحق هذا العقاب النكر ، اذ مات ثمانية منهم فى أحد المعاقل وحكم على خمسين منهم بأن يقطعوا الاحجار وينقلوا أثقالها • فهل شهد التاريخ من شهداء الحرية الفكرية من عانى ما عانى هؤلاء الاساتذة من العذاب والنكال ؟ وما قيمة العلم اذا لم يستفز رجاله فى أنحاء العالم جميعا الى استنكار هذا العسف العاتى والتنديد بالايدى التى تلوثت بأزكى الدماء ؟
وفى أوربا عشرات من الجامعات لقيت وتلاقى أمثالا من بغى الالمان ، رجاء ان ينالوا من الشعوب التى وقعت فريسة بأيديهم بتسميم عقولهم وتحطيم أرواحهم ، واطفاء جذوات قلوبهم واضواء أذهانهم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الديمقراطية تحتج

ما كان للعلماء الذين ينعمون بحرية الفكر والبحث والقول حرية كاملة مطلقة ان يشهدوا صامتين مأساة زملائهم من العلماء وكارثة العلوم التى أخلصوا لها • فهم لا يعرفون فيما يقرأون ويكتبون ، وفيما يبحثون ويكشفون ، ان ثمة علاقة بين العلم والسياسة وبين العلماء والاحزاب ، وقل منهم من يساهم بنصيب فى شأن من شؤون السياسة بمعناها الضيق المحدود • ذلك ان همهم ان يكشفوا عن المجاهل والحقائق سواء أرضت أو أغضبت الحكام ، وسواء عاد نفعها على شعوبهم وحدها أم عم الانسانية جمعاء • وهم يؤمنون ايمانا بهذه الكلمة العميقة الثمينة التى قالها قديما العالم الانجليزى الكبير هكسلى ، وهى « ان العلم اذا تحول الى عقيدة قضى عليه بالموت » ، فيوم يؤمن العلماء بأن نظرية ما لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها فلا سبيل ولا داعى لنقدها ونقاشها ، هو اليوم الذى يقف فيه العلم جامدا لا يخطو خطوة واحدة الى الامام
واذن فقد انتفض هؤلاء العلماء فى الشعوب الديموقراطية يكتبون ويخطبون ويأتمرون محتجين على هذه المآثم والمظالم التى تزهق الاذهان الكبرى ، وتنكر على الانسان أثمن

ما ملك وهو حرية التفكير . وليس من اليسير أن يحصى ما قيل وما كتب تنديدا بما تقارفه الدول الديكتاتورية فى حق العلم والعلماء ، وحسبنا أن تشير هنا الى هذا الاحتجاج العنيف المدوى الذى صدر فى أمريكا سنة ١٩٣٨، فقد أمضاه ثلاثة عشر ألفا من أساتذة الجامعات ورجال البحث وأعلام التفكير البارزين، يمثلون مائة وسبعة وستين من الجامعات والمعاهد الكبرى ، ومن بينهم ثمانية وخمسون من عمداء الكليات ومديرى معامل البحث المشهورين ، وأربعة وستون من أعضاء المجمع العلمى الامريكى ، وثلاثة ممن حازوا أرقى الجائزات العلمية وهى جائزة نوبل للعلوم . ويتلخص هذا الاحتجاج فى انكار ما تريده الدول الديكتاتورية من تطبيق السياسة القومية فى دائرة العلوم ، لتحيلها اداة فى أيدى الساسة يسعون بها الى أطماعهم فى الغلبة والسطوة ، وفى تقرير ان العالم كله ــ من وجهة العلم ــ وحدة قوية لا تنافر ولا انفصام بين أجزائها فمن الخطأ والخطر أن يحاول أحد الاجزاء أن يعتزل العالم مكتفيا بنفسه متربصا لسواه بالشر والاذى . وثمة احتجاج كهذا أصدره الاتحاد الامريكى لتقدم العلوم فى سنة ١٩٣٨ وقرر فيه « ان العلماء لم يكسبوا حرياتهم الا بعد ان خاضوا غمار معارك عنيفة ، دامت أمادا طويلة واقتضتهم كثيرا من الضحايا . فاذا أزهقت هذه الحريات أو انتقص منها فلا أمل فى ان يثابر العلم على تقدمه المنشود ، ولا فى أن تحقق الحكومات ما هو مفروض من العدالة ، ولا فيما يرجى للعالم من سلام دولى ، ولا فيما يراد للانسان من رخاء مادى طويل الامد واسع المدى » . ومن أروع مايذكر هنا احتجاج الجمعية الرياضية اليونانية وقد صدر فى مثل هذا الشهر من العام الماضى مهيبا بالعلماء الاحرار ان يقفوا صفا واحدا ليدفعوا عن زملائهم فى البلاد المغلوبة على أمرها ما يحل بهم من الخطوب ، وليؤمنوا العلوم فى ذاتها مما يراد بها من كيد ينقلها من دائرة الثقافة الانسانية العليا الى دائرة المآرب السياسية المغرضة



العرب في اميركا الديمقراطية

بقلم الاستاذ حبيب جاماتي

لكل أمة من الامم جاليات منتشرة في نواحي العالم ، مرتبطة بوطنها الاول ارتباطا تقوى أو تضعف أواصره تبعا لحالة الروح القومية ـ قوة أو ضعفا ـ في نفوس المهاجرين ، الذين تتألف منهم تلك الجاليات ، وتبعا لما يطرأ على علاقات أولئك المهاجرين بأبناء قومهم المتخلفين من توثيق أو فتور ، فان بعض البلدان لا تجنى فائدة تذكر ، مادية كانت أو معنوية ، من أبنائها المهاجرين ، في حين ان بلدانا أخرى تجني من مهاجرتهم فوائد جمة ، من سياسية واقتصادية وأدبية • والبلدان العربية من هذه الفئة الاخيرة

فالعروبة خارج ديارها ، كالعروبة في ربوع حماها ، عاملة لنفسها ، تفيد وتستفيد ، تسعى الى العلى وتضرب للقوميات الاخرى في مهاجرها أروع مثل للاخلاص والنشاط والهمة والسمعة الطيبة والحنين الى الاوطان • بل اننا لا نغالي اذ نقول ان المهاجرين العرب كثيرا ما يكونون أصدق وطنية ، وأشد اندفاعا ، وأبعد تفانيا ، وأنقى ضميرا في خدمة بلادهم من مواطنيهم أنفسهم في تلك البلاد

والعرب من أكثر الشعوب ولعا بالاسفار ، وميلا الى المغامرة • وقد لا يخلو قطر في العالم من جالية عربية كبيرة أو صغيرة • ولكن السوريين واللبنانيين هم بلا شك أكثر الشعوب العربية شغفا بالهجرة الى الخارج ، ولهذا الشغف طائفة من الاسباب السياسية والاقتصادية والنفسية ليس هنا مجال شرحها ، كما أن هذا المجال يطول ويقع اذا تحدثنا عن الجاليات العربية في العالم ، ولذا فاننا نقتصر على التحدث عن مقامها في أمريكا الشمالية والجنوبية

***

يقرب عدد المهاجرين العرب من مختلف الاقطار ، في الديار الامريكية ـ بين مهاجر احتفظ بجنسيته ، وآخر استبدل بها جنسية البلاد التي يقيم فيها ، وثالث ضاعت معالم قوميته العربية فامتزجت أسرته بالبيئة الامريكية امتزاجا تاما ـ نحو مليون مهاجر • ويبلغ عدد المهاجرين الذين يجاهرون اليوم بعروبتهم نحو ثمانمائة الف ، منهم نحو ستمائة وخمسين الف لبناني ، في جمهوريات أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية

ففي الولايات المتحدة وحدها نحو مئتي الف لبناني وسوري ، وفي البرازيل مثل هذا العدد ، وفي الارجنتين نحو مائة الف ، ومثلهم في أمريكا الوسطى ، وهناك جاليات كبيرة متفرقة على جمهوريات المكسيك ، وشيلي ، وكولومبيا ، وهايتي ، وفنزويلا وغيرها

وليس معنى هذا أن المهاجرين العرب في العالم الجديد جميعم من أبناء سورية ولبنان ،

ARCHIVE

كلا • بل ان هؤلاء هم معظمهم • وهناك أيضا لفيف من المصريين والعراقيين والمغاربة والجزائريين والتونسيين والحضارمة وغيرهم من العرب ، لا يقلون نشاطا ومكانة عن اخوانهم السوريين واللبنانيين

وتاريخ هجرة العرب الى أمريكا لا يرجع الى أكثر من مائة سنة • ومع ذلك فان المهاجرين العرب هناك قدشقوا لانفسهم طريقا بين الساعين الى المجد والثروة ، من أبناء كل قطر وكل أمة ، فنالوا قصب السبق فى كل ميدان ومضمار • وأولئك الذين لم يكن لهم منذ مائة عام شىء فى العالم الجديد،أصبحوا اليوم ولهم المعاهدوالمدارس والمستشفيات والمتاجر والمصانع والبواخر والصحف والمكاتب والشركات والكنائس والجوامع والجمعيات

أولئك هم المهاجرون الذين لم يكن لهم فى غربتهم حكومة تحميهم،لان بلادهم كانت من قبل خاضعة للاجنبى ، أو تابعة للدولة العثمانية التى كانت تطارد المهاجرين العرب وتضطهدهم، لانها كانت تخشى نشاط الاحرار منهم،والساعين الى الاصلاح أو الاستقلال ولكنهم لم يحتاجوا الى من يحميهم ، واعتمدوا على أنفسهم ، كما قال فيهم المرحوم فيلبس مخلوف :

لم يحمهم سلطانهم بل شيدت لهم العزائم شوكة السلطان

أما نشاطهم ، وجرأتهم ، ومغامرتهم ، وذكاؤهم،ونجاحهم ، فقد أبدع حافظ ابراهيم رحمه الله فى وصف ذلك كله ، حيث قال :

ركبوا البحر ، جاوزوا القطب ، فاتوا موضع النيرين ، خاضوا الظلاما
يمتطون الخطوب فى طلب العيش ويبرون للنضال السهاما

وقد امتد نضالهم الى كل مرفق من مرافق الحياة، وكل ركن من معتركها ، فلم يتركوا بابا الا طرقوه ، ولا سهما الا رشقوه ، ولا ميدانا الا خاضوه ــ واليك بعض التفصيل ، وهو نقطة من بحر :

ففى التجارة يعد المهاجرون العرب فى أمريكا من أوسع التجار خبرة ، وأحسنهم سمعة ، وأوفرهم حظا • فمنهم البائع المتجول ، ومنهم صاحب الحانوت الصغير ، ومنهم التاجر الذى تبلغ ميزانيته الملايين • وبجانب هذه التجارة الزاهرة ، تعمل المصانع التى أنشأها ويديرها أولئك المهاجرون،فتغرق الأسواق بأقمشتها الحريرية والصوفية والقطنية وبمختلف السلع التى يحتاج اليها التجار فى معاملاتهم ، ويؤكد الذين درسوا عن كثب حركة العمل بين المهاجرين فى أمريكا ، ان فى استطاعة المصانع التى يملكونها فى البلاد ان تورد الى متاجرهم جميع ماترغب فيه ، وان تنقل تلك المصنوعات من بلد الى بلد،ومن جمهورية الى أخرى ، بالسفن أو المراكب أو القطرات أو السيارات التى يملكها المهاجرون • والمصانع المشار اليها منتشرة فى كندا والولايات المتحدة والبرازيل والارجنتين وغيرها ، وهى تزاحم المصانع المحلية مزاحمة شديدة

ويملك المهاجرون فى الامريكتين عددا لا يستهان به من المناجم التى تستخرج منها

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

المعادن كالرصاص والحديد والقصدير . كما يملكون أراضي شاسعة مترامية الاطراف ، ينصرفون فيها الى الاعمال الزراعية ، وتربية الماشية ، والتجارب العلمية

وبين المهاجرين طائفة كبيرة من أرباب الصناعات اليدوية التي امتازت بها البلاد التي هاجروا منها ، وقد حملوا هذه الصناعات معهم فراجت في وطنهم الجديد رواجا كبيرا ، مع المأكولات والمشروبات الشرقية ، كالحلى ، والشباشب ، والقباقيب،والمنشات ، والعرق (الزبيب) ، وماء الزهر والورد ، والدبس ، والمربيات وغيرها

واشتغل المهاجرون في سياسة البلدان التي نزلوا فيها وأصبحوا جزءا من شعبها ، ولم ينكر أحد عليهم ذلك من رجال الحكم ، فاشتركوا في الاحزاب والجمعيات ، وخاضوا المعارك الانتخابية ، ففازوا بعضوية المجالس النيابية ، ومراكز الحكام في الولايات،وكان - ولا يزال منهم - وزراء ورؤساء وزارات.ويكفي انذكر في هذا الصدد انالدكتور جبرائيل طربية اللبناني رأس حكومة كولومبيا ، وعين مندوبا لها في عصبة الامم ، وانتخب رئيسا لمجلسالعصبة قبيل قيام الحرب الحاضرة

وبين المهاجرين العرب في امريكا فنانون ورياضيون واطباء ومهندسون ومحامون ، نالوا من الشهرة ما يحسدهم عليه ابناء البلدان الاخرى المقيمون معهم في مهاجرهم . وبينهم علماء ومخترعون ، نذكر منهم اشهرهم وهو المرحوم حسن كامل الصباح ، الذي سجلت باسمه عشرات الاختراعات ، وهو يرقد اليوم رقاده الاخير في مسقط رأسه ، بلدة النبطية بلبنان

بقي ان نشير اشارة خاصة الى الصحافة العربية في امريكا ، التي يعود اليها الفضل الاول والاكبر في بقاء الروابط قائمة بين المهاجرين وأوطانهم العربية الاولى . فقد أصدر حملة الاقلام من المهاجرين في امريكا عشرات الجرائد والمجلات العربية في كل جمهورية من الجمهوريات الامريكية ، ولا يقل عدد هذه الصحف التي اصدروها منذ بدء هجرتهم الى اليوم عن ثلاثمائة صحيفة في العالم الجديد ، لا يزال عدد كبير منها يصدر الى الآن. وفي الوقت الذي كان فيه الصحفيون ينهضون بصناعتهم ، كان الادباء من المهاجرين ينصرفون الى التأليف في جميع فروعه ، فخدموا الادب العربي في مهاجرهم كما خدمه اخوانهم من أرباب القلم وقادة الفكر في مصر وسورية ولبنان والعراق وغيرها من الاقطار العربية . ويعود الى الصحفيين والمؤلفين في المهجر الفضل في ابقاء اللغة العربية حية بين المهاجرين

والجاليات العربية في امريكا محتفظة الى حد بعيد بعاداتها وتقاليدها القومية ، تحيا حياتها الخاصة بدون ان يمنعها ذلك من الامتزاج في البيئة التي تعيش بين ظهرانيها

ولا شك في أن قيام الانظمة الديموقراطية السمحة في البلدان الامريكية قد ساعد المهاجرين على النجاح في اعمالهم ومشروعاتهم ، فان الحرية التي يتمتعون بها في العالم الجديد ، بلا قيد ولا شرط ، جعلت مواهبهم تتجلى وتترعرع في جو لا يعكر صفوه ظلم

ولا ارهاب . فان حكومات تلك البلدان الامريكية الديموقراطية لم تكتف فقط بحماية المهاجرين العرب وترك ابواب العمل والرزق مفتوحة امامهم ، بل ذهبت الى ابعد من ذلك فشجعت النابغين منهم ، وساعدتهم ، وكافأتهم ، وانزلتهم من عطفها منزلة الصميمين من رعاياها ، واعترفت لاصحاب الفضل منهم بفضلهم ، واقرت لاوطانهم الاولى بمكانتها التاريخية والادبية والثقافية ، فاطلق اسم لبنان وسورية وطائفة من نوابغ المهاجرين على ميادين وشوارع كثيرة في المدن الامريكية

فللديموقراطية اذن فضل كبير في هذا كله الذي ذكرناه . وينبغي ان نضيف اليه ان المهاجرين العرب في امريكا يعدون من أشد انصار الديموقراطية تحمسا واندفاعا . ولا غرابة في هذا ، فان العربي ديموقراطي بالفطرة ، وبانتقاله الى العالم الجديد حيث المبادىء الديموقراطية تسود المعاملات ، قويت في نفسه تلك الروح التى حملها معه من الشرق العربى ، واصبحت الديموقراطية متغلغلة في لحمه ودمه وعقله ، فوقف لها نشاطه في جميع مظاهره ومواطنه . وقد اخلصت له الديموقراطية الامريكية كما اخلص لها ، واعترفت بفضله كما اعترف بفضلها ، وعاش فى ظلها حرا يحمى القانون حريته بدل ان يعاكسها أو يقضى عليها

×××

هذه ثمرة المجهود العظيم الرائع ، الذى بذله اولئك المهاجرون الكرام ، الذين حملوا معهم الى أقاصى المعمور عادات بلادهم ، وتقاليدها ، وانواع الطعام فيها ، ومواسم الاعياد والافراح عند قومهم ، وعلى الخصوص اللغة العزيزة الغنية ، التى ظلت فى ديار الغربة رابطة تجمعهم ، وتضم صفوفهم ، وتحفظ كيانهم ، وتصون قوميتهم . فالصحف التى انشأوها تنقل اخبارهم من جالية الى جالية ، ومن مدينة الى مدينة ، ومن جمهورية الى جمهورية ، كما انها تحمل تلك الاخبار الى اوطانهم ، وتبقى فيها ذكرهم حيا زكيا . واللغة العربية هى لغة التخاطب بينهم ، كلما التقى احدهم بأخيه وسط الاقوام التى يعيشون بينها ، وكلما ضمهم مجلس أو جمعتهم مأدبة . واللغة العربية هى التى ينشدون بها الاناشيد ، ويترنمون بالاغانى القومية ، التى تذكرهم بجبالهم الشامخة ، ووديانهم العميقة ، وسهولهم المنبسطة ، والصفصاف الباكى على ضفاف الغدران ، وفتيات القرى يردن الماء من ينابيعها العذبة ، وفتيان الحى يهزجون ويرقصون على انغام الناى ونقر الدفوف ، أو يمرحون بخيولهم الاصيلة فوق الرمال الممتدة على مدى الابصار

هذا مقام المهاجر العربى فى العالم الجديد ، وتلك حاله ، وذلك ما صنعه ويصنعه ، فقد اثبت فى كل آن ومكان انه اذا تمتع بالحرية ، وعاش فى ظل نظام قائم على العدل والانصاف والمساواة ، فانه قادر على مجاراة ابناء الامم الاخرى ، أوروبية كانت أو امريكية ، فى جميع ميادين العمل ومواطن النشاط

حبيب جاماتى

الدّيمقراطية

من مقال لفقيدة الشرق النابغة الأنسة مى

فقد عالم الأدب فى شهر اكتوبر الماضى الاديبة النابغة الآنسة مى ، وكان لوفاتها أعمق الأثر فى نفوس أبناء العروبة ، ورجال العلم والادب فى جميع الأوساط العربية والاجنبية . فقد كانت نابغة نساء الجيل ، وأكبر كاتبة عربية فى العصر الحديث . ولسنا نستطيع أن نعدد مناقب الفقيدة العظيمة فى هذا العدد الخاص بالعرب والديمقراطية ، ولكننا ننشر هنا جانباً من بحث قيم كتبته رحمها الله عن « الديمقراطية » ، مرجئين الكتابة عنها بافاضة الى فرصة مقبلة

لم يهتد زعماء الاصلاح الى أنظمة سياسية غير الثلاثة التى ذكرها أرسطو وهى : الملكية أو حكومة الفرد ، والارستقراطية أو حكومة الاماثل ، والديمقراطية أو حكومة الشعب • ولئن دانت المدنية المتأخرة بالديمقراطية فان جل المدنيات المتقدمة ـ ان لم يكن كلها ـ نما وترعرع ثم توارى فى حضن الملكية • ألأن الشعب الرازح تحت أثقال العبودية كان فى غيابات جهله مدفونا ؟ ألأن تلك المدنيات شرقية، وشعوب المنطقة الحارة أقرب الى الملكية لميلهم الى عدم التفكر وتثاقلهم عن حمل المسئولية ـ كمايزعم المؤرخون؟ ألأن الامة فى دورها الابتدائى تحتاج الى سيد احتياج الطفل والقاصر الى معلم ومرشد ؟ ليس البت بالامر الميسور • وانما ما يتحتم البت فيه، بعد نظرة سريعة فى المدنيات البعيدة، هو أن تلك الشعوب لم تكن عقيمة فى ظل الملكية بل أنتجت ما نزال نستفيد منه حتى فى هذه العصور ـ عصور الابداع المتواصل

على أن بقع الظلام الواسعة تحاذى خيوط النور فى تاريخ هاتيك المدنيات التى لم تكن تحسب لحياة الفرد حسابا ، وانما خلدت بعدها أسماء أشخاص اشتروا عظمتهم بدماء الجماعات وجثث العبيد.

ولكن الحال لم تطل • بل انبثق فجر آراء جديدة فى التساهل والمساواة بفضل الفلاسفة والاقتصاديين والانسيكلوبيديين ، وظلت هذه الآراء كالشرارة تدنو من بارود السخط العام الذى دوى قاصفا فى الثورة الفرنسية فأعلنت « حقوق الانسان » لازالة ما بين البشر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من حدود وفروق . أو تقررت سراية القانون عليهم جميعا من غير ما جور أو تحيز ، ولهم أن يقلدوا وظائف الحكم والتشريع والقضاء وفقا للكفاءة منهم والمقدرة فاذا صح ان فرنسا درست الحرية على انجلترا فانها مع أميريكا أشبعت العالم بفكرة الحرية فتبعت الدول آثارها تدريجا . لان الديمقراطية ، وكل نظام آخر يتغير بتغير طبيعة بلاد ينفذ فيها . ولقد جاهد الغرب حتى أنه بعد اعدام قيصر روسيا وانهيار عرش المانيا والنمسا ، لم يبق فى أنحائه ملكية مطلقة واحدة وان الديمقراطية عمت العالم المتمدن. وان لم تكن البلاد جمهورية كأمريكا فهى ممالك دستورية كأيطاليا واسبانيا الخ

***

فاذا كانت الديمقراطية هى حكم الشعب ، وتسوية الحقوق والواجبات بين أفراده ، فلا مناص مما يحمل الجماعة على المطالبة بهذه التسوية وذاك الحكم . فأى محرك يا ترى بعث على الغاء الملكية والارستقراطية واحلال الدساتير الديمقراطية محلها ؟ نعم ان بين القوى الانسانية ترابطا متينا ، وائتلافا تاما ، بحيث ان التيقظ اذا بدا فى قوة لا يلبث ان يمتد فيتناول القوى جميعا . على أن هذا لا ينفى ان لكل حركة باعثا رئيسيا تتفرع منه بواعث جمة . ففى الماضى كان الجيش اليونانى يتألف من الاشراف الذين لم يكونوا ينازلون العدو الا على الخيل أو فى المركبات ، وقد لاحظ أرسطو ان جيشا يرجح فيه الفرسان لجيش حكومة أرستقراطية . ولكن الحروب المتزايدة فى الداخل والخارج ثلمت صفوف الفرسان ازاء مهاجم عتى . فارغم الاشراف على تعزيز الجيش بفيالق المشاة من الشعب ، وامدادها بالسلاح والمعدات ، وتدريبها على القتال والدفاع . فشعر هؤلاء بضرورتهم لحفظ كيان الوطن ، وانبروا يثون فى البلاد الثورة والشقاق حتى ظفروا بالمساواة المدنية والسياسية. كذلك فى روما التى لم يكن لها من شاغل سوى الفتح والاستعمار، واشرافها يربأون بأنفسهم عن التجارة والصناعة والفلاحة وغيرها مما أقبل عليه الشعب فأصبح صاحب الثروة . وترامى أطراف الامبراطورية ، واحتياجها الشديد الى زيادة جيوشها البرية والبحرية أوجب ضم الشعب الى صفوف الفاتحين والمحاربين. ومنحه من الامتيازات ما لم يطل ان تمتعت به الامة جميعا . فصار لها مجلس نيابى يتكلم بصوتها وانقسمت الامبراطورية الى حزبين: حزب الاشراف وحزب الشعب كما يوجد فى عصرنا الرأسماليون والعمال . فكان ان استأثر مجلس الاشراف برأى امتنع مجلس الشعب عن التصويت ورفض مساعدته لتتميم الاعمال — وفى ذلك صورة للاضراب فى هذا العصر . ولم يوفق بين الحزبين الا بعد قرن ونصف قرن اذ تنازل الاشراف عن الامتيازات السياسية أولا والدينية بالتالى — لان الوظائف الدينية كانت سياسية أيضا

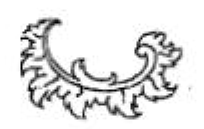
اشتراك الشعب في الحرب هو اذن مصدر الديمقراطية القديمة . وأما الحديثة فمصدرها اثنان متلازمان هما : أولا ـ الاختراعات الآلية والاكتشافات العلمية وثانيا تعميم المعرفة وسهولة التعليم . ففطن الذين كانوا بالامس يذعنون غير متذمرين ، وربما مسرورين شاكرين ـ ففطنوا الى أهمية عملهم فى هذه الاساطيل التى تمخر البحار وتدنى ما شسع من الامصار ، وتلك السكك الحديدية التى تشق الاطواد وتطوى القفار وتطوق الكرة بنطاق مكين ، وهاتيك الآلات البخارية والكهربائية والهوائية التى تفيض على العالم النضار وما يمثله من ثروة وتحبو الناس بأسباب الرغد والهناء . وبينا الثروات الباهظة تقيم السدود بينها وبين الفقر المدقع اذا بالمعرفة تزيل الفروق وتقرب بين الطبقات فتنبهت الاطماع العامة وأحدثت فى النفوس غليانا أثارها على التقاليد الموروثة ، فنادى الجمهور بالديمقراطية ملخصا مطالبه فى بندين جوهريين أحدهما سياسى والآخر اجتماعى ، وهما : ان الديمقراطية قائمة على أكثرية العدد التى يستمد منها القانون قوته ، وانها تقضى بحذف الفروق الاجتماعية ، أو على الاقل بتحويلها الى أقلها ليتمكن جميع الافراد من انماء مواهبهم واظهارها بلا ضغط أو مقاومة

ولقد لمست موجة الديمقراطية شواطىء الشرق الادنى وأول من هتف بها فى مصر لطفى بك السيد ، يوم كان بعضهم يطلقون عليه مزاحا لقب « الفيلسوف الديمقراطى » . ولم تقف المسئلة عند حد المزاح بل هو لاقى من اعتناق الافكار الحديثة مصائب واحتمل سخافات . منها انه يوم كان مرشحا لعضوية الجمعية التشريعية سنة ١٩١٤ حاربه أحد مزاحميه بما لو فهمه القوم لكان للطفى بك لا لخصمه حجة . قال الخصم « يبقى نائبعنا ازاى ؟ دا راجل ديمقراطى ! » فأرعبت الناخبين هذه الكلمة الاعجمية وأولوا معناها بأسوأ ما يتوهمون . بيد أن التغير ناموس الكون . ولم تمض خمسة أعوام حتى صار لمصر الفتاة حزب يدعى « الحزب الديمقراطى المصرى » تنتسب اليه فئة من أرقى الشبان المتعلمين فى أوربا ، العائدين من مدارسها العالية بمعتبر الشهادات ومحترم الالقاب . وهنا الوقائع التاريخية تقضى بالاعتراف ان اسم الديمقراطية جديد فى هذه البلاد ولكن معناها غير جديد . لان الاسلام كان أبدا ديمقراطى المبادىء ديمقراطى الاساليب . وهل من ديمقراطية أتم من ان نرى الملوك يتخذون لهم من الجوارى زوجات شرعيات ويرفعونهن الى مراتب الملكات ؟ أوهل من ديمقراطية أوفى من أن يخرج من الطبقة الدنيا قوم يرتفعون بكفاءتهم الشخصية ورجاحة عقولهم فيحملون أعظم الالقاب ويقلدون أجل المناصب ؟ ولكن على مقربة من هذا التساهل والانصاف تقوم أرستقراطية مزدوجة ، لان موقف الاجير المصرى ازاء صاحب الارض يكاد يكون ـ فضلا عن موقف العامل المصرى

ازاء الممول ـ موقف الرقيق ازاء الشريف فى نظام الاقطاع • وكانت الحال على ذلك فى سوريا وفلسطين حتى الحرب العظمى أما فى لبنان فالديمقراطية نافذة منذ ان حور النظام الاساسى فى سنة الستين

وليس هو الاسلام وحده ، وانما قالت بالمساواة قبله البوذية والنصرانية • على أن مؤسسى هذه الاديان جاءوا باستثناء واستدراك اذ ذكر بوذا التناسخ وان من البشر من هم (بذلك التناسخ) أكبر سنا ، وأعظم فضلا، وأوفر طهرا • وقال السيد المسيح « المدعوون كثيرون والمختارون قليلون » وجاهر النبى العربى بأن الله يهدى من يشاء• وكيف لا يرى هؤلاء المشرفون على أسرار النفوس فروق البشرية تفصل بين هؤلاء الذين تجمعهم جامعة الروح العليا؟ فجاءت السياسية تؤيد مالم تفلح فى توطيده الاديان ولا فازت بتثبيته حضارة اليونان والرومان

وأما الفرق بين الماضى والحاضر فهو أن الديمقراطية القديمة قامت على العبودية فظلت الطبقة السفلى مسخرة للاعمال الدنيا والخدمة لتتفرغ الطبقات العليا للحكم والقضاء • كان الفرد ينتمى أبدا الى سيد أو قبيلة أو عشيرة (على ما نرى اليوم بين الاعراب أهل البادية وسكان الريف) ، فيفاخر بقوله « نحن » كأن لا رأى له ولا قيمة فى ذاته منفصلا عن جماعته • على نقيض هذا العصر وفخر الفرد فيه ان يقول « أنا » وان يكون قيما فى نفسه ، مجردا عن أى أحد ، وأيا كان حسبه ونسبه • الفرد اليوم يقوم مقام المجموع ، وليست نقابات العمال وشركات التعاون لتثبت غير ذلك • الواحد للكل ، نعم ، ولكن على شريطة ان يكون الكل للواحد • وهى ميزة تفرد بها هذا العصر ولم تعهد من قبل • ولئن قبلناها من غير دهشة فلاننا نحياها • أما مؤرخو المستقبل فسيتخذونها محور أبحاثهم ، ويرون فيها ما لا بد ان تكونه : فاتحة عهد جديد



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التطبيق القانوني

للحلف العربي الممكن

بقلم الدكتور يوسف قايبل

القائم بالاعمال القنصلية بالمفوضية المصرية بفينا سابقاً

في هذا المقال القيم يتناول الدكتور يوسف قايبل مسألة الحلف العربي دارساً لها باحثاً فيها من الناحية القانونية. وقد شرحها شرحاً وافياً وأشار فيها الى آراء الكتاب الذين تناولوها، وناقش هذه الآراء ثم عرض رأياً عملياً متمشياً فيه مع التطبيق القانوني لاحدث النظم السياسية

تجددت الدعوة في الزمن الأخير الى الحلف العربي وتناول الموضوع بالبحث كثير من قادة الفكر في الاقطار العربية ولا غرو أن يتحمس أهل هذه الاقطار للدعوة الى هذه الفكرة الجذابة التي تعيد الى اذهانهم ذكرى العصر الذهبي للعرب حيث كانوا يبسطون سلطانهم على معظم العالم المتحضر ولهم فيه مهمة القيادة الفكرية العليا في جميع مناحي الحضارة البشرية

وشأن كل كثرة تفكر اختلفت الآراء في البحث فمن داع يدعو الى تأليف « عصبة أمم عربية » قوامها أربعة أقطار عربية فقط هي مصر والعراق والشام وجزيرة العرب ودستورها الآية الكريمة: « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » — على أن تعمل هذه « العصبة » بالتعاون مع الدولة البريطانية باعتبارها حليفة لتلك الشعوب[1] — ومن معترض على هذه الدعوة — وهو متأثر في إجابته بفكرة الدولة العربية الواحدة الجامعة — بقوله: وأى ضرورة تلك التي تشعرنا بوجوب قيام عصبة أمم عربية؟ أهناك خلاف بين الشعوب العربية أو حروب أو مصادمات في المصالح يخشى منها على السلام في الشرق الأدنى؟ ليس هناك بالطبع شيء من هذا كله. فما عصبة الأمم التي يراد انشاؤها إلا وسيلة للدفاع المحتمل — ان كان — ضد دولة أو دول أخرى غير عربية. واذا كان هذا هو الواقع فان من الضروري أن يكون ذلك الحلف حراً من سلطان بعض الدول الأوربية وتغلغل نفوذها السياسي في الكتلة الجديدة الى أبعد مدى. . . . — ومن الطبيعي أن يكون تفكير الشعوب العربية في الحلف بينها مستمداً من فكرة اتحاد الشعوب التي كانت متفرقة في وقت من الاوقات ثم أتيح لها الاتحاد بعد

---

(١) الاستاذ احمد أمين بك — « الثقافة ١٣٦ »

ARCHIVE

جهاد طويل وأحداث خطيرة . وكان ذلك الاتحاد بدء تاريخ حياة جديدة لها . فلا شك ان الشعوب العربية اذا ذكرت التحالف فيما بينها كان فى ظهر تفكيرها ما حدث للشعوب الايطالية التى اتحدت بعد تفرق . ثم استطرد الى تحديد مدى ذلك الحلف بأنه ليس من الجائز أن نسمى الاجتماع بين الدول حلفاً اذا كان أهم ما فى ذلك الاجتماع تبادل الجهود الثقافية واتصال العلماء والأدباء فى مؤتمرات سنوية أو دورية وان مثل هذه العلاقات الثقافية بين الشعوب العربية لايمكن أن يقال له حلف فى كثير أو قليل ـ إذ المحك الحقيقى الذى يمكن أن تميز به حقيقة الحلف هو مقدار الترابط المادى الذى يؤدى الى التعاون على الحياة فى حالة السلم والى التعاون على الدفاع فى حالة الحرب (١)

وذهب كاتب فاضل آخر الى أن اتحاد الامم العربية حقيقة واقعة لا ريب فيها لا ينقصها الا أن نعترف بها ونستفيد منها . ثم دعا الى ابتداء العمل فى بعض الجوانب الى أن يتيسر العمل فى الجوانب الأخرى فنصير الجامعة الخاصة عملا والجامعة العامة أملا يطمح اليه (٢)

وانتحى باحث جليل ناحية مغايرة بعض الشىء لمن سبقه من حضرات الكتاب فأشار بأن يؤلف أولا « اتحاد من أمم وادى النيل » وهى مصر والشعوب الاخرى التى تقع أراضيها على ضفاف النيل من منبعه الى مصبه على أن ينظر فى تأليف اتحاد عربى شرقى إسلامى فيما بعد (٣)

هذه خلاصة موجزة لما سطرته فئة جليلة من حضرات الباحثين الافاضل فى موضوع الحلف العربى ولا يخرج ما كتبه حضرات الكتاب الآخرين فى شىء يذكر عما أوردنا خلاصته آنفاً ـ والذى يلفت النظر فى كل هذه الابحاث أنها لم تخرج عن حد الرأى التمهيدى الذى يبسط المقدمة ولا يحدد النتيجة الحاسمة التى تخرج بفكرة « الحلف العربي » من حيز الأمنية غير المحددة الى نطاق التطبيق العملى وهو ما سنحاول علاجه فيما يلى بعد مناقشة العروض السابقة استيضاحاً للامر

عصبة الامم العربية

مما لا شك فيه أن الأمم العربية فى وضعها الراهن تعجز فرادى عن أن تتخذ لنفسها مكاناً علياً بين الأمم العظمى

ولسنا فى صدد التنقيب عن علة ذلك الضعف المردى فهو مما يخرج عن نطاق الموضوع ولكنا نقرر فقط حقيقة مجردة نستند اليها فى مواصلة البحث . ولما كانت طبيعة الرابطة التى تربط أفراد العصبة لا تخرج عن نطاق المد بالمعونة الفائضة عن حد الدفاع عن الذات قبل كل شىء . ولما كانت

(١) الاستاذ محمد فريد ابو حديد « الثقافة ١٣٧ »

(٢) الدكتور عبد الوهاب عزام « الثقافة ١٤٠ »

(٣) الاستاذ فؤاد اباظه باشا « المقطم عدد ١٦٣٠٣ »

المصالح الدولية الأخرى لكل عضو من أعضاء العصبة تفرض عليه التزامات عظيمة الشأن كثيراً ما تتعارض والصالح المشترك للعصبة . ولما كان الضعف الفردى لكل عضو من أعضاء العصبة يضطره فى كثير من الأحيان الى مجاراة الدول العظمى التى تجمعه واياها مصالح دولية لا غنى له عنها فى كثير من الأحيان . لهذا نجد أن فكرة التعاون داخل العصبة سوف تتراجع في النهاية الى حد أدنى يتناول التافه من الأمور على حين تتناول العلاقات الدولية الأخرى - خارج العصبة - عظيم الأمور وخطيرها - ولا أدل على هذا التطور الطبيعى من الفشل الذريع الذى لاقته عصبة الأمم الاوربية

هذا الى أن تكوين « عصبة أمم عربية » مقابل « عصبة أمم غير عربية » فى مكان آخر سيدفع الدول الأخرى الى إثارة معنى «التعصب» - بحق أو بدون حق - لا سيما وأن هذه الدول تسعى دوما لخلق « المبررات » للتدخل فى شؤون المستضعفين

ومن تحصيل الحاصل الاشارة الى أن اقتراح إنشاء هذه العصبة فى ظل دولة أوربية قوية يتيح الفرصة الفريدة لهذه الدولة بالتدخل التدريجي فى شؤون هذه العصبة ثم الهيمنــة فى النهاية على أعضائها فرادى . إذ أن مجرد التفكير فى إنشاء العصبة العربية فى ظل معونة دولة أجنبية أوضح دليل على ضعف العصبة وقوة الدولة الأجنبية المراد الاستظلال بمعونتها والتاريخ السياسى حافل بأمثال هذه التجارب ، والسعيد من وعظ بغيره

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الدولة العربية الجامعة

يعلم كل مطلع على التاريخ السياسى أن البلاد العربية اجتمعت كلها تحت حكومة واحدة فى عصر الدولتين الأموية والعباسية . ولكن ما لبثت هذه الدولة الضخمة زمناً حتى أخذ الوهن يدب فى أوصالها وبدأت أعراض التفكك التدريجي تظهر عليها تبعاً لاتساع أقطارها وبعد كثير من أرجائها عن مركز الحكم الرئيسى فيها مما دعا كثيراً من الولاة والأمراء الى الخروج على الخلفاء ومن فى حكمهم والاستقلال المحلى بكثير من الأقطار التى ولوا عليها

ولم يكن طمع الولاة والأمراء وحده هو العامل الأوحد على تفكك الدولة العربية الجامعة بل كان هناك عامل قوى آخر لا يقل مدى تأثير عن ذلك وهو تفاوت مستوى الحضارة وعدم التجانس بين الأقطار المختلفة التى جمعت الدولة العربية القديمة بين شتاتها . فما لا شك فيه أن صفة « التجانس » لازمة لكل ما يراد الجمع بين أجزائه بصفة دائمة وإلا كان المصير الى « التنافر » الذى يعقبه الانحلال وشيكا . وهو ما تم فى الدولة العربية القديمة برغم تحمس النفوس وشباب الايمان فى ذلك العصر

وبعيد علينا ونحن فى صدد هذا البحث المخلص أن نرمى الى تزكية فريق دون آخر من

الأقطار العربية . فالشعوب العربية قبل كل شىء إخوان فى اللغة والدين ذلك الدين الديموقراطى القيم الذى سوى بين الناس كافة بقوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » — ولكنا رغم هذا التسليم الصادق بمبدأ المساواة فى الروحانيات لا نستطيع أن ننكر فى نفس الوقت أن هناك من العناصر الدنيوية البعيدة الأثر ما يحدد مكانة الدول ويسجل تفاوتاً ملحوظاً بينها لا يجوز إغفاله اذا أريد إنشاء جامعة سياسية عظيمة تخضع فى تكوينها أكثر ما يكون الى أوضاع دنيوية بحتة يسير العالم على حكمها فضلا عن قوله تعالى « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة »

ومن هنا يتضح أن التجربة العملية والاوضاع السياسية لا تشجع بحال ما على انشاء حلف عربى فى صورة دولة عربية جامعة كما أرادها بعض حضرات الكتاب الافاضل وعلى الاخص وأن النزوع الى الاستقلال الفردى قد أصبح الآن أشد وضوحاً مما كان عليه فى القديم وأن العالم بلامراء ينتقل بخطوات طبيعية واسعة من نظام « المركزية » الى نظام « اللامركزية » — وأصلح النظم للبقاء ما تمشى مع التطور الطبيعى .

وأما ما ذهب اليه حضرة الباحث الفاضل الذى يقترح تأليف اتحاد من شعوب وادي النيل فقط على أن ينظر فى تأليف اتحاد عربي شرقي فيما بعد — فما لا يتناول جوهر البحث . اذ أن اختراق نهر ما لعدة أقطار مختلفة ليس مدعاة الى تأليف جامعة وثيقة بين تلك الدول برغم عدم تجانسها فيما عدا ذلك . اذ يكفى فى مثل هذه الحال أن تؤلف لجنة دولية لتدبير المياه وتوزيعها وفق الحاجة اليها الى جانب تدبير شؤون الملاحة فى ذلك المجرى على غرار « لجنة الدانوب الدولية » فى أوروبا الوسطى التى تقوم بعملها فى هذا الصدد خير قيام بغير ما حاجة الى رابطة أخرى

التطبيق القانونى

نستخلص من عرض هذه الآراء المختلفة ونقاشها المستفيض ان العناصر الجوهرية التى يجب توفرها فى « حلف عربى » صالح للبقاء هى :

(١) التجانس بين الدول راغبة الاتحاد .

(٢) قوة الترابط بين الأعضاء الى حد اندماج المصلحة الفردية للعضو فى المصلحة المشتركة للحلف ، وذلك مع مراعاة الاحتفاظ بالشخصية الفردية للعضو قدر المستطاع

فما نقترحه إذاً ليس حلفاً جامعياً صرفا — نسبة الى الدولة العربية الجامعة — ولا استقلالياً صرفا تمشياً مع مبدأ عصبة الأمم العربية التى تضم بين جناحيها دولا فردية بسيطة مستقلة

وهــذا التصوير وان بدا عسير التكوين لأول وهلة الا أنه ميسور التحقيق فى النظام الذى أطلق عليه القانون الدولى العام : « نظام الدولة المركبة » ، فقد قسم شراح القانون الدولى العام الدول من حيث تكوينها الى « دول بسيطة » وهى القائمة بذاتها فقط ، و « دول مركبة » وهى

التى تتكون من اتحاد دولتين أو أكثر على أساس الخضوع لرئيس دولة واحد . ثم قسم الشراح الدولة المركبة بدورها الى عدة نظم نختار من بينها نظامى : (١) الاتحاد المركزى[1] و(٢) الاتحاد الحقيقى[2] ، ولا يكاد يفترق الاتحادان المختاران عن بعضهما الا فى عدد الدول المكونة لكل منهما . فبينما نجد أن الاتحاد المركزى يمكن أن يجمع بين دول متعددة ، نرى أن الاتحاد الحقيقى لا يعقد الا بين دولتين فقط ، وهى تفرقة راعيناها فى مقترحاتنا التى سنأتى على ذكرها فيما بعد ، ومن أمثلة الاتحاد المركزى البرازيل والمكسيك . ومن أمثلة الاتحاد الحقيقى : النمسا والمجر الى عام ١٩١٨ ، السويد والنرويج الى عام ١٩٠٥

ويتكون الاتحاد المركزى من انضمام طائفة من الدول بعضها الى بعض فى اتحاد دائم[3] ، على أن تقوم الحكومة المركزية بتسيير الشؤون الخارجية وشؤون الدفاع والسياسة المالية العليا للاتحاد ، وما يتبقى من ميادين النشاط الحكومى الاخرى مثل : التعليم والصحة والزراعة والأشغال العامة وما الى ذلك يحتفظ به للحكومات المحلية تحقيقاً لمبدأ الاحتفاظ بأكبر قسط ممكن من الاستقلال المحلى للدول الأعضاء فى الاتحاد

فلا غضاضة اذاً فى ذلك المزج الجزئى الذى ستكل فيه الدول الاعضاء بعض ميادين نشاطها الى ادارة الاتحاد ــ التى هى جزء منه فى النهاية ــ على حين يكسب ذلك المزج هيئة الاتحاد هيبة دولية ولا ريب نعتقد انها اصبحت الزم ما يكون للثبات فى المعترك الدولى سياسياً واقتصادياً ــ وذلك فضلا عن أن اعباء الاستقلال قد أصبحت الآن ثقيلة بحيث تنوء بحملها الدول الصغيرة البسيطة ــ وهى اعباء الدفاع الوطنى بمختلف نواحيه البرية والبحرية والجوية الى جانب التمثيل الدبلوماسى والقنصلى وما الى ذلك من الاعباء الدولية التى تعجز دولة بسيطة صغيرة عن الاضطلاع بها وحدها . مما يجعل من مثل هذه الدولة كرة تتقاذفها أطماع الدول العظمى من وقت لآخر

يأتى الى ذلك انه حتى وسائط الحكم فى الحكومة المركزية للاتحاد ستكون مشاعة بين جميع أعضائه بحيث لا يخشى أن تطغى دولة فيه على الاعضاء الآخرين. إذ أن السلطة التشريعية والتنفيذية على التدريج ستنتخب وتعين من جميع دول الاتحاد على أساس تعداد سكان كل قطر منها

وينطبق توزيع الاختصاصات هذا على نظام الاتحاد الحقيقى مع فارق قصر الاتحاد الحقيقى على دولتين فقط

الحلف العربى المقترح

وتمشياً مع عنصر التجانس ــ السابق الذكر ــ بين الدول العربية الراغبة فى الاتحاد من

(١) Federal State (٢) Real Union
(٣) ينص على ذلك عادة فى دستور الدولة التى هى عضو فى الاتحاد (أوبنهايم جزء أول ص ١٧٨، ١٧٩)

جهة ، وتحقيقاً لقوة الترابط بين هذه الدول من جهة أخرى نقترح تقسيم الدول العربية الى أربع وحدات كبرى :

الوحدة الاولى : مصر . سوريا . لبنان . فلسطين (اتحاد مركزى) تحت عنوان « المملكة المتحدة المصرية »

الوحدة الثانية : مراكش . الجزائر . تونس . طرابلس (اتحاد مركزى) تحت عنوان « اتحاد شمال أفريقيا »

الوحدة الثالثة : العراق . شرق الاردن (اتحاد حقيق) تحت عنوان « المملكة المتحدة العراقية »

الوحدة الرابعة : الحجاز . اليمن (اتحاد حقيق) تحت عنوان « المملكة المتحدة الحجازية »

على أن يطبق على كل من الوحدة الاولى والثانية ـ للاسباب التى أشرنا اليها ـ نظام الاتحاد المركزى . وأن يطبق على كل من الوحدة الثالثة والرابعة نظام الاتحاد الحقيق

وعلى أن تتوج هذه الاتحادات بعد تكوينها « بمعاهدات صداقة وتحالف » تعقد بينها وبين بعضها بما توحيه المصالح الدولية المشتركة بينها على غرار ما يعقد من هذه المعاهدات بين الدول الصديقة التى تجمعها ببعضها علاقات سياسية واقتصادية وثقافية وثيقة

هذا ما رأيت من واجبى الادلاء به من رأى عملى قانونى ولست بغافل عما يقف فى سبيل تحقيق هذا الغرض من عقبات كبيرة . ولكنى على يقين فى نفس الوقت من أن ايضاح الهدف والايمان الصادق بصحته خطوة حسنة فى سبيل الوصول اليه ، لا سيما ونحن الآن على أبواب تطور عالمى كبير ينزع ولا ريب الى إقرار سياسة رشيدة أساسها الرضا المتبادل فى العلاقات الدولية ـ ومن سار على الدرب وصل

دكتور يوسف قايل

□ ليس من الوهم أن أقول إن هذه الأمة الديمقراطية عقدت النية على أن تفوز أو تموت ، فما أعظم الفوز الذى نالته روح هذه المدن المهدمة على شر ما تستطيعه النار والقنابل وما أعظم دفاعنا وتبريرنا لأسلوب الحياة التمدنة المهذبة التى نسعى للعمل لها ، والتى نعمل فى سبيلها فى جزيرتنا . ويا له من برهان ساطع على ما للمبادىء الحرة من فضائل ومزايا ، ويا له من امتحان لصفات سلطاتنا المحلية وللعادات والهيئات التى بنت هذا البناء الراسخ الوطيد (تشرشل)

ان حرية الرجل وحرية المرأة تطردان ، فاينما يكون الرجل حراً تباح الحرية للمرأة . ومن هذا تفترق امرأة في شعب ديمقراطي عن امرأة تماثلها ذكاء وثقافة في شعب ديكتاتوري

مصير المرأة العربية

بين الديمقراطية والديكتاتورية

بقلم الاستاذ عبد الحميد عبد الغني

تسعى المرأة المصرية ، ومن ورائها نساء الاقطار العربية ، الى أهداف معروفة عينها رواد النهضة النسائية الاولى . تجتمع هذه الاهداف في غاية كبرى اذا بلغتها المرأة اجتمع لها ، على حد قول قاسم أمين ، عقل الرجل وقلب المرأة . واذن فلا سبيل الى هذه الغاية الا اذا تهيأت للمرأة المصرية أربعة أمور :

ا ـ أن تتحرر من اغلال الجهل ، فتفتح أمامها أبواب التعليم من أدناها الى أعلاها لتنال من ألوان الثقافة العالية ما يشاء لها جهدها وذكاؤها

ب ـ أن ييسر لها سبيل مجاراة الرجل خطوة خطوة في سعيهما الى مناحي العمل المختلفة ، ما كان منها في دائرة الحكومة وما كان خارج محيطها ، فلا ترجح كفته وتشيل كفتها بينما هما سواء في الثقافة والكفاءة والقدرة على الانتاج ، وبذلك تتجه المرأة الى ماهو أجدى من عكوفها في قلق وملال ، أو تلفتها ذات اليمين وذات الشمال ، انتظارا للزوج الذي يكفلها ويؤويها

جـ ـ ان يرفع عنها من أحمال التقاليد ما لم يعد من شك في عقمها وأذاها ، لتشعر بحقها في هذه الحياة التي يتألف نصفها كله من المرأة وحدها ، فلا معنى لان يخول للرجل الحق في أن يمنح المرأة نصفه أو ثلثه أو ربعه ، حين ينطلق يتزوج مثنى وثلاث ورباع ، بينما يفرض عليها أن تمنحه نفسها كاملة بأسرها ، ولا معنى لان يخول الرجل الحق في أن يطرد المرأة من النعيم الذي بنته من الاماني والاحلام ، ومن الوفاء والاخلاص ، ومن البنين والبنات ـ لامعنى لان يطردها من بيت الزوج والولد بكلمة واحدة يقذفها جادا أو هازئا

د ـ ان يسمع صوتها ويؤخذ رأيها فيما يشرع من القانون لجماعة نصفها من النساء ،

فلا يفرض عليها قانون اختص بوضعه الرجال ولا يطلب اليها ان تأمر وتنتهى كيفما أرادوا ، بينما هم لا يدركون على وجه الدقةحاجة المرأة ومطلبها وسيرتها فى الحياة • أى يجب ان تمنح النساء أولا حق الانتخاب البرلمانى ، ثم يوسع هذا النطاق فيباح لهن أن ينبن فى البرلمان عمن يؤثرهن بالثقة والاختيار

هذه هى الاهداف الاولى التى تراءت للحركة النسائية المصرية منذ بدأها قاسم أمين ، وما نظن الا ان زعيماتها ــ وقد انفردبها السيدات منذحسبها الرجال حربا عليهم ــ مازلن حتى اليوم يرونها كفيلة بأن تنجب المرأة المصرية المنشودة ، وهن يكافحن الآن فى هذا السبيل كفاحا جاهدا صادقا لا تنقصه الكتب والخطب والصحف من عربية وفرنسية

الحرب تقرر المصير

ولكن ثمة فى العالم أحداثا خطيرة أبعد أثرا وأشمل نطاقا من كل ما ينشئه الكتاب ويلقيه الخطباء وتقره المجامع والمؤتمرات • فان النتيجة الحاسمة التى تتمخض عنها اليوم الحرب الدائرة فى أرجاء الارض وأطباق السماء هى التى ستفصل فى الامر يوم يكتب النصر هنا ويقضى بالهزيمة هناك • ويومئذ يعرف مصير المرأة المصرية على وجه الوضوح والتحديد ، ذلك انها حرب بين الديموقراطية والديكتاتورية ، أى بين نظامين تختلف مكانة المرأة فيهما اختلافا كبيرا • فكيفما تكون نتيجة هذه الحرب يكون مصير المرأة لا فى بلاد العربية وحدها بل فى أقطار العالم كلها

ويتلخص هذا المصير فى أمرين : اما اطراد حركة الحرية التى ناضلت امرأة فى سبيلها وعاونها فى ذلك نفر من كبار المفكرين والسياسيين،نضالاجريئا مكنها من أن تظفر بأكثر ما أرادت من الحقوق ، ومهد لها السبيل الى ان تبلغ حيث لا فارق بينها وبين الرجل الا فيمافرضهقوانينالطبيعة وأنهاج الحياة ــ واما نكسة الى الوراء تسلب المرأة دفعة واحدة ما كسبت على مر السنين والاجيال ، وتوصد فى وجهها باب التحرر مما يضرب عليها من القيود والاصفاد

يمكن اذن أن يعرض الامر عرضا واضحا محددا : فأما ان يقدر للعالم ان تنتصر الديموقراطية فيكون المثل الذىتنظر اليه النساء فىسائر أرجاء العالمهو المرأة الانجليزية أو الامريكية لانهما عماد من عمد الديموقراطية فى بلادهما ــ واما ان يقدر على العالم ان تنتصر الديكتاتورية فتكون المرأة الالمانية أو الايطالية هذا المثل الذى تحتذيه النساء فى جميع الاقطار ، اذ لا معنى لان يكون نساء الشعوب المغلوبة أوفر حظا وأحسن ما لا من نساء الشعوب المنتصرة • وما نعنى ان تكون المصرية أو الصينية مثل الانجليزية أو الالمانية فى زيها وزينتها،وانما نعنى أن تسرى الاوضاع والقوانين التىتنظم حياة المرأة فى انجلترا أو المانيا الى سائر الشعوب

فلنتبين موقف المرأة فى الدولتين اللتين تمثلان فلسفة الديكتاتورية تمثيلا كاملا ، أى

المانيا وايطاليا ، لندرك فى ثنايا حديثنا عنهما ما يمكن ان يصير اليه أمر المرأة العربية اذا كتب على الناس أن تظهر الديكتاتورية على خصيمتها الديموقراطية

العلم للرجل وحده

خير من تحدث عن أمر المرأة فى المانيا وايطاليا هى السيدة سيلفيا بانكهرست ، وهى زعيمة مشهورة فى الحركة النسوية العالمية بما أنشأت من الكتب وألقت من الخطب وتحدثت به الى الناس فى المجامع والمحافل فى شتى الاقطار . وقد عقدت مقالا عن حياة المرأة فى ظل النظام الديكتاتورى (١) لم تشأ ان تبدى فيه رأيا أو تتخذ موقف القاضى ، بل قصرت بحثها على عرض ما آل اليه أمر المرأة فى المانيا وايطاليا من النواحى الثقافية والاقتصادية والاجتماعية ، ثم ذكرت وشرحت ما سنت الدولتان من القوانين التى تنظم حياة المرأة وشؤون الزواج ونظام الاسرة ، فأبانت ما تعانى المرأة فى ظل الفاشستية الالمانية والايطالية من قوانين وأوضاع تخلصت منها المرأة فى الشعوب المتحررة منذ أجيال

أهم الحقوق الثقافية التى ناضلت المرأة فى سبيلها نضالا طويلا ، حق التعليم الجامعى وحق مزاولة العمل الفنى . وأبيح هذا وذاك للمرأة الالمانية سنين عددا حتى ولى النازى أمرها فكاد أن يوصد باب الجامعات فى وجه الفتيات الالمانيات ، اذ لا يقبل فيها أكثر من عشر من ينلن « البكالوريا » التى تؤهلهن للدراسة الجامعية . فاذا تخرجن فى الجامعات لم يجد أكثر من عشرهن سبيلا الى الاعمال الفنية الحرة اذ لا تمنح لهن أجازات ممارستها الا بعد عناء ومراوغة . فلا يجوز مثلا ان يباح لاكثر من خمس وسبعين فتاة فى كل عام ان يمارسن مهنة الطب مهما يكن عدد الخريجات فى كليات الطب الالمانية . وكذلك تقرر ألا يباح للمرأة الالمانية ان تشغل اية وظيفة قضائية ، فلم تعد كليات الحقوق الالمانية تقبل من الفتيات أكثر من عدد الاصابع ، ومع هذا يجهدن عند ما يردن ممارسة المحاماة

بل ان وظائف التدريس التى خلقت لها المرأة بما تمتاز به من وداعة وحنان ورؤومة وصبر ، قد حرمت منها المرأة منذ سن الفاشست فى ايطاليا قانونا يمنع المرأة ان تدرس للصبى بعد سن الحادية عشرة دروسا تتعلق بالاخلاق والمذاهب العامة

أما ما يختص بالعلم من بحث ودرس وتجارب ، فمن شأن الرجال دون النساء ، اذ قرر المشرفون على التعليم فى المانيا النازية : « ان ليس للمرأة ان تجهد وتنصب فى المسائل النظرية الشاقة ، وحسبها ان تعمل فيما يسرت له من المسائل المادية الهينة » . فليس فى ألمانيا اليوم ناظرة لمدرسة ولا أستاذة فى جامعة ، فأعجب لهذا فى عصر أنجب بطلة فى العلم هى مدام كورى ، وبطلة فى التربية هى ماريا مونتسورى !

يقول رئيس اتحاد جامعة برلين : « انما أنشئت الجامعات للرجال لا للنساء ، لان الغاية التى ينبغى أن ننشدها للمرأة الالمانية هى اعدادها لان تكون زوجا وأما ، وقد آن أن

(١) راجع مقال حقوق المرأة فى ألمانيا وايطاليا فى « هلال » ديسمبر ١٩٣٩

نفى الفكرة الخاطئة التى ترمى الى تعليم المرأة بقصد التعليم وحده ، سواء أفادها أو لم يفدها فى حياتها العامة ، • واذا كانت مهمة المرأة قد قصرت على أن تكون زوجا للرجل وأما للولد ، فحسبها ما تنال من التعليم اليسير فى المدارس التى ينصرف همها الى تدريب التلميذات على الطهى والتنظيف وتعليمهن قواعد الصحة ومسائل الوراثة ، لتخرج منها الفتاة أما سليمة الصحة وافرة العافية ، مشبعة فى الوقت ذاته بما تبثه النازية فى مدارسها من أقوال تمجد الزعيم وتكبر الدولة وتبرر الحرب ، ومن آراء تثبت مذهب التفاوت الذهنى والخلقى بين الشعوب والاجناس

النساء فى المصانع والمزارع

كذلك كاد أن يوصد باب العمل ، كما أوصد باب العلم،فى وجه الالمانية والايطالية ، خشية أن تنال المرأة من الرجل منالين : فتضيق عليه دائرة العمل اذ تنافسه بما تمتاز به من النظام والتنسيق والمواظبة والرضى بالاجر القليل ، وتحرمه شعور الكبرياء الذى يستمتع به حين يعول زوجه ويكفل أسرته ، وكذلك خشية ما يؤدى اليه استقلالها الاقتصادى غالبا من الانصراف عن الزواج وعن النسل وهما وحدهما ـ فى نظر الفاشستية ـ الواجب المفروض على المرأة فى الحياة

فلم تبق فرص العمل فى الدولتين خاضعة للمنافسة الحرة بين الرجال والنساء ، بل ترجح كفة الرجل دائما اذا تعادلت مع كفة المرأة من جميع الوجوه•هذا الى ان المناصب السياسية والمراكز الادارية الكبرى قد وقفت على الرجال وحدهم ، ولم يترك للمرأة الا مكان منزو فى حجرات الوظائف الصغيرة والآلات الكاتبة سواء فى ادارات الحكومة ودوائر الاعمال • وقد عمد النازى منذ تولوا زمام ألمانيا الى طرد جماعات النساء من الوظائف التى شغلنها طويلا فى دور الحكومة والهيئات العامة ، ثم أخذوا يبثون أمام المرأة من الصعاب ما يصدها عن العمل ، فهى ليست أهلا لاية وظيفة حكومية قبل ان تبلغ سن الخامسة والثلاثين ، والزوجة لا توظف ، بل وتفصل من وظيفتها ، ما دام زوجها يكفل نفقاتها ، وكذلك تفصل المرأة غير المتزوجة اذا أمكن أن تجد رزقها فى بيت أبيها أو أخيها أو أختها

كان يمكن تبرير هذا العمل برغم منافاته لحرية المرأة لو أنه يرمى الى اعفائها من وطأة العمل العام وما يقتضيه من جهد وعناء ، وقصرها على العمل المنزلى وهو على الجملة هين يسير، ولكن الواقع ينافى فكرة الرأفة والرفق بالمرأة اذ أن ما بقى لها من العمل هو أشقه اداء وأضأله جزاء • فلا بأس فى ألمانيا وايطاليا من ان تقوم المرأة ، حتى فى وقت السلم، بأعمال الزراعة برغم ما تقتضيه من جهد يجاوز غالبا ذرع النساء ولا بأس هناك من ان تعمل فى صناعة الذخيرة والسلاح ، ولو كانت الغازات السامة والقنابل المنفجرة ، برغم ما فيها من خطر واجهاد ، ولا بأس من أن تساق أفواج من النساء لا زوج لهن ولا عائل

الىمعاقل النازى يغسلن الملابس وينظفن الحجرات ، أو الى المزارع الحكومية يعملن فى حظائر الماشية ويحملن أثقال الغلة والحطب ... وهؤلاء النساء اللاتى يعملن فى مصانع الحكومة ومزارعها مكلفات - بعد ان يضنيهن العمل اثنتى عشرة ساعة لاينلن عليها أجرا حسنا ولا يصبن طعاما مغذيا - أن يحضرن دروسا فى فلسفة الاشتراكية الوطنية ! .. وهن أشبه بالجنود يخضعن لرقابة قاسية وعقاب شديد

كذلك أعفت الحضارة الانسانية على مر الاجيال النساء من أعمال الزراعة الشاقة ، واختصتهن منها بما هو أدنى الى جهدهن كتعهد الدواجن وصناعة الالبان . ولكن النازى رجعوا بالمرأة الى الوراء شوطا طويلا ، حين ساقوا جماعات النساء الى الحقول يعملن فى أوحالها ووراء محاريثها ، ويقاسين ماقاسى الرقيق فيما خلا من قرون

فضلا عن هذا جميعه فرض على كل فتاة ألمانية بين السابعة عشرة والحادية والعشرين من عمرها أن تؤدى ، للدولة ، عملا ما فى معسكرات الحزب النازى حيث يقمن لرجال الكتائب بالخدمات المنزلية المعتادة ويعاونهم فيما يقومون به من أعمال

هذا ما تقرره الديكتاتورية للمرأة فى مجالى التعليم والاعمال ، وخلاصته ان تكره على أن تبقى أدنى من الرجل شأنا فى الحياة ، وتحرم من كل وسيلة تيسر لها أن تستقل عن الرجل استقلالا فكريا أو ماديا

اى زوج وأى أم ؟ !

واجب النسل هو الفرض الاول على المرأة فى ألمانيا وايطاليا . ذلك أن التى لا تنجب طفلا تعتبر - على حد تعبير رولاندبرج - عضوا ناقصا من أعضاء المجتمع ، سواء كان لها أو لم يكن لها زوج شرعى . فالمرأة التى تأتى بالطفل من طريق لم تقره الشرائع والاخلاق خير وأفضل من تلك التى تفرط فى حق الدولة اذ لا تنجب أطفالا يعملون لها ويحاربون

فالمرأة التى تحكمها دولة فاشستية يجب ان تكون زوجا وأما .. ولكن أى زوج وأى أم ؟؟ ... زوج تؤدى واجب الانسال ، وأم تؤدى واجب الرضاع ، دون ان تشعر بأنها روح البيت ومنجبة الطفل وشريكة الرجل

بذلت ايطاليا وألمانيا جهدا كبيرا فى حث الشباب والفتيات على الزواج ، فأقرضتاهم من خزانتهما ما يقيمون به حياتهم العائلية على أن يردوا الدين نجوما موزعة على عدة سنين ، ويسقط ربع الدين كلما أنجب الزوجان طفلا فى أثناء مدة معينة ، ويسرتا للاسر نواحى الحياة بتخفيض كثير من نفقات الولادة والتمريض والتعليم والانتقال ، وبأيثار المتزوج على الاعزب فى كثير من الوظائف والاعمال ، وأدى هذا الى انشاء عشرات الآلاف من الاسر فى سنين قلائل

ليس لنا هنا أن نناقش هذه السياسة وان كنا نعلم ان الديكتاتورية لم تقصد بها الا الى انتاج الوقود الذى يدير آلات الحرب الهائلة تحقيقا لاطماع الديكتاتور ومن ورائه طوائف

الساسة والقواد والماليين ، دون ان تلتفت الى ما فى الزواج من معان انسانية رفيقة تتمثل فى هذا البيت الذى يطمئن اليه الشاب والفتاة فيجدان الراحة والسلام فى جوانبه الوادعة المرحة ، والذى يعصم المجتمع من بلاء التشرد الجنسى الذى يحطم البدن ويسمم الروح معا ، والذى يهيىء السبيل الى انشاء ذرية وسط بيئة تنمى فضائلها وملكاتها . ولكنا نريد فحسب أن نناقش القوانين التى سنتها الديكتاتورية لتنظيم الزواج لندرك الى أى مدى تراجعت المرأة الى الوراء

من أهم ما عنيت به حركة التحرير النسائى رفع السن التى يباح فيها ان تتزوج الفتاة، حتى لا يكون للاباء ان يفرضوا ارادتهم على بناتهم الناشئات وهن فى سن لا يستطعن فيه دفعا ولا يملكن تصريفا. وكان سن الزواج فى ايطاليا قبل ان يلى الفاشست أمرها خمسة عشر عاما للفتاة وثمانية عشر عاما للشاب ، فكان الواجب ان يرفعه موسولينى الى الحد الذى يلائم ازدياد سنوات التعليم وارتقاء الحياة الاجتماعية ، ولكن حاجته الى أكبر كمية من النسل اضطرته الى أن ينقص السن القديم عاما ، فغدت الفتاة أقل حرية مما كانت فى أول أمر يعنيها مدى الحياة

ويقضى قانون العقوبات الفاشستى بأن لاتثريب على رب العائلة من أن يتخذ من « العقاب البدنى » وسيلة الى تقويم زوجته وتربية أولاده ، على شرط ألا يقسو الى درجة تتعرض فيها زوجته للاصابة بعاهة بدنية أو باختلال عصبى ، والا فعقابه عندئذ يصل الى ستة أشهر فى السجن ، مع ان القانون القديم كان يقضى فى هذا بخمس سنوات طوال ! وهكذا صار فى وسع الايطالى ان يضرب زوجه أو ابنته كيف سولت له نفسه على شرط ان يتحاشى تشويه وجهها وتهشيم عظامها ، أما ان أفرط وأسرف حتى سقطت هامدة تحت عصاه ، فجزاؤه السجن ثمانى سنوات

هذا العقاب الهين من شأنه ان يطلق كثيرا من الرجال يقسون على زوجاتهم ، فاذا همت احداهن بالهروب من بيت زوجها قبضت عليها الشرطة كما تقبض على العصاة الجناة ، فان رضيت ان تعود الى البيت مكتفية بما ينزله بها زوجها من العقاب كان بها ، والا فان جريمتها تجازى بالسجن سنة كاملة أو بغرامة تصل الى عشرة آلاف ليرة . وكل هذا قد يحدث مع صبية لم تتجاوز أربعة عشر عاما زوجها أهلها ممن لا تريده قسرا وكرها

تعاقب الزوجة الايطالية اذا خانت عهد الزواج بسجنها سنتين ، وليس لنا أن ننقد هذا وان كانت هى أقسى عقوبة توقعها دولة فى أوربا ، بل ان قليلا من دول أوربا من يضع هذه الجناية تحت طائلة القانون . ولكن الذى يجب ان ننقده حقا هو ان الرجل الذى يخون زوجته لا يناله أى عقاب ، الا اذا اتخذ لنفسه خليلة يرافقها جهارا ، حتى يصبح الامر بينهما فضيحة يتحدث عنها الناس . فهل يتيسر للزوجة ان تنال حقها من زوجها اذا خانها ، وقد اشترط القانون ان تجتمع كل هذه الظروف حتى يحق على الرجل العقاب ؟

وكيف ترضى محكمة فاشستية ان تسجل فضيحة كهذه على رجل ينتمي الى احدى الهيئات الفاشستية التي تنتظم أكثر رجال ايطاليا وشبانها ؟

جرى القانون على ان يتسامح مع من يقتل « دفاعا عن الشرف » ، ولكن القانون الفاشستي أسرف في هذا التسامح حتى أطلق يد الرجل في تقدير سيرة زوجته وبناته واخواته ، لانه لم يشترط كما يشترط كل قانون ان تقع الجريمة عند ما تكون القتيلة في حالتها المريبة .

تلقى المرأة العقاب الشديد اذا لم ترع عهد الزواج ، أما الرجل الذي يقترف جريمة الاغراء فيلقى القانون سمحا حليما ، اذ لا يعاقب الا اذا اجتمعت شروط قلما تتوافر معا ، منها أن تكون الفتاة التي أغراها بالاثم دون السادسة عشرة ، وأن يكون الرجل الآثم متزوجا وأخفى على الفتاة أمر زواجه ، وأن يكون قد فتنها عن نفسها بعد أن مناها بالزواج ... ومع هذا كله ففي وسعه النجاة من العقاب اذا أثبت ان الفتاة وقعت من قبل تغريره بها بين يدي رجل سواه ! وكان القانون القديم يعاقب على جريمة الغصب بالسجن سبع سنوات وكانت الفتاة قاصرة حتى سن الحادية والعشرين ، فجاء الفاشست ينقصون مدة السجن الى ثلاث سنوات ويهبطون بسن الرشد الى أربعة عشر عاما ..

ذلك كله يتلخص في كلمة ما نحسبها جارحة ولا مسرفة ، هي ان الفاشستية أطلقت الرجال يبسطون أيديهم بالسطوة والسيادة على النساء ، ويرضون أدنى غرائزهم دون تحرج من فضيحة أو عقاب ، وهذه هي القيود التي جاهدت المرأة في تحطيمها ، وهذه هي السيئات التي ناضلت انقاذا للانسانية منها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الروماني الاصيل يقتل زوجه

هضمت الفاشستية حق المرأة في التعليم والعمل ، وضنت عليها بما يجب لها في الاسرة والمجتمع ، فكان لها - من باب أولى - ان تضيق عليها الخناق في شؤون السياسة العامة . واذن فلا غرابة في أن يعمد النازي يوم تولوا الامر الى الغاء الحقوق السياسية التي ظفرت بها المرأة الالمانية في ثورة سنة ١٩١٨ ، يوم ان تراءى لالمانيا ان تشق طريقا ديموقراطيا يؤدي بها الى الحرية وتأخذ فيه بمبادىء المساواة ، غافلة - غفلة العالم كله - عما في شعبها من طباع أصيلة لا تلتئم أبدا مع الديموقراطية وما تمثله من آراء وأوضاع . أما رجال النازي الذين يفهمون حق الفهم الطبيعة الالمانية فيعبرون عنها بأنظمتهم وشرائعهم فقد أسرعوا الى طرد النساء من المقاعد التي كانوا يحتلونها في قاعة الريشستاغ وفي مجالس الاقاليم النيابية وفي سائر الهيئات التشريعية الاخرى . ذلك ان على المرأة ان تقبل ما يشرعه الرجل دون ان يسمع رأيها فيما يصدره ويفرضه من القوانين

يقول أميل لودفيج في كتابه عن موسوليني في معرض الحديث عن حق المرأة ومكانتها أن الديكتاتور الايطالي قال : « لو منحت المرأة حق الانتخاب كما منحته في الدول

الديموقراطية لضحك الناس منى طويلا ، لان الدولة التى تقوم على المبادىء الفاشستية يجب الا تقيم للمرأة وزنا كبيرا . هذا رأيي فى مكانة المرأة فى الدولة ، وهو يناقض رأى أنصار المرأة ودعاة تحريرها . ولكنى أعتقد أنه يجب أن تخضع النساء وتطيع » . ثم استطرد موسولينى يتحدث عن رأيه وشعوره قبل المرأة ، فقال انه لم يعجب بأحد من أجداده اعجابه بهذا الجد الذى أغمد خنجره مرتين فى صدر زوجته عند ما فرطت فى حق الامانة ، ثم لاذ بالفرار وهو يقول : « هكذا شأن كل رجل رومانى أصيل ! »..فمن حق من يحلم ، نائما ويقظان ، بأن يعيد الامبراطورية الرومانية سيرتها الاولى ، أن يكون رومانيا أصيلا ، فينظر الى النساء فلا يقرهن على حق ولا يأخذ لهن برأى ولا يسمع منهن صوتا !

موقف المرأة العربية من الديكتاتورية

الآن ننظر فيما تسعى اليه المرأة العربية من الاهداف ، فلا نجد هدفا واحدا بلغته المرأة التى ضرب عليها بقيود الفاشستية فاذا كان هذا شأن الالمانية والايطالية بعد ان أصابتا من الحضارة والثقافة حظا لم تدن منه المرأة العربية ، فماذا يكون مصير هذه التى ماتزال الجهالة ناشبة الاظفار فى عقلها وخلقها وحياتها جميعا ؟ . ان الامر أبين من ان تقال فيه كلمة أخرى : فأما التى ماتزال من الجهل والخرافة والرق فى ظلام سحيق ، فلا تتبين قبسا من حياة الانسان التى ارتقت عن حياة البهيمة السائمة ، فستبقى فى ظلامها وقد كفت نفسها مشقة مواجهة النور الذى ينبثق من الحرية وهاجا . وأما التى تفتحت عيناها للنور فى المدارس والجامعات ، فأخذت تسعى فى ضوئه سعيا حميدا تجنى منه أطيب الثمار ، فعليها ان تعود سيرتها الاولى ـ عليها ان تنسى كل ما رأت وسمعت وفكرت فيه طويلا من آراء الحرية والعدالة ، وعليها حين تعلم ابنتها ما للمرأة من حق وما عليها من فريضة ان تسأل فى ذلك أمها وجدتها ، بدلا من أن تسأل المفكرين الاحرار .. !

ان حرية الرجل وحرية المرأة تطردان ، فأينما يكون الرجل حرا تباح الحرية للمرأة ، وانما تضرب عليها الذلة عند ما يكون الرجل مسترقا . ومن هنا تفترق امرأة فى شعب ديموقراطى عن امرأة تماثلها ذكاء وثقافة فى شعب ديكتاتورى . ذلك أن الرجل الحر يقدر الحرية ويدرك خيرها وجدواها ، فيعرف مدى ما يفيده اذا تحررت ومدى مايضيره اذا أقيمت عليها الاسوار.ولكن الداعى الاول هو أن الدولة التى تأبى الحرية على الرجال لن ترضاها للنساء ، والنظام الذى يعد الرجال أنعاما تساق الى ساحات القتل والقتال ، لن يعد النساء أكثر من متاع يلهو به هؤلاء الجنود اذا أنهكتهم المعركة وأضناهم الجهاد !

عبد الحميد عبد الغنى

الديمقراطية ونظام الأحزاب

بقلم الاستاذ محمد خطاب بك

عضو مجلس الشيوخ

هزت الحرب العالمية الماضية الاسس الاقتصادية والاجتماعية فى العالم هزا عنيفا نشأ عنه اضطراب فى حياة الافراد والشعوب كانت نتيجته ظهور نظم جديدة للحكم منها الشيوعية والفاشية والنازية

ومن المسلم به أنه لا يمكن التأكد من صلاحية هذه النظم للبقاء الا بعد تجربة طويلة ، يتبين أثناءها ما تنطوى عليه من خير أو شر . فاذا حكمنا اليوم بأن النظام الديموقراطى نظام صالح ، فانما نعتمد فى ذلك على ما ثبت من نفعه خلال السنين الطويلة التى كان فيها موطد الدعائم راسخا رسوخ الجبال فى الدول التى كان قائما فيها . ويكفى للتدليل على متانته أنه صمد لحربين عالميتين لم يصمد لهما نظام آخر

وفى انجلترا طائفة من المؤرخين يرجعون أصل الحكم النيابى فى بلادهم الى أيام جاهليتهم الاولى ، فيقولون ان رجال القبائل كانوا يعقدون مجالس للشورى وللتشريع من ألف سنة خلت . والواقع أن كلمة البرلمان الانجليزية أصلها Parlement أى محادثة ، وقد جاء ذكرها أول مرة لمناسبة الحديث الذى جرى بين وليم الفاتح وبعض رعاياه على أثر غزوة انجلترا سنة ١٠٦٦

وفى سنة **١٢٧٥** صدر قانون وستمنستر ، وفيه سمى المجلس الأعلى فى انجلترا بالبرلمان . فالروح الديموقراطية متأصلة فى الشعب البريطانى من زمن طويل وكانت فى نضالها المستمر ضد القوى الرجعية ترمى دائما الى هدف واحد هو حكم الشعب بالشعب لمصلحة الشعب

والنظام الديموقراطى مرن يحمل فى ثناياه كافة العناصر التى تجعله يتكيف ويتطور حتى يتفق دائما مع ظروف العالم السياسية والاقتصادية ، فلا يتخلف عن التقدم العالمى ، وهو أن ظل أمدا طويلا دعامة للسياسة البريطانية الرأسماليةفسيكون بذاته اداة الحكم اذا حل النظام الاشتراكى فى بريطانيا يوما من الايام .

وأغلى درة فى تاج الديموقراطية هى الحرية الشخصية والسياسية ... تلك الحرية التى شاءت ان تطلق على المعارضة البرلمانية لقب « معارضة جلالة الملك » وهى المعارضة التى لا تفتأ تحاول بكافة الوسائل المشروعة هزم « حكومة جلالة الملك » فى البرلمانلتحل محلها فى الحكم

ARCHIVE

ولما كانت الحرية هي العنصر الاساسى فى النظام الديموقراطى فقد استلزم بقاؤه وجود أحزاب متعارضة فى المجالس النيابية،فاذا تلاشت الاحزاب أو بقى منها حزب واحد،انهار الحكم النيابى من أساسه ، ولذلك يلاحظ انه عند ظهور دكتاتور فى دولة من الدول فأول ما يفعله تدمير الاحزاب جميعا وان ابقى على شىء منها فحزب واحد يأتمر بأمره بغير معارضة أو نقاش

وأول واجب على الاحزاب ان تصل بزعمائها الى الحكم • لذلك كان لزاما عليها ان تنظم لنفسها الوسائل التى تضمن لها الحصول على أكثر عدد من أصوات الناخبين، فتنشر دعوتها على صفحات الجرائد فى صراحة أو فى لباقة • وتلجأ الاحزاب فى انجلترا الى الاكثار من اقامة الحفلات والاستقبالات واستئجار الخطباء المفوهين والوكلاء المجربين يذرعون بهم البلاد،ناشرين الدعوة لاحزابهم•وكثيرا ما تلجأ الاحزاب الى انشاءمدارس شعبية يلقون فيها المحاضرات

وتجعل الاحزاب رصيدا دائما للصرف على الانتخابات والترويج لها ، لكن الدعاية العظمى للاحزاب هى مناهجها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، لذلك كان من أعظم أسباب نجاح الاحزاب معرفة أمانى الناخبين ومطالبهم والبراعة فى تركيز هذه الامانى والمطالب فى صيغة مناهج تتقدم بها للشعب فى الانتخابات العامة

ولا تقتصر فائدة المناهج على الاحزاب ، ففى وجود هذه المناهج أقوى ضمان لاستبقاء الحياة الديموقراطية ، لان الحكم النيابى يقضى بأن تتقدم الاحزاب الى الامة فى انتخابات عامة،فاذا تساوت الاحزاب فى الافلاس من مناهج الاصلاح التى يتطلبها الشعب فلا شك ان روحا من الضجر والملال لا تلبث أن تنتشر بين الناخبين الذين يتبينون انه لا مصلحة لهم فى تأييد حزب على آخر ما دامت النتيجة ستكون سلبية على كل حال • وفى هذه المرحلة النفسية الدقيقة يتلمس الناس من يعدهم بالاصلاح واليسر والقوة،وهذا أصلح جو يمكن أن يستفيد منه من يسعى الى الدكتاتورية

ومن مزايا النظام الحزبى انه يقضى على فوضى المناقشات البرلمانية ، وما يترتب عليهامن ضياع الوقت وابطاء سير التشريع • فليس من المفروض فى البرلمانات العريقة ان يتكلم غير الزعماء ، الا فى بعض الحالات النادرة التى تصرح فيها الحكومة لانصارها بمناقشة حرة • ومن البديهى أن هذه المناقشة الحرة لا تكون فى أمهات المسائل • ومن المتواضع عليه أن أعضاء الاحزاب يصوتون فى المجالس النيابية حسب قرار أحزابهم • وقد نشأت عن كل هذه الاوضاع اداة برلمانية محكمة جعلت مركز النائب المستقل ضعيفا ، لان الحكومة لا تعتمد عليه فى شد أزرها ، ولا تدخله المعارضة فى حسابها عند ما تريداحراج الحكومة • وقد بدأ الناخبون فى انجلترا يتجاهلونه اذ لاقدرة له على تنفيذ رغباتهم•وكانت نتيجة النظام الحزبى القائم على تنفيذ برامج خاصة أن أخذ عدد النواب المستقلين فى البرلمان الانجليزى يتضاءل بنسبة كبيرة•وقد علق أستاذ العلوم السياسية فى جامعة لوندرا

على هذه الظاهرة بقوله : « ان زمن النائب المستقل قد انقضى وليس هناك ما يدل على أنه سيعود ثانية »

ولكن اذا كانت الاحزاب لازمة لضمان قيام الحكم النيابى،فان فى كثرتها مفسدة له . وقد ظلت الامة البريطانية تعتمد فى حياتها النيابية الطويلة،على حزبين ، حتى اذا ما نشأ حزب ثالث فى البرلمان فلا يلبث ان يسرع فى الاختفاء باندماجه فى أحد الحزبين الكبيرين أو يتلاشى بالتدريج كماهى حالة حزب الاحرار الآن

ومن مزايا وجود حزبين تمكين الناخبين من انتخاب حكامهم مباشرة ، بخلاف الحال اذا وجدت فى مجلس النواب أحزاب عديدة أو كثرة من المستقلين . ففى هذه الحالة لايمكن تكوين حكومة الا اذا كانت ائتلافية أو حكومة من الاقلية تستند فى قيامها على حزب آخر

فالنوع الاول من الحكومات لا يصلح الا فى زمن الحروب أو الازمات السياسية أو الاقتصادية الخطيرة ، عند ما يتواضع الجميع على اطراح خلافاتهم الحزبية جانبا لحين احراز النصر أو التغلب على الاخطار التى تواجه البلاد . وقد وضح ان أمثال هذه الوزارات لا تصلح فى أيام السلم والرخاء ، بدليل ان وزارة المستر لويدجورج الائتلافية لم يمكنها البقاء فى الحكم بعد امضاء معاهدة الصلح ، رغما عن كونها خرجت بالبلاد ظافرة من الحرب العالمية

وأما حكومة الاقلية فمقطوع بعدم صلاحيتها،لانها باعتمادها على مؤازرة أحد الاحزاب فى المجلس تعطى لهذا الحزب قوة الحكم وتتحمل هى مسئوليته . وأمثال هذه الحكومات لا تلبث ان تترك سياسة الاعمال الى سياسة المناورات لاستبقاء ثقة الحزب المؤازر

والديموقراطية فى مصر لم تزل فى مهدها . وبالرغم من ذلك فقد كسبت بها البلاد كثيرا ، وكلما قدم العهد بها فهى الكفيلة بما فيها من مرونة من اصلاح ما قد يشكو منه البعض من اخطاء

محمد خطاب



ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

التراث العربي

فى انجلترا الديمقراطية

بقلم الاستاذ محمد أمين حسونه

> تناول الكاتب فى هذا المقال عناية علماء الديمقراطية من الانجليز بالتراث العربي، والمؤلفات العربية التى ترجمها هؤلاء العلماء الى اللغة الانجليزية. وقد ألم بالكثير منها فى مختلف العلوم والفنون، بما وسعه المقام

عرفت انجلترا حضارة العرب التى ازدهرت من القرن الثامن الى الثالث عشر عن طريق فئة قليلة من علماء الشرقيات نبهوا الأفكار بمؤلفاتهم الى مدنية العرب والى تراثهم الأدبى والعلمى، وكانوا واسطة التعارف بين الغرب والشرق. وسرعان ما تفتحت آفاق جديدة فى المعرفة، وألفى الغربيون أنفسهم أمام ثروة روحية ويقظة ثقافية، فأحكموا صلاتهم بالعرب، وأقبلوا على تعلم لغتهم، وعنوا بدراستها فى الجامعات. وساعدهم فى ارتقاء هذه الدراسات ما عثروا عليه من نفائس المخطوطات فى الأندلس، وصقلية، والشمال الأفريقى، وفلسطين

وقل من ينكر الأثر الذى خلفته الجمعيات العلمية الشرقية، التى ساعدت فى نقل بذور الثقافة العربية الى أمم الشمال وفى مقدمتها الجمعية الاسيوية، وكذا المجلات الخاصة بالعلوم العربية، والمؤتمرات الشرقية التى تعقد بين وقت وآخر فى عواصم أوربا، وما تركته « دائرة المعارف الاسلامية » من أثر فى الحياة الفكرية

ومن الغريب أن العلماء الذين كتب لهم أن يطلعوا الغرب على أسرار العرب ونبش الكنوز الدفينة فى الأدب القديم ونقلها الى لغتهم، لم تر طائفة كبيرة منهم بلاد العرب، ولم ينتقلوا عن دائرة العلم التى حصروا حياتهم داخل نطاقها، وانما كانوا يغذون أفكارهم، من المخطوطات والأخبار التى ينقلها اليهم تلاميذهم وأصدقاؤهم عن العرب والاسلام

ويرجع اهتمام الانجليز بالعلوم العربية الى القرون الوسطى حين ذهب جماعة من طلبة العلم منهم الى أسبانيا وصقلية يرتشفون مناهل العلوم العربية رغبة فى نشر ما يجمعونه من المعلومات وترجمة المخطوطات التى يعثرون عليها الى اللغة الانجليزية. ثم حدثت بعد ذلك تغييرات خطيرة حين اتسعت آفاق المعرفة، فاستقدم الانجليز مدرسين من العرب الى بلادهم وجامعاتهم وتلقوا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عنهم أصول الثقافة العربية والأدب العربى ، ونهضت طائفة من تلاميذهم بجمع القواميس ووضع المعاجم اللغوية وكتب النحو العربية ونشر المخطوطات وترجمتها وطبعها قبل أن تطبع في بلاد العرب نفسها ، وليس أدل على ذلك من أن أول الكتب التى طبعت فى انجلترا وعنوانه « حكم الفلاسفة » منقول عن نص عربى معروف باسم « كتاب مختار الحكم ومحاسن الكلم » وضعه سنة ١٠٥٣ الامير المصرى مبشر بن فاتك

وبدأت هذه الحركة تتخذ صبغة عملية فى بداية القرن السابع عشر حين أنشىء منصب للأستاذية فى اللغة العربية فى كل من جامعتى اكسفورد وكمبردج ، وقام أساتذة انجليز بتدريس لغة العرب لعدد كبير من الطلاب المتلهفين على دراستها والى غيرهم من المتعلمين الذين أدركوا أهمية الثقافة العربية والتاريخ العربى . وقد صدق الشاعرفيكتور هيجو حين لمس هذا الأثر الحى فكتب في مقدمة قصائده الموسومة بعنوان الشرقيات ما نصه :

« ان العالم كان فى عصر لويس الرابع عشر مقبلا على الدراسات الاغريقية ، أما اليوم فهو مقبل بنهم على المناهل الاستشراقية العربية »

***

وفى غضون القرن الثامن عشر كان التبادل الادبى بين العرب والانجليز على أشده ، وكان هذا التبادل يتخذ أحيانا صوراً شفوية وأحيانا صوراً كتابية بواسطة الكتب ، فالأدب العربى أدب رومانتيكى فى جوهره ، تزينه لغة منمقة بديعية ، تشتمل على أخيلة غريبة وألوان فنية منوعة ، وهناك أساليب رائعة وموضوعات طريفة وجدت طريقها الى الادب الانجليزى

فقصص ألف ليلة وليلة التى ألهبت خيال القارىء الانجليزي وأصبح الناشرون يتنافسون ويتفننون فى إظهارها فى عشرات الطبعات المشوقة كانت تنفد عقب صدورها . ومعظم المؤلفين الانجليز فى ذلك القرن أفادوا من هذا الكتاب فائدة تذكر ، ووجدت القصة العربية من يقلدها فى الانجليزية لما امتازت به من عنصر المغامرة وروح السحر والغموض ، غير أن هذا التقليد أصبح مستهجناً فى العصر الذى تلى القرن الثامن عشر بتأثير النقد اللاذع الذى صوبه اليه كل من هاملتون وبوب وجولد سميث

ومهما يكن فان هذه القصص أعطت عن بلاد العرب صوراً فذة ، وجعلت نفوذ العرب أعمق أثراً ، فلولاها لما عرف الأدب الانجليزى قصص : روبنسن كروزو ، والمغربى الساحر ، وحكاية الفارس الغلام لشوسر ، ورؤيا ميرزا التى تأثر بها روبرت بيرنز ، وزهراب ورستم للشاعر ماتيو ارنولد ، وخيالات فريشتاخ لجورج مريديث ، ولا روح للكاتب مور ، ورحلات جلفر ، الى غيرها من عشرات القصص ، مما يدل على أن الأدب العربي الرومانتيكى كان يسيطر سيطرة تامة على الخيال الشعبي عند الانجليز

وبفضل الكتاب الذى أصدره وليم جونس عام ١٧٧٤ بعنوان « الشروح اللاتينية للشعر العربى » استطاع المثقفون أن يقدروا مزايا الشعر العربى ، وكانت للتراجم التى نشرت فى الانجليزية عن هذا الشعر الفضل فى اثارة العبقرية الشعرية عند بعض الشعراء ، ليس فى انجلترا وحدها ، بل فى كل من المانيا وفرنسا ، فقام كلوستن بترجمة « الشعر العربى للقارىء الانجليزى » ، وموير بترجمة « مختارات الشعر العربى القديم » ونشر الوردت ترجمة « ديوان شعراء ستة من العرب : النابغة ، عنترة ، طرفة ، زهير ، علقمة ، وامرىء القيس » ، وشارل جيمس ترجمة لمجموعة من الشعر العربى القديم بعنوان « ليالى » كما نشر تعليقات على شعر أبوزكريا يحيى التبريزى . وعاد كلوستن فترجم « خزانة الأدب ولب لباب العرب » ورودلف برونو الى نشر « الأغانى » نقلا عن نسخة خطية محفوظة بمكتبة ميونيخ ، وترجم رزق الله حسون أحد أساتذة العربية فى انجلترا ترجمة شائقة لقصائد حاتم الطائى وأمين الريحانى « لزوميات أبى العلاء » . وترجم جونسون « المعلقات السبع » والشيخ فضل الله بهاء من علماء الهند « البردة للبوصيرى » ، وديليكو شعر عنترة العبسى ، وتوماس شنرى « مقامات الحريرى » وبيكوك « لامية العجم » مع تفاسير وافية لها

وكان من أثر ظهور هذه الترجمات من الشعر العربى قيام حركة واسعة النطاق تحاكي هذا الشعر بعد أن كشفت طائفة من المستشرقين عن ينابيع أخرى زاخرة منه . وكان بيرون هو الذى وصل القوم بصورة للشرق فى أدبه ، وابتدع هاينى الاساليب الشرقية فى شعره وكذلك جوته فى ديوانه « الشرق والغرب » الذى أبى إلا أن يكتب عنوانه بحروف عربية ، ثم أولنشليجر فى قصتيه الشعريتين « علاء الدين » و « على والوردة الهندية »

***

ويجمل بنا أن نشير هنا الى مستشرق انفرد فى هذا العصر بين جميع مستشرقى أوربا بأنه الرجل الوحيد الذى تغلغل الى صميم روح العرب وكتب بلغتهم ونظم الشعر على طريقتهم ، ذلك هو ادوارد هنرى بالمر أو الشيخ عبد الله كما كان يلقبه أصدقاؤه من الانجليز والعرب . كان بالمر أستاذاً للعربية بجامعة كمبردج فقسم جل وقته بين التدريس وتحصيل العلوم وبين ترجمة المؤلفات العربية النفيسة ، فبدأ بترجمة بهاء الدين زهير الشاعر المصرى ترجمة شعرية بالانجليزية ووضع لها مقدمة مسهبة وبعض ملاحظات . وكان طبع هذا المؤلف خطوة هامة فى احياء تراث ثقافة العرب ، وبلغ من شدة تأثره بالأدب العربى ، أنه كثيراً ما كان يستعصى عليه التعبير عما يريد التعبير عنه بالانجليزية فى بعض الرسائل الى زملائه المستشرقين فكان يفصح عن مكنون ضميره بالعربية ويورد اما نظماً أو نثراً ما يريد تناوله بالنقد والتعليق . ولم يقف مجهوده عند هذا الحد بل عمد فعلا الى قرض الشعر العربى ، ومن مثال ذلك قصيدته التى نقتطف منها ما يلى :

ليت شعرى هل كفى ماقد جرى مذ جرى ما قد كفى من مقلتى
قد برى أعظم حزن أعظمى وفنى جسمى حاشا أصغرى

والى « بالمر » يعود الفضل فى نقل طائفة كبيرة من الشعر العربى الى الانجليزية ، وقد صادفت مؤلفاته رواجاً فذاً لدى عشاق هذا الادب ، ولعل أروع الاسفار التى خلفها كتاب بالانجليزية عن قواعد اللغة العربية ، وكان أبرز ما فى هذا الكتاب أنه لم ينسج فيه على الطريقة التقليدية التى درج عليها علماء النحو العربى ، بل ابتكر أسلوباً مشوقاً محاولا تبسيطه ما أمكن لطلاب العربية من الانجليز

***

وفى ميدان التاريخ العربي ضرب العلماء الانجليز بسهم وافر ، وكانت لمؤلفاتهم القدح المعلى من حيث تعريف الغرب بحقيقة تاريخ العرب فى الجاهلية والاسلام ، وتؤلف حياة بيكوك حلقة هامة فى هذه الدراسات ، حيث انصرف الى نقل طائفة من المؤلفات التاريخية العربية والتعليق عليها ، حتى اعترف بفضله جميع العلماء الذين عاصروه ، وكانت الرسائل ترد عليه من كافة أنحاء اوربا والشرق تستمد مشورته ونصحه فى المسائل العربية ، وكان مقره فى اكسفورد حيث كان يتفيأ ظل شجرة التين المشهورة التى نقلها معه من سورية والتى لا تزال أقدم شجرة من نوعها فى بلاد الانجليز . ووضع بيكوك وترجم طائفة من كتب التاريخ نخص بالذكر منها « نموذج من تاريخ العرب » لأبى الفرج ، و « مختصر الدول » وهو النص الكامل لتاريخ أبي الفرج مع ترجمة له ثم « لامية العجم » التى سبق ذكرها ، وخلف بيكوك ستة أولاد حذا أكبرهم ـ واسمه ادوارد بيكوك ـ حذو أبيه فى معالجة المسائل العربية ، فترجم كتاب عبد اللطيف فى تاريخ مصر ، وترجم أيضا مؤلفاً فى الفلسفة لأبى الطفيل

ومن العلماء النابهين الذين اشتغلوا بتاريخ العرب وليم وايت ، اذ كان له شغف عميق بالعربية ورثه عن السيدة والدته التى كانت تتكلم هذه اللغه بطلاقة ، ومن الشواهد الدالة على شغفه بالعربية إقدامه على ترجمة تاريخ الاندلس للمقرى ورحلة ابن جبير والكامل للمبرد . وترجم كلكستون سلان وفيات الاعيان لابن خلكان ، وهنرى كاسل « تاريخ اليمن » لنجم الدين عمرو الحكمى مع تاريخ مختصر للاسر الحاكمة لابن خلدون ، أما ناسو ليس فنقل الى الانجليزية « فتح سورية » للواقدى ، وحاريث « تاريخ الخلفاء » للاسيوطى ، وصمويل لى « رحلات ابن بطوطة » وهيج « ابن بطوطة فى السند » وهاملتون « تاريخ عنترة » وهامر « سيف عنتر » وكلوستون « السندباد » ، وأخيراً مارجليوث « الجزء الرابع من تاريخ التمدن الاسلامى » تأليف المرحوم جرجى زيدان بك

وكان للفلسفة العربية كيان خاص وطابع مستقل يميزها من المذاهب والنظريات التى عاصرتها ،

اذ أن فيها ثمرات من عبقرية أهلها . وقد انساق الأنجليز الى دراستها بتأثير دافعين رئيسين : أولهما ان اتصالهم بالفكر العربي أهاج حماستهم الى ورود مناهل هذه الفلسفة التي ازدهرت منذ العصور الذهبية للخلافة وذاعت في العالم القديم لما انطوت عليه من أسس قامت عليها معظم الحركات الفكرية ، وثانياً ان العرب كانوا الواسطة التي انتقل بها الى أوربا قسم كبير من التراث الاغريقي في الفلسفة ، ذلك التراث الذي حافظ العرب عليه وتوسعوا فيه . وقد سبق روجر بيكون ان نبه قومه منذ العصور الوسطى الى أهمية الاحتفال بدراسة هذه الفلسفة فقال ما معناه: « الفلسفة مستمدة من العربية ، فالاوربي على هذا الاعتبار لا يستطيع أن ينفذ الى لب الكتب المقدسة وأس الفلسفة دون أن يتفقه معاني اللغة التي نقلت عنها »

والحق ان العلماء الانجليز تعلموا من العرب طرقاً جديدة للبحث والاستنباط ، وضعت العقل فوق السلطة ونادت بوجوب البحث المستقل والتجربة ، وكان لهذين الدرسين الفضل الأكبر في القضاء على ثقافة العصور الوسطى والايذان بعصر النهضة وبعث أوربا الجديدة ، ومن الكتب الفلسفية التي أقبل الانجليز على ترجمتها والتعليق عليها : مؤلفات ابن رشد ، الفارابي ، ابن سينا ، ابن العربي ، الغزالي ، الكندي ، حنين بن اسحاق ، ابن خلدون ، ولخص ميور في كتابه « الخلافة » الأسس التي قامت عليها الفلسفة العربية ، كما قام فرد لاندر بترجمة طائفة من أمهات مؤلفاتها « كرشد الحيارى أو دلالة الحائرين » لابن ميمون ، وترجم جورج اشويل « تاريخ حي بن يقظان » لابي جعفر بن طفيل ، وكورتون « كتاب الملل والنحل » للشهرستاني ، ومارجليوث « رسائل أبي العلاء المعري » وبعض أجزاء تفسير القرآن للبيضاوي ونشر ترجمة لابن رشد وأخرى لابن سينا ومهد لكل من الترجمتين بمقدمة تحليلية رائعة

ويحسن بنا في هذا المقام أن نقتبس شيئاً مما كتبه العالم الانجليزي ادلارد منذ ثمانية قرون يخاطب ابن أخيه على الطريقة التي تعلمها في الجامعات العربية بأسبانيا : « انني — وقائدي ودليلي هو العقل — قد تعلمت شيئاً من أساتذتي العرب وأنت قد تعلمت شيئاً مختلفاً عنه . لقد بهرتك مظاهر السلطة فوضعت في رأسك لجاما تقاد به . والا فبأي اسم آخر يمكننا أن نسمي السلطة سوى انها لجام ؟ فكما أن الحيوانات الضاربة تقاد من مقودها حيث يشاء الانسان من غير أن تدري لماذا تقاد ولا أين تقاد ، وانما تتبع الحبل الذي يجرها — كذلك كثير منكم يرسف في أغلال البساطة وتصديق كل ما يسمع ويقودكم الى الخطر سلطة الكتاب والمؤلفين . ان الانسان قد منح العقل لكي يستخدمه حكما غالياً في الفصل بين الحق والباطل ، ان علينا ان نبحث أول كل شيء عن العقل فاذا اهتدينا اليه — لا قبل أن نهتدي اليه — نبحث في السلطة فان سايرت العقل قبلناها ، ان السلطة وحدها لا تبعث في نفس الفيلسوف ثقة ولا يجوز أن تستخدم السلطة لمثل هذا الغرض »

والى جانب الفلسفة شرع الانجليز منذ القرن الثاني عشر يدرسون العلوم والرياضيات في

الجامعات العربية فى أسبانيا ويساعدون على نشرها فى بلادهم ، والى المستشرق ادلارد سالف الذكر ـ وقد كان معلماً للملك هنرى الثانى ملك انجلترا ـ يعود الفضل فى تنبيه الانجليز الى أهمية علوم العرب . وقد بدأ هو نفسه بترجمة كتاب عربي عنوانه «المسائل الطبيعية» ، وحذا حذوه العالم روبرت من مدينة تشستر ، وجون جريفس الذى شغل منصب أستاذ الفلك فى اكسفورد وكان رياضياً مشهوراً ، فوجه اهتمامه الى مؤلفات العرب فى العلوم الرياضيـة ونشر عدداً من النصوص والدراسات المتعلقة بهذه المادة . وقد ترجم كورتون كتاب «عيون الانبا فى طبقات الأطبا» لموفق الدين أبو العباس، وترجم خالينوف كتاب «ميزان الحكمة» للخازنى ، وبرتراند « نصائح طبيب لكل لبيب فى منع السقم بتدبير الجسم » ثم كتاب المسافر فى الطب ، وكتاب الفلاح لابن العوام وغيرها من كتب الرياضة والجبر والكيمياء

* * *

بقى أن نذكر كلمة عن الأدب العربى الحديث ، فقد لقى عناية من جانب طائفة من الانجليز بيد أنه لم يصادف نفس المكانة التى ظل الادب العربى القديم محتفظا بها فى بلاد الدمقراطية . ولا تعدو الكتب العربية الحديثة التى نقلت الى الانجليزية أصابع اليد . فمنها بعض مؤلفات الريحانى وجبران خليل جبران والجزء الاول من كتاب الأيام للدكتور طه حسين الذى ترجمه باكستون ونشره بعنوان « حياة الطفولة لكاتب مصرى » ثم ديوان « على بساط الريح » للمرحوم فوزى المعلوف من شعراء المهجر الامريكي ، ونقل مستر نيقل باربر مقطوعات من كتاب النظرات للمنفلوطى ، ونشر رتشارد إيدون ثلاث قصص للكاتب القصصى المعروف الاستاذ محمود تيمور بك وهى : أم زيان ، أبو عرب ، يحفظ بشباك البوستة . فى مجموعة ظهرت عام ١٩٢٩ تحت عنوان : أحسن القصص العالمية : Best Continental short stories ، كما نشر أيضاً الكاتب الامريكى ترو بردج هال فى مؤلفه « لمحة من مصر » Egypt in Silhouette المطبوع فى نيويورك عام ١٩٢٨ مختارات مترجمة لكل من شوقى وحافظ والعقاد والمنفلوطى والمرحوم محمد تيمور وترجم الاستاذ براكنبرى مختارات من أقاصيص الاستاذ محمود كامل بعنوان « الأجنحة الزرقاء »

وقد صادفت مسرحية مجنون ليلى لشوقى هوى من بعض المستشرقين الذين قرأوها ومن بينهم جون اربرى وهو مستشرق شاب مولع بالآداب العربية ومولع كذلك بدراسة التصوف الاسلامى ، وكان الاستاذ اربرى يزور مصر فى شتاء سنة ١٩٣٢ فشاهد هذه الرواية على المسرح وأعجب بها أعجاباً دفعه الى ترجمتها ترجمة نجح فيها من حيث نقل روح شوقى الشاعرية وعذوبته وهى تجربة لا تعد محاولة موفقة وانما هى تعتبر دراسة عميقة لهـذا المترجم تدل على فهمه روح الشاعر المصرى حق الفهم وتبرهن على انه عرف كيف ينقل معانيه وأغراضه نقلا موفقاً الى الانجليزية

محمد أمين حسونة

هؤلاء خدموا الصداقة العربية البريطانية وطدوا أركانها

ان روابط الصداقة القائمة بين العرب والانكليز ليست بنت اليوم • واذا بحثنا عن منشئها فان البحث يعود بنا اجيالا الى الوراء ، أى الى عصر الفروسية والحروب الصليبية• فقد عرف الانكليز العرب وخبروهم ، وعرف العرب الانكليز وخبروهم ، اثناء تلك الحروب الدموية، وكثيرا ما تحول العداء بين الطرفين الى صداقة حقيقية ممزوجة بالاحترام والاجلال • ويكفى أن نذكر علاقة صلاح الدين الايوبى بالملك ريكاردوس قلب الاسد ، لكى ندرك ان الروابط العربية الانكليزية القائمة اليوم قد نشأت فعلا فى ذلك العهد البعيد

ولكن مالنا وللماضى • فبحثنا هذا يتناول العصر الحاضر • فمن هم أصحاب الفضل فى توثيق العرى بين الامة الانكلوسكسونية العظيمة والامة العربية المتشعبة الفروع المتعددة الاوطان ؟

انهم كثيرون • بينهم الملك والامير ، والعالم والشاعر ، والسياسى والاقتصادى ، والمستشرق والسائح• ولكن هناك شخصيات يمكن اعتبارها نموذجا لهذا المجموع ، وهذه الشخصيات هى التى سنقتصر على التحدث عنها فى هذا المقال

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

***

قبل انهيار الامبراطورية العثمانية بعد الحرب العالمية الماضية ، كان العرب فى مختلف اجزاء تلك الامبراطورية المترامية الاطراف قد شرعوا فى تنظيم حركة قومية واسعة محكمة ، وكان لا بد لهم من الالتجاء الى بلدان اجنبية يتمتعون فيها بالحرية الكافية للقيام بذلك التنظيم ، بعيدين عن الخطر ، أو على الاقل فى مأمن من الازعاج• فتوجهوا بانظارهم الى دولتين هما بريطانيا العظمى وفرنسا ، والى البلدان العربية الواقعة تحت نفوذ هاتين الدولتين أو دولة منهما

وكانت نتيجة هذا الاتصال أنه عند ما نشبت الحرب الماضية وخاضت الدولة العثمانية غمارها بجانب المانيا وشركائها ، سنحت للعرب والانكليز فرصة فريدة للتعاون فاغتنموها، وكان ما كان من محالفة بين الطرفين مما هو مشهور معروف

الملك فيصل والكولونيل لورانس

وأول اسم يتبادر الى الذاكرة ، فى هذا الصدد ، اسم الكولونيل لورنس « امبراطور



الملك فيصل — الكولونل لورانس — الأمير عبد الله — برسي كوكس

العرب غير المتوج » كما كانوا يلقبونه ، واسم صديقه ورفيقه في الجهاد المغفور له الملك فيصل الاول • فقد لعب هذان البطلان الخالدان دورا عظيما اساسيا في اقامة صرح الصداقة العربية البريطانية ، دورا مطبوعا بطابع الاخلاص والتضحية والفروسية النادرة • ولا نظن ان انكليزيا أو أوربيا واحدا غير لورنس ، اختلط بالعرب وامتزج بهم اختلاط هذا الرجل العجيب وامتزاجه باصدقائه من سكان المدن والبوادي من العرب الحضر أو الرحل • فالملك فيصل الاول والكولونيل لورنس قد مهدا تلك الصداقة البريطانية العربية بالدم ، وهو خير رابطة واصدق ميثاق

وفي الوقت الذي كان فيه فيصل ولورنس يلعبان ذلك الدور العظيم ، في ميادين السياسة والقتال ، كان رجال آخرون من ابناء الامتين الصديقتين الحليفتين ، يعملون كل في دائرته ، ويزيدون تلك الصداقة متانة وقوة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الامير عبد الله

فالامير عبد الله بن الحسين ، أمير شرق الاردن اليوم ، من أولئك الرجال الذين ادركوا ان الامة الانكليزية افضل صديق للعرب • وشاطره هذا الرأي ابطال الثورة العربية كجعفر باشا العسكري ، ونوري باشا السعيد ، والدكتور عبد الرحمن شهبندر ، وجميل المدفعي بك ، وفوزي بك البكري ، ونسيب بك البكري ، وغيرهم من اولئك الذين اشتركوا في تلك الثورة التاريخية ، التي ـ ان لم تسفر عن الاستقلال التام للبلدان العربية الخاضعة للدولة العثمانية ـ فقد أدت على كل حال الى قيام دول عربية متمتعة باستقلال ذاتي هو الخطوة الاولى نحو الاستقلال التام

فليس هناك من ينكر أن الصداقة الانكليزية العربية ضمنت الفوز للثورة العربية ، وإن الثورة العربية أدت الى قيام دول عربية كالعراق وسورية ولبنان وفلسطين وشرق الاردن ، فضلا عن الحجاز مهد تلك الثورة

اما المملكة العربية السعودية ، التي اسسها وحيد زمانه الملك عبد العزيز آل سعود ، فانها تقدر الصداقة الانكليزية العربية قدرها ، وقد اثبت الملك ابن السعود هذا التقدير في اكثر من مناسبة وحال

سير برسي كوكس

ومن ابرز الشخصيات الانكليزية التي كان لها فضل كبير في توثيق عرى الصداقة بين الامتين ، السر برسي كوكس Percy Cox الذي قضى خمس عشرة سنة متنقلا من منصب الى منصب في البلدان العربية ، ومثل بلاده خير تمثيل في العراق • وكان يجيد اللغة العربية الى حد بعيد • وقد تجلت مواهب هذا السياسي القدير في بغداد وامارات الخليج الفارسي العربية • ويرجع اليه الفضل الاكبر في حل معظم المشاكل السياسية والاقتصادية التي اعترضت تقدم هذه الاقطار وازدهارها بعد الحرب العالمية الاخيرة • وكان السر برسي كوكس صديقا حميما للملك عبد العزيز آل سعود وقد أخلص كل منهما الوفاء لصديقه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كليتون ، وكورنوالس

كان السر برسي كوكس ممثلا لبريطانيا العظمى في بغداد • وهذا المنصب يتطلب مهارة وكياسة عظيمتين ، فهو في الشرق العربي ميزان المقدرة السياسية

وقد شغله غير السر برسي كوكس رجلان لعب كل منهما أيضا دورا هاما في تشييد دعائم الصداقة البريطانية العربية • وهذان الرجلان هما الجنرال جلبرت كليتون ، والسفير البريطاني الحالي في العراق ، المستر كورنوالس

أما الجنرال كليتون فقد لعب دورا مزدوجا في ميداني الحرب والسياسة ، في اثناء الثورة العربية الكبرى وبعدها ، وكان من أصدق الاوربيين شعورا واخلاصا نحو العرب •



الجنرال كلايتون — جورج لويد — جرترود بل — فريا ستارك

ومما يذكر ان لجلبرت كليتون أخا هو البريجادير جنرال كليتون ، الموجود الآن فى القاهرة ، والذى يضع خبرته ونشاطه فى خدمة الصداقة البريطانية العربية كما فعل من قبل المرحوم اخوه

واما الرجل الثانى ، ونعنى به كورنوالس ، فانه يشغل اليوم ذلك المنصب الذى شغله من قبل برسى كوكس والجنرال كليتون ، وهو من أوسع الانكليز معرفة بالعرب واحوالهم وعاداتهم وتقاليدهم وأمانيهم • فكورنوالس أحد أولئك الذين نظموا الثورة العربية الكبرى وساهموا فى تسيير دفتها ، عند ما كان فى المكتب العربى بالقاهرة • وليس بين الانكليز من هو أوسع خبرة منه فى شؤون العراق حيث يقيم الآن ويدير دفة السياسة الانكليزية فى ظروف محفوفة بالاخطار

اللورد جورج لويد

وفى العام الماضى فقد العرب صديقا كان شديد الرغبة فى ايجاد حل للمشاكل القائمة بين العرب ولانكليز • ونعنى به المرحوم اللورد جورج لويد ، المندوب السامى سابقا فى مصر ، والضابط فى الجيش اثناء الحرب العالمية الماضية • وقد قضى مدة غير وجيزة فى جزيرة العرب بصحبة لورنس ، وصرف نشاطه فى ايامه الاخيرة الى درس المسألة الفلسطينية والبحث عن حل لها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

***

ولا يسعنا الا ان نذكر هنا ، اتماما للبحث ، اسماء رهط من رجال السياسة الانكليز الاحياء ، الذين ساهم كل منهم فى دائرة عمله ، فى توثيق الروابط بين بريطانيا العظمى والبلدان العربية ، وهم :

السير ميلز لامبسون ، السفير البريطانى فى مصر ، وصاحب الفضل فى عقد المعاهدة المصرية الانكليزية • وهو أيضا صاحب التصريح التاريخى ـ باسم حكومته ـ الذى اعلن اعتراف بريطانيا العظمى بالغاء الانتداب الفرنسى على سورية ولبنان واستقلال هذين القطرين العربيين

ومستر سمارت ، الخبير فى الشؤون العربية ، الذى يشغل الآن منصبا دقيقا هو منصب السكرتير الشرقى للسفارة البريطانية فى مصر ، وللمستر سمارت تاريخ مجيد فى خدمة الصداقة العربية الانكليزية ، لعب أهم أدواره فى دمشق ، قبل ان ينقل الى منصبه الحالى فى القاهرة

والمستر هاوارد ، القنصل البريطانى العام السابق فى بيروت ، والذى يعده عارفوه من

اخلص البريطانيين وفاء وابعدهم خبرة واقربهم الى قلوب العرب

ومستر انجرام ، الذى يعرفه أهل عدن واليمن وحضرموت • والماجور جلوب ، الملقب بابى حنيك ، وهو الآن فى شرق الاردن • وغير هؤلاء أيضا من الرجال الاكفاء الممتازين ، العاملين فى سبيل التقرب والتفاهم والتحالف بين العرب والبريطانيين

الآنسة جرترود بل

ولا يجمل بنا ان نختم هذا الحديث عن الشخصيات التى لعبت ادوارا هامة فى بناء الصداقة البريطانية العربية ، بدون أن نشير الى العنصر النسائى • فقد كان ولا يزال لهذا العنصر نصيبه الكبير فى دعم تلك الصداقة

وهل ينكر أحد فضل الآنسة جرترود بل ، التى كان السر برسى كوكس يعدها ذراعه اليمنى ، والتى قامت باعمال يعجز دونها كثير من الرجال ؟

لقد ماتت جرترود بل تاركة وراءها ذكرى طيبة ستعود الى الاذهان كلما أراد باحث فى المستقبل ان يقلب صفحات تاريخ النهضة العربية فى القرن العشرين

السيدة فريا ستارك

وبين الاحياء الآن ، سيدة انكليزية أخرى لا تزال فى الميدان ، هى السيدة فريا ستارك ، التى تعد من أوسع البريطانيين اطلاعا على شؤون العرب ، والتى اصبحت دارها فى القاهرة ملتقى العاملين فى حقل الصداقة البريطانية العربية فى هذه الظروف العصيبة

وكل ما نرجوه الآن ، ان لا تكون جهود اولئك الذين ذكرناهم ــ والذين ضاق المقام عن ذكرهم ــ قد ذهبت سدى ، وان تؤدى الصداقة البريطانية العربية بعد هذه الحرب الطاحنة ، الى تحقيق آمال العرب وأمانيهم من حرية واستقلال وسيادة ، وقيام حلف بينهم وبين اصدقائهم الانكليز يضمن الحقوق والواجبات والمصالح المشتركة ، فى ظل الانظمة الديموقراطية الحقة

ج ٠٠٠

تفضل الدكتور محمد فهمى لهيطة بوضع بحث فياض فى النظام الاقتصادى بين الديكتاتورية والديمقراطية ، فرأينا لضيق المقام أن ننشر منه هذه الصفحات القيمة التى تناول فيها مرض العالم والنظام الاقتصادى ، ثم التوجيه الاقتصادى بين الديمقراطية والديكتاتورية ، وحكومة التوجيه الاقتصادية وديمقراطيتها ، وحكم التفاعل بين الديمقراطية والديكتاتورية

التوجيه الاقتصادى

بين الديكتاتورية والديمقراطية

بقلم الدكتور محمد فهمى لهيطه

الاستاذ بكلية التجارة

مرض العالم والنظام الاقتصادى

العالم مريض ، طال به المرض ويحتاج الى طبيب ماهر رشيد يعالج علله بالدواء الناجع المفيد ، ونعتقد أن الدواء كان ولم يزل فى يد الاقتصاديين لولا أن سلطان الاقتصاد تتحكم فيه عوامل غير اقتصادية منها ما هو سياسى بحت ومنها ما هو حربى صميم (١) ومنها ما هو بين هذا وذاك فأصبح واجب الاقتصاديين أن يعالجوا المريض من علته لا بدواء مسكن موقت وإنما باستقصاء الداء حتى لا يكون له من أثر فى العودة بأشد مما كان عليه ، ويرى أغلبية علماء الاقتصاد فى الوقت الحاضر أن شفاء العالم هو فى أن توجه الدول قبلتها نحو النظام المعروف حديثاً فى أوربا باسم « التوجيه الاقتصادى » Economic Planning حيث يجمع هذا النظام محاسن النظام الفردى الرأسمالى والنظام الاشتراكى الحكومى بل ونظام الاشتراكية التى أخذت به بعض الحكومات فى بعض أشكاله ابتغاء الاعتماد على نفسها مع مشاطرة الدول الأخرى فى التعاون لتحقيق الصالح الدولى العام (٢) ، فنرى أن انجلترا فى العصور الأخيرة أخذت تتحول الهوينا نحو النظام الاشتراكى المقيد بما اتخذت من الاشراف على المشروعات الفردية العامة من مصارف وسكك حديدية ومصانع للذخيرة وغيرها

---

(١) راجع رسالتنا عن مركز مصر الاقتصادى فى الولايات الفيدرالية الاقتصادية ، وقارن ما يقوله كارليل « ان اقامة الحق فى شيئين السيف والقلم » مع ما فى ذلك من مجاز

(٢) راجع كتاب ك . ه . دوجلاس « قوة الائتمان والديمقراطية » صفحة ٨ حيث يعرف الديمقراطية بأنها سياسة الاغلبية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتشييد المكاتب والمتنزهات العامة والمنازل الخاصة للعمال والتعليم الحر(١)، وكذلك نرى أن المانيا أخذت فى العصور الحديثة تتجه نحو النظام الديمقراطى السليم فأعلنت أنها حاملة لواء مبدأ تقسيم العمل الدولى فى الوقت الذى اضطرت فيه بريطانيا الى التخلى عن هذا المثل الاعلى (٢) فبعد أن كانت فكرة تقسيم العمل الدولى غير مألوفة فى المانيا وهى الذائعة فى انجلترا، ابتعد الالمان تحقيقاً للمبدأ الديمقرطى أن يهملوا نظرية فردريك لست القائلة بوجوب انتاج الدولة لكل ما يلزمها لدفاعها القومى وأخذت بالنظرية الديمقراطية المعتمدة على التخصص والتعاون (٣) بل على العدالة والاخاء والمساواة والمحبة والتخصص والتضامن الدولى

التوجيه الاقتصادى والديكتاتورية والديمقراطية

ونرى أن جميع الانظمة الاقتصادية فى أى زمان ومكان ترمى الى سد المطالب الشعبية على أكمل وجه، ويقضى هذا انتاج وتوزيع واستهلاك أقصى وأنسب مايمكن انتاجه وتوزيعه واستهلاكه من السلع والخدمات والطيبات(٤)، وذلك بأقل ما يمكن بذله من الجهود والتضحيات الانسانية. فمع اتفاق جميع المذاهب الاقتصادية فى الغرض الذى ترمى اليه، فان هذه المذاهب تختلف اختلافاً بيناً فى الوسائل التى تتبعها للوصول الى هذا الغرض. والنظامان الديمقراطى والديكتاتورى وان ظهرا بأنهما نقيضان من حيث الاساليب التى يتبعانها الا انهما اخذا يتفقان فى الشكل تحت اسم التوجيه الاقتصادى للدولة (٥)

وقد نشأت فكرة التوجيه الاقتصادى وان ظهرت حديثة فى الدول الاوربية، من نظام الحكم فى الدول الشرقية وبالأخص من جراء تعلق العرب والدول الاسلامية بالديمقراطية الصحيحة التى كانت تناسب أحوال معيشتهم، إذ أن التوجيه الاقتصادى يشتق أركانه من التشريع العام الشامل لمعرفة حياة الناس وقدرتهم على الانتاج وكفايتهم وضرورة المحافظة على مستواهم فى درجاتهم وطبقاتهم المختلفة، ويقول الأستاذ الشيخ عبد الوهاب خلاف مدرس الشريعة بكلية الحقوق (٦) « إن الشريعة الاسلامية خير أساس يبنى عليه التشريع العادل وإنها لا تتنافى مع أى مبدأ تشريعى حق » لأن أصولها ديمقراطية والمقصود منها جلب النفع للناس ودفع الضر

(١) نظام أوربا الحديث تاليف باول انزيج صفحة ١٤٤ من الترجمة العربية

(٢) قارن بين كتاب آدم سمث « ثروة الأمم » وكتاب الاستاذ نكلسون « مشروع امبراطورية» وكتاب لست « النظام القومى للاقتصاد السياسى »

(٣) راجع كتاب السير جورج ستابلدون « استثمروا الارض » صفحة ٢٥

(٤) راجع « تاريخ مصر الاقتصادى » صفحة ٩٠ للدكتور محمد فهمى لهيطة

(٥) راجع باروز فى كتاب « التوجيه الاقتصادى : مشاكله وظروفه العملية »

(٦) راجع الخطب التى ألقيت فى مؤتمر الاسلام والاصلاح الاجتماعى بالجمعية الجغرافية الاقتصادية فى ٢٨ ربيع الأول سنة ١٣٦٠ وبالأخص الخطبة « الاسلام أساس صالح للتشريع الحديث » للاستاذ خلاف

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

عنهم واليسر بهم ونشر فضيلة العدالة والمساواة والحقوق بينهم ، فالديمقراطية عريقة الاصل فى الدول الشرقية ، والتوجيه الاقتصادي الذى نشأ عنها شرق المنبت ترعرع وأينع فى الدول الشرقية وأخذته الدول الغربية عن الشرق كما أخذت نظم بيت المال ونظم الزراعة التجارية والكفائية ، ولكن الثقافة الأوربية كانت أعلى شأناً من الدول الشرقية فى توجيه الناس توجيهاً علمياً يساير أحوال الظروف الحديثة بنسبة أعلى شأناً وأكثر إنتاجاً (١) عن الدول الشرقية

نعم ان الاقتصاديين يرون أن التوجيه الاقتصادى فيه شفاء العالم حيث أنه يوفق بين المبادىء الديمقراطية الصحيحة وبين نظم الدكتاتورية الوقتية المقيدة بظروفها والتى وان كانت تلائم بعض الظروف الخاصة الا أنها غير ثابتة ولا باقية ، فالبقاء للديمقراطية ما دام هناك من يقول بالحرية الحقة والفردية والمرونة وحقوق الملكية وتمتع الفرد بما قدمت له يداه من عمل مفيد ونشاط مستديم ، وما دمنا نسلم بما قاله أرسطو وكومت من بعده أن الديمقراطية ليست ايجابية بحتة وانما هى ايجابية نسبياً ، فلا توجد حكومة ديمقراطية حسنى وانما توجد حكومة ديمقراطية مناسبة لأحوال معيشة الناس عيشة هادئة ، ولهذا يقول ك . د . دوجلاس فى كتابه « سلطان الائتمان والديمقراطية » فى تعريفه للديمقراطية أنها سياسة الأغلبية (٢) وأن الديمقراطية الاقتصادية هى التى تسمح لأغلبية الناس بحرية العمل بما يتفق مع كفايتهم تحت إشراف من يقومون بالادارة وهم أقلية فديمقراطية رأس المال تدعو الى ايجاد مجلس الادارة فى الشركات الذى يوجه الانتاج لما فيه صالح المساهمين على أن تكون الاسهم فى متناول جميع الطبقات

وبينما نرى أن الديمقراطية تتمتع بجميع العناصر التى تدعو الى استقرارها وبقائها فان الديكتاتورية نفسها لا تنكر ما للديمقراطيات من فوائد اقتصادية ، فهى تعترف لنفسها كما تعترف للديمقراطية بالمبادىء الاقتصادية الفعالة نحو نجاح الأمم (٣) ، فهى تعترف بأن هناك قوة طبيعية ويداً غير خفية تعملان على توجيه القوى الاقتصادية الى أقوم سبيل وأن الافراد اذا وجهوا بجريهم وراء صالحهم الشخصي يعملون فى الوقت نفسه للصالح العام اذا كان موجهاً فى انتاج الصالح وترك الطالح من الامور والخدمات فيحصل المستهلك بناء على هذا التوجيه على أقصى وأصلح ما يمكن إنتاجه وتوزيعه من السلع والخدمات المناسبة بأقل النفقات والتضحيات ، فالنشاط الاقتصادي يكون داخل دائرة تقررها الحكومة ولا يتعدى فى حدودها الافراد على حرية

---

(١) راجع « النظام الصناعى » تأليف ج . ا . هوبسون صفحة ٢١٢

(٢) صفحة ٨ حيث لا يوافق على تعريفها بأنها حكم الاغلبية ويتمسك بأنها سياسة الاغلبية على أن تقوم أقلية منها بنظام الحكم

(٣) راجع الاستاذ حسن خليفة فى كتابه تاريخ النظريات السياسية وتطورها صفحة ٥٧

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بعضهم (١) البعض ، ولهم المرجع فى اقرار مثل هذا الحكم

والتوجيه الاقتصادى يستكمل النقص الذى يكتنف النظام الفردى عند ما لا يحقق الغرض الذى يسعى الى تحقيقه اذ يدعو الحكومة الى الاشراف أو السيطرة على جميع عوامل الانتاج القابلة لهذا الاشراف كما يدير أنظمة النقد والائتمان ويتدخل فى انتاج السلع المعدة للاستهلاك اذا أساء الناس انتاجها إذ أن من حق الدولة رعاية المصلحة العامة وتهذيب الأمة للقيام بالعمليات الضرورية التى تكون فى مجموعها النشاط الاقتصادى ، وللفرد بل لكل عامل من عوامل الانتاج أن يتسلم ما يستحقه من جراء عمله وجهوده طبقا لنظرية الانتاجية الحدية التى يعتقد أهل أوربا أنها حديثة (٢) وما هى حديثة حيث أن العرب فى ديمقراطيتهم أشادوا بذكرها فى توجيهاتهم الاقتصادية الأولى من عصور الاسلام كما خلد ذكراها الفرنسيون والأمريكيون والانجليز فى تحولاتهم الديمقراطية واعتمد عليها علماء ايطاليا وألمانيا (٣) فى توجيه اقتصادياتهم وهذه النظرية الحدية تقرر أن نصيب كل عامل من عوامل الانتاج يتحدد بما أنتجه هذا العامل فى الدخل الأهلى . فالانتاجية الحدية وتوجيهات الانتاج والتوزيع على أساسها تدل على توجيهات الديمقراطيات الحقة فى العهود الحديثة والسابقة على السواء ، وهل يمكن أن تختلف الديمقراطيات والديكتاتوريات على المبادىء الاقتصادية العامة التى تعمل على رفع مستوى أفرادها وجماعاتها

حكومة التوجيه الاقتصادى وديمقراطيتها

فالوظيفة الاقتصادية التى ينتظر أن تؤديها الدولة فى نظامها السياسى السليم هى حماية الأفراد لكى يتمتعوا بالعمل الذى يناسب تكوينهم العقلى والعضلى والثقافى وبذلك يتمتع الفرد من انتاج واستهلاك ما يناسبه طبقا لحق الملكية التى استكملت حريتها فى الاستمتاع بكل مفردات الحياة من ضرورية وكمالية ورفه

وحكومة التوجيه الاقتصادية هى حكومة تعتمد على التشريع لا على الأفراد ، ومبادىء التوجيه الاقتصادى تتناسب مع التغيرات الاقتصادية التى تطلبها حالة التقدم والرقى (٤)، والنظام الاقتصادى يكون سليما كلما كان على مرونة عظيمة ليساير التغيرات الاقتصادية التى تقتضيها ظروف الدولة فى

---

(١) قارن ك. هـ. دجلاس فى كتابة « ادارة الانتاج وتوزيعه » صفحة ٢٨ حيث يقرر اطاعة الفرد للنظام الديكتاتورى فى حياته الاقتصادية وأنه فى ذلك لا يختلف عن النظام الديمقراطى فى ادارة الاموال والشركات

(٢) يقول رسول الله « الناس يعملون الخير وأنهم يعطون أجورهم يوم القيامة على قدر عقولهم » وقارن جون بيتس كارك فى كتابه « توزيع الثروة » وأيضاً كارفر فى كتابه « توزيع المال »

(٣) قارن نون فيراس فى كتابه « نظرية النقود والائتمان » وبرشيانى فى كتابه « التضحية »

(٤) راجع الكتاب الحديث للاستاذ ريتشى كالدر « ابدأ التوجيه الاقتصادى لبريطانيا الآن » ، وما قانون الدستور الانجليزى فى سنة ١٢١٥ الا اعتراف صريح من السلطات العليا بحقوق الفرد

ARCHIVE

حياتها الناهضة والتى اتفق عليها جماعات الأمة وأفرادها

والحكومة الديمقراطية تستمد سلطانها للتدخل فى الأمور الاقتصادية من النفوذ الذى يمنحه لها البرلمان ، وهذه السلطة تدير تحديد ساعات العمل كما تعمل على تحقيق التعويضات للعمال الناتجة عن أعمالهم فى الصناعات الوطنية . أضف الى هذا أنها تضع تحت إشرافها أو تصرفها جميع الاحتكارات التى انتحلت لنفسها الاستئثار بأرباح ودخول استثنائية لم يكن لها يد فى إيجادها . فالحكومة أولى بها من الشركات حيث أن الحكومة توجه تلك الأرباح القدرية لما فيه خير الطبقات الدنيا ، كذلك تدير الحكومة الديمقراطية حقوق الملكية ، فبينما هي تحافظ على تلك الحقوق كما تحافظ على حرية التعاقد فانها توجهها التوجه الصالح لمصلحة الطبقات الدنيا بما تضعه على الملكيات من ضرائب وعلى العقود من رسوم وقيود (١) وبذلك تأخذ المبالغ الجسيمة من الأغنياء للقيام بالتحسينات الاجتماعية التى يتطلبها الفقراء ، فتدخل الحكومة فى هذه الحالة هو لحماية الأفراد من بعضهم البعض ولارتقاء مستوى الانتاج والتوزيع العام ولتوجيه تقديرات العملة والتجارة الخارجية لما فيه رفع شئون الدولة الداخلية ، فالديمقراطية لا يطيب لها خاطر فى الدولة إلا إذا أصبحت نظمها ديمقراطية ووسائلها ديمقراطية وحياة الناس ديمقراطية . واقتصادياتها ديمقراطية ، فاذا ضعف ركن من أركان حياتها تعرضت الديمقراطية إلى نظام (٢) قد يقضى على من يقوم بحمايتها وقت العواصف والأنواء السياسية ، ألم تقض المشاكل الاجتماعية فى وقتنا الحاضر إلى توجيه النظر الى نظام الاشتراكية وتحمسه عندما بدأت بعض الطبقات تثرى على حساب الطبقات الأخرى بعد ما دعا نظام المصانع إلى زيادة عدد السكان من جهة مع فقرهم والى تقليل عدد المنظمين مع ثرائهم من جهة أخرى ، فظهرت مصالح الطبقتين بأنها مضادة مع أنها فى الحقيقة متساندة متعاونة ولكن سوء التوجيه الفردى تحت اسم الديمقراطية هو الذي أظهر العيوب واقتضى المطالبة بتعديل الحال ، فعادت الأمم تطالب بالنظام الديمقراطى الصحيح ، حتى قيل إن الثورة الفرنسية استرجعته بعد أن فقد مساوئه السابقة (٣)

واذا كانت الحكومة الديمقراطية فى يدها صيانة نظامها أو انحلاله ، فالواجب عليها أن تعتنى بديمقراطية القائمين بنظام الحكم فيها وبتنفيذه على خير حال ، فكلما اتسع نطاق الديمقراطية فى المصالح والشئون الاقتصادية والاجتماعية كلما اقتضى الحال تعيين من يحافظ على هذه الديمقراطية

(١) راجع كتاب الاستاذ بريس عن « السياسة والاقتصاد » ومركز التحسينات الاجتماعية من كل منها

(٢) راجع مانتوه فى كتابه « الثورة الصناعية فى القرن الثامن عشر » صفحة ٢٨ حيث يشرح كيف أن الثورة الصناعية دعت الموجود طبقتين من الناس احداهما تعمل والأخرى تثرى فى بلد ديمقراطية وكانت النتيجة أن اتجه الناس إلى نظام الاشتراكية الحديث

(٣) راجع كتاب الاستاذ و م . ماكلان « تحويل الامبراطورية الى ديمقراطية » صفحة ٢٢

فى أركان الحياة المختلفة ، ويجب أن يكون القائمون بالأمر فطنين فنيين لا يحابون ولا يهابون . لا يمزجون بين نظام الحكم وعواطف القرابة ومفردات التسلية ، فالواجب أن تكون التعيينات الديمقراطية على أساس من الديمقراطية الصحيحة بأن يكون التعيين على أساس الاستحقاق أولا والشعور بالواجب الديمقراطى ثانياً ، والقــدرة على القيام بما تطلبه توجيهات الوظيفة ثالثاً ، فاذا اقتضت الوظيفة رجلا فنياً فالديمقراطية الصحيحة تستوجب تعيين أكفأ الفنيين لا أقرب الموظفين حسباً ونسبا ، وبهذا نرى أن الموظفين يتفرغون للمصلحة العامة ، ويصبح الموظف مفرد دخل لا عالة على المجتمع فى نشاطه الديمقراطى الصحيح ، فحسن التوجيه يتوقف فى الدول الديمقراطية على أن يكون الادارى بعيداً عن الوظائف الفنية وأن يتفرغ الفنى لما فيه الصالح العام والا انهدم عنصر من عناصر الديمقراطية التى تلازم حياته أو مماته (١)

فالحكم الديمقراطى الموجه يجب أن يسوده الشعور بالواجب فلا تسمو العاطفة على الواجب والا ضاعت حقوق الناس وسط عواطف أهل الحكم وبئس المصير ، والأمثلة كثيرة من واقع النظام الاقتصادى بين الديكتاتورية والديمقراطية

حكم التفاعل بين الديمقراطية والديكتاتورية

لا تقضى الديموقراطية على النبوغ ولا على القدرة فى العمل بل هى تشجع أصحاب الكفايات على بلوغ مقاصدهم (٢) فى اقتصاديات الدولة ولذلك لا تقضى الديمقراطية على أن يسود الفرد على غيره من الأفراد ما دامت ظروفه وتعاليمه وتقاليده بل وقدرته على العمل وضعفه فى المكان الكفيل بنباهته والمناسب لجهوده وتضحياته ، فما دام الأفراد القادرون على الادارة والحكم قلائل ، فان الديمقراطية لا تحرم هؤلاء القلائل من التبوء على سلطان الحكم الديمقراطى على شرط أن يكونوا مطيعين لرغبات الأمة وشعورها الاجماعى وتقاليدها الصالحة لسمو الانتاج وحسن توزيعه بين طبقات الأمة وأفرادها . فاذا سلمنا بأن أفراداً قلائل يتسلطون على وظائف الحكم فقد سلمنا بأن المعارضة لهذه الطائفة لابد أن تكون قوية لكى يستوى صراط الحكم الديمقراطى ، وفى الوقت نفسه نقول فى هذه الحالة بضرورة إيجاد نظام الحكم التوجيهي حتى لا تطغى فئة على أخرى فتضيع مواهب الديمقراطية المطلوبة ، فاذا بقيت الدولة على مستوى منحط من التعليم حيث يندر من يقدر على القيام بالادارة فلا مشاحة أن أمثال هذه الدولة يتجه بها الأفراد نحو الحكم الديكتاتورى ، ولهذا نرى أن الدول الديمقراطية هى التى تسعى على تعليم الشعب وتهذيبه حتى

(١) راجع كتاب الاستاذ فرنسيس ويليامز «لماذا ننتظر» حيث يشرح مكانة الدول الديمقراطية فى تقدم بريطانيا ، وقارن ديمقراطية العرب التى جعلت من النساء أبطالا

(٢) راجع الديمقراطية فى الاسلام حيث كان يرقى العبد الى أعلى مناصب الدولة

لا يندر من يمكن أن يقوم بسلطان الحكم ومسئولياته (١)

إذن نرى أن مرجع النظام الديمقراطى أو الديكتاتورى هو النظام الاقتصادى حيث أن عامل الندرة في الرجال هو من أهم مباحث علم الاقتصاد ونظمه ، فالندرة كلما كانت دقيقة تمتع صاحبها بميزة الاحتكار ، وما النظام الديكتاتورى الا نظام يحتكره الفرد ابتغاء الوصول الى غايته، فيسير السكون طبقا لارادته لا يحده فى القيام بعمله سوى سلطانه النادر ومقدرته النادرة ونفوذه الشخصى الذاتى الموضوعى (٢) الممتاز

فاذا زادت مقدرة الشعب وتهذبت أخلاقه وارتقت مدنيته قلت مواطن الندرة وتوجهت الأمة رويداً رويداً الى الحكم الديمقراطى فالديمقراطية والديكتاتورية فى تفاعل مستديم وعلى أساس هذا المبدأ نرى أولا أن الديمقراطية اتخذت أشكالا معدلة تلائم ظروف العصر الذى ترعرعت فيه كما أن الديكتاتورية تلونت بظروف الحوادث التى دعت الى وجودها فهناك ديكتاتورية مستبدة وهناك ديكتاتورية متنورة وهناك بلشفية وهناك فاشستية وهناك نازية كلها تساير قوام الندرة وعلاقتها بثقافة الأمة وصحة توجيهاتها طبقا لعقائد الناس ومستواهم الفكرى والمعيشى بل والدينى والتقليدى (٣)

الدول بين الحكم الديمقراطى والحكم الديكتاتورى حتى وقتنا هذا

ان المسلمين بطبيعتهم ديمقراطيون على مبدأ المساواة تشهد بذلك ثقافتهم المستمدة من دينهم والتى هى فى الحقيقة والواقع دليل ظاهر قوى على غريزة الديمقراطية فى المسلم والعربى ، ولكن الدول الاسلامية تعرضت لقوانين خارجة على تشريعها الاصلى وأصبحت تحت نفوذ ديمقراطيات تضيع فيها حقوقها وحريتها فبعض الدساتير تجعل مسلمى الهند أقلية لا صوت لها مسموع فى تحقيق مطالبهم الحقة ، فقضى دستور عام ١٩٣٥ على ديمقراطية المسلمين مع انه قرر تأسيس الحكومة على النظم الديمقراطية على النسق البريطانى ، لهذا نرى ان الديمقراطية تتطلب دراسة عميقة وإلا أصبحت عرضة للديكتاتورية فى تيارها الجارف فنظام الحكم فى أى مملكة من الممالك يجب أن يراعى فيه تماماً حالتها الاجتماعية ، فلا يمكن اتباع نظام سياسى يقوم على المساواة(٤) ، كذلك يجب

---

(١) راجع كتابنا « علم الاقتصاد للمصريين » وعلاقة الاحتكار بنظام الحكم

(٢) مجلة الاسلام ٨ ديسمبر سنة ١٩٢٩ طرف من أنباء العلم والعلماء

(٣) راجع مجلة نور الاسلام بتاريخ ٢١ يوليه سنه ١٩٤١ حيث يتكلم الاستاذ محمد عبد اللطيف دراز من المطامع لا المبادىء والحقيقة التى تدرسها الوسائل والنظم الاقتصادية التى تسجل توجه الديمقراطية والديكتاتورية على أساسها . فالمبادىء سليمة ولكن النظم متغيرة ، وقارن مجلة النذير عدد ٣ ربيع الثانى سنة ١٣٥٨ بحث فقهى اقتصادى عن أنواع الربا وأحكامه صفحة ١٧ حيث يقول ان كل نظام يمكن تغييره مهما ترسخت أصوله

(٤) راجع مجلة « نور الاسلام » عدد أول نوفمبر سنة ١٩٤٠ صفحة ١٥

أن يراعى فى نظام الحكم مسايرته لحالة العقلية الوطنية فلا يحرم أهلها من ثمرة جهودهم وكنوز أرضهم ، وهذا ما دعا الديمقراطية البريطانية أن تكون مرنة مثلها فى ذلك مثل الدول الاسلامية عندما فتحت البلاد الافريقية فقد اندمج فيها الحاكم والمحكوم وكان المرجع لهما هو الاسلام كما هو الحال الآن فى البرلمانات التى تشيد على النحو البريطاني فلم ينل الاهالى أى سوء ، فالعرب كالانجليز جعلوا المرونة والحرية أساساً صالحاً لتطبيق المبادىء الديمقراطية على البلاد التى دخلوها عنوة أو سلماً حيث أصبحوا فيها كأهلها ولم يشعر أحد فيهم بغربة فيها كما لم يشعر أحد سكانها بضغط جديد (١)

واذا كان دور الديمقراطية الحرة قد أصبح عرضة للتعديل والتغيير ، فان هذا التغيير كان أساسه اقتصادياً ، اذ عدلت انجلترا نظامها الاقطاعى الى نظام الحرف ثم الى نظام التجار فنظام الفردية الرأسمالية المعتمدة على الحرية والمنافسة ثم أخذت بنظام الجماعات التعاونية والشركات (٢) وأخيراً بنظام التوجيه الاقتصادى الذى انتهى اليه نظام الديكتاتورية فى وقتنا الحاضر (٣)

ونري ان سفينة الديكتاتورية تعرضت لنفس الادوار والتطورات ولكن من الجهة المضادة من العقائد والمذاهب ، فقد كان الحكم الاستبدادي رائدها وعدم الاستقرار حاكمها والشطط مسيرها وسرعة الخاطر موقدها وحاميها ، وهذا ما نراه فى الأدوار التاريخية التى مر بها كل من النظام البلشفى والنظام الفاشستى والنظام النازى ، ولذلك يقول المتتبع تلك النظم والباحث فى النظم الديمقراطية أن الحرب الحالية ما هى في الحقيقة إلا حرب آراء وعقائد كما هى حرب قوة وثورة ، فالنازية تدعو الى الثورة على النظام الديمقراطى الاقتصادى مع أنها تعترف بالمبادىء الاقتصادية التى تحكم توجيهاته (٤) . والديمقراطية تدعو الى الحرب على مبادىء النازية التى ترغب فى تقرير مصير العالم طبقاً لدرجة معينة من المدنية الهتلارية ، فالديمقراطية والديكتاتورية تحارب الفكرة والعقيدة ، ولهذا نرى أن العالم فى حرب طاحنة كل يحارب فلسفة الآخر ، ولابد أن تتقابل الدول عند حد التوحيد الاقتصادى حيث أن فيه يتساوى الغنى بالفقير وتتحقق مطالب الديكتاتورية مع عقائد الديمقراطية فى أن تكون وحدات العمل ووحدات رأس المال ووحدات الارض تعود بقسط وافر يتمتع فيه كل الناس بالرخاء والنعيم

(١) راجع رسالتنا للدكتوراه « مركز مصر الاقتصادى » حيث نشرح مبدأ الفيدرالية وعلاقته بالديمقراطية فى انجلترا وغيرها

(٢) راجع « مانتوه فى كتابه « الثورة الصناعية فى القرن الثامن عشر

(٣) راجع « الديكتاتورية والديمقراطية » تأليف السير جون ماريوت

(٤) راجع « من يدفع عن الحرب والسلم » تأليف دجلاس جاى حيث يشرح علاقة الديمقراطية بالتوجيه الاقتصادى فى الوقت الحاضر

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

العهود القديمة والوسطى

ان النظام الديكتاتورى فى أول أمره كثيراً ما يبدأ على أساس ديمقراطى حتى اذا ما استقر فان دوامه يعتمد على شخصية القائم بتوجيهه ولذا يجب أن يتمتع مدبره بصفات تدعو الى الاعتماد عليه والثقة به ، فيتمتع بنصيب وافر من اللباقة والشجاعة والاخلاص واللياقة والدقة فى الادارة والفن الحكومى بعيداً عن شوائب الجشع والمحسوبية مخلصاً لعشيرته وأفراد أمته على مختلف طبقاتهم . وكثيراً عندما يستتب حاله وتستقر شئونه ومعداته يعتريه الكثير من الغرور الذى يودى بنظامه الوقتي الى حيث كان ، وكثيراً ما يعجز النظام الدكتاتورى عن التهذيب والتعديل المطلوب لتطور أحوال الدولة فيكون مآله الانهيار والثورة على النظام الذى لم تجد فيه الهيئة الاجتماعية تحقيق مآربها وإشباع حاجياتها ، ألم ينهر نظام الاقطاعيات لأنه كان يستند على القوة وحدها ؟

ألم ينهر النظام السياسى الديكتاتورى للدولة الرومانية عند ما مانع الامبراطور فى مسايرة الظروف المستجدة (١) ألم يرجع التقدم والنجاح فى بعض عصور الرومان الى الاعتراف بضرورة التغير والأخذ بالنظام الديمقراطى حتى يتم إشباع حاجات الناس ؟ ألم يذكر التاريخ أن سيزار كان ديكتاتورياً ولكنه لم يكن متصفاً بالصفات المرذولة التى يأخذ بها الديكتاتوريون ، فبقى سيزار مابقيت دقته فى التنظيم المالى والاقتصادى ، ومع أن سيزار لم يكن ديمقراطياً فانه كان يتمتع بالفطنة والعقلية السامية ومصلحة الهيئة التى يخدمها والتى يتطلبها النظام الديمقراطى (٢) . ألم يقل السير فردريك بولوك إن السياسة ونظمها الصحيحة لم يبدأ تاريخها ونفوذها وسلطانها إلا بميكافيلى Machiavelli ١٤٦٩ - ١٥٢٧ فاذا كانت القرون الوسطى لم تقدم لنا نظرية سياسية تذكر فانها لم تخل من تقديم بعض التعاليم للتوجيه الحديث (٣) ، فالسير توماس اكونياس وهو أول الاقتصاديين الذين درسوا موضوع الثمن العدل كان من العلماء كما كان دانتى ولكنهما لم يخرجا للعالم نظرية كاملة عامة فى العلوم السياسية ، ومع ذلك عملا على إيجاد روح كاملة لتنظيم المبادىء والقواعد الضرورية للسلم العام ، فقد شاهدا حروب الامراء وحروب المدن والانقسامات التى أدت اليها وعثرا على حرية المجالس البلدية ، ووجدا أن الديكتاتورية المحلية قد تدعو الى القضاء على نفسها وتسعى لتحقيق نوع من الديمقراطية . ألم يكن فى نشر نظام البلديات فى ايطاليا ما دعا الى ضعف نظام الاقطاعيات الذى كان أكثر انتشاراً فى فرنسا وألمانيا عنه فى ايطاليا فأخذت

(١) راجع كتاب السير جون ماريوت « الديكتاتورية والديمقراطية » صفحة ٤٢ حيث يذكر أن سبب هذا الانهيار هو عدم مسايرة الحكومة ورجال الجيش لمطالب الطبقات الناشئة

(٢) راجع اللورد بريس Bryce فى كتابه الديمقراطية الحديثة

(٣) راجع سيسموندي فى كتابه « تاريخ الجمهوريات الايطالية » حيث يقول إن الفلسفة السياسية بدأت فى أوربا منذ أن نهضت الجمهوريات الايطالية فى القرون الوسطى ثم أخذت بها بعض الدول الحديثة

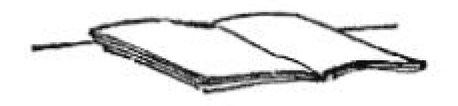
ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ايطاليا نظاماً ديمقراطياً أو شبه ديكتاتورى يخالف نظام فرنسا وألمانيا ، حتى أصبحت ايطاليا أكثر استعداداً للنظام الديمقراطى الصحيح عن غيرها من الدول ؟ ألم يكن حكم البندقية ولو أنه ديكتاتورى الا أنه كان متشبعاً بالروح الديمقراطية محفوفاً بالتؤدة والاستقرار والعدالة والمساواة (١) ولهذا فقد بقى الحكم الجمهورى فى البندقية الى ما بعد القرون الوسطى عند مادخلت البندقية فى عداد امبراطورية نابليون ، واذا كانت البندقية فى توجيهاتها أرستقراطية المذهب ألم تكن فلورنس ديمقراطية النظام وكان ذلك يرجع الى منشئيها من التجار الذين اعتنقوا مذهب ديمقراطية رأس المال وعلى رأسهم مادينشى المشهور وعائلته ، فعظم فيها بشأن أهل الطوائف والحرف الذين كانوا يحكمونها لما فيه خيرها

ومن واقع نظام الحكم فى هذه الجمهوريات نرى أن الديكتاتورية من طبيعتها كانت قصيرة الاجل اذ أن الداعى الى ايجادها هو داعى استثنائى موقت بينما نرى أن الديمقراطية لا تتحقق الا بعد أن تستكمل الدولة استقلالها الداخلى ووحدتها الدستورية . إذ كلما كانت درجة الاتحاد بين أفراد الامة وجماعاتها قوية كانت فرصة الديمقراطية البرلمانية قابلة للتحقيق . والديمقراطية لا بد أن تساير مطالب الافراد والجماعات والا فالديكتاتورية الموقتة خير من ديمقراطية لا تساير أحوال أهلها أو درجة ثقافتها ، ففى الديموقراطية يجب أن يكون هناك نظام وأن يكون هناك قيادة سياسية ، وان هذه القيادة السياسية ترجع الى القوة المادية التى دعت الى وجودها . فالحكومة الديمقراطية ضرورية لنجاح التجارة والزراعة والصناعة بل والفعل (٢) والتنظيم الذى عليه تقدم الأمم ورفاهيتها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

محمد فهمى لهيطه



(١) راجع كتاب الاستاذ ارسكين ماى May فى كتابه « الديمقراطية فى أوربا » صفحة ٢٩٢ حيث يذكر أن حكم البندقية وان كان شديداً على الاجانب الا أنه كان مرناً عظيم الشغل بمصلحة الاهالى . فالعدالة كانت رائد الحكم الجمهورى فى البندقية

(٢) راجع كتاب الاستاذ كاننجهام فى كتابه « نمو الصناعة البريطانية وتجارتها » الجزء الثانى

حاربت بريطانيا للديمقراطية

مترجمة عن مقال كتبه « للهلال » الاستاذ ج . ب . كارتلاند
استاذ العلوم السياسية بجامعة البنجاب بالهند سابقاً

الديموقراطية أسلوب فى الحياة ، اذا أردت شراءه فانقده الثمن الغالى ، واذا شئت بقاءه فتذرع باليقظة الدائمة والاهبة للتضحية

ذلك أن فى الخلق الانسانى عناصر ضعف شتى : ففى احد الجانبين نلقى جنوح فريق من الناس الى الاذعان لحكم الاقوياء عسى أن يكفيهم ذلك مشقة الحرية والجهاد، واعراضهم فى الوقت ذاته عن التفكير فى الامور العامة وعلاجها - ونلقى فى الجانب المقابل طموح فريق آخر الى سيادة الناس وفرض سطوتهم على رؤوسهم . ولا سبيل الى الظفر بالحرية والحفاظ عليها اذا لم يثابر الناس على رياضة هذه النقائص الخلقية رياضة تخفض من حدتها وتطفىء من جذوتها

ان كثيرا من شعوب القارة الاوربية رغبوا عن المطالبة بالحرية والجهاد فى سبيلها ، وخلوا من الميل الى التفكير فى السياسة واحتمال مشاقها ، فأدى ذلك الى أن هيأت نفسها لان تسترق وتستذل للطغاة الاقوياء

أما فى انجلترا فان الديموقراطية اقتضت ثمنها كاملا ، وكان هذا الثمن حربا أهلية أثرناها على ملوك ستيوارت ، وثورة دامية ذهبت بكثير من الضحايا ، هذا الى دماء نفر كبير من رجال انجلترا العظماء . وكذلك كان الامر فى أمريكا حيث كلفت الشعب حربين : حرب الاستقلال التى حررت الوطن من ربقة الاستعمار ، والحرب الاهلية التى حررت الرقيق وحققت ضروبا من المساواة . ولم يكن ميلاد الديموقراطية فى الهند ومصر مجردا من المشاق والآلام التى عاناها الشعبان أمدا طويلا

ما هى هذه المبادىء والمنشئات الديموقراطية التى تمكن الشعوب - اذا ثابرت على اتخاذها وممارستها - من أن تحافظ على حرياتها ، والتى أزالتها النازية والفاشستية من القارة الاوربية نظرية اثر نظرية ونظاما بعد نظام ، والتى ما تزال تحيا فى رعاية البطل الذى تصدى يناضل عنها عداتها - وهذا البطل هو بريطانيا ومن يؤيدها من الاصدقاء والحلفاء ؟؟

انها تنحصر فى ثلاثة أمور : أولها النظام البرلمانى ، وثانيها حرية الكلام وحرية

الصحافة ، وثالثها حق المحاكمة أمام المحلفين ، وحق المرء فى أن يدافع عن نفسه أمام القضاء ، الذى يطبق عليه قانونا نزيها لا يفرق بين فرد وفرد ولا يميز طبقة من طبقة

النظام البرلمانى

يتهم الحكام المطلقون الحكومة البرلمانية بالضعف والتحيز والغفلة ، وبأنه ينقصها من قوة التنفيذ ما يمكنها من أن تقوم بالاصلاحات الخطيرة وان تنشط الى الاعمال الحاسمة . وكثيراما شبهوا هذه الحكومات البرلمانية بمساكن القردة حيث تشتد الحركة ويعلو الضجيج دون أن تقوم بعمل ما . يقال كذلك أن الحرب الشاملة الحديثة أثبتت ان الديكتاتورية وأساليبها التى تأبى الاسهاب فى البحث والمناقشة والاسراف فى التغيير والتبديل أدنى من الديموقراطية الى الفوز والانتصار . ألم يكن قناصل رومة فى العصر القديم يخضعون فى الظروف العادية لمناقشات « الجمعية الرومانية » وقراراتها، ولكن اذا شبت الحرب بينها وبين عدو لها ، أو تحرج أمر الحياة فيها، تحول هؤلاء القناصل «الديموقراطيون» الى حكام «ديكتاتوريين» لهم مطلق السلطان

ولكن الحقيقة القائمة ترد على ذلك ، وهى ان البرلمانات ما تزال تؤدى مهمتها فى بريطانيا وممتلكاتها وفى الاقطار المتحالفة كالهند ومصر ، وما تزال تضيف الى مجهودها الحربى كثيرا من عوامل التوجيه والتقويم والتأييد

بماذا تتميز وتختص الحكومة البرلمانية ؟ انها تمكن من تغيير الحكام تغييرا هادئا يسيرا ، بالوسائل السلمية المألوفة . وذلك على نقيض الديكتاتورية ، فانها تولد وتنهض وسط الدماء المراقة بقصد أن تحل مشكلة من المشكلات ، ولكن اذا ما انتهت هذه المشكلة لم يجد الشعب طريقا للخلاص من الديكتاتورية وسيئاتها .

ومن الذى يسعه ان يبين الى أين كان يتجه مجرى التاريخ لو ان نابليون اعتزل الحكم سنة ١٨٠٢ قبل أن يغدو امبراطورا ينظر نظرة الجشع شرقا وغربا ، أو لو أن موسولينى قضى نحبه سنة ١٩٣٣ قبل أن تتخذ الفاشستية سبيل الاستعمار والعدوان ، أو لو ان هتلر مات عقب اتفاق ميونيخ الذى أعلن أنه يقر الامور فى نصابها

وثمة سيئة ثانية من سيئات الديكتاتورية هى أنها تحمل فى طياتها عوامل فسادها واخفاقها ، فان رجالها الذين يبدأون حياتهم ساعين الى ما فيه مصلحة شعوبهم ، لا يلبثون — اذا تبينوا ألا رقيب عليهم ينقدهم أو يعاقبهم — أن يتغيروا شيئا فشيئا الى طغاة عتاة تسيرهم القسوة ويتحكم فيهم الشذوذ ، وذلك بفعل ما يخدعهم من مظاهر الملق والرياء وما يفتنهم من أسباب مالهم من السلطة المطلقة . فان من العسير على المرء ان يحتفظ باتزانه ويتمسك بفضائله اذا أحاطت به هذه العوامل الخادعة المضللة . أما فى الديموقراطية حيث تخضع الوزارات لصوت البرلمان ويخضع وزراؤها للسؤال والاستجواب ، فان ذوى المناصب الخطيرة فيها يظلون دائما ذاكرين مسئوليتهم قبل الشعب الذى أحلهم هذه المناصب

كما أن رجال الحكم فيها يظلون رهينة الرأى العام الذى يدنيهم تارة ويقصيهم أخرى ، سالكا فى ذلك الطريق الممهد المألوف الذى لا يقيم ثورة ولا يتطلب عنفا

كثيرا مايتحول رؤساء وزاراتنا زعماء للمعارضة، ثم يعودون ثانية الى القيام بأمر الحكومة وذلك كله فى هدوء واستقرار ، حتى اذا انتهت حياتهم السياسية لم يكن ثمة صعوبة فى اختيار من يخلفهم ، لان هذا الخلف يظهر من تلقاء نفسه فى قاعة البرلمان ذاتها . وهكذا تظل الشعوب الديموقراطية فى مثل هذه الظروف بمنأى من المضاربات والمؤامرات التى سيصادفها ويعانيها الالمان والايطاليون يوم ينتهى أمر هتلر وموسولينى

وللديموقراطية حسنة ثالثة هى أن البرلمان حين يسن تشريعا ويصدر قانونا يمثل جميع الآراء المختلفة ويعبر عن المصالح المتناقضة ، أو يتيح ـ على الاقل ـ لكل فريق أو لكل مصلح أن يبدى رأيه ويعبر عن حاجته ، ثم يأخذ بما يلائم رأى الغالبية ويوائم صالح الجماعة . ثم ان الديموقراطية تهيىء الجو بعد ذلك لان ينقد رجال السلطة التنفيذية فى الحكومة النقد العادل المنشىء، الذى يقوم ما يعوج من أمرها ويدلها على نواحى الانتاج والانشاء لتتجه اليها

حرية الكلام وعدالة القضاء

اختفت وزالت اليوم فى شعوب أوربا حرية الكلام التى مات فى سبيلها كثير من أبناء انجلترا، وما زال أعقابهم الى اليوم يقدرون فضلها حق التقدير . ولا يقيد هذه الحرية فى بريطانيا الا قانون القذف فى المسائل الخاصة ، وقانون الخيانة فى الشؤون العامة . فالمرء حر فى ان يتكلم عن الناس كيف شاء ما لم يصبهم من جراء كلامه الضر والاذى، وفى ان يتحدث عن الدولة وقوانينها ونظمها كيفما أراد ما دام لا يعرضها لخطر الاعداء

وتقترن حرية الصحافة بحرية الكلام، فانها الاداة التى تمكن الفرد من أن يعلن آراءه على ملأ أكبر عددا ، وأن يبسطها فى دائرة أوسع مدى

وكذلك الامر فى الاذاعة اللاسلكية ، فما تزال الشعوب الديموقراطية تظفر بالحرية فى أمرها ، اذا تبينا ان الرقابة لم تفرض عليها بقصد الحذف والاضافة والتحوير فيما تذيعه من الانباء والآراء ، وان فى وسع كل منا ان يسمع من أخبارها غير المنقحة مايقنعه بحريتها . ولكن اذا كان من اللازم ان يحدد عدد الذين يسمح لهم بالاذاعة اللاسلكية ، الا أن هذا العدد القليل يختار بدقة وحرص ليكون ممثلا لجميع الاحزاب معبرا عن جميع وجوه الآراء . وعلينا بعد هذا ان نقدر ان هذا الاختراع العظيم وما يرجى له يوما فيوما من التقدم والاتساع ، اما ان يكون أداة لبث الدعاية الرسمية والحكومية وحدها كما هو الشأن فى الدول الديكتاتورية ، واما ان يكون مرادا فسيحا تجد السلطات فيه متسعا لنشر الانباء الصادقة السليمة واذاعة الآراء الكاملة الحرة التى تعبر عن اتجاه جميع الاحزاب، ما أيد منها الحكومة وما عاداها ، كما هو الامر فى الشعوب التى تنعم بالديموقراطية

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

أما الخصيصة الثالثة من خصائص الديموقراطية فهى انتى تمنح كل فرد حق المحاكمة العادلة ، وذلك بأن يباح له ان يدافع عن نفسه كيف شاء ، ليسمع دفاعه اثنا عشر محلفا من مواطنيه ، وليقضى فى أمره قاض من غير رجال السياسة والحكم ، بل قاض تنحصر مهمته فى أن يجرى العدالة مجراها وان يتصرف بوصفه حارسا للقانون منفذا نصوصه ، التى يتساوى فى الخضوع لها أعلى وأدنى فرد فى البلاد

النظام البرلمانى ، وحرية الصحافة ، والمحاكمة العادلة - هذه هى الاعمدة الثلاثة التى يقوم عليها بناء الديموقراطية البريطانية • وقد قامت هذه العمد ورسخت قواعدها فى جزيرتنا فى وقت كانت أقل شأنا وأضأل قوة مما هى الآن ، ولكنها استطاعت ان تثبت وتقوى لا لاننا أهل قوة عظيمة فائقة ، بل بفضل وجودنا وسط جزيرة يحميها البحر من كل جانب ، فأعفانا هذا من المشاكل السياسية والحربية التى لا تخلص منها القارة الاوربية عهدا ما • على أن بريطانيا لم تستطع ان تعزل نفسها عزلا تاما من مشاكل القارة ، بل اضطرت خمس مرات فى تاريخها انتخوض غمار الحرب دفاعا عن وجودها وعن حريتها فناضلت أعظم الطغاة الذين هددوا باجتياح أوربا

خمس حروب دفاعا عن الديمقراطية

كانت أولى هذه الحروب التى خاضتها انجلترا ضد طغاة أوربا عند ما استطاع فيلب الثانى ملك اسبانيا أن يبسط سلطانه ممتدا من أقصى الغرب حيث الاراضى التى اكتشفت حينذاك فى أمريكا الى أقصى الشرق حيث تقع المانيا والاراضى الواطئة ، وعند ما استطاع أن يقهر فرنسا ويذيلها متأهبا لغزو انجلترا والسيطرة عليها • فسير اليها أسطوله العظيم « الارمادا » يريد أن يهبط الى أرض انجلترا ، لولا أن دريك وهوكنز وغيرهما من بحارة الملكة الياصابات يؤيدهم البحر المائج الغدار ، تألبوا على الاسطول الغازى فما تركوه الا حطاما مبعثرا فى جوف المحيط وعلى سطح الماء • وبذلك تحطمت قوة فيلب وأخذت اسبانيا منذ ذلك تنزل يوما بعد يوم عن مكانتها فى صدر الدول الى حيث هى الآن

ثم جاء دور فرنسا فى الاخلال بتوازن القوى فى أوربا حين كادت جيوش لويس الرابع عشر ان تتوفق الى ما أخفقت فيه اسبانيا ، ولكن بريطانيا العظمى أخذت تجرد عليها حملة فى أثر حملة حتى تمكن دوق مالبرو - جد مستر تشرشل - من أن يقهر الجيوش الفرنسية فى سلسلة من المعارك ، وان يحرر أوربا مما كانت تهددها به فرنسا

ثم عادت فرنسا تحت حكم نابليون بونابرت فأخضعت أكثر أوربا لسلطانها ، فعادت بريطانيا تحت زعامة وليم بت تقاومها وتناضلها ، بما تنشئه ضدها من حلف يتبعه حلف ، وبما يفرضه أسطولها على القارة من حصار كهذا الذى يضربه الآن ، حتى يئس نابليون من تنفيذ خطته بشأن غزو جزيرتنا ، فصرف جيوشه مكرها عن هدفه الاساسى ، وألقى

ARCHIVE http://ArchiveBeta.Sakhrit.com

بها فى حملة عقيمة مهلكة فى شعاب روسيا ، فأدى ذلك فى النهاية الى هزيمة جيوشه ووقوعه أسيرا فى يد انجلترا

وخلفت ألمانيا فرنسا • فأرادت الامبراطورية الالمانية التى أنشأها ووحدها بسمارك بسياسة الدم والحديد ، والتى استطاعت ان تخضع الدنمرك والنمسا وفرنسا سنة ١٨٧٠ ـ أرادت فى سنة ١٩١٤ ان تخطو الخطوة الاولى فى سبيل سيادتها على العالم سيادة غير قائمة على مالها من النظام البرلمانى أو المبادىء الحرة ، بل مبنية فحسب على قوة الاداة الحربية الالمانية • ولكن بريطانيا قامت مرة أخرى تقاومها وتحاربها ، مستعينة فى هذه المرة بالعالم الجديد وما تستطيع أمريكا أن ترسله من جند وسلاح،حتى وفقت آخر الامر الى نصرة الديموقراطية وتعزيزها

وأخيرا يأتى شهر يونيو من سنة ١٩٤٠ حين تذل فرنسا كسيرة تحت أقدام الالمان ، فتلقى بريطانيا نفسها ـ للمرة الخامسة ـ بطل الميدان ، ولكنه فى هذه المرة البطل المفرد الذى ألقى عليه وحده عبء الدفاع الحربى عن الديموقراطية تجاه عدوها السابق الذى بلغ من الخبث والقسوة ، ومن القوة والطغيان ، مبلغا لم يشهده العالم من قبل

مصر : بين التضحية والطغيان

اذا استثنينا ما يصيب مصر من الغارات الجوية العارضة ، فانا نجد رحى الحرب تدور بعيدة منها بفضل هذا الجيش القوى الرابض على تخومها الغربية،بل لانكاد نجدللحرب أثرا فى الحياة المصرية العامة اذا أغفلنا ما مس الاسعار من غلاء يسير وما اختفى من القاهرة من بعض الكماليات • وما تعد هذه البسائط شيئا الى جانب ما تقتضيه الديموقراطية من تضحيات • وما تزال مصر حديثة العهد بالديموقراطية ، فربما غفل الناس فيها أحيانا عما تقتضيهم هذه الديموقراطية من الوقت المبذول ، ومن الدم المراق ، ومن الدموع المسفوحة ، ومن النشاط والصبر والاحتمال ، وما اليها من التضحيات التى لا غنى عنها اذا أرادت مصر ان تنشىء نظاما برلمانيا وديموقراطيا سليما منتجا ، كهذا النظام الذى أمضت انجلترا مئات من السنين حتى أقامته،وخاضت عددا من الحروب حتى أمنته الاخطار وثبتته بالدعائم

على ان أنباء ما يجرى اليوم فى أوربا من آثام وشرور بدأت تتخذ طريقها الى الصحف المصرية شيئا فشيئا ، فأخذت الجمهرة المتعلمة والمثقفة تتبين أى الامرين أشد وأدهى وأيهما أولى بالاختيار والايثار ، التضحية فى سبيل الحرية أم قبول العسف والطغيان • وقد اختارت هذه الجمهرة طريقها فأصابت الاختيار ، ذلك أنها تحققت ان القاء أمرها بين يدى الديموقراطيات هو السبيل الوحيد الى ما تنشده من النهضة القومية والبعث الوطنى،والى ما ترجوه لشعبها من نظام ديموقراطى يحقق ما تطمح اليه من عدالة واخاء

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حرية الصحافة روح الديمقراطية

« الصحافى الانجليزى الكبير ويكهام ستيد »

أولى الحريات وأخطرها وأجداها حرية المرء فى أن يعرف ، وأن يتكلم ، وأن ينتقد. وهذه هى حرية الصحافة التى ما تزال أهم وسيلة يعرف بها الشعب فكرة ما عمايجرى من الامور ، فما تزال اذن الاداة الاولى لتكوين الرأى العام ، ثم لتمكينه من ابداءمايرى من الانتقاد

ولكن هذه الحرية لم تلق فى التاريخ الحديث ما تلقى اليوم من انكار وتضييق فى الشعوب التى تقوم فيها النظم الديكتاتورية - تبريرا لذلك - بدعوى أن نصيبها من الكفاءة السياسية والاجتماعية أوفى من قسط الديموقراطية التى تطلق الصحافة حرة فى نقدها ومقاومتها

فما مدى الصدق فى هذه الدعوى التى تقوم على أساس ان الديكتاتورية بلغت من الرشد والكفاية الى حيث لا يعوزها ما تفتقر اليه الديموقراطية من نصيحة الرأى العام وارشاده؟ ان عمر الديكتاتورية ما يزال قصيرا ، فلم يئن الوقت الذى يعرف فيه مصيرها ومآلها مالم يمض عليها عقد أو عقدان من السنين ، وهذا على نقيض الديموقراطية التى أثبتت كثيرا من ضروب النجاح خلال مامرت به من الاجيال فى عدد من الشعوب. واذن فعلينا أن نقرر ان الكفاية المدعاة للديكتاتورية ، والتهمة الموجهة للديموقراطية ، ما زالتا الى اليوم افتراضين ينقصهما تأييد الوقائع ، فلنتريث حتى يأتى المستقبل بحكمه الفاصل بينهما

اذن ، لماذا تطلق الديموقراطية حرية الصحافة ، بينما تضرب الديكتاتورية عليها بالاصفاد؟

ذلك ان المثل الاعلى فى الديكتاتورية هو ذات الطريقة التى تمارسها ، أى حكومة يديرها فرد أفضل وأقوى من جميع الافراد ، توضع فى يده كل موارد الدولة وقواها ، بما فيها الصحافة فتنتفى فورا فكرة الصحافة الحرة التى تستطيع - متى رأت وأرادت - ان تنتقد الحكومة بما يقومها أو يقاومها

أما الديموقراطية فمثلها الاعلى ان تدع للافراد من الحقوق والحريات ما يتخذونه وسيلة يخدمون بها المصلحة ، ولا سبيل الى ذلك اذا منعت عنهم الانباء والآراء المتعلقة بهذا الصالح العام أو قدمت اليهم محرفة مشوهة لكى توافق سياسة الحكام وتيسر مآربهم

الديكتاتورية تقيم الثورات

عند ما يحرم الشعب من الانباء والآراء الصحيحة النزيهة التى يقيم عليها تأييده ومعارضته للحكومة القائمة بالامر فيه ، فان ذلك يؤدى الى تهيئة الجو الفاسد الذى تنمو

فيه جرائيم الرشوة والفوضى والطغيان ، وما الى ذلك من عيوب الحكم التى تتعرض لهـا النظم الديكتاتورية بعد قيامها بوقت قلما يطول • وتظل هذه السيئات تزكو وتنمو ما بقيت بمنأى من رقابة الرأى العام ، حتى اذا ضاق بها صبر الشعب ذرعا وأراد الخلاص منها، لم يجد الا ذلك الطريق الممهد المألوف ، وهو طريق الصحافة الذى يتخذه الشعب فى النظام الديموقراطى ، بل اضطر الى ان يتآمر بحكومته ويتألب عليها ، أى لا سبيل الى الخلاص من الديكتاتور الا بالثورة وما تؤدى اليه من الكوارث الاجتماعية ومن الازمات العامة

أما الصحافة الحرة التى تؤدى واجب النقد والتقويم والمعارضـة أول فأول ، والتى تعرف مسئوليتها الخطيرة فى تجنيب الشعب ما يستهدف له من الاخطار والازمات والخطوب ، فانها تؤمن الدولة ضد الثورات الجامحة الخطيرة التى تزلزل بناءها وتعصف بقوتها وتذهب بأمن جيل منها أو أجيال !

ولكن الصحافة تنفذ الى ساحة الحكم وساحة السياسة بعد أن كانت فيما مضى فى حرز تحرسه رقابة الحكومة وترعاه • واذن فقد اتجهت الحكومات الى ادارة الصحافة أو التأثير فيها ، اما بما تفرضه عليها من الرقابة المباشرة ، واما بما تلقيه عليها من الاعباء المالية وتقيم فى وجهها من الحدود القانونية • غير ان الصحفيين المسئولين فى البلاد التى أبيحت فيهـا حرية الصحافة ، يشعرون بأن عليهم ان يؤدوا واجب الدقة والحذر فيما يجمعونه ويذيعونه من الانباء وفيما يكتبونه تعليقا عليها من الآراء • أى أنهم يقيمون من أنفسهم رقابة ضمنية تشرف على أقلامهـم وصحفهم • ذلك أنهم يشعرون بأنه اذا كان من حق الجمـاعات الديموقراطية ان تعرف فى وقت السلم كل ما يتعلق بشؤونها العامة فان على الذين يتولون تعليمها واخبارها أن يؤدوا عملهم على الصورة التى تسدد خطى الرأى العام وتجنبـه عوامل الزيغ والانحراف

فحرية الصحافة ــ أى انتفاء رقابة الحكومة وقيودها على نشر الاخبار والتعليـق على الانباء ــ ان هى الا ذريعة لحماية المصلحة العامة ، ذلك انها تعنى ان يقلب كل نبأ وكل رأى على جميع الوجوه ، وان يسمع عنهما شتى ما يقال ، وذلك قبل ان تقرر الجماعة رأيهـا وتقضى بكلمتها • أما فى وقت الطوارىء والازمات والحروب فلا غنى عن رقابة رسمية تفرض على الصحافة دون تعنت واسراف ، لئلا تتسرب اليها من الانباء الكاذبة أو المسرفة أو المشوهة ما يثير الخوف والفزع ويعرض المصلحة العامة للخطر والاذى • والنتيجة التى تتبـع هـذه المقدمة هى ان الحرية التى تباح للصحافة يجب ان تحدد وفق الصالح العام للجماعة كلها ، ولا يمكن ان تقدر بما يمكن مصالح الصحف أو مآرب أصحابهـا من سعى الى المال أو الشهرة أو السلطان

غير ان الآراء تختلف فى مدى ما يصح ان تعرفه الجماعة من الاخبار والافكار اذا كنا نريد خيرها ، فيجب اذن ان تستفيد الصحافة من هذا الاختلاف بأن يباح لها أكبر قسط من الحرية ، لان الاكثار والتوسع فى الحرية أفضل على أى حال من الاقلال والتضييق •

ARCHIVE http://Archive.Sakhrit.com

وقد أثبتت التجربة ان سيئات الحرية التى تأتى بها صحف غير مسئولة يمكن ازالتها وتلافيها اذا قدرنا ان الصحف التى تقدر مسئوليتها لن يفوتها ان تفند وتسفه ما تنشره الصحف الاولى، مما يبرر حرية الصحافة ويعززها اذ تتلافى بنفسها اخطاءها ومثالبها

صحافون وصحافيون (١)

مسألة المسئولية الصحافية هذه تثير مسألة أخرى هى الظروف التى يظهر فيها الصحافيون والشروط التى يمارسون عملهم وفقها. فمن هم ، وما هم ، هؤلاء الصحافيون؟

بذلت ، وما تزال تبذل ، جهود كثيرة لتدريب الصحافيين على ممارسة عملهم وانشئت لذلك « مدارس الصحافة » القائمة ، وبرغم ذلك فالواقع ان الصحافيين ــ بوجه عام ــ ليسوا هم الذين يجتازون الامتحانات الرسمية ويظفرن بالشهادات المقررة ، اذ ليس ثمة نظام يتخرجون وفق قواعده وشروطه . فان الاخبار التى يجمعونها والآراء التى يكتبونها تعليقا على هذه الانباء ، تباع للجمهور فى سوق تسوده المنافسة . ولكن الاعمال

(١) نتأثر فى اتخاذ هذين اللفظين أو اللقبين الدكتور محمود عزمى اذ يقترح فيما يلقيه الآن من المحاضرات بمعهد الصحافة بكلية الآداب عن « مبادىء الصحافة » أن نبتكر اسما يطلق على كل فئة من الفئات التى تمارس الصحافة . وقد ابتدأ الاستاذ عملية الاجتهاد اللغوى هذا بثلاثة اسماء رأى أن يطلقها على الفئات الثلاث التى تشترك فى العملية الصحفية وتحترف واقعا المهنة الصحافية . وهى فئة ملاك الصحيفة ، وفئة الصانعين التابعين للصحيفة ، وفئة المساهمين غير الملحقين بهذه الصحيفة فقال :

(يصح ان تعبر عن مالك الصحيفة Owner بلفظ صاحف على وزن تاجر وعن العامل فى صناعة الصحيفة Newspaperman بلفظ صحاف على وزن نجار وفلاح وفيه معنى الاكثار والاستمرار . وعن المساهم فى تحرير الصحيفة من الخارج Contributor بلفظ مصاحف . اما لفظ صحافى فيقصر ــ حسب قانون نقابة الصحافيين ــ على اعضاء النقابة وحدهم . فاذا توافر فى اعضاء الفئات الثلاث السابقة صفة اشتراكهم فى عضوية النقابة فهم على التوالى صحافيون صاحفون ، وصحافيون صحافون ، وصحافيون مصاحفون . والا فهم صاحفون غير صحافيين ، وصحافون غير صحافيين ، ومصاحفون غير صحافيين . . على أن هناك الى جانب هذه الفئات الثلاث فئة من الموهوبين الممتازين الذين لا يدفع بهم الى الاشتغال فى الصحافة ،واحد من دوافع هذا الوجود العادية التى يتسابق أصحابها الى كسب المال أو الجاه أو مجرد العمل للابتعاد عن مضار البطالة التى تهددهم اذا هم اتجهوا الى ميدان عمل آخر ، بل يدفع بهم دافع الملكات الملهمة والبذل فى سبيل الشىء العام لانهم يحسون فى أنفسهم رسالة يجب ان يؤدوها مهما تكلف ، أولئك القادة المتواضعون المغموطون الذين يحترقون ليضيئوا غيرهم ، أولئك الرسل الذين ولدوا بمواهبهم صحافيين مطبوعين يجب ان يتميزوا باسم لا يشاركهم فيه من لم يختص بهذه المواهب من سائر الصحاف والصحافيين ، الصحفيين منهم وغير الصحافيين ، ويجب ان يشتق اسمهم من أسمى مواد القرطاس والحكمة والقيادة والبذل مجتمعة ، وهى فى نظرنا مادة الصحافة بمعنى الرسالة الاجتماعية السامية ومن أجل هذا نذهب الى تسميتهم بالصحافيين ، وقد سماهم قبلنا ويكهام ستيد Journalists Proper بالمقابلة مع Newspapermen الذين سميناهم صحافيين)

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

التى يقومون بأمرها تخول لهم مكانا اجتماعيا عاليا يرتفع بهم فوق اولئك الذين ينحصر عملهم وهمهم فى استرعاء أعين الناس وآذانهم بما يأتون من حركات ويصدرون من أصوات

فمن أين جاء للصحافيين هذا الامتياز ؟ انه جاء من ان جمهرة الناس تعترف ـ اعترافا غريزيا ـ بأن الصحافة بمعناها الصحيح لها طابع الرسالة وطبيعتها • فهى اسمى مكانا من أن تكون مجرد حرفة ، وهى أهم شأنا من ان تكون محض صناعة ، بل هى شىء يتراوح بين الانتاج الفنى والغرض الدينى • والصحافيون هم خدام الجمهور وان لم يكونوا من رجال الحكومة ، وليس لهم من مأرب الا ان يبذلوا للمجتمع جهدهم ويختصوه بخدمتهم• ومثل هؤلاء الصحافيين يولدون ولا يصنعون • قد يفتقرون الى التدريب ، ولكن ما من تمرين مهما طال ، وما من تجربة مهما عظمت يمكن ان تجديهم نفعا اذا لم يتوافر فيهم الاستعداد الفطرى

الصحافة والدولة

أول واجب على الصحافة أن تتجه لجمهرة الشعب ، لا لمن يتولون الامر • فأما ان أخذت تفكر وتعمل نقيض ذلك ، فولت وجهها الى أصحاب القوة وأدبرت عن العامة والكثرة ، فقد قضت على نفسها بأن تنحدر من مكانتها السامية حيث الحرية والكرامة الى هوة تسترقها وتستذلها الديكتاتورية فيها

ذلك ان حياة الصحافة ومصيرها رهن بما بين الحرية والبغى من فوارق فى الحياة السياسية • وقد ألقى اليوم بالصحافة فى هذا التيه الذى يفصل بين الحرية الفردية التى تتاح للافراد فى الجماعات الديموقراطية فتمكنهم من ان ينظروا الى « الدولة » على انها مجرد مجموعة من الوظائف التنفيذية وكلوا أمرها الى الوزراء والادارات ، وبين الفكرة الفاشستية أو النازية التى تجعل من الدولة « أمرا مطلقا » عليه مسحة من القداسة ، فيجب ان تطلب لذاتها لا لما تؤديه من وظيفة ، ويجب ان تخضع لها الجماعة وكل فرد فيها خضوعا لا يقبل نقاشا ولا سؤالا • ويوم ان تقبل هذه الفكرة الديكتاتورية هو اليوم الذى يقضى فيه على الصحافة بالرق والمذلة

اما ان أرادت الصحافة ان تأمن على حريتها ومكانتها فأمامها طريق مفرد لا عوج فيه، هو أن تنبذ هذه الفكرة الديكتاتورية دون تردد أو ارتياب ، وعليها ان تثبت كذلك ان الجماعات الحرة التى تثقفها وترشدها الصحافة الجريئة النزيهة هى أعظم الجماعات شأنا وأعلاها مكانا ، ذلك أنها تمتاز بنصيب من الكفاية والمرونة لا يمكن ان تظفر به الجماعات التى تحكمها قوات ديكتاتورية مطلقة غشوم

هذه هى الصحافة الالمانية لم تعد سوى اداة فى يد الحكومة ، تؤدى الدور الذى كلفت بأدائه على مرسح النظام النازى • فعلى الذين يعنيهم أمر الصحافة الحرة ، كمظهر من مظاهر

الحرية السياسية ، ان يدركوا كيف تؤدى الصحافة الالمانية وظيفتها ، واية علاقة تربطها بنظرية الديكتاتورية وسياستها

يقول كاتب ألمانى اسمه والدكريش فى كتابه عن « المهمة السياسية للصحافة » ان هذه المهمة لاتدرك ولا تؤدى الا من خلال اعتراف الصحافة بنظرية الزعامة من الدولة اعترافا لا تحده اية قيود أو شروط ، ثم من خلال العمل على تهيئة الجو وافساح المدى لارادة الزعيم ومشروعات الدولة كى تنمو وتنتشر وتؤتى نتائجها . ثم يذكر الكاتب ان من حسن الحظ ان أمحت من الحياة العامة فى المانيا شتى ضروب الخلاف فى أمر الاغراض السياسية وبذلك زالت الصحافة التى تسعى الى الغايات الحزبية دون ان تعنى بصميم الصالح العام لجمهرة الشعب الالمانى . فلا يمكن الآن لاية صحيفة ان تتخذ فى أى أمر عام سياسة خاصة بها أو تعبر عن اراء أو نظريات تضعف أو تنال من الزعامة القائمة بأمر الدولة . فقد قبضت الحكومة بيديها الحازمتين على زمام هذه الزعامة . فصار على الصحف ان تدرك هذه الغايات السامية وان تؤيدها بكل وسيلة ممكنة

ويؤيد الكاتب أقواله هذه بكلمات كثيرة يقتبسها من هتلر وجوبيلز . فالاول يقول : ان الصحيفة هى الوسيلة التى يتعلم بها الشعب من تلقاء نفسه أفكار الزعيم الذى يرأس الدولة . والثانى يقول : ان الكتابة امتياز يقابله واجب خدمة الدولة . وخلاصة هذا الكلام ان فكرة حرية الصحافة — بل فكرة الحرية الفردية ذاتها — قد أبعدت تماما من الحياة السياسية الالمانية ، ولم تعد الصحافة الالمانية وسيلة للتعبير عن الرأى العام اذ أن مهمتها ألا تلقى الى الشعب الا ما يقرر الزعيم ان على الشعب ان يفكر فيه ويؤمن بصحته

وكذلك الامر فى ايطاليا حيث أخضعت الصحافة لضروب من النظام والتنظيم أنزلتها منزلة الهوان ، بعد أن كانت صحفها الكبرى قبل ان تمتد اليها يد الفاشستية بالاذى والعدوان تقارن بأحسن ما فى أوربا من الصحف المهمة ، فضلا عما كانت تبز فيه سائر الصحف من البراعة والحرارة والحياة فى العبارة والاسلوب . أما اليوم فقد فرض على الصحفيين أن ينتظموا فى سلك نقابات وجماعات حكومية ، ولا يباح لهم ان يمارسوا عملهم ان لم تكن أسماؤهم مقيدة فى السجل الرسمى الذى يشهد لهم بأنهم من أشد الناس ايمانا بالفاشستية وانتصارا لقضيتها . وثمة أوامر رسمية تنتظم أعمالهم ودرجاتهم اذ هم بمثابة موظفين ملحقين بالحزب الوحيد الذى يحكم الدولة أى الحزب الفاشستى

كذلك ألقى على الصحفيين الايطاليين من الدروس القاسية ما علمهم معنى الخضوع والاذعان . فقد رأوا أنبل رجالهم سيرة وأرشدهم خلقا يضربون بعصا الفاشستية حتى يقضوا نحبهم معذبين شهداء ، أو يزج بهم فى السجون حيث ينسوا فى مغبتها السنين الطوال أو يساقوا الى المعاقل ليذيقوا فيها ألوانا من العذاب والنكال ، أو يوضعون على الاقل تحت رقابة البوليس وعيونه . على ان منهم من استطاع ان يلوذ بالفرار من ايطاليا ، ولكن السفاحين الفاشست تعقبوه فأغمدوا فيه مديهم فأزهقوا روحه اثما ونكرا !

تصدر ايطاليا فى كل عام سفرا كبيرا اسمه « الكتاب السنوى للصحافة الايطالية . وقد جاءفيه : « ان الصحافة الفاشستية بعثت شباب الشعب الايطالى بما وضعته أمام عينيه من حقائق ذات قيمة تاريخية كبرى عنيت باختيارها وبتقديمها . بعد ان كانت الصحافة القديمة لا تقدم لهسوى أخبار مضطربة مشوهة لا خير فيها ولا قصد لها . اى أن النظام الفاشستى أحل الصحافة مكانا عاليا اذ وضعها فى مقدمة الصفوف وقرر لها أن تتولى توجيه الشعب توجيها مخلصا نزيها . واذن فما تطلبه الفاشستية الى صحفها من الطاعة لفكرة الدولة ليس الا من قبيل طاعة الجندى لقائده فى ساحة القتال »

وقد حددت فكرة الدولة هذه بما جاء فى « كتاب وأقوال بنيتو موسولينى » اذ قال : « ان خلاصة المبدأ الفاشستى هى ادراك معنى الدولة ، ما تنطوى عليه من جوهر وروح، وماتؤديه من عمل ووظيفة ، وما تسعى اليه من هدف وغاية . والدولة الفاشستية « أمر مطلق » أما الافراد والجماعات « فأمور نسبية » ، واذا فلا يجوز لهؤلاء الافراد والجماعات ان يفكروا الا اذا كانوا فى نطاق الدولة . والدولة المتحررة لا تتولى شؤون المجتمع المادية والمعنوية، بل تكتفى بتسجيل نتائج ما يقوم به هذا المجتمع من الاعمال، أما الدولة الفاشستية فتدرك ــ على طريقتها الخاصة ــ كل هذه الامور وتملى على المجتمع ارادتها ليتناول أعماله ويسير فى حياته وفق ما ترى »

هذا رأى موسولينى فى الدولة التى يريد الصحافة معبرة عن سياستها ساعية الى أهدافها ولا سبيل الى ان تؤدى الصحافة هذه الوظيفة الا اذا نزلت عن حريتها التى كثيرا ماتؤدى بها الى نقد الدولة ومناوأتها . وهكذا جردت الصحافة الفاشستية فى ايطاليا وألمانيا على السواء من حريتها ، وغدت أدوات فى آلة الدولة الكبرى ، مهمتها الدعاية لآراء الزعيم ومآربه والتستر على اخطائه ونقائصه ، خاضعة لارادة هذا الزعيم ومن حوله من الرجال والسلطات بما فيها سلطة البوليس السرى

من الاقوال الشائعة : ان لكل شعب الصحافة التى يستحقها ، وكيفما تكونوا تكن صحافتكم .والفارق بين الديكتاتورية والديموقراطية يتمثل فى الصحافة ، فهذه تطلق حريتها من كل قيد واسار لتنقد الدولة والمجتمع وتقاومهما كيف تشاء ، ما دام لايؤدى بها النقد والمعارضة الى حد خيانة الدولة أو حد القذف فى الافراد . وتلك تفرض قيودها وأغلالها على الصحافة والصحفيين ، لتتخذ منهم أدوات طيعة يدعون لها ويدافعون عنها ، ويبررون أخطاءها ويتسترون على سيئاتها ، ويضللون لها المشاعر ويفتنون لها العقول . ويوم تفقد الصحافة حريتها كما فقدتها فى الدول الديكتاتورية هو اليوم الذى يجب ان تجرد فيه من اسم الصحافة ذاتها ، فانما هو اسم حر كريم لا يحيا الاحيث تحيا الحرية والكرامة

ع . ع .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حرب الباسيفيكي وتأثيرها في الشرق

بقلم الاستاذ عباس محمود العقاد

النصر للديمقراطية لا محالة. ومعنى انتصار الديمقراطية أن معركة الباسفيكي ستنجلي عن استقلال الأقطار الشرقية التي على شواطئه، أو التي تقاربها وتدخل جملة واحدة في عنوان الشرق الاقصى

شاع قبل الحرب العظمى بنحو سنتين أن الحكومة السورية تبني ضريحا لحكيم المعرة ابي العلاء وتستعد للاحتفال به في ذكراه الالفية

فخطر لنا يومئذ أن نستحضر روح المعري قبل هذا الاحتفال لتطوف أرجاء العالم الارضي كرة أخرى وتسمعنا في مسائلنا العالمية مثل ما اسمعتنا في مسائل العالم على عهدها اذ كانت على الارض في رحلتها الدنيوية الاولى

وعرجنا بالحكيم على الصين فيما طاف به من بلدان المشرق والمغرب فسأله السائل عن مصيرها مع جارتها الباغية عليها فقال :

« .. ان نقصت مساحات أرضها فقد تزيد قوة نفوسها ، وان تقاربت مسافاتها واطرافها فقد تتقارب علاقات سكانها وأواصر ابنائها ، وان غلبوها بالسلاح فقد تغلبهم بالكثرة ، وان طال الزمن على رجائها فما هو بأطول من أزمانها في القنوط والجمود .. هي ناجحة فيما أرجوه ويرجوه لها المنصفون »

ذلك ما كتبناه عن مصير حرب الصين واليابان في فصولنا عن « رجعة ابي العلاء » قبل نشوب الحرب العالمية الحاضرة بسنة

وذلك ما نعتقده الآن ونزداد اعتقادا به بعد اشتراك اليابان والولايات المتحدة في هذه الحرب ، وبعد ان أصبح واضحا ما تبغيه اليابان أو ما يبغيه كل من الفريقين المتقاتلين

فتأثير « حرب الباسيفيكي » في الشرق يتوقف على معرفة الفريق المنتصر فيها : أهو الفريق الذي ينادي بالسيف وينكر حقوق الشعوب ويعلن انه خارج في هذه الحرب للاستغلال والسيادة ، أو هو الفريق الذي يدعو الى حقوق الشعوب ويؤمن بها ان لم يكن

باختياره وهواه فيما تفرضه عليه أحواله وما تمليه عليه مقتضيات الامور ؟

ان الحرب تكسب بموارد الرجال وموارد الطبيعة والسيطرة على المواصلات والاسواق . فضلا عن القوة الادبية أو القوة التى تجارى تقدم العالم فى مجراه

وما من أحد يرى الدولة البريطانية والولايات المتحدة والامريكتين والامم الديمقراطية ومعها الروسيا والصين الى جانب واحد فى الحرب الحاضرة ثم يرى انها دون خصومها فى عوامل النصر التى أجملناها

فالنصر للديمقراطية لا محالة

ومعنى انتصار الديمقراطية ان معركة الباسيفيكى ستنجلى عن استقلال الاقطار الشرقية التى على شواطئه أو التى تقاربها وتدخل جملة واحدة فى عنوان الشرق الاقصى

ويؤيد هذا الاستقلال ان الدول الديمقراطية الكبرى لا مصلحة لها فى الغاء سيادة الصين وما جاورها من الاقطار الشرقية ، وان فرضنا جدلا ان منها من يضمر هذه النية فالاتفاق بينها على تنفيذها متعذر غاية التعذر ، وكل ما فى وسعها ان تتفق عليه هو سياسة الباب المفتوح فى التجارة وتثمير الموارد الطبيعية ، وهى سياسة لا تناقض الاستقلال . بل لعلها تجعل من الدول المتساوية فى المصالح شركاء فى السهر على ذلك الاستقلال

وقد كانت لروسيا الحمراء سياسة صينية ترمى الى نشر المذهب الشيوعى فى الصين . ثم فشلت هذه السياسة وعدل الزعماء الروسيون عن اتباعها ، وربما عدلوا عنها بتة بعد الحرب الحاضرة للتعاون بين الامم الظافرة جميعا على تأسيس نظام جديد يقوم على المودة والمؤازرة ولا يقوم على العداء والمكيدة

فانتصار الديمقراطية فى معركة الباسيفيكى هو انتصار للحرية والاستقلال وسياسة التعاون فى الشرق الاقصى

وهو كذلك انتصار للحرية والاستقلال وسياسة التعاون فى الشرق الادنى ، ونريد به الشرق من جانب الهند الى جانبنا نحن فى افريقيا الشمالية وما يليها

لان دول المحور قد اتفقت على تقسيم العالم فيما بينها للاستلاب والغنيمة

فقرر هتلر وصاحبه موسولينى ان ينشئا فى أوربا ما يسميانه بالنظام الاوربى الجديد

وقررت اليابان ان تنشىء لها هى الاخرى نظاما جديدا فى آسيا الشرقية

وكان اعلان هذا الاتفاق والالمان لا يزالون على وفاق ظاهر بينهم وبين الدولة الروسية فلم يكن فى وسعهم ان يمدوا التقسيم الى بلاد روسيا نفسها ولا الى بلاد الشرق التى تجاورها ، لان الوصول الى هذه البلاد لا يتأتى الا اذا داست دول المحور أرض روسيا دوس الفاتح الذى قضى على جيشها وحكومتها ومقاومة شعبها آخر قضاء

فلما انكشفت نية الغدر وهجم النازيون على الارض الروسية تبين من وراء ذلك ما يريدونه للبلاد الشرقية التى تجاور روسيا من الشرق أو من الجنوب ، وتبين ان هذه

البلاد المسكوت عنها من قبل داخلة في اتفاق التقسيم مع أوربا وآسيا الشرقية وسائر اقطار العالم في الحقيقة

فاذا حبطت سياسة التقسيم وسياسة السيف والنار فالذى ينتصر لا محالة هو سياسة الحرية والتفاهم بين الشعوب قويها وضعيفها ، ولا سيما اذا كان اذلال تلك الشعوب من غير المستطاع ومن غير المفيد ومن غير المرغوب فيه

قلنا في فصل نشره الهلال قبل شهور ان الحرب الحاضرة ستحيى الطرق الكبرى التى قامت عليها الدول الضخام فى آسيا الوسطى وآسيا الغربية . لانها لازمة لضمان المواصلات وابلاغ الامداد والازواد الى وجهاتها فى وقت أوجز من الوقت الذى تقضيه السفن فى البحار

وتحقق ما رجوناه عند ما دعت الحاجة الى امداد روسيا من طريقى الهند وايران

وسيتحقق هذا على نحو أشمل وأقوم عند ما تشتد الحاجة الى تنظيم المواصلات بين الصين وروسيا والدول الديمقراطية ، وذلك ما تتكفل به حرب الباسيفيكى الآن بعض التكفل ، ويوشك ان تتكفل به أجمع يوم تنقلب الحرب الى اطوارها التى لا بد أن تنقلب اليها

وكلما اتسعت طرق المواصلات وتشعبت فى داخل القارات وعلى شواطئها أصبحت سيطرة الدول القوية عليها بسلطان السيف والرهبة من المستحيلات أو كالمستحيلات ، وأصبح الاعتراف بحقوق الامم الصغيرة التى تتخللها المواصلات أمرا تقضى به الضرورات العالمية وتوجبه مصلحة الاقوياء قبل ان توجبه مبادىء العدل والحرية

ومنذ الازل كان تاريخ الحضارة الانسانية فى كل دور من أدواره مقترنا بفتح طريق جديد أو طرق جديدة . فمسالك الهند وأمريكا وافريقيا الجنوبية وما تخلل ذلك من مسالك آسيا وأفريقيا هى معالم السفر فى الرحلة الانسانية الخالدة من الجهل والهمجية الى الحضارة والتهذيب ، وانه لتعبير الحقيقة وليس بتعبير المجاز ان نقول ان اتصال الطرق بين البلاد رمز الى اتصال العلاقات بين الشعوب ، فاذا تقررت غدا سياسة التعاون العالمى أو سياسة التفاهم بين الشعوب فسيكون انتظام المواصلات واحتياج الاقوياء الى الضعفاء فى حراستها والسهر عليها مقدمة لا غنى عنها لتقرير تلك السياسة وتوطيدها ، وتقرير ما يلزمها من الاعتراف بحق الحرية للامم جمعاء

وحرب الباسيفيكى — حرب البحر الذى سمى باسم السلام والسكينة — باب من الابواب التى تؤدى الى هذا المآل

عباس محمود العقاد

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

القومية المصرية فى عهد الفراعنة

للاب أتيين دريتون

مدير المتحف المصرى

> القى هذه المحاضرة النفيسة باللغة الفرنسية الأب أتيين دريتون مدير المتحف المصرى . وقد تناول فيها موضوعاً جديداً لم يسبقه اليه غيره من الباحثين ، وهو القومية المصرية فى عهد الفراعنة ، فتحدث عن الشعور القومى ومنشئه فى مصر منذ القدم ، وتكلم عن فكرة الوطن وفكرة الوحدة الوطنية عند المصريين القدماء وكيف توحدت الأمة المصرية ودافعت عن قوميتها وحريتها واستقلالها ، وأصبح الشعور الوطنى مظهراً من مظاهر العقيدة والايمان . ونحن ننشر هنا ترجمة هذه المحاضرة القيمة

كثيراً ما وصف الباحثون نهضة مصر القومية ، وادراكها لما يجب أن تقوم به فى تطور الانسانية ، بقولهم انها استيقظت بعد نوم طويل ، بدأ يوم فقدت مصر استقلالها فى عهد آخر الأسر الفرعونية المالكة

ان هذه المقارنة صحيحة فى جملتها ، فالشعور القومى يبعث الآن من جديد فى مصر ، بعد سبات دام بضع آلاف من السنين

غير أن النوم لا يقطع حبل الحياة ، وإن كان النائم لا ينجو من مؤثرات الوقت . ولهذا كان محتما على القومية المصرية فى نهضتها الحاضرة ـ ألا تتجدد على الصورة التى كانت تتحلى بها فى عهد قمبيز ، وأن تسير على غرار مثيلاتها عند الشعوب المعاصرة لها

ان معرفة نوع القومية عند قدماء المصريين ، والوطنية التى كانت تلك القومية مظهرها العملى مسألة تهم الى أبعد حد جميع الذين تشغلهم تطورات العصر الحاضر ، ويرغبون فى البحث عن الحركات المماثلة لها فى الأزمنة الغابرة

***

ان فكرة الوطن وفكرة الأمة ، كما نفهمهما نحن اليوم ، لم يكن لهما ما يقابلهما فى التاريخ القديم ـ وعلى الخصوص فى تاريخ الشرق ـ ولم يكن فى مصطلحات اللغة قبل اليونانيين تعبير يؤدى معناها

غير ان الشعور بالفكرتين كان موجوداً ، فان أقدم الكتابات المصرية التى وصلت الينا ـ ككتابات أهرام سقارة ، التى ترجع بلا شك الى العصور السابقة للتاريخ ، والتى تناقلتها الأحقاب شفاهياً قبل أن تدون بالحروف كتابة ـ تحوى نشيداً لمصر . وقد أشير فيه الى مصر باسم رمزى

هو « عين هوروس » وبقى هذا الرمز مصاحباً لمصر الى ختام تاريخها ، وذلك للتنويه بأنها أثمن شيء عند هوروس جد الفراعنة ومثالهم الاول

السلام عليك يا عين هوروس ، التى جملها بيديه الاثنتين !
لقد أبى أن تخضعى لأبناء الغرب
لقد أبى أن تخضعى لأبناء الشرق
لقد أبى أن تخضعى لأبناء الجنوب
لقد أبى أن تخضعى لأبناء الشمال

* * *

أطيعى هوروس ، فهو الذى جملك
وهو الذى ابتناك ، وهو الذى وضع أساسك

* * *

افعلى ما يطلبه منك ، أينما كان
احملى اليه الماء العذب الذى فيك
احملى اليه الماء العذب الذى سيكون فيك
احملى اليه كل نبات نابت فيك
احملى اليه كل نبات سينبت فيك
احملى اليه كل خبز يصنع فيك
احملى اليه كل خبز سيصنع فيك

* * *

ان الابواب القائمة عليك ترتفع لتحميك
فلتغلق دون أبناء الغرب
فلتغلق دون أبناء الشرق
فلتغلق دون أبناء الجنوب
فلتغلق دون أبناء الشمال

* * *

ولكن لتفتح أمام هوروس !
هو الذى وضع أساسك ، هو الذى أنجدك ، هو الذى أنقذك من الشر الذى حاول سيث إلحاقه بك

هذه مقتطفات من أقدم نشيد قومى مصرى ، بل من أقدم نشيد قومى فى العالم بلا شك .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومصر الموحدة من طرف وادي النيل الى طرفه الآخر ، ممثلة فى هذا النشيد كبلد له كيان معنوى ، فى مقدوره أن يهب طاعته أو يمسكها ، وأن يفتح أبوابه أو يغلقها ، وأن يؤدى الخراج عن ثروته الطبيعية وصناعاته . فهى أمة ، وهى وطن . وهى تعارض فى آن واحد الشعوب المجاورة ، التى لا يمكن أن تكون مصر تابعة لها ما دامت تدين بالطاعة لهوروس ، إلهها ورأس أسرتها المالكة

وهنا يلمس المرء أساس القومية المصرية القديمة ، ونعنى به الدين . واذا اختصرنا المذهب الذى أفاضت الكتابات الهيروغليفية القديمة فى شرحه ، فانه يبدو لنا أن الصبغة والميزة الخاصتين بالمصريين القدماء ، بالنسبة الى غيرهم من الناس ، هما أنهم كانوا يخضعون للآلهة ، وبصورة خاصة لهوروس . فمصر كانت نصيب هذا الاله عند اقتسام العالم ، وكانت تسمى « أرض هوروس » . وفى الواقع ، أن البشر جميعاً ، بالرغم من فوارق العنصرية والتقاليد بينهم ، كانوا — فى نظر المصريين القدماء — يرجعون الى أصل واحد . فالاله « الشمس » هو الذى سكبهم دموعاً فى بدء الأزمنة ، وقد سقطت الاجناس البشرية الاربعة — المصريون والاسيويون والزنوج والليبيون — من عينه بالتتابع . وكان هؤلاء وأولئك جميعاً أجزاء متساوية فى « قطيع الشمس » — وهو التعبير الذى كان حكماء المصريين يصفون به البشرية

ولكن الحوادث الفاجعة ما عتمت أن تناولت تاريخ الآلهة والبشر . فان الاله سيت غدر بأخيه أوزوريس الاله المهذب ، وانتقل ملك أوزوريس مدة من الزمن الى الاله المتمرد . ونهض هوروس ، ابن أوزوريس الشرعى ، للنضال ضد المغتصب ، وانتهى ذلك النضال بحكم أصدرته الآلهة ، وهو يقضي بتثبيت ملك هوروس على مصر ، جوهرة العالم فى ذلك العهد ، وإقصاء سيت الى ما عداها من البقاع ، التى أصبحت قفارها وفيافيها وجبالها الجرداء ملكا خاصاً له . وبقى العالم منذ ذلك الوقت منقسما الى فريقين : فريق الأوفياء الذين يعبدون هوروس ويخدمون خليفته فرعون — وهم المصريون . وفريق أتباع سيت ، الذين يحاربون مصر ويتجاهلون ملوكها ، خلفاء هوروس — وهم الاجانب

ويرى مما تقدم أن القومية الفرعونية لم تكن قائمة على العنصرية ، بل على فلسفة دينية جامعة ، ترحب بالذين يعملون بها ، ولا تتسامح مع الذين يرفضونها . فى الواقع ، أن الاعتراف بسلطة هوروس — أى بسلطة فرعون الجالس على العرش — كان كافياً لادخال الاجانب فوراً ، أياً كان أصلهم ولون بشرتهم ، ضمن مجموع المصريين ، واعطائهم فى مصر ، الحقوق نفسها التى للمصريين فيها . فتاريخ مصر حافل بأسماء الاجانب الذين استخدمهم الفراعنة فى بلاطهم ، وأشهرهم العبرانى يوسف الصديق ، وقد دونت اللوحات الأثرية الخاصة بكل عصر من عصور التاريخ أمثلة كثيرة

(البقية على صفحة ٣١٨)

الدوافع الاقتصادية
الى حرب الباسفيك

بقلم الدكتور حسين خلاف

مدرس الاقتصاد السياسى والمالية العامة بكلية الحقوق

بقيت اليابان حتى أوائل النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، منقطعة الصلة تقريبا بالعالم الخارجى ، وظلت حقبة طويلة من الزمن تعيش تحت نظام اقطاعى شديد الوطأة ، فتأخرت زراعتها ، واقتصرت صناعتها الاولية على تموين الاسواق المحلية فيها ، كما ساءت حال تجارتها الداخلية بسبب رداءة طرق المواصلات ، وكثرة ما كانت تدفعه السلع عند انتقالها من منطقة الى أخرى من ضرائب ، اما عن تجارتها الخارجية فقد بقيت ضئيلة الاهمية ، يقوم بها جماعة من الهولنديين والصينيين ، ولم يكن اليابانيون احرارا فى مغادرة البلاد ، كما كان حضور الاجانب اليها من غير المرغوب فيه ، وأخيرا ، فقد بقى عدد سكانها ثابتا أو يكاد زهاء مائة وخمسين عاما ، تمتد من سنة ١٧٢٠ الى سنة ١٨٧٠ ، بسبب انتشار المجاعة وانخفاض نسبة المواليد

لكن الروابط بين اليابان والدول الاخرى ازدادت توثقا من ذلك الحين ، واسرع اليابانيون الى الاخذ باسباب الاصلاح ، تساعدهم فى ذلك حكومة مركزية قوية حازمة ، قامت على انقاض عهد الاقطاع ، فحسن حال الزراعة ومدت خطوط المواصلات ، وعبدت الطرق ، وانتشر التعليم ، كما انشأت اليابان جيشا بريا ، واسطولا حربيا وآخر تجاريا ، فبدأت الدول تحسب لها حسابها ، خاصة بعد انتصارها فى حربها ضد الصين سنة ١٨٩٤ وضد الروسيا سنة ١٩٠٤ - ١٩٠٥ ، وانضمامها الى جانب الحلفاء فى حربهم المظفرة سنة ١٩١٤ - ١٩١٨

وكان مما أثار الدهشة حقا ، وسبب فى نفس الوقت مخاوف لدى المنتجين فى الدول الاخرى ، اسراع اليابان الى الاخذ بطرق الانتاج الصناعى الحديث ، فكبر انتاجها للمصنوعات القطنية والحريرية والصوفية ، كما انتشرت فيها بعض الصناعات الاستخراجية ، وصناعة الحديد والفحم والكبريت والورق والمواد الكيمياوية وغيرها

خلق هذا التطور الاجتماعى والصناعى امام اليابان مشكلتين اساسيتين ، الاولى تتعلق بالسكان والثانية بالحصول على المواد الاولية والزيادة من الصادرات ، وقد كان لهاتين المشكلتين اثرهما الواضح فى العلاقات التى قامت خلال القرن الحالى بين اليابان والدول الاخرى ،

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

خاصة بينها وبين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى ، حتى انتهى الامر الى قيام حرب الباسفيك الحالية

اما عن السكان فيلاحظ ان عددهم ، وقد بقى ثابتا خلال قرن ونصف كما قلنا ، لم يلبث أن أخذ فى الازدياد ابتداء من أواخر القرن الماضى ، فقفز ذلك العدد من ٣٠ مليونا سنة ١٨٧٠ الى ٧٢ مليونا سنة ١٩٣٨ ، وفى المدة بين سنتى ١٩٣٠ و١٩٣٥ كان مقدار الزيادة ٤ر٨ مليون نسمة ، أى بمعدل مليون تقريبا كل سنة ، وهى نسبة لا تعرفها الدول الغربية فى القرن العشرين ، اذ عانت هذه الاخيرة خلاله قلة فى النسل حاولت القضاء عليها بشتى الوسائل ، ويرجع تزايد عدد سكان اليابان الى ارتفاع نسبة المواليد ، على الأقل حتى قيام الحرب الصينية اليابانية سنة ١٩٣٧ ، مع امتناع المجاعات ، وميل نسبة الوفيات فى الاطفال الى القلة عقب الحرب العالمية الماضية

أصبح من الواجب اذن على اليابان توفير المواد الغذائية وتيسير سبل المعاش لسكانها المتزايدين ، وقد بذل اليابانيون فى سبيل ذلك جهودا صادقة ، فاستصلحوا الارض ، وزرعوها زراعة كثيفة ، ونشروا الجمعيات التعاونية الزراعية ، وحصلوا بذلك على نتائج باهرة ، لكن عوائق جمة وقفت فى سبيلهم ، أخصها قلة الاراضى الصالحة للزراعة بالنسبة للمساحة الكلية للدولة ، وعدم امكان استعمال الآلات الزراعية بكثرة ، وميل سكان الريف الى النزوح الى المدن فى المدة الاخيرة

لذلك فقد أولت حكومة اليابان عنايتها منذ أواخر القرن الماضى الى تشجيع الهجرة الى البلاد الواقعة تحت سيطرتها ، والى دول امريكا واستراليا ، وقد قدر عدد اليابانيين فى الخارج سنة ١٩٣٨ بمليون نسمة تقريبا . على أن حركة الهجرة هذه لم تنجح تماما ، فلم يجاوز عدد المهاجرين من اليابانيين الى الولايات المتحدة بضع عشرات من الآلاف سنويا ، بل كان عدد الراجعين الى بلادهم أكبر فى بعض السنين ممن نزحوا الى الولايات المتحدة خلالها ، وقد يرجع السبب فى ذلك الى عدم ميل اليابانيين الى مغادرة أوطانهم ، لكنه يرجع أيضا الى ما وضعته الولايات المتحدة من قيود على الهجرة اليها ، خاصة منها هجرة الجنس الاصفر ، وقد بدأت هذه القيود منذ عقد اتفاقية « الجنتلمان » بينها وبين اليابان سنة ١٩٠٧ ، ثم اشتدت بصدور قانون الهجرة سنة ١٩٢٤ ، ويمكن تفسير معارضة الولايات المتحدة فى هجرة الجنس الاصفر اليها بما بين الجنسين من فوارق ، يخشى معها على وحدة الشعب وتآلف أفراده ، وبتخوف طبقة العمال فى الولايات المتحدة من منافسة المهاجرين الصينيين واليابانيين لهم ، اذ يتقبل هؤلاء أجورا منخفضة لا يرتضيها الاول لانفسهم . وقد كان موقف استراليا فى هذا الصدد شبيها بموقف الولايات المتحدة ، اذ حدت من الهجرة اليها باصدارها قانون الهجرة سنة ١٩٠١ ، كذلك فعلت بلاد الدمينيون الاخرى . اما عن دول امريكا الجنوبية ، وخاصة البرازيل والارجنتين ، فقد

كبرت حركة الهجرة اليابانية اليها عقب الحرب العالمية الماضية ، لكن ما لبثت ان قيدت هى الاخرى من حرية النزوح اليها

كان من اثر هذه القيود ان ضاعف اليابانيون من جهودهم لتنشيط صناعتهم وصادراتهم حتى تتسع أمامهم موارد الرزق • ومن ذلك نرى ان تكاثر السكان ، وقد كان فى أول أمره نتيجة التقدم الاجتماعى والاقتصادى ، أصبح فى المدة الاخيرة حافزا على الزيادة من هذا التقدم • وقد تمكنت المنتجات اليابانية فعلا من مزاحمة المنتجات الامريكية والانجليزية وغيرها فى الاسواق العالمية ، لما امتازت به من رخص السعر ، نتيجة حسن تنظيم الصناعة ورخص اليد العاملة اليابانية نسبيا ، فكثرت صادراتها من الحرير الخام والمنتجات القطنية والحريرية والصوفية ، ومن سلع أخرى كالورق والخشب والكبريت ، وقد كانت الحرب العالمية الماضية فرصة ذهبية للصناعة اليابانية ، اذ قامت حينئذ بتموين اسواق كانت تعتمد من قبل على امريكا وأوربا ، ثم أعقب تلك الحرب قلة نسبية فى الصادرات اليابانية ، على ان الزيادة ابتدأت من جديد فى السنوات العشر الاخيرة بسبب انخفاض قيمة الين ، وهو عملة اليابان الوطنية ، مما شجع الاجانب على الشراء منها • وقد كانت تجارتها الخارجية نشطة على الاخص مع الولايات المتحدة والامبراطورية البريطانية ، ففى خلال المدة بين سنة ١٩٣٦ الى سنة ١٩٣٩ كانت نسبة الواردات من الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى الى مجموع واردات اليابان ٣٤٫٦ ٠/٠ من الاولى و ٢٦ ٠/٠ من الثانية • وفى نفس المدة كانت نسبة الصادرات الى الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى الى مجموع صادرات اليابان ٢٠ ٠/٠ للاولى و٢٥ ٠/٠ للثانية • وفى ذلك ما يبين مقدار اعتماد اليابان على هاتين الدولتين سواء بالنسبة لوارداتها أو لصادراتها

***

لكن على الرغم من نشاط التجارة الخارجية اليابانية منذ بدأ القرن العشرين ، فان حالة ميزانها التجارى لم تكن فى معظم السنين مرضية لها ، مع استثناء سنى الحرب الماضية التى زادت فيها صادراتها عن وارداتها بنسبة كبيرة ، نتيجة لقيامها بالتصدير الى بلاد كانت تعتمد من قبل على المنتجات الاوربية والامريكية ، بل ان ميزانها الحسابى ، وهو يشمل مجموع قيمة صادراتها ووارداتها من البضائع وغيرها ، لم يتوازن فى المدة بين سنة ١٩٢٣ الى سنة ١٩٢٨ ، الا بالالتجاء الى طرق استثنائية اهمها عقد القروض فى الخارج

ولعل السبب فى ذلك راجع الى اضطرار اليابان الى الاستيراد بكثرة ـ ذلك انها فقيرة فى المواد الاولية اللازمة لكثير من صناعاتها ، اذ يعوزها القطن الخام ، والصوف ، والحديد الخام ، والصلب ، والخشب ، والبترول الخ ، وهى سلع ضرورية لقيام صناعاتها الحديثة ، ولا يكفى الانتاج المحلى منها حاجة هذه الصناعات ، نعم تمكنت اليابان ، بمدها لنفوذها السياسى الى منشوريا ابتداء من سنة ١٩٣١ ، من ان تضع يدها على موارد هذا البلد الغنى ، لكن حاجتها الى الاستيراد من الخارج بقيت برغم ذلك قوية • وهى تود ان

تمد سيطرتها الى البلاد المجاورة لها ، خاصة دول آسيا الشرقية والجنوبية ، فتستغل ثروتها الطبيعية الهائلة ، ويقل بذلك اعتمادها على الخارج

على ان اليابان تريد الى هذا ان تجد منافذ واسعة لتصريف منتجاتها ، وهى لا تجدها فى أوربا وامريكا الشمالية ، اذ من الصعب عليها ان تغزو أسواق هذه البلاد البعيدة ، العريقة فى الصناعة ، والتى أحاطت نفسها بسياج من الحواجز الجمركية متين، على الاخص ضد ما سموه بالاغراق اليابانى ، وهى اذا كانت تصدر الى الولايات المتحدة بكثرة ، فان هذه الاخيرة لا تستورد منها اساسا الا الحرير الخام ، وهو مادة ترفيه من السهل ان يستبدل غيرها بها ، كذلك من الصعب ان تزيد من صادراتها الى بلاد افريقا ، رغم تأخر الصناعة فيها وتزايد حاجات سكانها ، وذلك لوقوع معظم هذه الدول تحت سيطرة الدول الاوربية

بقيت البلاد القريبة من اليابان ، وقد تنبهت هذه الى وجوب العمل على زيادة صادراتها اليها ، ففيما يتعلق بدول امريكا اللاتينية كانت الصادرات اليابانية اليها لا تمثل اكثر من ٣ر٠ ٠/٠ من مجموع الصادرات اليابانية سنة ١٩١٣، فارتفعت هذه النسبة الى ٢ر١ ٠/٠ سنة ١٩٢٩ والى ٢ر٥ ٠/٠ سنة ١٩٣٧ والى ٣ر٣ ٠/٠ سنة ١٩٣٨ و١ر٣ ٠/٠ سنة ١٩٣٩ ، وبينما كانت الواردات منها الى اليابان لا تزيد عن ٤ر٠ ٠/٠ من مجموع واردات هذه الدولة سنة ١٩١٣ ، ارتفعت هذه النسبة ايضا فأصبحت ٧ر٠ ٠/٠ سنة ١٩٢٩ و٨ر٤ ٠/٠ سنة ١٩٣٧ و٧ر٣ ٠/٠ سنة ١٩٣٨ و١ر٤ ٠/٠ سنة ١٩٣٩ ، لكن اليابان عانت برغم ذلك من القيود التى وضعتها هذه الدول على حرية التصدير اليها

كذلك نشطت تجارتها مع جزر الفيلبين وبورنيو البريطانية والهند الشرقية الهولندية وتايلاند (سيام) والملايو البريطانية والهند الصينية الفرنسية كما يتبين ذلك من الارقام الآتية :

تجارة اليابان مع البلاد السالفة الذكر (مقدرة بآلاف الين)

السنة	الصادرات اليابانية	الواردات اليابانية
١٩١٤	٢٢ر٧٤٠	٥٢ر٧٣١
١٩١٩	١١٠ر٦٨٧	١٧٣ر٣٢٧
١٩٢٩	١٥٨ر٩١٠	١٦٧ر٤٢٦
١٩٣٩	٢١٤ر٨٧٦	٢٥٨ر١٤٨

على ان تجارة اليابان مع هذه البلاد بقيت قليلة الاهمية ، اذ ظلت بلاد آسيا الجنوبية حتى قبيل الحرب الحالية تعتمد اساسا على الاسواق الاوربية والامريكية

اما الصين ، فقد فتحت ابوابها للتجارة الخارجية من بعد معاهدة نانكين سنة ١٨٤٢ ، فابتدأ تنافس الدول على غزو أسواقها الواسعة من ذلك الحين ، خاصة وقد بقيت حريتها

فى فرض الضرائب الجمركية مقيدة بالاتفاقات الدولية حتى سنة ١٩٣٠ ، وقد ظلت انجلترا تحتل الصدارة فى تجارتها الخارجية حتى أوائل القرن الحالى . ثم انتزعت منها اليابان والولايات المتحدة سيادتها هذه فى السنين الاخيرة ، ففى سنة ١٩٣٠ كان نصيب اليابان من مجموع التجارة الخارجية الصينية ، بما يشمل تجارة هونج كونج ٢٦ر٤ ٠/٠ والولايات المتحدة ١٧ر٦ ٠/٠ والمملكة المتحدة ٩ر٣ ٠/٠ والهند ٦ر٩ ٠/٠ والهند الهولندية ٥ ٠/٠ والمانيا ٤ر٩ ٠/٠ والهند الصينية الفرنسية ٤ر٤ ٠/٠ ، فالدول الثلاث الاولى يقوم معها اكثر من نصف التجارة الخارجية الصينية . كذلك كانت المنافسة قائمة بينها بالنسبة لتوظيف أموالها فى الصين . وهنا أيضا كان لانجلترا المركز الاول ، وقد بقيت محتفظة به حتى النهاية ، وان عملت اليابان على الزيادة من أموالها الموظفة فى الصين الى حد كبير عقب الحرب العالمية الماضية ، كما يتضح من الاحصائية الآتية :

النسب المئوية للاموال الاجنبية الموظفة فى الصين من أهم الدول

الدول	١٩٠٢	١٩١٤	١٩٣١
بريطانيا العظمى	٣٣	٣٧ر٧	٣٦ر٧
اليابان	١ر٠	١٣ر٦	٣٥ر١
الروسيا	٣١ر٣	١٦ر٧	٨٫٤
الولايات المتحدة	٢ر٥	٣ر١	٦ر١
فرنسا	١١ر٦	١٠ر٧	٥ر٩
المانيا	٢٠ر٩	١٦ر٤	٢ر٧

لم تقنع اليابان بمنافسة الدول الاخرى فى جو من السلام والهدوء ، بل طمعت فى مد نفوذها السياسى والاقتصادى الى البلاد القريبة منها ، فهى تعلم ان هذه المناطق يقطنها مئات الملايين من البشر ، وان الصناعة فيها متأخرة ، وهى تريد ان تستأثر بالموارد الطبيعية الغزيرة الموجودة فيها ، فاعلنت نظريتها القائلة بأن « آسيا للاسيويين » معتزمة ان تكون هى المتحكمة فى شئون القارة . ونظرت بعين الكره الى كل محاولة رمت بها البلاد الغربية الى نشر نفوذها السياسى والاقتصادى فى تلك الارجاء

لكن الصين ، والبلاد الاسيوية الاخرى ، لم تناصر اليابان فى دعوتها الى استقلال القارة بشئونها ، اذ أدركت مقصدها من هذه الكلمة المعسولة . وكان من أثر اعتداءات اليابان المتكررة على الصين ، اعلان الصينيين مقاطعتهم للبضائع اليابانية عدة مرات ، مما كان له أثره على الصناعة اليابانية ، كما عملوا على نشر المصانع عندهم ، ولم يكن فى موقفهم هذا ما يرضى اليابان ، فانتحلت المعاذير لشهر الحرب على الصين سنة ١٩٣٧ ، ثم شاركت دول المحور حربها ضد الحلفاء ، علها تفوز بنفوذ اوسع وسيطرة اقتصادية أكبر على آسيا والممتلكات البريطانية القريبة عقب انتهاء الحرب

الاخلال بقانون الحرب

بقلم الاستاذ الدكتور محمد صالح بك
العميد السابق لكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول

ما هي الحرب وما هي مبرراتها ـ الجهود الدولية لمنع الحرب ـ بداية الحرب ـ تنظيم قواعد الحرب ـ ماذا يترتب على الاخلال بقواعد الحرب

الحرب كما يعرفها علماء القانون الدولي هي كفاح قوات مسلحة تابعة لدولتين أو أكثر بقصد القضاء على العلاقات السلمية القائمة بينها • وهي ذريعة تتوسل بها الدول لتحقيق مآرب سياسية أو اقتصادية أو اقليمية

وقد مجد الناس الحرب منذ أقدم العصور وحرمت الشعوب المتبربرة السرقة من أفراد العشيرة الواحدة لكنها أباحت السلب ممن هو أجنبي عنها ، بل عدته من أعمال البطولة التي تستحق الاطراء • وما تزال بعض الدول تدين بهذه العقيدة التي يعبر عنها الايطاليون الاثرة الوطنية المقدسة sacro egoismo nationale حتى صار العدوان مقياس الحضارة • ألم يقل الفيلسوف الألماني « فيشتي Fichte » : « ان أعظم الدول حضارة اشدها عدوانا » . وقال بسمارك من بعده : « القوة تعلو الحق » ودعا قومه الى ان يكونوا أقوياء وقساة واعتبر الحرب ضرورة لا غناء عنها ، وقال تريتشكي Treitsche الاستاذ بجامعة برلين : « ستبقى الحروب حتى نهاية العالم فهي لا محيص عنها طبقا لقوانين العقل والبشر » • وقد نشر هذه العقيدة الفيلسوف الالماني نيتشيه Nietche فقال ان الرجال خلقوا للمران على الحرب وحذقها ، وان النساء خلقوا لوضع المحاربين . وهي عقيدة مغايرة لقواعد الاخلاق . لكن أنصار الحرب يرون ان ليس على الدولة ان تعنى بالاخلاق لان الدولة على حد الفيلسوف الالماني هيجل Hegel هي ظل الله في الارض ، وهي القوة المطلقة والواسطة والغاية ، بل هي الغاية القصوى التي لها أقصى حق على الفرد ، وان الدولة تمثل على اكمل وجه الاخلاق الاجتماعية ولا يصح ان تتقيد بقيود اخلاقية • ومنذ ان تألق نجم الهر هتلر

(١) مراجع : بحوث في قانون الحرب للدكتور محمود سامي جنينة ، القاهرة ١٩٤١ • الاسلام والحضارة الاسلامية للاستاذ محمد كرد علي ، القاهرة ١٩٣٤ • الخراج لابي يوسف ، الاحكام السلطانية للماوردي ، الوحي المحمدي للسيد محمد رشيد رضا ١٣٥٢

Sir Herbert Samuel : Practical Ethis : London : 1935
Sir Herbert Samuel : Belief and Ac tion : London : 1937

فى سماء المانيا وظهور النازية ازدادت هذه العقيدة قوة وعنفا • فالقى فى روع الشعب الالمانى بانه سيد الشعوب Herrenvolk وانه الشعب الذى اختارته العناية الالهية لفتح العالم والاستعلاء على البشر ، وصور الحرية بانها حرية الشعب الالمانى فى غزو البلدان • اما الفرد فتقتصر حريته على تضحية حياته فى سبيل احراز المجال الحيوى الالمانى Lebensraum ، وهذه العقيدة مغايرة للعقل ولا تلقح الا شرا للدولة ولغيرها من البلدان المجاورة . لكن فلاسفة النازية يرون انه لا حاجة الى اتباع مقتضيات العقل ، وان العاطفة هى التى تبعث على العمل ، والحدس هو المرشد والقوة هى الاداة ، وان الرفاهية هى ارادة السيطرة بالكفاح واحراز النصر ، وويل للدولة التى لا تعتنق هذه الآراء

ويبرر البعض الحرب بأسباب أخلاقية وقومية فيقولون ان الحرب تثير الهمم وتكون خصال التضحية والحذق والاتقان وتوقظ الناس من الركود والسبات • وهذا شبيه بمن يشعل النار فى منزل ليتسنى لرجال المطافىء اظهار براعتهم أو يخرق سفينة ليمكن بحارة الانقاذ من التدليل على شجاعتهم

وثمة فريق آخر يرى ان الحروب مردها الى نظرية النشوء ، فالحرب هى الوسيلة للقضاء على من لا يصلح للبقاء ومن ثم يتحقق الرقى والتقدم • وشأن الامم فى هذا كالنبات والحيوان فهما فى كفاح مستمر للبقاء

ويقول بعض المفكرين ان الحرب وسيلة تمتحن بها النظم الاجتماعية المختلفة وتعجم بها أخلاق الامم ، وان أقومها أخلاقا وأكملها نظاما هى التى تظفر بالسيادة : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الجهود الدولية لمنع الحرب

ومهما يكن من شىء فقد قال جمهرة علماء القانون الدولى بمشروعية الحرب وانها مظهر لسيادة الدولة وانها تصرف من التصرفات التى تعمد اليها الدول لجلب مغنم أو لدرء مغرم • فاذا كان هذا هكذا كان من المتعين منعا للفوضى ورحمة بالناس ان توضع قواعد منظمة لها ومرتبة لاحكامها • ومصدر هذه القواعد هو العرف الدولى المعمول به بين الامم والمعاهدات الدولية كمعاهدات الحياد والتحكيم والضمان

وكان من عقبى الحرب العظمى ان وضع الحلفاء عهد عصبة الامم المؤرخ ٢٨ يونيو ١٩١٩ فقد حد تارة من حرية الدول فى الالتجاء الى الحرب ، وحظرها طورا • فنص فيه على ان كل حرب أو تهديد بحرب يعنى عصبة الامم كلها ، وعليها ان تتخذ الوسائل الكفيلة بانقاذ سلم الامم ، وانه اذا نشأ نزاع بين الدول الموقعة على العهد ينذر بقطع العلاقات السلمية وجب عرض الامر على محكمين أو على مجلس العصبة • وليس للدولة ان تلجأ الى الحرب قبل انقضاء ثلاثة اشهر منذ صدور حكم المحكمين أو تقرير مجلس العصبة • وتناول العهد تفاصيل أخرى خاصة بالدول غير المنضمة الى العصبة

ولما كان العهد لا يحرم اللجوء الى الحرب فقد أبرمت الولايات المتحدة مع عدد كبير من الدول الميثاق المعروف بميثاق بريان وكيلوج • وفحواه ان الحرب وسيلة محرمة لفض المنازعات وتنفيذ السياسة القومية بين الدول • وبلغ عدد الدول الموقعة على هذا العهد خمسا واربعين دولة • وصار الميثاق معمولا به منذ يوليو ١٩٢٩ • والميثاق فى جملته لا يعدو ان يكون دستورا اخلاقيا يجمل بالدول اتباعه ، لكنها لا تتعرض لجزاء خاص ان هى أهملته • وشبيه بما تقدم ميثاق لوكارنو المعقود فى سنة ١٩٢٦ الذى التزمت بمقتضاه الدول الموقعة عليه بعدم اللجوء الى الحرب الا فى أحوال معينة

ولم تطمئن بعض الدول كبولاندا الى هذه المواثيق فسعت الى الحصول على ضمان من طريق وضع قاعدة تحرم حرب الاعتداء فاصدرت الجمعية العمومية لعصبة الامم قرارا فى سنة ١٩٢٧ يقضى بتحريم حرب الاعتداء واعتبارها جريمة دولية ، ولو انها جريمة لا عقاب عليها • وعقدت روسيا مواثيق عدم اعتداء مع كثير من الدول المتاخمة لها ، وعقدت ألمانيا وبولندا ميثاقا من هذا النوع فى سنة ١٩٣٤ • وقد صرح الهر هتلر فى ٢١ مايو ١٩٣٥ بما يأتى : « عقدت المانيا ميثاق عدم اعتداء مع بولندا . وستحترم المانيا هذا الميثاق بلا قيد ولا شرط ». وفى ديسمبر ١٩٣٨ صدر تصريح ألمانى فرنسى يتضمن التزامهما بالاتصال المباشر وتبادل الآراء فى كل ما من شأنه خلق صعاب دولية واحترام التخوم الحالية . وفى ٢١ اغسطس ١٩٣٩ عقدت المانيا وروسيا ميثاق عدم اعتداء

وكل هذه المواثيق ينقصها حسن النية والاخلاص ، ويسودها الدخل والغش ، فقد وقعتها بعض الدول وهى تنوى نقضها وعدم الايفاء بها ، وتضمر انتهاب اول فرصة للعدوان فكانت « كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا تتخذون ايمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة »

بداية الحرب

تبدأ الحرب بالاعلان أو بالانذار النهائى أو بدونهما . ويقع اعلان الحرب باخطار الدولة بقيام حالة الحرب فى يوم وساعة معلومين • وليس من شك فى أن الاعلان على الوجه المتقدم يرفع عن الدولة تهمة الغدر ، لكن تاريخ الحروب يدل على ان الدول لم تلتزم خطة واحدة • فقد كان الرومان يعلنون الحرب على اعدائهم نزولا على ما تقضى به دياناتهم • وكانت تصحب اعلان الحرب مراسيم دينية يقوم بها بعض القساوسة بقصد تقديم الدليل الى الامة الرومانية على عدالة الحرب وقدسيته • ومن ثم درج فقهاء الرومان على تسمية حروب روما انها حروب عادلة أى مطابقة للقانون ، وكانوا يرمزون الى بداية الحرب بقذف سهام على ارض الدولة المعادية ثم تحللوا من هذا الاجراء بتكليف جندى فار من الامة العدوة بشراء قطعة أرض ومن ثم تعتبر ملكا للعدو ، ثم يتقدم القساوسة ويرمون سهما على عامود منصوب عليها ايذانا باعلان الحرب

وحتم الشرع الاسلامى على المسلمين قبل البدء فى القتال ان يدعوا من لم تبلغه الدعوة . وقال ابو يوسف صاحب الامام ابى حنيفة : « لم يقاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما قط فيما بلغنا حتى يدعوهم الى الله ورسوله » . ولما غزا سلمان المشركين من أهل فارس قال : كفوا حتى ادعوهم كما كنت اسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم ، فأتاهم فقال : « انا ندعوكم الى الاسلام ، فان اسلمتم فلكم مثل ما لنا وعليكم مثل ما علينا ، وان أبيتم فاعطونا الجزية عن يد وانتم صاغرون وان ابيتم قاتلناكم » قالوا : اما الاسلام فلا نسلم وأما الجزية فلا نعطيها واما القتال فانا نقاتلكم ، فدعاهم كذلك ثلاثا فأبوا عليه ، فقال للناس : « انهدوا اليهم »

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه اذا اجتمع اليه جيش من اهل الايمان بعث عليهم رجلا من أهل الفقه والعلم فاجتمع اليه جيش فبعث عليهم سلمة بن قيس فقال : « سر بسم الله تقاتل فى سبيل الله من كفر بالله فاذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم الى ثلاث خصال : ادعوهم الى الاسلام فان اسلموا فاختاروا دارهم فعليهم فى أموالهم الزكاة وليس لهم فى فىء المسلمين نصيب ، وان اختاروا ان يكونوا معكم فلهم مثل الذى لكم وعليهم مثل الذى عليكم فان أبوا فادعوهم الى اعطاء الجزية ، فان اقروا بالجزية فقاتلوا عدوهم من ورائهم وفرغوهم لخراجهم ولا تكلفوهم فوق طاقتهم ، فان أبوا فقاتلوهم فان الله ناصركم عليهم »

وقال الماوردى : « فان بدأ الامير بقتالهم قبل دعائهم الى الاسلام وانذارهم بالحجة وقتلهم غرة وبياتا ضمن ديات نفوسهم وكانت على الاصح من مذهب الشافعى كديات المسلمين »

وقد جرى العمل فى صدر الاسلام على ارسال كتب الى اعدائهم هى بمثابة انذار . من ذلك ما كتبه خالد بن الوليد الى رستم ومهران مرازبة فارس : « .. اما بعد .. فاذا جاءكم كتابى هذا فابعثوا الى بالرهن واعتقدوا منى الذمة واجبوا الى الجزية فان لم تفعلوا فوالله الذى لا آله الا هو لاسيرن اليكم بقوم يحبون الموت كحبكم للحياة .. »

وفى أوربا فى القرون الوسطى جرت عادة الدول على ارسال مبعوثين مزودين بكتب لاعلان الحرب لان الله جلت قدرته أمر الناس ان ينبذوا الصداقة صراحة قبل ان يلجأوا الى الحرب

على انه قد وقعت فى القرنين السابع والثامن عشر حروب كثيرة غير مسبوقة باعلان حرب لذلك ذهب علماء القانون فى تلك العصور الى ان اعلان الحرب غير واجب

اما فى القرن التاسع عشر فلم تسر الدول على وتيرة واحدة . ففى سنة ١٨١٢ قامت الحرب بين انكلترا والولايات المتحدة بلا سابق انذار ، وفى سنة ١٨٣٠ ارسل ملك فرنسا خادمه الخاص الى ملك انكلترا ليعلنه بالحرب . وكان المقصود من هذا الاجراء الاستعلاء على ملك الانكليز والحط من قدره . وقد سبقت معظم الحروب التى وقعت فى

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

القرن التاسع عشر انذارات بالحرب عدا حرب ١٨٧٨ التى وقعت بين شيلى وبيرو وبوليفيا

وقامت الحرب بين روسيا واليابان فى سنة ١٩٠٤ بدون انذار سابق • ولما احتجت روسيا أجابت اليابان بان القانون الدولى لا يحتم بدء الحرب باعلان

وفى سنة ١٩٠٧ ابرمت اتفاقية لاهاى واشترط فيها الا تبدأ حرب الا بعد اخطار سابق لا مواربة ولا غموض فيه • وسواء اتخذ الاخطار صورة اعلان أو انذار نهائى فيجب ان يكون مسببا • ولا يشترط انقضاء فترة زمنية بين الاخطار وقيام حالة الحرب• ومعنى ما تقدم جواز أخذ الخصم على غرة • على ان الحرب تسبقها دائما سحب تنذر بقرب وقوع حالة الحرب • ولا تعد الحرب مفاجئة حقيقية الا اذا وقعت بين دولتين لم يقع بينهما احتكاك سابق كما حدث بين ايطاليا والبانيا فى مارس ١٩٣٩

وعلى الرغم من ارتباط بلغاريا باتفاقية لاهاى فقد شنت الحرب على تركيا فى الحرب البلقانية الثانية بدون اعلان . وقد راعت الدول المتحاربة فى الحرب العظمى (١٩١٤ – ١٩١٨) اتفاقية لاهاى عدا بلغاريا فقد اغارت على صربيا بلا انذار سابق

وعلى الرغم من العهود والمواثيق التى ارتبطت بها الدول كعهد عصبة الامم وميثاق بريان وكيلوج فقد تلاشت قاعدة الانذار السابق فلم تعلن حرب فيما حدث بين روسيا واليابان والصين فى سنة ١٩٢٩ ، ثم بين الصين واليابان منذ سنة ١٩٣٦ ، وبين ايطاليا والحبشة فى سنة ١٩٣٥ ، وبين باراجواى وبوليفيا فى ١٩٣٣ . وفيما كان من اجتياح المانيا دول أوربا منذ بداية الحرب الحالية • ولم ينس الناس بعد ما حدث فى أمس الغابر من هجوم الاسطول اليابانى على جزر هاواى الامريكية وميناء بيرل بدون سابق انذار

وقد تتحرى دولة مراعاة احكام اتفاقية لاهاى فتنذر خصمها وبذلك تزول المفاجأة ولكن الفترة المحددة فى الانذار قد تكون من القصر بحيث لا تترك للعدو مجالا للتفكير أو للاستعداد ، كما حدث فى سنة ١٩٤٠ لما قرع وزير ايطاليا المفوض باب رئيس وزارة اليونان فى الساعة الثالثة صباحا وحدد له لاجابة طلبات ايطاليا مهلة لا تتجاوز الساعة السادسة صباحا • وبذلك حققت ايطاليا لنفسها مزية المفاجأة بفعل وزيرها «المسحراتى»

وسواء أكانت الحرب مسبوقة أم غير مسبوقة بانذار فهى قائمة من الناحية القانونية ومن ثم يترتب عليها كل احكام الحرب

تنظيم قواعد الحرب

لم تكن للحرب فى بادىء الامر قواعد منظمة لها فكان الامر فوضى وكان المتحاربون لا يتحرجون من ارتكاب مختلف انواع العنف والقوة والتقتيل بلا تمييز• ويقول الماوردى ان الاسلام حرم قتل النساء والولدان فى حرب ولا فى غيرها ما لم يقاتلوا لنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل العسفاء (المستخدمين) والوصفاء (المماليك) فان قاتل

ARCHIVE

النساء والولدان قوتلوا وقتلوا مقبلين ولا يقتلوا مدبرين ، واذا تترسوا فى الحرب بنسائهم واطفالهم عند قتلهم يتوقى قتل النساء والاطفال ، وعلى الامير ان يأخذ جيشه بما أوجبه الله تعالى من حقوق وأمر به من حدوده حتى لا يكون بينهم تجوز فى دين ولا تحيف فى حق فان من جاهد عن الدين كان أحق الناس بالتزام احكامه والفصل بين حلاله وحرامه، وفى الحديث الشريف : « انهوا جيوشكم عن الفساد فانه ما فسد جيش قط الا سلط الله عليه الموتان » وقال ابو الدرداء : « أيها الناس عمل صالح قبل الغزوة فانما تقاتلون بأعمالكم » . وأوجب الشرع الاسلامى على أمير الحرب ان لا يمكن أحدا من جيشه ان يتشاغل بتجارة أو زراعة لصرفه الاهتمام بها من مشاغلة العدو وصدق الجهاد

واذا عقدت هدنة مع العدو فلا يجوز للمسلمين اذا نقض العدو عهده ان يقتلوا ما فى ايديهم من رهائن ، فقد نقض الروم عهدهم زمن معاوية وفى يده رهائن فامتنع المسلمون جميعا من قتلهم وخلوا سبيلهم وقالوا « وفاء بغدر خير من غدر بغدر » وقال الرسول « أد الامانة لمن أئتمنك ولا تخن من خانك » ثم ينظر فى الرهائن فان كانوا رجالا وجب ابلاغهم مأمنهم وان كانوا ذرارى نساء واطفالا وجب ايصالهم الى اهاليهم لانهم اتباع لا ينفردون بانفسهم • وحرم الشرع الاسلامى هدم الكنائس والبيع حماية للاديان كلها « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا »

ونهى القرآن عن حرب الاعتداء فقال تعالى : « قاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين »

ونهى الشرع الاسلامى عن تعذيب الناس وفى الحديث الشريف « ان الذين يعذبون الناس فى الدنيا يعذبون فى الآخرة »

وحين افتتح المسلمون البلدان ساروا على هذه القواعد وتركوا البيع والكنائس فى المدن والامصار ولم يهدموها وتركوا النصارى يخرجون بالصلبان فى أيام عيدهم

ولما قامت الحروب الصليبية لم يخرج المسلمون فى قتال الصليبيين عن قواعد الدين الحنيف وما أمر به من الرفق بالناس فى دار الحرب ودار السلام • اما الصليبيون فقتلوا فى المعرة جميع من كان فيها من المسلمين ممن لجأوا الى المساجد • وتعصب الصليبيون فى القدس واكرهوا العرب على القاء انفسهم من أعالى البروج والبيوت ، ويحرقونهم ويجرونهم فى الساحات ، واحرقوا دار الحكمة فى طرابلس • ولما استرجع صلاح الدين القدس أبقى على حياة مائة ألف صليبى واستوصى بهم خيرا ، وخالف فقهاءه فيما ارتأوه من معاملتهم بمثل ما عومل به المسلمون فى الماضى ، وأغضى عن جواهر الصليبيين ، وسهل سبيل خروج ملكتين بما معهما من مال وخدم • ونسى الافرنج معاملة صلاح الدين وذلك ان ريشارد قلب الاسد لما استبطأ دفع الغرامة التى فرضها على صلاح الدين ولم يرد اليه صليب الصلبوت أخذ ألفين من أسرى المسلمين وقتلهم بمرأى من عساكر صلاح

الدين بيد ان المسلمين قابلوا بعد حين هذه المذابح بمثلها فى عهد الملك الظاهر وقلاوون •
ومما يروى عن صلاح الدين انه أخلى سبيل الاسارى من النصارى بدون فدية وبعث بطبيبه الى أحد زعماء الصليبيين ليداويه من مرضه

اما فى أوربا فقد تهذبت قواعد الحرب بفضل ما قام به رجال الدين من تقرير « سلم الرب » و « هدنة الرب » واكتسبت هذه القواعد على مر السنين والاعوام صفة الالزام وصارت عرفا متبعا ملزما لكل الدول ولو لم يشترك بعضها فى تكوينه • وتضمنت المعاهدات الدولية بعض قواعد الحرب • واصدرت بعض الدول قواعد خاصة بمعاملة أسرى الحرب • واحدثها ما فعلته الدول الشمالية وابرامها اتفاقية تقضى بالتزامها الحياد طبقا للقواعد التى اقرها المؤتمر المنعقد بينها فى ١٩٣٨

فيما يترتب على الاخلال بقواعد الحرب

تصدر الدول قوانين خاصة لتنفيذ احكام هذه المعاهدات . من ذلك ما نصت عليه اتفاقية الصليب الاحمر ١٩٢٩ من وجوب ابلاغ الجيوش احكام هذه المعاهدة

وتنص القوانين القومية فى مختلف الدول على عقاب من يرتكب مخالفات لقانون الحرب وهو ما فعله المشرع المصرى حيث أصدر القانون رقم ١٢ لسنة ١٩٤٠ لمعاقبة كل من قلد شعار الهلال الاحمر أو الصليب الاحمر أو الاسد الاحمر أو الشمس الحمراوين أو اسماءهما • وأضيفت المادة ٢٥١ ع مكررة وفقرة الى المادة ٣٧ ع والمادة ٣٦١ ع مكررة للعقاب على جرائم القتل والجرح والضرب اثناء الحرب على الجرحى من الاعداء ، وتخريب المنشآت التابعة أو الوحدات الصحية المتنقلة للقسم الطبى فى الجيش أو التابعة له الخ

واخلال الدولة بقواعد الحرب يعرضها لاعمال القصاص من الدول الاخرى المحاربة والتعويض عما احدثته من اضرار • ويقضى العرف الدولى بان للدولة المحاربة ان تحاكم من يقع فى ايديها من رجال العدو عما اقترفوه من مخالفات لقواعد الحرب كسوء استعمال علم الهدنة أو تقتيل الجرحى أو الخروج على القوات المحتلة أو اشتراك المدنيين فى اعمال القتال أو التجسس او الاستيلاء على اسلاب القتلى والجرحى • ونصت معاهدة فرساى على محاكمة الاشخاص الذين ارتكبوا مخالفات لقانون الحرب وقد أعد بيان بهم وكان فى طليعتهم اسم المارشال هندنبورج واقترح انشاء محكمة عليا للنظر فى هذه الجرائم ثم اقتصر على محاكمة بعض المتهمين امام المحكمة العليا بليبزج وأدين القليل وبرىء الباقون

ونصت معاهدة فرساى على أن الدول المتحالفة تتهم علنا غليوم الثانى ، امبراطور المانيا السابق بانه تجنى على الخلق الدولى وعلى القوة المقدسة للمعاهدات • ونصت على تأليف محكمة مكونة من خمسة قضاة تعينهم الولايات المتحدة الامريكية ، وبريطانيا العظمى وفرنسا وايطاليا واليابان ، ومطالبة هولاندا بتسليم الامبراطور السابق ، الا ان هولاندا

رفضت هذا الطلب • وحاكمت انكلترا بعض الاعداء الذين وقعوا فى قبضتها ونفذت عليهم العقوبات الصادرة من المحاكم الانكليزية

وتعمد الدولة المحاربة الى مقابلة المثل بالمثل أو الثأر لانعدام الوسيلة لحمل الخصم على الاقلاع عن مخالفة القانون • ولا يعد الثأر حقا للدولة ولكنه اجراء استثنائى يبيحه القانون الدولى فى حالة الضرورة القصوى مقابل ما قام به الخصم من مخالفة لقانون الحرب • من ذلك ما حدث فى الحرب العظمى من استعمال الحلفاء للغازات الخانقة مقابل استعمال الالمان لهذه الغازات • ونص بروتوكول ١٩٢٥ الذى حرم استعمال الغازات الخانقة والسامة على ان التزام الدولة المحاربة بهذا الواجب مشروط فيه المعاملة بالمثل ، وضرب المتحاربون فى الحرب الحالية العواصم والمدن والقرى والدساكر بالقنابل مقابلة للمثل بالمثل

ولم تفلح الدول فى وضع حد لاعمال القصاص الا فيما يتعلق باتفاقية الصليب الاحمر ، فنص فيها على انه لا يجوز الثأر من أسرى الحرب

وتعمد الدول أحيانا الى مطالبة الدولة التى أخلت بقواعد الحرب بتعويض الضرر الناشىء عما اقترفته من مخالفات استنادا الى المادة الثالثة من الاتفاقية الرابعة المعقودة فى لاهاى سنة ١٩٠٧ . على ان الدولة المنتصرة لا تطالب بالتعويض طبقا لهذه المادة بل تكتفى بالتعويضات التى تفرض على الدولة المقهورة كما حدث فى الحرب العظمى (١٩١٤-١٩١٨) • وتسأل الدول المحاربة قبل الدول المحايدة عن تعويض الاضرار الناشئة عن مخالفة قواعد الحرب • ويقدر التعويض بمعرفة هيئة تحكيم

وكان من أثر حرب الغواصات فى الحرب الكبرى ان احتجت بعض الدول على ألمانيا لعدم مراعاتها قانون الحرب • ولما عقد مؤتمر واشنجتون البحرى فى ١٩٢١-١٩٢٢ أقر المؤتمر مشروع الشيخ روت Root وقد فرض على قبطان الغواصة مراعاة قواعد خاصة فان لم تراع واغرقت سفينة عد كل من اشترك فى هذا التصرف انه ارتكب عملا من اعمال القرصنة وجاز لكل دولة ولو كانت محايدة موقعة على هذا الاتفاق ان تحاكم الجانى

وتلجأ بعض الدول احيانا الى حجز بعض الاشخاص النابهين كرهائن وتستبقيهم ضمانا لمراعاة القانون ، وهذا ما فعلته ألمانيا فى الحرب السبعينية • وما تفعله الآن فى فرنسا المحتلة • على أن ما قامت به ألمانيا أخيرا يدخل فى باب الاخذ بالثأر فقد قبضت على بعض الفرنسيين واعدمتهم بسبب الاعتداء على القوة المسلحة الالمانية

ونشير أخيرا الى ما اتبعته ألمانيا من فرض غرامات كبيرة على سكان اقليم أو مدينة بسبب قطع اسلاك الكهرباء أو التليفون

محمد صالح

ARCHIVE
http://archive.sakhrit.com

اليابان ولماذا أشهرت الحرب

بقلم الاستاذ الدكتور محمد عوض محمد

ان اليابان قد شهرت هذه الحرب الجريئة الواسعة النطاق اجابة لخطة العدوان التي ترمي الى الاستيلاء على جميع أقطار الشرق الأقصى، وعلى النصف الغربي من المحيط الهادى وعلى جزر الهند الشرقية وثروتها العظيمة

فى نهاية الأسبوع الاول من شهر ديسمبر الماضى سمع الناس - فى شيء غير قليل من الدهشة - أن اليابان صارت فى حرب مع الولايات المتحدة وبريطانيا ، ولم يكن سبب الدهشة أن الناس كانوا يرون أن مثل هذه الحرب أمر مستحيل الوقوع . ولكن لم يكن أحد يتوقع أن تشتعل الحرب وسفراء اليابان فى واشنطون منهمكون فى المفاوضة والتفاهم مع حكومة الولايات المتحدة، والرئيس روزفلت يبعث إلى الميكادو رسالة ودية يناشده فيها السلم والصداقة

لم تكتف اليابان إذن باعلان الحرب بل شهرتها بأسلوب جديد ، جمعت فيه بين العنف والغدر ، وبين المفاجأة والبعد عن كل مراعاة لعرف أو اصطلاح دولى . . ومن العبث أن يقول قائل إن هذا شبيه بما فعلته المانيا فى زحفها على بولندة فى أول الحرب وعلى روسيا فى الصيف الماضى. فان من المعلوم أن الزحف على بولندة سبقته مفاوضات عديدة فشلت كلها فشلا تاما . أما الزحف على روسيا فى يونيو الماضى ، فقد سبقه توتر ظاهر فى العلاقات بين الحليفتين . . لهذا لابد من التسليم بأن اليابان فى اغارتها على الأراضي الامريكية ، وسفراؤها يفاوضون فى الصداقة والسلم ، قد ظهرت بمظهر عدوانى جديد ليس له فيما نعلم شبيه . لقد قيل إن اليابانيين تلاميذ مهرة، ولكن من الواضح أنهم كثيراً ما بزوا أساتذتهم ومعلميهم

ولم يكن من الاسراف فى الأمل أن يرجو الانسان أن تمتنع اليابان عن خوض غمار الحرب . فهى حديثة عهد بالاستيلاء على منشوريا ، وهى قطر واسع عظيم الثروة . ومنذ عهد قريب بسطت نفوذها على الهند الصينية وهى أغنى مستعمرات فرنسا . ولليابان جيوش جرارة تحارب فى الصين منذ أربع سنوات ، وقد تم لها فتح جزء عظيم منها . ومهما قيل فى حاجة اليابان إلى التوسع فى أقطار جديدة ، فان من الواضح أن قطراً مثل منشوريا هو وحده غنيمة من أكبر الغنائم وميدان عظيم للنشاط الاقتصادى . ولو أن اليابان جنحت الى السلم لاستطاعت بالمفاوضة أن تنال مغانم

أخرى من غير أن تريق دماً أو تنفق درهماً

وهنالك ظروف أخرى لا تقل غرابة عما تقدم ، منها أن اليابان امتنعت عن إعلان الحرب على روسيا مع أن هذه هى العدو اللدود ، ومنها أن إعلان الحرب صدر عن القيادة العليا للجيش ولم يصدر عن رجال الحكومة

ولكي نستطيع أن نفهم ما يجرى اليوم فى شرق آسيا وفى المحيط الهادي ، لابد لنا أن نعرض للتطور السياسى والحربى الحديث لدولة اليابان، وللنزعات المختلفة التى تصدر عنها ، وللدوافع والتيارات التى تدفعها

الجزر اليابانية والجزر البريطانية

يحتل الشعب اليابانى مجموعة من الجزر متاخمة للجانب الشرقى من آسيا فى إقليم معتدل الهواء غزير المطر . ولابد لنا أن نفرق بين الجزر التى يسكنها اليابانيون وبين ما قد استولوا عليه من الصين أو غيرها من الدول . فالجزر الأصلية لشعب اليابان هى أربع جزر رئيسية ذات حجم كبير. وأعظمها جزيرة هنشو (أونيبون) والى الشمال منها جزيرة هوكايدو (أويزو) والى الجنوب من هنشو جزيرة شكوكو وكيوشيو ، وهما ملاصقتان لهنشو لا يفصلهما عنها إلا مضايق قليلة الاتساع . ومساحة هذه الجزر لا تتجاوز أربعمائة ألف من الكيلو مترات المربعة يسكنها نحو سبعين مليونا من اليابانيين . وهذه الجزر واقعة بين خط العرض الثلاثين والخامس والاربعين

فبلاد اليابان الاصلية إذن بلاد جزرية ، ولهذا كثيراً ما يشبهها الناس ببريطانيا ، ولكن لابد أن نذكر أن هنالك وجوه اختلاف لا تقل أهمية عن وجوه الشبه المذكور . وأهم وجوه الخلاف :

(١) أن الجزر اليابانية فى إقليم أكثر اعتدالا وهواؤه أكثر دفئاً من هواء الجزر البريطانية

(٢) إن مساحة الجزر اليابانية تزيد على مساحة الجزر البريطانية بنحو النصف

(٣) ان الجزر اليابانية أكثر انفصالا عن قارة آسيا من انفصال الجزر البريطانية عن قارة أوربا

وهنالك ظروف سياسية وبشرية جعلت وجوه الاختلاف بين الدولتين تربو على وجوه التشابه

وأهم هذه الظروف أن اليابان الحديثة أخذت تتوغل فى القارة الأسيوية . أما بريطانيا فقد ابتعدت بالتدريج عن أوربا ولم يعد لها فى تلك القارة شبر واحد من الارض . وفى أوربا دول عديدة ذات قوة وخطر ، وفى آسيا لم تواجه اليابان سوى دول ضعيفة ، مفككة ، مثل كوريا والصين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وسنرى هذا كله بوضوح حينما نتتبع التطور السياسى لدولة اليابان الحديثة

إن التاريخ الحديث لليابان إنما يبدأ فى منتصف القرن الماضى ، ومن قبل ذلك العهد كانت اليابان بلاداً منقطعة عن العالم تمام الانقطاع لا تربطها به صلات سياسية أو ثقافية أو تجارية اللهم إلا ما كان من تبادل قليل فى السلع يقوم به جماعات من الهولنديين فى نقطة واحدة فى أقصى الطرف الغربى من جزيرة كيوشيو عند بلدة ناجازاكى

والذى يهمنا هنا هو بالطبع تطور اليابان الحديث ، ومع هذا فان اليابان الجديدة لا يمكن أن تفهم على وجهها الصحيح من غير إشارة الى اليابان القديمة ، والى الظروف التى تكونت فيها تلك الدولة والمراحل التى سارت فيها

اليابان القديمة

دخل الشعب اليابانى الى جزيرة اليابان فى عدة هجرات متتالية حدثت ما بين عام ١٠٠٠ وعام ٥٠٠ قبل المسيح . ونحن لا نعرف على وجه التحقيق من أين جاءت هذه القبائل أو الجماعات . ولكننا نعرف أنها عناصر مغولية جاءت عن طريق شبه جزيرة كوريا ، ونزلت فى الاطراف الجنوبية الغربية من تلك الجزر . واحتشدت فيها ثم أخذت تتقدم بالتدريج نحو الشمال والشرق غازية فاتحة ، وهى تلقى مقاومة عنيفة من القبائل الاصلية التى كانت تحتل الجزر من قديم الزمان . وكان تقدم الغزاة بطيئاً جداً ، بحيث لم يتم لشعب اليابان حتى القرن العاشر الميلادى أن يستولى الا على نحو ثلثى مساحة الجزر . ومضى زمن طويل قبل أن يتم اخضاع السكان الاصليين وإخضاع الجزر لحكومة واحدة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قضى الشعب اليابانى اذن فى عهد تكوينه مدة لا تقل عن الالفى عام فى حروب طاحنة لا تهدأ ولا تنقطع . وهذه الحقيقة لا بد من تذكرها وتوكيدها ، لأن لها أكبر الاثر فى تطور الشعب اليابانى الحديث . فقد نشأ عن هذه الحروب الطويلة نظام إقطاعى حربى يتألف من زعماء حربيين يسمون الدايميو ، ولكل زعيم طائفة من المحاربين تدعى الساموراى ، حرفتهم الحرب يتوارثها البنون عن الآباء . وقد تعلموا حرفتهم هذه فى ظروف قاسية لا ترحم

من هؤلاء الساموراى تكونت طبقة خاصة من الشعب وهى طبقة المحاربين وبات لها المقام الأسمى بين جميع الطبقات . وفى الوقت الذى نشأت فيه الفنون والصناعات اليابانية المختلفة وكثرت الثروة وأسباب الترف واللهو بين طبقات الامة الاخرى ، نرى الساموراى محافظين على تقاليدهم وأسلوبهم الخاص فى المعيشة . وتكون لهم على مدى الزمن ناموس حربى أطلق عليه اسم بوشيدو أو طريق المحارب . ومن أهم عناصر هذا الناموس : الزهد والتقشف ، والبعد عن كل مظاهر الزينة والزخرف ، والاخلاص الشديد للرئيس . فالساموراى لا يلهو كما يلهو الناس .

بل لا بد له أن يلتمس اللهو فى الرياضة الحربية كالصيد ، والساموراى يتعلم منذ طفولته أن يكون مستعداً للتضحية بنفسه . وقد اشتهرت عنه طريقة بشعة للانتحار وهى أن يبقر بطنه بسيفه . وهذه الوسيلة هى المعروفة باسم هاركرى ، وهناك ظروف ثلاثة يلجأ فيها الساموراى الى الانتحار : الاولى إطاعة لأمر رئيسه جزاء له على ذنب اقترفه . وهو يفضل أن يموت بيده لا بيد غيره . والثانية ، أن ينتحر لكيلا يقع فى أيدى العدو . والثالثة أن يقدم على الانتحار احتجاجاً على ظلم صادر من رئيسه أو على أمر أتاه هذا الرئيس ، ولا يملك الساموراى وسيلة أخرى للاحتجاج بها على ذلك الحادث أو الخطة التى سار عليها زعيمه

وللساموراى وحده الحق فى أن يحمل السلاح ، وهو يحتقر المادة ، ولا يحصل من رؤسائه الا على أجر زهيد

إن نظام الساموراى قد ألغى بعد نهضة اليابان الحديثة كما سنرى ، وفرض التجنيد الاجبارى فى عام ١٨٧٣ ولم يعد فى البلاد منذ ذلك العهد طبقة خاصة حرفتها الحرب . ولكن من الخطأ أن نحسب أن الغاء الساموراى ، قد محا كل أثر لهذا النظام . فلقد خلق الساموراى فى البلاد تقاليد ومثلا خاصة للمحارب ، قوامها الطاعة العمياء ، والاخلاص للزعيم ، والتضحية السهلة بالروح ، والزهد والتقشف . ولا شك فى أن هذه التقاليد تركت أثراً دائماً فى الجندى اليابانى . وسنرى فيما يلي أن هذه التقاليد الحربية العنيفة قد كان لها أثر فى تقوية الرجعية واضعاف النظام النيابى فى البلاد

ان اليابان قد استعارت جميع عناصر ثقافتها من الصين ، فعلومها وفنونها ونظمها وكتابتها وديانتها كل ذلك وسواه من عناصر الحضارة مشتق من الصين . والامر الوحيد الذى ابتكرته اليابان وكان وليد الظروف القاسية التى تكون فى ظلها الشعب اليابانى هو هذا النظام العسكرى الدقيق . ومن هنا الفرق الهائل بين الامتين . بين الصين الوادعة المسالمة ، وبين اليابان التى اعتنقت دين الحرب والعدوان

اتصال اليابان بالعالم الخارجى

فى الوقت الذى قدر فيه لليابان أن تتصل بالعالم الخارجى ، كان نظامها السياسى عبارة عن نظام اقطاعى حربى ، فالبلاد مقسمة بين زعماء عسكريين لكل منهم جيشه من الساموراى . وعلى رأس هؤلاء الزعماء قائد يختارونه من بينهم لقبه شوجن وهو الرئيس الحقيقى وصاحب السلطان الاكبر للبلاد . أما الميكادو فقد أصبح مجرد رمز للرئاسة ، موضع الاحترام من غير شك ، ولكن لم يكن له نفوذ أو سلطان

ومضت القرون وبلاد اليابان مغلقة لايدخلها أو يقترب منها أجنبى ، الى أن وصل الاوربيون الى المحيط الهادى وانتشرت فيه جماعات من البرتغال والاسبان والهولنديين . وتجرأ بعضهم

فدخل الى بلاد اليابان فى القرن السادس عشر والسابع عشر ونشروا التعاليم المسيحية بين جماعات من سكان البلاد . ولكن روح النفور من الاجنبي لم تلبث أن عادت فأوقدت نار الكراهية والبغضاء للنصرانية وأشياعها

وطرد المبشرون وشردوا أو قتلوا ، وحكم بالقتل على من يظل متمسكا بالمسيحية . وعادت البلاد فانطوت على نفسها مرة أخرى قاطعة كل صلة لها بالعالم الخارجى . ولم يبق من التجارة الخارجية سوى شىء يسير حصل عليه بعض الهولنديين على شرط أن يقيموا فى بلدة ناجازاكى

والحادث الخطير الذى أدى الى إزالة الأقفال عن اليابان هو أن أميرالا أمريكيا يدعى برى وفد على البلاد فى عام ١٨٥٣ لعقد اتفاق بين رئيس الولايات المتحدة وأمبراطور اليابان . من أجل التجارة ، ومساعدة السفن الامريكية التى تتحطم على صخور الجزر اليابانية . جاء الاميرال برى إذن فى بعثة سلمية ، ولكنه اصطحب معه عدداً كبيراً من السفن والبحارة ، لكى يظهر ما للبعثة التى يرأسها من الشأن والخطر . وقد تم له النجاح فيما أراد . واستطاع أن يعقد المعاهدة المنشودة وأن يطلع اليابان على كثير من عناصر الحضارة الغربية ، والمبتكرات الحديثة فى بلاده

ومن الجائز أن فريقا من ذوى الرأى فى اليابان كانوا على شىء من العلم بالحضارة الغربية راغبين فى فتح أبواب البلاد للتجارة الخارجية . ولكنهم كانوا عاجزين عن رفع صوتهم وإظهار رغبتهم هذه . فأتاحت لهم تلك الزيارة الخطيرة الفرصة المواتية ، فان التطورات الهائلة التى حدثت فى البلاد بعد ذلك كانت من القوة والسرعة بحيث لا بد لنا أن نفترض وجود استعداد سابق لتلك التطورات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومهما يكن من شىء فقد تتابعت أحداث عظيمة قلبت النظم القائمة قلباً شديداً بحيث استحقت تلك الحوادث أن تنعت بأنها ثورة . وكان أهم عنصر فى هذه الثورة الغاء النظام الاقطاعى ، وتوحيد الحكومة تحت رئاسة الميكادو . وقد ساعد فى سرعة الوصول الى هذه النتيجة مبادرة الزعماء أنفسهم بالتنازل عن حقوقهم . وادراكهم أن اليابان لابد أن تجارى الزمن ، وأن تأخذ بأسباب الحضارة الغربية . وتتابعت الاصلاحات المختلفة فى زمن وجيز وبسرعة هائلة توشك أن تكون معجزة . فأدخل نظام التجنيد الاجبارى ، وأنشئت البحرية على الأسلوب الغربى، واستدعى الخبراء الأوروبيون للمساعدة فى اقامة الاصلاحات الحديثة . ومدت الخطوط الحديدية ، وكثرت المبادلات التجارية ، وأنشئت المصانع وسنت القوانين ، وأنشىء النظام البرلمانى ، ولم يكد القرن التاسع عشر أن ينتهى حتى كان العالم كله مندهشاً لسرعة النهضة اليابانية ، معجباً بها اعجاباً كبيراً . وكان من أهم العوامل التى ساعدت فى هذا التطور أن ارتقى عرش اليابان ميكادو حديث السن اتخذ لنفسه لقب ميجى (الحكم المتنور) وطالت مدة حكمه من ١٨٦٨ الى ١٩١٢ ، وكان حاكما متنوراً حقيقة ، وقد سمى عهد نهضة اليابان باسمه

ماذا فعلت اليابان بنهضتها

والآن وقد عرضنا الظروف والحوادث الهامة لنهضة اليابان الحديثة ، نستطيع أن نتساءل عما فعلته اليابان بنهوضها هذا ، والى أى الطرق ساقها ، وللاجابة على هذا السؤال يحسن بنا أن نقسم تاريخ اليابان الحديثة الى ثلاثة مراحل : الأولى فترة الانتباه ، والثانية مرحلة الدفاع ، والثالثة مرحلة الهجوم والعدوان

فنى الفترة الاولى انتبهت اليابان فألفت نفسها متخلفة فى ميدان التطور السياسى والاقتصادى ، وان من الواجب عليها أن تبادر بمجاراة التيار الغربى ، وإلا اكتسحها واجترفها . فانها لم تكد تفتح عينيها غب نهضتها حتى رأت أحداثا جسيمة تهدد كيانها ، وهذه الأحداث تقع أمام بصرها وعلى أبوابها

وبلاد اليابان – كما ذكرنا – دولة بحرية جزرية تحيط بها المياه من كل جانب ، ولكن سواحلها شديدة القرب من قارة آسيا . فالى الشمال تمتد جزيرة سخالين الملاصقة لسواحل سيبريا ، والى الغرب تمتد شبه جزيرة كوريا ، ومن ورائها فى البحر الاصفر شبه جزيرة لياوتنج وشبه جزيرة شانتونج . ومن وراء كوريا أيضاً بلاد منشوريا الواسعة الاطراف ، الغنية التربة القليلة السكان . . . ومن كل هذه المواضع يمكن الاغارة على الجزر اليابانية . ولم يكن هنالك خطر داهم يوم كانت هذه الخصومة بين اليابان وكوريا أو بينها وبين الصين ... ولكن الحكومة الجديدة لم تكد تنشأ حتى رأت قوة جديدة تمد يدها الى المحيط الهادى ، وتبسط نفوذها على جزء كبير من السواحل المواجهة لليابان . وينذر تقدمها السريع بأن ستمتد يدها الى أجزاء أخرى من تلك السواحل

تلك القوة هى روسيا القيصرية . فقد استطاعت روسيا أن تحصل من دولة الصين الضعيفة على الاعتراف بسيادتها على سواحل سيبريا الشرقية بما فيها الميناء الطبيعى العظيم فى خليج بطرس الأكبر ، ولم تلبث روسيا أن أقامت هناك مرفأ عظيما للسفن وأطلقت على الميناء اسم فلاديفستك (أى حاكم الشرق) . وفى الوقت نفسه أكرهت روسيا حكومة اليابان على التخلى لها عن حقوق اليابان فى جزيرة سخالين ، فى مقابل تنازل روسيا لليابان عن مجموعة الجزر الشمالية المسماة جزر كوريلى ، القليلة الفائدة الاقتصادية . وبذلك أصبحت روسيا لا يفصلها عن جزيرة يزو اليابانية سوى مضيق لابروز الضيق

وفى عام ١٨٩١ بدأت روسيا ببناء خط حديد سيبريا العظيم وأتمته فى عشر سنين ووصلت به ميناء فلاديفستك بروسيا مباشرة ، وأنشأت لهذا الخط فرعاً يمتد فى عرض منشوريا ، من الشمال الى الجنوب ، وليس من شك فى أن هذا الخط الحديدى كان يقصد به أن يكون وسيلة لاتساع النفوذ الروسى فى شرق آسيا

وكانت اليابان فى هذه الفترة القصيرة قد أتمت تجهيز قوتها الحربية على الطرق الأوربية الحديثة ، وتنبهت الى الخطر الروسى ، وخشيت أن يمتد الى منشوريا . فقررت أن تقوم بعمل جريء ، فأرسلت جيشاً الى كوريا ، وللصين سيادة اسمية على هـذه البلاد ، فنشأت حرب بين اليابان والصين فى عام ١٨٩٤ و١٨٩٥ انتصرت فيها اليابان انتصاراً كاملا ، وبمقتضى معاهدة الصلح التى عقدت بعدها ، تنازلت حكومة الصين لليابان عن حقوقها فى كوريا ، وعن شبه جزيرة لاوتنج وعن جزيرة فرموزا

وفى هذه اللحظة تدخلت روسيا والمانيا وفرنسا ، ورفضت الاعتراف لليابان باحتلال أى جزء من أجزاء القارة الاسيوية . أى أن اليابان لم تجن من ثمار هذه الحرب سوى الاستيلاء على جزيرة فرموزا

وهذه الدول الاوربية لم تقم بعملها هذا حباً فى الابقاء على ممتلكات الصين ، فانها ما لبثت أن حصلت من هذه الدولة على امتيازات عديدة . فأحرزت روسيا ميناء بورت أرثر ودالنى فى جنوب شبه جزيرة لاوتنج ، وبادرت بمد خط حديدى يصلهـا بالسكة السيبرية الوشيكة الانتهاء . وأحرزت المانيا منطقة كياوتشاو فى جنوب جزيرة شانتنج ، وحصلت فرنسا وبريطانيا على امتيازات ثانوية . وحتى إيطاليا تقدمت الى الصين ببعض المطالب

كان من البديهي أن الخطر الروسى هو أكبر الأخطار جميعاً ، لأنه يقوم على امتلاك أقطار ملاصقة لليابان ، ويستند الى خطوط حديدية برية . بحيث تستطيع روسيا أن تسوق الى الميدان قوات برية وبحرية فى آن واحد . فلم يكن بد من أن تصطدم القوتان . وأحست اليابان بضرورة المبادرة بدرء هذا الخطر الأكبر . فبادرت بالاغارة براً وبحراً على القوات الروسية . ودامت الحرب بينهما عام ١٩٠٤ و ١٩٠٥ وفى هذه الحرب أظهرت اليان فى خططها الحربية أموراً تشبه بعض الشبه ما شاهدناه فى حربها الحالية ، وأخص هذه الصفات الاستعداد الكبير الذى لم يكن أحد يتوقعه ، والمفاجأة والمباغتة قبل انذار العدو . ولهذا كانت الانتصارات الأولى فى الحرب الروسية انتصارات سريعة وحاسمة . ولكن فى المرحلة الثانية من الحرب قاوم الروس مقاومة شديدة ، وبدأت كفتهم ترجح قليلا ، بحيث بادر الفريقان بقبول دعوة تيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة الى القاء السلاح والاجتماع للمفاوضة فى بورتسموث بأمريكا حيث عقدت معاهدة الصلح . فاعترفت فيها روسيا لليابان بالسيادة فى كوريا ، وفى شبه جزيرة لياوتنج ، وتنازلت عن النصف الجنوبى من جزيرة سخالين ، وعن الجزء الجنوبى من سكة حديد منشوريا المتصل بميناء بورتأرثر

هذا ما جنته اليابان من حربها مع روسيا ، فى مقابل ربع مليون من القتلى ومائتى مليون من الجنيهات . ولم يستطع رجالها أن يحصلوا من روسيا على غرامة مالية . لأن الانتصار اليابانى لم

يكن ساحقاً كما يتوهم كثير من الناس . ولم يرد المفاوضون اليابانيون أن يجازفوا باشعال الحرب من أجل تعويض مالى

ولكن حكومة اليابان الى جانب هذا الانتصار الحربى ، استطاعت أن تحرز فى الميدان السياسى نصراً خطيراً ، وذلك بعقد محالفة مع بريطانيا . وكانت بين الدولتين معاهدة منذ عام ١٩٠٢ تحولت الي محالفة فى عام ١٩٠٥ . وقد وجدت بريطانيا ، التى كانت تنظر بعين القلق الى التوسع الروسى فى آسيا ، أن اليابان حليف طبيعى ، ومن المهم أن نذكر هنا الشروط الأساسية لهذه المحالفة ، فان هذه الشروط كثيراً ما ترددت فى مناسبات عديدة ، وهى :

(١) المحافظة على السلم فى شرقى آسيا والهند (٢) المحافظة على استقلال الصين وكيانها الكامل ، وأن تكون الفرص التجارية والصناعية فيها متاحة للجميع على قدم المساواة (٣) والمحافظة على الحقوق الاقليمية ، والدفاع عن مصالحهما الخاصة فى شرق آسيا والهند (٤) وأن تقوم كل دولة بتقديم المساعدة الحربية اللازمة لحليفتها اذا اعتدى عليها بدون استفزاز

الى هنا نستطيع أن نعد مرحلة الدفاع فى تطور اليابان الحديث ، قد انتهت . وقبل أن ننتقل الى المرحلة التالية لا بد لنا أن نقف لحظة ، لنرى حالة اليابان الاقليمية بعد أن دافعت عن نفسها هذا الدفاع المتين . . لقد أصبحت الجزر اليابانية ممتدة من جزر كوريلى فى الشمال الى فرموزا فى الجنوب ، أى من دائرة ٢٢ الى دائرة ٥٢ من دوائر العرض ؛ وهى مساحة بحرية طولها نحو ثلاثة آلاف من الكيلومترات ؛ وقد أبعدت روسيا عن الجزر اليابانية باحتلال نصف جزيرة سخالين ، وباحتلال كوريا ، (التى ضمتها اليابان نهائياً عام ١٩١٠) ، وباستيلائها على شبه جزيرة لياوتنج ، وبأن أصبحت منشوريا لها بمثابة « منطقة نفوذ » . ان هذه الامتيازات الهائلة كفيلة — بل هى أ كثر من كفيلة — بأن تفى بجميع ما تتطلبه ضرورات الدفاع عن الوطن اليابانى ، وفيها مجال للتوسع ولزيادة السكان وللاستغلال الاقتصادى ، بحيث تستنفد جميع المطامع المعقولة فى مدى قرن أو أ كثر من السنين

كيف تحولت اليابان الى دولة معتدية

ومع هذا كله ، وبرغم هذا كله ، فقد أخذت اليابان عقب الحرب الروسية مباشرة فى زيادة عدتها الحربية ، وفى الاستعداد للمعركة المقبلة . لقد اشتهر رجال اليابان بالتكتم الشديد فى سياستهم واستعداداتهم ، ولهذا ليس من السهل أن نحدد الزمن الذى رسمت فيه خطة الهجوم اليابانى الواسع النطاق ، الذى أثبتت الحوادث التالية أنه يرمى الى السيطرة التامة على جميع شرق آسيا ، من المحيط الشمالى الى خط الاستواء ، وبسط نفوذها الكامل على الجانب الغربى من المحيط الهادى

وهذا البرنامج العدوانى الهائل قد رسمته من غير شك جماعة المتطرفين الحربيين الذين أصبحوا القابضين على زمام الأمور . فبرغم إنشاء النظام الديمقراطى البرلمانى فى البلاد ، ووجود جماعات من المعتدلين الذين يؤيدونه كل التأييد ، فان الأداة الديمقراطية قد عطلت تعطيلا تاماً بفضل عصابات المتطرفين ، الذين عمدوا الى جميع أساليب الارهاب وسفك الدماء لاقصاء المعتدلين عن الحكم ، وتوجيه سياسة الدولة نحو خطة الهجوم والعدوان

ان النظام الحربى اليابانى القديم قد ألغى رسمياً . ولكن لم يكن من المعقول أن طوائف الساموراى — التى كان أفرادها وقت الالغاء لا يقلون عن نصف مليون نسمة — ستختفى مرة واحدة وتندمج اندماجاً تاماً كأفراد عاديين فى داخل النظام الجديد . وقد تألفت منهم جمعيات ارهابية واسعة الانتشار ، وتغلغل أفرادها الى الجيش ، وتألفت أحزاب سياسية تستند الى هؤلاء الارهابيين ، فيصلون الى الحكم بطريق قتل المعتدلين واختطافهم وتشريدهم . وكل هذا من أجل اتباع سياسة عدوان قوية صريحة . وهكذا تولى المتطرفون زمام الأمور فى اليابان ، ومن أجل هذا اتجهت سياسة اليابان اتجاهاً هجومياً عنيفاً

فى الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ دخلت اليابان الحرب فى صف بريطانيا ولكنها لم تقم بأى عمل لمساعدة حلفائها سوى الاستيلاء على كياو شاو التى كان يحتلها الألمان ، فى جنوب شبه جزيرة شانتونج ، وعلى مجموعات من الجزر المرجانية المنتشرة فى وسط المحيط الهادى وهى جزر ماريان وكارولينا ، ومارشال ، وبذلك تكون اليابان قد توغلت فى المحيط الهادى مسافة لا تقل عن أربعة آلاف من الكيلومترات

هذه الجزر لاتكسب اليابان منافع اقتصادية ذات شأن ، ولكنها تستطيع أن تجعل منها وسيلة لقطع الاتصال بين امريكا وبين جزر الفيليبين خاصة وبينها وبين شرق آسيا بوجه عام ، وبهذا أصبحت جزيرة جوام الامريكية عديمة القيمة الحربية

وبرغم عطف أمريكا على قضية الحلفاء فى تلك الحرب ، وانضمامها الى صفوفهم فى عام ١٩١٧ ، فان رجال السياسة الامريكية أدركوا ما وراء التوسع اليابانى من خطر عليهم ، وعلى طرق تجارتهم فى الشرق الاقصى ، وازدادت مخاوفهم حين رأوا اليابان لا تقوم بعد ذلك بأى محاولة لمساعدة الحلفاء فى حربهم مع المانيا ، بل اتجهت نحو الصين — وهى احدى دول الحلفاء — ووجهت اليها مطالب تدعى باسم المطالب الواحد والعشرين . وهى تجعل من الصين كلها منطقة نفوذ لليابان . وقد عدلت هذه المطالب بعض التعديل ، ولكنها من غير شك منحت اليابان امتيازات واسعة اقتصادية واقليمية فى الصين كلها ، وبوجه خاص فى الجزء الشمالى وفى شبه جزيرة شانتونج

انتهت الحرب الكبرى. واجتمع المفوضون اليابانيون بحلفائهم لامضاء الصلح . فأحسوا فتوراً شديداً نحوهم ونقداً صريحاً للخطة التى ساروا عليها فى الصين ، واصطيادهم فى الماء العكر مزايا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

واسعة النطاق . منتهزين فرصة انشغال أوربا وأمريكا بحرب الحياة والموت مع دول وسط أوربا

أحست اليابان نفسها فى عزلة لم تستطع معها أن تمضى فى خطتها العدوانية نحو الصين . وحينما اجتمعت الدول الكبرى فى واشنطن سنة ١٩٢١ للاتفاق على تخفيض السلاح ، أتيحت الفرصة لمندوبى الصين واليابان أن يجتمعوا ويتفاوضوا ، وانتهى الامر بينهم الى نزول اليابانيين عن مطالبهم المتطرفة فى الصين ، وعن اعترافهم باستقلالها ، وبسياسة الباب المفتوح فى الشرق الاقصى

تظاهرت اليابان بأنها قبلت كل هذا عن رضى وارتياح . ولكن الوقائع التالية تجعلنا نتوهم أنها قبلت على مضض . وأنها اذا تراجعت فى عام ١٩٢١ فانها انما فعلت ذلك لكى تثب بشدة فى عام ١٩٣١ . وشغلت اليابان بانماء تجارتها وجيشها ومعداتها الحربية . ولاحظت ان بين أمريكا وأوربا فتوراً واضحاً وتخاذلا شديداً . فأدركت أن الفرصة قد سنحت للاغارة على الصين مرة أخرى ، فزحفت جيوشها على منشوريا فاحتلتها فى عام ١٩٣١ ، وأغارت على جهات أخرى من الصين . ولكنها تراجعت عنها بعد ذلك . واكتفت بالاستيلاء التام على منشوريا ، التى ألفت فيها دولة منشوكو ، وطردت منها النفوذ الاجنبى طرداً تاما

اكتفت اليابان بمنشوريا عام ١٩٣١ ، لأنها لم يكن لها حلفاء . ولعلها لم تكن مستعدة لأن تستفز أمريكا وأوربا بالتوغل فى الصين . ولكن الحالة فى عام ١٩٣٧ كانت بخلاف ذلك . فقد وجدت اليابان فى المانيا وايطاليا حليفتين تعضدانها أشد التعضيد ، ولهذا بادرت فى نهاية ذلك العام الى الاغارة على الصين مرة أخرى ، فى نطاق أوسع وأعظم من أى غزو آخر . فهاجمتها من الشمال والوسط والجنوب ، واحتلت الشطر الاكبر من الولايات الصينية الشرقية . ولاتزال الحرب قائمة فى هذا الميدان الواسع العظيم منذ أكثر من أربع سنوات

وقد بذلت كل من بريطانيا وأمريكا مساعدة حربية قيمة للقوات الصينية ، مكنتها من الثبات أمام الغزو اليابانى هذا العهد الطويل . وقد ازدادت هذه المساعدات فى المدة الأخيرة ، وقطعت بريطانيا وأمريكا تجارتهما مع اليابان ، وأدركت حكومتها أن العائق الاكبر الذى يحول دون الانتصار الكامل فى « الحادث الصينى » هو تلك المساعدات الواردة للقيادة الحربية الصينية . وأن مقاومة الديمقراطية للتوسع اليابانى أصبحت مقاومة ايجابية بدلا من أن تكون مقاومة سلبية . فهنالك دافع قوى لأن تشهر اليابان الحرب على تلك الدول التى تحول بينها وبين تحقيق مطامعها الساحقة

ان هذا الأمر جد خطير ، وإعلان الحرب على دولة مثل أمريكا وحدها ليس بالأمر السهل ، وقد تقلبت الحكومات اليابانية منذ عام ١٩٣٩ دون أن تجرؤ واحدة منها على اتخاذ هذه الخطة المنطوية على كثير من المجازفة والتهور ، كل هذا والعصابات الحربية التى وصفناها لا تهدأ ولا تسكن ، ولا يقر لها قرار ، ولئن سكنت قليلا عام ١٩٣٩ وعام ١٩٤٠ لأن روسيا عدوة اليابان

القديمة أصبحت حليفة ألمانيا ، كما انها أصبحت قوة عظيمة فى شرق آسيا ، فان قيام الحرب الروسية الالمانية قد غير الموقف ، وأتاح فرصة جديدة للعصابات الحربية بأن تدفع رجال السياسة الى خطة حاسمة نحو تلك الدول التى تمد الصين بالمعونة ، وتمنعها عن اليابان

وأعادت دول المحور مرة أخرى بناء الميثاق ضد الشيوعية ، بعد أن تهدم صرحه وتداعت أركانه ، وانضمت اليه اليابان طائعة مختارة . مع أن بينها وبين روسيا معاهدة صداقة وعدم اعتداء ! وبرغم الميثاق المناهض للشيوعية فان اليابان لم تشهر الحرب على روسيا بل شهرته فجأة وغيلة واغتيالا ـ طبقاً لطريقة الساموراى القديمة ـ على دولة أمريكا وبريطانيا . أما روسيا فلم تعلن عليها حرباً . وذلك لأسباب نستطيع أن نذكرها على سبيل الترجيح لا على سبيل التأكيد . ولعل أهمها أن اليابان لا تريد مهاجمة أعدائها جميعاً مرة واحدة . والميدان السيبيرى أصعب منالا من الميادين الأخرى . والحرب فى الشتاء هناك قاسية جداً على اليابانى الذى لا يطيق الجو البارد وينفر منه أشد النفور . والى أن يجىء الربيع ليس هنالك ما يدعو الى استعجال الحوادث فى سيبريا . ولم ترد روسيا من جهتها أن تكون البادئة بالغزو لأن أيديها ممتلئة بمحاربة العدو الاكبر فى الميدان الروسى نفسه

لقد كانت اليابان دائماً فى مركز جغرافى ممتاز للاغارة على الممتلكات البريطانية والأمريكية والهولندية فى الشرق الأقصى . لأن المسافات الشاسعة التى تفصل هذه الاقطار عن البلاد التى تحميها تجعل من الصعب عليها أن تبادر بنجدتها . وقد ازداد مركز اليابان الجغرافى قوة بسبب احتلالها للهند الصينية بعد تسليم فرنسا . فبفضل هذا الاحتلال استطاعت اليابان أن تغير على شبه جزيرة الملايو ، وأن تقتحم سيام الى برما والى سواحل المحيط الهندى . وأن تجعل من الهند الصينية مكانا جديداً للوثوب على الفلبين وجزر الهند الشرقية . ولولا الاستيلاء على الهند الصينية لما أمكن لليابان أن توفق فى عدوانها كل هذا التوفيق السريع

وخلاصة الحديث أن اليابان قد أشهرت هذه الحرب الجريئة الواسعة النطاق ، إجابة لخطة العدوان التى ترمى الى الاستيلاء على الصين بل على جميع أقطار الشرق الأقصى ، وعلى النصف الغربى من المحيط الهادى وعلى جزر الهند الشرقية وثروتها العظيمة . تلك الخطة التى رسمتها الجماعات الحربية المتطرفة التى عجزت العناصر المعتدلة الحرة عن كبح جماحها والتغلب عليها

محمد عوض محمد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نبأ من اليابان

بقلم الأستاذ سامى الجريدينى

•قد يذكر الكثيرون من طلبة العلم فى شتى المدارس منذ نيف وثلاثين عاما كيف كانت كتب التاريخ والجغرافيا تشبه اليابان الناشئة بانجلترا

فكانوا يقولون إن موضعها فى المحيط الهادى يشبه موضع انجلترا فى بحر الشمال والمحيط الأطلسى وانه كما أن هذه تلاصق القارة الأوربية كذلك تلك تلاصق القارة الاسيوية

وان اليابان أخذت عن الانجليز فن الملاحة الحربى والتجارى ثم اقتبست الفن الصناعى

وكانوا يقولون لنا إنها ربيبة انجلترا أخذت أخذها فى شتى نواحى الحضارة الغربية وكانوا يمجدون أعمالها ويضربونها مثلا يسوقونه للناس على فعل الحضارة الغربية فى من يتناولون روحها وأسلوبها

وظلت الحال على هذا المنوال حتى اشتد ساعد اليابان فأخذت ترمى أرباب الحضارة التى اقتبست منها ما اقتبست حتى آل بها الأمر الى هذا الموقف الحالى — فما هو هذا الموقف — وهل يرجى الخير من اليابان اذا نشطت وسادت أو يتقى شرها اذا طغت وبغت . هذه مسألة المسائل الآن

فلنحاول اظهار اليابان كما هى ما استطعنا الى ذلك سبيلا

(١)

ليس المقام مقام بحث فى تاريخ اليابان فكل أحد من المثقفين يعلم أنها ذات ماض عريق فى قدم آسيا وأنها تختلف اختلافاً عظيما عن كل ما يمت الى الحضارة الغربية أو الحضارة الاسلامية بسبب

فاليابانيون قوم صفر دمهم غير دم سكان آسيا الغربية أو أفريقيا الشمالية أو أوربا أو أميركا ودينهم الغالب فيهم لا يلتقى مع المسيحية أو مع الاسلام فى حظيرة من حظائر الروح

فهم بعيدون البعد كله عن كل ما أثر وفعل فعله فى حضارات البحرين المتوسط والأطلسى

لذلك لا نستطيع أن نؤمن بأن اليابان فى نهضتها الحديثة تساير المدنيات التى عرفنا والقائمة فينا الآن . فانه اذا كانت الشعوب تخضع لماضيها ولتقاليدها ولعاداتها فأخلق باليابان أن تكون عدوة الحضارة الغربية أكثر منها صديقة محتملة

ولعل احتكاكها بهذه الحضارة منذ قرن وبعض قرن قد أثار فيها غريزة الدفاع عن البقاء

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وأهاج تقاليدها فعقدت النية على احتذاء هذه الحضارة الغالبة على أسلوبها الخاص وطريقها المألوف ، ولكنها ماذا أرادت بهذا التقليد والى أي شيء رمت . فانه يخيل الينا أنها لم تنهض نهضتها التي أدت الى موقفها الحالي الا بعد أن تشبعت من مبادىء الحضارة الغربية

تشبعت بها لا على نية هضمها وتمثيلها حتى تصبح عضواً في المجتمع الغربي الاوربي والاميركي ولكن على نية إنماء روحها الأصلية والرجوع الى غريزة جنسها وتاريخها

ولا يمكن أن يكون ذلك الا بالعداء للمدنية الغربية والعمل على تقويضها

لذلك سارت اليابان في سياستها الحربية والاقتصادية على مبدأ العمل في الخفاء أولا وعلى مبدأ العون تمده لكل ما يقوض دعائم هذه الحضارة

وكان الاحتقار الذي ظل قاعدة الاميركيين وكثير من الأوربيين في معاملتهم الجنس الأصفر أكبر حافز على الاخذ بالمبدأين المذكورين

فكره اليابانيين للجنس الابيض أساس من أسس كيانهم يمتزج بدمهم ويغذي عقيدتهم وهو كره لا يعرفه إلا امرؤ صادف شيئاً من النجاح في حياته المادية ولكنه ظل مبعداً عن مجموع الطبقة العليا الأدبية

وكان بعد أن فازت اليابان بمحالفة أعظم امبراطورية في العالم ثم غلبا امبراطورية عظيمة أخرى ثم دخولها في الحرب العالمية الاولى مع الحلفاء ما شجع كبرياءها وشحذ مطامعها فأصبحت سياستها القومية ترمي الى هدف واحد لا ثاني له : الاستئثار بآسيا أولا ثم البطش بكل من يقاومها ثانياً ، سواء أكان هذا المقاوم أميركا أو انجلترا أو أوربا كلها.

قلنا ان دولة اليابان تشبعت بمبادىء الحضارة الغربية ، ولكنها أخذت من هذه المبادىء ما هو مادي فقط ولم تكترث بالروح الأدبية والخلقية التي تشمل الروح المادية

أخذت من الحضارة الغربية ما هو جشع مادي واستغلال للشعوب والارض في سبيل الثروة الاقتصادية وأخذت عدتها لانماء هذه الروح بتأهبها العسكري في البر وفي البحر

فهي تؤمن ان حقا أو خطأ — وفي نظرنا انه الضلال كله — ان الحضارة الغربية قائمة على عبادة المادة فقط فروجت لفطرتها على إنماء هذه الروح وعلى أخذ العدة لضرب الضعيف وغير المتأهب من أعضاء الحضارة الغربية

(٢)

لعل العامل الاكبر الذي أوصل اليابان الى ما هي عليه الآن هو محالفتها انجلترا في القرن الماضي

فقد كانت السياسة الانجليزية قائمة في القرن التاسع عشر على الخوف من روسيا تمتد في الشرق الى الصين ثم الهند تهدد المنافع الانجليزية

فلما آنست من اليابان دولة ناهضة تحتذى أساليبها اطمأنت اليها وأغدقت عليها العون فى كل نواحى الحياة البحرية

فكان اليابانيون يقصدون الى انجلترا يلجون أبواب بحريتها الحربية والتجارية ويدخلون الى أعماق صناعاتها ثم يعودون الى بلادهم يطبقون ما رأوه على ما هو عندهم

ولم تشتهر السياسة الانجليزية فى يوم من الايام ببعد النظر . فقد أعماهم الخوف الروسى من ناحية فلما غلبت الروسيا على أمرها ورأوا النشاط اليابانى يتجه وجهة أميركا يدفع صناعتها بالرخص ويهاجر هجرة واسعة النطاق — ولم يكونوا حتى آخر القرن التاسع عشر يحبون أبناء عم سام — عند ذاك ظنوا أن يتخذوا من اليابان خصما يقف لأميركا كما وقفت للروس وظنوا أن تقاليد القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر تفسح لهم فى أجل السيادة فى كل مكان متخذين مبدأ تعادل القوى وضرب دولة بأخرى سبباً يخلى لهم وجه التجارة والاقتصاد فى المعمورة كلها

وقد يقول قائل انه من السهل توجيه اللوم بعد وقوع الأمر وانه ليس من العدل لوم امرىء على عمل ما كان يستطيع النظر الى عواقبه من مرمى بعيد

ولكننا لا نرى هذا الرأى . ولا نطمع بأن نرى رجال السياسة وأولياء الأمر فى بلد من بلاد الله على الصواب لا يضلون

فاننا نزعم انه اذا كان للحضارة الغربية قيمة من القيم فانها يجب أن تمد جذورها إلى كل البلاد التى تستطيع هضم غذائها

فكان أجدر بانجلترا وهى زعيمة من زعماء هذه الحضارة ان تمهد السبيل الى اتفاق صحيح قائم على مبدأ المساواة فى الاقتصاد وفى السياسة تمد أسبابه الى الروسيا والى أميركا

ولكننا كيف نطمع فى هذا وقد كان رجال سياستها حتى البارحة يعملون على مبادىء الرأسمالية وعلى أساس تحكم طبقة ميزوها على طبقات لم يشأوا أن يعترفوا بحقوقها

الى أن ظهر الخطر النازى — وهو يشمل مطامع المانيا وايطاليا واليابان — فتفتحت بعض عيون الطبقة الحاكمة وآمنوا بما كانت تجهر به الاشتراكية الانجليزية منذ أواسط القرن التاسع عشر

حتى اذا جدت الحرب وأرخت أوزارها أصبحنا واذا بالمبدأ الذى دعوه ميثاق المحيط الأطلسى قاعدة سياسية وايمان اقتصادى ضم انجلترا وأميركا والصين والروسيا

واذا بنا نرى هذا العبقرى تشرشل يدرك فى لحظة مدى التوجه العالمى وأن لا سلام ولا أمان حتى تزول المبادىء التعسفية وحتى يزول منها هؤلاء المتآمرون على حرية العالم

(٣)

على اننا اذا وجهنا شيئاً من اللوم الى الدولة الديمقراطية العظمى فانه لا يعدو أن يكون لوما

يجيء على مقدار الأمل فى قدرة أنجلترا على اصلاح الماضى والأخذ بالروح الذي يتجلى فى الامبراطورية كلها

وأما اللوم ــ بله التعنيف ــ فانه يجب أن يساق الى هذا الشعب الأصفر الذى تحفزه الكراهية ويقوده التعصب الى مناوأة مبادىء الحضارة الحقة

فهؤلاء القوم الذين جعلوا المادة معبودهم فجهزوا لها الأساطيل والمصانع الاقتصادية والميادين التجارية بغية انتزاع بلاد الله من أهلها والتحكم فيها ، يرمون الى السيطرة على بحار المحيط الهادى وعلى الصين فآسيا لا حباً بمدنية يفرضونها لأن لا مدنية لهم ولكن طمعاً فى الاستغلال والاثرة بالمنافع دون الناس أجمعين

وهذا هو الخطر الاصفر أو هو الخطر اليابانى ليس الا . فعداؤهم موجه الى أميركا الشمالية فى الدرجة الاولى ثم الى أنجلترا ثم الى أوربا كلها

ولماذا هذا العداء ؟

ان الأمة الأميركية ترمى الى السلام يدفعها الى ذلك تاريخ الشعوب التى تتألف من أفرادهم فتاريخها الخاص بعد ذلك ثم ان لها فى اتساع رقعة ديارها وفى النجاح الذى أغدقه عليها السلام والبعد عن المنازعات الأوربية أكبر حافز على حب تبادل المنافع وحسن الجوار مع أمم الارض جمعاء . وهى فوق ذلك تدين بسياسة الباب المفتوح وتعرض على اليابان وغيرها اتفاقاً يضمن للجميع المواد الاولية وحرية الأخذ والعطاء

فالعداء اليابانى مصدره التكراه العنصرى أولا والحسد تضمره للامم الناضجة والغرور يزين لها أن قد آلت الحضارة الغربية الى الزوال وانها جديرة بأن تضع اليد على ميراثها ــ وقبل أن يموت المورث

وهنا مصدر الخطر على العالم المتحضر كله

فان العالم ما كاد يصدق أن قامت فيه المبادىء الاشتراكية وانها جربت فى الروسيا وأتت بأثمار طيبة وانها خليقة بأن تضم العالم كله بعد أن امتدت أصولها فى أنجلترا وفى أمبراطوريتها وبعد أن مهد لها الرئيس روزفلت فى شتى مشروعاته الاقتصادية ــ ما كاد العالم يصدق ان هذه المبادىء ستعم وتبعد شبح الحروب عن الآباء والامهات والأطفال بما تهيئه من طمأنينة اقتصادية تعقبها حرية ومساواة حتى فوجىء بأقوام يرمون الى الرجوع الى مبادىء العصور الجاهلية ــ عصور تحكم القوى وسيادة البعض باستعباد البعض الآخر

واننا لا نخشى على المدنية طغياناً جرمانياً لأن هؤلاء القوم لا يلبثون أن يرجعوا الى الاصل الذى نشأوا عليه وفيهم قامت الاشتراكية وكثير من المبادىء العالية بعد أن يزول عنهم كابوس النازية

انما أخشى ما نخشاه نجاح يصيبه اليابانيون

فالقوم ماديون وليس فى تاريخهم أو تقاليدهم مثل عال يرفع الناس من حضيض المادة الى مراتع الروح

وليس لنا إلا أن نلق نظرة على هذا الذى يسمونه تقدماً يابانياً فلا نرى إلا أساطيل تمخر وجيوشاً تزجى وصناعة تقذف بأرخص بضاعة الى أقرب الاسواق وأبعدها

أما آداب لغتهم فأين هى . وأما المبادىء الاجتماعية التى ترمى الى رفع مستوى الشعب فما شأنها . وأما المثل العليا فى الأخلاق فما خطبها

اننا نفتش عليها فلا نجد لها أثراً

وما هكذا قامت الحضارة اليونانية والحضارة الرومانية والحضارة الاسلامية والحضارة الغربية الحالية . ان قوام كل منها والبناء الذى ظل مرفوع الأركان قائماً على الأخلاق وحب نفع القريب والبعيد وأما ما كان على المادة وعلى الاستغلال وعلى الظلم فذهب واندثرت آثاره

· فهل يراد بنا أن نطمئن الى حضارة قائمة على شر ما تمخضت به الحضارات القديمة . أم يراد بالناس أن يعودوا أدراجهم الى القرون الوسطى بعد أن جاهدوا وبذلوا النفس والنفيس فى تهذيب أمورهم

هذا ما نعوذ بالله منه — وهذا ما نصير اليه اذا قدر الفوز لهذه الأمة الجائعة

واننا لنعجب كيف يتسنى لبعض الناس أن يظنوا لحظة واحدة أن فوز اليابان مما يدخل فى حيز الامكان

انها أمة خرجت تتحدى العالم كله . تتحداه فى حريته وفى نظام عيشه . انها تتحدى كل شعب يود أن يقوم بنفسه على شؤونه وأن ينظم بيته طبقاً لهواه

انها تتحدى الضمير الانسانى الذي عاش قروناً هذا عددها يسعى الى الطمأنينة والى مستوى يطلق له فيه العدل والمساواة

وليس لمن يتحدى ضمير الانسانية من عقبى إلا عقبى الهالكين

سامى الجريديني

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يلقى الاستاذ فكري أباظة محاضرات فى محطة الاذاعة الحكومية باللغة العامية المصرية تيسيراً لفهم السواد الاعظم من السامعات والسامعين . وهذه احدى محاضراته ننشرها لطرافتها مع احتفاظ الهلال بخطته وتقاليده فى استعمال اللغة الفصحى

الذكريات

للاستاذ فكرى أباظة

سيداتى . سادتى

صغدن ! جرياذن !

الى الوراء انظر !

كسكسوا . . ارجعوا للورا شويه . افتكروا الماضى . . الذكريات . . Les Souvenirs الذكريات اللذيذه . . حلوها لذيذ ! ومرها لذيذ !

افتكروا لما كنتم عيال . . لما كنتم صبايا وصبيان . . لما كنتم بنات وشبان . . افتكروا كده ! لما افتقرتم . . لما اغتنيتم . . لما اشتهرتم . . لما اتخطبتم . . لما اتجوزتم . . لما خلفتم . . لما عيتم . . لما شفيتم . . لما اتخانقتم . . لما اصطلحتم . . لما كسبتم . . لما خسرتم . . لما طمعتم . . لما فشلتم . . لذيذه ! الذكريات لذيذه ! حلوها لذيذ ! ومرها لذيذ !

***

فاكر يا باشا . . فاكر جزمتنا أم لوز . . فاكر المشوار الكعابى اللى كنا بنمشيه من النادى الاهلى لمنشية البكرى . . فاكر حتة البسبوسه اللى كانت أملنا الوحيد ، ومطمعنا الوحيد . حتة البسبوسه أم قرش تعريفه فى دكان « عباس » فى شارع بولاق . . كبرت « البسبوسه » يا باشا وبقت شهاده . . وظيفه . . ماهيه . . ثروه . . وزاره . . شهره . . ومع ذلك : متعكنن ، وقرفان ، وبتشغل ضميرك على كل الالوان . . عشان تكبر كمان وكمان . .

فاكر يا مجرم . فاكر لما كنت ابن البواب . ودخلوك المدرسه على حسابهم مع سيادك البهوات . . نجحت . . واتوظفت . . واشتهرت . . وكبرت . . وركبت اسيادك القدام . . لا راعيت الذمام . . ولا افتكرت كرم الكرام ! . .

فاكره ؟! انت فاكره يا غداره . . لما نشلتك م القذاره ـ عطفت عليك ولا لأ ! صرفت عليك ولا لأ ! حافظت عليك ولا لأ ! دلوقت ؟! بقيتى « مدام دى بمبادور » ـ المركيزه كاستنلادى باتبلو فراتللو ـ صاحبة العصمة فلانه هانم . . ونا . . خدام من خدامين

أصحاب المجد اجدادك العظام .. لا تسألى عنى فى مرضى ! ولا تعرفى ان كنت من سكان القصور أو سكان القبور .. الذكريات .. Les souvenirs .. حلوها لذيذ ! ومرها لذيذ !

***

سيداتى . سادتى :

غريبه جدا .. ماحدش منا بيوجعه « زوره » الا ويروح دغرى يعالجه عند حندوسه وحافظ بهجت وضيف وغيرهم .. ماحدش منا بيوجعه بطنه الا ويجرى دغرى يعالجه عند سليمان عزمى وعبد العزيز اسماعيل وغيرهم .. ماحدش منا بيوجعه «مصرانه الأعور» الا ويجرى يقطه عند على ابراهيم ومورو والكاتب والمنياوى .. ما حدش منا بتوجعه « عينه » الا ويجرى يمسها عند صبحى وطاهر وغيرهم .. ماحدش منكم بتغم نفسها عليها شويه الا وتجرى لشفيق ونجيب محفوظ وغيرهم .. كل حته من الجسم تقول آه . تجروا على الدكاتره تلحقوها وتعالجوها وتطبوها وتشفوها ..

عجيبه جدا ـ حدش منا بيوجعه « ضميره » ابدا ؟.. بتوجعه « ذمته » أبدا ؟.. بتوجعه « نفسه » أبدا .. حدش منا حته من انسانيته بتقول آه أبدا .. حدش منا حته من « آدميته » بتقول آه ـ أبدا .. حدش منا فكر يعالج « اخلاقه » ابدا زى ما بيعالج عينه ومعدته وركبته ؟!

ماحدش !!

العلل الاخلاقية والامراض النفسية ، اكثر من العلل الجسدية والامراض البدنية . ومع ذلك بنعالج الجسد . وما بنعالجش النفس . وادى السر فى ان البلد مريضة بالنفوس وبالاخلاق وبالاذهان ، اكثر مما هى مريضة بالاجساد وبالاجسام والابدان !!

***

سيداتى . سادتى

ازاى نعالج النفوس ؟

ناس تقول نعالجها بالدين !

صحيح . الدين علاجه مضمون . جرعته شافيه ، وروشتته صحه وعافيه . لكن فين حكيمه ، وفين عيادته ، وفين اجزخانته ؟ فى الازهر ، فى الجامع ، فى المدرسة ، وفى البيت ؟ اما « الازهر » فمش كل الناس بتروح الازهر ، وبتسمع كلام الازهر . يا ريت شيوخنا الكبار يتكلموا فى « الراديو » على طول ، وياريتهم يتكلموا بلغة الناس اللى يفهموها الناس .. اما « الجامع » فزباينه مع الاسف قليلين وعظاته هى عظاته من سنين وسنين .. اما « المدرسة » فالدين فيها علم اختيارى مش اجبارى لا بيسقط فى امتحان ، ولا بيمنع من شهاده ، ولا بيحفظوه ويدرسوه عشان ياخدوا ثلاثين من ثلاثين ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اما « البيت » فالدين فيه يمشى ازاى مع الكونكان والبيناكل والبردج، والجامبون والبومبون، والدانس والبارتيز

البنت الصغيرة والولد الصغير أولاد اليوم بيعرفوا عن مرناى لوى، وجنجر روجرس ، وفيفيان لى اكثر مما بيعرفوا عن محمد وعيسى وموسى وسيدنا اسماعيل ! الدين دا شيء فى الكتب مكتوب ، وفى الدستور معروف ومرصود ، وفى القلوب مالوش وجود ! لحد ما ربنا ياخد بيد الحكومه والدوله وتنشر الدين فى البيت وفى المدرسة يفضل السؤال الحاير . فى السما طاير - ازاى تعالج النفوس ؟!

الذكريات ! الماضى ! التاريخ اللى فات Les souvenirs . أهو ده علاجى ، وأهى دى روشتتى . فاللى عاوز يتعالج عندى ، يستعمل وصفتى ! . .

كل يوم تلات معالق « ذكريات » تدوبوهم مع شوية « ماضى » وتاخدوا معلقه منهم على الريق ، ومعلقه قبل الغدا ، ومعلقه عند النوم . .

لو كل يوم الواحد راجع ماضيه وتاريخه تلات مرات كل مره ربع ساعه يبص يلاقى بعد شهر صحة نفسه زى البمب ! وصحة ذمته تمام ! وصحة اخلاقه على ما يرام !

لما تراجعوا تاريخكم وماضيكم وذكرياتكم تغربلوها وتهزوها وتنقوها وتعرفوا غلطتم فى ايه ونفعتم فى ايه ، وايه ما كنش له لزوم ، وايه اللى كان له لزوم ، فتستفيدوا من ذكريات الماضى عبر للحاضر ودروس للمستقبل . ودوا يشفى الداء ، ويضمن لكم طول البقاء ، فى سعادة وهناء . .

***

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سيدانى . سادتى

« الاب » اللى تعبان من أولاده ومش عاجبه سيرهم وسلوكهم وسهرهم ومصروفهم وعمال يفكر طول الليل فى مصيبته لازم يريح ضميره ويراجع ذكرياته ويفتكر هو كان بيعمل ايه مع ابوه . يفتكر لما كان « ابن » كان سيره وسلوكه ازاى . وسهره ومصروفه ازاى . وقريفته لابوه كانت ازاى . يهدى شويه ويعقل شويه ويعالجهم بأسلوب الحكيم الرزين . لحد ما يوصلهم للبر الامين . .

« والمعلم المربى » اللى تثور ثورته على تلامذته اذا ضبطهم بيغشوا فى الامتحان يفتكر شويه كان بيعمل ايه لما كان تلميذ . وان العقاب الصارم اللى بمثابة الاعدام مش هوه الاصلاح ولا التأديب . وانما هوه القصاص الرهيب . والقضاء على المستقبل البعيد والقريب !

« والموظف الكبير » اللى نازل بهدله فى موظفيه الصغيرين لا يحقق مظلمة ولا يجيب رجاء . ولا يبعث فى نفوسهم روح الامل والتشجيع ، يراجع ذكرياته ويفتكر لما كان موظف صغير ومظلوم كانت نار الظلم بتحرقه ازاى . ولما كان صاحب حق مهضوم كانت وجعته ازاى . يقوم يعدل بدل الاجحاف . ويعرف ان الرياسة النزيهة هبه الانصاف !

واللى عمال يبعتر فى محاسيبه وقرايبه على كل المصالح والدواوين . وينططهم على اللى مالهمش ضهر ولا سند من المنسيين غير المحظوظين . يراجع تاريخه لما كان موظف مالوش فى الزمن الماضى عم ولا ابله ولا تيزه ولا خال . ولما كانت المحسوبية مطلعه عينه ومخيبة فى وشه كل الآمال . فيختشى شويه ويخلى فى عينه نظر . ما دام الزمن المهبب جعله من أهل النظر ؟ . .

والمالى الخطير صاحب الشركات والمعامل واللى الحظ السعيد طار به من الاكواخ للقصور . ومن العيش الحاف للديوك الرومى والخرفان والنعيم والسرور . لما يطلبوا عماله المساكين « علاوة الغلاء » قبل ما يكز على اسنانه ـ جه كسر اسنانه ـ لازم يراجع ذكرياته ويفتكر سنين الجوع والعطش ولوعة الاولاد . قبل ما يبخل على اللى عملوه بنى آدم فى زمن الاوغاد !

سيداتى سادتى :

بذمتى اللى يفتكر ويراجع تاريخه وماضيه وذكرياته يلاقى كتير ـ ويصلح فى اخلاقه وذمته وضميره كتير ـ ويبقى أحسن واسعد مما هو كتير وكتير . .

***

حاطه ايدك على خدك ليه ؟ ومكشره للدنيا علشان ايه ؟ جوزك خلاها خل بعد ماكبرت وولت الايام . ما تفتكرى لما خلتيها انت خل وخل وخل . سنين وأعوام اتذكرى !

شوفى من بدا بالشر والبادى أظلم . واستحملى لما يتهد راخر ويهبط ويتلم

هيه . . بنتك الامور انفسخت خطبتها وسابها خطيبها . تذكرى فسختم كم خطبة وادلعتم على الخطاب . وقفلتم فى وش ولاد الناس الابواب !

اللى يخوض فى ذمم الناس . وشرف الناس . واعراض الناس . واللى بيعبث بذمم الناس . واعراض الناس . وناسى انه فى تاريخه الماضى والقريب خاضت الناس فى شرفه وعرضه وذمته . فاشتعلت النار فى جتته . واكلت الالسن من كرامته وسمعته . لازم ضميره يحس ان الدور حيلف ويلعب لعبته . ويقضى على كرامته هوه وشخصيته . .

اللى داير فى البلد دى ايه . المتخصصين فى الطعن على العائلات والبيوت هما أولى الناس بالخرس والسكوت . هما اللى يعشش فى أودهم العنكبوت . هما اللى بيضربوا بالنبوت . وهما قبل كده مضروبين بالنبوت !

الاوصيا اللى بيسفوا حقوق اليتامى والصغيرين . ونظار الوقف اللى بياكلوا ويبلعوا حقوق المستحقين . لو تذكروا . . . لتذكروا انهم فى يوم من الايام كانوا يتامى وصغيرين ومستحقين . وانهم كانوا فى يوم من الايام مأكولين ومشروبين ومسلوبين . واللى داق لوعة أكل الحقوق كان لازم يتعظ ويدى الحقوق . ويبرى ذمته من المال الحرام المسروق!

يا مغرم يا ولهان يا دايخ فى حب القمر . وسارح طول الليالى من العصر للعشا للسحر . اتلم وافتكر ان الراجل اللى يخون يتخان . واللى يلف يتلف . واللى يهمل

ينهمل . ذكرياتك فيها خيانه وبلف واهمال . سلم واستلم الرد فى الحال . .

***

الذكريات . . الماضى . . Les Souvenirs . . الذكريات لذيذه . حلوها لذيذ . ومرها لذيذ . .

***

سيداتى . سادتى :

لو كانت كل حكومة بتفكر وتتذكر الحكومة اللى قبلها سقطت ازاى ؟ فشلت ازاى ؟ خيبت الآمال ازاى ؟ ظلمت ازاى ؟ ما كانتش تعمل عملها وتقع وقعتها . وكان انصلح الحال من سنين ، وما ضاعتش علينا الوقت الثمين . .

لو كانت كل حكومة جديدة تقول : « الحكومة اللى قبلى عينت قرايب ومحاسيب بلاشى تعيين قرايب ومحاسيب . الحكومة اللى قبلى رقت المحظوظين ونسيت المستحقين بلاش أرقى محظوظين وانسى مستحقين . الحكومة اللى قبلى قالت كتير وفعلت قليل بلاش أقول كتير وافعل قليل — الحكومة اللى قبلى ضيقت على حرية الرأى الخناق . بلاش أضيق على حرية الرأى الخناق . الحكومة اللى قبلى خافت على مركزها فاشترته بالضعف واللين . بلاش أخاف وأبيع حقوق الوطن بالضعف واللين » . لو كانت كل حكومة جديدة تراجع الذكريات ، وتتفادى الغلطات ، كنا خطينا خطوات . وخدمنا البلد أجل الخدمات !. .

سيداتى . سادتى :

لو كان كل زعيم متخاصم مع زميله الزعيم يقعد لوحده شويه ويراجع الذكريات كان حن قلبه للزعيم الزميل ، ومد له ايده من زمن طويل ، وساهم معاه فى الواجب الخطير الجليل . .

افتكر يا زعيم لما كان زميلك حبيبك الروح بالروح . افتكر عهد صباك وصباه — افتكر لما كنت فى الحزب معاه ، ولما اشقيت فى سبيل البلد وياه ، ولما تبرعتم للمشانق والرصاص بالرؤوس ، ولما ضحيتم معا فى سبيل الوطن بالارواح والنفوس

راحت فين الذكريات دى كلها . وازاى انمحت من أصلها وفصلها . وازاى ما تفعلش النهارده فعلها . وتنقذ البلد من غلبها وذلها . .

***

سيداتى سادتى :

الذكريات . الماضى . Les Souvenirs

الذكريات لذيذه . . . حلوها لذيذ . . . ومرها لذيذ . . .

ليلتكم سعيده

وتصبحوا على خير

فكرى أباظة

مطامع اليابان فى الشرق الأقصى

بقلم الاستاذ محمد عبدالله عنان

– ١ –

كانت اليابان أول دولة أضرمت نار الحرب العالمية التى يستعر لظاها اليوم ، ففى سنة ١٩٣١ ، قبل أن تظفر النازية بالسيطرة على مصاير المانيا وقبل ان يبدأ هتلر فى اعداد عدته لاضرام نار الحرب الاوربية ، كانت اليابان قد وضعت برنامجها الاستعمارى الشامل ، وبدأت تحقيقه بالاستيلاء على ولاية منشوريا الصينية بالرغم من احتجاج الصين واحتجاج عصبة الامم التى كانت اليابان يومئذ عضوا فيها ، ومن ذلك الحين تسير اليابان بخطى ثابتة نحو تنفيذ برنامجها الامبراطورى فى الشرق الاقصى وفى مياه المحيط الهادى دون أن تحفل بأى احتجاج أو اعتراض

ونستطيع متى ألقينا نظرة على الخريطة ان ندرك الاتجاه الذى يمكن ان تتجه نحوه اليابان لتحقيق أمانيها الاستعمارية . فاليابان تتكون من سلسلة من الجزر تمتد قبالة ساحل آسيا الشرقى من سيبريا حتى جنوبى الصين ، وفى بسائط الصين الشاسعة ، وفيما تحتويه مياه الصين الجنوبية من الجزر الغنية يمكن أن تلقى اليابان « مجالها الحيوى » وهى عبارة يقال ان دعاة التوسع اليابانى أول من استعملها للتعبير عن الحاجة الى التوسع الاستعمارى والاقتصادى وعنهم نقلها دعاة النازية والفاشستية فى أوربا

وقد أدركت اليابان بعد غزو منشوريا والاستيلاء عليها أن الفرصة سانحة للسير فى تنفيذ برنامجها الضخم وان الدول الغربية التى تنافسها فى بسط سيادتها على الصين واستغلال مرافقها لا تستطيع مع ما وصلت اليه من التخاذل وتفرق الكلمة أن تعترض سبيلها بصورة عملية ، وان الصين نفسها ، أضحت بعد الحروب الاهلية المتواصلة التى خاضتها فى العشرين عاما الاخيرة من الضعف وتبدد القوى والموارد بحيث يسهل غزوها والاستيلاء عليها

وفى منتصف سنة ١٩٣٧ وأوربا تجوز أزمة بعد أزمة وقد بدأ انشقاقها الى معسكرين خصيمين يبدو واضحا فى الافق ، وانكلترا وفرنسا مشغولتان بمراقبة الخطر النازى والفاشستى ، استأنفت اليابان غزوها للصين ونشبت بين الغزاة وبين جيوش الصين الوطنية تلك الحرب الضروس التى ما زالت تضطرم حتى اليوم ، ولم تتردد اليابان عندئذ فى أن تفصح عن نياتها بجلاء ، وان توجه الى الدول الغربية انذاراتها المتكررة ، بأنها تعتبر الصين منطقة نفوذ اسيوية ترمى الى الاستئثار بها ، وان آسيا يجب أن تكون للاسيويين.

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

على قاعدة مبدأ مونرو الامريكي فى أن تكون امريكا للامريكيين ، وانها ستقاوم أية محاولة من الدول الغربية للتدخل فى شئون الصين ، أو توطيد نفوذها فيها

على أن الدول الغربية ، وفى مقدمتها بريطانيا العظمى وفرنسا وامريكا وهى أعظم الدول مصالح فى الشرق الاقصى ، لم يكن فى وسعها يومئذ ان تقيم فى وجه اليابان جبهة موحدة ، وجو السياسة الاوربية مثقل بالسحب ونذر الحرب تبدو فى الافق ، وامريكا مترددة بين سياسة العزلة وسياسة العمل المشترك ، وكل ما استطاعت الدول ان تقابل به تحدى اليابان ، هو الاحتجاج المتكرر والتمسك بنصوص معاهدة الدول التسع التى عقدت فى سنة ١٩٢٢ ، بين الدول ذات المصالح فى الصين ، واشتركت اليابان فى توقيعها ونص فيها على وجوب احترام الحالة القائمة فى الصين ، والمحافظة على وحدة الصين واستقلالها

ومن جهة أخرى فقد عولت بريطانيا وامريكا على معاونة الصين على مقاومة الاعتداء اليابانى ، وامدادها بالاموال والاسلحة والذخائر جهد الاستطاعة ، وما زالت الصين الوطنية وعلى رأسها المارشال تشانج كايشك منذ اعوام خمسة تكافح الغزاة بكل ما وسعت كفاحا متواصلا يدعو الى الاعجاب ، بيد ان اليابان استطاعت مع ذلك ان تفتح معظم الاقاليم الصينية الغنية الآهلة وان تحتل جميع الثغور والاراضى الساحلية من اقصى الشمال حتى كنتون ، وان توغل حتى الاقاليم الوسطى واضطرت الحكومة الوطنية ان تلجأ الى الداخل حيث تقوم اليوم فى « شونج كنج » واستولت اليابان فيما استولت على جميع الثغور والمناطق الممتازة التى تحتلها الدول الغربية بمقتضى المعاهدات المختلفة

ARCHIVE http://archive.sakhrit.com

— ٢ —

وفى سنة ١٩٣٨ ، عقدت اليابان مع المانيا وايطاليا ، ميثاق مكافحة الشيوعية فدلت بانضمامها الى دولتى المحور الاوربيتين على انها تشاطرهما الغايات والمثل العليا ، ولم يكن التذرع بمكافحة الشيوعية فى الواقع سوى حجاب يستر الاطماع الامبراطورية الضخمة التى تجيش بها الدول الثلاث ، وقد ظهر ذلك جليا حينما انقلبت المانيا قبل نشوب الحرب الحاضرة الى التفاهم مع روسيا ، والارتباط معها بميثاق صداقة مزقته فيما بعد حينما انتهت حاجتها اليه ، وفى الوقت الذى عملت فيه المانيا على اضرام نار الحرب الحاضرة ، باكتساح بولونيا ثم دانماركه والنرويج وهولنده والبلجيك وفرنسا ، كانت اليابان فى الشرق الاقصى ترقب فرصة العمل ، ولما سقطت فرنسا وشغلت انكلترا بأمر الدفاع عن نفسها ، بدأت اليابان زحفها نحو المياه الجنوبية بارغام حكومة فيشى على تسليمها ثغور الهند الصينية وقواعدها العسكرية ، كى تتمكن باحتلالها من تنفيذ وثبتها القادمة ، وأخذت تشدد الضغط على حكومة تايلاند (سيام) لكى تتخذها فيما بعد مجازا الى شبه جزيرة الملايو

وثغر سنغافورة، ثم غزو اندونسيا أو جزائر الهند الشرقية الهولندية الغنية بثرواتها المعدنية الطائلة

ولما عقدت اليابان ميثاق التحالف الثلاثى بينها وبين المانيا وايطاليا (فى سبتمبر سنة ١٩٤٠) على أن تختص دولتا المحور بوضع « النظام الجديد » فى أوربا وعلى ان تختص اليابان بمثل هذا الحق فى الشرق الاقصى ، وعلى أن تدخل اليابان الحرب الى جانب المحور اذا دخلتها ضده دولة « غير أوربية » أو بعبارة أخرى اذا دخلتها امريكا ، لم يبق شك فى ان الدول الدكتاتورية الثلاث ترمى الى تحقيق برنامج امبراطورى واسع النطاق يقوم على اقتسام ثروات العالم الاستعمارية ، وان اليابان سوف تختص بالعمل فى الشرق الاقصى ، باعتباره مجالها الحيوى الطبيعى

وقد رأينا اليابان فى الوقت الذى شغلت فيه روسيا بمقاومة الغزو الالمانى الهائل ترفع قناعها الشفاف ، وتضرم نار الحرب فى المحيط الهادى ، وتشتبك مع امريكا وبريطانيا العظمى فى حرب جديدة كانت نذرها تلوح فى الافق منذ حين ، وروسيا هى الخصم القوى الوحيد الذى يجاور اليابان مباشرة ، ويستطيع ان ينازلها بطريقة ناجعة ، ولكن اليابان عقدت مع روسيا منذ اشهر قلائل ميثاق حياد تؤثر اليوم احترامه ، بينما تؤثر روسيا من جانبها ان تخصص كل جهودها لمكافحة الغزاة الهتلريين وهم أشد خطرا ، وهكذا تستطيع اليابان ان تكرس كل جهودها فى الوقت الحاضر لمنازلة القوات الامريكية والبريطانية والهولندية المبعثرة هنا وهناك فى انحاء المحيط الهادى

ونستطيع ان نلخص مطامع اليابان الحالية فى الشرق الاقصى فيما يلى :

اولا ـ تحقيق اليابان لسيادتها البحرية المطلقة فى المحيط الهادى وهى سيادة تنازعها فيها الآن امريكا فى المنطقة الشرقية وتنازعها فيها بريطانيا العظمى فى المنطقة الجنوبية

ثانيا ـ القضاء على مقاومة الصين الوطنية ، واستيلاء اليابان نهائيا على جميع الاقطار الصينية والاستئثار بمرافقها وثرواتها الطبيعية ، واقصاء جميع الدول الغربية عنها ، والقضاء على كل نفوذ أوربى أو امريكى فيها

ثالثا ـ استيلاء اليابان على شبه جزيرة الملايو وقاعدة سنغافورة البحرية المنيعة وجزر الهند الشرقية الهولندية وهى سومطرة وجاوه وسليبز وبورنيو وغيرها وكذلك الاستيلاء على جزر الفيلبين الامريكية ، وعلى جميع الجزر الاخرى التى تحتلها الدول الاوربية فى تلك المنطقة مثل جزيرة تيمور (وهى لهولندا والبرتغال) وغينا الجديدة (وهى لهولنده وبريطانيا) ، ومجموعات كثيرة أخرى من الجزر الواقعة فى المحيط الهادىء تحتلها انكلترا وامريكا وفرنسا

رابعا ـ ان استيلاء اليابان على هذه السلسلة المتصلة من القواعد والجزر يقضى على قوة الامبراطورية البريطانية فى هذه المياه ، ويعرض استراليا وزيلندة الجديدة ، والهند

البريطانية ذاتها الى خطر الغزو • وقد لا يتضمن برنامج اليابان فى الوقت الحاضر ، أو قد يتعذر عليها ان تدفع الغزو الى هذه الاملاك البريطانية الضخمة التى يقتضى الاستيلاء عليها جهودا جبارة ولكن الذى لا شك فيه ان الاستيلاء عليها هو من غايات اليابان البعيدة

***

تلك هى المطامع الضخمة التى تتطلع اليابان الى تحقيقها منذ بعيد والتى قطعت فى تحقيقها الى اليوم مرحلة هامة باستيلائها على معظم اقاليم الصين ، والهند الصينية وسيام • واذا كانت اليابان تجيش فى سبيل اطماعها بنزعة امبراطورية الى الفتح والتوسع فهى تجيش فى الوقت نفسه ببواعث اقتصادية خطيرة فاليابان مثل بريطانيا العظمى تتألف من جزر تنقصها اسباب الخصب والكفاية وتضيق بسكانها الذين يبلغون اليوم زهاء السبعين مليونا ، والشعب اليابانى يعيش فى ظروف صعبة، وفى مستوى اقتصادى منحط، والصناعة اليابانية التى هى عماد الانتاج القومى ينقصها كثير من المواد الاولية التى تضطر اليابان الى استيرادها من الخارج • فاليابان تتطلع الى سد هذا النقص بالاستيلاء على موارد الصين وموارد الجزر الهندية الغنية بثرواتها الطائلة ، وترى نفسها احق فى ذلك من الدول الغربية التى تنازعها ، فيما تعتبره مجالا حيويا خاصا بها

وهناك أيضا مسألة الجنس والجامعة ، فمنذ انتصار اليابان فى الحرب الروسية فى سنة ١٩٠٤ تلوح فى الافق بوادر الصراع بين الجنس الاصفر والجنس الابيض ، وقد عملت اليابان فى العهد الاخير على الترويج لفكرة الجامعة الاسيوية ومعناها ان تكون آسيا للاسيويين ، ولكن سرعان ما ظهر انها لا تبغى تحريرا للشعوب الاسيوية المغلوبة بل تبغى ان تستأثر هى بافتراسها

وقد استطاعت اليابان ونحن نكتب هذه السطور ان تحرز بعض النجاح فى جولتها الاولى ضد امريكا وبريطانيا العظمى ، وقد تحرز انتصارات محلية أخرى قبل ان تستكمل امريكا وبريطانيا كل اهبات الدفاع عن املاكهما فى المحيط الهادى ، ولكن يجب أن نذكر قبل كل شىء ان الحرب فى هذا الميدان ليست سوى جزء لا يتجزأ من الحرب العالمية التى تخوض غمارها اليوم جميع الدول العظمى ، وان مصير الصراع بين اليابان وخصومها يتوقف على مصير المعركة الكبرى التى تضطرم فى الغرب بين المانيا وايطاليا من ناحية وبين روسيا وبريطانيا وامريكا من ناحية أخرى ، فاذا انتهت المعركة بانهيار القوة النازية الغازية ــ وهناك فى اعتقادنا ما يدل على ان بوادر هذا الانهيار قد بدأت بالفعل ــ فانه سوف يقضى على احلام اليابان الامبراطورية بالانهيار مهما احرزت من النجاح المؤقت فى المحيط الهادى

محمد عبد الله عنان

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

نواح من نظام هتلر الجديد لأوربا (١)

بقلم الاستاذ احمد عبد الخالق

مراقب مصلحة مصايد الاسماك

يعد النازيون أوربا الآن لأن تكون خاضعة لهم خضوعاً تاماً حتى يبقى نفوذهم سائداً فيها على الدوام ، فقد وضعوا منذ تغلبوا على بعض دولها الكبرى نظاماً اقتصادياً جديداً يرمون به الى اكتفاء هذه القارة بنفسها . واعتمادها على انتاجها الزراعي والاقتصادى . وقد تناول الاستاذ احمد عبد الخالق فى هذا المقال بحث هذا النظام نقلا عن العلامة بيترد روكر أستاذ علم الاقتصاد فى جامعة سان لورنس بنيويورك

عند ما يتحدث زعماء النازى عن المشروعات التى يزعمون أنها تعود على البشر بالنفع يرسلون ألفاظا معسولة ككلمة « التعاون » الحر الموفق فى أوربا النازية الآمنة

والواقع أنهم يعدون أوربا لان تكون خاضعة خضوعا تاما لالمانيا ، وذلك بتعديلهم نظامها الاقتصادى تعديلا لا تستطيع بعده أية دولة من دولها المقهورة أن تنهض من كبوتها فتثور على المانيا . فتراهم يسعون لجعل أوربا بحيث تعتمد على نفسها فلا تلجأ الى البلاد عبر البحار ، وبخاصة الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية ، للحصول منهما على ما تحتاج اليه من المواد الأولية ، كما تراهم يعمدون الى القضاء على الحياة الصناعية فى البلدان التى ازدهرت فيها بعض الصناعات الكبرى أجيالا عدة بنقلهم ملايين الصناع من هذه البلدان الى بلاد أخرى لم يكن لها بالصناعة عهد

فلم تكد تندلع ألسنة الحرب حتى عكف خبراؤهم على وضع نظامهم الاقتصادى لاوربا النازية ، وهم اليوم ماضون فى اتمام هذا النظام واضعون أغلبه موضع التنفيذ فعلا

ان طردهم فرنسيى الالزاس واللورين قد يكون صفحة جديدة من صفحات النزاع الذى لم ينقطع بسبب هاتين المقاطعتين ، الا أنهم لم يقفوا عند هذا الحد فقد طردوا عنوة حتى الآن نحو تسعة ملايين من هولندة وبولندة وتشيكوسلوفاكيا وأحلوا محلهم غيرهم من الالمان ، وهم بسبيل طرد عشرة ملايين أخر من دورهم . وليست شهوة التعصب الوطنى هى التى أملت عليهم هذه السياسة بل لان غرضهم الاول هو تحويل صناعتى الفولاذ والكيمياء الاوربيتين الى صناعات ألمانية ، ذلك لان كل الصناعات الاوربية الثقيلة

---

(١) نقلا عما كتبه العلامة الاقتصادى Peter F. Drucker أستاذ علم الاقتصاد فى جامعة Sarah Lawrence College بنيويورك . وهو نمساوى المولد وكان مراسلا ماليا وسياسيا لامهات الصحف الألمانية والانجليزية ومن مؤلفاته « خاتمة عاهل الاقتصاد » The End of Economic Man

تقريبا مركزة فى نطاقين مكتنزين أحدهما على طول نهر الرين ، والثانى بجانب سلسلة الجبال التى تقع بين بوهيميا والمانيا ، أى أن نحو نصف هذين النطاقين كان ، الى ما قبل الحرب الخاطفة ، داخل الحدود الالمانية . فالذى ينشده هتلر الآن هو تحويل النصف الباقى أيضا بحيث تصبح هذه المناطق الصناعية مناطق المانية لحما ودما

وتحويل هذه المناطق خطوة يستحيل بعدها على أية أمة من الامم المقهورة أن تنتقض على ألمانيا يوما ما لانها ستبقى أبدا عزلاء من كل سلاح . وحكام النازى خير من يعرفون ان الحروب الحديثة تدار فى قلب المصانع الموجودة وراء خطوط القتال

ونية ألمانيا أن تحتكر صنع الطائرات، والدبابات وكافة العتاد اللازم للحرب الميكانية . ومما يذكر أن المهندسين الالمان الذين دخلوا فرنسا مع وحدات جيشهم الاولى أحصوا احصاء دقيقا كل الآلات الموجودة فى مصانع الطائرات الفرنسية ، وان هذه الآلات نقلت فور الوقت الى المانيا ، كما نقلت من باريس مصانع سيارات ستروين Citroen الشهيرة الى متز Metz من أعمال اللورين الذى ضم الى ممتلكات الريخ . والمصانع التى لا يستطاع تحويلها الى ألمانيا أو كانت خارج النطاق الفولاذى تستأصل من قرارها فى الحال . هذا ما فعلوه فى مصانع الكيمياء فى كل من فرنسا وهولنده ، وما فعلوه أيضا فى مصانع السيارات البلجيكية وفى أحواض صنع السفن الشهيرة فى كل من روتردام وأنتورب وبرست وفى مصانع الكهرباء والآلات الهولندية ويؤيد هذا الذى ذكرناه ماجاء أخيرا فى صحيفة Neue Zürcher Zeitung ، وهى من كبريات الصحف السويسرية التى يعتد بأخبارها ، من أن أغلب الآلات التى كانت موجودة داخل مصانع فيلبس Phillipps الكبرى للكهرباء ، وهى التى كانت تخرج أدق الاجهزة الكهربائية ، قد نقلت من هولندة الى المانيا

وستكون صناعة الفولاذ ، والمحركات ، والسيارات وقفا على ألمانيا دون سواها ، كما أن مصانع الكيمياء ومعامل الابحاث ستكون ملكا لها وحدها . فقد جاء ما يلى فى صحيفة Schwarze Korps وهى لسان حال الحرس الهتلرى : « ينبغى الا يتسرب من بين قبضتى ألمانيا حتى أتفه التقاليد الخاصة بالصناعات الثقيلة أو الهندسة الميكانيكية أو الابحاث الكيميائية »

ويلحق باحتكارها هذه الصناعات الرئيسية رقابتها على الاموال التى لدى الدول الاوربية . فمنذ بضعة أشهر نشرت صحيفة نيويورك تيمس The New York Times تقريرا رسميا بأن الحكومة النازية أنشأت شركة لاحتكار كافة عمليات التأمين فى القارة الاوربية . وقد كان هذا الخبر منشورا فى آخر صفحات الجريدة بالرغم من أهميته القصوى وبالرغم من أنه بجرة قلم وضع تحت تصرف ألمانيا نحو ثلث الاموال التى ادخرتها دول أوربا لتستعملها هى فى أغراضها السياسية وفق ما تريد . وسيترتب على هذا العمل حتما صعوبة تخلص الدول المقهورة من ربقة التحكم النازى والحاق

أكبر الضرر بصغار عملاء شركات التأمين الاوربية

ليس هذا وكفى بل ان واضعى الخطط النازية يعتقدون ان النفوذ الالمانى لن يكون بمنجاة ما دامت أوربا تعتمد فى الحصول على المواد الغذائية والمواد الاولية اللازمة لها على البلاد عبر البحار . وهتلر ، الذى ولد غريبا عن البحر ، لا يؤمن بوجوب العمل على حصول ألمانيا على السيادة البحرية ، شأنه فى ذلك شأن وليم الثانى امبراطور المانيا السابق ، وهو يرى ان يستعيض عن هذه السيادة البحرية بأعادة تنظيم أوربا بحيث تستطيع ان تنتج المواد الغذائية ، وأن تحصل على المواد الاولية اللازمة لها من أقطار يمكن الدفاع عنها برا وجوا ، وهذا هو السبب فى زحفه المفاجىء على أوكرانيا السوفيتية الغنية بمواردها الغذائية

ان ما يطمع فيه هتلر من ان تصبح اوربا قادرة على الاعتماد على نفسها فى الحصول على ما يلزمها من هذه المواد ، هو الذى دفعه الى احداث هذه الثورة العالمية ، وهو كما ترى مطمع يفوق كل ماكان يحلم به نابليون

ويكاد شرق أوربا يخرج الآن من القمح والزيت والنحاس كل ما تحتاج اليه ألمانيا لادارة دفة الحرب ، فقد وضعه هتلر فى قائمة البلاد التى عليها ان تمون كتلة المستهلكين بالسلع الرخيصة

وتضم بولندة ، وسلوفاكيا ، ورومانيا ، والمجر ، ويوغوسلافيا وبلغاريا نحو مائة مليون نسمة يشتغل منها فى الاعمال الزراعية وحدها نحو خمسة وثمانين مليونا ، ومع ذلك لا يزال جانب كبير من هؤلاء السكان فى حاجة الى المزيد من الارض ليفلحها

ان زعماء النازى يعلمون ان فلاحى البلقان اعتادوا العمل المضنى المنظم فى أغلب ساعات النهار ، وفى مستوى منخفض من العيش لا يزيد على مستوى عيش الحمالين فى الصين ، ولما كان هؤلاء الفلاحون ، من أذكى العمال فى العالم ، فقد وضع النازيون الخطة لان يستغلوهم فى صنع المنسوجات ، والاحذية ، والاوانى الزجاجية والخزفية والحدايد والاثاث وما اليها ثم تصريفها بأثمان زهيدة على سكان أوربا • وسينشئون لهذا الغرض مصانع عليا تدار بأحدث الآلات التى أخرجتها القرائح الالمانية ، أما العمال أنفسهم فسيعيشون جماعات فى عنابر تخصص لهذا الغرض ، وسيعملون اثنتى عشرة ساعة ونيفا فى كل يوم وسيحظر عليهم مغادرة أعمالهم مهما يكن السبب

لقد صرح رجال النازى لصانعى الفخار والزجاج الدنمرقيين انه عند ما تضع الحرب أوزارهاستنقل مصانعهم الى تشيكوسلوفاكيا التى سيكون عليها ان تقوم بصنع الفخار والزجاج اللازمين لاوربا • وكذلك فعلوا مع نساجى الدنمرقة فقد أخبروهم أنهم سينقلون الى بولندة،لان شرق أوربا سيكون عليه ان يقوم بصنع كافة المنسوجات اللازمة لاوربا • ولا شك ان معنى هذا القضاء على صناعات يرجع عهدها الى القرن الثانى عشر

لقد كان الميزان بين الصناعة والزراعة سويا فى كل من هولندة وبلجيكا وفرنسا ،

ولكن قادة النازى ، عمدوا بعد ان وقعت الحرب الحالية، الى قلب هذا التوازن بأجراء تصفية عامة بين كل الصناعات الرئيسية ، ينقل بسببها الفلاح البلقانى وراء جدران المصانع فى الوقت الذى يتم فيه نقل مهرة الصناع فى غرب أوربا الى الحقل

ولا ريب ان الغرض الرئيسى الذى يقصد اليه النازيون من وراء تحويلهم فرنسا وبلجيكا وهولندة من بلاد صناعية الى بلاد زراعية هو غرض سياسى قبل كل شىء • وقد اعترف بهذه الحقيقة أحد الضباط الالمان قائلا « ان نقلنا المصانع الفرنسية يعنى الى الابد استبعاد أى احتمال لضرب ألمانيا » • الا ان ثمة غرضا آخر اقتصاديا ينشدونه كذلك وهو لا يقل أهمية عن غرضهم السياسى،ذلك ان أكبر عجز فى الحاصلات الزراعية الاوربية هو فى زراعة العلف اللازم للماشية ، وان طبيعة التربة فى السهول الشاطئية فى غرب أوربا ومناخها يسمحان بالتوسع فى زراعة هذه المحاصيل توسعا كبيرا • لذلك لم يعد مفر لهذه السهول من أن تسد حاجة أوربا من المواد الغذائية الممتازة التى كان أغلبها يستورد من أمريكا اللاتينية ومن الولايات المتحدة

والحجة التى يتذرع بها الالمان لذلك هى أن مجموع سكان كل من فرنسا وبلجيكا وهولندة وقدره ستون مليونا لا يكاد يكفى للنهوض بأعباء هذه الزراعة الواسعة ، واذن لم يعد محل لزج هذه الشعوب فى دور الصناعة • ومن البديهى ان مستوى العيش سيخفض فى هذه الدول انخفاضا كبيرا تبعا لهذه السياسة ، ولكن رجال النازى دأبوا على ألا يقيموا لهذه الصعوبة أى وزن

وهذه الحجة التى يتذرع بها رجال النازى لا يمكن التسليم بها ، ذلك لانه ، حتى مع فرض الاقتصار على مانعرفه من مصادر حالية لمختلف الحاصلات، يمكن القول ان بلاد حوض البحر الابيض المتوسط تستطيع ، اذا أريد ، ان تنتج أغلب المواد الاولية التى لا توجد فى المنطقة المعتدلة ، والتى لم يستطع رجال الكيمياء ، حتى الآن ، ان يجدوا عنها بديلا

ومن الوجهة الفنية الاقتصادية نستطيع ان نقول انه يمكن جعل أوربا بحيث تعتمد على نفسها اعتمادا كليا صادقا لا تعرف فى تنفيذه رحمة ولا هوادة

ولكن هل تقتنع طغمة النازى بقصر نفوذها على قارة أوربا وذلك الشطر الكبير من الروسيا أم ستحاول اخضاع العالم لسلطانها ؟ (١)

احمد عبد الخالق

---

(١) أجيب عن هذا السؤال وغيره من الاسئلة فى مؤلف الدكتور باول اينتسيج « نظام أوربا الجديد » الذى نقله الى العربية كل من الاستاذ احمد عبد الخالق مراقب مصلحة مصايد الاسماك بوزارة التجارة والصناعة والاستاذ محمد بدران مدير ادارة الترجمة والاحصاء بوزارة المعارف العمومية

امريكا واليابان فى كفتى الميزان

بقلم الدكتور أمير بقطر

تدور رحى الحرب الآن بين اليابان وامريكا فى المحيط الهادى . وقد عقد الكاتب الكبير الدكتور امير بقطر مقارنة بين هاتين الامتين المتحاربتين تناولت اخلاقهما وعاداتهما ونظراتهما الى الحياة، وما بينهما من أوجه الخلاف الشديد . وقد تضمن المقال الطريف الآتى هذه المقارنة التى كشفت عن كثير من تقاليد اليابان وصفاتهم الغريبة

اليابان ارخبيل يتألف من ٤٠٧٢ جزيرة بركانية ، سكانها ٧٥ مليونا، يزدادون مليونا كل عام ، ولعل نسبة المواليد فيها تزيد عن مثلها فى جميع الامم المتمدينة . وهى ٥٥ ./. صناعية ، ونحو ٤٥ ./. زراعية ، ويخص كل فرد من السكان نصف فدان ، ويوجد بها مليونان من صيادى السمك ، أى نصف مجموع الصيادين فى العالم كله ، و٢٥ ألف مصنع مجهزة أدق تجهيز ، وهى بوجه عام دولة فقيرة ، فلا يوجد فيها (باحصاء ١٩٣٩) سوى ٧٠ شخصا يبلغ دخل الواحد منهم فوق مئة ألف جنيه مصرى سنويا ، و١٠ ./. من السكان يبلغ دخل الفرد الواحد منهم نحو ٨ جنيهات مصرية شهريا، ونحو ½ ٢ ./. يكتسبون خمسين جنيها شهريا أو أكثر للفرد الواحد والمرتب الشهرى لرئيس الوزراء ٦٥ جنيها ، والاستاذ الجامعى ٩ جنيهات، ومدير البنك ٢٠ جنيها، ورجل الشرطة من جنيهين ونصف جنيه فصاعدا ، وأجرة البستانى والطاهى لا تزيد عادة عن نصف جنيه شهريا ، مع الاكل والسكن . ولا يوجد عمال عاطلون البتة . وهذا النظام يقضى على الترف من ناحية ، وعلى التسول والعوز من ناحية أخرى . والحياة هناك لا تستدعى نفقات باهظة اذ تستطيع أسرة مكونة من اربعة اشخاص ان تعيش على طعام يكلفها اربعة قروش فى اليوم ، وان تستأجر منزلا مكونا من اربع غرف بجنيهين شهريا ، واجرة الترام مليم ونصف مليم ، واجرة قص الشعر وحلق الذقن و « الشامبو » و « المنكير » كلها بقرشين ونصف قرش . ولولا ان نظام الاقطاع تبدو آثاره فى أسر قليلة عددها خمس لا غير ، وتمتلك ٦٢ ./. من ثروة البلاد ـ لولا ذلك لقلنا ان الثروة موزعة توزيعا حسنا ـ واليابان دولة حربية منذ ألف سنة وقلما خسرت معركة بحرية أو برية ، وتنفق ثلاثة اثمان ميزانيتها على الحرب الصينية ، أى نحو مليون جنيه مصرى فى اليوم الواحد . ورجال البحرية عندهم ارستقراط محافظون ، وعلى النقيض منهم رجال الحربية فهم ديمقراط متطرفون ، ولكن القواد وكبار الضباط عادة على غاية من البساطة والتواضع ، ولايحلقون

لحاهم سوى مرة فى الاسبوع ، واكبر القواد يتناول نحو ٢٨ جنيها فى الشهر • والتعليم هناك بالغ حد الرقى ، ولا يوجد بينهم اميون اطلاقا

موازنة بين اليابان واميركا

لكل من اليابان واميركا ثقافتها وآدابها وفلسفتها وطرق معيشتها ، وتختلف الواحدة عن الاخرى من هامة الرأس الى باطن القدم • فبينما نجد الاميركى متطرفا فى التفاؤل ، مستهترا ، ينظر الى الحياة بمنظار ابيض ، اذا بنا نجد اليابانى متطرفا فى التشاؤم ، جديا ، ينظر الى الحياة بمنظار قاتم • عقلية الاميركى تمتد جذورها الى الثقافة الاغريقية الرومية ، والآداب العبرية المسيحية ، فى حين ان عقلية اليابانى تستمد أصولها من الثقافة الشنتوية والآداب البوذية الكونفشيوسية • وبينما كانت اميركا فى خلال الاجيال السادس عشر الى التاسع عشر تهتز بأعاصير الحرب الفكرية الصناعية العلمية ، كانت سفينة اليابان تصدأ منعزلة فى مرساها (على أثر حكم توكاجاو) ، مختومة بالشمع الاحمر ، لا يصلها من تيار النهضة العلمية والاصلاح الدينى والثورة الفرنسية سوى رذاذ صناعى ، كان يسرقه ابناؤها تقليدا لاوربا ومحاكاة لاميركا

وبينما لم يكن لاميركا عهد بنظام الاقطاع البتة ، سوى ما عرفه أجدادهم فى أوربا قبل اربعة قرون مضت ، فان اليابان لم يبطل فيها هذا النظام الا فى سنة ١٨٧٢ ، ولا تزال آثاره بادية فى ثروة الامبراطور الطائلة ، واملاك الاسر الخمس التى قلنا انها تستنفد ثلاثة أخماس الثروة القومية • واليابانى اسهل فهما للاميركى من العكس ، كما انه يسهل على اليابانى ان يتعلم الانجليزية ، ويعتنق المسيحية ، من ان يتعلم الاميركى اليابانية ويعتنق البوذية • فى اليابان يتضاءل الفرد بجانب الاسرة ، وبالرغم من تقدمها الصناعى الغربى ، فان مجلس الاسرة فيها له اليد العليا • ولا تزال مئات الالوف من الاسر فى المدن اليابانية تحتفظ بالصلات الوثيقة التى تربطهم برؤوس أسرهم فى القرى ، مهما انفرجت مسافة الخلف بين مدنية الحضر وسذاجة الريف • والاسرة اليابانية ترى لزاما عليها العناية بكل فرد من أفرادها • وما تكاد أزمة مالية تهب ريحها فى المدن حتى يهرع أفراد الاسرة الى القرى القاصية ، فيعيش أفرادها عالة على ذويهم • فالاسرة هناك هى المركز الاقتصادى ، وان شيئا من هذا فى اميركا لا وجود له

وبينما كل اميركى ملك متوج له حق اعتلاء رآسة الجمهورية ، اذا بنظام الاقطاع الذى خضعت له اليابان طيلة العصور ، جعل الناس طبقات ، تخضع السفلى فيها للعليا ، فهناك فرق بين ان ينحدر انسان من سلالة ساموراى (الطبقة الحاكمة) ومن طبقة المنبوذين • والانحدار من الطبقة الاخيرة لا يوازيه فى اميركا الا ان يتلوث عنصر ابيض بدم سلالة زنجية • واللغة اليابانية كالطباع اليابانية ، على النقيض من الاميركية ، تنقصها الصراحة والدقة والتحديد ، فكل عبارة ، خصوصا فى السياسة و « الاتيكيت » يحوطها

غبار الغموض ودخان الابهام ، مليئة باللف والدوران ، مدهونة بطلاء المكر والدهاء والخديعة ، سائلة مائعة ، مغطاة بابتسامات صفراء ، توقع السامع والقارىء على السواء فى حيرة الفهم والتفسير . ومن التناقض فى العادات انه بينما انت تتناول الطعام فى طوكيو فى أفخر المطاعم على الطريقة الاوربية ، تسمع فتاة بجانبك تفاخر بأن أباها أهداها قبيل زواجها خنجرا تنتحر به اذا ما خانت زوجها

الشنتو هو دين اليابان القديم ، ولكنه اختلط بالبوذية ، ومن مزيجهما اكتسب اليابانى صفتين (١) الحزن التأملى وما يصحبه من عمق الوجدان و(٢) شدة الحساسية بالجمال . فالشنتو عبادة الطبيعة ، وهو تمتع ساذج بوهج الشمس وفتوة الربيع ، والقوة المستمدة من مساقط المياه ، والعقيدة التى يؤمن بها غير الانانيين . اما البوذية فهى دين التضحية ، تهوى أوراق الخريف الذابلة ، والزهور المتساقطة ، وتحب البرك السوداء العميقة ، ويلذ لها رؤية السراب فى رمال البادية . تشجع الناس على التأمل ومحاسبة النفس والسباحة فى الخيال ، والتشاؤم ، والايمان بالقضاء والقدر . ومن البوذية استمد اليابانى رغبته الملحة فى الحزن العميق الخيالى ، والعطف على الانسانية المعذبة . والصفة الاخيرة صفة الافراد ، تنقلب الى ضدها فى أبشع الصور فى الحروب والمعاملات الدولية والاستعمارية . وهذه الصفات المتضاربة هى التى أكسبت اليابانى مزاجا يصعب تحليله ، فهو يتكلم بصوت خافت ينبعث من وراء اسنانه كفحيح الحيات ، وقد يكون معنى هذا التأدب أمام من يعلوه مقاما ، وقد يكون معناه دهاء وخبثا ، والابتسامة عنده قد تكون اشارة للازدراء والاحتقار ، وقد تكون دليلا على الارتياح . ولذا يحذر العارفون الاجانب من الابتسام لرجل الشرطة هناك ، لان ذلك قد يجره الى المحاكمة

ولا يفوتنا ان نقول هنا ان حب الجمال والذوق السليم عند اليابانى ، يعزى الكثير منه الى جمال الطبيعة فى أواسط اليابان وجنوبها ، وتعزى البساطة والاقتصاد الى مبادىء الشنتو ، كما يعزى حب الجمال فى الصين الى التاوزم Taoism . والاميركيون شديدو الاعجاب بذوق اليابانى فى تنسيق الحدائق وترتيب الزهور . وقد غرسوا اشجار الكريز اليابانى فى جميع شوارع واشنطون ، ومن اروع المناظر التى يراها الزائر لهذه العاصمة الزهور القرنفلية البديعة التى تكلل تلك الاشجار ابان فصل الربيع . على أن مصدر الوحى فى آيات الفن اليابانى المعمارى وفى صناعة التصوير والتماثيل ، هو البوذية التى تسللت من الهند الى الصين وكوريا ، وانحدرت الى اليابان فتركت فيها من الآثار ما تركته الميثولوجيا اليونانية والتقاليد المسيحية فى أوربا . والبوذية من طبيعتها تدعو الناس الى التفكير فيما وراء الاشياء الحسية المادية من الاسرار الغامضة والمعانى الدفينة الدقيقة ، وتعلم البشر أن وراء المظاهر العالمية الزائلة ، عالما روحيا أبديا ، يديره نظام دقيق ، ويخضع لقانون علوى لا يتغير . والاميركى بتفوقه العلمى الصناعى ، وثروته وماديته ،

وحداثته فى التاريخ ، وريعان صباه فى كل ما يتصل بغير المادة ، وقرب عهده بالفنون الجميلة ، كلها عوامل تجعله على النقيض من اليابانى . ويفوقه اليابانى بمراحل فى صناعة الخزف والنسيج وغيرهما من الصناعات التى تمت للفنون الجميلة بصلة ، ويفوقه كما قلنا فى عبادته لجمال الطبيعة ، وجلده على السير أياما متواصلة للاستمتاع بالزهور والاحراش والمروج . كذلك يفوقه فى آداب الحديث ، وتقاليد الحفلات . واليابانى يبالغ فى « الاتيكيت » والرسميات مبالغة يضيق صدر الاميركى بها ، فكل حركة يأتيها اليابانى فى عالم « الاتيكيت » لها معناها الادبى ولها مغزاها الفنى . ومع ذلك لا يتأفف اليابانى فى اميركا لما يبدو له من غلظة الاميركى وخلوه من المجاملات الرسمية ، وجفاف أداب الضيافة عنده

غير أن هناك تناقضا فى كياسة اليابانى ولباقته ، لا سبيل الى تفهمه . فمن العادات الغريبة عنده ما يتجلى فى هذه المسألة وامثالها كثير . اقيمت ولائم فخمة لضابط حربى اميركى كبير ، كان قد جرحه جندى يابانى منذ سنوات ، فترك أثرا فى جسمه . وكان يطلب اليه فى كل حفلة ان يكشف عن هذا الجرح حتى يراه الحاضرون ، فأبى الضابط الاميركى قبول الدعوة لاية حفلة كانت بعد ذلك ، حتى اقسم له كبير الا يتكرر الحادث ، فقبل الدعوة ، ولم يطلب أحد اليه الكشف على جرحه ، ولكن فتيات « الجيشا » اللاتى استحضرن لتسليته اتخذن موضوع الجرح عنوانا لجميع الحان تلك الليلة الراقصة . ومن المتناقضات فى صفاتهم انهم مع تفانيهم فى الطاعة لاولى الامر ، واحترام من هم أكبر منهم جاها ومقاما احتراما يكاد يكون ذلا وعبادة ، فان كل فرد منهم يعتبر نفسه مساويا للآخر . وربما كان فى مقدمة ما بينهم وبين الاميركان من وجوه الاختلاف ، ان اليابانى يقبل ما لا يتفق والعقل والمنطق ، فى حين ان الاميركى شديد التمسك بما ورثه من ارسطو ونيوتن وبيكون من مبادىء الطريقة العلمية وتدعيم الادلة بالتجربة العملية ، لا بالعادات والتقاليد وهوى النفس . اما من حيث آداب الاستعمار فبين البلدين فجوة عميقة ، فبينما نجد اليابان تمتص دماء مستعمرتها كوريا المغلوبة على أمرها ، التى يعيش ٨٥ ٠/٠ من سكانها البالغ عددهم عشرين مليونا (وهم فلاحون) على لا شىء ، ويسامون العذاب والجلد والسجن ، فاذا بنا نرى جزائر الفلبين ، أكبر مستعمرات اميركا ، فى جنة من الهدوء والسلام ، وسط الاضطراب والقلق والاستعباد فى الشرق الاقصى . فهى تتمتع بديمقراطية ورفاهية تحسدها عليها بعض بلدان أوربا ، وتحمل مصباح الحرية الاميركية . وقد بلغت أجور عمالها ومستوى العيش فيها أعلى منه فى الكثير من ممالك أوربا . ومنذ سنوات عديدة لم يبق فيها أثر لامراض الجدرى والطاعون والكوليرا . وقناطرها وطرقها العامة مفخرة الفن الهندسى ، والضرائب فيها أقل من مثلها فى أى بلد آخر متمدين . والميزانية والاحتياطى فوق المألوف فى أشد البلدان نظاما ، ومدارسها ومستشفياتها تملأ الادغال والغابات خارج المدن ، وهى فخر «الايدياليزم» الاميركى ، وقد

أنقص عدد الجنود الاميركان فيها سنة ١٩٤١ من ٦٥ ألف الى ٥ آلاف ، وعدد الموظفين الاميركيين من ٥ آلاف الى ١٠٠ موظف (١)

اسباب الخلاف بين البلدين

كانت اميركا قبل سنة ١٩٢٩ أكبر مستهلك لصادرات اليابان ، فقد كانت اليابان تصدر اليها ٤٠ ٠/٠ من مجموع صادراتها ، ولا سيما الحرير الذى كانت اميركا تستورد من اليابان منه ٨٠ ٠/٠ من حاجتها ، فلما اشتد الجفاء بين البلدين بسبب توغل اليابان فى الصين ، وتطلعها الى مستعمرات اميركا فى الباسيفيكى ، كفت اميركا عن استيراد الحرير اليابانى فهبط ثمنه الى الثلث ، والحرير فى اليابان كالقطن فى مصر ، اذا كسدت سوقه افلست البلاد ، فلا غرابة اذا انهار « الين » اليابانى ، وساءت الحالة المالية . وحاولت اليابان ان تروج أسواقها فى اميركا مرة أخرى ففشلت وهبطت قيمة صادراتها الى اميركا الى ١٧٣ مليون ريال ، فأخذت ترنو الى الشرق الاقصى ، وهى تعلم انه يسد حاجات اميركا الحربية ، خصوصا من المطاط والقصدير والكينين

وتعلم اميركا من الناحية الاخرى انه اذا استولت اليابان على الفلبين وجوام ، فقدت سيطرتها فى الباسيفيكى ، وتأثرت تجارتها ، وفقدت القصدير الذى تصدره لها ملايا البريطانية ، والقصدير يستعمل فى خزن الاطعمة التى يستهلكها الجيش ، والجيوش كما يقولون تزحف على بطونها ، وبفقد هذه الجزر ، تفقد اميركا حرية البحار والجو ، ويضيع من بروجرام الدفاع الجوى ستة مواد من ١٧ مادة ترد اليها من الشرق الاقصى نصفها من المطاط . زد على ذلك ان اليابان ساعدتها الجغرافية والعنصر السلالى والسخاء فى الاتفاق على ان تستميل حزبا ضئيلا فى الفلبين أخذ ينصب العداء لاميركا

وقد اقتبست اليابان الكثير من اميركا خصوصا فى الهندسة والتربية والطب ، وتلقى الالوف من ابنائها العلم فى جامعاتها ، ومنهم وزير خارجية اليابان السابق « متسوكا » فهو من خريجى جامعة اوريجون ، كما ان الاميركان كانوا يوفدون مبعوثين منهم لليابان لدراسة الزراعة ، خصوصا فيما يتعلق باشجار الزينة ، ودراسة العقاقير القديمة وطرق النسيج ونماذجه . ورغم هذا التبادل الثقافى فقد تفاقم الخلاف وانتهى أخيرا بالحرب

قدسية الامبراطور

يعد كل يابانى ذاته سليلا لبيت امبراطورى يرجع عهده الى سنة ٦٦٠ قبل الميلاد . ولذا يحترم الاملاك العامة ، بل يعبدها ، لانها ملك للامبراطور . وجريمة التخريب هناك تكاد تكون معدومة للسبب عينه . مثال ذلك انه يوجد فى « نارا » عاصمة اليابان فى الجيل التاسع عشر بناء صغير من الخشب به كنوز امبراطورية ثمينة لا حارس يحرسها ، ولم

(١) وضعنا للهلال مقالا مسهبا عن هذه الجزر فى عدد ديسمبر سنة ١٩٢٧

ARCHIVE

يحاول أحد سلبها أو الاقتراب منها ، وكل ما هنالك ان بابها معلق عليه وريقة مختومة بختم الامبراطور ، ومشدودة بخيط لا أهمية له . ويعبد الناس الامبراطور وقلما يرونه لانه « ابن السماء » وكل عين تقع عليه تفقد البصر . وقلما ترى صورته ، واذا وجدت غطيت بالورق ، وعند سفره توصد كل نافذة يمر بها القطار او السيارة . وفي سنة ١٩٣٩ منع رجال الادارة تمثيل رواية هملت لانها تتعرض لاحترام الملوك . وفي سنة ١٩٣٦ نشرت مجلة "Time" الاميركية صورة الامبراطور فرجتها السفارة اليابانية ان تنبه على قرائها الا يضعوا المجلة مقلوبة ، والا يضعوا فوقها شيئا . وقد انتحر ضابط الشرطة مرة لانه اخطأ في ارشاد موكب الامبراطور الرابع والعشرين بعد المئة . ومن الغريب ان الامبراطور الحالي يدعو عصره « شاوا » أي السلام المنير ، ويكتبون مثلا سنة ١٩٤٢ « شاوا ٤٢ » ، والوهية الامبراطور أكبر سلاح في يد من يتقلد زمام الحكم

وفي الولائم الامبراطورية يجلس الامبراطور الى مائدة يعلو كرسيها سائر الكراسي ، ومن التقاليد ان يحمل كل ضيف جانبا من الطعام ، ويعطى لكل سفير أجنبي فنجانا للشاي يحمله معه مرة كل عام . ومنذ سنوات زار مستر «جرنر» نائب رئيس الجمهورية الأميركية الامبراطور ، وقبل دخوله خطر بباله ان يبرهن لجلالته مقدرة اميركا على صنع بعض السلع بأثمان بخسة ، فحمل معه ساعة تباع بريال واحد . فنصح اليه اصدقاؤه بالعدول عن مخاطبة الامبراطور في مثل هذا الموضوع ، خشية ان تعد اهانة فينتحر رجال الحاشية . ولا يلبس الامبراطور ثوبا أو بذلة أكثر من مرة ، يخلعها بعدها على احد رجال حكومته . وتفصل ملابسه عن بعد ، اذ لا يسمح للخياط بالاقتراب منه . ولاول مرة منذ ٢٦٠٠ سنة تقريبا قصد ولي العهد (وهو الامبراطور الحالي) السفر الى اوربا فاقسم مئة صبي ياباني ان ينتحروا اذا عدل عن السفر . ويبلغ احترام الشعب له ولحكومته ان كل قرار يصدر كاعلان الحرب مثلا تتحدث عنه الصحف والناس بقولهم « هم » قرروا الحرب ، و « هم » اعلنوا الاحكام العرفية . ومن « هم » هؤلاء ، لا يدري أحد

من صفات اليابانيين

واليابانيون فدائيون قبل كل شيء ، ومن تقاليدهم ما يسمونه قانون « سماراي » الذي ينصب على السيف وينتهي بالانتحار المعروف باسم « هراكيري » . ومن أهون الاشياء على الياباني استعداده لبقر بطنه كلما أنس في عمل عارا ، مثال ذلك ان عربة مكشوفة كانت تنقل جنودا ، فوقع أحد الجنود في الشارع . وما كان منه الا ان استل خنجره وأخرج امعاءه منعا للعار (to save face) ، ومما يدل على استهتارهم بالموت ان الناس يودعون ابناءهم على رصيف المحطة عند سفرهم لساحة القتال ، فلا يبكون ولا يأسفون ، وأمامهم على الجانب الآخر من الرصيف عربات تفرغ منها رفات القتلى الواردة من الحرب الصينية . وفي خلال الحروب توزع القيادة على الجنود بطاقات مطبوعة كتب عليها : « صحتي جيدة ،

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحرب مدهشة ، سأعود قريبا » وهذا كل ما يبعثه الجندى لذويه من الرسائل

واليابانيون من اشد الناس نظافة وعناية بالوسائل الصحية ، فمنازلهم ومصانعهم نموذج للرشاقة ، ومثال النظافة مجسمة • وفى المدن التى تكثر فيها عربات الجياد ، يعلق فى ذيل كل جواد اناء ، يقضى فيه حاجته • وعمال التنظيم لا يتركون ورقة تسقط من شجرة دون ان يسارعوا فى التقاطها • ورغم مهارتهم فى التقليد ، فهم مخترعون مبتكرون ، ومن اكفأ الامم فى الصناعة ، محبو العمل والرياضة البدنية ، حتى ان ألوف الفتيات فى كل مصنع يخصص لهن نصف ساعة يوميا اجباريا للالعاب الرياضية • وهم أشد الناس تعصبا لقوميتهم لا يقبلون على السلع الاجنبية اذ ان ٩٠ ٪ من سلعهم يابانية • ولكنهم فى كثير من الوجوه أجلاف ، تنقصهم الجاذبية والتسامح والاتزان ، وحب الانسانية ، وتفهم غيرهم من الامم ، والمزاح ، ولذا يسميهم الصينيون لصوصا من القردة ، أو اقزاما من اللصوص

وهناك تناقض غريب فى آدابهم وعاداتهم ، فبينما يحرمون الرقص فى فنادق السياح ، والخمور فى قاعات الرقص ، والميسر فى الاماكن العامة ، وبينما يحتمون انارة السيارات من الداخل بعد الساعة التاسعة مساء ، فاذا بهم يسمحون بانتشار البغاء انتشارا مريعا ، حتى ان جيشا جرارا من صغار الفتيات يباع علنا فى الاسواق بيع الاغنام • ناهيك عن « الجيشا » ـ الفتيات الحسان اللاتى يقمن بتسلية الرجال رقصا وغناء وتدليلا فى المنازل وخارجها ـ وهو نظام فريد فى بابه ، ذو تجارة واسعة رابحة عديمة المثال •ولم يحرمون الخمر والميسر فى بيوت الدعارة ؟ لانها صناعة جدية تدر على الحكومة مبالغ طائلة ، ومن اغرب ما يعرفه ان كل عاهر تلقى اجباريا درسا فى الاخلاق مرة كل اسبوع (وماذا تفعل به ؟) ، وان العاهر عادة تدخر قدرا من المال ثم تعود الى أهلها « بدوطة » تتزوج بها ، وكأنها لم تكن بغيا على الاطلاق • وهذا منتهى التسامح الغريب • وقد سمعت الزعيم اليابانى « كاجوا » يخطب فى نيويورك منذ سنوات قليلة مضت ، ومما قاله انه ابن محظية ، وذلك ان المحظية فى اليابان والصين كالزوجة الشرعية • و « كاجوا » هذا أكبر مصلح اجتماعى هناك واشهر كاتب ، ومن أكثر كتاب العالم ثروة

واليابانى عصبى المزاج، كثير الحركة ، شديد الذكاء ، شاذ فى نشاطه • ويعزو العلماء ذلك الى ان طعامه الرئيسى السمك غير المطبوخ ، وهو غنى باليود ، واليود اذا زاد عن حده تضخمت الغدة الدرقية ، وأكثرت من افراز الهرمون المعروف باسم « ثروكسين » فأصبح صاحبه عصبيا شديد الحركة • والسمك كذلك غنى بالفوسفور ، ولعل لهذه المادة علاقة بذكاء اليابانى المفرط • على ان طعامه فى غير ذلك اكثره من الارز الابيض ، وقلما يشمل لبنا أو زبدا أو جبنا ، أو خضارا ، ولذا ينقصه عنصر الجير ، وهذا هو السبب فى قصر قامته وقصر نظره ، وقلما تجد يابانيا يقرأ بغير نظارة شديدة التقعر • اما ما ذكره « جنتر » المؤلف الاميركى من ان صعوبة الحروف الهجائية قد تكون السبب فى قصر نظر اليابانى فغير معقول ، بدليل ان الصينى سليم العينين والحروف اليابانية هى الصينية

ومن صفات الياباني تعطشه للدماء ، وتلذذه بالالم (ماسوتشيزم) طالما كان ذلك في صالح الوطن والامبراطور (كالالمان) • وهو يوجس شرا بكل اجنبي ، وقد ذكر « فان دوس » من علماء اميركا في كتاب حديث له ان الكشف الطبي على ركاب الباخرة التي اقلته الى يوكوهاما استغرق من الصباح الباكر الى الساعة الرابعة مساء • وليس الدافع الذي يحدو بهم الى هذه القسوة أو الكراهية ، وانما هو الخوف ــ خوف الشيوعية ، والديمقراطية ، والصين ، واميركا ، ودول الغرب ، والايمان بنظرية التعصب ضد البيض

ومن أبرز صفاتهم انهم أشد الناس انتهازا للفرص Opportunists فكأن الطبيعة انعمت عليهم بحاسة فريدة اسمها حاسة الوقت ، والدليل على ذلك فان اليابان تخرج من عزلتها كلما حولت لها أوربا ظهرها • فحكاية منشوريا جاءت سنة ١٩٣١ أثر خروج انجلترا عن قاعدة الذهب ، واشتداد الازمة المالية في اميركا ، ونشوب الحرب الاهلية في الصين • وفي يولية من سنة ١٩٣٧ جاءت حكاية ماركوبولو أثر عملية التطهير التي قام بها ستالين في الجيش الروسي ، واشتغال انجلترا بهتلر • وقد استولوا على كنتون الصينية عقب اتفاقية ميونيخ سنة ١٩٣٨ ، واستولوا على « هينان » بعد سقوط برشلونة بشهرين ، وضموا جزائر « سبراتلي » في مارس سنة ١٩٣٩ بعد ان ضمت المانيا البقية الباقية من تشيكوسلوفاكيا ، وضربت اميركا وبريطانيا في ديسمبر سنة ١٩٤١ من الخلف بينما كانت تفاوض واشنطن على أثر انتصارات هتلر في روسيا ، واشتغال انجلترا بالحرب اللوبية

وأشرف الصفات في طبيعة الياباني واعمقها عنصرا ، هي قوة الاحترام والعبادة ، فهي اجمل ما تتفتح عنه اكمام زهوره ، واعطر ما ينشق من دينه وتاريخه وثقافته وتقاليده • هذا هو أساس احترام العلم وقدسية العلماء ، هو السر في جمال الرباط الذي يربط الولد بوالده ، والتلميذ بمعلمه ، والمحكوم بحاكمه ، والعلاقة التي لا يوجد لها مثيل عمقا ووزنا في أي بعد آخر ، والنور السماوي الذي يشرق على الماضي وأبطاله وارثه وسلالته ، فتولد في النفوس الرغبة الصادقة في طاعة أولي الامر أيا كانوا • ولكنها للاسف هي هذه الصفات بعينها التي تعمى عيونهم عن البصر ، وعقولهم عن التفكير (١)

أمير بقطر

(١) رجعت في هذا البحث الى المؤلفات الحديثة الآتية :

(١) William Johnson "U.S.A. & Japan's New Order" 1941.

(٢) John Gunther "Inside Asia," 1939.

(٣) Henry Van Dusen, "For the Healing of Nations." 1940.

(٤) مجلة المجمع العلمي الاميركي للعلوم السياسية والاجتماعية Annals عدد مايو سنة ١٩٤١

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

سرقات الآثار في عصور الفراعنة

بقلم الاستاذ محرم كمال

كبير مفتشي آثار مصر الوسطى

سرقات أثرية في عهد الفراعنة - غارات اللصوص الاقدمين - محاكمة فذة في عهد رمسيس التاسع - اعتراف تاريخي لبعض اللصوص - لصوص عصر بوند

للتحف الأثرية في كل زمان ومكان قوة إغراء تؤثر بها على فريق من ضعاف النفوس الذين يؤثرون الحصول على الغنى والثروة من أى طريق كان حتى ولو كان طريق الجريمة ومن ثم فقد انتشرت سرقات الآثار في جميع العصور . ولعل أغربها هو ما حدث في عهد قدماء المصريين أنفسهم ووصلت الينا أخباره ودقائقه وهي لا تكاد تختلف في جملتها عما يحدث في عصرنا الحالي كما دلت البحوث التي كشفت لحسن الحظ عما خفي من دقائق حادث السرقة الأخير

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

منطقة المقابر

اتخذ ملوك الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين وادي الملوك مثابة لقبورهم وحفروا فيها مخابىء توابيتهم . وشملوا هذه المنطقة بحراسة جدية لبثت في عهد ملوك الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة الأقوياء

وضعفت هذه الحراسة ووهن عزمها منذ وليت زمام مصر الأسرة العشرون التي استولى على ملوكها الضعف وكان من أثر ذلك أن تشجع اللصوص وقوى ساعدهم على العبث بهذه المقابر الملكية حتى أن الحراس أنفسهم لم يتعففوا عن مد أيديهم الى ما اؤتمنوا عليه من أموات ملوكهم السابقين فاجترأ البعض على السرقة لحسابه الخاص ، وتغافل البعض لقاء قسط معلوم ، ونام البعض بدافع من التراخي والخمول

وسواء أصح هذا أم لم يصح فان المقطوع بصحته أن السرقات فشت وانتشرت في عهد الأسرة العشرين الى حد بعيد ، ولدينا أسانيد في الدرجة الأولى من الأهمية يرجع تاريخها الى عصر رمسيس التاسع ، وهي جملة أوراق من البردى بها تقارير عن التحقيقات التي أجريت مع لصوص المقابر ووصف شائق لمحاكمتهم

قصة

والقصة كما ترويها هذه الأوراق والأسانيد تتحدث عن ثلاث شخصيات أولها « خام أواس » الوزير وحاكم المنطقة العام و « بسر » رئيس الجانب الشرقى من مدينة طيبة (الأقصر الحالية) ثم « بويرو » رئيس الجانب الغربى من هذه المدينة أو بعبارة أخرى المنطقة التى تدخل فيها الجبانة أى وادى الملوك وما يتبعه حيث مدافن الملوك ومقابرهم

ونشأت ـ كما جرت العادة ـ منافسة حادة بين رئيسى هذين القسمين ويظهر أن سرقة ما حدثت فى المقابر وأسرع « بسر » الى الوزير « خام أواس » يحمل اليه النبأ الخطير ويزوده بتفاصيل ما حدث من سرقات حددها هو بعشر مقابر ملكية وأربع لكاهنات « آمون » وعدد كبير من مقابر الأفراد

وأوفد الوزير لجنة للتحقيق ولمعاينة الجانب الغربى من المدينة الذي وقعت عنده الحوادث واستدعت اللجنة « بويرو » وشرعت فى أداء مهمتها

ووجدت اللجنة أن واحدة فقط من المقابر الملكية العشر التى قال عنها « بسر » هى التى فتحت ونهبت وأن محاولات قد أقحمت على مقبرتين ، أما مقابر الكاهنات فقد وجدتها سليمة فى حين أن مقابر الأفراد قد سرقت جميعاً

ورحب « بويرو » بهذه النتيجة وتهلل فرحاً وعدها فوزاً ونصراً على خصمه الواشى ودليلا على حسن ادارته ويقظته . . . ويظهر أن الوزير « خام أواس » قد شاطره هذا الرأى

ويلوح أن « بويرو » اعتبر نفسه كمن اتهم فى عشر جنايات قتل لم تثبت إدانته إلا فى واحدة منها فقط فهو يبرح المحكمة شاعراً ببراءته من أية لطخة

وراح « بويرو » يذيع نبأ براءته وطهارة يده فى كل مكان وجمع مرءوسيه وبعث بهم الى الشاطىء الشرقى من المدينة ليحتفلوا بالبراءة وأوصاهم على وجه خاص بأن لا يقتصدوا فى إبداء سرورهم وابتهاجهم وأن يحدثوا ما شاءوا بجوار قصر منافسه « بسر »

وللقارىء أن يعلم سلفاً أن موظفى « بويرو » لم يقصروا فى أداء المهمة ولم يتوانوا فى تنفيذ الشطر الثانى من وصيته

على أن « بسر » وإن كان قد تحمل شغب هؤلاء الموظفين حيناً إلا أنه ضاق بهم ذرعاً ، وخرج اليهم غاضباً وهدد بابلاغ الأمر كله الى الملك رأساً

واقتنص « بويرو » الفرصة وهرول الى الوزير « خام أواس » وقص عليه الامر متهماً « بسر » بالآتى :

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

أولا — أنه وضع قرار لجنة التحقيق التى شرفها الوزير بثقته فى مكان من الشك والريبة واتهمها بالتحيز وعدم النزاهة

ثانياً — أن « بسر » لم يرع الأصول والواجب بأن تخطى رئيسه المباشر ورفع الامر الملك مباشرة وهى واقعة جريئة تتضمن اهانة علنية صريحة للوزير نفسه وهو أمر يستعيذ منه « بورو » التقى الصالح ويأسف له أشد الأسف ويضعه بكل احترام تحت تصرف الوزير ليتخذ فيه قراراً رادعاً

وكانت فى هذا الاتهام خاتمة حياة « بسر » اذ أن الوزير ألف لجنة لمقاضاته . وقد أعلنت هذه اللجنة بعد المداولة أن « بسر » مدان من الدرجة الاولى

هذا ملخص القصة على أنه لم تمض سنة واحدة على هذه المحاكمة حتى ظهرت سرقات من نفس المقابر الواردة فى بلاغ « بسر » سالف الذكر

اعتراف تاريخى

وفوق هذا فان نصوصاً عرفت منها أسماء بعض لصوص المقابر ومن هؤلاء عصابة مكونة من ثمانية أشخاص منهم « حابى » قاطع الاحجار والصانع « ادامن » والفلاح « امنحب » وحامل المياه « كم واسى » والعبد « احى نفر »

وفى هذه النصوص ورد ذكر هؤلاء اللصوص وهم يحفرون طريقهم الى غرفة الدفن حتى وصلوا الى تابوتى الملك والملكة وقد ورد فى هذا النص اعتراف من أحد اللصوص قال فيه :

« . . . وفتحنا التوابيت فوجدنا مومياء الملك . . وحولها التمائم والتعاويذ المصنوعة من الذهب حول العنق وفوق رأسها (رأس المومياء) قناع من الذهب وتحيط بها الأشرطة الذهبية وقد استخرجنا الذهب ونزعنا التمائم والجواهر المحيطة بالرقبة ووجدنا الملكة كزوجها تزدان بالجواهر فنزعناها وسرقنا الأثاث الجنازى الذى وجدناه فى المقبرة والأوانى الذهبية والفضية واقتسمناها ، وقسمنا الذهب الذى سلبناه من المقبرة والتمائم والتعاويذ والحلى الى ثمانية أجزاء »

وقد انتهت محاكمة هؤلاء اللصوص بالادانة ثم رفعت النتيجة الى فرعون ليقرر نوع العقوبة التى تنزل بهم

وعلى الرغم من هذه المحاكمات استمرت السرقات فى وادي الملوك وساءت حالة الوادى

ويتحدث اللصوص عن سرقة مقبرة « امنحتب » الثالث و «سيتى» الاول » و « رمسيس » الثانى ولما تفاقمت الحالة نقلت الموميات الملكية من مقبرة الى أخرى تضليلا للصوص وصوناً لها من عبثهم . فمومياء رمسيس الثانى مثلا نقلت ثلاث مرات على الأقل فى عهد الأسرة الحادية والعشرين وكذا نقلت مومياء » أحمس » و « امنحتب » الاول و « تحتمس » الثانى و « رمسيس» الذى ورد عنه النص التالى :

« السنة ١٧ الشهر الثالث من الفصل الثانى اليوم السادس يوم نقل رمسيس الثانى لدفنه فى مقبرة الملك سيتى (الاول) وقد تم ذلك بواسطة كاهن أمون الاكبر (باى نزم) »

وبعد ذلك بضع سنوات نقل سيتي الاول ورمسيس الثانى من هذه المقبرة وأعيد دفنهما فى مقبرة الملكة « انهابى » وقد نقل كثير من المومياء فى هذا العصر (الأسرة الحادية والعشرين) من مخابئها ومقابرها ووضعت فى مقبرة شقت فى صخور الدير البحرى

وكان هذا هو النقل النهائى إذ بقيت الموميات فى سلام زهاء ثلاثة آلاف سنة

لصوص عصريون

وفى عام ١٨٧٥ عثر على هذه المقبرة أفراد أسرة عبد الرسول الشهيرة بالقرنة ومما هو جدير بالذكر ان أهالى القرنة قد اعتادوا سرقة المقابر منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد وقد بقى هذا الداء متغلغلا فى الاهالى وأفراد هذه الأسرة يتناقله الخلف عن السلف الى اليوم

على أن أسرة عبد الرسول فى هذه الحالة بالذات رأت أن اكتشافها هذا أفدح من أن يظهر دفعة واحدة فاجتمع مجلس الأسرة وقرروا فيما بينهم أن يقسموا على الاحتفاظ بسرية المكان وأخذوا يستلبون اكتشافهم شيئاً فشيئاً فيبيعون كل سنة جزءاً من الموميات وما حولها من تمائم واستمر عملهم هذا ست سنوات الى أن أصبح أفراد هذه الأسرة من كبار الأثرياء

ولما انتشرت هذه المخلفات فى الاسواق ذاعت اشاعة تقول بعثور أسرة عبد الرسول على لقية ملكية فقبض فى سنة ١٨٨١ على عميد هذه الأسرة وسجن وعذب ليبوح بسر اللقية عبثاً

على انه بعد الافراج عنه بشهر واحد ذهب الى مدير قنا فرد من هذه الأسرة واعترف بالعثور على المقبرة وطير المدير الخبر الى المتحف المصرى فسافر مديره بروكش بك فوراً الى الأقصر وأمكن فى ٥ يوليو سنة ١٨٨١ أن يقف على السر كله وأن يهتدى الى مكان الحفر التى أخفيت فيها الموميات فوجد ملوك مصر العظام وفراعنتها الكبار الذين دوخوا العالم فى عصورهم وجدهم ثاوين فى تلك الحفرة الضيقة التى نقلوا اليها من ثلاثة آلاف سنة لتكون مخبأ لجثثهم

وكانت الموميات موضوعة فى توابيت ذكر عليها وعلى اللفائف المحيطة بالموميات تاريخ وسبب نقلها من مكان الى آخر

وقد اتضح من البحث العلمى أن بعض الموميات وضعت فى توابيت ليست لها أصلا أو بعبارة أخرى حصل خلط بين الموميات والتوابيت حين نقلها منذ ٣ آلاف سنة

ولم يمض يومان حتى كان بروكش بك قد أخرج الموميات من تلك الحفرة وحملها فى سفينة الى المتحف المصرى حيث ترقد الى الآن فى سلام

محرم كمال

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحرب فى عام ١٩٤١

بدأ عام ١٩٤١ والقوات البريطانية تنتقل من مصر الى ليبيا حتى تم لها احتلال ولاية برقة فى أوائل فبراير . وكانت اليونان فى تلك الاثناء لا تزال صامدة للهجوم الايطالى بل كانت تتقدم ببطء فى الأراضى الالبانية . وفى نفس الوقت كانت المانيا تحشد القوات فى رومانيا وتضم بلغاريا الى المحور وتبذل الجهود فى ضم يوغوسلافيا حتى تم لها ذلك فى ٢٥ مارس . بيد أنه لم ينقض يومان حتى حدث انقلاب فى يوجوسلافيا وولى الملك بطرس الثانى الحكم ناقضاً انضمام بلاده الى المحور

وكانت نتيجة ذلك ان انتهزت المانيا الفرصة وأعلنت الحرب على يوجوسلافيا واليونان فى ١٦ أبريل ، واضطرت بريطانيا الى سحب جانب من قواتها فى ليبيا لمساعدة اليونان . وانتهت الحرب فى البلقان باحتلال المحور ليوجوسلافيا واليونان وجزيرة كريت . وكان من نتائجها أن استرد المحور ولاية برقة ما عدا «طبرق» التى احتفظ بها البريطانيون

أما فى شرق أفريقيا فقد بدأ البريطانيون هجومهم فى ١٩ يناير باسترداد كسلا ، ثم استمروا فى الزحف من مختلف الجهات فسقطت مقدشيو فى ٢٦ فبراير ، وأسمرة فى أول أبريل ، وأديس ابابا فى ٦ أبريل ولم يلبث الدوق داوستا بعد ذلك أن طلب التسليم فى ١٨ مايو . واحتمى جانب من القوات الايطالية فى ولشفيت وجوندار ، فدام حصار البريطانيين لهذين الموقعين حتى سقط أولهما فى ٢٨ سبتمبر وثانيهما فى ٢٨ نوفمبر فانهارت المقاومة الايطالية فى شرق افريقيا

وفى ابريل — فى إبان الحرب اليونانية — قام رشيد عالى الكيلانى فى العراق بحركة انقلاب وثورة ضد الانجليز . ولكن هذه الحركة كانت سابقة لأوانها اذ لم تستطع المانيا مساعدته فقضى على الثورة العراقية فى أيام وفر رشيد عالى الكيلانى وأتباعه فى ٣٠ مايو وطلبت لجنة الأمن العام فى بغداد الهدنة . وقد أدى تدخل الالمان فى شئون الشرق الاوسط الى دفع بريطانيا الى وقف هذا التدخل باحتلال سوريا ولبنان فبدأ هجوم البريطانيين والفرنسيين الاحرار فى ٨ يونيو وواصلوا الزحف حتى وقعت الهدنة فى عكا فى ١٢ يوليه

وتلا ذلك اشتراك بريطانيا وروسيا فى القضاء على النفوذ الالمانى فى ايران ، فتم لهما ذلك وأوقف القتال فى إيران فى ٢٨ أغسطس

وفى شهر يونيو شهد العالم أعظم مفاجأة فى الحرب الحاضرة إذ نشبت الحرب بين المانيا وروسيا فى ٢٢ يونيو بعد أن استعدت لها المانيا شهوراً طويلة . وقد وفق الألمان فى زحفهم طوال الشهور الأولى حتى وصلوا إلى حصار لننجراد شمالا ، وموسكو فى الوسط واحتلوا روستوف فى الجنوب ، على أن هذا التوفيق لم يلبث أن انقلب هزيمة بفعل الشتاء والهجوم الروسى المضاد ، فارتد الألمان فى جميع الميادين الروسية والقوات السوفييتية تتعقبهم مستردة القرى والمدن يوماً بعد يوم

وفى ١٩ نوفمبر بدأ الزحف البريطانى الثانى على لوبيا ، وشهدت الصحراء موقعة من أكبر المواقع بين الدبابات فى الحرب الحاضرة ، إذ قاومت قوات المحور الميكانيكية مقاومة عنيفة فى منطقة سيدى رزق حتى اضطرت الى التقهقر وواصل البريطانيون الزحف فتم لهم احتلال ولاية برقة بسقوط بنغازى فى ٢٥ ديسمبر ، وارتد الالمان الى الاجدابية ثم العقيلة

ولم ينته عام ١٩٤١ حتى اشترك فى الحرب الحاضرة دولتان من أكبر دول العالم : ذلك أن اليابان هاجمت فجأة ممتلكات الولايات المتحدة وبريطانيا ، فى ديسمبر ، ثم أعلنت المانيا وايطاليا الحرب على الولايات المتحدة فى ١١ منه ، وبذلك أصبحت الحرب الحاضرة حرباً عالمية تتناول ميادينها جميع المحيطات والقارات الخمس

ARCHIVE http://archive.sakhrit.com

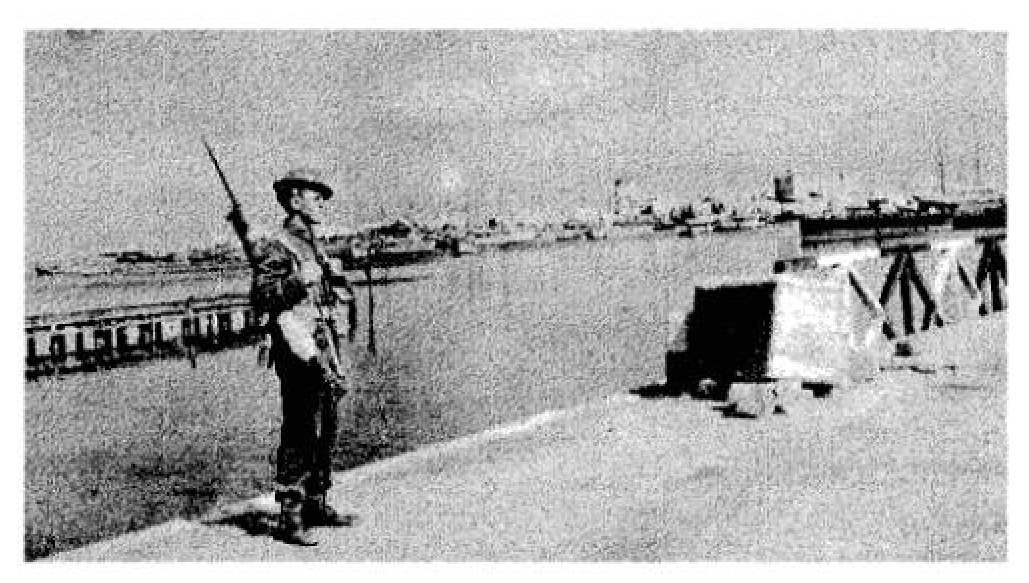
الزحف الاول على ليبيا

بدأ هذا الزحف قبيل ابتداء عام ١٩٤١ بأيام واستمر حتى سقوط بنغازى فى ٧ فبراير . وقد امتاز الزحف بالسرعة وضعف مقاومة الطليان وكثرة الاسرى . وهذا فريق منهم ينحدر فى الطريق الموصل بين السلوم العليا والسفلى فى الايام الاولى من الزحف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



احتلال البردية وكان احتلال ميناء البردية أول الانتصارات البريطانية فى عام ١٩٤١ ، إذ دخلتها القوات الزاحفة فى يوم ٥ يناير وواصلت الزحف منها غرباً . وهذا فريق من الجنود البريطانية تقلهم السيارات الى خطوط القتال مجتازة شوارع البردية



البريطانيون في بنغازي

وقد تم للبريطانيين احتلال ولاية برقة بعد استيلائهم على بنغازي في ٧ فبراير ، بيد أن قوات المحور انتهزت فرصة سحب الجانب الاكبر من القوات البريطانية لمساعدة اليونان واستردت برقة ما عدا طبرق . وقد التقطت هذه الصورة لميناء بنغازي في أثناء احتلال البريطانيين لعاصمة برقة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



الاحتفاظ بطبرق

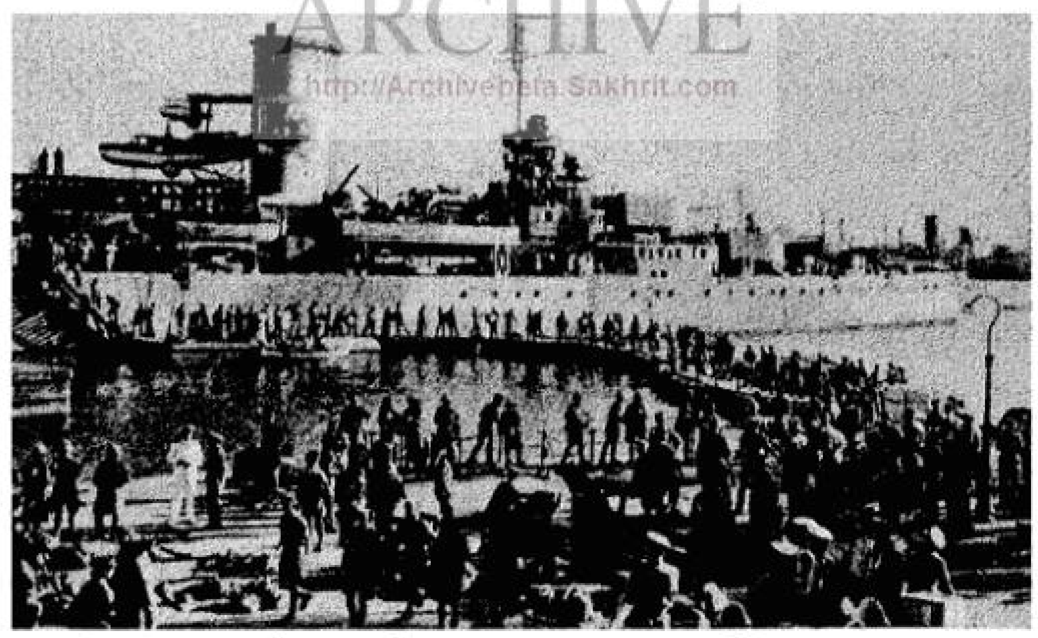
وقد دام احتفاظ البريطانيين بميناء طبرق ثمانية اشهر برغم محاولات قوات المحور اختراق تحصيناتها ورغم الغارات الجوية المتواصلة فسجلت حاميتها صفحة خالدة في تاريخ الحرب الحاضرة . وهذه صورة من الجو للميناء والمدينة بعد أن دخلتها القوات البريطانية في ٢٢ يناير وكانت النار ما تزال مشتعلة في الطرادة الايطالية « سان جورجيو » بالميناء



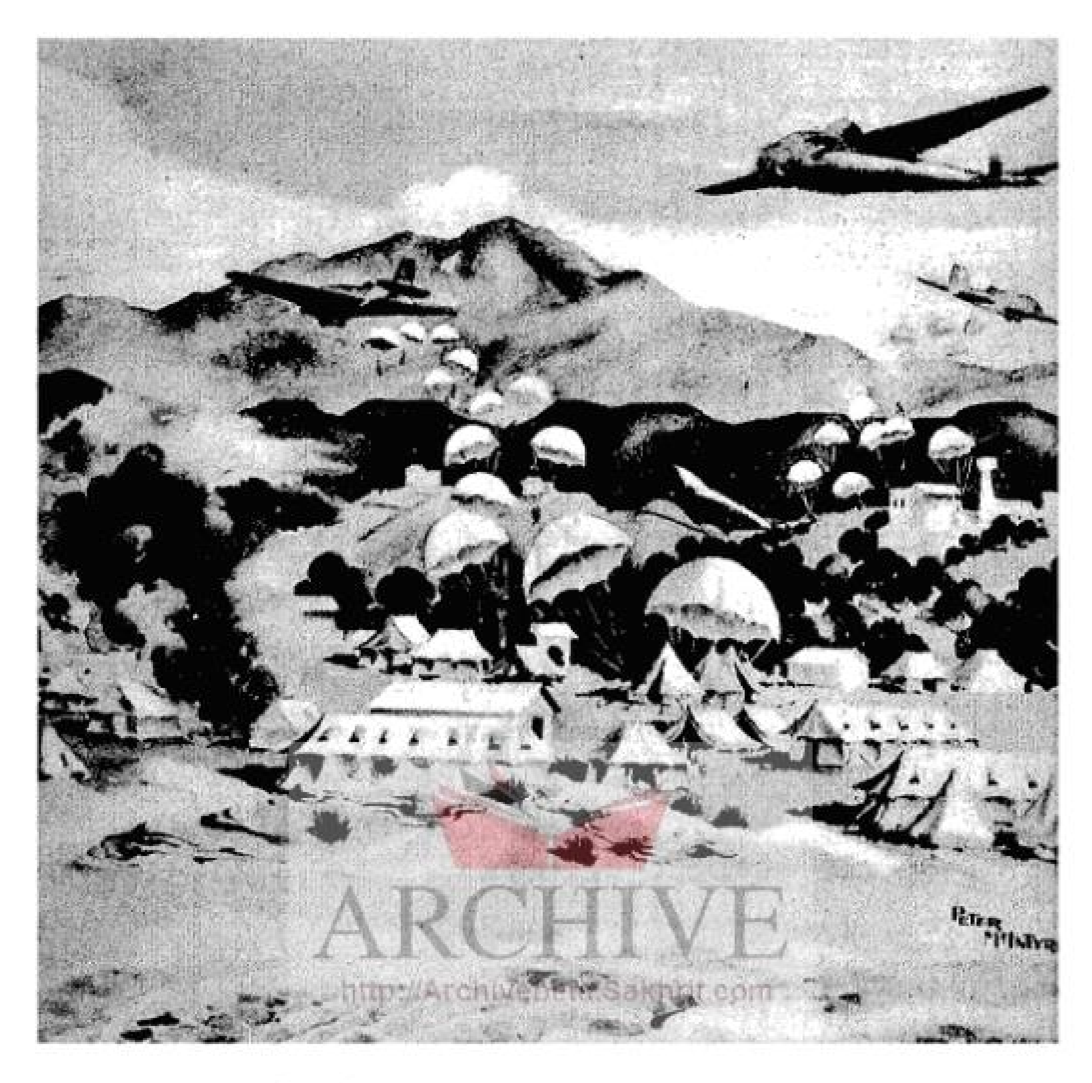
الحرب فى اليونان

مرت الاشهر الأولى من عام ١٩٤١ واليونان تكيل الضربات للقوات الايطالية وتتوالى انتصاراتها فى الميادين الألبانية . والايطاليون يقعون فى الأسر مثات وألوفاً . وهذا فريق من أسرى الطليان الذين سلموا للقوات اليونانية قبيل اعلان المانيا الحرب على يوجوسلافيا واليونان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

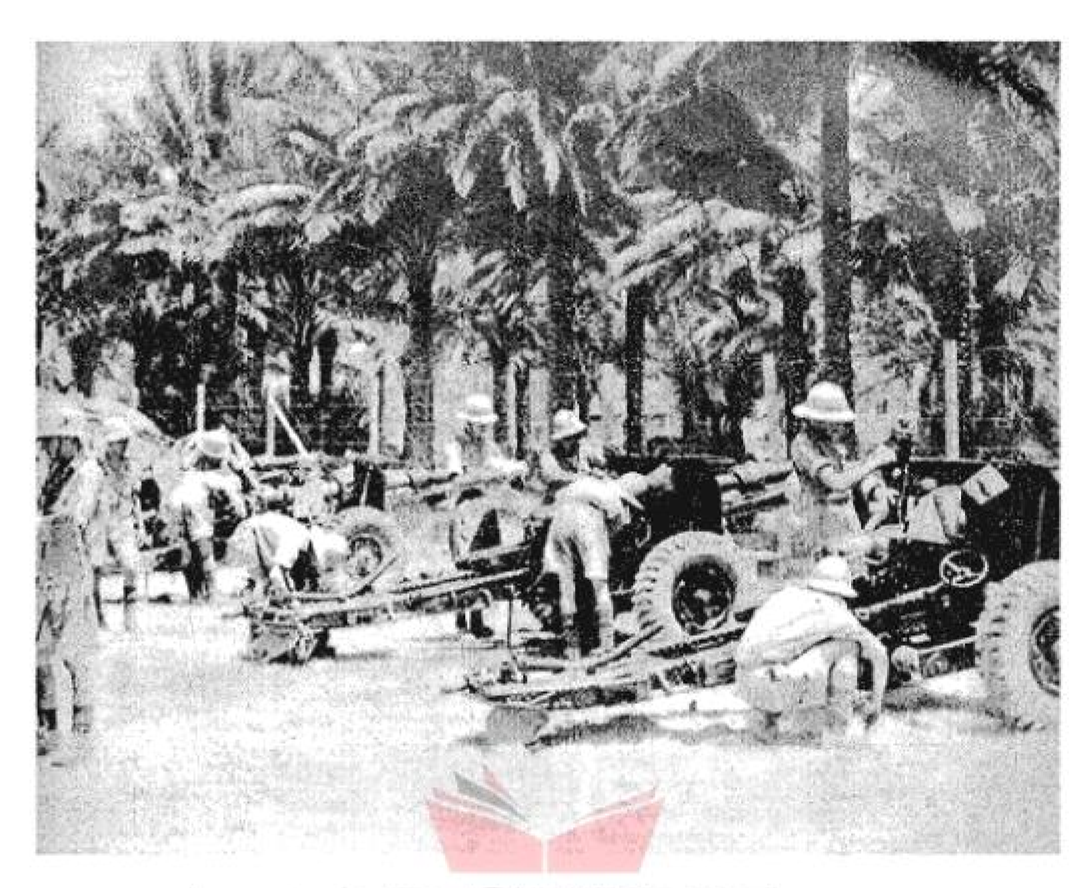


المساعدة البريطانية ولم تكد المانيا تدخل ميادين البلقان حتى أسرعت بريطانيا تفى بتعهداتها وترسل القوات والذخائر والعتاد الى اليونان . وهذه احدى قطع الاسطول البريطانى تستقبل الجنود والمعدات قبيل اقلاعها الى كريت واليونان



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

موقعة كريت بعد هجوم ألمانيا على اليونان انتقلت الحكومة اليونانية من أثينا الى كريت فى ٢٣ ابريل ، ثم أوقف القتال فى شمال اليونان وعقدت الهدنة بجوار سلانيك فى اليوم التالى ، ودخلت أثينا فى ٢٧ ابريل ، وفى الفترة ما بين أواخر ابريل وأواسط مايو كانت ألمانيا تستعد لغزو كريت من موانىء شبه جزيرة المورة ومطاراتها ومن الجزر اليونانية فى بحر إيجه ، حتى اذا ما أتمت استعدادها بدأت فى الهجوم على كريت من الجو فى يوم ٢٠ ابريل . ولقد قاوم اليونانيون والبريطانيون مقاومة عنيفة فى الجزيرة حتى غلبوا على أمرهم بعد قتال دام ١٢ يوماً فسحبت بريطانيا قواتها من كريت تحت حماية الأسطول البريطانى . وانتقلت الحكومة اليونانية وجلالة الملك جورج الثانى من الجزيرة الى الشرق الأدنى ثم الى انجلترا . ويمثل هذا الرسم صورة من صور الحرب فى كريت ، وهو يبين هبوط جنود المظلات من الطائرات الألمانية على المستشفى العسكرى العام فى الجزيرة



فى ضواحى بغداد بعض رجال المدفعية البريطانية يتظفون مدافعهم خارج بغداد عند وصولهم الى ضواحى العاصمة العراقية بعد أن قطعوا مسافة طويلة فى الصحراء

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

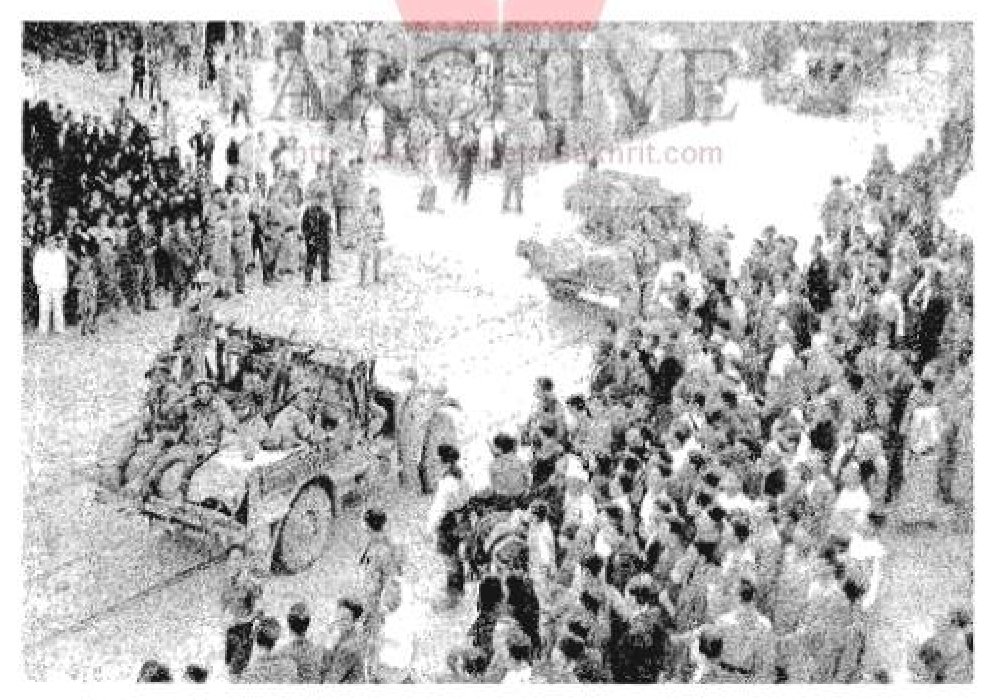
الحرب فى الشرقين الاوسط والادنى

بينما كانت الحرب مشتعلة الأوار فى اليونان قام رشيد عالى الكيلانى فى العراق بحركة انقلاب استأثر بعدها بالسلطة وهو يأمل أن تساعده المانيا على الثورة ضد بريطانيا ، ووضحت نيات رشيد عالى وأتباعه لبريطانيا فى ٣ مايو إذ هاجمت القوات العراقية القاعدة الجوية البريطانية فى الحبانية ، بيد أن الحرب فى العراق لم تطل إذ أخمدت بريطانيا الثورة بسرعة ودخلت القوات البريطانية بغداد فى يوم ٣٠ مايو . وفى أثناء الحرب فى العراق استخدم الألمان المطارات السورية واللبنانية لتوصيل بعض المعونة لثوار العراق ، فقررت بريطانيا القضاء على النفوذ الالمانى وهاجمت قوات البريطانيين والفرنسيين الاحرار كلا من سوريا ولبنان ، فلم يلبث الجنرال دنتز قائد القوات الفرنسية فى سوريا أن طلب الهدنة وأعلن استقلال سوريا ولبنان ، واستكملت بريطانيا القضاء على النفوذ الالمانى فى الشرق الاوسط عند ما راوغت ايران فى إجابة الطلبات البريطانية ، فاشترك البريطانيون والروس فى الزحف على إيران فى ٢٥ أغسطس ولم تنقض ثلاثة أيام حتى أوقف القتال فى ٢٨ أغسطس . وبذلك فقدت المانيا كل نفوذ فى الشرقين الاوسط والادنى



في طريق بيروت

الدبابات والسيارات البريطانية تزحف على الطريق الساحلي في لبنان في طريقها الى بيروت وقد بلغتها في أوائل يوليو بعد اختراقها لخطوط الدفاع في الدامور



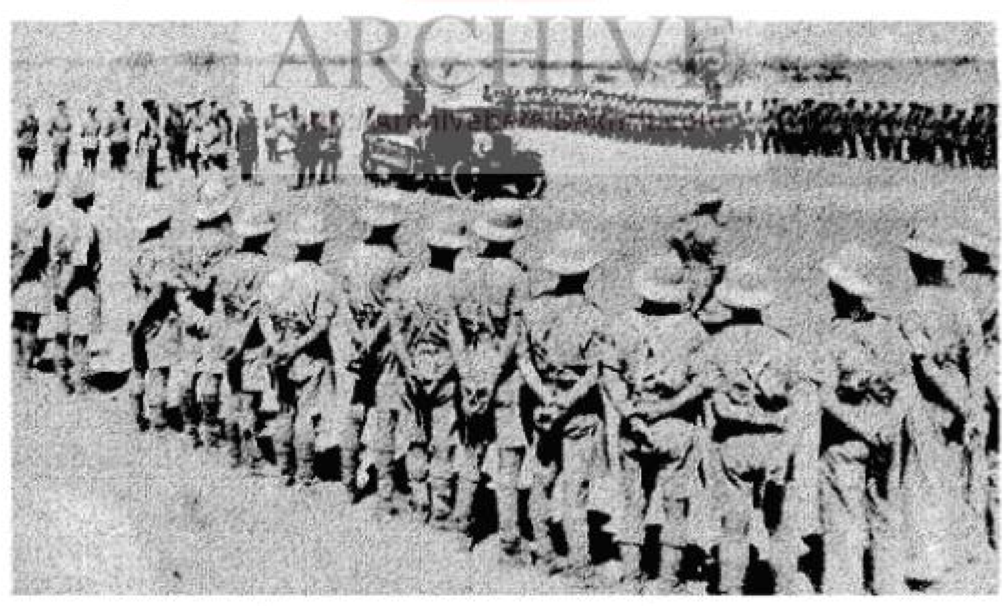
في دمشق

في ٢١ يونيو دخلت القوات المتحالفة دمشق، وقد التقطت هذه الصورة ساعة مرور السيارات البريطانية في شوارع دمشق بعد أن أخلاها الفرنسيون

ARCHIVE
http://archive.sakhrit.com

توقيع الهدنة

طلب الجنرال دنتز الهدنة في ٩ يوليو فأوقف القتال في ١٢ يوليو ووضعت شروط الهدنة في مدينة عكا . وها هو ذا الجنرال دي فردياك رئيس لجنة الهدنة يوقع شروطها



بعد وقف القتال في ايران

كان الزحف في إيران سريعا ولم يدم القتال اكثر من ثلاثة ايام . وقد التقطت هذه الصورة عند زيارة جانب من القوات الروسيه لمعسكر القوات البريطانيه . ونرى قائداً روسياً وقد وقف فوق سيارة يلقي خطبة في الجنود الروس والبريطانيين

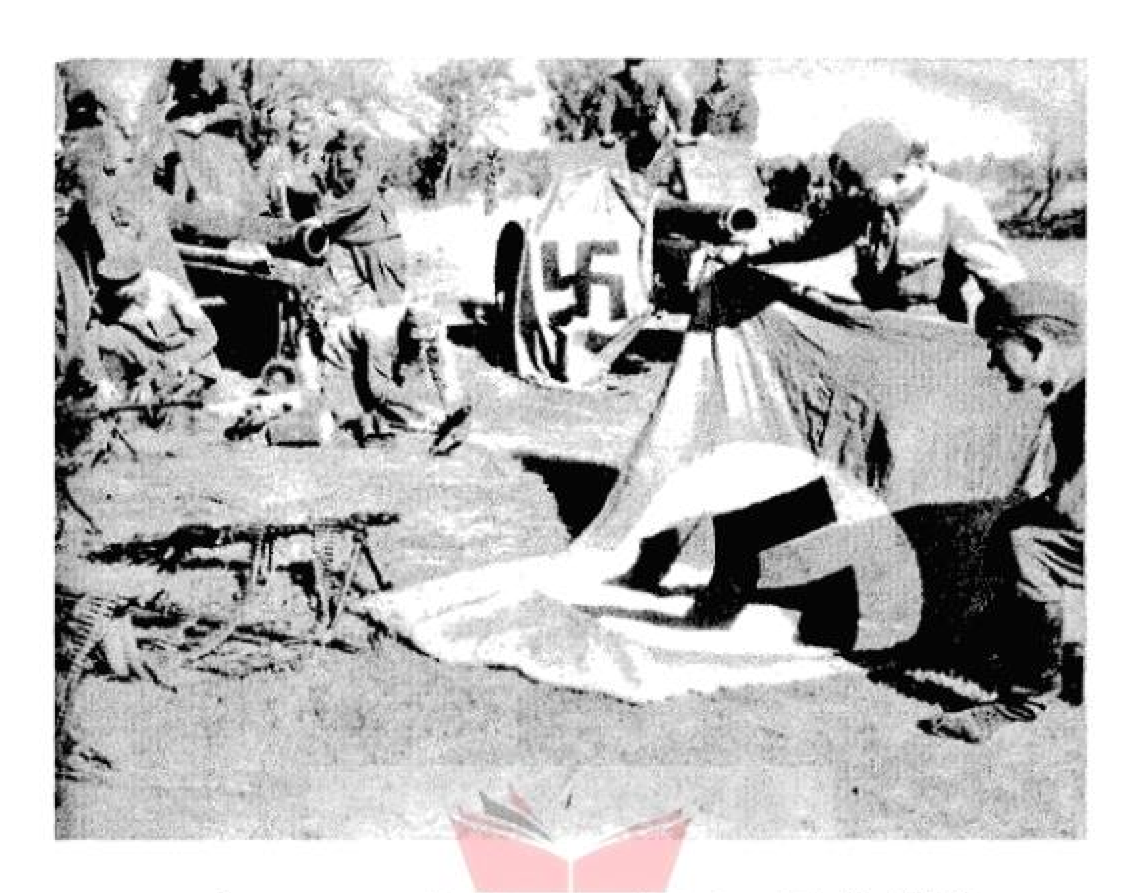


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يمثل هذا الرسم إحدى نواحي القتال في روسيا . فقد كان الروس يسمحون للدبابات الالمانية بالتقدم السريع ثم لا يلبثون أن يفصلوا بينها وبين المشاة ويقابلوها ببطاريات المدافع المضادة للدبابات والقنابل اليدوية فينزلوا بها خسائر فادحة

الزحف الالمانى على روسيا

بدأت العلاقات بين ألمانيا وروسيا فى التوتر من شهر مارس . وراحت ألمانيا تحشد القوات على الحدود الروسية حتى كان يوم ٢٢ يونيو فأعلنت الحرب . وقد قابلت روسيا الاعتداء بمقاومة عنيفة أنزلت بالقوات الالمانيه خسائر فادحة . بيد أن الالمان تمكنوا من التقدم على طول الجبهه التى امتدت من المحيط المتجمد الشمالى الى البحر الاسود . وقد استطاعت ألمانيا أن تضم اليها — فى حربها ضد روسيا — كلا من فنلندا ورومانيا والمجر . ولقد نجح الالمان فى الوصول الى لينجراد ومحاصرتها . والوصول الى مسيرة ٤٠ ميلا من موسكو . واختراق أوكرانيا والوصول الى روستوف على شواطىء البحر الأسود الغربية . حتى كان شهر نوفمبر وبدأ الشتاء يعاون الروس فردوا الالمان فى جميع الميادين



ماكاد الألمان يبدأون في الارتداد حتى توالت الانتصارات الروسية وأخذ الألمان ينهزمون مخلفين وراءهم كميات كبيرة من العتاد . وهذا فريق من الجنود الروس يفحصون بعض ما خلفه الألمان في الميدان الأوسط شمال موسكو

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التقهقر الألمانى فى روسيا

كان ارتداد الألمان عن مدينة روستوف فى يوم ٣٠ نوفمبر فاتحة الهزيمة الألمانية فى روسيا . فقد توالت بعد ذلك الانتصارات الروسية وراح السوفييت يستردون القرى والمدن بالعشرات فى كل يوم . ففى يوم أول ديسمبر انسحب الألمان من تاجنروج على ساحل البحر الأسود الشمالى ، ثم عدلوا عن مهاجمة موسكو فى ٨ ديسمبر . ثم فقدوا تخفين فى ٩ منه ، ثم استرد الروس ستالينوجورسك فى ١١ منه ، ثم احتلوا كالينين فى ١٦ فأعادوا المواصلات بين موسكو ولينينجراد ، ثم استردوا فولوكولامسك فى ٢٠ منه ، ولم ينته عام ١٩٤١ حتى كانت القوات الألمانية ترتد فى كل مكان على طول الجبهة من الشمال الى الجنوب والروس يلاحقونها ولا يسمحون لها بالراحة أو ترتيب الصفوف ولقد صرح الألمان بأنهم يرتدون الى خط الشتاء الذى سيصمدون فيه . وعينوا هذا الخط بالفعل، ولكن الروس ما لبثوا أن خرقوا هذا الخط فى أكثر من موقع واحد وردوا الألمان الى الوراء . وفى الوقت نفسه استردوا كيرش فى القرم وأنزلوا قواتهم فى شبه الجزيرة فباتت القوات الألمانية فى مركز حرج



دوق داوستا يسلم — فى يوم ١٨ مايو طلب الدوق داوستا نائب ملك إيطاليا فى افريقيا الشرقية شروط التسليم من بريطانيا . وترى الدوق فى هذه الصورة وهو يحادث قائداً بريطانياً يسير عن يمينه فى أثناء نزوله من الكهف الذى كان يقيم فيه فى امبالاجى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

انهيار امبراطورية موسولينى فى شرق افريقيا

كان دخول ايطاليا الحرب فى ١٠ يونيو سنة ١٩٤٠ مفاجأة لبريطانيا ، إذ لم تكن قد استعدت فى أفريقيا الاستعداد الكامل . لذلك حصلت ايطاليا فى النصف الاخير من عام ١٩٤٠ على بعض الانتصارات فى أفريقيا ، فتقدمت قوات جرازيانى حتى بلغت سيدى برانى داخل الحدود المصرية . وفى شرق أفريقيا استولت ايطاليا على الصومال البريطانى واحتلت بعض المواقع على حدود كينيا كما احتلت كسلا والقلابات على حدود السودان . بيد أن شهر ديسمبر من العام نفسه كان وبالا على ايطاليا إذ بدأ فيه الزحف البريطانى على ليبيا ، ثم هل عام ١٩٤١ وحلت معه الانتصارات البريطانية فى شرق أفريقيا فهوجمت المستعمرات الايطالية من مختلف الجهات ولم يأت شهر مايو حتى سلم دوق داوستا . واستمرت حامية ولشفيت وحامية جوندار فى المقاومة حتى تم التسليم فى ٢٨ نوفمبر فانهارت امبراطورية موسولينى فى شرق أفريقيا واستردت بريطانيا الصومال وفتحت كلا من الصومال الايطالى والحبشة واريتريا



احتلال أسمره

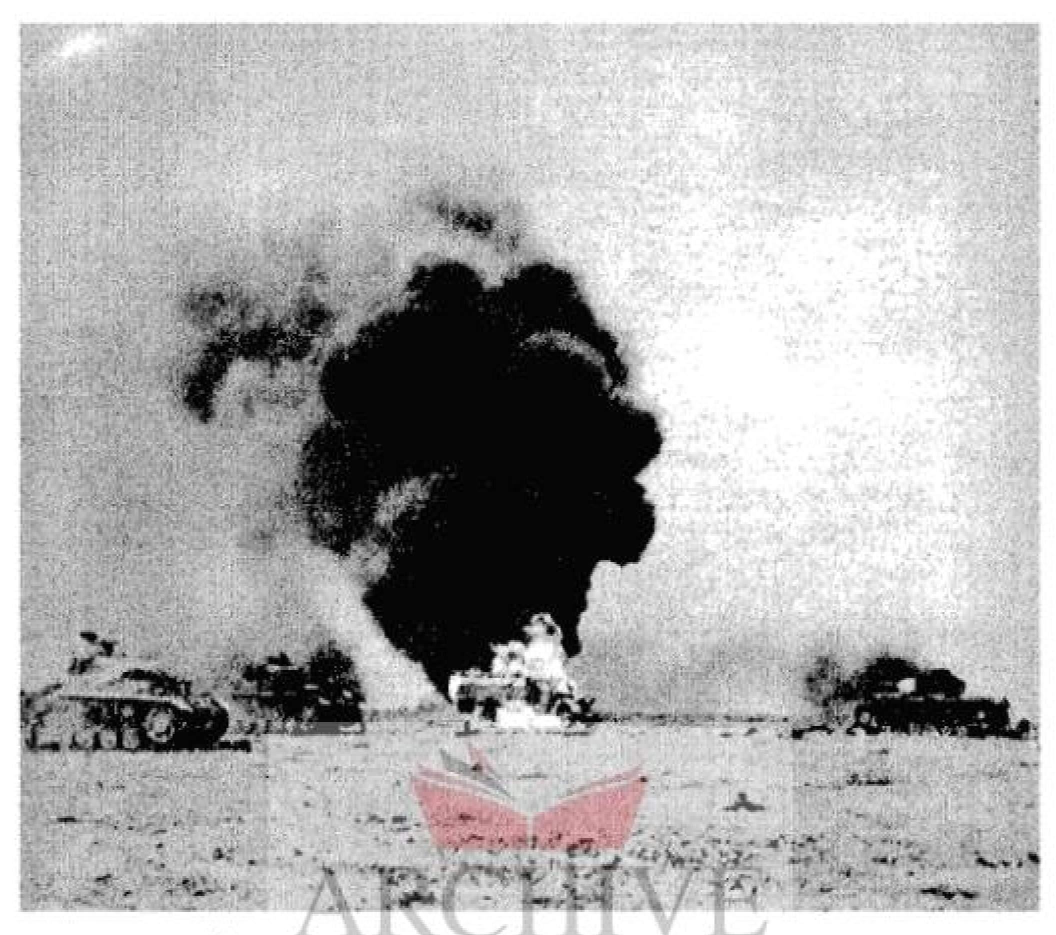
كان زحف القوات الهندية والبريطانية على اريتريا شاقاً لوعورة مسالك هذه المنطقة ، بيد أن الغزاة كانوا ينتقلون من نصر الى نصر رغم شدة مقاومة الايطاليين فبلغوا أسمره ودخلوها في يوم أول أبريل . وهذا فريق من المشاة الجنود وسياراتهم عند دخولهم عاصمة ارتريا ومركز المواصلات فيها



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

استسلام حامية والشفيت

كانت مقاومة حامية وولشفيت مقاومة مجيدة ولا شك فقد دامت شهوراً طويلة حتى اضطرت الى التسليم في يوم ٢٨ سبتمبر، فأكرم البريطانيون رجالها وحيا القائد البريطاني علم الحامية وهو يستعرضها . وترى في هذه الصورة الكولونيل جونيلا قائد الحامية (الى اليسار) يحادث البريجادير جيمس البريطاني بعد استلام الحامية



شهدت منطقة سيدى رزق في ليبيا موقعة من أعنف مواقع الدبابات في الحرب الحاضرة . وأسفرت نتيجة المعركة عن ارتداد الألمان غرباً الى منطقة الغزالة وهذه بعض الدبابات والسيارات المصفحة التى خلفها الألمان وراءهم والنار تشتعل فيها

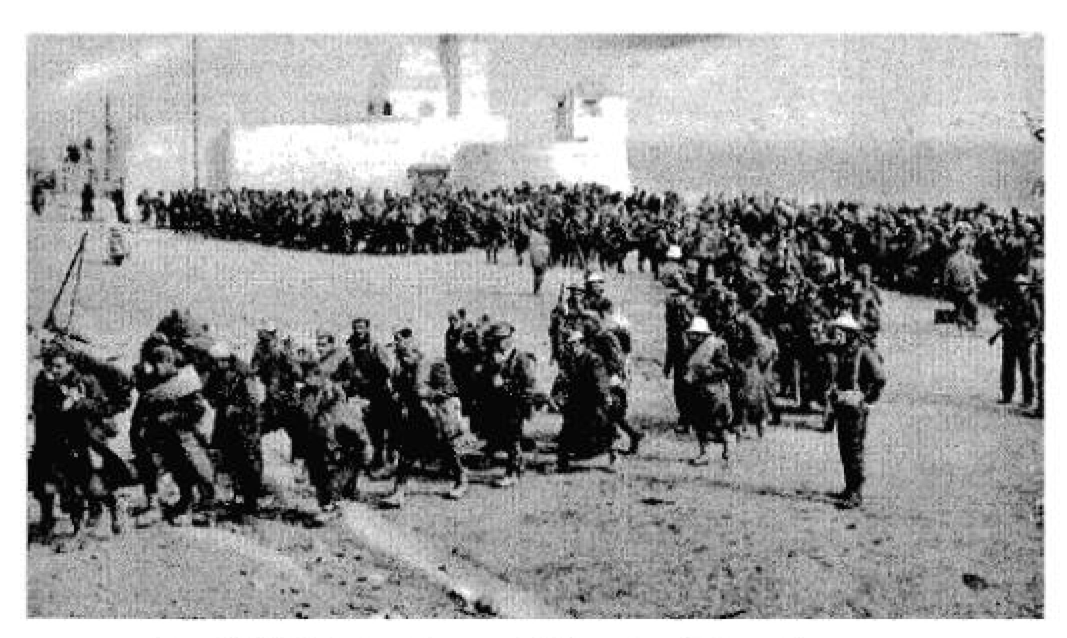
الزحف البريطانى الثانى على ليبيا

احتفظ البريطانيون بميناء طبرق زهاء ثمانية شهور — من أبريل الى نوفمبر — فكانت شوكة فى جنب قوات المحور . وقد استولى المحور فى تلك الأثناء على السلوم وحلفاية وأقام فيهما تحصينات منيعة لرد البريطانيين اذا حاولوا الهجوم ثانية على ليبيا . لذلك تعمد الجنرال أوكنيلك عند تنفيذ خطة الهجوم الثانى على ليبيا الالتفاف من الجنوب وتوجيه الزحف على لوبيا دون محاولة الهجوم المباشر على السلوم وحلفاية . ولقد نجحت الخطة الى حد بعيد فاتصلت القوات الزاحفة بحامية طبرق بعد ١٢ يوماً من بدء الهجوم — فى يوم ٢٧ نوفمبر — وواصلت الزحف فاستولت على الغزالة والمخيلى ودرنة ثم بنغازى (فى ٢٥ ديسمبر) . وهادت تواصل الزحف جنوب بنغازى قبل محاولة الهجوم على السلوم وحلفاية أو البردية . وبعد أن تم للبريطانيين فتح ولاية برقة بدأت عمليات التطهير فى كل مكان فاستولوا على البردية ثم السلوم ثم شرعوا فى الهجوم على حلفاية بعد أن عزلت عزلا تاماً عن قوات المحور التى ارتدت الى طرابلس



العلم البريطانى في بنغازى

بعد أن احتل البريطانيون درنة والمخيلى فى يوم ٢٠ ديسمبر ارتدت قوات المحور مسرعة الى بنغازى . وقد كان المنتظر أن يتحصن الالمان والطليان فى عاصمة ولاية برقة ويدافعوا عنها ، ولكن ما حدث خالف ما توقعه الكثيرون إذ أخلت قوات المحور بنغازى وواصلت تقهقرها السريع جنوباً دون أن تحاول الصمود فيها . وقد اجتازت القوات البريطانية الزاحفة المسافة بين المخيلى وبنغازى فى وقت قصير جداً لم يتجاوز خمسة أيام فدخلت بنغازى فى يوم ٢٥ ديسمبر وقضى البريطانيون عيد الميلاد فى عاصمة برقة .



أسرى البردية

بدأ الهجوم البريطاني على البردية في آخر يوم من عام ١٩٤١ وواصلت الطائرات ومدافع الاسطول والقوات البرية ضربها بالقنابل يومين كاملين ، حتى اضطرت الحامية الى التسليم في يوم ٢ يناير سنة ١٩٤٢ . وقد بلغ عدد أسرى البردية زهاء ٨٠٠٠ أسير ألماني وإيطالي . وها هو بعضهم يغادر المدينة إلى معسكرات الاعتقال



استسلام قائد حامية البردية

وقبل أن تسلم البردية خرج الجنرال شميدت الألماني قائد حاميتها في سيارة إلى الخطوط البريطانية وعرض التسليم على قائد القوات البريطانية . وتراه هنا في السيارة بين بعض أركان حربه بعد استسلامهم



الجنرال سير ارشيبالد ويفل

القائد العام لأسراب الحلفاء فى جنوب غرب الباسيفيك



الجنرال دوجلاس ماك ارثر

القائد العام للقوات الامريكية البرية والجوية فى جزائر الفيلبين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحرب فى الشرق الاقصى

أوشك عام ١٩٤١ على الانتهاء والمفاوضات بين الولايات المتحدة واليابان تجرى فى واشنجطن ، والعالم يتوقع أن تكون نتيجة هذه المفاوضات سلاماً فى الباسيفيك

فجأة ، وفى الوقت الذى كان فيه مندوبو اليابان يفاوضون ساسة امريكا ، أغارت — فى يوم ٧ ديسمبر — ١٥٠ طائرة يابانية على جزائر الفيلبين وهاواى فى الباسيفيك وأعلنت اليابان الحرب على كل من الولايات المتحدة وبريطانيا

وتوالت بعد ذلك الحوادث فأعلنت المانيا وإيطاليا الحرب على الولايات المتحدة فى ١١ ديسمبر ، فأعلنت امريكا الحرب عليهما ، وأصبحت الصين بملايينها من الرجال حليفة لبريطانيا والولايات المتحدة تمدانها بالسلاح والذخيرة فتقدم للميادين جيوشاً جرارة لمحاربة عدوتها اليابان . وهكذا أصبحت الحرب الحاضرة حرباً عالمية تنتشر ميادينها فى جميع المحيطات والقارات

ولقد استغلت اليابان المفاجأة ، وقرب قواعدها فى الهند الصينية والصين من الفيلبين والملايو ، فأحرزت النجاح فى الأدوار الأولى من الحرب ، وهى لا تزال حتى اليوم البادئة فى كل هجوم . . . بيد ان حدة القتال الاولى قد خفت وبدأت القوات الامريكية والهولندية والبريطانية المدافعة فى الصمود أمام المهاجمين حتى تأتيهم النجدات والامدادات من وراء البحار فينقلب دفاعهم هجوماً

اهداف النازية

بقلم الاستاذ على أدهم

السياسة النازية وطابعها الاندفاع الى احراز أقصى القوة ، وطلب اعادة تقسيم العالم ـ كيف ينظر الالمان الى الانجليز ـ روسيا فى رأى النازى ـ مطامع النازيين فى الامريكتين ـ طريقة الالمان فى حكم المستعمرات ـ آمالهم فى تكوين امبراطورية أوربية المانية

من أوكد الاسباب التى مهدت السبيل لوقوع الحرب الناشبة جهل الكثيرين من علية الساسة فى الأمم الدمقراطية بالعقلية النازية ، وعدم تغلغلهم الى عالم الافكار والمعتقدات الذى يصدر عنه النازيون فى أعمالهم المدبرة وخططهم المرسومة ، وكان يحسب بعض هؤلاء الساسة أن يعالجوا المشكلات الدولية بعقد مؤتمرات نزع السلاح ، وحضور مجالس عصبة الامم ، وغالى فريق منهم فى حسن الظن فكان يلتمس المعاذير المختلفة للاعفاء عما كان يبدو فى لهجة المسيطرين على مصائر المانيا من بوادر العنف ودلائل الاستهانة بالدول الدمقراطية

والسياسة النازية يمثلها عاملان ويطبعها طابعان ، وهما الاندفاع إلى إحراز أقصى قوة ممكنة ، وطلب إعادة تقسيم العالم وتنظيم شئونه تنظيما جديداً يمكن للنازيين فى الأرض ويبعد رقعة ملكهم . وقد استجاش النازيون قوى المانيا القومية ليشتد ساعدها وتسرع حركتها ، وطلب هذا التوسع والتمدد لا يقف عند حدود أوربا لأن غرض الحركة النازية الصميم هو إحداث انقلاب عالمى غير مسبوق المثال ، وقد اتخذ النازيون من الأحزاب والشيع والجماعات فى البلاد المختلفة أبواقا تردد دعاويهم ، وببغاوات تعيد أحاديثهم ، ووجد الشبان الألمان فى الافكار النازية ما يسمو بحياتهم ، ويخرجهم من الآفاق الضيقة ، وينسيهم همومهم الضئيلة ، ومشاغلهم التافهة ، فأقبلوا على الحركة مخلصين متفانين

وهتلر هو الرجل الذى طبع الحركة النازية بطابعه ، ونفخ فيها من روحه وهو من ذوى الشخصيات المزدوجة ، فهو من ناحية سياسي واقعى من الطراز الأول ، ومدبر مؤامرات محكمة ومنظم جماعات قليل النظير ، وهو يعد عدته ويتهيأ لاغتنام اللحظة المناسبة ويتلمس طريقه

فى حذر وتؤدة وبصيرة ، ويتعرف نواحى الضعف فى خصمه قبل أن يضرب ضربته ، ويعد لكل احتمال علاجه المناسب ، ولكنه فى نفس الوقت من هؤلاء الأشخاص الذين يركبهم الشيطان ، وتستأثر بهم الرؤى والاحلام فهم يعيشون فى عالم خادع لماع تشوبه الاوهام والأخيلة ، وينتهى بهم الأمر الى أن يزين لهم الغرور وفرط الاعتداد بالنفس انهم آلهة أو أنصاف آلهة ، وهتلر رجل لا يعتمد على النظريات ولا يستند الى المبادىء والأغراض الجليلة والنزعات السامية ، ولا يعبأ بالمواثيق والمعاهدات ، وهو يعتقد أن سياسته الخارجية قائمة فى صميمها على مسألة حيوية هامة ، هى مسألة حاجة المانيا الماسة الى التوسع والامتداد الاقليمى ، وتتضمن هذه السياسة استغلال مسألة تزايد عدد السكان لاحداث الثورة العالمية المنشودة ، وضغط زيادة السكان فى رأى هتلر مسألة لا تعبأ بالقانون ، ولا تبالى بالشرائع لأنها لون من ألوان التناحر على البقاء لا رحمة فيه ولا مهادنة ، والحق فيه للقوى الغالب والارادة القومية المصممة ، والهمة العظيمة المبذولة هى التى ترسم حدود الدول وتحدد المواقع ، وتوزع خيرات الأرض ، وكل ما عدا ذلك وهم وخيال ، ويعتقد النازيون أنهم باقامتهم أصول سياستهم على هذا القانون الحيوى قد ضربوا بالنظريات الزائفة عرض الحائط وعملوا على تحرير الامم المحرومة ذوات الحيوية الفائضة والقوى الزاخرة ، والرغبة فى توسيع الرقعة ، وإبعاد الحدود ، وبسط السيطرة لا يستلزم الحرص على الحياة وحده وانما يستلزم طلب « القوة » ، لأن إهمال طلب القوة يعطل النمو ويوقف حركة التقدم ، واتباع هذه السياسة الحيوية يستدعى وضع سياسة مؤكدة ثابتة ترمى الى زيادة عدد السكان فى صورة مطردة

وقادة المانيا لا يقصرون هذه النظرية على المانيا وحدها ، وهم يذيعون أن الأمم المحرومة التى ليس لها ما تملكه ستغنم غنماً كبيراً عند ما يعاد تقسيم العالم على أيديهم وطبق مشيئتهم

وكان النازيون يديرون نظرهم نحو الغرب فيرون فرنسا يتناقص عدد سكانها تناقصاً مستمراً فهى إذاً غنيمة مضمونة . أما انجلترا فكانوا يحاولون إقناع أنفسهم بأن قوتها زائفة جوفاء ، واعتقد النازيون أن سقوط انجلترا أمر محقق لا مساغ فيه للشك وكان دليلهم على أن انجلترا قد بلغت الشيخوخة والخرف ، انتشار آراء السلام ، والاخذ بفكرة المساواة فى حدود الاملاك البريطانية ، لان معنى هذا فى رأى العقلية النازية تنازل انجلترا عن سيادتها وتخليها عن رسالتها ، وانجلترا الواهنة الضعيفة فى حاجة ماسة الى السلام لتحتفظ بمركزها المتداعى وامبراطوريتها المفككة ، فهى لا تستطيع أن تتورط فى حرب خشية أن تقضى على البقية الباقية من تماسكها ووحدتها ، وعلى هذا الاساس أقام النازيون تفكيرهم وبنوا قصورهم

ومن أسباب كراهة النازيين للانجليز آراؤهم فى الشعوبية ، وانجلترا فى رأى النازيين دولة يسيطر عليها اليهود فهى تفكر بالاساليب اليهودية ، والاعتبارات الاقتصادية ، وانجلترا هى المسئولة عن انتشار آراء اليهود فى أوربا ، أما فرنسا فقد فقدت روحها ودافعها الحيوى فهى جديرة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بالمرثية وغير أهل للحقد والضغينة ، وفرنسا الحديثة أمة لا تحلم بالمجد ولا تعشق البطولة . . وانما تستكين وتنكمش فلا فائدة لها من الاشتباك فى حرب مع المانيا ، أما الدول الصغيرة فليس لها حق فى البقاء ولا مفر لها من أن تطوى فى ظل الدول الكبيرة ، وليس من حقها فى رأى النازيين أن تملك مستعمرات فى حين أن الدول الكبيرة تكاد تختنق من الضيق والحاجة ، وهى أضعف من أن تستطيع إخضاع الشعوب المحكومة ، وقد بعث الحلفاء نظرية حق تقرير المصير من مرقدها فى أعقاب الحرب الكبرى السابقة لحصار المانيا ومحاولة تطويقها ، وقد أثرت هذه الافكار فى سلوك النازيين نحو النمسا وتشيكوسلوفاكيا

وروسيا السوفيتية فى رأى النازيين هى العدو الالد ويلزم أن تقطع أوصالها لأن بها ولايات لازمة لألمانيا

ولكن هل تقف مطامع النازيين عند أوروبا الشرقية والغربية ؟ كلا . ان الشعب الالمانى أمامه واجبات عظيمة ، وعليه أن يشمل الامريكتين بعنايته لأنهما بعيدتان عن التوازن الاقتصادى والاجتماعى ، ورسالة ألمانيا هى تجديد القوى ، وقد اتبعت هذا الطريق انجلترا وفرنسا عند ابتداء نموها ، واقتطعتا من اسبانيا والهابسبرج ، والتعبئة العامة واتمام التسليح هما وسائل النازيين فى تحقيق هذه الاغراض البعيدة ، والاستعداد للحرب يثير الخوف والاحجام فى الدول المالكة

ورأى النازيون أن هناك دولا لم تستفد من الحرب السالفة فهى ناقمة غضبى فعملوا على التقرب منها وضمها الى صفوفهم ، مثل المجر وبلغاريا وايطاليا واليابان ، وكانت هناك دول مثل تشيكوسلوفاكيا وبولندة تحاول الاحتفاظ بالامر الواقع ، ولكن يعوض هذه الخسارة أن دول الشرق الاوسط الحديثة الاستقلال والتى أخذت تشعر بشدة ضغط عدد السكان وضيق الموارد الاقتصادية بدأ يساورها الملل والنزوع الى طلب تغيير الاحوال . فهى وان كانت قد استفادت من هزيمة ألمانيا فى الحرب السالفة تعطف على وجهة النظر النازية ويمكن تقريبها وربط مصيرها بمصير النازية

ولكن ألا يمكن اجتذاب انجلترا الى صف النازيين حتى لا تتزعم الامم المقاومة للحركة المناوئة لألمانيا ؟ تستطيع انجلترا أن تجدد شبابها وتستعيد نضارتها اذا حالفت الامم الفتية الشابة ، ويمكن أن تنبعث فى نفسها انبعاثاً جديداً الرغبة فى السيطرة والحرص على السيادة الذى شرعت فى التنازل عنه والتفريط فيه ، وتعرف أنه لا يمكن حكم الامم بدون اليد الحديدية والرغبة القوية فى الاستيلاء وعدم الاعتقاد بالرسالة . والامم التى أفاءت ظلالها وأخضعت غيرها كانت جميعها تحمل فكرة دينية أو فلسفية مقترنة بالمطامع الاقتصادية والرغبة فى الانتهاب والغزو ، ورغبة الامم فى التمدد والاتساع هى دليل الصحة والحيوية وشعورها بالرسالة هو آية مجدها وعظمتها ،

ومبادىء الاشتراكية الوطنية الشفافة وراءها طرائق صحيحة للحكم والقمع . والانجليز ساسة مهرة مجربون ولكنهم لاغبون متعبون قد كلت عزائمهم ، وان كان بينهم من يقدر صواب سياسة ألمانيا الواقعية ، ويعرف تفاهة أفكار المساواة والحرية التى تسقط الامم وتذهب بمجدها

أما الطريقة التى يؤثرها الالمان فى حكم المستعمرات فهى اقصاء السكان الاصليين لافساح المجال الحيوى لهم . وقد بدأوا هذه الخطة فى ألمانيا نفسها باجلاء اليهود عن ألمانيا ، فغرض ألمانيا هو التجديد فى الحكم وأساليب السيادة والسيطرة

ويرى النازيون أن وحدة ألمانيا القومية انما تقوم على تكوين امبراطورية أوربية ألمانية الاساس نازية الطابع ، وعلى الامم الاخرى أن تعتمد على ألمانيا الكبرى هذه وأن تقدر الضرورة المحتومة لنشوئها . وترى ألمانيا أن تستعين على بلوغ ذلك وتحقيقه باستحداث روابط اقتصادية بينها وبين الدول الصغيرة ، واستعمال التهديد والتوعد من ناحية والاغراء بالامتيازات المادية من ناحية أخرى . ويرى النازيون أن تلك الامم ستكسب ماديًا من اتفاقها مع ألمانيا بمقدار ما تخسر من الحريات وفقدان الحقوق السياسية

والاتفاق الذى تم منذ سنوات بين النازيين وايطاليا الفاشية واليابان يكشف لنا عن اتجاهات تلك السياسة ويشير الى أهدافها . وقد كانت ألمانيا حريصة على أن تشرك بريطانيا معها لأن انجلترا وايطاليا فى رأى ألمانيا دولتان تقربان من العظمة ، ويمكن التوفيق بين مصالحهما المختلفة والمصالح الالمانية ، وعلى انجلترا أن تتخلى عن شؤون أوروبا لألمانيا

وستكون اليونان ويوجوسلافيا من نصيب ايطاليا بحسب التوزيع الالمانى ، ولكن هذه الاهداف جميعها يلزم أن تضفى عليها حلة من المثالية الاخاذة وتبدو فى صورة تجذب الانظار وتقرع الاسماع وتثير الحماسة وتجلب الانصار . وكان من رأى النازيين أنهم اذا فشلوا فى التقرب من الانجليز عملوا على خطب ود روسيا الشيوعية ، ولهم فى مرونة أساليبهم وبراعة خططهم ما يسهل كل عسير ويدنى كل مطاب

ولكن هل يقف الامر عند اقتسام العالم وإعادة توزيعه ؟ ألا يلزم أن تستمر المعركة حتى تتم السيادة لأمة واحدة مختارة هي الأمة الألمانية ؟ لقد كانت الحكومة الثلاثية عند الرومان فى عهد يوليوس قيصر مقدمة للمعركة الاخيرة لحكم فرد واحد يستأثر بالحكم ويجمع السلطات كلها فى يده ، فغاية السياسة الألمانية هى الانفراد بالسلطة العالمية ، وعندما تضعف قوة انجلترا باستيلاء الألمان على هولندة والبلجيك وتنفصل عنها أمبراطوريتها لا تستطيع الافلات من مصيرها المحتوم ، وإيطاليا قد تبسط سلطانها على حوض البحر المتوسط ولكنها لا تستطيع أن تثبت أمام ألمانيا فأمرها هين ، وأمريكا أحوالها مضطربة ، وقد تنقاد لألمانيا وتسير على أساليبها وستعمل ألمانيا على الاستيلاء على مفاتيح البحار لتوطيد سلطتها الاستعمارية

فالنازية ترمى الى بناء أمبراطورية عالمية شاملة ، وإعداد الأمة الألمانية للتضحية والبذل فى سبيل هذه الغاية القصوى ، والمطلب الجسيم وقد كانوا يعلنون هذه الآراء ويتحدثون عن هذه الآمال الضخام فلا يصدقهم القوم ويخالونهم حالمين ويحسبون أن الحكومة النازية أكثر حذراً وأبعد دهاء من أن تعلن سياستها ، وتكشف عن حقيقتها ، وتوضح مراميها وأهدافها وكان يداخلهم أن السذاجة لن تبلغ من انسان الى حد أن يتحدث عن نياته الخفية وأغراضه المبيتة

وكان فى مستطاع النازيين تسوية المسائل المعلقة بينهم وبين جيرانهم باتفاقات مسالمة معقولة ، وأن ينجحوا نجاحاً باهراً فى هذا الميدان ، ولكن غلبت عليهم فكرة ان الدمقراطيات ضعيفة الايمان مزعزعة العقيدة ، والدعاية التى تقوم فيها على الترغيب بالمال أو التلويح بالخطر توفق فى محاولاتها ، وفى كل أمة رجال من مختلف الطبقات ليست لهم عقيدة ولا مبدأ ، وهم فى الأغلب الأعم من دعاة التردد والهزيمة وسرعان ما ينصحون بالاستسلام والانصياع إيثاراً للراحة وتجنباً لبذل المجهود ، والدمقراطيات فى رأى النازيين قليلة الحيلة فى اتقاء شر أمثال هؤلاء الناس ورد كيدهم ، لأنها اذا حاولت دفع شرهم اضطرت الى اقتباس الأساليب الديكتاتورية وهو ما تأباه الدمقراطية وتنفر منه ، والديكتاتورية بحكم نظامها المحكم الصارم بنجاة من أمثال هذه الجماعات التى تعمل على بث الخوف وبلبلة الأفكار وإضعاف روح المقاومة وقد كانت إثارة القلق فى الأمم الدمقراطية من خطط النازية الرامية الى قلب نظم العالم ، ومن سوء حظ العالم أن الدمقراطيات لم تقتنع بسوء نية الألمان إلا بعد استيلائهم على النمسا وعبثهم باستقلال تشيكوسلوفاكيا وتفكيكهم وحدتها

ويردد النازيون ان كل شىء فى الدنيا قائم على الاغتصاب والنهب والاستيلاء الغاشم، ويتساءلون لماذا يصبح فى العصر الحديث غير مباح ما كان مباحاً للانجليز والفرنسيين منذ ثلاثة قرون ؟ فهم يحلمون بالامبراطورية الواسعة المترامية والسيطرة على الشعوب الملونة ويرون المستقبل أمامهم فسيحاً حافلا وهم فى نظر أنفسهم قوم أشداء العزم ، أقوياء العقول ، لا تنقصهم الهمة العالية ولا حب المخاطرة فهم إذاً سيقيمون أمبراطورية على أنقاض الدول الهرمة الشائخة كما صنعت انجلترا وفرنسا باسبانيا ، فغاية النازيين إذاً هى القوة والاستيلاء والسيطرة ، ولو نجحت المانيا النازية لكان معنى ذلك استمرار الارهاب واشتداده واستعمال أقسى الأساليب وأشدها نكراً وفظاعة فى الحكم

لقد كانت المانيا غير مسلحة وكان بها ملايين العاطلين وكانت أحوالها مرتبكة أشد ارتباك ، ولكنها أصبحت فى مدى سنوات معدودات أقوى أمة حربية فى أوربا ، ومزقت المعاهدات ، ووقفت تنتظر السيادة العالمية . وقد بذلت فى ذلك جهداً جباراً لا يمكن أن يستهين به انسان أو ينكره منصف ، وقد أعانها على بلوغ هذه المنزلة قوة تصميم زعمائها ومثابرتهم ومرونتهم فى تناول

الشكلات ، وحماستهم ومقدرتهم على الابتكار وانتهاز الفرص السانحة واستغلال الظروف ولكن هذا الاعتداد بالقوة وحسبانه فلسفة عالية وحكمة عميقة ، والركون الى الاساليب القاسية الشديدة فى معالجة الامور وإنكار حركة التقدم ، وتمجيد الرجعية لن ينتج لألمانيا خيراً . وقد سبق لألمانيا أن جربت هذا الأسلوب ففشلت . والنازيون يحاولون إعادة تجربة ثبت فشلها لأنها تحتقر الحرية وتزدرى العدالة ، والحرية والعدالة هما عماد الملك وقوام الدول والارتداد الى أساليب الاستعمار فى القرن التاسع عشر غير صالح فى هـذا العصر الذى أصبحت أحواله الاقتصادية تتطلب حلولا جديدة على مثال غير معهود . وستفشل أساليب الألمان لأنها مناوئة لأسمى منازع البشر ومخالفة لروح الحضارة ولأنها قائمة على الكثير من الزيف والوهم والخطأ

على ادهم

كلمات خالدة

فى سنة ١٦٠٠ حكم بالموت حرقاً على الفيلسوف الرياضى برونو الذى قال ان الشمس ـ وليست الارض ـ هى محور الكون ، فالأرض والقمر وغيرهما من الكواكب تدور حول الشمس الثابتة فى مكانها . وكان هذا الفيلسوف قد سجن قبل حرقه ست سنوات لعله يرجع عن رأيه هذا فأبى ، وكان آخر ما نطق به هذه الكلمات الخالدة

« إنى أنا المحكوم عليه بالحرق والموت لا أخاف قدر ما تخافون أنتم الذين حكمتم على . لقد أديت ما على وكافحت قدر ما استطيع . أما النصر ففى يد القدر . وكيفما كان حكم القدر لى أم على ، وأياً كان المنتصر أنا أم أنتم ، فان الأجيال المقبلة ستشهد لى أنى لم أخش الموت فى سبيل رأيى ، لأن الموت آثر عندى من الجبن »

حاجة مصر
الى اتجاه جديد فى الأدب بعد الحرب

بقلم الاستاذ محمود المنجورى

يتسع الأدب بمعناه العام فيشمل صوت التفكير البشرى وعواطفه وآماله وآلامه . ويشمل نظم الكائنات جميعاً مهما تكن طبيعة هذه النظم ومهما تكن هذه الكائنات ، وهو يصور النشاط الفكرى والعاطفى والاجتماعى تصويراً لا سلطان عليه غير موحيات المجتمع ورغباته وآماله. هذا هو الادب بمعناه العام وأما الصورة المحدودة فهى ان الادب صورة لتفاعل وعى الاديب بحياته الخارجة المشتملة على الجهد فى المعترك والبيئة والتفكير والعاطفة والعقيدة والعرف

وللادب عناصر ومقومات ، منها العنصر الاجتماعى وهو يتكون من النظم التى وجد الانسان نفسه متأثراً بها كالقانون والعقيدة والعرف والعادة والوراثة والبيئة التى يعيش فيها الاديب ، فكل هذه تؤثر فى الانتاج الادبى وتكيفه وتعطيه قواما ومزاجا طبق طبيعتها

ولعل هذه هى قوانين الادب وان كانت قوانين غير مدونة ، ولكنها قوانين جبرية يخضع لها الفكر مهما تظاهر بالتحلل منها ، والمثاليون من الادباء الذين لا يروقهم غير التسامى على هذه المؤثرات الجبرية أو إنكارها، هم فى الواقع يدورون حول أنفسهم ولا سبيل لهم لان يتحرروا منها مهما فعلوا ومهما خادعوا أنفسهم ، فهم لا ينتجون إلا ما يوحى به المجتمع

والادب المصرى يخضع لهذا الذى عرضنا . والعقل المصرى أصبح يشعر بشخصيته كما يشعر بما حوله من مؤثرات سياسية واجتماعية مختلفة . ولهذا كان على رجال الادب والمشرفين عليه أن يحاولوا توجيهه طبق الحاجات التى تطلبها الحياة الجديدة ويفرضها موقع مصر ومركزها السياسى الجديد . على هؤلاء أن يوازنوا بين الاتجاه القائم للادب وبين الاتجاه الذى يجب أن يتجه مع النظم التى تقع حولها الصراع العنيف فى أوربا الآن

فنحن دون شك سنتأثر بهذا الصراع وبنتيجته ، وستقع نواحينا الادبية والفكرية أمام تيارات مختلفة متجاذبة ، ولكن مما لا شك فيه أيضاً أن عناصر البقاء الكامنة فى طبيعة العقل المصرى والتي لم تنهر ولم تتلاش أمام أى حادث من أحداث التاريخ منذ القدم ، هذه العناصر التى يحتفظ بها العقل المصرى فى طبيعته كما تحتفظ البذرة بنوعها الكامن ستقاوم هذا الصراع وستزداد مراناً وخبرة . ولكن مهما يكن من شىء ، فهناك واجب على قادة الفكر ورجال الادب نحو الادب

نفسه فى توجيه التوجيه الملائم للحياة التى يقبل عليها العالم بعد الفراغ من حروبه وأحداثه

فحاجة الحياة هى القاعدة الاولى التي يجب أن توضع أساساً للثقافة والادب ، لان الانسان إنما يفكر طبق حاجته ورغباته وآماله وتطلعه ، وكذلك الامة تفكر فى مجموعها طبق ما تصبو اليه من حياة

وطبيعة الادب هى طبيعة الضمير . فاذا وجد الضمير خلق الادب ، ولهذا كان الادب الكبير هو الادب الذى يصدر عن سيادة الضمير سواء كان هذا الضمير ضميراً للفرد أو ضميراً للجماعة أو الامة . وهذا المذهب فى الادب يظهر إرادة الفرد وإرادة الامة فى آدابها وهو ما نسميه نحن الآن بالادب القومى . وقوة هذا الادب فى أن يصور ضمير الجماعات الصادرة عنها ويعتز بدمها ووراثاتها ، على أن هذه القوة تتخذ وجهاً للنقد والضعف عند المثاليين الذين يقولون بأن الادب ظاهرة إنسانية لا وطن لها ، وان أضعف صور الادب هو الادب المحدود الذى نسميه بالادب القومى

وفى نظرى انه ولو أن المثاليين على حق من حيث اعتبار الآداب والفنون وحدة من وحدات المدنية البشرية ، إلا أننى لا أستطيع أن أصدق ما يقولون لان البشرية خلقت متباينة مختلفة فى تكوينها ولغاتها وأمزجتها ووراثاتها ونفسياتها وتشريحها ، ويستطيع علم الانتربولوجيا أن يقسمها إلى أنواع وطبقات طبق هذه العوامل ، بل ان البشرية لم تجمع منذ خلقها الله على رأى واحد أو اتجاه واحد فى التفكير. فما زال البشر غير مجمع على دين واحد ومع ذلك فأديانه جميعاً مقدسة ومحترمة ، وهو ما زال يختلف على نظم الحكم والاقتصاد ، وسيختصم فى الرأى وفى جميع مقومات وجوده طبق الوراثات والبيئات والميول والاطماع والاتجاهات الاجتماعية والتناسلية والنفسية المختلفة

فهل يستبق إلى فكرنا أن نسير وراء المثاليين الذين يقولون بوجوب وضع قواعد عالمية للأدب بحيث يصبح فى يوم ما صورة للعواطف البشرية ؟ إن الانسان وان كانت حقوقه والتزاماته واحدة أمام العدالة إلا أن مزاجه وتقديره للامور يختلف باختلاف الاوضاع والبيئات والوراثات ولهذا يختلف تقدير القوانين المختلفة للجريمة الواحدة من حيث تقدير العقوبة لا من حيث الادانة . وهذا صحيح فى تقدير البيئات المختلفة للشيء الواحد ولهذا تختلف قيم الادب والفنون باختلاف البيئات والعوامل الاخرى التي ذكرناها

وكما أن لكل مجتمع قانوناً أو عرفا هو مصدر تشريعه ، كذلك فان لكل مجتمع أدبا مطبوعا بطابعه الخاص ، والادب قد يصور جماعات متقاربة أو متفقة فى المزاج والعقيدة والاحوال الاجتماعية ولكن من يصور العالمين فى صورة عامة صحيحة إلا اذا تأسست قواعد عامة مشتركة بين البيئات والعناصر والوراثات تقوم على مبدأ التراضى الدولى أو التراضى العنصرى . وهذا ان

يكون لان أعضاء المجتمع البشري يخضعون فى تفكيرهم لمذاهب الحياة نفسها التى تخضع لبقاء الاصلح، ولانهم لا يمكن أن يلتزموا جميعاً وحدة خلقية أو سلوكا قائما على أساس واحد تضيع معه الشخصية فالأمعان فى المذهب المثالى أو المذهب العالمى يهدد شخصية الفرد كما يهدد شخصية الامة، وإذا فقدت الشخصية انعدم الادب لاستحالة وجود عناصره

فالأدب المصرى على ذلك يجب أن يقوم بذاته، وأن يصور البيئة المصرية التى ينحدر عنها ويحددها الموضع الجغرافى والعرف السياسى، وأن يصدر عن مقدمات متصلة بالحقائق المصرية الاولى التى ظلت أجيالا أساساً للقوْمية المصرية

ومستقبل الادب المصرى رهين بمستقبل العقل المصرى، كما هو رهين بمستقبل البيئة المصرية ومبلغ تأثرها بالتيارات المختلفة التى تقع رحاها فى أوربا الآن. فالبيئة المصرية بحكم موقعها الجغرافى تقع فى ملتقى الشرق والغرب، فهى فى مهب المنازعات الفكرية والسياسية والاستعمارية والاجتماعية التى تقوم فى أوربا والتى تقوم بين الغرب والشرق دائماً، وفى العالم الآن بركان يتفجر كل يوم فى مكان جديد وليس من شك أننا سنتأثر بما سيعم العالم من مصير فكرى، ولهذا يجب أن نهيء العقل المصرى لأدب يستطيع أن يساير مستقبلا نشأ عن صراع فكرى جبار

***

على انه يجب أن يتجه الادب المصرى الى نحو يبرز فيه حقيقته الموروثة منذ الأزل، حقيقته القوة ومصابرة الزمن، فالتطلع الى الحياة والشباب الدائم والخلود فيما وراء الحياة هى مقومات المدنية المصرية القديمة وهى مطمح العقل والتفكير المصرى، ولقد اتخذت المدنية المصرية عوامل الحياة والقوة أداة لاظهار تفكيرها وثقافتها، ولهذا كان لا بد أن تكون لمقومات أدبنا الجديد صلة وثيقة بطبيعة العقل المصرىَ وبعناصر وراثاته. فأدب القوة وفلسفة القوة والطموح الى التسامى بالحياة هو النهج الذى ينسجم مع طبيعة العقل المصري وأدبنا القومى الذى يجب أن ينهض على مقومات من شخصيتنا ووراثاتنا وطموحنا الى الحياة فى صور جديدة

لقد صادفتنا هذه الحرب الحديثة فى مبدأ طريقنا الى حياة الاستقلال والمسئولية، فأى عناء وأى مصير مجهول سيعانى العالم، وسنكون نحن الذين تقع بلادنا فى مفترق المطامع هدفا متأثراً بهذه الحرب. يجب أن نفكر من الآن فى وضع مقومات لأدبنا وتفكيرنا وأسلوبنا فى الحياة حتى نستطيع أن نساير المستقبل فى آماله وطموحه

يجب أن يفكر قادة الرأى ورجال الثقافة والادب فى وضع المبادىء الاولية التى يجب أن يسير عليها الادب المصرى بعد أن يتأثر العقل المصرى — وهو فى مفترق الطريق بين أطماع أوروبا فى الشرق — بالحرب الحديثة القائمة الآن

ان الحقيقة التى يجب أن تنهض عليها مقومات الادب المصرى، هى الحقيقة الخالدة التي نشأت

فى مصر منذ نشأتها الطبيعة وخلقها الله فى الوجود منذ الازل . هذه الحقيقة سايرت المدنية المصرية فى صورها وعصورها المختلفة وهى لم تتغير فى طبيعتها وان تغير مظهرها . وهى تتلخص فى مجالدة الزمن والتطلع الى ما وراء الحياة ، هى تمثل الحياة المتجددة المتطلعة الى الخلود ، هى تمثل الشباب المستمر . تمثل القوة ومغالبة عوامل الفناء . هذه هى فكرة القومية المصرية وهى كلمة مصر الخالدة التي يجب أن تكون آية مدنيتها وآدابها وفنونها فى جميع العصور

والقومية المصرية هى وحدة من الشعور يجب أن تنهض على هذه الحقيقة ، حقيقة مغالبة الزمن والتطلع الى المستقبل باعتباره جزءا كائناً لا ينفصل عن الحاضر والماضى . فالفكرة المصرية التى يجب أن تتمثل فى مظاهر قوميتنا ومدنيتنا وآدابنا هى « الحياة لنا »

ونحن شعب أزلى لم تخلقنا معاهدة أو حرب بل أوجدتنا الطبيعة باعتبارنا الامناء على مدنية البشر ولقد أدينا هذه الرسالة فى الماضي ويجب أن تقوم الدعوة على هذه الحقيقة الخالدة لنؤديها فى المستقبل أقوياء كرماء

فأدب القوة وفلسفة القوة هما مظهر من المظاهر التى يجب أن يتجه اليهما الادب المصرى فى أيامه المقبلة المملوءة بالاحداث الجسام والملقاة على عاتق شباب هذا الوطن . يجب علينا أن نلغى من برامجنا المبادىء التى بثها الغرب فينا ، مبادىء السلام ، مبادىء الكلام الاجوف الذى يضيع الزمن والاعمار دون جدوى ، ان كان هناك من سلام فسيكون السلام المسلح لأن الاوضاع الدولية قد انهارت وتغيرت وأصبحت الذئاب تعوى تنذر بالحروب المتوالية قبل أن تجف الدماء

فالبيئة المصرية عنصر من عناصر الاجتماع ولا بد أن تتأثر بما سيتأثر به المجتمع البشرى بعد هذه الحرب وفى طبيعتها ما يدعو الى ما تدعو اليه الحياة المستقبلة من تقوية العناصر الحيوية للقومية المصرية

ان الحياة الجديدة ستحتاج الى أدب جديد ، الى أدب القوة ، الى فلسفة القوة ، الى بتر العناصر الضعيفة من المجتمع حتى لا تعيش عليه فتضعفه . تحتاج الى الاديب الذى يخاطب الحياة فى غرائزها ، الى الاديب الذى يهيىء بلاده لمستقبل محفوف دائماً بالمخاطر فينتج أدباً ذا شخصية قوية جبارة تصابر الزمن وتهضم المستقبل فى تحفزها وتطلعها ومستقبلها وأغراضها فى الحياة

نحن فى حاجة الى الاديب الذى يقول لنا دائماً قول نيتشه لشبابه : ابعثوا سفنكم فى البحار المجهولة وابنوا منازلكم حول البراكين

محمود المنجورى

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

امريكا والعرب

سمعة طيبة وأغراض نزيهة

بقلم الاستاذ حبيب جاماتي

> ان الولايات المتحدة يسرها ان تحقق أماني السوريين واللبنانيين القومية، وترغب في أن يتمتع سكان سورية ولبنان بالاستقلال التام
>
> فرنكلن روزفلت

عند ما يطرق اسم امريكا اذن العربي، أيا كان موطنه، فانه ينتقل بفكره في الحال الى اخوان له، يعدون بمئات الآلاف، يظللهم العلم الامريكي في العالم الجديد، ويعيشون في وطنهم الثاني الذي تبناهم متمتعين بجميع الحريات والحقوق

فلامريكا اذن مركز خاص ممتاز في نفوس العرب أجمعين، الذين لا يسعهم في الظروف الحاضرة، وقد خاضت الولايات المتحدة وغيرها من الجمهوريات الامريكية غمار الحرب، الا ان يزدادوا ولاء للديموقراطيات، ويتمنوا لها، أكثر من أي وقت مضى، النصر على اعدائها

غير أن الحب الذي تكنه قلوب العرب لامريكا، والاجلال الذي يدينون به للشعب الامريكي، لا يرجعان فقط الى وجود المهاجرين بكثرة في الجمهوريات الامريكية، بل أيضا الى عوامل أخرى تثبت بجلاء حب الامريكيين انفسهم للاقطار العربية، وتفانيهم في خدمتها، وترفعهم عن الاغراض والمطامع فيها. واذا عدنا الى منشأ العلاقات الوثيقة التي تربط الآن الامريكيين بالعرب، والى الاسباب التي أدت الى تثبيت دعائم المكانة السامية التي يتمتع بها الشعب الامريكي في الشرق العربي، فاننا نجد ان للعلم والثقافة الفضل الاول والاكبر في ايجاد هذه المكانة واقامة تلك العلاقات

لقد امتاز الجيل التاسع عشر بتدفق العلماء والادباء والباحثين والمغامرين من ابناء الغرب على مختلف البلدان الشرقية، وخصوصا على الاقطار العربية. وكان للامريكيين نصيبهم من تلك الحركة الواسعة، فهبط الشرق العربي رهط من نوابغهم، واسسوا فيه المعاهد العلمية والجامعات والمستشفيات والاندية، فازدهرت جميعها واتسعت واثمرت ثمارها الطيبة، بفضل ما انفق عليها من أموال، وبما امتاز به القائمون بأمرها من نزاهة واخلاص وادراك

للواجب واحترام لشعور السكان ورغبة في خدمة الثقافة والعلم والانسانية ، والامتناع عن كل عمل يشتم منه السعي الى اغراض سياسية أو مطامع استعمارية أو غير ذلك مما يثير الشكوك في نفوس العرب أو يوجد فيها مجالا لحقد أو خوف أو ضغينة

نزل رسل الثقافة الامريكيون في مصر وسورية ولبنان وفلسطين وغيرها من البلدان العربية ، فأنشأوا في بادىء الأمر مدارسهم . ثم انصرف علماء الآثار منهم الى البحث والتنقيب عن مخلفات المدنيات الغابرة ، وانصرف الكتاب الى وضع المؤلفات والموسوعات والقواميس عن الشرق العربي ، وراح المستشرقون منهم يعملون بجد ونشاط لاحياء ما اندثر من معالم اللغة والفلسفة والشعر ومختلف العلوم عند العرب ، وانطلق السائحون في ارجاء هذا الشرق العربي يتفرجون ويعجبون وينفقون بلا حساب . وبلغ بكثيرين منهم حب العرب وبلادهم الى الاقامة بين ظهرانينا ، واتخاذ شرقنا العربي وطنا ثانيا لهم ، كما اتخذ أخواننا المهاجرون امريكا وطنا ثانيا لهم . وقد امتزج بعض الامريكيين بالعرب امتزاجا عجيبا ، لا يضاهيه غير امتزاج بعض المهاجرين العرب بالامريكيين في بلادهم امتزاجا يصعب معه التفريق بينهم وبين ابناء امريكا

ويطول بنا المجال اذا أردنا ان نذكر امثالا واسماء . ولكننا نكتفي بالشيء اليسير من هذا القبيل ، فنقول ان كورنيليوس فنديك ، المستشرق الشهير ، كان النموذج الكامل للامريكي الصادق النبيل النزيه ، المحب للعرب ، المخلص للشرق ، الممتزج بسكانه الى أبعد حد . فان فنديك قد نفض عنه كل مظهر من مظاهره الامريكية ، فارتدى الملابس العربية ، وأقام في دار مفروشة على الطراز الشرقي ، وقضى حياته في لبنان عاملا لخير أبنائه ، منصرفا الى خدمة العلم والانسانية ، تاركا بعد وفاته أطيب الذكرى ، مضافة الى طائفة من المؤلفات التي تعد مرجعا فريدا في الموضوعات المفرغة بين دفاتها . وقد بقيت أسرة فنديك في الشرق بعد وفاة عميدها ، وانتقل ابنه الى القاهرة ، وأقام في عزلة يطالع ويكتب ويؤلف مثل أبيه

واستوطن المستر فورد الشرق ، يجمع الآثار وينتزع من الارض أسرارها ، فتوافرت لديه مجموعة من النواويس والتماثيل وغيرها تعد ثروة علمية عظيمة ، أهداها الرجل الى حكومة لبنان ، وهي الآن في المتحف اللبناني ببيروت

ونعت الانباء أخيرا رجلا امريكيا صالحا هو المستر فوستر ، اتخذ أيضا هذا الشرق وطنا له ، وقد جلبه اليه وسحر لبه لانه مهد الاديان ومهبط الوحي ، وكان فوستر فيلسوفا حر التفكير نزوعا الى الاصلاح ، أسس في بلاده مذهبا دينيا جديدا ، فوجهت اليه حملات شديدة ، وانتهى به الامر الى ترك وطنه ، فهاجر الى الشرق طلبا للحقيقة ، في وقت كان فيه الشرقيون يهاجرون الى امريكا طلبا للرزق . وكما ان المهاجرين العرب وجدوا في الولايات المتحدة حرية العمل بلا قيد ولا شرط ، فان المستر فوستر وجد في قطر عربي هو فلسطين حرية الدعوة الى مذهبه الديني والاجتماعي ، وانشأ مستعمرة

تضم اتباعه ... بلا قيد ولا شرط

هذه أمثلة ثلاثة لامتزاج الامريكيين بالعرب فى بلادهم ، وهناك عشرات منهم لايقلون عمن ذكرنا اخلاصا ونزاهة واندفاعا فى حب العرب وبلاد العرب

وهناك حقيقة لا سبيل الى انكارها ، فيما يتعلق بمدارس الامريكيين وارسـاليتهم وجامعاتهم فى الشرق ، وهى ان طرق التعليم فيها لا تنطوى على شىء من الدعاية السياسيه أو القومية أو الاجتماعية لامريكا ، كما هى الحال فى معاهد العلم التابعة لبعض الدول الاوربية ، كالمدارس الفرنسية والايطالية مثلا

ونحن لا نسوق هذا القول مدفوعين بعاطفة الولاء لاساتذة سابقين ، فان كاتب هذه السطور ليس من تلاميذ « الامريكان » بل تخرج فى مدرسة فرنسية

ومما يذكر لامريكا انها فتحت ابواب جامعاتها للاساتذة العرب ، حيث يقوم بتدريس اللغات والآداب الشرقية والعلوم التى تمت بصلة الى الشرق ، لفيف من العلماء الذين اختارتهم ادارات الجامعات الامريكية من بين المهاجرين السوريين واللبنانيين ، نذكر منهم عميدهم الدكتور فيليب حتى ، بجامعة برنستون

ويعود الفضل الى الامريكيين فى نشر اللغة الانكليزية فى الاقطار العربية ، من جهة ، وفى اطلاع قراء الانكليزية فى العالم على آداب العرب وتاريخهم وعلومهم

وبالرغم من انه ليس للامريكيين اغراض سياسية فى البلاد العربية ، فانهم اكثر الاجانب فيها سخاء وبذلا للاعمال الخيرية والمشروعات الانسانية ، كالملاجىء والمستشفيات

اما من الوجهة الاقتصادية ، فان مصالح الامريكيين فى الاقطار العربية قد اتسعت اتساعا عظيما فى السنوات الاخيرة ، بالنظر الى نشاط المهاجرين العرب فى العالم الجديد ، وكثرة الاسفار التى يقوم بها التجار العرب الى امريكا ، وسهولة التعاقد بين المصانع الامريكية والوكلاء فى الشرق العربى . فان الاحصاءات الاخيرة تدل على ان المصنوعات الامريكية يزداد رواجها فى اسواق مصر وسورية ولبنان والعراق وفلسطين ، خصوصا فيما يتعلق بالآلات على مختلف أنواعها ــ وان اسواق امريكا تستهلك أيضا ، من جهتها ، كثيرا من المنتجات الوطنية فى البلدان العربية المشار اليها . ونعتقد ان طول المسافة بين امريكا والشرق الادنى كان يجب ان يحول دون نمو العلاقات التجارية بين الطرفين ، ولكن وجود مئات الآلاف من المهاجرين العرب فى امريكا ، من جهة ، والمكانة التى يتمتع بها الامريكيون فى البلاد العربية ، من جهة أخرى ، قد ساعدا على أيجاد تلك العلاقات وتوثيقها ــ هذا الى ما تمتاز به المصنوعات الامريكية من جودة ومتانة

***

ولننتقل الآن الى شعور الامريكيين نحو العرب من الناحية السياسية . فان الرئيس ولسون ، عند ما وضع شروطه المشهورة ــ وعددها اربعة عشر ــ فى الحرب الماضية كان يقصد تحقيق الامانى القومية للشعوب العربية ، كما كان يقصد تحقيق أمانى الشعوب الاخرى

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

والآن يقطع الرئيس روزفلت على نفسه عهداً يشبه عهد الرئيس ولسون ، ولكنه جاء في ظروف تختلف اختلافاً كبيراً عن الظروف التي اعلن فيها ولسون شروطه . فان البلدان العربية اليوم في وضع غير وضعها في سنتي ١٩١٧ و١٩١٨ . ومصر دولة مستقلة تربطها ببريطانيا العظمى معاهدة تحالف وصداقة . والعراق مثلها . وسورية ولبنان دولتان اعترفت فرنسا الحرة باستقلالهما ووافقت عليه بريطانيا العظمى وضمنته . والبلاد السعودية مملكة مستقلة استقلالا تاما . واليمن كذلك . وهناك أقطار عربية أخرى تخضع لانظمة خاصة سوف يعاد النظر فيها بعد الحرب ، كفلسطين مثلا وشرق الاردن .

فالحالة اذن ليست اليوم كما كانت في اثناء الحرب العالمية الماضية . وقد اذاع أخيراً الرئيس روزفلت والمستر تشرشل ، في اجتماعهما التاريخي على ظهر بارجة امريكية ، بيانا يعرف الآن بعهد الاطلنطي ، يعلن حقوق الشعوب وحريتها . ثم أفضى الرئيس روزفلت على حدة بتصريح خاص قال فيه ان الولايات المتحدة يسرها ان تحقق أماني السوريين واللبنانيين القومية ، وترغب في ان يتمتع سكان سورية ولبنان باستقلالهم التام

هذا ما تريده امريكا ، التي لها ممثلون سياسيون في الدول العربية المستقلة ، كمصر والعراق ، والتي وافقت على استقلال دول عربية أخرى ، كسورية ولبنان ، والتي يعيش في كنفها مئات الآلاف من المهاجرين العرب ، الذين لبوا نداء وطنهم الثاني فتقدموا للالتحاق بالجيش الامريكي زرافات ووحدانا

وغداً ، يسير أولئك المهاجرون العرب الاوفياء الى ميادين القتال فرحين مهللين ، للدفاع عن البلد الذي أضافهم وحماهم وأحبهم ، والذي يتفانى ابناؤه في خدمة اوطان اولئك المهاجرين الاولى ، بامانة واخلاص ، رائدهم الخير العام والمنفعة الشاملة ، بعيدين عن الاغراض السياسية ، رافعين لواء العلم والثقافة والرخاء الاقتصادي والمحبة والاخاء بين الناس

ان امريكا تحارب الآن دول الطغيان والارهاب ، وعبدة القوة ورسل العنصرية ، وتقف معها جنبا الى جنب روسيا السوفياتية محطمة أغلال الاستعباد ومنقذة الحريات ، وبريطانيا العظمى مهد الديموقراطية الحقة ومعقلها الحصين — فالعربي لا يحق له بعد الآن ان يتردد في الاختيار ، ولا يسعه الا ان يدعو بالنصر لهذا الفريق دون ذاك ، لانه نصر يزيل عن العالم كابوس الطغيان والارهاب ، ويقضي على حكم القوة ، ويبدد ترهات العنصرية ، ويمنع احياء الاستعباد ، ويكفل بقاء الحريات ، ويوطد اركان الديموقراطية ، ويرفع بين الاعلام علم الجمهورية الامريكية ، الذي يحمي نصف مليون من العرب المهاجرين ، والذي يخفق على الكتائب الامريكية التي تضم جنوداً من أولئك المهاجرين ، مما يجعل كل عربي يدرك ان له الآن وطنين : بلده وامريكا ...

حبيب جاماتى

الدعاية

للصحفي الانجليزي الكبير ويكهام ستيد

أضيف في العصر الحديث الى الاسلحة الحربية سلاح جديد هو سلاح الدعاية . كانت الحرب تدور بأسلحة ثلاثة : الجيش والاسطول والطائرات . ثم أضيف اليها سلاح « الاقتصاد » أي الموارد المادية ووسائل تنظيمها واستغلالها . ثم صار سلاح الدعاية هو السلاح الخامس ، وهو ما اسميه : سلاح العقل في معركة الآراء ، بل أسمو به فأدعوه : سيف الروح في حرب العقائد

الدعاية ـ البروباجندة ـ كلمة نابية تدل على معنى بغيض . وكم أود ان تحذف من لغتنا وتنسى . فهي تشمل أكاذيب جوبلز كما تشمل جهود المبشرين . وهي تضم صياح البائع المتجول كما تضم صوت الاستاذ يوجه طلابه . وقد تكون مجرد ذكر للحقائق ، وقد تكون مجرد افتراء للاباطيل ، وقد تكون مزيجا بارعا من الحق والباطل معا

هي الاداة التي كانت أول سلاح اتخذه هتلر وقت السلم ، والتي ما تزال من أمضى أسلحته في ساحة القتال

كان أول معنى لها « نشر العقيدة » حين أقامت الكنيسة الرومانية سنة ١٦٢٢ مجمعا من الكرادلة سمته « الدعاية ـ البروباجندة » للاشراف على جمعيات التبشير . وكان هذا اسما جديدا لامر قديم ، اذ صحبت الدعاية كل رأي وكل دين منذ بدء التاريخ . لم يكن حواريو المسيح الا دعاة ، ولم تكن أناجيل العهد الجديد الا دعاية ، سعى تلاميذ المسيح في الارض يبشرون بها كل انسان . وانتشر الاسلام بعد ذلك بقرون ممثلا في كتاب جديد هو « القرآن » . كذلك كان الامر في كل رأي ظهر وكل مذهب قام

والحرب القائمة حرب آراء وعقائد . وهي في هذا تختلف عن حروب القرن التاسع عشر بل عن الحرب الكبرى الماضية . أثارها الالمان لانهم يؤمنون بعقيدة ويريدون تحقيقها ، هي سيادة الجنس الآري الجرماني على العالم جميعا . ويحاربهم اعداؤهم لانهم يؤمنون بعقيدة أخرى ويريدون ان يدافعوا عن المبادىء والعقائد التي قامت عليها الحضارة الغربية الحديثة

ان العقيدة الالمانية النازية هي اسوأ عقيدة شهدها الناس في العصور الحديثة . ولكنها مع هذا عقيدة قوية ناضجة ، وقد اثبتت وجودها وحيويتها بما استطاعت ان تخلقه في ملايين الناس من روح الاخلاص والتعصب البالغ لها . وهي في هذا ـ في سوئها وقوتها معا ـ كسابقتها « الشيوعية الماركسية » . واذن فلا سبيل الى كفاحها وقهرها اذا اقتصر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الامر على الحرب الجسمية والحرب الاقتصادية . بل يجب ان تتذرع كذلك بعقيدة أقوى منها واسمى

ان هتلر ـ وان يكن ذا جنة ـ الا انه أكبر وأقدر مما يظن أكثر الناس . وقد أدرك فى بدء حياته السياسية انه لا يستطيع ان يسحق بالقوة وحدها الاحزاب والآراء التى يبغضها ويناهضها . فقد عرف ان خصومه ـ وعلى الاخص الاشتراكيين الماركسيين منهم ـ يكادون ان يكونوا شيعا دينية عميقة الايمان . فأخذ على نفسه ان ينشىء عقيدة جديدة يضفى عليها ثوبا دينيا ، وان يقيم على هذه العقيدة حزبا تسنده القوة المادية . وسمى عقيدته « الاشتراكية الوطنية » وسمى حزبه « الاشتراكى الوطنى » واختار لتأييده وتعزيزه وسيلة « الدعاية » مقرونة ـ على حد قوله « بالتعصب الوحشى » . فلما مكنه هذا من تولى أمر ألمانيا استطاع عندئذ ان ينشىء القوة المادية التى تسحق كل قوة تناهضه وتعارضه

لم يقنع بذلك ، بل ارسل مبشريه الى الدول الاخرى ينشرون فيها العقيدة النازية ويوهنون فيها روح المقاومة . ولا شك ان ما أداه هتلر ، يعاونه جوبلز ، فى هذا السبيل ، من تنظيم جماعات « الالمان فى الخارج » ومن استغلال غير الالمان فى ترويج آرائه ، ليعد من معجزات التاريخ الحديث . وكان يعتقد دائما انه يستطيع بالدعاية البارعة القديرة ـ يؤيدها التهديد الدائم بالقوة المسلحة والحرب الفتاكة ـ ان يشق طريقه الى حيث يريد ان يثير حربا كبرى ، حتى يتيسر له من القوة والاهبة ما يعجز عنده أى شعب عن منازلته ومقاومته . كانت خطته اذن أن يخضع أوربا أولا دون ان يحارب ما استطاع الى السلم سبيلا ، وذلك بأن يعلن دائما كرهه للحرب وايثاره للسلم ، وان مطلبه الوحيد تحقيق « العدل » الذى يرد « مظالم » فرساى . حتى اذا توفق فى هذه « الغزوات السلمية » استطاع أن يمهد الطريق لسيادة ألمانيا على العالم بأسره

أعلن أنه لا يضمر شرا لبريطانيا . ولكنه لم يخف ان بريطانيا وامبراطوريتها هما حجر العثرة فى سبيله . صدق فى هذا . فمجموعة الممالك البريطانية كلها لا يمكن ان تحيا وان تبقى الا اذا عادت ، وقاومت ، وقهرت ، هتلر وكل ما تمثله الهتلرية . فاما ان تنتصر عقيدته واما أن تنتصر عقيدتها ، وليس بين الامرين وسط ولا وسيط . فيجب ان نوقد عقيدتنا ونلهبها بنار اليقين ، ليكون سلاحنا الخامس أقطع من سلاحه وأمضى ، ولتكون جبهتنا الفكرية والروحية أمنع من جبهته وأقوى

ان لم تكن عقيدتنا أكبر قيمة وأكثر ايحاء من عقيدة هتلر فلن نظفر بالنصر . ليس من المحقق ان كفة قوانا المادية هى الراجحة ، ولا ان طول الحرب يفيدنا ويعززنا . ولكن المحقق المؤكد أننا اذا قهرنا القوة بالقوة ، والشجاعة بالشجاعة ، والمهارة بالمهارة ، والسلاح بالسلاح ، فان هذا كله لن ينصرنا النصر الذى نريد ـ ونعنى النصر الذى لا يضيع منا وينقلب علينا برغم انتصارنا فى البحر والجو والارض كما كان الامر فى انتصارنا

الماضى . انما تنتصر على ألمانيا حقا عند ما تكون عقيدتنا اثبت وارسخ ، وانبل واسمى ، من عقيدتها . وعند ما نبشر بهذه العقيدة فى أرجاء الارض بوسائل أفضل وأرقى مما تتخذه ألمانيا من الوسائل

السلاح الخامس سنة ١٩١٨

قل من يعرف أننا كدنا فى ختام سنة ١٩١٧ وبدء سنة ١٩١٨ ان نخسر الحرب ونرضى بالهزيمة . فى تلك الايام تحطمت قوانا المعنوية وأطلت روح الهزيمة برأسها . وبدأ ناس يتكلمون عن « الصلح » الذى يترك ألمانيا سيدة أوربا . وظل هذا الروح يبدو وينمو حتى شهر يونيو سنة ١٩١٨ ، أى قبل انتهاء الحرب وقبل نصرنا المؤزر فيها بخمسة أشهر فحسب !. ولكن الذين لم تهزهم العاصفة ولم تضعفهم الاحداث رأوا اننا فى حاجة ماسة عاجلة ، الى سلاح خامس يشد العزائم الخائرة . فشحذ هذا السلاح وشهر ، فلم يلبث ان أوقد فى القلوب نارا ــ قلوب الناس فى بيوتهم ، والعمال فى مصانع السلاح ، والجنود فى ساحات القتال . وكان هذا السلاح سببا فى الانتصار الذى كان يتراءى منذ شهور فى ثوب الاندحار . .

كانت أحداث القتال وميادينه فى تلك الشهور فى جانب ألمانيا . فالهجوم البريطانى على « بشندالى » فى نوفمبر سنة ١٩١٧ أخفق شر اخفاق وانتهى بهزيمة نالت كثيرا من قوانا وجنودنا . وتحطمت الجبهة الايطالية عند « كابورتو » فى شهر اكتوبر أثر هجوم نمسوى ألمانى جارف تقدم الى سهول ايطاليا التى ولى جيشها هاربا بعد ان خلف مائة ألف أسير وسبعمائة مدفع . وسحبت من الميدان الغربى ثلاث فرق بريطانية وثلاث فرق فرنسية لترميم الجبهة الايطالية التى انهارت فعرضت جنوب شرقى فرنسا لاشد الاخطار . وقامت الثورة البولشفية فى نوفمبر سنة ١٩١٧ فصار فى وسع ألمانيا ان تنقل من الميدان الشرقى مليون جندى يستعين بهم لودندورف فى هجوم جارف اعتزم القيام به فى الميدان الغربى . ومع ان امريكا دخلت الحرب فى ابريل سنة ١٩١٧ الا ان جهدها الحربى لم يبد واضحا ، بل كان الامل ضعيفا فى أن تتمكن من ارسال جيش كبير عبر المحيط الى أرض فرنسا . وكانت ألمانيا عازمة على النهوض من خنادقها واستئناف هجومها على فرنسا قبل ان يصل المدد الامريكى أولا وقبل ان يستفحل خطر الحصار البريطانى ثانيا

تبدت الاحوال حينئذ مظلمة قاتمة . فأخذ كثير من الساسة يفقدون قلوبهم . مثال ذلك ان لورد لانسدونى نشر فى الديلى تلغراف يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩١٧ رسالة ذكر فيها المتاعب التى يلاقيها الحلفاء فى جميع الميادين ، والوعود التى تذيعها الدعاية الالمانية عن حسن نيات ألمانيا ، فكانت هذه الرسالة ضربة فى الصميم رحب بها دعاة السلم واشياع ألمانيا . ولم تكن فى الواقع الا بدء حملة كبيرة يراد بها تهيئة الاذهان لعقد الصلح كيفما

كانت شروطه ونتائجه . وقد تلقيت ــ وكنت رئيس تحرير التايمز ــ رسالة رفعها أحد الضباط لوزارة الحرب ، وطلب الى أن أنشرها وأعلق عليها ، وكانت الرسالة تشير الى شروط السلم التى تطلق يد ألمانيا فى روسيا ، وتدع جنوب أوربا الشرقى تحت امرتها ، وتقترح ان يعاد استقلال بلجيكا السياسى على أن تدخل فى الاتحاد الجمركى الالمانى . ومعنى هذا ان تخرج ألمانيا من الحرب وقد حققت كل ما أدارت له رحى القتال ، وأن تغدو القوة المسيطرة على مصائر القارة الاوربية وشعوبها . فلم تكن هذه الرسالة الا من قبيل رسالة لانسدونى ، توهينا لروح الكفاح وبثا لروح الهزيمة

ولكن هذه الجبهة التى تكونت من المسالمين والمترددين تصدعت فجأة يوم ٨ يناير سنة ١٩١٨ حين أعلن الرئيس ويلسن الكونجرس الامريكى بنقطه الاربع عشرة . كان هذا الاعلان هو « السلاح الخامس » الذى كنا نفتقده حينذاك ، والذى ما كاد يشحذ حتى أجهز على أعدائنا . واذا كنا الآن ننظر آسفين الى هذه الامانى التى كان ويلسون يعنيها ويعلنها ، الا ان علينا أن نذكر انه لولا المثل الاعلى الذى بثه ويلسون فى قلوب المدنيين والمحاربين على السواء ، لكانت الهزيمة أدنى الينا وأولى بنا من النصر ، ولتفشت فينا روح التردد والتراجع التى كانت كفيلة بأن تحيل بريطانيا اقطاعية صاغرة فى الامبراطورية الجرمانية الكبرى . . ان خطاب الرئيس الامريكى « جسم » آمال الشعوب ورغائبها ووضع سياسة يمكن لكل شعب ان يسيغها ويفهمها . أى انه سلح قضية الحلفاء بسلاح معنوى مرهف السنان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

علاقة الدعاية بالسياسة

لما رأى ساسة بريطانيا ما أدى اليه خطاب ويلسون من الاثر البالغ فى شعبها وجيشها وفى شعب عدوها وجيشه ، فكروا فى انشاء ادارة للدعاية اسندوا ادارتها للورد نورثكليف . واستدعانى اليه وأنبأنى أن الحكومة أسندت اليه أمر الدعاية ولكنها قد تدعوه للاشتراك فى وزارة الحرب ، فأشرت عليه بألا يقبل منصبا وزاريا وبأن يكتفى بادارة الدعاية ، على شرط ان يكون مطلق اليد فى تكييف وتنفيذ السياسة التى تقوم عليها هذه الدعاية . فاستوضحنى الامر فى الصلة بين السياسة والدعاية فقلت : « انها كالصلة بين الاخبار والجرائد . ان عقم الدعاية البريطانية حينذاك مرجعه الى انفصالها عن السياسة ، فما يجدينا شيئا ان نغرق العالم بألوان من الادب والبلاغة ، وان نقسم الايمان على أننا شرفاء نبلاء ، وأننا لا ندخر وسعا ولا تضحية فى القتال ، وان النصر حليفنا فى كل الساحات ما من أثر لهذا لا فى العدو ولا فى الحليف ولا فى المحايد . وانما ينبغى ان تكون هناك سياسة ثابتة معينة تقوم عليها دعايتنا »

واستطردت قائلا : « لا فائدة من ان ننذر الالمان بالعقاب الصارم الذى نعده لهم يوم هزيمتهم . ذلك انهم ما زالوا واثقين من التفوق والانتصار . وانما نستطيع ان نخيفهم

ونهددهم حين يرون أن لا أمل لهم في النصر . وكذلك أمر حلفائهم ـ بلغاريا وتركيا ـ الذين لن يفتحوا أذنا لدعايتنا ما داموا على ثقة من فوز ألمانيا . وانما الطريق الوحيد الذي تستطيع ان تسلكه دعايتنا الآن هو تحطيم الرابطة بين الجيش النمسوي والمجري والجيش الالماني وليس هذا بالمتعذر أو الشاق بل في وسعنا أداؤه في وقت وجيز »

ووضعت مذكرة عن هذه السياسة تقوم على شقين : الاول ، السعي الى عقد صلح منفرد مع امبراطورية النمسا والمجر ـ والثاني ، اضعاف هذه الامبراطورية بتأييد ما فيها من العناصر المعادية لها ولالمانيا والممالئة للحلفاء

وكانت الحكومة قد سعت الى تحقيق الشطر الاول حين أوفدت الجنرال سمطس عضو وزارة الحرب ليفاوض ساسة النمسا سرا في انفصالها عن ألمانيا . ولكنه لم يوفق اذ ما كانت تستطيع النمسا ان تبرم أو تنقض أمرا دون رأي ألمانيا . فلم توافق الحكومة الا على الشطر الثاني من هذه السياسة التي كانت ترمي ـ لا الى خلق عدد من الدول الصغيرة المنفصلة ، بل الى تكوين اتحاد من دول الدانوب ودول البلقان التي تبغض ألمانيا وتعاديها على ان يترك للشعب النمسوي ان يقرر ما يريد من الانضمام الى المانيا او الانفصال عنها

وافقت وزارة الحرب على ان نشرع في دعايتنا وفق هذه السياسة ـ سياسة تأليب العناصر المتذمرة داخل الامبراطورية النمسوية ـ على شرط الا نعد أي عنصر منها بالاستقلال ورغم اني خشيت أن يفسد هذا الشرط سياستنا وجهودنا الا اني نصحت نورثكليف بأن يقبله مؤقتا وأن يشرع في العمل عاجلا . فأسرع يدعو مؤتمرا للدعاية مثلت فيه بريطانيا وفرنسا وايطاليا وأمريكا . وكان مسيو هنري مويسي أحد مندوبي فرنسا يفهم الروح الالماني فهما صحيحا دقيقا ، فتحدث الى المؤتمرين عما ينبغي أن يتخذوه من السياسة حديثا واضحا رشيدا . وما زلنا الى اليوم في حاجة الى استعادة هذا الحديث واتخاذ هذه السياسة

قال مويسي : ان المانيا غرست فكرة الحرب في قلوب أبنائها منذ أجيال وأجيال . فهزيمتها العسكرية لا ترهقها ما لم تهزم في ساحات التفكير والشعور . وقد اتخذ الحلفاء منذ قيام الحرب وسائلهم البلاغية الخطابية التي لا أثر لها ولا جدوى منها . فهي لا تصل الى الالمان الا بعد تحريفها وتغييرها بحيث تصير حجة لهم علينا . وانما الواجب أن تكون لنا سياسة بسيطة واضحة ، تقوم أولا على أن ألمانيا هي المسؤولة عن قيام الحرب ، ذلك ان هذا هو ما يشعر به الالمان في قرار نفوسهم فعلينا ان نحرك هذا الشعور ونستثيره . ونسعى ثانيا الى مقاومة فكرة « الثقافة » التي تعني عند الالمان أكثر مما تعني عند سائر الشعوب . فللثقافة عندهم معنى ايجابي ، ذلك أنها مجموع الافكار والمشاعر والآمال والتقاليد التي يقوم عليها نظام خاص في الحكم والسياسة والاجتماع . فيجب ان نريهم ان لدينا فكرة واضحة عن نظام أجدى وأسمى تقوم عليه سياسة أوربا الجديدة وتنهض عليه حياتها الاجتماعية المقبلة . ان الثقافة عندهم تقابل الحضارة عندنا . واذ كنا نكره

الحرب خشية ان تدمر الحضارة التي تتمثل في منشآتها من عمائر وآثار وآلات ومعاهد، فهم لا يخشون من الحرب شرا على الثقافة لانها أفكار ومشاعر وتقاليد لا سبيل الى تدميرها . فعلينا أن نثبت لهم أن حضارتنا أفضل لهم وأجدى عليهم من ثقافتهم . وهذا يقتضي أن نقدم لهم فكرة واضحة عن مكانة المانيا في نظام أوربا القادم ، لنحملهم على ان يتساءلوا : أمن الخير أن نستمر في هذا العراك ونستهدف لما فيه من الاهوال في سبيل سيادة مشكوك فيها ؟

يجب اذن أن يقيم الحلفاء « قيادة فكرية عليا » تماثل القيادة العسكرية العليا . تكون مهمتها تعبئة الافكار وتجنيدها ، ورسم خطط القتال الفكري . ولا يكون همها مقصورا على اصدار النشرات وتوزيعها بل عليها ان تدرس دراسة علمية روح الالمان وتحاول كسب الطبقات المثقفة في ألمانيا . فتعنى مثلا بوضع قانون دولي جديد ، وبتنظيم شؤون العالم الاقتصادية ، وبأبراز « جمعية الامم » التي تتولى سياسة العالم وادارته . وتلجأ الى الصحف السويسرية والاسكندنافية والهولندية لتنفذ بهذه الآراء الى الشعب الالماني

والى جانب هذا كله تقوم الدعاية بتحطيم الامبراطورية النمساوية المجرية ، بتشجيع الاقليات المتذمرة التي تضمها قسرا على الثورة والتألب ، فيثار التشيك والسلوفاك والبولنديون والرومانيون والايطاليون والكروات والصربيون والصقالبة ليتحرروا من حكم هبسبورج ويرجعوا الى أحضان عناصرهم وشعوبهم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تحطيم امبراطورية النمسا

كان هذا الرأي الرشيد نواة نشأت منها «القيادة الفكرية العليا» التي بدأت عملها بأن قررت ايفادي الى ايطاليا على رأس بعثة من دعاة الحلفاء لأؤدي الدعاية التي أشرت بها ، وهي تأليب العناصر المختلفة المتنافرة التي تتألف منها امبراطورية النمسا ، على شرط ألا أعد أي عنصر منها بتحريره واستقلاله وألا أقيد الحلفاء بأية سياسة من هذا القبيل . فغادرت لندن الى باريس وذهبت الى كليمنصو رئيس الوزارة الفرنسية ووزير الحرب لاتحدث اليه في أمر الدعاية التي أسندت الي . وبينما انا معه يوم ٢١ مارس اذ بالجنرال فوش يقدم مسرعا وبيده خريطة بسطها وأشار الى ان جبهة الحلفاء تتراجع أمام هجوم عنيف جدا بدأه لدوندورف منذ بضع ساعات . فأشار كليمنصو ان أذهب فور الساعة الى الجبهة الايطالية قائلا : انه يقدر ان الجيش النمسوي الالماني سيقوم بهجوم جديد على ايطاليا يوم ١٠ ابريل ليحطم كل ما تخلف بعد كابورتو من فلول وأمداد، فعلي ألا أضيع من الوقت ساعة واحدة . .

غادرت باريس الى روما حيث أحالني رئيس الوزارة على القائد العام ، الجنرال بادوليو ، الذي أسرع فجمع مؤتمرا من ضباط المخابرات السرية لادلي لهم بحديث عن

مهمتي وسياستي ولاسألهم رأيهم فى كفاح الجيش النمسوى وتصديع جبهته المنيعة .. فاتفقوا جميعا على ان الطريق الوحيد لقصم عرى هذا الجيش هو أن يعلن استقلال العناصر والشعوب التى تحكمها أسرة هبسبورج قهرا، وأن تعلن الحكومات البريطانية والفرنسية والايطالية تأييدها لهذا الاستقلال . أما غير هذا من الوسائل فجهد ضائع وعبث عقيم . واذ كان من المحتمل ان يستأنف الجيش النمسوى الالمانى هجومه بعد أحد عشر يوما فيجب اذن تنفيذ هذه السياسة فورا . لم ألق شيئا أشق مما لقيت يومها . فقد كنت أؤمن مثلما يؤمن هؤلاء الضباط بأن اعلان استقلال هذه الشعوب وتعهد الحلفاء بتحقيقه وتأييده ، هو الطريق الوحيد الذى يصل الى حيث نرجو . ولكن هذا بعينه هو ما حرم على أن أعمله . فقلت للضباط انى أوافقكم على رأيكم ولكنى لا أستطيع ان افعل شيئا . فأجابوا معا : « اذن فليس ثمة ما تؤديه ! ولا سيما ان هجوم لدوندورف الموفق قد وضع قلوبا جديدة فى صدور الاعداء ، وخلع قلوبا كثيرة من صدور الحلفاء ، وانا لنخشى ألا يصمد خط الحلفاء فى ايطاليا أمام الهجوم الجديد »

لم أشأ ان ينتهى الامر الى هذا الفشل ، ورأيت ان نعد نشرات يعلن فيها استقلال هذه العناصر التى تضمها النمسا والمجر ، وموافقة الحلفاء على هذا الاستقلال وتأييدهم اياه ، حتى اذا وافقت حكومات الحلفاء على هذه النشرات ألقيناها على جيش العدو الرابض أمام ايطاليا ، فنلنا من وحدته وقوته ما نريد . وأمر الجنرال بادوليو فكتبت وطبعت آلاف من هذه النشرات باللغات التشيكية والسلوفاكية والبولندية والصربية والكرواتية والرومانية. وأرسلت برقية رمزية الى نورثكليف أطلب اليه أن يحمل وزارة الحرب بأية وسيلة على اقرار هذه النشرات . فلم تمض سوى ست وثلاثين ساعة، اشتد وتقدم فى أثنائها هجوم لدوندورف ، حتى جاءنى الرد بالموافقة . وأرسلت برقية أخرى الى كليمنصو فاضطره الموقف الحربى الخطير الى ان يوافق على ما فى هذه النشرات . ولم أستطع ان أتغلب على معارضة الحكومة الايطالية الا بعد جهد ذلك أنها كانت تتمسك بمعاهدة لندن السرية التى وعدتها بجزء من ساحل دلماشيا أكثر أهله من اليوغوسلاف ان هي دخلت الحرب فى صف الحلفاء فى خلال شهر من توقيع المعاهدة ، فناهضت فكرة استقلال الشعب اليوغوسلافى . ولما تمت الموافقة أبرقت الى قيادة الجيش الايطالى فى بادوا ان توزع النشرات فورا، فلم يأت يوم ٧ ابريل — أى قبل الهجوم المنتظر بثلاثة أيام — حتى أغرقت جبهة العدو بآلاف من هذه النشرات. فماذا كانت النتيجة ؟ لقد اضطرت ألمانيا والنمسا الى ان تسحب جنود هذه العناصر المتألبة الثائرة من جبهة القتال ، وان تعتمد على الفرق الالمانية والنمسوية والمجرية وحدها ، وهذه كانت من القلة فى هذا الميدان بحيث لا تقدر على الهجوم . بل انها لم تستطع الصبر على الدفاع طويلا حين أصلتها جيوش الحلفاء نارا متصلة . فبدلا من ان تشرع فى الهجوم بدأت تتراجع الى الوراء

الدعاية ضد ألمانيا

عدت من ايطاليا فى ابريل فوجدت ان ادارة الدعاية قد نشطت الى العمل فى ميدان فسيح ، وهو ميدان الدعاية ضد ألمانيا مباشرة . وكان مستر هـ. ج. ويلز قد كتب مذكرة عما يجب ان تكون عليه سياسة هذه الدعاية . فاقترح ان تكون شقين : شق يخيف الالمان ويرهبهم ، وشق يبث فيهم الامل ويعطفهم . فعلى ألمانيا أن تدرك ان الحلفاء لن يضعوا السلاح مهما كلفهم من الضحايا ، وأن الحصار الاقتصادى سيشتد عليها ضيقا وخنقا . وعليها — مع هذا — أن تعرف ان الحلفاء لا يريدون بها شرا ان هى كفت عن الحرب وجنحت الى السلم . وانما يلحقها كل شر وكل أذى ان هى استمرت فى هذه الحرب التى ستنتهى بهزيمتها أولا ، وبخرابها ثانيا ، وبحرمانها من مزايا نظام أوربا الجديد الذى أعده الحلفاء . ووافقت الحكومة على هذه السياسة ، أعدت آلاف وآلاف من النشرات كتبت بلغة ألمانية بسيطة توضح هذه المعانى لجمهرة الشعب والجيش الالمانى . وكذلك كانت تتضمن شذرات من الانباء التى لا يعرفها الجنود الالمان ، فكانت تذكر أنباء الحرب فى جميع الميادين ، موضحة بخرائط تبين ما كسب الحلفاء وما خسروا ، وتذكر خسائر الالمان التى كانت القيادة تحذف منها وتغير فيها ، وتعدد الامدادات الامريكية التى بدأت تتدفق الى أوربا . وكانت تقتطف من الصحف الالمانية ذاتها بعض الانباء التى لا يدرى منها الجنود والضباط شيئا . فأخذ الجيش يلتفت الى هذه النشرات التى تتساقط عليهم من السماء ، ولم تمض أسابيع حتى غدا الجنود والضباط يترقبونها ويتبادلونها ، وصاروا يصدقونها أكثر مما يصدقون بلاغاتهم الرسمية

وأغرق الجيش الالمانى بهذه النشرات التى وزع منها فى شهر اغسطس اربعة ملايين نسخة ، وفى اكتوبر اكثر من خمسة ملايين ، وفى الايام العشرة الاولى من نوفمبر ١٫٤٠٠٫٠٠٠ نسخة ، ولم يقف توزيعها الا يوم ١١ نوفمبر أى يوم الهدنة . وكان كل ما انفقته ادارة الدعاية على هذا العمل العظيم — الذى كان من أقوى الضربات التى وجهها الحلفاء للالمان — سبعين ألفا من الجنيهات ، خص الجبهة الايطالية وحدها ثلاثون ألفا . وذلك فى وقت كانت بريطانيا وحدها تنفق على الحرب فى كل يوم سبعة ملايين من الجنيهات !

ان الدرس الذى تعلمناه فى الشهور الاخيرة من الحرب الماضية قد نسيناه ، برغم اننا جنينا منه أطيب الثمار . ولكن علينا ان نذكره الآن ، وان نؤمن دائما بأن الدعاية لا تنجح ولا تجدى الا اذا قامت على سياسة معينة تبشر بها وتتعهد بتنفيذها ، وبذلك نخلق فى انفسنا وفى حلفائنا « عقيدة » راسخة البناء سامية المعانى ، تدعونا الى الكفاح والنضال ، وتحملنا على الصبر والجرأة ، وتيسر لنا أمر التضحية والفداء

ح . غ .

(خلاصة كتاب « السلاح الخامس » للصحافى الانجليزى ويكهام استيد)

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الدعاية اليابانية فى بلاد العرب

استغلالها الفكرة الاسلامية لاغراضها السياسية

مميزات الدعاية اليابانية عن دعاية المانيا وايطاليا فى بلاد العرب ـ

استخدام اليابانيين فى الدعاية ـ توزيع الهدايا والأوسمة للدعاية ـ

استعطاف المسلمين ورجال الفكرة الاسلامية والشرقية ـ

كيف كان اليابانيون يغذون الثورة العراقية ويمدون الثوار بالمال

لم تكن الدعاية اليابانية فى البلدان العربية فى السنوات الاخيرة أقل نشاطا من الدعاية الالمانية والايطالية . ولكنها كانت تمتاز بأساليبها الخاصة ، ولم تعمد الى أساليب التهويل والتفخيم التى اصطبغت بها وسارت عليها دعاية المحور ، خصوصا فى الشهور التى سبقت الحرب ومنذ ان تحول جزء من العالم الى ميادين قتال

فالدعاة والجواسيس اليابانيون كانوا يعملون دائما مستترين بستار التجارة والصناعة . كما انهم كانوا يعتمدون على انفسهم ، بخلاف الدعاة الالمانيين والايطاليين ، الذين لم يكتفوا باتخاذ التجارة وحدها ستارا يستر أعمالهم ويبررها بل ظهروا بمختلف المظاهر كسياسيين وسائحين وصحفيين وتجار وعلماء واساتذة ، كما انهم اعتمدوا فى معظم الدسائس والمكائد التى حاكوا خيوطها ، وفى معظم المغامرات وحوادث التجسس التى خاضوا غمارها ، على شركاء يعاونونهم فى البلدان التى امتد اليها نشاطهم . وقد توصل البوليس فى الاقطار العربية الى اعتقال عدد غير يسير من الاشخاص الذين كانوا يخدمون الدعاية الالمانية والايطالية فى بلادهم ، وينفذون سياسة المحور بناء على التعليمات الصادرة اليهم من روما وبرلين ، ولكننا لم نسمع الى الآن بان البوليس فى الشرق العربى قد اعتقل شخصا واحدا من العرب بتهمة اتصاله بالدعاية أو الجاسوسية اليابانية

ولكن حرص اليابانيين على استخدام أبناء جنسهم فقط وعدم الاعتماد على أبناء البلاد التى يقومون بدعايتهم فيها ، لم يمنعهم من التغلغل فى جميع الاوساط والاندية ، والاتصال بجميع الدوائر التى يهمهم أمرها ، فكان منهم دعاة سياسيون ، وجواسيس ، وأفراد ينتمون الى ما نسميه الطابور الخامس ، ولكنهم كانوا جميعا يروحون ويجيئون ويعملون كتجار يعرضون بضائعهم على الناس ، أو وكلاء لمصانع يطوفون بنماذج من مختلف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الصناعات اليابانية ، أو باعة يتنقلون من مقهى الى آخر ، ومن دار الى دار ، ومن مدينة الى بلدة ، وغرض هؤلاء واولئك جميعا ــ فى الظاهر ــ البيع والشراء ، لا اكثر . غير ان معظم البائعين والوكلاء والتجار الذين أشرنا اليهم ــ ان لم نقل كلهم ــ كانوا دعاة سياسيين أو جواسيس يستقطون الاخبار أو افرادا من الطابور الخامس ينشرون الانباء المزعجة والاشاعات الكاذبة المقلقة . ولم يكن نشاط اولئك اليابانيين مقتصرا على خدمة السياسة اليابانية فقط بل تعداها الى خدمة سياسة الدول المحالفة لليابان أو بعبارة أخرى دول المحور المانيا وايطاليا وشريكاتهما

ومن الاساليب التى عمد اليها الدعاة اليابانيون لاكتساب ود بعض الشخصيات والافراد ذلك الاسلوب الذى ابتدعته ألمانيا فى بدء حملتها السياسية فى البلدان العربية ، وهو توزيع الهدايا من أوسمة وأدوات صناعية وآلات مختلفة وتحف منوعة ، الغرض الظاهر منها الاعلان عن الصناعة والتجارة اليابانيتين، والغرض الخفى الدعاية السياسية واكتساب عطف الاشخاص الذين تقدم اليهم هذه الهدايا

واستغل اليابانيون الى أقصى حدود الاستغلال النعرة الشرقية والفكرة الاسلامية لبث دعايتهم واستمالة العرب اليهم . فانهم كانوا يذيعون أخبارا صادرة عن طوكيو عاصمتهم بأن الحكومة اليابانية تسعى الى تحرير الشرق من سيطرة الغرب ، وانها تعمل لتحقيق المبدأ القائل بأن آسيا للاسيويين ، وأوربا للاوربيين ، وامريكا للامريكيين ، وافريقيا للافريقيين . وقد لقيت هذه الدعوة بعض النجاح فخدع بها كثيرون من رجال الشرق ، الى ان هاجمت اليابان أرض الصين وحاولت ان تفرض سلطانها على الصينيين ، فكذبت بنفسها ما كانت تدعيه من عطف على شعوب الشرق ، واثبتت انها ترمى الى بسط سيطرتها على آسيا لا الى انقاذها من سيطرة الغرب

أما الفكرة الاسلامية ، فقد عمدت اليابان الى استغلالها للتأثير أولا فى الملايين من المسلمين المنتشرين فى الصين ومنشوريا وجزر الفيليبين والهند وغيرها من الاقطار التى تطمع اليابان فى السيطرة عليها مباشرة ، ومن ثم الى التأثير فى الشعوب العربية لحملها على تأييد السياسة اليابانية فى الشرق الاقصى والشرق الاوسط

واعتمدت اليابان فى استخدام الفكرة الاسلامية لاغراضها السياسية على لفيف من الدعاة الذين استقدمتهم من البلدان الاخرى ، وبينهم السيد قربان على ، والسيد عبدالحى الروسى . وقد وضعت تحت تصرف هذين الرجلين الاموال اللازمة لتأسيس الجمعيات والاندية فى اليابان . غير أن خلافا نشأ بينهما فلم تسفر أعمالهما عن النتائج التى كانت اليابان تتوخاها من نشاطهما ومساعدتهما

ولا صحة للاشاعة التى روجها الدعاة اليابانيون فى الخارج عن قرار مزعوم قالوا ان حكومة بلادهم قد وافقت عليه ، وهو يقضى باعتبار الدين الاسلامى من الاديان المعترف بها رسميا فى اليابان

نعم ان حكومة اليابان قد تساهلت بعض التساهل مع المسلمين فى بلادها ، فسمحت لهم بتشييد مسجد فى كوبى ، وانشاء مدرسة اسلامية تولى أمرها رجل يدعى الشيخ عبد الكريم ، وتركت لهم حرية الاجتماع والقيام بشعائرهم الدينية ، ولكنها فرضت على المسلمين رقابة حالت فى الواقع دون انتشار التعاليم الاسلامية فى الاراضى اليابانية نفسها

ومن أساليب الدعاية اليابانية لاستعطاف المسلمين ، انشاؤهم مطبعة عربية فى بلادهم ، عهدوا اليها فى طبع بعض الكتب الدينية ، وترجمة معانى القرآن الكريم باللغة اليابانية . وقد انفقوا على هذا المشروع أموالا طائلة ولكن الذين اطلعوا على تلك الترجمة يؤكدون انها غير وافية ، وان القائمين بها توخوا ترجمة بعض المعانى واهملوا البعض الآخر لاغراض لا تخفى على اللبيب

وصفوة القول ، ان اليابان قد استغلت الدين الاسلامى لخدمة مآربها السياسية ، كما استخدمت للغرض نفسه الناحية التجارية والصناعية . ففى الصين ومنشوكو كانت ترمى الى اكتساب المسلمين وهم كثيرو العدد ، وفى البلاد العربية كانت ترمى الى خداع المسلمين وحملهم على الاعتقاد بان الامة اليابانية سائرة فى طريق اعتناق الاسلام . وهو تضليل فاضح لا يخدع به غير صغار العقول ، لان اليابانيين يضعون امبراطورهم نفسه فى مصاف الآلهة ، ولان مبادىء الدين الاسلامى تتنافى من جميع الوجوه مع تعاليم الديانة الشنتوية وتأليه الجالس على العرش وعبادة الاجداد وغير ذلك من مظاهر التدين فى اليابان . وعلاوة على ذلك — وهنا فصل الخطاب — ان الحكومة اليابانية ، عند ما راعها اقدام الكثيرين من اليابانيين الشنتويين أو البوذيين على اعتناق الاسلام فى المدة الاخيرة ، خلعت النقاب واصدرت قرارا صاغته فى قالب قانون نافذ ، ينص على ان من يعتنق الدين الاسلامى يرتكب جريمة عظمى ضد الوطن اليابانى وضد الميكادو ابن الآله وحفيد الآلهة !

وهناك ظاهرة أخرى تدحض أيضا اضاليل الدعاية اليابانية فيما يتعلق بالاسلام والمسلمين وهى ان الحكومة اليابانية استقدمت فى المدة الاخيرة بعض المشاغبين من المسلمين ، وعلى رأسهم المدعو السيد اسحق ، فجعلتهم ينشئون مؤسسات اسلامية فى اليابان لمعاكسة المؤسسات السابقة ، وراحت تشجع كل مؤسسة ضد الاخرى ، حتى عم الخلاف بين المسلمين وتفرقت كلمتهم ، واصبحت الآن جاليتهم فى حالة فوضى تنذر بالاضمحلال !

فغرض اليابانيين أولا وآخرا هو اذن حمل العرب والمسلمين على الانصراف عن توثيق علاقاتهم بالامم الغربية ، وابدالها بعلاقات جديدة من نوع آخر ، مع اليابان واليابانيين . أو بعبارة أخرى ، ان اليابان ترمى فقط الى القضاء على كل نفوذ غربى فى الشرق لكى يحل محله النفوذ اليابانى دون سواه

وكان الدعاة اليابانيون يعملون كما قلنا فى حذر وهدوء ، ولكنهم أخيرا فضحوا انفسهم فى اثناء الفتنة التى أثارها رشيد عالى بك الكيلانى فى العراق ، فراحوا يغذونها بالاموال والتشجيع ، ويقومون بمهمة الوسيط بين الثائرين والمحور ، مما أدى بحكومة

العراق الشرعية برياسة نورى باشا السعيد ، بعد انتهاء الفتنة ، الى قطع العلاقات السياسية بحكومة اليابان

فحكومة العراق هى أول حكومة عربية تنبهت الى خطر الدعاة اليابانيين ووثقت من حقيقة أمرهم ، فاستأصلت شأفتهم قبل ان تدخل اليابان فى الحرب ضد الديموقراطيات حليفة العرب

ومما ثبت اكثر من مرة ، ان موظفى السلك السياسى اليابانى فى بلاد العرب ، والتجار والوكلاء والسياح والصناع وجميع اولئك اليابانيين الذين كانوا يترددون على الاقطار العربية ويطوفون فيها ، كانوا يبعثون الى حكومتهم بالاخبار والمعلومات والتقارير السرية ، كل منهم فى نطاق عمله ونشاطه . فكأن كل يابانى خارج بلاده كان جاسوسا لها ، ولم تكن حكومة اليابان تعطى أحدا من رعاياها جواز سفره الى الخارج الا اذا تعهد لها بأن يقيم نفسه جاسوسا لمصلحتها أو يعمل فى الطابور الخامس لتلك المصلحة . ومما يذكر أيضا ان حكومتى برلين وروما ، بعد قيام الحرب الحاضرة ، كانتا على اتصال مستمر بدعاتهما وعملائهما فى البلدان العربية بواسطة السفارات والقنصليات والمصانع والمحلات التجارية اليابانية

اما الآن ، فقد وضع حد لهذا النشاط كله ، ويعتقد العارفون ان الدعاية المحورية قد أصيبت بضربة قاضية ، بخروج الدعاة اليابانيين من الميدان

ح . ج

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لماذا أنهزم نابليون ؟

فى الذكرى المئوية لوفاة نابليون سأل الصحفى الانجليزى « ويكهام ستيد » المارشال فوش أعلم الأحياء حينذاك بعظمة نابليون وسيرته : ما السر فى هزيمة الفاتح العظيم ؟ فقال فوش : من الناس من يحسب أن ضعف صحة نابليون فى سنيه الاخيرة هو سبب المأساة . ولكن هذا الرأى لا يقنعنى كثيراً . وانما أرى انه أخفق وانهزم لأنه نسى أن الأنسان لا يمكن أن يكون إلهاً ، وأن الشعب فوق الفرد ، وأن القانون الخلقى فوق الانسان . ونسى أن الحرب ليست أقصى الغايات ولا أسماها، فالسلم أعظم من الحرب وأعلى »

ستالين : الثائر والسياسى

بقلم الاستاذ عبد الحميد عبد الغنى

أقبل على السجن فى مدينة باكو رجل أغبر الوجه مهضم الجسم هزيل القوام ، فلم يحفل السجن بضيفه الجديد اذ كان حاشدا بألف وخمسمائة من أمثاله « الثوريين » . كان ذلك فى سنة ١٩٠٨ وهى سنة عصيبة على الحركة الثورية فى روسيا ، فارتد عنها أكثر اشياعها ، وتوارى فى الخفاء جمع من رجالها ، ولم يبق الا بضعة آلاف تراكمت أفواجهم فى السجون ، وسيقت جماعاتهم الى سيبريا . ولم يكن السجين الجديد الا واحدا من الآلاف الذين « يثورون » فى انحاء روسيا ، بدافع التفكير والعقيدة حينا ، وبدافع النقمة والتذمر غالبا . وكان كل ما يستدعى النظر الى هذا السجين هزالا يسرى فى وجهه القاتم المصفر وقوامه المتخاذل ، وتؤدة تمشى فى حركته وكلامه فتضفى عليه وقارا يدعو الى الريبة والاشفاق

ولكن لو انحسر حجاب الغيب أمام هذا الرجل فقرأ لاقران السجن ما سطر فيه لما شكوا فى ان به مسا من الجنون . وكيف يدور بخلدهم ان هذا الزرى الاغبر الاشعث الاعجف سيغدو بعد عشرين عاما « قيصرا » فى الكرملين يبسط يده على شعب من مائة وثمانين مليون فرد ، وعلى اقليم آفاقه سدس الارض كلها ؟!

هذا هو ستالين . هذا هو الزعيم الذى نشأه السجن ورباه . أضافه خمس مرات فلم يخضد من شوكته ولم يثلم من عناده . انما كان يغادر السجن « ليمارس » الثورة ، ثم يعود الى السجن « ليدرس » فيه الثورة . كانت « الثورة » عمله وحرفته : يتعلمها فى السجن فيما يقرأ من كتب التفكير الاشتراكى وفيما يدور بين السجناء من الاحاديث والآمال ، ويزاولها خارج السجن بما يؤلفه من العصابات التى تغتصب الاموال لتنفق على الحركة الثورية ، وتنسف الدور والمصانع لتبث الخوف وتثير الفوضى ، وتقتل الخصوم وتفتك بالاعداء ارهابا . وكذلك السجن : قد يصهر الرجل العادى فينجب منه رجلا عظيما . واذ كان « السياسى » يتخرج فى المعاهد على يد الاساتذة ، ويتدرب فى المناصب ووسط مناورات الاحزاب ، فان « الزعيم » — الزعيم الذى يثور بالمبادىء القائمة لينشىء مبادئه الجديدة ، الذى يهدم الحياة السائدة ليقيم على انقاضها حياته المثلى — انما يتخرج فى السجن أو فى المنفى . وقد عانى ستالين البيئتين عهدا طويلا ، فعند ما عجز السجن عن أن ينال شيئا من عناده ومناعته أرسل الى أقصى سيبريا ليعيش وسط الجليد حتى يدفن بين صخوره ، فما عاد من منفاه الا حين شبت الثورة وذهبت القيصرية ، وغدا المنفى الشريد بطلا زعيما

سجن ستالين مرارا ونفى من الارض أمدا ، ذلك انه رأى أن الثورة لا يمكن ان تقوم بمجرد كتب تؤلف وصحف تذاع وجمعيات تنشأ ، بل لا بد لها من العنف والقسوة والعدوان ، لا غنى لها عن « الجريمة » . ونعنى الجريمة التى عرفها دستويفسكى بأنها ثورة على الحياة القائمة بقصد انشاء حياة جديدة ، « فالمجرم » هو البطل الذى يلغى مبدأ ليقيم مبدأ ، أو يهدم نظاما ليبنى نظاما ، أو يبطل دينا لينشىء دينا • لم يتحرج ستالين اذن من الجريمة ، فألف فى موطنه « جورجيا » عصابات تختفى تحت الارض وتعتصم بشعاب الجبال ، لتفتك بمن يقع لها من رجال الحكم وملاك الارض وأصحاب المال • وكان أكبر هذه الجرائم ما وقع يوم ٢٦ يوليو سنة ١٩٠٧ فى قلب مدينة تفليس وفى رابعة النهار ، حين هاجمت عصابته عربة مسلحة تحمل مال أحد المصارف فأصابت منها أكثر من عشرين ألف جنيه بعد أن قتلت من حراسها ثلاثة رجال وجرحت خمسين رجلا • وكانت هذه الاموال تنفق على الحركة الثورية التى تضطرم فى أرجاء روسيا باشراف زعمائها ومفكريها المشردين فى أقطار أوربا ، فأرسل اكثرها الى لينين فى باريس حيث ضبط ليتفينوف وبيده أوراق منها • على ان ستالين لم يباشر هذه الجرائم وانما كان يدبرها ويوجهها وهو منزو فى مخبئه

وكان ستالين منذ بدء حياته عميق الايمان بالمبدأ صادق الاخلاص للثورة ، فلم يصب لنفسه شيئا من هذه الاموال الوافرة ، وانما كان ينفقها على الثورة بينما هو يعيش سنين وسنين بلا بيت يأويه ، بل بلا اسم يطلق عليه • فيلجأ طورا الى كوخ عامل أو فلاح ، ويأوى طورا الى حانة أو ماخور ، ويهيم طورا فى الشوارع يمضى فيها الليالى هاربا من الشرطة والعيون • وكذلك اتخذ اسماء عددا يختفى وراءها ، فمنها كوبا ، ومنها داود ، ومنها ايفانوفتش ، ومنها ستالين (١)

وهكذا ظل هذه السنين خارج القانون طريد المجتمع ، يؤلف ويوجه عصاباته من الفلاحين والعمال ، ويؤدى دور الوسيط بين الجانب العملى من الثورة داخل روسيا ، والجانب الفكرى منها المنفى فى عواصم أوربا • وكان يتلقى الرسائل من لينين ــ ولم تنقطع عنه هذه الرسائل حتى وهو فى السجن أو فى المنفى ــ ويرسل الى لينين ما يصيبه من المال ليسر سبيل العيش لمئات من البلاشفة المشردين فى أوربا حيث يعيشون ــ بين الشظف والنقمة ــ فى حجرات السطوح وفى قهوات العمال ــ فى هذه الحجرات والقهوات التى دبرت فيها الثورة ، وأعد فيها وقود النار

ولكن ما كان فى وسع هذه الثورة ان تشب وتتقد كما شبت واتقدت فى عنف وفى فجأة ، لولا ستالين الذى أبى الفرار الى أوربا ليتفادى حياة السجن والتعذيب ، بل ظل

---

(١) كان من عادة الشبان البلاشفة أن يتخذوا اسماء مستعارة يشتقونها من معانى القوة والعنف فستالين مشتق من الحديد الصلب ، ومولوتوف من المطرقة ، وكامنيف من الصخرة ، وجوركى من الحقد

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

فى أرض روسيا يثير الروح ويبث الامل ويشدد العزم ، مشردا الايام والليالى ، متنقلا بين المعاقل والسجون ليعد الشعب للثورة اللاهبة يوم ان يطير أول شررها . وهذا ما يفسر أمر الثورة التى شبت فى عشرات الملايين من الرجال والنساء ـ وشبت فجأة كأنها بين نهار وليلة ـ حين هبط لينين أرض روسيا ، قادما من ألمانيا التى أعدت له طريق الفرار فى قطار خاص على أمل ان يثير من الفتنة والفوضى ما يشغل روسيا عن الحرب أو يخرجها من ساحتها . نزل لينين من القطار عند حدود روسيا وتقدم فى ظلام الليل منفردا حتى بلغ بعض جنود الجيش قائلا : « أنا لينين جئتكم » . واذا بالنبأ يسرى بين الجنود والكتائب ، واذا بالجيش يتمرد ويعصى ويلقى السلاح ، واذا بأفواجه تتخلى عن جبهة القتال عائدة الى مدنها وقراها ، واذا بالشعب يهيج ويثور ويعتصب فى الميادين هاتفا : نريد الخبز والسلام ، واذا بالجيش يعصى أمر القيصر حين يأمر بأطلاق النار على الثوار ، واذا بشمس القيصرية التى أشرقت خمسة قرون تؤذن بالمغيب ، واذا بالثورة التى كانت كتبا وصحفا وفلسفة ، قد غدت نارا تسرى فى الهشيم وتذكيها الريح العاصف . كل ذلك ما كان يمكن ان يحدث على هذه الصورة المروعة لو ان الامر اقتصر على كتب يؤلفها ماركس وصحف يذيعها لينين ، لو أن الامر ظل محصورا فى نطاق الثورة الفكرية . اذن لما جاوزت روسيا نطاق النقمة والتذمر والشكوى ، يتهامس بها الشبان فى مدارسهم والعمال فى مصانعهم ، ويرمز اليها بعض الكتاب فى قصصهم وفصولهم ، وقد تبلغ سمع أولى الامر فيأخذون الناس بشىء من « الاصلاح » الذى يأبى الاشتراكيون الا تسميته « بالتخدير » . وانما حدث هذا الهول العظيم لان ستالين خرج بالثورة من الدائرة النظرية الى دائرة الواقع بما ألف من العصابات ، وأثار من الفتنة والفوضى ، وقض من مضاجع رجال الحكم وأصحاب المال . ذهن لينين الجبار وقف بالثورة عند حد العقل ، أما روح ستالين المضطرم فنفذ بها الى القلب ، ولو ظلت الثورة « تفكيرا » لما أمكن ان تتقد كما اتقدت حين غدت « احساسا » .

ان لينين ثورى عظيم ، ولكن ستالين ثورى أعظم . ذلك عقل ثائر ، وهذا رجل ثائر . فلينين أمضى حياته الاولى فى دور الكتب باحثا مفكرا ، فاشرب الثورة ووعاها وفلسفها ، ثم أخذ يبشر بها فيما وضع من الكتب وأذاع من الصحف ، وطاف بجريدته « برافدا » فى عواصم أوربا الكبرى يعلم الناس الثورة ويؤلف حوله الثوار . اما ستالين فلم يقرأ فى صدر حياته كثيرا ولم يتجه اتجاها فكريا واضحا ، برغم انه يكاد يحفظ « ماركس » عن ظهر قلب ، وبرغم ان « ويلز » عرف منه اشياء كان يجهلها عن ثورة كرومويل وتاريخ الدستور الانجليزى ، وبرغم ان « ايدن » يقول ان ستالين أوسع من عرف من السياسيين ثقافة وأذكى ادراكا . لم يتعلم ستالين الثورة ولم يتفقه فيها ، وانما هى فطرته ولد عليها ثم نمتها البيئة وأذكتها صروف الايام . فعند ما أرسلته أمه فى صباه الى المدرسة الدينية لينشأ قسيسا أفضل من أبيه الحذاء الذى كان يضيع فى الخمر والسكر اكثر ما

تكسب من غسل ملابس الناس ــ طفرت منه فطرة الثورة فأحال زملاءه الذين جاءوا ليتدينوا ويتعبدوا ويتزهدوا ثوارا تضطرم فيهم النقمة على الدولة ورجالها ، وقد سجن ستالين خمس مرات ، ولكنه فر من السجن اربع مرات ، لانه كان يحيل حراسه « ثوارا » يرون الحكم عسفا والقانون ظلما ، فيطلقون سراحه معرضين انفسهم المعقاب والاذى ، وكذلك حراسه فى سيبريا كانوا ينقلون الرسائل بينه وبين لينين ، حين صور لهم روسيا كلها سجنا هائلا ، يستوى فيه السجين والسجان فعليهما ان يتعاونا على الخلاص !

هذا الجانب العملى من الثورة يمدنا بتفسير نفسى ــ الى جانب التفسير السياسى ــ لما وقع بين ستالين وتروتسكى من خلاف عنيف أدى الى توجيه السياسة الروسية الحديثة توجيها خاصا . فقد أبى ستالين أن يفر من روسيا كما فر مئات من الشبان الثائرين ، بل ظل فى وطنه يتشرد من مأوى الى مأوى ، ويخرج من سجن الى سجن ، ويتلقى من العسف ما يفل الحديد . بينما الآخرون فى باريس ولندن وبرلين وجنيف بمنأى من هذا التعذيب « البدنى » العنيف . فتولد فى نفس ستالين شىء من الاستخفاف بهذا النفر من الثوار أشبه ما يكون باستخفاف الشجاع بالجبان والمغامر بالمستكين ، والرجل الذى اندفع وجابه وضحى بالذى جنح الى المراوغة واكتفى بالمؤامرة .. على ان هذا الفريق الذى عاش فى أوربا بين جامعاتها ومكاتبها ، وعاشر مفكريها وكتابها كان له من سعة الثقافة والاطلاع ما يتعالى به على ستالين الذى لم يصب هذا « المظهر » الخلاب ، فما كان يعرف أية لغة أجنبية ــ ويقال انه تعلم الاسبرانتو فى السجن ــ وما كان يستطيع ان يجاريهم فى الحديث عن الفلاسفة والفنانين والكتاب . ومع هذا فان ستالين كان يرى انه لا يمتاز على زملائه هؤلاء بماضيه المغامر الجرىء فحسب ، بل بتفكيره السديد الذى لم تزوره ولم تبلبله الثقافة المعقدة المتشعبة . والواقع ان الايام أثبتت انه لم يغتر بنفسه حين اتخذ من السياسة ما كان أدنى الى التوفيق والنجاح وما دل على سداد تفكيره وصدق فراسته

لم يستثن ستالين من هذا الفريق سوى لينين ، اذ كان له من قوة الشخصية وضخامة التفكير ما حمل ستالين على أن يتخذه استاذا وزعيما له من قلبه الحب والوفاء والاعجاب . وكذلك كان لينين يثق فى ستالين ويرى ان الحياة الجديدة ــ التى يناهضها ويحاربها العالم جميعا ــ ليست فى حاجة الى أولئك المثقفين قدر حاجتها الى ستالين وشدة مراسه وصرامة خلقه وقسوة طباعه

ولكن الى جانب لينين صديقه تروتسكى ، ثانى اثنين فى الثورة الكبرى ، وهو لا يمتاز فحسب بتفوق التفكير وتألق الذكاء ، بل بتاريخ ثورى مليء بالمغامرات والمؤامرات ، وباسم ذائع الصيت فى روسيا وأوربا وامريكا ، وبعبقرية مشهودة فى الخطابة والدعاية والتنظيم الحزبى . ويمتاز فوق هذا كله بأنه ألف الجيش الاحمر ونظمه وقاده الى النصر فى عدة ساحات ، مع انه لم يدرس الفن الحربى الا فى الكتب ، وانتصر بهذه العصابات المشتتة على القوات البيضاء التى تألبت على البولشفية فى بدء عهدها ، وهى قوات تشيكية

وفرنسية وبريطانية ويابانية ، وكان قطاره الحربى الذى اتخذه مركزا لقيادته يتنقل به بين جبهة وجبهة احدى « درامات » التاريخ الحديث • كان تروتسكى اذن ابرز اسما من ستالين ، فكانت الزعامة ــ من بعد لينين ــ معقودة له بالاجماع • وهذا ما لا يريده ستالين: أولا ، لانه يرى نفسه أحق بهذه الزعامة ، وثانيا ، لانه لا يقر تروتسكى على سياسته

نشب النزاع بين الرجلين ، أما تروتسكى فاعتمد على ذيوع اسمه وصلته الوثيقة بلينين ، أما ستالين فأخذ يدعم مركزه ويؤلف من حوله الانصار ، وكان له من مركزه كسكرتير للحزب الشيوعى ما مكنه من ان يجند أعوانه فى الحزب والحكومة • ويقال ان لينين انحاز الى تروتسكى وقر رأيه على عزل ستالين ، لولا ان الموت عاجله ، تاركا تروتسكى أكشف الا من نفر من أوائل الزعماء • واحتدم النزاع بين الخصمين مدى حين حتى اضطر تروتسكى الى الفرار هاربا من روسيا عائدا الى العواصم التى عاش فيها من قبل يكتب ويؤلف مؤرخا الثورة ناقدا ستالين

هل كسبت روسيا أم خسرت من انتصار ستالين على تروتسكى ؟ كان تروتسكى سياسيا دوليا ، فكان يرى ان روسيا لم تثر الثورة الشيوعية لنفسها وحدها ، بل للعالم جميعا ، فعليها ان تنشرها فى كل شعب بما ترسله اليه من ثروتها ومن جهودها ، فتبث عملاءها فى شتى الاقطار حيث يثيرون الفتن ويبثون الدعاية ويؤلبون العمال • ولا بأس على الشعب الروسى من ان يتحمل شيئا من الضنك والشظف فى سبيل توفير الاموال والجهود التى تحيل الشيوعية مذهبا عالميا • اما بقاؤها داخل روسيا وحدها فيؤدى بها الى الاخفاق يوم يتألب عليها العالم الرأسمالى جميعه حين يخلص من آثار الحرب الماضية ويتأهب لحرب أخرى • وكان تروتسكى قد وعد احزاب العمال فى أقطار أوربا بأن يمدها بعون روسيا حتى تتمكن من اقامة الاشتراكية فى بلادها

أما ستالين فكان زعيما قوميا ، فامتازت نظرته بالتؤدة والاتزان • كان يرى ان احزاب العمال وحركاتهم الفوضوية فى أوربا ليست الا اشتراكية « مجهضة » لم تتم شعوب أوربا شهور « حملها وولادتها » وان من العبث اجاعة الشعب الروسى فى سبيل تشجيع هذه الحركات التى لن تجدى الاشتراكية نفعا • وكيف يمكن ان تنجح الاشتراكية اذا أهمل الشعب الروسى وارهق حتى يضيق بها ذرعا فيثور عليها ويهدمها • انما تخدم الاشتراكية بأن تثبت روسيا للعالم الرأسمالى نجاحها ورسوخها ، ولن يكون ذلك الا اذا توفرت روسيا على أمورها ومشاكلها الداخلية ، وانصرفت عن الثورة العالمية • وهذه هى السياسة التى انتصرت وأخذت بها روسيا ، فمكنتها من ان تنشىء علاقات اقتصادية وسياسية مع العالم الرأسمالى ، فكانت من اهم اسباب تدعيم النظام الاشتراكى فى روسيا واعلاء اسمها فى محيط السياسة الدولية ، وكان لاسم لتفينوف فى عصبة الامم رنة وصيت • وبذلك عدلت روسيا عن فكرة الثورة العالمية بل ان ستالين أعلن ذات مرة ان « الشيوعية لم تعد بعد للتصدير » • على ان كثيرا من النقاد يرون ان خطة تروتسكى

كانت أدنى الى الصحة والنجاح ، ولو كان بيده الامر لما افلتت منه فرصتان عظيمتان : الاولى ، الحرب الاهلية في اسبانيا حيث قصر ستالين في معاونة الجمهوريين الاشتراكيين ، بينما ارسل موسوليني وهتلر كل ما وسعهما من الجنود والسلاح الى فرانكو الفاشستي ـ والثانية ، الجبهة الشعبية في فرنسا فقد كادت تشرف بها على الشيوعية او انها وجدت من موسكو عونا ومالا • ولكن هل سأل هذا النفر : كيف كان يصير أمر روسيا في هذه الحرب لو انها في يد تروتسكي ، حتى على فرض انها احتملت الارهاق في سبيل اقامة الثورة العالمية ، حين تقف من هذا العالم جميعه ، الفاشستي منه والديمقراطي موقف العداء ؟

الواقع ان سياسة ستالين المتئدة المتزنة استطاعت ان تعطف العالم الديموقراطي على روسيا عطفا ما ، فأمكنها ـ حين اصطدمت الفاشستية بالشيوعية ـ ان تجد من الديموقراطية البريطانية والامريكية عونا حربيا وعونا أدبيا ، مما مكنها من أن تصمد للعدو طويلا ، ثم تنقلب عليها بهجوم عنيف • ولسنا نشك في ان الوشائج قد اتصلت بين موسكو ولندن وبين موسكو وواشنجتون اتصالا أوثق مما يبدو في الامداد المالية والحربية • واذ كان سر هذه الصلات لن يتضح الا بعد ان تضع الحرب أوزارها وينظر العالم الى تحقيق ما ناضل في سبيله من الامن والرخاء ـ الا أنا نظن ان ثمة مغزى عميقا في الكلمة التي نشرتها جريدة التايمز قائلة فيها : « ان التعاون الوثيق بين روسيا وبريطانيا واتفاقهما على اغراض الحرب ضمان أكيد على ان تهديد المحور للحضارة البشرية سيقضى عليه قضاء مبرما • وسيكون استمرار ذلك التعاون بعد ان تضع الحرب أوزارها الامل الوحيد في استعادة بناء الحضارة البشرية على أسس جديدة من الامن والحرية المنظمة والرخاء المشترك » • فهل فيما تقول التايمز ـ وكثيرا ما توحى لها الحكومة البريطانية بما تقول في مثل هذه الامور الخطيرة ـ دليل على ان هذا « النظام البديع » ـ على حد قول مستر تشرشل ـ الذي أخذت به بريطانيا منذ وضعت الحكومة يدها على كثير من مرافق الانتاج الكبرى ، والذي سيستمر قائما بعد انتهاء الحرب ، هو خطوة من بريطانيا تقابلها خطوة أخرى من روسيا التي عدلت وحورت في مبادئها الاولى ، فأباحت بعضا من حق الملكية كملكية البيت مثلا ، وأخذت توسع على الناس في حريتهم الدينية ؟

هذا هو نجاح ستالين في سياسته الخارجية يقابله نجاح أكبر منه في سياسته الداخلية فقد أقام نفسه زعيما ، والزعامة ـ على مظاهرها الجوفاء التي تبلغ أحيانا مبلغ السخف والتهريج ـ ضرورة لكل مذهب وفى كل بيئة

عبد الحميد عبد الغنى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



معركة

[مهداة الى الانسانية التعسة ... والى كل من يحمل رسالة الخير فى هـذا الوجود]

تمثيلية فى فصل واحد وخمسة مناظر

بقلم الاستاذ على سعد مراد

المنظر الأول

(يظهر رسول الخير وأعوانه فى مكان هادىء يشبه الفردوس)

(يدخل الخادم)

رسول الخير ـ ما هذا الذى تحمله الينا يا غلام ؟

التابع ـ انها رسالة يا مولاى !

رسول الخير ـ (الى كبير أعوانه) خذ منه الرسالة يا « جميل » واقرأها !

(يخرج الخادم) ... ممن هذه الرسالة يا ترى ؟ ومن الذى يذكرنا اليوم من أهل الارض ؟

جميل ـ (يتلو الرسالة همسا) ليست هذه الرسالة من أهل الارض يا مولاى ، وانما هى رسالة من رسول الشر يطلب فيها الى مولاى ان يبادر هو وأعوانه بالجلاء عن الارض حيث انه لم يعد هناك داع لبقائنا فيها .. وقد ضرب لكم يا مولاى موعدا لتنفيذ هذا الجلاء فيه ، والا عرضنا أنفسنا جميعا للهلاك المحقق .. (ضجة من الاعوان)

رسول الخير ـ كفى ! كفى يا « جميل » ! ... ألا لعنة الله على هذا الشرير اللعين ! أكتب اليه رسالة شديدة اللهجة نرفض فيها هذا التهديد الوقح ، وننصح لهذا الشرير ألا تخدعه مظاهر الهدوء البادية علينا فى هذه الايام ، وننذره بأن الغـد سـوف يتسع لنشاطنا كسابق عهدنا فى الايام الخالية ، وان الخطر سوف يحيق به هـو وأعـوانه فى مقبل الايام !

المنظر الثانى

(يظهر رسول الشر وأعوانه فى قاعة حمراء تشبه الجحيم)

(يدخل الخادم)

رسول الشر ـ ما الذى بيدك يا غلام ؟

التابع ـ انها رسالة يا مولاى ؟

رسول الشر ـ (الى كبير أعوانه) نض الرسالة يا « قبيح » وأخبرنا بما تقول !

... (يخرج الخادم)

قبيح ـ (يتلو الرسالة همسا) انها رسالة من رسول الخير يا مولاى يرفض فيها ..

رسول الشر ـ (مقاطعا فى غضب وهو يضرب الارض بقدميه) يرفض ؟

قبيح ـ أجل يا مولاى ! ... يرفض الجلاء عن الارض ، وينصح لكم يا مولاى ألا تنخدعوا بمظاهر الهدوء البادية عليه هو وأعوانه فى هذه الايام ، ويتوعدكم بأن الغد سيتسع لسابق نشاطهم وان الخطر سيحيق بنا فى مقبل الايام .. (ضجة من الاعوان)

رسول الشر ـ (هائجا مائجا وهو يذرع أرض القاعة جيئة وذهوبا) يا للويل ! ... الخطر يحيق بنا نحن ؟ .. حقا انها لسخرية ! ... ومن الذى يقول هذا ؟ .. ذلك الضعيف الاهزل الذى لا حول له ولا قوة ... يا للجرأة !

قبيح ـ هدىء من روعك يا مولاى ، فالامر لا يدعو الى انزعاجك الى هذا الحد ... فلأتدبر الامر انا واخوانى ثم نعرض عليكم ما ينتهى اليه رأينا على الفور !

رسول الشر ـ اذن فلتفعلوا ذلك من فوركم يا « قبيح » فان جرأة ذلك الابله لتكاد تذهب بعقلى ...

قبيح ـ سمعا وطاعة يا مولاى ! (يخرج الاعوان)

المنظر الثالث

(نفس المكان)

(يدخل الاعوان)

رسول الشر ـ الام انتهى رأيكم يا « قبيح » ؟

قبيح ـ لقد رأينا يا مولاى أنه قد يكون من الخير ...

رسول الشر ـ (مقاطعا فى شدة) الخير ! ... أنت تقول « من الخير » يا « قبيح » ؟

قبيح ـ عفوا يا مولاى ! ... أريد أن أقول اننا رأينا انه قد يكون مما يحمل خصمكم العنيد على تنفيذ ما طلبتم اليه ان تتفاهموا معه فى الامر بالحسنى ، (ينظر الاعوان بعضهم الى بعض كأنما يعجبون لزميلهم كيف يطلب الى مولاهم ان يتفاهم بالحسنى !) لعله يقتنع بأن جلاءه عن الارض هو وأعوانه أصبح أمرا لا مناص منه بعد ان لم يبق لهم عمل

يؤدونه فيها ... فاذا فعل ، استطعنا ان نأمن بذلك من عدوان اتباعه علينا ، وان نطمئن الى انه لن يتكرر بعد اليوم ما كانوا يلقوننا به من مظاهر الزراية والسخط ، وما كانوا يصبونه علينا كلما صادفونا ، وعلى مسمع من آذاننا ، من ألفاظ اللعنة والتحقير ، مما لم يعد يتسع له صدر أكثرنا حلماء اعتقادا منهم اننا قد اعتدينا على نواحى اختصاصهم فى هذا الكون ، وأننا حددنا من نشاطهم وجعلنا منهم موضعا للهزء والسخرية بين الناس أجمعين (رسول الشر يتظاهر عند سماع هذا الكلام بالتفكير ويضغط على فكيه غاضبا)

أحد الاعوان ـ لا تغضب يا مولاى ، فنحن لا نحب ...

رسول الشر ـ (مقاطعا) نحب ! ... أنت تقول « نحب » يا « مخيف » ؟

مخيف ـ عفوا يا مولاى ! ... أريد ان أقول اننا لا نريد ان نراك غاضبا ... ان زميلكم رسول الخير ، يا مولاى ، يقضى الآن مع أعوانه أجازة طويلة فى مكان هادىء جميل ، التماسا للراحة من عناء العمل المضنى الطويل الذى قاموا به فى السنين الغابرة .. فياحبذا لو رأيتم ، يا مولاى ، ان تذهبوا اليه هناك لتتفاهموا معه فى الامر ، فتستطيعوا بذلك ان تلتمسوا لنفسكم شيئا من الراحة تستأنفون بعدها نشاطكم بارادة متجددة ، بعد ان تكونوا قد تخلصتم من هذا المنافس العنيد ... (الى اخوانه همسا) ونستطيع نحن بدورنا ان نتخلص ـ ولو الى حين ـ من هذا الرقيب الثقيل الذى لا يكاد يترك لنا برهة قصيرة نستريح فيها !

الاعوان ـ (لزميلهم همسا وهم يحركون رؤوسهم علامة على الموافقة والاستحسان) أجل ! أجل ! لقد تعبنا من العمل ...

وهل بقى شيء فى الأرض لم تصل اليه أيدينا ؟

رسول الشر ـ لقد أعجبنى قولك يا « مخيف » ..

مخيف ـ (يهز رأسه الى أسفل فى حركة مضحكة وهو يتكلم مسرعا) العفو يا مولاى ! ... العفو !

رسول الشر ـ سأذهب اذن الى حيث يقضى ذلك الابله أجازته لاقنعه بالحسنى (ينظر الاعوان الى أنفسهم والدهشة تعلو وجوههم لان مولاهم نفسه يقول انه سيقنع صاحبه بالحسنى !) ... أجل ! وسأذهب اليه بمفردى (الاعوان يتهللون همسا فيما بينهم !) واياكم أن تقصروا أو تغفل عيونكم ... والويل لكم اذا انتم لم تواصلوا أعمالكم بنفس الغيرة التى لمستها فيكم فى السنوات الاخيرة ! ... (الى كبير أعوانه) أسامع أنت يا « قبيح » ؟

قبيح ـ أجل يا مولاى !

رسول الشر ـ قل لهم يعدون العدة لسفرى غدا !

قبيح ـ سمعا وطاعة يا مولاى ! (يخرج)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المنظر الرابع

(يظهر المنظر الاول ورسول الشر قادما)

رسول الخير ـ (الى كبير أعوانه) من القادم الينا يا ترى ؟

جميل ـ يبدو انه رسول الشر يا مولاى ! (الاعوان : يا للعين !)

رسول الخير ـ وفيم عساه ان يكون قادما الينا ؟

جميل ـ نرجو ان يكون خيرا يا مولاى !

رسول الشر ـ (يدخل) السلام عليك يا رسول الخير !

رسول الخير ـ وعليك لعنة الله يا رسول الشر ! ... فيم انت قادم الينا ؟

رسول الشر ـ قدمت لكى أحاول اقناعك بالحسنى (الاعوان يبدون دهشتهم) انه يجب عليك الجلاء انت وأعوانك عن الارض لساعتك (الاعوان يضجون)

رسول الخير ـ (متحديا) وبعد ؟

رسول الشر ـ (مزمجرا) أما زلت مصرا على رأيك ؟

رسول الخير ـ أجل !

رسول الشر ـ حقا ، انك لمكابر عنيد ! (ضجة من الاعوان)

رسول الخير ـ سوف تثبت لك الايام اينا المكابر ، أيها الوقح !

رسول الشر ـ اية أيام تلك ، أيها الابله ؟ (ضجة أخرى من الاعوان ... أحدهم يهم بضربه فيمسكه الآخرون) ... خبرنى : أى شىء فى هذا الوجود تركته لك دون ان تعبث به يدى ؟ أتستطيع ان تنكر ان الناس قد أصبحوا اليوم أقرب الى منهم اليك ؟

« ألا ترى يا صاحبى كيف يعق الولد اباه ويضرب أمه ، وكيف ينكر الوالد ابنه ، وتهجر الام فلذات كبدها ، وكيف يشق الاخ الاصغر عصا الطاعة على أخيه الاكبر ، ويسخر التلميذ من أستاذه ، وكيف يخون الصديق صديقه الحميم فى أعز شىء لديه ؟

« ألا ترى كيف تصدر الزوجة الاوامر الى زوجها فلا يسعه الا ان يطيعها وهو صاغر وكيف تنهر البنت اباها والاخت أخاها الاكبر ، وكيف أصبحت المرأة على العموم هى المسيرة للرجل ، وهى السيدة الآمرة وهو الخادم المطيع ؟

« ألا ترى ، اذن ، انى قلبت لك كل شىء رأسا على عقب ؟

(الاعوان يتهامسون) »

رسول الخير ـ وبعد ، هل لديك من مزيد ؟

رسول الشر ـ ثم ألا ترى الكثير من الحكام ، يا صاحبى ، كيف شغلوا بأنفسهم عن أوطانهم ، والهاهم العرض الزائل عن المجد الخالد ؟

« ثم ألا ترى الكثير ممن عهدت اليهم الامم فى محاسبة الحكام كيف يلتمسون الزلفى عند هؤلاء الحكام ، ثم هم لا يبالون هل أدوا الامانة أم لم يؤدوها ؟

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

« ثم ألا ترى من أنزلتهم الامم من نفسها منزلة الزعامة كيف يعبثون والبلاد من حولهم تحترق ؟ ... ألا تراهم يتخاصمون ويتصالحون ثم يتخاصمون ويتصالحون .. تماما كما يفعل ـ بل كما قد لا يفعل ـ سائر الناس ؟ (الاعوان يتهامسون)

« أفلا تزال بعد هذا ، مصرا على رأيك يا صاحبى ؟ »

رسول الخير ـ أجل ! ... ولو ان ما قلته الآن صدق لا ريب فيه !

رسول الشر ـ حقا ، انك لمكابر عنيد ! (ضجة من الاعوان)

رسول الخير ـ هل لديك يا صاحبى من مزيد ؟

رسول الشر ـ أما رأيت الجار ، يا صاحبى ، كيف يقيم معالم الفرح بجانب مأتم صاحبه ؟ ... أما رأيت كيف يأكل القوى الضعيف ؟

أما رأيت الغنى كيف يقيم الولائم لمن امتلأت بطونهم بكل سائغ شهى مما لذ وطاب ، والناس من حولهم جياع تشرئب اليهم أعناقهم ، فاغرين أفواههم ، فى انتظار فضلة يلقون بها اليهم ؟ (بعض الاعوان يهمسون : أهذا حق يا الهى ؟)

رسول الخير ـ وبعد ، هل من مزيد ؟

رسول الشر ـ أجل يا صاحبى ، فاستمع !

« لقد انقضى ربع قرن من الزمان لم أشهد خلاله منظر الدم حتى أشتهيه ، فظللت أبحث عن غر أنفخ فيه من روحى وأزين له منظر الدم ، ثم أصور له المجد الكاذب وأقنعه بأنه سيصبح وحده الحاكم بأمره على هذا العالم والناس كلهم من حوله عبيد يلتمسون رضاه ... حتى اهتديت أخيرا الى ضالتى ، فما زلت به كما أسلفت حتى أسلت لعابه ، ولم تلبث رأسه ان انتشت بخمر الدم ، فأمسك بعصاه وهوى بها على رأس البشرية الوادعة فأسال منه الدم !

« ألم تشهد يا صاحبى ذلك التخريب الذى لم تره عيناك من قبل ؟

« ألم تسمع يا صاحبى صوت القنابل مما لم تسمعه أذناك من قبل ؟

« ألم تشم يا صاحبى رائحة الغازات الخانقة مما لم تشمه أنفك من قبل ؟

« ألم تر الى الاطفال كيف تيتمت وتشردت ، والى النساء كيف ترملت ، والى الاكباد كيف تفتتت ؟ (بعض الاعوان يبكون)

« ألا ترى يا صاحبى انى نقلت لك الدنيا من حال الى حال ؟ »

رسول الخير ـ وبعد ، هل لديك من مزيد ؟

رسول الشر ـ أجل يا صاحبى ! فهذه الدنيا التى تخوض الآن فى بحار الدم هى الدنيا القديمة ، كما يسميها أهل الارض ... ولكن ألا ترى ان الدنيا الجديدة يا صاحبى ـ كما يسميها أهل الارض أيضا ـ قد هاجت وماجت منذ أيام فى انتظار عصا ذلك الغر المفتون ؟ ... انه يدعونى ، يا صاحبى ، لكى انفخ فيه من روحى مرة أخرى فتنتشى رأسه بخمر الدم من جديد ، ولا يلبث ان يفعل بالدنيا الجديدة ما فعله بالدنيا القديمة !

(الاعوان يتهامسون فيما بينهم : يا للهول !)
« أفبعد هذا لا تزال مصرا على رأيك يا صاحبي ؟ »
رسول الخير ـ أجل ! ... ألا ترى ، أيها الابله ، انك بما فعلت قد مهدت السبيل لحتفك ، وحفرت بيديك الحفرة التي ستواري فيها جثتك ؟
« أما علمت ان الانسان اذا ابتلى بالشره لا يلبث ان تصيبه تخمة شديدة تقضى عليه ؟
« ألا تدري ، أيها الغر ، ان الشر اذا بلغ القمة لا يلبث ان يهوى من هذا الارتفاع الشاهق الذي تقيمه بيديك فيتحطم ذلك الصرح الشامخ الذي تحسبه أرسخ من الطود ، وينهار ذلك البناء الجبار الذي أفنيت في اقامته ، أنت وأعوانك ، زهرة العمر ؟
« ألا تدري ، كذلك ، ان الشر يأكل بعضه بعضا من فرط الشره ، كالنار تأكل نفسها اذا هي لم تجد ما تأكله ؟
« من أجل هذا ، أيها الاحمق ، قد أفسحت الطريق أمامكم لكي تضيفوا شرا الى شر حتى يفيض اناؤكم القذر ، وترفعوا في هذا البناء الفاسد الذي يحمل بين عناصره عوامل انهياره حتى يبلغ الحد الذي لا يلبث معه ان ينهار فوق رؤوسكم ! (الاعوان يتهللون)
« ألا فلتعلم ، أيها الغافل ، ان هذا الهلاك الذي وقعت فيه البشرية أخيرا ان هو الا قصاص عادل لما قدمت يداها ، ستكون فيه أبلغ عظة وأعظم عبرة للاجيال القادمة !
« لقد ذكرت لي ، يا صاحبي ، كيف عاثت يدك بنفوس البشر فلم تدع بينهم شيئا الا أفسدته ، بل لقد قلبت كل شيء رأسا على عقب .. ألا تدري ، أيها الاحمق ، ان السماء انما ترقب أهل الارض بعين ساهرة لا تغفل ولا تنام ، فلما رأت انهم قد فسدت ضمائرهم وتلوثت نفوسهم وتبجحوا ولم يعودوا يعبأون بغضبها ، بعثت اليك أخيرا بذلك الغر المفتون لتنفخ فيه من روحك الخبيثة وتسلطه عليهم فيذيقهم ألوانا من غضب السماء ، لعلهم يفقهون ؟ (الاعوان يتهامسون)
« ألا ترى ، يا صاحبي ، أن النار لا تصهر الحديد الا لتزيده قوة وصلاحية ؟ ... كذلك تصهر أنت البشرية اليوم بنارك الخبيثة لكي أستطيع غدا ان أنفخ فيها من روحي الطيبة من جديد !
« ألا ترى ، كذلك ، ان السحاب حين يتراكم في السماء بعضه فوق بعض حتى يحجب عن البشر نور الشمس لا يلبث بعد ذلك ان ينقشع اذ يتساقط الى الارض خيرا وبركة ، ثم لا يلبث نور الشمس ان يسطع ثانية في كبد السماء ؟
« ألا ترى اذن ، أيها الغبي ، ان ما تعمله اليوم في الارض ان هو الا تمهيد لرسالتي القادمة .. وانني حين تركت لك الحبل على الغارب لكي تعيث انت وأعوانك في الارض فسادا حتى تشبعوا نهمكم ، قد وضعت في أيديكم ذلك المعول الذي سيتحطم به هيكلكم العفن ؟ (الاعوان يبدون موافقتهم على ذلك)
« ألا ترى ، بعد هذا ، ان العالم الجديد سيكون خيرا من هذا العالم ؟

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

« ألا ترى ، كذلك ، لم كنت مصرا على رأيي ، أيها الابله ؟ »

رسول الشر — أجل يا صاحبي ! ... لقد آمنت منذ اليوم ان السماء لا تمكن لي في الارض الا من أجلك أنت .. نعم انت أيها الطبيب ، مثلما يداوي الجسم بالسم لكي يسلم صاحبه !

وسلام الله على أهل الارض ان لم يستمعوا الى بعد اليوم !

(يخرج مودعا بالاحترام)

المنظر الخامس

(يظهر المنظر الثاني)

كبير الاعوان — (مخاطبا مولاه) هل تم الجلاء يا مولاى ؟

رسول الشر — (مطأطئا رأسه) أى جلاء يا « قبيح » ؟

قبيح — (كالمذهول) ألم تقنع رسول الخير ، يا مولاى ، بأن جلاءه عن الارض هو وأعوانه أصبح أمرا واجب التنفيذ ؟

رسول الشر — كلا يا « يا قبيح » ! (الاعوان يبدون دهشتهم فيما بينهم) .... بل انا الذى اقتنعت بأننا سنجلو عن الارض عما قريب (هرج بين الاعوان) ... ان رسول الخير وأعوانه لا يستريحون الآن الا لكى يستأنفوا هجومهم علينا من جديد .. ان ما نعمله الآن في الارض يا « قبيح » ان هو الا تمهيد لعملهم (ضجة بين الاعوان) .. (ملتفتا اليهم في غضب) الا يحكم ما أقول ؟ .. أما أنا فقد آمنت بما سمعت من رسول الخير ، فان شئتم آمنتم مثلي ، والا فاني منكم براء ! (يخرج وحده غاضبا)

قبيح — (الى زملائه) أهكذا تغضبون مولاكم أيها الاخوان ؟

أحد الاعوان — (ثائرا) ألم تسمع ما يقول ؟

قبيح — بلى ! لقد سمعت ما قاله ، واني لمؤمن بما سمعت ! (بعض الاعوان يتهامسون فيما بينهم)

زميل آخر — وأنا كذلك آمنت بما سمعت !

زميل ثالث — وأنا أيضا معكما ...

الزميل الثائر — فلتأخذوني معكم أنا الآخر ! (بقية الاعوان يتلفتون الى بعضهم في حيرة)

بقية الاعوان — ونحن معكم كذلك ...

قبيح — اذن فلنذهب جميعا ، أيها الاخوان ، لكى نبلغ مولانا اننا كذلك بما سمعنا مؤمنون .... (يخرجون)

علي سعد مراد

في موكب المحرومين :

بيـــداء ...!

[الحب يشهد أني انما أغني لك وحدك يا « بيداء » . . . وحسب قلبي عزاء أن يكون أغنية تبدأ منك ولا تنتهى إلا اليك . . . أنت يا من أسعدت روحى بنعيم الحرمان ؟]

« هو »

بيداء !... يا لحن الهدى والطهر فى أعماق قلبي!
يا سر أشواق ، ومعبـــد لهفق ، ومراد حبي
فى صمتك الهادى قلوب الحائرين عبدت ربي !
أهواك يا بيداء ... لكنى أخاف عليك جدبي !

بيداء !... يا مهد الهوى العذرى أهوى فيك ليلى!
أنا لم أكن قيساً ... ولكنى لقيس كنت ظلا !
صاحبته وسبحت فى ملكوته قلباً وعقـــلا
فأخذت عنه الحب تقديساً وتضحية ونبلا !!

بيداء ! . . . يا محراب أوهامى وإلهامى وقدسى
شيعت آمالى اليـك فليتنى شيعت نفسى !
ونسيت عندك يا صفاء الروح حرمانى وتعسى
وحييت للغد مثلما أحيا على الدنيا لأمسى !

يا معبدى!... كم فوق هذا الترب طال بى السجود
والحب دنيا للسعادة ما لها أبداً حدود .. !
أنا إن رجعت اليك يا بيداء طاب لى الوجود
لكن دينك أن حرمانى من الأوهام جود !

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بيداء ! ... هأنذا سكبت على ثراك دمائيه !
ضيعت عمرى فيك لكنى وجدت بقائيه !
سر الحياة هو الفناء ... وأنت سر حياتيه
والجدب يبقى كالخلود له الحياة الثانيه !

أنا فى هواك مشرد الآمال ... لكنى أغنى !
جئنا الى هذا الوجود معاً فكيف كبرت عنى ؟
تسعين أوهام الحياة وفى غد تسعين فنى !
إن كنت منك فأنت يا بيداء - لوتدرين - منى!

ما كنت فى ماضيك إلا فكرة فى الغيب مثلى
ألقت بنا الأقدار فى الدنيا معاً فوصلت قبلى !
وسبقتنى لما تنكر للحياة دمى وعقلى !
هل كان علمك - يا ابنة الأحقاب - إلا بعض جهلى!

يا من بدأت من الفناء ستنتهين الى الخلود !
صانتك كف الله من بطش الردى وأذى اللحود
متعت بالجدب العقيم وإنه بدء الوجود !
والعقم فى دنيا الهوى العذرى غاية كل جود !

هل تذكرين حياتنا الأولى وصحبة مهجتينا ؟ !
أيام كان الغيب يحنو رقة وهوى علينا !
والعقل طفل هدهدته أكفنا فسعى الينا
ودعته ومضيت مسرعة وسرت أنا الهوينا !

أدعوك يا بيداء والأقدار تسخر من دعائى !
أخلقت فى واديك للأشواك تسفك من دمائى ؟
أرجو لها العيش السعيد وترتجى أبداً شقائى
دنيا الطموح!...أنا الذى ضيعت لى دنيا عزائى!

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بيداء ! ... كم بينيك قلب طالما أحببت هدمه !
ما كنت أخشى حرب هذا الدهر لكن خفت سلمه
فالجدب فى دنياى معنى ذقته وعرفت طعمه !
هو نعمة قد ظنها من لم يسعه الحب نقمه !

بيداء ! ... هأنذا أسير مع الحياة الى ترابى !
وغداً سأروى يا ابنة الأوهام خصبك من يبابى !
يا للسعادة فى الشقاء ! ... أليس مابك بعض ما بى ؟
يكفيك يا بيداء أن مصاب روحك من مصابى

بيداء ! ... ما ذقت السعادة فى حياتي غير مره
يوم التقيت بها وكنا فى ضمير الغيب فكره !
يا للهوى من ذرة قدسية هامت بذره !
أنا للشقاء ! ... وإنما هى للسعادة والمسره !

يا ليتنى أدرى بما بيني وبينك من سدود !
أفنيت عمرى فيك أجمعه لأطرح من قيودى
فعرفت فيك حقيقة الدنيا وفلسفة الوجود !
لكننى لما اهتديت فقدت من ولهى حدودى !

من عاش للحرمان لم يحفل بما سكب السحاب
ولقد يصيب المرء فى الدنيا فيطربه العذاب !
شر الهداية ما أضل بك السبيل اليه صاب
فتعال يا حرمان لى ... أنت الحجا وأنا التراب !

بيداء ! ... يا لحن الهدى والطهر فى أعماق قلبى
يا سر أشواقى ومعبد لهفتى ومراد حبي
فى صمتك الهادى قلوب الحائرين عبدت ربى
أهواك يا بيداء لكنى أخاف عليك جدبى !!

محمود السيد شعبان

فى بلاد العربية

رسائل الآنسة جرترود بل

الآنسة جرترود بل (١٨٦٨-١٩٢٦) من الشخصيات الانجليزية المغامرة التىظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين وكان لها فى مختلف نواحى النشاط الدبلوماسى والامبراطورى اثر بعيد

وكانت الآنسة بل فى طفولتها تعشق الكتب اكثر مما تلعب بالدمى • وقضت سنى دراستها فى مطالعات عميقة • وكانت الاولى فى الامتحان النهائى فى اكسفورد ونالت درجتها الجامعية فى التاريخ بتفوق كبير

ثم تعشقت الرحلات ، وكان الشرق الاوسط والشرق الادنى محط آمالها واحلامها ، فقامت بعدة رحلات قبيل الحرب الكبرى درست فيها اللغة العربية ومختلف اللهجات البدوية ، ومرت بالآثار والاطلال دارسة منقبة ، واجتازت الصحارى وحدها - وهى فتاة - فضربت لبنات جنسها مثلا عاليا فى الجراة والبسالة ، وظلت تجوب انحاء الشرق العربى حتى سرت فيها نفحته ونشوته ، فأولعت به وجرى حبه فى عروقها مجرى الدماء ، وقضت بقية حياتها بين احضانه ، ولعبت على مسرحه دورا يعرفه الذين اشتغلوا بالقضية العربية حق المعرفة • لعبت دور المرأة التى ضحت بكل شىء فى سبيل تحقيق آمالها وآمال شعبها الامبراطورية ، واتصلت بكل زعماء العرب وفى طليعتهم المرحوم الملك فيصل بحكم وظيفتها كسكرتيرة شرقية للمندوب السامى البريطانى فى بغداد ، وكان لكتاباتها وتقاريرها وآرائها الشخصية نصيب فى الثورة التى أفضت الى تحرير العرب

ويحدثنا السير برسى كوكس بوصف كونه رئيس المكتب السياسى فى بغداد عن مغامراتها قبيل الحرب العظمى فى ذيل الجزء الثانى من الكتاب الذى نلخصه للقراء فيقول:

« التقيت بجرترود بل لاول مرة فى منزل المرحوم السير رتشموند والليدى ريتشى فى شتاء عام ١٩٠٩ •• وكان السير رتشموند قد هيأ لنا هذه المقابلة ليتيح الفرصة للآنسة بل فتستشيرنى فى تحقيق ما طالما أملت فيه من القيام برحلة توغل فيها فى قلب الجزيرة العربية • وكان هدفها الاول اذ ذاك نجدا عاصمة امارة ابن رشيد • وكانت مهتمة بولوج هذا القطر من احدى الموانىء العربية فى الخليج الفارسى التى يمتد نفوذى اليها كمعتمد سياسى • ولكن كانت العلاقات القبائلية اذ ذاك بين الامارات العربية فى شرق بلاد العرب من السوء بحيث جعلت مثل هذا المشروع مقضيا عليه بالفشل • فنصحتها بالتريث ريثما تتحسن الظروف

« عند ذلك تحول اهتمامها الى الشواطىء الغربية للجزيرة • وفى مطالع ربيع عام ١٩١٠ كانت فى سوريا للمرة الثانية وقامت برحلة استغرقت خمسة اشهر من حلب الى بغداد ، ومن بغداد الى ما بين النهرين ، ثم الى قونيه ، وهى رحلة وصفتها بعد عودتها الى بريطانيا فى كتابها الثانى من كتب رحلاتها الذى طبع فى عام ١٩١١

« وعقب مقابلتنا الاولى باربعة أعوام كانت فى مخيمها بالقرب من دمشق فى ديسمبر عام ١٩١٣ ، وفى هذه المرة نجحت فى التهرب من القيود الرسمية العثمانية وفازت بتصريح سياسى للرحيل الى نجد الشمالية ، وبعد رحلة مليئة بالمغامرات والاحداث عادت سالمة من رحلتها فى مارس عام ١٩١٤ ، عادت وقد حققت احلامها • ولكن ظروف الصحراء القاسية ومتاعبها انهكتها فكانت فى مسيس الحاجة الى الراحة والاستجمام •• »

بهذه الكلمات القليلة يصف السير برسى هذه الرحلات الاولى التى تكلمت عنها جرترود طويلا فى خطاباتها الى ابويها • ولولا ضيق المجال لاعطينا القارىء لمحة من هذه الخطابات التى استغرقنا فى مطالعتها فأنستنا الرحالة الجميلة الباسلة الزمان والمكان وحملتنا معها على اجنحة الخيال الى الصحراء ، الى المخيم ، الى القوافل التى تسيل باعناق مطيها الاباطح ، الى الشروق والغروب فى بحر الرمال ، الى الاطلال التى خلفها ملوك العرب فيما بين الشام والعراق •• ومن خلال كل ذلك تسمو جرترود بأدبها وشاعريتها وتحلق فى اجواء من الفن تطيب بها النفس الشاعرة وتشرد فى آفاق غير الآفاق المعهودة حتى تعود بنا الرحالة الجميلة الباسلة الى المعمور من اقطار الشرق العربى ، ثم الى وطنها وقد نال منها النصب والاجهاد ••

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١٩١٤ — ١٩١٦

تعود مس بل من رحلتها الشاقة عن طريق استانبول وتقضى الصيف فى انجلترا • وعند ما تعلن الحرب الماضية تتنقل فى أنحاء يوركشير وتخطب فى الجماهير فتثبت ان لها موهبة خطابية عجيبة • ثم تخدم فى المستشفيات كممرضة • وتنتقل بناء على رغبة اللورد روبرت سيسل الى بولون حيث تعمل مع غيرها من المتطوعات فى البحث عن الجرحى والمفقودين ، وتنظم للجيش البريطانى هذا الجانب الخطير من اعمال الحرب الانسانية

فى اثناء ذلك كان الدكتور دافيد هوجارث والكولونيل لورانس يعملان فى القاهرة لبعث الثورة العربية • فيريان ان وجود جرترود معهما أمر لا بد منه لالمامها الواسع بالجزيرة العربية • فيطلبانها بالحاح • ومن ثم تلحق بقلم الاستخبارات الانجليزية فى القاهرة

وفى القاهرة تلتقى بلورانس لاول مرة • وتصفه بانه ذكى جدا•وتزور آل ماكماهون وغيرهم ، وتندمج فى المجتمع الانجليزى القاهرى بسرعة

وفى خطاب بتاريخ ٦ ديسمبر سنة ١٩١٥ تقول انهم وكلوا اليها مهمة جمع المعلومات

عن القبائل العربية ، وعن عدد افرادها ، وانسابها : « وهو عمل شاق يكتنفه الغموض ، ويحتاج لعمر باكمله لانجازه .. »

وتقول بتاريخ ١٣ ديسمبر انها تتلقى دروسا فى اللغة العربية لمدة ساعة صباح كل يوم . ثم تذهب الى مقر عملها ماشية ، فتواصل ابحاثها العربية القبائلية . ثم تتغدى، وتعود الى مواصلة ابحاثها حتى الساعة السابعة ..

وفى ٣ يناير : ان ابحاثى القبائلية تأخذ فى التجسم ، وسيتألف منها عند ختامها كتاب محترم جدا ، أو اساس محترم لابحاث تالية .. وانا احب هذا العمل من كل قلبى ، وأرى فيه تسلية كبيرة .. وكأنى - وقد عدت الى مجالى القديم - لا اطيق تركه لحظة واحدة ..

وفى ٢٥ : لقد اتممت كتابى عن القبائل العربية بالشكل الذى يسمح به بقائى هنا الى الآن . وانا اتطلع الى زيادة المعلومات فى رحلتى الى الهند ..

وتغادر القاهرة فعلا فى ٢٨ يناير . ويقول ضابط رآها وهى تحزم حقائبها انه لم ير أحدا من قبل يتحرك بالسرعة التى تتحرك بها مس بل ..

وهل من عجب فى ذلك وهى ابنة الرحلات وفتاة الصحراء التى تتحرك بخفة الظباء

١٩١٦ — ١٩١٧

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.org

وفى الهند تقيم جرترود فى ضيافة قصر نائب الملك اياما تدوس خلالها وسائل الاتصال من اجل القضية العربية بين دلهى والقاهرة ، ودلهى والبصرة . ويقول لها نائب الملك انه يهمه جدا وجودها فى البصرة لتعاون قلم الاستخبارات هناك .. ويسمح لها رئيس قلم الارشيف بالاطلاع على جميع ملفات المسائل العربية ، فتقرأها وتستفيد منها كثيرا . وتقابل جميع الهنود المهتمين بشئون العرب ، وتقتل معهم مقترحاتهم ومعلوماتهم بحثا ، « حتى يضيقوا بى ذرعا وأضيق بهم » .

ثم تكتب الى الكابتن هول فى القاهرة بتاريخ ٢٠ فبراير فتقول : « انى ما زلت اذكر كيف وضعت اصبعك على خريطة العراق .. على ركن بغداد منها ، وقولك لى أن الظفر النهائى فى الحرب يتوقف على ما سنصنعه هناك .. فانت بحق أحد اولئك الذين يقدرون جسامة الاعمال التى تنتظرنا هناك .. »

ومن كاراتشى تقول فى ٢٦ فبراير أنها انتخبت كأحد رؤساء تحرير النشرة العربية التى تصدر فى سملا

ومن هناك تسافر الى البصرة . الى أرض أحلامها .. فتقول انه يحرك قلبها ويهز أوتاره أن تعود الى تلك البلاد ، ويسرها أن تدخلها من طريق الهند الذى لم تطرقه من قبل .. ونحن فى هذا الصباح نتهادى على صفحات النهر من خلال مناظر مألوفة من غابات النخيل والاكواخ العربية ، وأشجار المشمش المزهرة تملأ المكان وتطل من

الحدائق التى تسورها جدران من الطين ٠٠ فكم أنا سعيدة برؤية ذلك كله مرة أخرى ! »

ومن البصرة تقول بتاريخ ٩ مارس: « لقد شرعت أبوب المعلومات القبائلية الثمينة التى عثرت عليها فى أرشيف قلم الاستخبارات السرية . وأعتقد ان فى الامكان اضافة الشىء الكثير الى ما سبق جمعه منها ٠ ان هذا العمل مسل للغاية ٠ وان معلوماتى السابقة - برغم قلتها - تفيدنى جدا فى كثير من الاحيان، وتكون بمثابة المراجعة لهذه المعلومات والاطار لما سنضيفه اليها ٠ وليس فى طوقى أن أصف لك كم هو مثير للعواطف ان يساهم المرء فى بعث ادارة جديدة لعصر جديد »

وبتاريخ ٩ ابريل : « هذا الاسبوع كان مليئا بالنشاط لظهور مستر لورانس الذى أوفدته القيادة الينا من القاهرة كضابط استخبارات ٠ ولقد تكلمنا طويلا ووضعنا القواعد لحكومة أسمى تحكم العالم ٠٠ وسيرحل عنا اليوم مصعدا مع النهر الى حيث المعركة دائرة الرحى فى هذه الايام (تقصد المعارك بين الانجليز والترك)

« وقد أوشكت أتمم كتابى عن القبائل ٠ بيد انى أحب ان أؤخر كتابته بشكله النهائى ريثما أسافر الى النصارية فانى أعلم ان فيها من المعلومات ما قد أنقح به كتابى ٠ وسفرى الى هناك معلق بنتيجة معركة « كوت » (كوت العمارة)

وفى خطابها المؤرخ ٢٧ ابريل ترى جرترود تنقد الخطط البريطانية نقدا مرا وتقول: « ومن الناحية السياسية أجدنا قد اندفعنا فى الحرب ، مهملين كعادتنا وضع خطة سياسية معقولة ٠ فلقد عاملنا أرض الجزيرة كما لو كانت عالما مستقلا بذاته بدلا من معاملتها كقطر من الاقطار العربية له سياسة مرتبطة أوثق ارتباط بالمسألة العربية فى أوسع معانيها ، تلك المسألة التى تتلمس لها وجها جديدا كلما نظرت اليها من ركن جديد ، والتى هى برغم ذلك وحدة لا انفصام لها ٠٠ ان وضع السياسة العربية ورسم الخطط لها كان يجب ان يتم فى انجلترا لا فى الشرق ٠ ولكن لم يكن فى بلادنا من يصلح لوضع هذه السياسة ، فترك الامر لسلطاتنا فى مصر التى فرضت خططها ومشروعاتها فرضا برغم الاعتراضات التى وجهت اليها من الهند ومن لندن »

وبتاريخ ١٤ مايو : « ٠٠ وآخر ما وكل الى أمره - وأهمه - هو ملء الثغرة الوعرة التى فتحت فاها بين العراق ومصر ٠٠ وقد عهد الى فى ملء هذه الثغرة ٠٠

« أنا أعرف هؤلاء العرب حق المعرفة ٠ فلقد اتصلت بهم بطريقة لا تتاح للرجال الرسميين ، وهذه الصداقة عن قرب هى التى تجعل لوجودى هنا أهمية خاصة ٠٠

« وقد وفد الينا أخيرا جورج لويد (المأسوف عليه اللورد لويد) ليعمل مع السير برسى ولوجوده أثر كبير فى حياتى هنا ٠ وكم أتمنى أن تمكنه مشاغله من ركوب الخيل معى فى الصباح ، فنتبادل الحديث النافع ويقدم كل منا خدماته للآخر ٠٠

« وانى أعتقد انى سألتحق بمكتب السير برسى اذا كنت سأكون حلقة الاتصال مع القاهرة ٠ وسيكون عملى سياسيا وحربيا فى آن واحد ٠٠

« وانا الآن أهم بالشروع في الاتصال بابن رشيد الذى نعتقد ان لبقائه على الحياد نفعا كبيرا لنا .. وهو على مسيرة أربعة أيام من هنا.وقد تحمس السير برسى لهذا الاتصال»

وفى ٢٥ يونية : « سيصدر منشور دورى بالحاقى بالقوة الهندية حرف « د » . وأعتقد انهم سيعطوننى مرتبا . ولكنى لن ألبس البذلة الرسمية لحسن الحظ !

« أخبار هذا الاسبوع كلها من مكة .. وهى مهمة جدا! .. نعم انه يجب علينا ان نهزم الجيش التركى قبل ان يقع حادث آخر خطير .. بيد ان فى ثورة الارض المقدسة ربحا معنويا وسياسيا جسيما .. »

وفى ١٥ يولية : « ان الصعوبة الكبرى التى نرزح تحتها هنا هى اننا لا ندري ـ ولن ندرى حتى تضع الحرب أوزارها ـ ماذا سنصنع فى هذا القطر .. ونحن نقف دائما فى مواجهة هذه المشكلة المحيرة : أتستطيع ان تقنع الناس بالوقوف فى صفك الآن وأنت غير واثق من أنك ستقف فى صفهم فى النهاية .. ؟ »

ثم فى ١١ أغسطس : « زارنا أمس فى المكتب السياسى رجل مسل للغاية..انه بدوى يعالج الابل وله شهرة واسعة ترامت الى من شمالى البلاد العربية وجنوبها . وهو يعرف كل رجل فى الصحراء ، وسكان الصحراء كلهم يعرفونه . وفى وسعه ان ينتقل حيثما شاء وهو آمن على حياته . وقد تبادلت معه أحاديث شائقة جدا عن الصحراء .. ان رجلا هذه صفاته يصلح جدا لنقل الاخبار واشاعتها وحمل الرسائل ..

« ولقد بدأت أعتقد ان حكم الترك لما بين النهرين قد أوشك على النهاية .. فالحكومة التركية قد تقلص ظلها فى كل مكان الا بغداد وبعض المدائن الاخرى

وبتاريخ ١٩ أغسطس : « كلفونى فى هذا الاسبوع بكتابة تقرير عن مسقط حيث الحالة السياسية دقيقة .. وهذا هو نوع العمل الذى أقوم به هنا بجمعى المعلومات عن القبائل من العرب الذين يفدون علينا لزيارتنا .. »

سقوط بغداد

ومن مطالع عام ١٩١٧ تتحدث جرترود فى خطاباتها عن الجهود الاخيرة التى بذلت فى سبيل القضية العربية . فتقول بتاريخ ٢ مارس : « لقد كدنا نحصر الترك حصرا تاما فى هذه المرة . ولكنى لا أدرى الى أى حد هم منهزمون.فهم اذا قرروا الدفاع عن بغداد فما أظن اننا سنتقدم بعد ذلك الى الامام ، فطريق مواصلاتنا أصبح طويلا جدا . وعلى كل حال فان ما قمنا به الى الآن يكفى لتغيير دفة الحوادث . ثم اننا نتوقع تطورات فى جهات أخرى

« والتهانى تنهال علينا من البصرة . ولكنى لست أعرف المغزى الحقيقى لمعظمها .. أما فى الشمال فانا واثقة من أن الذين انضموا الينا سيغتبطون بنا حقا ، فسيجدون فى هذا الانضمام أمنا لم يكونوا بالغيه من قبل . واما البقية من الذين لم ينضموا الينا الى

الآن فسيراودهم الشك فى أنهم قد عقدوا آمالهم على الجواد الجريح ••• وانا شخصيا أميل الى الاعتقاد بأن الترك لن يدافعوا عن بغداد طويلا اذا كنا سنشدد عليهم النكير •• »

وفى ١٠ مارس : « نحن الآن على أحر من الجمر فى انتظار أنباء دخولنا بغداد •• وقد تلقيت اليوم رسالة من السير برسى فى جبهة القتال كلها أمل ويقين فى النصر ••

« ان بغداد هذه سنجعل منها مركزا عظيما للمدنية العربية ، والرخاء العربى ••. تلك رسالتى التى لا تغيب عن عينى قط ! »

١٧ مارس : « لقد دخلنا بغداد من أسبوع •• وذهبت لزيارة الجرحى من الترك •• وقسرت نفسى على تكلم التركية التى لم أتكلمها منذ سبع سنوات• ففرح الجرحى لسماع كلمات قليلة من التركية أخاطبهم بها •• وأخيرا •• ها هم أولاء فلاحو الاناضول ذوو الوجوه المستديرة •• لقد كدت أضحك ثم كدت أبكى لمرآهم •• »

مدينة الورد والتهانى

ومن بغداد تقول جرترود فى ٢٠ ابريل : « بغداد مدينة الورد والتهانى •• والعرب فيها فرحون من صميم قلوبهم لتحررهم من الترك •• »

ثم فى ٢٧ ابريل : « انى أقوم بكل عمل أخفف به عن كاهل السير برسى المثقل • فأنا التى تستقبل رجال الدين الذين لا حصر لهم ، وانا التى تفتح الباب دائما لشيوخ القبائل ولرسل الصحراء الذين اتلقى رسالاتهم وأبعث بخلاصاتها الى السير برسى •• وبعد كل ذلك لدى عملى الاصيل ، وهو جمع المعلومات وترتيبها •• ولقد تجمعت خرائطى وكشوفى القبائلية ، وسأقدم الى ضباطنا السياسيين غدا البيان الضخم الاول الحاوى للمعلومات الموثوق بها عن رجالات بغداد البارزين •• »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويزورها « فهد بك » شيخ العمارة فتقول ان زيارته هى حادث الاسبوع العظيم •• وانها تسعى لديه حتى « يحرق زوارقه وسفنه ويأتى الينا » على حد تعبيرها •• وبتاريخ أول يونية تقول: « لقد عقدنا مجلسا معه ذات صباح•وفى ختام حديثه قال بصدد وصف التأثير العظيم الذى أحدثه أحد خطاباتى اليه من البصرة فى الخريف الماضى : وعندئذ استدعيت شيوخ عشيرتى ، وتلوت عليهم خطابك (مخاطبا اياها) ، ثم قلت لهم : أيها المشائخ ! ان هذه امرأة •• فكيف يكون رجالهم وهذه حال نسائهم ؟! »

بعد ذلك تتحدث جرترود طويلا عن بغداد وجهود الانجليز المختلفة لترسيخ أقدامهم فى العراق • وتقول أنها اقترحت على السير برسى اصدار جريدة عربية تعبر عن آمال العرب فى عهدهم الجديد • فوافق السير برسى على الاقتراح • وعين المستر فيلبى رئيسا لتحرير الجريدة التى سميت « العربى » ، وعهد الى جماعة من الكتاب العرب فى تحرير مختلف أبوابها • ثم عهد فى رياسة التحرير الى جرترود نفسها فراحت تعمل على النهوض بجريدتها المحبوبة واهتمت بأ نيكون لها مراسلون فى مختلف أنحاء العراق ،

وعهدت الى الاب انستاس (الكرملي ؟) في مراجعة المقالات قبل نشرها رغبة منها في النهوض بالمستوى الادبي للجريدة

ثم تتكلم في رسائلها التالية عن مختلف مراحل التنظيم الاداري الذي وضع للعراق . وتقول ان من رأيها ان يقوم النظام الاداري كله على أساس قبائلي ، فالعراق ما هو الا قبائل بعضها ما يزال على بداوته والبعض الآخر متحضر ولكن له قدما راسخة في البادية . وحتى أهل بغداد أنفسهم لا ينسون أن أنسابهم وعشيرتهم ما يزالون في البوادي فتراهم يتعمون بالحضر ويتذكرون دائما أصولهم البدوية

وما تبقى من الخطابات كله منصب على العراق في عهده الجديد . وانك لترى أصبع جرترود على كل وتر من أوتار العراق الحساسة . فهي دائما أبدا مستودع أسرار العرب رجالا ونساء ، وهي في كل مكان باحثة منقبة عن الآثار متحرية أنساب القبائل وعاداتها وحلها وترحالها الى حيث الماء والعشب ، وهي تدعو العراقيين الى الولائم وحفلات الشاي وتخطب فيهم ممجدة العرب والعروبة بلسان عربي فصيح .. وهي بعد كل ذلك لا تنسى المرأة العربية وتحاول جهدها ان ترسل الى خدرها قبسا من نور المدنية الغربية الحديثة كأن تدعو عقيلات بغداد الى حفلة سينمائية خاصة يرين فيها السينما لاول مرة في حياتهن .. أو تجمعهن بمناسبة افتتاح مدرسة البنات الاولى في بغداد في ٢٥ يناير سنة ١٩٢٠ وتحضهن على تعليم بناتهن وهن غير مصدقات آذانهن من فرط الدهشة ..

***

وأخيرا .. ها هو العراق يفاجأ بعهد انتداب بدل الاستقلال الموعود . فتقوم فيه حركة وطنية من دعاة الاستقلال . ويقع ما كانت جرترود تخشاه من أول يوم وفدت فيه الى العراق . ولكنها تواجه الموقف بشجاعتها المعهودة . وتتحدث عن ضخامة العمل الذي تولاه الانجليز في العراق ، وتقول ان تحويل العراق المحكوم حكما عسكريا الى دولة مستقلة لا يتم في طرفة عين . وترجو في رسالتها المؤرخة ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٢٠ « ان يحمل السير برسي أهل العراق مسئوليات الحكم بأوسع معانيها . فبذلك وحده يفهم العراقيون ان الحكم ليس من هينات الامور ! »

تلخيص : س . م . ث .



الحب والموت

بقلم الاستاذ عبد الرحمن بدوى

مدرس الفلسفة بجامعة فؤاد الأول

تناول الاستاذ عبد الرحمن بدوى هذا الموضوع الطريف وهو أحد موضوعات رسالته « مشكلة الموت » التى تقدم بها لشهادة الماجستير . وقد عرض فيه حضرته بعض آراء الفلاسفة والقديسين الافرنج فقط. ونحن نقول هنا ان لفلاسفة العرب كابن حزم الاندلسى وابن الجوزيه وغيرهما آراء وكتبا فى موضوع الحب وفلسفة الحب ، وفى الحب والموت

« المحرر »

لست أدرى ما العلة فى هذا الارتباط الوثيق الذى أحسست به دائماً بين الحب والموت منذ اللحظة الاولى التى بدأ فيها يمازج تجاربى الحية شيء من الشعور . وانما الذى أعلمه حق العلم أنى لا أكاد أتصور أحدهما دون الآخر ، ولا أستطيع أن أحيا تجربة الحب فى نفسى دون أن أحيا فى الآن نفسه تجربة الموت ، ان كان ثمة للموت تجربة .

ألأن أعمق تجربة للحب عانيتها طوال حياتى قد قدر لموضوعها أن يغتاله الموت ، والتجربة لما تبلغ ظهيرتها بل ولا ضحاها ؟ أم لأن اللحظة العليا التى قارب الشعور بالحب فيها أن يشرف على أوجه كنت أسمع فى إبانها أنين الناقوس الناعى يتردد قوياً عميقاً فى هذا الجو السحرى الغريب الذى انتشر فوق الوديان والروابى الحالمة فى شعاع البدر على أكناف مدينة بيروجا ؟

هكذا ساءلت نفسى ، ثم عييت عن الجواب . فذهبت ألتمسه لدى الشعراء فى أول الامر . ولكنى وجدتهم يعانون ما أعانى من حيرة وقلق ، وجدتهم يؤكدون الصلة بين الحب والموت ، بل يقولون بالاتحاد التام بين الاثنين ، ولكنهم كعادتهم دائماً يؤكدون ولا يفسرون ، لأنهم يحسون ولا يدركون ، ويجدون ولا يتبينون . رأيت نوفالس ، ذلك الشهاب الحزين الذى مر سريعاً فى سماء الآلام الانسانية ، يقول إن الحب لا يكون عذباً فى شىء قدر ما يكون فى الموت ، وان الموت بالنسبة الى من يحب ليلة زفاف وسر مملوء بأعذب الغرائب والاسرار ، لأنه زواج يهبنا رفيقة الليل . ورأيت ليوپردى ، تلك النسمة المعذبة الاسيانة فى ناي الامل اليائس ، يلح فى التوكيد ويحاول أيضاً التفسير ، فى شىء من القلق الخصب المخضل بالدموع ، ليشيد بهذين الاخوين اللذين ولدهما القدر توأمين . فجعل أحدهما ، وهو الحب ، خيراً ايجابياً عنه ينشأ أسمى

ما فى الوجود من نعيم ، وجعل من الموت خيراً هو الآخر ، خيراً سلبياً من شأنه أن يمحو ما فى الوجود من شقاء وعذاب . فهل يكون اشتراكهما فى هذه الصفة ، وهى أن كليهما خير ، العلة فى هذه الرابطة الدموية ؟ كلا ، فهذا الاشتراك السطحى لايمكن أن يفسر هذا الارتباط العميق . لهذا يبدأ ليوپردى بتحليل هذا الارتباط من الناحية النفسية فيقول إن المشاهد أنه حينما تغزو القلب عاطفة حب عميقة تنشأ فى الآن نفسه رغبة رخية مريضة فى الموت . ثم يتساءل عن العلة فى هذا الارتباط الثابت بيقين من الناحية النفسية . فيقول : لعل العلة أن الوجود يبدو حينئذ مقفراً وكأنه العدم اذا لم يعمره الحب العميق ، فينشد المرء الحب مدفوعاً بهذه الصورة الجديدة للوجود ، ولكنه لا يستطيع أن يجد هذا النوع من الحب العميق الشامل ، فيعتريه القلق ، ويلح القلق كلما ألحت الرغبة فى الحب العميق المطلق ، فيكون فى ذلك مصدراً للجزع والعذاب لا ينقطع الا بالفناء التام ، اذ لا راحة الا فيه ، وهكذا ينتهى الشعور بالحب الى نشدان للموت

ولكن هذا التحليل ، على الرغم من صدق الوصف ، لا يستطيع أن يقنع ، لأنه يجعل من الموت وسيلة للقضاء على الحب ، ولا يحاول أن يجعل من الموت والحب شيئين إيجابيين تقتضيهما طبيعة الوجود من حيث هو وجود . انما الحب هنا كالداء المستعصى الباعث على أشد أنواع الايلام ، فلا يستطيع صاحبه التخلص منه الا بالموت . وحب هذا شأنه ليس جديراً مطلقاً أن ينعت بأنه خير أو شبه خير . فلأدع الشعراء اذن لأنهم يحسنون الشعور ، ولا يحسنون تحليل الشعور ، ولأعرج على المتصوفين

وهنا أجد القديسة ترزا تتغنى بالصلة بين الحب والموت فى نبرات حادة وقعتها على أوتار قلب ملتهب بنار الحب الالهى وفى صورة أخاذة زاهية الاضواء حسية الالوان : « ما أقوى هذا الحب الذى هز كل كيانى ، هلمى أيتها الحياة فغادريني ! انى أريد أن أفقدك لكى أكسبك ، فهذا مابقى فى مقدورى على ما أنا عليه من ضعف . تعال الى اذن ، أيها الموت ، عذباً رقيقاً كالنسيم ، لأنى أموت من كونى لا أموت » . انها قد اتحدت بالله وكان الحب الذى جمع بينها وبين الله قوياً حاراً ، حتى أصبح الله لها أسيراً بينما أصبح قلبها طليقاً . ولكن هذا الشعور يملأ نفسها عذاباً ، إذ كيف تتصور الله سجيناً فى روحها . فتنشد الموت ، لأن فيه الخلاص من العذاب بالنسبة الى نفسها ، ومن الاسر بالنسبة الى الله . فالحب الالهى اذن يتعشق الموت كى يتحقق الاتحاد الكامل بين المحب والمحبوب ، فينعم الاثنان بالوحدة المطلقة فى حياة أبدية

وهذه الفكرة عينها ، معبراً عنها فى لغة أقرب الى الانسانية ، هى التى تحدث عنها جيته فى قصيدة « الحنين السعيد » حين قال : « فى قشعريرة ليالى الحب ، تلك القشعريرة التى ولدتك وفيها أنت تلد ، يغزوك شعور غامض غريب ، حين تضىء الشمعة الوديعة الهادئة . حينئذ لا تظل غارقاً فى ظلال الظلام الظليلة ، وانما تمزق فؤادك رغبة جديدة عنيفة ، ونزعة قوية الى اتحاد

أعلى وامتزاج سام ، ولن يعوقك البعد مهما طال ، بل ستأتى سريعاً طائراً قد أخذك السحر ، فتعشق النور ، وأخيراً تحترق كما تحترق الفراشة . وما لم تفهم هذا الموت والصيرورة ، ستظل ضيفاً مجهولا معتما على هذه الارض المظلمة » . فهنا يتحدث جيته عن الحب والموت فى لغة صوفية ، ولكن معناها انسانى . لأن هذا الحب الذى يدفع الى الموت . وهذا الموت الذى يرفع الى درجة أعلى ، انما هو موت انسانى وحب انسانى : فهنا شوق الى السمو ، والسمو لا يتحقق الا بافناء الحالة الراهنة والعلو عليها الى حالة أسمى وأرفع ، ويستمر الانسان على هذا النحو يحن الى ما هو أسمى مصعداً فى سلم العلاء ، وكل صورة يعلو اليها تقتضى من أجل تحققها أن تتحطم الصورة السابقة عليها

فالمعنى العميق فى هذه القصيدة انما يفسر أوضح تفسير على أساس نظرية الحياة عند زمل . فالحياة عند هذا الأخير فى علو على نفسها باستمرار ، لأن الحياة تقتضى الحياة وتقتضى أكثر من الحياة : أعنى انها تصبو الى تحقيق صورة ، ولكنها لا تستطيع الوقوف عند هذه الصورة ، بل تنزع دائماً الى اتخاذ صورة أعلى من تلك الصورة ، فتضطر الى تحطيم الصورة الاولى لكى تضع مكانها الصورة الجديدة ، وهذا هو الموت . فكأن الحياة إذن تعشق الموت ، لأن بالموت علاءها ، وهذا الموت باطن فيها ، لأن الحياة انما تعلو على نفسها ، وكأن الحب والموت مظهران مختلفان لعملية واحدة ، وهى عملية علاء الحياة على نفسها ، أو الصيرورة كما سماها جيته فى هذه القصيدة . ومن هنا نرى أن الحياة والموت عند جيته ليسا صوفيين تمام الصوفية ، بل الأدق أن يقال انفيهما مزيجاً من الالوهية والانسانية

وثمة تصوير آخر للصلة بين الحب والموت عند الصوفية نراه عند القديس يوحنا الصليبى ، فنجده يربط بين الاثنين على أساس فكرة « الليلة المظلمة » ، ويعنى بها الحالة التى توجد فيها النفس أثناء العشق الالهى وهى حالة تراوح بين الخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة ، والقلق والطمأنينة ، والغيبة والمشاهدة . والقبض والبسط ، وتنتهى إلى الحالة التى يسميها المتصوفة عندنا باسم الصعق والمحو والطمس . وفيها يكون الشعور بالعشق بالغاً أوجه ، كما تكون الرغبة فى الموت على أشدها ، لان الموت هو الخلاص النهائى المفضى من القلق الى الطمأنينة المنتهى الى الاتحاد التام بعد القضاء على كل الاحوال المتعارضة . والمهم فى هذا التصوير انه يشبه الحب بالليلة المظلمة أو يقول عن الحب انه لا يتحقق بكماله إلا فى الليلة المظلمة ، والليلة المظلمة معناها هنا الموت ، فالحب إذن يقتضى بطبيعته الموت

وقد صدق توماس مان فى بحثه الدقيق الذى كتبه عن ڤجنر حينما أشار الى الدور الخطير الذى تلعبه فكرة « الليل » فى نظرية الحب والموت عند ڤجنر . ولكنه لم يستطع أن يضع يده على المصدر الاصلى الذى استقى منه ڤجنر هذه الفكرة . فانه ذكر أن فجنر لابد وأن يكون قد أخذها

عن قصة « لوسنده » لفريدرش شليجل ، وراح يبين ما هنالك من تشابه كبير بين ما في قصته لوسنده هذه وبين ما فى أوبرا ترستان وايزولد لفجنر . وقد يكون ڤجنر قد أخذها عن شليجل ، ولكن المصدر الأصلى للاثنين هو على كل حال فكرة « الليلة المظلمة » عند القديس يوحنا الصليبي ومن أخذها عنه من المتصوفة المسيحيين . ونميل نحن الى أن نقول إن ڤجنر أخذها مباشرة عن الصوفية ، لان الروح الصوفية تسود هذه الاوبرا كما تسود أوبرا برسيفال التى كتبت فى نفس الدور الاخير الذى كتبت فيه أوبرا ترستان . وعلى كل حال ، فان ڤجنر فى الفصل الثانى من أوبرا ترستان وايزولد يقدم لنا حواراً رائعاً يجرى بين ترستان وإيزولد : فيه يتحدث العاشقان عن الحب والموت أعمق الحديث ، فيطلبان إلى الموت أن يزيل هذا الحرف « و » الذى لا يزال يفصل بين ترستان «و» ايزولد كيما يستطيع الاثنان أن يعيشا متحدين الى الابد دون انتهاء ، ودون استيقاظ ، ودون آلام وقلق لا نهاية له ، قد ضمهم الحب فى داخله ، فأصبح كل منهما للآخر ، ولا يحييان إلا بالحب ومن أجل الحب ، ألا فليأت لهما الموت العذب كي يتخلصا نهائياً من النهار ، وينعما أبديا بالليل ، ففي الليل وحده يكون الحب الابدى

ولكن كيف يمكن للعاشقين أن يموتا ؟ أو لم يصبحا بكل كيانيهما حباً ، وحباً فحسب ؟ وهل يمكن لمثل هذا الحب أن يموت ؟ وهما إن أرادا الموت فهل يمكن أن يموت الحب الذى يكون حقيقتهما وبه وجودهما ؟ كلا ، إن من استحال الى حب خالص غير قابل أن يموت ، لأنه ليس فيه شىء إلا وقد مات فى الحب . وهكذا « الموت فى الحب » يكون مقصداً للحن من أروع الالحان الموسيقية التى عرفتها الانسانية ، إن لم يكن أروعها جميعا

وعلى الرغم مما هنالك من تشابه كبير بين « الليلة المظلمة » عند القديس يوحنا الصليبي وبين « لليل » هنا عند ڤجنر ، إلا أن ثمة عناصر أخرى أثرت فى تفكير ڤجنر كان من شأنها أن تغير من فكرة « الليل » وبالتالى من فكرة الحب فأصبح عنده شيئاً جمع بين الجانب الروحى الخالص والجانب الحسى الخالص كذلك . لان ڤجنر وقع هنا تحت تأثير شوبنهور الى جانب تأثره بالتصوف المسيحى ، وشوبنهور لا يعرف من الحب إلا جانبه الجنسى ، ولا يرى له من دافع غير إرادة الحياة . واذا فسرنا الحب هذا التفسير ، وحاولنا أن نفهم الصلة بين الحب والموت ، قلنا ان الحب هنا معناه إرادة الحياة التى لا يمكن أن تقف بالموت ، ولكنها على العكس من ذلك تجد نفسها فيه وقد تحررت من كل قيود الفردانية واقتربت من المطلق كما يقول توماس مان . لأن الحب هنا يدعو الى الموت وبالموت تسقط الفردية وتبقى إرادة الحياة ، هذا المطلق ، فكأن الموت إذن وسيلة الى تحقيق ارادة الحياة خالصة من كل فردية ، أى فى أعلى صورها ومظاهر وجودها . ولكننا لا نستطيع الاخذ بهذا التفسير وحده ، لانه لا يعمل حساباً لفكرة الليل هنا ، وانما نميل الى الوقوف موقفاً وسطاً بين التفسير الروحى الخالص ، والتفسير الارادى الحسى الخالص فالحق أن ڤجنر لم

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

يكن متأثراً في عرضه لنظرية الحب والموت هنا بشوبنهور وحده ، ولا بالتصوف المسيحي وحده ، وانما كان متأثراً بالاثنين فجاءت نظريته مزيجا من كلا الموقفين

ومن هذا كله نستطيع أن نستخلص أن الصلة بين الحب والموت يمكن أن تفسر تفسيرين : أحدهما تفسير صوفي خالص يقوم على أساس فكرة الاتحاد بين المحب والمحبوب ، والآخر انساني خالص يقوم على أساس فكرة الصيرورة والتطور الانساني المستمر في الفرد بالنسبة الى نفسه أو الفرد بالنسبة الى النوع ، والدافع في الحالة الاولى هو الوجد المكون للتجربة الصوفية ، وفي الحالة الثانية هو النزوع الى السمو المكون للتجربة الانسانية . أما المزاج الروحي المهيء لكلا النوعين من التجربة فهو وجدان الليل المقابل لقانون النهار : والأول هو المزاج الذي تسوده العاطفة والجانب العاطفي في الروح ، وهو الاقدر على ادراك أسرار الوجود ومعميات الحياة ، لانه أقرب الى الينبوع الذي منه يستمد الوجود قواه ، والثاني هو المزاج الذي يسيطر فيه العقل النظري بأحكامه وقوانينه ويتعلق بالجانب الآلي الواضح من الوجود

ويخيل الينا أن كلا التفسيرين غير كاف : لأن التفسير الاول تفسير نفساني ، والتفسير الآخر تفسير أخلاقي ، ويبقى هناك تفسير ثالث لم يقل به أحد بعد ، وهو في نظرنا نحن التفسير الحقيقي الاصلي الذي يجب أن يسبق كل تفسير ، لأن كل تفسير آخر يتوقف عليه ، ونعني به التفسير الوجودي

وهذا التفسير الثالث الجديد هو تفسير يقوم على أساس فكرة الزمان . فان الشعور بالزمان ، وهو مصدر الادراك هنا ، يبلغ أقصى درجة من السعة في ساعة الحب ، بل لا تكاد توجد لحظة أخرى فيها يبلغ عمق الشعور ما يبلغه في لحظة الحب العليا . والشعور بالزمان ، إن بطوله أو بقصره ، هو شعور في الآن نفسه بالفناء ، لأن الزمان جوهره الفناء وعلة كل فناء ، فاذا كان الشعور بالزمان يبلغ أوجه في الحب ، فمعنى هذا أيضا ان الشعور بالموت يبلغ أقصاه في الحب . ومن هنا ارتبط الموت برباط الحب أوثق ارتباط . وان لنا في تجارب الشعراء لشواهد صادقة كل الصدق سواء قالوا مع امرىء القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل   بصبح وما الاصباح منك بأمثل

أو قالوا مع عمر بن أبي ربيعة :

فيا لك من ليل تقاصر طوله   وما كان ليلى قبل ذلك يقصر

عبد الرحمن بدوي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قصة البحار بيرى

امريكى يكتشف اليابان

منذ مائة عام كانت اليابان تجهل العالم

كانت سفن امريكا تطوف فى بحار الصين تلتمس فيها أسواقا تستورد منها وتصدر اليها صنوفا من نتاج زراعتها وصناعتها • وكانت هذه السفن تتسابق الى استرضاء تجار هذه الاسواق وأهليها بما تحمله لهم من الهدايا وتبذله من العطايا • وكذلك كانت سفن أوربا تفد الى هذه البحار القصية فى أطراف الارض ، ثم تعود الى موانيها مثقلة بأحمال من نسيج الحرير وأوانى الخزف والنحاس وصنوف الشاى والتوابل وغيرها مما مهر أهل الصين فى انتاجه • وكانت هذه السفن الآتية من أقاصى أوربا وامريكا تجنح فى اثناء رحلاتها الى بعض الموانىء تصيب منها زادا وراحة لبحارتها ، وتبادل أهلها عروض التجارة ، فكانت تلقى فى كل ميناء ما تريد من اكرام وفادتها واحسان مثواها ، ما عدا بلدا واحدا كان القوم يلقون فيها كثيرا من الصد والجفوة والاذى

ففى وسط هذه البحار كانت تمتد جزائر اليابان التى تروى القصص عن جفوتها لمن يرسو على شواطئها من الضيوف • فكثيرا ما كان يلجأ البحارة الى هذه الشواطىء اذا شتتهم العواصف فى أرجاء الماء ، أو نفد كل ما كان معهم من الطعام والشراب ، فكان أهل هذه الجزر المجهولة يردون ضيوفهم الى البحر مطرودين ، فيستقلون سفنهم الى حيث يتلمسون الامن والزاد فى شواطىء الصين وجزر الفلبين • أما من يباح لهم أن يقيموا فى هذه الجزر فترة من الوقت ريثما تتيسر لهم سفينة تعود بهم الى بلادهم ، فكانوا يقصون أغرب القصص عما فى هذه الجزر من اسباب الحضارة الفخمة المنظمة ، كما يقصون ما هو أدعى الى العجب عن قسوة هؤلاء الناس فى معاملة من ينزلون بهم ضيوفا • فقد كانوا يزجون بهم فى السجن طويلا ، ثم يرسلونهم من حبسهم الى ميناء نجاساكى حيث أبيح لسفينة هولندية أن تأتى مرة فى كل عام لتنقل هؤلاء الناس الى الصين أو الى جاوة • وكذلك كانوا يروون عجبا عما يعانيه المسيحيون فى هذه الجزائر من الاذى والاضطهاد لانهم خالفوا أهلها فى دينهم وشريعتهم

وهكذا كانت جزر اليابان التى تمتد مسافة تسعمائة ميل فى عرض المحيط الهادى عقبة منيعة فى طريق الملاحة والتجارة • فكان بحارة امريكا يشكون من هذه الجزر التى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يستهدفون فيها للخطر والاذى اذا جنحت سفنهم الى شواطئها • وكانت السفن البخارية قد أخذت طريقها الى بحار الصين فنشأت الحاجة الى محطات الفحم تمدها بحاجتها من الوقود • وكذلك كان تجار امريكا الذين رأوا بعض بحارة اليابان فى موانىء الصين يدركون مدى ما يفيدون من التجارة اليابانية اذا فتحت لهم أسواقها ، وكانوا يعلمون أن الهولنديين قد رضوا منذ قرنين أن يقيموا مركزا فى ميناء نجاداكى برغم ما فرض عليهم من شروط وقيود قاسية مقابل ان أبيح لهم ان يرسلوا الى هذه البلاد سفينة واحدة مرة فى كل عام

وقد حاولت كل من انجلترا وفرنسا وروسيا والبرتغال أن تزور اليابان فى سفن حربية سيرتها الى موانيها ، ولكن اليابانيين رفضوا هذه الزيارات وانكروها • الا أن الكونجرس الامريكى قرر فى سنة ١٨٤٥ انه : « يجب الشروع فورا فى اتخاذ الوسائل التى تنشىء علاقات تجارية مع امبراطورية اليابان » • ولم تلبث أن سيرت فى ذلك العام بعثة الى اليابان ، ولكنها لم تكد تصل الى شاطئها حتى طلبت اليها اليابان ان تعود أدراجها

ولكن هذا لم يمنع « الكومودور بيرى » من أن يقوم برحلة أخرى بعد ذلك بسبع سنوات • وقد أخذ هذا البحار الامريكى يدرس كل ما يمكن أن يعرفه عن اليابان قبل أن ينزل اليها ، فقابل عددا من البحارة الذين رأوا شواطىء اليابان أو قابلوا بعض تجارها وبحارتها ، فأيقن ان الرحلات السابقة انما أخفقت لانها وقعت فى أخطاء « دبلوماسية » • فان لليابانيين من التقاليد ما يدعوهم الى ازدراء أولئك الضيوف وابعادهم • وقد أدرك بيرى ان أساس هذه التقاليد هو « نظام الطوائف » الذى يقوم عليه المجتمع اليابانى ، فالميكادو ، الذى ينحدر من الشمس ، لا يمكن أن يلقى نظره الى عامة الناس ، بل حسبه تواضعا ان يرضى بالحديث الى من يليه حسبا وأصلا ، اما علاقته بأهل الطبقات الاخرى فتجرى بوساطة شخص أصيل النشأة رفيع الدرجة

فاذا أراد بيرى أن يقابل فى اليابان بشىء من الاحترام فعليه أن ينشىء فى سفينته « نظاما للطوائف » يضاهى به نظام اليابان • فأقام من ضباطه طبقة عليا ، ومن جنوده طبقة دنيا ، واختص نفسه بالمركز الاسمى ، واتخذ لقبا يضارع لقب امبراطور اليابان ، هو « اله العالم الحرام » !

ورأى بيرى كذلك أن يحمل الى الميكادو هدايا من أجمل وأغرب ما انتجته الحضارة الامريكية ، فكان منها نموذج مصغر لقاطرة بخارية ، وتلسكوب وعدة أجهزة علمية ، وآخر معجزة امريكية وهى التلغراف ، وذلك ليطلع أهل اليابان على هذه العجائب التى حرموا من منافعها باحتباسهم فى قطرهم النائى واعتزالهم العالم الفسيح • وكان أهم هذه العجائب جميعا الآلة البخارية الكبرى التى تدير سفينته « المسيسبى » التى غادرت ميناء نورفولك يوم ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٥٢ متجهة وحدها صوب اليابان

نزاع بين الرهبان

وهكذا نشأت في بدء النصف الثاني من القرن الماضي أول صلة مباشرة بين اليابان والعالم الخارجي ،فكيف كانت صورة هذا العالم حينذاك ؟

كانت اسبانيا والبرتغال هما أول الشعوب في الملاحة والاسفار . وكانت المسيحية السائدة هي الكاثوليكية . وكانت المنافسة بين الشعبين بالغة أشدها ، فأراد البابا الكسندر السادس أن يخفف من حدة هذه المنافسة ، فرسم خطا وهميا يقسم الكرة الارضية قسمين : الغربي منهما لاسبانيا والشرقي للبرتغال . فكان نصيب هذه يشمل ما يعرف الآن بالصين والهند وأرخبيل الملايو ، بينما كان نصيب اسبانيا يضم الامريكتين وجزر المحيط الهادى الى أقصى الفلبين . اما شعوب أوربا الشمالية التي شرعت في ذلك التاريخ تسعى الى نصيبها في أرض العالم وتجارته فكانت تدين بالبروتستانتية التي لا محل لها من مملكة البابا . وقد قام الشعبان اللذان اختصهما البابا برضاه ينشران الكاثوليكية في أملاكهما بما يرسلانه لاهلها من العطايا والهدايا ، أو من الخمور والمسكرات ، أو من الحديد والنار ، أو من جماعات التبشير الديني !

وعند مفرق هاتين المملكتين ـ مملكة اسبانيا ومملكة البرتغال ـ كانت تقع جزائر اليابان التي ظلت دون سواها من الجزر الكبرى معزولة لا يجرؤ البحارة على زيارتها ، وان كانت الانباء تترامى الى شاطئ الصين بأن سكان هذه الجزر أهل قوة وقتال ، وذو ثقافة وثراء

وقد اتيحت للبرتغال ان تتصل بهذه الجزر لاول مرة سنة ١٥٤٢ حين تحطمت احدى السفن على الشاطئ الياباني فنزل بحارتها الثلاثة وساروا في الارض حتى بلغوا احدى قرى اليابان ، فلقيهم الناس مرحبين وأطلعوهم على أساليب حياتهم وحضارتهم . فرأوا شعبا يعيش في أمن ونظام ، وينعم بالراحة والرخاء ، ويحب السلم والعدل ، ويشبه الشعب الصيني في كثير من ثقافته وحضارته . ووجدوا ان هذا الشعب يعيش في ظل « نظام للطوائف » دقيق الترتيب ، على رأسه الميكادو الذي يعد الها مجسما فلا يغادر قصره ولا يباح لعامة الناس ان تدنو منه . ولكنهم وجدوا ان السلطة ليست بيد هذا الميكادو وانما بيد طائفة من النبلاء يتوارثون الالقاب والاملاك ، وأن كبيرهم الملقب « شوجين » هو الذي يصدر القوانين فيوقعها الميكادو الذي كان حينئذ رمزا لا حول له ولا سلطان

ولم يكن البرتغاليون في ذلك الوقت أهل حكم ونظام ، بل كان همهم في التجارة يلتمسون منها الغنى ، وفي نشر المسيحية ردا لجميل البابا . فأقاموا في ميناء نجاساكي مركزا للتجارة ، ومركزا للتبشير . وتولى رهبان الجزويت أعمال التبشير فنصروا آلافا من أهل البلاد الوثنيين ، وأقبل اليابانيون على بضائع أوربا ومنتجاتها اقبالهم على أفكارها

وعقائدها ، فلم يكن للتجار ولا للرهبان في تلك البلاد أية شكوى

ولكن رهبان الفرنسيسكان كانوا قد وفدوا الى الفلبين وأقاموا فى مانيلا يبشرون فيها بالمسيحية . وكان بين هؤلاء الرهبان وبين رهبان الجزويت من المنافسة والبغضاء ما ترك أثرا فى البلاد الاوربية . فأخذ كل فريق يثير على خصيمه حقد القوم وسخريتهم . وقد رحل جماعة من رهبان الفرنسيسكان الى اليابان فلم يلقوا بالهم الى نشر المسيحية قدر ما ألقوه الى تجريح الجزويت وتسفيههم واغراء الناس بازدرائهم . فساء اليابانيون النظر الى هؤلاء الرهبان جميعا ونفروا من المسيحية ورجالها . وزاد الامر سوءا عند ما قدم فريق من الهولنديين ونزل الى ميناء هيرادو سنة ١٦٠٠ ، فقد نشب النزاع والشجار بين هؤلاء الهولنديين البروتستانت وبين البرتغاليين الكاثوليك ، وتطور الامر بينهما الى ما أدى باليابانيين الى الحقد على جميع الاجانب وانكار كل ما يمثلونه من الافكار والعقائد . وعرف حكام اليابان ان هذا النزاع هو صورة مصغرة للنزاع الاكبر الذى احتدم بين رجال المذهبين المسيحيين فى أوربا فادى الى كثير من المذابح المروعة والحروب المهلكة ، فخشوا أن يؤدى الامر باليابان الى فتنة تفرق رجالها وتريق دماءهم ، فأصدروا أمرا بمنع جمعيات التبشير المسيحى منعا باتا وبنفى جميع رجالها من أرض اليابان . فلما أراد هؤلاء الرهبان أن يثوروا بهذا الامر أعملت اليابان سيوفها فيهم وفى اتباعهم . وفى سنة ١٦٣٨ أصدرت اليابان قرارا يقضى « بأنه لا يجوز لاحد فى المستقبل ، ما ظلت الشمس تشرق على الارض وتضيئها ، أن يبحر الى أرض اليابان ، حتى ولو كان سفيرا ، ولا يعاقب من يخالف هذا القرار الا بعقوبة الموت » .

واذ كان بحارة هولندة قد أعانوا اليابانيين على الفتك بالكاثوليك حين ارسلوا سفينة حربية انزلت قنابلها على حصن على الشاطىء حيث اعتصم المسيحيون ، فقد كافأتهم اليابان بأن أباحت لهم أن يقيموا فى نجاساكى مركزا تجاريا على شرط الا يسمح لرجاله بأن يتصلوا الا ببضعة أفراد من طبقة التجار التى كانت شبه منبوذة فى اليابان . وابيح لهم كذلك ان يرسلوا احدى سفنهم مرة فى كل عام ، فتنقل أنواعا معينة من منتجات اليابان مقابل هدايا جزيلة تغدقها على حكام الميناء وأعيانها

وهكذا عادت اليابان فاعتزلت العالم جميعا . فمن ألقته سفينة على شاطئها أزهقت روحه أو ألقى فى السجن ريثما تنقله السفينة الهولندية . واما اليابانى الذى يحاول الفرار من وطنه فجزاؤه القتل ، وكذلك لا يسمح لمن يضل طريقه فى البحر بأن يعود الى اليابان . وظلت هذه العزلة الغريبة تسدل على اليابان ستارا من الغموض والخرافة حتى هبط أرضها البحار الامريكى يوم ٨ يوليو سنة ١٨٥٣

آلهة العالم الحرام !

أقبلت الباخرة « المسيسبى » التى يستقلها بيرى الى ميناء هونج كونج فحيتها بواخر

أمريكا وأوربا بصفيرها الصاخب . ونزل البحار الامريكى الى شاطىء الصين فاستقبله ممثلو الدول الاوربية أحسن استقبال وان بدا عليهم انهم لا ينتظرون له أى توفيق . ثم غادر الصين بعد ان اصطحب مرسلا امريكيا خبيرا بشؤون الشرق ، هو ويلز ويليامز ، ليكون مترجما له . وعرجت البعثة فى طريقها على احدى الجزر فجاست خلالها واعتزمت ان تتخذها قاعدة حربية اذا أدى الامر فى المستقبل الى قتال اليابان . وبعد أيام وصلت « المسيسبى » خليج « يدو » التى تعرف الآن باسم « طوكيو »

ولما أقبل فجر اليوم الثامن من شهر يوليو نظر بيرى فرأى اشباحا سوداء تطوف فى ارجاء الخليج ، هى اشباح الصيادين يغادرون الشاطىء الى حيث يتلمسون الصيد والرزق . فما ان وقعت عيونهم على الباخرة الضخمة الهائلة حتى عادوا أدراجهم مروعين مذعورين ، واسرعوا الى « يدو » يقصون على أهلها عجبا عن السفينة التى تنفث نارا ودخانا ، والتى تتحرك صوب الشاطىء مسرعة دون ان يكون لها شراع أو مجداف !

وأقبل الصبح وأشرقت الشمس فاذا بجموع من الناس تزدحم على الشاطىء تصايح صيحات الدهشة والفزع . ولكن بعض البحارة الشجعان حزموا أمرهم على ان يسبحوا فيبلغوا السفينة ويكشفوا سرها . فبدأ بيرى ينفذ الخطة التى وضعها ، خطة تقسيم رجال السفينة طوائف يعلو بعضها بعضا ويتسنم هو ذروتها . واذن فقد أبى سيد السفينة ، اله العالم الحرام ، ان يلقى نظره الى هؤلاء الصيادين الحقراء . وتقدمت سفينته تشق طريقها الى الشاطىء ، فاسرعت عدة قوارب مسلحة فى كل منها ثلاثون رجلا عراة فأحاطوا بالسفينة وهموا بتسلقها على الحبال والسلاسل ،ولكن رجال بيرى ردوهم وأعادوهم الى قواربهم ، وحينئذ انبعث صوت أحد اليابانيين ينادى : « انى أعرف الهولندية » فاذن رجال له بأن يصعد اليهم ، ولكنه لما طلب ان يقابل ربانها قالوا له : « كلا ! فان اله العالم الحرام ينحدر من سلالة رفيعة الشأن فلا يجوز ان يدنو منه ويتحدث اليه الا من يماثله من أعيان اليابان » . فارتاح اليابانى لهذا الرأى الذى يوافق تقاليد بلاده ، فاستأذن فى أن يسمح لحاكم المدينة بأن يأتى فيتحدث الى الربان ، فأذن له فى ذلك بعد تردد ومشاورة !

وجاء حاكم المدينة فاستقبله بيرى وهو جالس على عرشه فى السفينة ، وقال له انه يحمل رسالة من رئيس الولايات المتحدة الامريكية الى امبراطور اليابان ، وانه يريد تحديد يوم واقامة حفل ليقوم هذا الامريكى العظيم بتسليم الرسالة للميكادو . فقال الحاكم انه سيرفع هذه الرغبة الى حكومته لتبدى رأيها ، وفى صباح اليوم التالى أقبلت سفينة يابانية تقل كبير أعيان اليابان ، فاستقبله نفر من الضباط الامريكيين بالتحية والتجلة، بينما انسحب بيرى الى « كابينه » التى أحالها حجرة للعرش وتبوأ أريكتها فى فخامة ووقار ، فلما جلس اليه الرسول اليابانى أخرج بيرى صندوقا من خشب الورد مكسوا

بصحائف ذهبية ، وتناول منه رسالة رئيس امريكا الى الميكادو . فبدا على العظيم الياباني انه اساء تقدير هؤلاء الضيوف وانه لم يدر بخلده انهم أهل حضارة راقية ، فعاد يقبل عليهم يحييهم ويجلهم ويقدم لهم كل ما يطلبون من طعام وشراب . ثم رجع الرجل ليسأل حكومته ويستشيرها بينما وقفت سفينة بيرى فى عرض البحر تنتظر الجواب ، وعاد بعد أيام فى حشد عظيم ، وفى رداء فضفاض ، ودخل على بيرى فى سفينته فرفع يديه وحنى هامته ، وبيديه صندوق من خشب الصندل ، فأخرج منه رسالة ملفوفة فى مخمل ثمين . هذه هى رسالة الميكادو يذكر فيها ان حكومته قبلت المفاوضة مع البعثة الامريكية وان الذى سيتولى المفاوضة رجل يحق له الحديث مع « اله العالم الحرام » لانه الامير العظيم « تودا » مستشار الامبراطورية الاول ! وقبل بيرى ان يتحدث مع هذا الامير الذى يماثله فى عراقة الاصل ورفعة الشأن !

واشرقت شمس اليوم التالى فرأى بيرى ان الشاطىء قد ازين بمنظر بالغ الابهة والفخامة ، فعلى مدى البصر زينات من القماش الملون تزخرفه ورود وازهار حمراء وسيوف ودروع شتى ، وتقوم وسط هذه المناظر ثلاثة اشكال هرمية . واصطف على طول الشاطىء خمسة آلاف جندى يابانى تنتظمهم فرق وصفوف لكل منها ملابس رسمية ذات ألوان بهيجة وصور مزخرفة . وكانت تتأرجح فى الميناء مائة قارب احتشد فيها الجند والبحارة ، واجتمع من حول هذا كله جموع مؤلفة من الناس جاءوا يرون هؤلاء الامريكيين المتبربرين !

واستقل رجال بيرى خمسة عشر قاربا الى الشاطىء حيث وقفوا صفين كل صف من مائة ضابط ، ومن ورائهم كتيبة كبيرة من مائتى بحار . وكان بيرى قد اختار هؤلاء الضباط والبحارة من اضخم الامريكيين جسما وأطولهم قواما ، فملأوا اليابانيين القصار النحاف هيبة واعجابا . ونزل بيرى وسط هذه المشاهد الفخمة الى أرض اليابان يحفه من الهيبة والوقار ما يلائم « اله العالم الحرام » . وكان يسير أمامه ضابطان يحملان بين ايديهما قطعة فخمة من القماش الاحمر وسطها صندوق من خشب الورد مطعم بالذهب وقد وضعت فيه رسالة رئيس امريكا مسطورة على جلد ثمين وملفوفة فى مخمل من الحرير الازرق

وكان على الشاطىء رجلان لا يبديان حراكا وتعلوهما أمارة الوجوم ، وان كان يبدو عليهما الذكاء والدهاء . هذان هما الامير تودا ، والامير ايدو مندوبا اليابان وقد جاءا فى سرابيل من الحرير تزينهما زخارف من سلوك الذهب وقطع الفضة . فلما أقبل بيرى نهض الرجلان فى تؤدة ووقار ثم جلسا دون ان ينبسا بكلمة أو يبديا ايماءة . ووضع بيرى امامهما خطاب رئيس امريكا قائلا : « انه سيعود توا من حيث أتى ، على ان يعود فى الربيع القادم ليتلقى جواب امبراطور اليابان » . فسأله أحد الرجلين : « هل ستعود

فى سفينتك هذه وحدها ، أم مصحوبا بسفن أخرى ؟ » • فقال بيرى : « سأعود فى عدد كبير من السفن والبحارة » • فتلقى اليابانيون هذا الجواب فى صمت ، ولكنه صمت المشفق المستريب !

على ان هذا الاحتفال لم يكن بريئا من سوء الظن وأخذ الحذر • فكانت السفينة الامريكية تغدو وتروح فى الميناء وعليها بنادق ومدافع مصوبة الى الشاطىء على أهبة ان تطلق نارها • وكان جند اليابان وفرسانها محتشدين على الشاطىء متأهبين للقتال ان ساء الامر بين الفريقين ، ولكن الحفل مضى فى أمن وعاد بيرى الى سفينته كما أقبل منها تحفه مظاهر التكريم • وبقيت السفينة ثلاثة أيام تدرس الميناء وتهيئه لاستقبال اسطول كبير • واخذ رجالها يتزاورون مع الصيادين والبحارة اليابانيين ويقدمون لهم الهدايا الغريبة الثمينة ويعدونهم بهدايا أغرب وأثمن عند ما يرجعون فى الربيع

من وراء السماء

كان التنافس الاستعمارى بين الدول الاوربية على أشده حينذاك ، وكانت كل منها تريد السبق الى المناطق الجديدة تمتلكها بالتجار أو بالرحالة أو بالجنود • فلما ترامت الى أوربا انباء رحلة بيرى وما ترمى اليه من الاغراض نهضت هذه الدول تسابق الى اليابان ففى شهر نوفمبر غادرت السفينة الفرنسية « قسطنطين » شاطىء الصين على حين غرة ، فذاع النبأ بأن فرنسا تريد ان تسبق امريكا الى الاتفاق مع اليابان ، ولم يلبث ان قدم الاميرال الروسى « بوتياتين » على رأس عدد من السفن الحربية طالبا ان يعاون بيرى ويرافقه عند عودته لفتح اليابان ! فلما أدرك بيرى ما تريده دول أوربا أراد ان يعجل بالعودة قبل الربيع ، وحشد فى يناير سنة ١٨٥٤ جزءا كبيرا من الاسطول الامريكى عند شاطىء الصين • ولكن الحاكم الهولندى فى جزائر الهند الشرقية سلمه رسالة بعثت بها الحكومة اليابانية تقول فيها انها تأسف اذ تخبره بأن الميكادو توفى فجأة ، وان رسوم الحداد فى بلادها تضطرها الى تأجيل مفاوضتها مع البعثة الامريكية الى موعد غير مسمى ، وانه لا داعى اذن لان يعود بيرى فى الربيع • ولكن بيرى أساء الظن بالحاكم الهولندى اذ كان يعلم تماما ان نجاح بعثته يقضى على شطر كبير من تجارة هولندة التى احتكرت الصلة باليابان منذ مائتى عام • فأرسل الى هذا الحاكم يطلب اليه ان يبلغ اليابان أصدق تعازيه فى وفاة الميكادو ، وان يخبرها بأن رسوم الحداد لا يصح ان تعرقل الامر الخطير الذى قدم له من أقصى الشرق منذ عدد من الشهور ، ولهذا فقد اعتزم الرجوع الى اليابان فورا • وبعد أيام تحركت سفن بيرى متجهة الى الشاطىء اليابانى

كان امبراطور اليابان قد مات حقا عقب ان رحل بيرى بأيام • وكان رجال الدين وأعيان القوم قد أذاعوا فى طول البلاد وعرضها ان هذا الموت الفجائى الذى نزل بالميكادو انما كان عقابا من الآلهة الذين غضبوا وثاروا عند ما سمح للامريكيين البرابرة

ان يهبطوا أرض اليابان فيدنسوها ، وان لا نجاة لليابان من الخطوب والكوارث الا اذا حافظت على عزلتها القديمة . ولكن اليابان كانت حينذاك تستقبل عهدا جديدا من التفكير ، فنهضت فيها جماعة من الاحرار تدعو الى تحرير اليابان من سلطة الاعيان ورجال الدين ، والى فتح بابها لتجارة الاجانب وحضارتهم

ودعى أعيان اليابان — وعددهم اربعمائة رجل توارثوا الالقاب والاملاك منذ قرون — ليأتمروا ويجيبوا عما اذا كان الافضل والاجدى ان يعقدوا معاهدة مع امريكا ام ان يشهروا عليها القتال . وبعد جدال طال أياما استقر الرأى على الحرب والجهاد ، فأخذ هؤلاء الاعيان يثيرون الشعب ويعدونه للحرب . وجمعت اجراس المعابد وسهرت وصنع منها مدفع كبير ، وأقيمت القلاع حول مدن الشاطىء ، وجند الاعيان من رجالهم واتباعهم جيشا كبيرا . ولكن كل هذا كان عبثا ، فقد رأى اليابانيون ان لا حول لهم قبل اسطول حربى لم يشهدوا مثله هيئة وعدة وحجما ، ورأوا ان الخير فى ان يتخذوا مع الامريكيين خطة التهادن والمسالمة . وكان من حسن حظ بيرى ان كبير الاعيان مات فخلفه رجل كان يعارض فكرة الحرب مع امريكا ويحبذ عقد معاهدة سياسية معها ، فأذعن الاعيان لرأيه وعدلت اليابان عن الحرب وأخذت تدرس شروط المعاهدة ، وعهدت بذلك الى استاذ فى الجامعة اليابانية اسمه « هاياشي » الذى ندب ليفاوض بيرى عند رجوعه

هدايا

بينما كانت اليابان تدرس شروط تعاهدها مع امريكا اذ بأسطول بيرى يظهر فجأة امام الساحل اليابانى فى مساء ١١ فبراير سنة ١٨٥٤ ، واذا بسفنه الحربية تطلق سفيرها القاصف فينبه سكان الشاطىء ويروعهم . واسرع نفر على ظهور الخيل يركضون وسط العواصف والامطار حتى يبلغوا العاصمة فينبئوا حكامها بعودة الاسطول الامريكى . وسرعان ما ازينت الميناء بالاعلام والاقواس ، واحتشدت بالاعيان والجنود ، وبالقوارب والبحارة ، تأهبا لاستقبال البعثة الامريكية . ولكن بيرى لاحظ ان اليابانيين أقاموا من المشاهد ما حجب عنه المدينة وأسدل عليها ستارا ، فأساء الظن وداخله الريب ، وحسب انهم يدبرون له أمرا ويكيدون ، فارسل اليهم أنه لن يغادر السفينة الا اذا أزيلت كل هذه المشاهد ورأى ما وراءها ، لا لانه يخشى شرا بل ليرى مبانى المدينة ويتعرف وجوه أهليها . فلما رفعت هذه الحواجز تراءت المدينة وقد أخذت زخرفها ، فالاعلام ترفرف على مبانيها ، وفرق الموسيقى تصدح فى أرجائها ، وجماعات الفرسان تركض هنا وهناك ، ووقفت كتائب الحرس اليابانى على سفوح التلال كأنها التماثيل القائمة تحية لبيرى واجلالا . ولما ازفت ساعة قدوم بيرى انطلقت القوارب اليابانية فى ارجاء الميناء حاشدة بخمسمائة من الضباط والجنود والبحارة مدججين بالسلاح . واطلقت السفن الامريكية سبعة عشر مدفعا تحية وايذانا ، وصدحت موسيقاها بالنشيد الامريكى .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهبط بيرى ورجاله الى ساحل اليابان مرة أخرى ، فاستقبلهم جمع من الاعيان فى ملابسهم الثمينة الفضفاضة ، وتبادل الفريقان التحيات ثم تقدم كبير الاعيان فسلم بيرى رد الميكادو على رسالة رئيس امريكا • وكان الرد وجيزا ، اذ يعبر عما تكنه اليابان لامريكا من الود والصداقة ، ولكنه يتجنب الاشارة الى أية سياسة معينة ، وينتهى بان الميكادو السابق توفى منذ قريب وان خلفه لم يستقر بعد على رأى ما ، ويذكر كذلك ان اليابان يسرها ان تقدم للسفن الامريكية كل ما يلزمها من الزاد والوقود لتعود على عجل الى بلادها • على ان بيرى لم يقرأ هذه الرسالة الا بعد أن عاد الى سفينته حيث اخذ منه الغيظ كل مأخذ لهذه الخطة اليابانية التى تعد رفضا لكل ما فكر فيه وسعى • وسلم بيرى الى كبير الاعيان صورة من المعاهدة الامريكية الصينية لتكون نموذجا يحتذى فى عقد المعاهدة الامريكية اليابانية التى جاء لها • وانفض الاجتماع وعاد الامريكيون الى سفنهم واليابانيون الى مدنهم ، واستمرت المفاوضة بين مندوبى الفريقين ثلاثة اسابيع متصلة ، فتبين فى اثنائها ان اليابانيين يريدون ان يبقى الامر كما هو قائم منذ القدم ، فلا ينشئون صلة ما بأية دولة أجنبية ، ولا يسمحون لاجنبى بأن يهبط أرضهم ويقيم فيها ، ولا يريدون تغيير الحالة الراهنة لا فى الوقت الحاضر ولا فى المستقبل القادم

وبينما تجرى المفاوضات وتأخذ سبيلها بين الرفض والقبول ، كان بيرى « يغزو » اليابان غزوا ماكرا بارعا • فقد حمل فى سفينته أنواعا من الهدايا الغريبة فتنت اليابانيين وخلبت ألبابهم • فمن ذلك ان جماعة من المهندسين الامريكيين نزلوا الى الساحل فأقاموا طريقا حديديا تجرى عليه قاطرة تجر عدة عربات • وتولت عامة الشعب دهشة بالغة من هذه العفاريت التى تجرى على الارض ولكن الاعيان أعجبوا أيما اعجاب بهذه الوسيلة التى ستمتعهم بشىء جديد من الترف والمتعة ، وأخذوا يركبون فى هذه العربات وهم فى نشوة ممزوجة بالخوف من هذه القاطرة التى تجرى عشرين ميلا فى الساعة الواحدة • وكذلك وضع المهندسون اجهزة تلغرافية أخذ الموظفون اليابانيون يستخدمونها فى الاتصال بزملائهم على بعد ميل منهم ، فتملكتهم الحيرة والدهشة خصوصا وقد رأوا سلكه غير مثقوب ، وجاء بجماعة من الفرسان ليسابقوا « الاشارات » التى يرسلونها ، وركض الفرسان بخيولهم ولكنهم لم يصلوا الا بعد ان وصلت الاشارة بزمن طويل !

وكذلك حمل الامريكيون معهم انواعا من المحاريث والادوات الزراعية الميكانيكية ، وصنوفا من بذور ما ينبت ويزرع فى أمريكا ، وكان معهم فوق ذلك أنواع من البنادق والمدافع والذخائر والسيوف والكتب والملابس والساعات وأدوات المنازل وغير ذلك كثير • وأخذوا يعرضون هذه الهدايا على اليابانيين الذين كانوا يعجبون أولا لهذه الملابس الغريبة التى يرتديها ضيوفهم المتبربرون ! • وكان كل ما فى هذه الملابس من أزرار معدنية وما فى أحذيتهم من الجلود يدعو الى عجب أهل اليابان وسخريتهم ،

وان كانوا لم يتوانوا فى رسم كل هذه الاشياء وصنع نماذج لها من الورق والقماش !

وجارى اليابانيون ضيوفهم كرما ، فأهدوهم مصنوعات شتى من الحرير والخزف والخشب تفوق فى جمالها ودقتها ما صنعته الايدى الامريكية ، وكان أهم هذه الهدايا سمكة مجففة ملفوفة فى قطعة من القماش واربعة كلاب صغيرة وعدة أكياس من الارز ، ذلك أن أثمن ما يقدمه اليابانى دليلا على حبه وتقديره هذه الهدايا الثلاث : السمك الجاف ، والكلاب ، والارز

ودارت المفاوضة حتى انتهت الى كثير مما أراده بيرى . فسمح لامريكا بأن تقيم قنصليتين على الساحل اليابانى ، ورسمت قواعد تجرى عليها العلاقات بين تجار امريكا وتجار اليابان ، ووضعت الشروط التى يخضع لها بحارة أمريكا اذا قدموا شواطىء اليابان ، وغير ذلك من مسائل العلاقات السياسية والتجارية . وكذلك وضع في المعاهدة نص بأن أمريكا تعامل دائما على اساس « أكثر الدول رعايا » أى ان كل حق يمنح لغيرها من الدول يسرى عليها دون مفاوضة ومعارضة ، وهكذا ظلت امريكا أمدا طويلا وهى أوثق الدول صلة باليابان وأكثرها افادة من تجارتها

وفى يوم ٣١ مارس سنة ١٨٥٤ اقيم حفل عظيم شهده بيرى وضباطه وكبير أعيان اليابان ورجاله . ووقع فيه على الوثيقة التى أدخلت اليابان لاول مرة فى الاسرة العالمية الكبرى . وفى ٤ ابريل عادت سفينة بيرى الى واشنجتون تحمل المعاهدة ليقرها الكونجرس ويوقعها الرئيس ، وكانت هذه المعاهدة تنص على ان الولايات المتحدة وامبراطورية اليابان « يتعهدان بأن ينشئا فيما بينهما سلاما كاملا دائما عالميا وان يقيما بينهما صداقة قلبية مخلصة » !

ح . غ .

(خلاصة كتاب عن بيرى عنوانه « الكومودور العظيم » للمؤلف الامريكى ادوارد باروز)



ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

طنافس القوقاز

بقلم الاستاذ محمد عبد العزيز مرزوق

الأمين المساعد بدار الآثار العربية

جرى ذكر بلاد القوقاز ، فى هذه الحرب ، على الألسنة والاقلام ، ورسمت خريطتها الجرائد والمجلات ووقف الناس على حدودها ومعالمها ، وتصوروا سهولها وحزونها ، ورددوا أسماء بلادها . ولم يكن الدافع الى ذلك كله إلا الحرب الدائرة الرحى ، والرغبة الملحة فى تتبع خطوات المتحاربين

وفى الحق انه من الظلم البين أن يرتبط هكذا ذكر هذه البلاد فى أذهاننا بالحرب وحدها ، فلا نذكرها حتى نتصور الثكنات والخنادق ، ونتخيل الطارات والمخابىء ، وينسينا شيطان الحرب ما ساهمت به من نصيب موفور فى حضارة العالم عامة والحضارة الاسلامية خاصة

لذلك كان من الانصاف أن ننتهز هذه الفرصة فنجلو من تاريخ الفن الجميل فى تلك البلاد صفحة رائعة تترك فى النفوس أثراً طيباً خالداً ، نذكره كلما طرقت أسماعنا الأحاديث عنها . أو وقفت أبصارنا على صورها أو خريطتها

ولعل أروع فصل فى سجل فنها الجميل هو الطنافس (١) التى أبدعتها أيدى سكانها فى الماضى ولا تزال تبدعها فى الحاضر ، فهى تترجم عن ذوقهم أحسن ترجمة . وتنم عن مهارتهم فى النسيج . وتنطق بحذقهم وبراعتهم فى الصباغة والتلوين

وصناعة الطنافس اليدوية عامة قديمة فى الشرق ، ابتكرتها القبائل الرحل التى اشتغلت برعى الحيوانات ذوات الوبر والصوف فيما بين الصين وآسيا الصغرى . وكانوا فى ابتكارهم هذا متأثرين بما بين أيديهم من فراء أغنامهم وجمالهم . جعلوا لها حملا يمنحهم الدفء اذا فرشوها فى خيامهم أو تدثروا بها عند نومهم . وقد كانت هذه الطنافس فى أول أمرها ساذجة خشنة ، تعكس بداوة ناسجيها ولكن سرعان ما مستها يد الفن بعصاها السحرية فاذا هى تحفة فنية ، فيها كل ما يمتع الحواس ويغذيها : مرآها يسحر العين ، وملمسها ترتاح اليه النفس ، وتصميمها وزخرفها يثيران التفكير ويبعثان على التأمل . ولكن هذه التحفة الجميلة ظلت رهينة الجهل ، أسيرة الاهمال زمناً طويلا ، حتى اذا أهل القرن الماضى ارتفعت الغشاوة عن العيون فاذا الطنافس الشرقية تجتذب بروعتها علماء الآثار من الغربيين ، وتستهوى بجمالها مؤرخى الفن منهم ، وتأسر بسحرها أغنياءهم

(١) الطنافس هى الابسطة الجميلة التى يعبر عنها بالانجليزية باسم Pile Carpets وبالفرنسية باسم [illegible]

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فى سنة ١٨٧٨ عقد فى برلين مؤتمر عالمى برياسة البرنس بسمرك زعيم المانيا فى ذلك الحين . وقد تناول هذا المؤتمر المسألة الشرقية ، وهى احدى مسائل القرن التاسع عشر التى تناولها . وكان رئيس ممثلى تركيا فيه «قره تيودورى باشا» وزير الاشغال فى عهد السلطان عبد الحميد . وقد كتب تقريراً عن هذا المؤتمر يعد وثيقة ، سياسية هامة تدل على اتجاه السياسة الالمانية ضد تركيا وضد الامم الشرقية ، كما ترى فى هذا المقال القيم

تركيا فى نظر بسمارك

وثيقة هامة لمندوب تركيا فى مؤتمر برلين

بقلم الاستاذ راشد رستم

قره تيودورى باشا وزير النافعة (الاشغال) فى أول عهد السلطان عبد الحميد الثانى ، يونانى الاصل مسيحى المذهب من طائفة (الفنار) طائفة أروام الاستانة ـ نسبة الى حى من أحيائها ، قد جعله السلطان كبير مندوبى الدولة فى مؤتمر برلين الخطير يعاونه فى مهمته محمد على باشا أحد كبار رجالها السياسيين

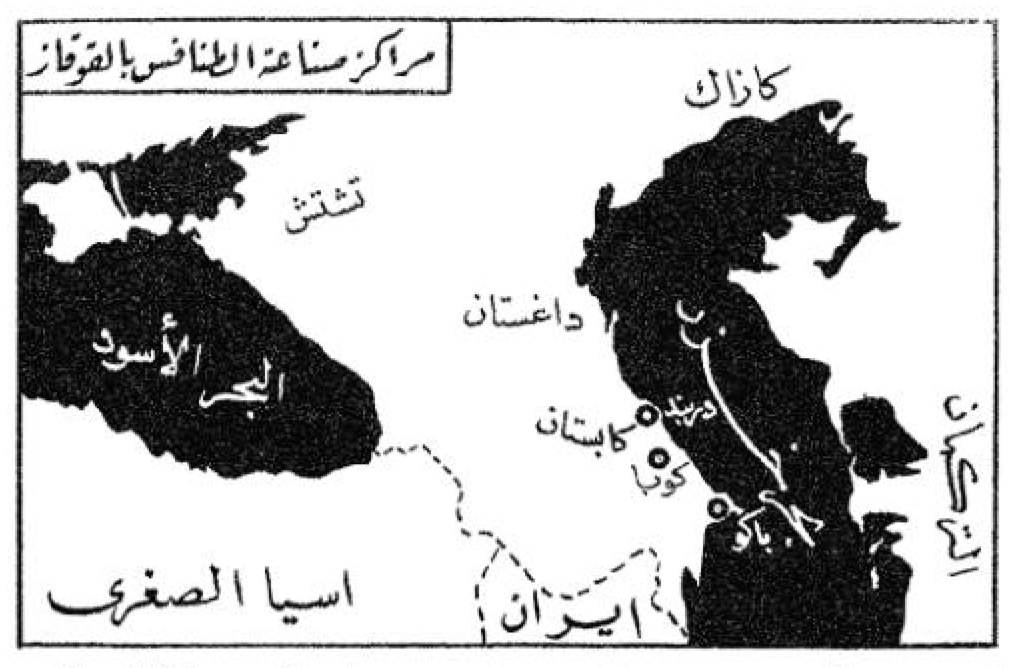
ولما أن عاد بعد انتهاء المؤتمر رفع الى الباب العالى (وهى الحكومة العثمانية اصطلاحاً) تقريره عن مهمته . كما هو واجب كل مندوب رسمى فى مثل مهمته . وقد أحاط هذا التقرير بكل أدوار المسألة تفصيلا وشرحاً . وكان محفوظاً فى سجلات الباب العالى منذ سنة ١٨٧٨ ضمن التقارير السرية الرسمية ، حتى جاء عهد الدستور سنة ١٩٠٨ أيام أن تولى رجال تركيا الفتاة شؤون الحكم ، فأخرجوا بعض هذه التقارير من مخابئها

ونحن وقد وقفنا على هذا التقرير الهام الذى يدل على سعة اطلاع رجال السياسة العثمانية فى ذلك العصر ومقدرتهم الشخصية ، نورد هنا صفحة من ذلك التقرير خصصها كاتبه فى دراسة تلك الشخصية الفذة ـ البرنس بسمرك ، خصوصاً من وجهة نظر السياسة الشرقية

والمسألة الشرقية هى إحدى مسائل القرن التاسع عشر وقد بلغت أوجها فى أواخره . وكانت مثاراً للتيارات السياسية بين الدول الاوربية . وقيل ان تركيا كانت تستفيد من اختلاف مهب تلك الرياح

***

ولقد عجب الكثيرون كيف تختار الدولة الاسلامية الكبرى مندوبها الأول فى ذلك المؤتمر



فأقبلوا عليها جميعاً ، يبحثون عنها فى مظان وجودها ، ويجمعونها من القصور والكنائس والبيع ، ثم أخذوا يعرضون ما جمعوا فى متاحفهم ، وما كاد القرن الماضى يؤذن بالرحيل حتى بدأوا يدرسون هذا التراث الفنى دراسة علمية صحيحة ، ويبذلون الجهد فى سبيل الكشف عن أصله وتاريخ صنعه ، فراجعوا كتب الرحلات شرقيها وغربيها وجمعوا من سجلات التاريخ ما ينير لهم طريق البحث ، ولكم كانت دهشتهم عظيمة عند ما وجدوا أن أجدادهم فى العصور الوسطى قد سبقوهم الى العناية بطنافس الشرق وتقدير ما فيها من جمال وفن . فأقبلوا على اقتنائها لا ليدرسوها مثلهم ولكن ليزينوا بها قصورهم ويحلوا كنائسهم . ولقد لاحظوا أن إكبار هؤلاء الاجداد لهذه الطنافس ، وإعزازهم لها ، وحرصهم على حيازتها قد انعكست بأجلى صورة فى لوحات فنانيهم ، فاذا هؤلاء الفنانون يرسمونها فى صورهم ، يفرشونها على العروش ، ويسدلونها من النوافذ والشرفات ، ويغطون بها الموائد . ومن هذه الصور استمد علماء الآثار ذلك النور الذى هتكوا به حجب الظلام الذى خيم على تاريخ هذه التحف الثمينة زمناً طويلا ، وبهديها استطاعوا أن يردوا كثيراً منها إلى أصولها وعصورها الصحيحة . بل انها قد احتفظت لنا برسوم الطنافس التى قضت عليها عوامل القدم والفناء ، كما هو الحال فى طنافس القوقاز الأولى ، فليس بين أيدينا منها ما يرجع الى ما قبل القرن الخامس عشر ولكننا عرفنا أمثلة كثيرة منها من لوحات المصورين الايطاليين الذين عاشوا قبل ذلك

ولقد تمتعت البلاد القوقازية فى العصور الوسطى بشهرة واسعة فى صناعة الطنافس ردد صداها الرحالة من العرب والفرنج . ويكفى أن نذكر هنا على سبيل التمثيل ما قاله الثعالبى فى كتابه

الخطير من بين رعاياها المسيحيين فضلا عن انه يونانى الاصل ، غير ان ذلك كان من ساسة الاتراك فى ذلك العهد صادراً عن حكمة للتدليل على عدم تعصبها الدينى وعلى عدم تمييزها بين رعاياها طالما كانوا جميعاً مخلصين أكفاء . . .

على أننا لا ندرى ماذا كان أثر هذه الحكمة السياسية لدى أولئك الأساطين من ساسة أوربا بل ساسة العالم . فان مؤتمر برلين ـ وان كان كغيره من مؤتمرات أوربا التى سبقته ـ قد جمع مجموعة عظيمة من كبار الساسة والدبلوماسيين الذين عرفتهم السياسة والدبلوماسية العالمية . وفى الواقع انه من الظواهر السياسية النادرة أن يكون فى ميدان السياسة مجموعة مثل تلك المجموعة التى ميزت تلك العهود بالعظماء البارزين فى عالم السياسة والتى بقيت ذكرياتهم على مر السنين

***

على انه ليس فقط مندوب تركيا الأول هو من أصل غير تركي بل ان مندوبها الثانى فى ذلك المؤتمر الخطير وهو محمد على باشا كان من أصل بروسيانى جرماني ! . .

وأما ثالث المندوبين فقد كان سعد الله بك

وقره تيودورى باشا تولى قبل ذلك سفارة تركيا فى لندرة ثم بعض الوزارات ومشهود له بسعة الاطلاع ومعرفة اللغات وانه كاتب من كبار الكتاب وكذلك على باشا كان من كبار ساسة الدولة العلية لعب دوراً كبيراً فى حياة تركيا وجعلها دولة أوربية بما ساعد من ادخال عناصر التمدين الاوربى فى نظامها وادارتها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فى مؤتمر برلين

يقول قره تيودورى باشا فى تقريره عن البرنس بسمرك ان المؤتمر كان تحت سيطرته التامة وانه كان لأفكاره وطلباته وأحياناً لانفعالاته . . . أثر بليغ فى المعاهدة ونصوصها . وقد كان من المتعذر أن يكون الامر مخالفاً لذلك ، لأن الحوادث والملابسات هيأت للبرنس مركزاً استثنائياً ، سواء فى ألمانيا أم فى أوربا . فالثقة فى قدرته ، والخوف منه يشملان الجميع ، وليس فى ألمانيا كلها من الأمراء والحكام من يستطيع ، مهما ارتفع مركزه وعلا شأنه ، أن يبدى آراء تخالف آراء المستشار ، خصوصاً فى شؤون السياسة الخارجية

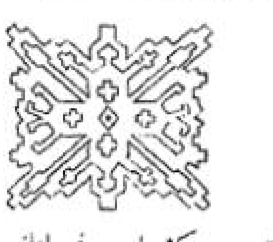
كما ان البرنس بسمرك لا يعرف لنفسه رئيسا غير الامبراطور ـ على شرط أن يكون هو المعبر الوحيد لآراء الامبراطور وأفكاره إن شاء أن تكون له آراء وأفكار . . ذلك ان بسمرك قد اعتاد منذ عهد بعيد على الاستقلال المطلق . فان رأى شيئا مخالفا لارادته فانه يعتبر ذلك خروجا على طاعته ، ويسرع لازالته بعصبية وارادة من حديد . .

وقد احتفظ بهذه السيطرة التى يعتقدها حقا خالصا له . احتفظ بها كذلك فى المؤتمر الذى

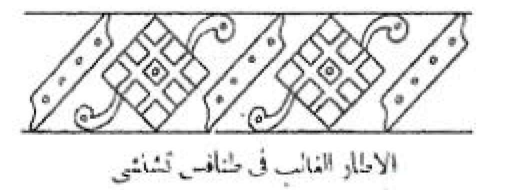
ولعبت البيئة الطبيعية التى تحيط بهذه البلاد دوراً هاما فى تكوين فنها. وتركت أثراً بعيداً فى زخرفة ما أخرجته أيدى سكانها من طنافس . فبينما تبدو طنافس سكان جبال القوقاز التى تجرى وسط هذه البلاد بين بحر الخزر على اليمين والبحر الاسود على اليسار ـ غاية فى القوة من حيث التخطيط والتكوين وكأنها تريد أن تمثل فى فنها جلال تلك الجبال التى تعيش فى كنفها ، اذا بطنافس سكان الحدود الغربية والجنوبية تعكس الروح التى تسود الطنافس التركية والايرانية

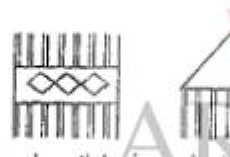
والطنافس القوقازية على أنواع ، لكل نوع منها ما يميزه عن غيره ، ولكنها جميعاً تنفرد عن غيرها بخصائص عامة أهمها القوة فى التعبير ، والعناية بالتكوين ، والجودة فى التلوين ، وغلبة العناصر الهندسية عليها ، وافتقار زخارفها النباتية والحيوانية الى الليونة فى الرسم والدقة فى التصوير.

وأشهر أنواعها ولعله أقدمها أيضاً الطنافس الارمنية أو ذات التنين Dragon Carpets وتمتاز بانقسام سطحها الى جامات مختلفة الأشكال يغلب أن تكون معينة ، وتحدث هذه الجامات من تلاقى أشرطة مسننة ، وتنطوى كل واحدة منها على صورة حيوان أو حيوانين يغلب أن يكونا التنين والعنقاء ، وقد يحل

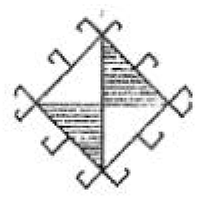

« القصر » يكثر ظهوره فى طنافس القوزاق


« الشعر » يكثر ظهوره فى معظم طنافس القوقاز


الاطار الغالب فى طنافس تشاشى


« المشط » يكثر ظهوره فى طنافس داغستان

« العقرب » يكثر ظهوره فى طنافس شيروان


« الشبث » يكثر ظهوره فى طنافس كوبا

بعض العناصر الزخرفية فى طنافس القوقاز

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جمع أعظم ساسة ذلك الزمان وجعل الجميع يشعرون ، فى درجات متفاوتة ، بما له من سيطرة وذكاء نادر ومهارة فائقة ، كما عودهم على صراحته وانفعالاته العسكرية أحياناً . على أنه لم يمتنع يوما من الايام عن إبداء أية ملاحظة بسيطة تعرض له خاصة بالاجراءات الشكلية الدقيقة ، وقد كان غالبا يبدى رأيه في الاول فيوجه بذلك آراء زملائه ، ثم يلخصها في سرعة خاطفة ، ثم يمليها على السكرتارية بدقة ووضوح يثيران الاعجاب

***

كانت مناقشات المؤتمر تدور بالفرنسية ، وكان اللورد بيكونسفيلد (دزرائيلى) مندوب انجلترا الاول يتكلم بالانجليزية . ولم يكن البرنس ، وهو الخبير باللغتين ، لتقابله أية صعوبة فيهما . بل كانت أقواله الواضحة ، برغم بطئها فى بعض الاحيان ، تبين تملكه لناصية اللغة الفرنسية

وقد عرف البرنس بسمرك كيف يركز المؤتمر كله فى شخصه ، بحيث لا يسعنا أن نتكهن اليوم بما كان قد ينتج من أعمال ذلك المؤتمر السياسى الكبير لو لم تكن للمستشار الالمانى الخطير الرئاسة فيه . ولذلك يأسف المندوبون العثمانيون أعظم الأسف من أن استعداده لم يكن على الاجمال طيباً نحوهم

ولهذه الملاحظة أهميتها ، خصوصاً إذا عرف أن التعاون الذى استمر ثلاثين يوماً على التوالى قد سمح للمندوبين العثمانيين فهم عواطف البرنس نحوهم فهماً جيداً لم يكونوا يعرفونها قبل ذلك لعدم تمكن أغلب سفراء دولتهم — نظراً لتقاليد وزارة الخارجية الألمانية — من مقابلة تلك الشخصية الفذة التى كانت تلعب دوراً عظيما فى العالم

***

يقولون إن غريزة السياسة تسيطر على البرنس بسمرك سيطرة تامة وتملك منه كل ميوله بحيث يمكن القول بأن ليس له أصدقاء ولا أعداء من حيث العاطفة

وقد يكون هذا مبدأه العام فى السياسة ولكنه فيا يتعلق بالحكومة العثمانية يزيد الامر تحديداً بما يحمل من إحساس شخصى نحوها يؤثر على حكمه كرجل سياسى . ذلك أن بسمرك لم يكن ليعتقد فى مستقبل الامبراطورية العثمانية

يقول قره تيودورى باشا « إن البرنس بسمرك لم يعتقد فى اخلاص اصلاحاتنا ولا فى فائدتها . ولم يعط للحكومة العثمانية ولسياستها إلا تقديراً ضئيلا . ولم يشعر نحو الأجناس الشرقية بأى ميل . وكان ينتهز كل فرصة مناسبة يستطيع أن يدلل بها على استحالة أى تقدم وإصلاح نقوم به فى بلادنا . . كما كان يدفع بقوة كل رأى أو واقعة تخالف هذا المبدأ من ذلك مثلا انه عند ما أبدى عالى باشا رأيه فى أن وجود جيش تركيا الأوربية (الروملى الشرق) — أى غير الأناضول — لا يتفق ومبدأ إبعاد المسيحيين من صفوف الجيش العثمانى الذى تقوم قوته على الانسجام الجنسى —

محل الحيوانات زخارف نباتية من أزهار وأشجار ، وبين هـذه الجامات توجد أزهار محيدية كبيرة الحجم ، وأطارها ضيق تزدان بفروع نباتية رفيعة .

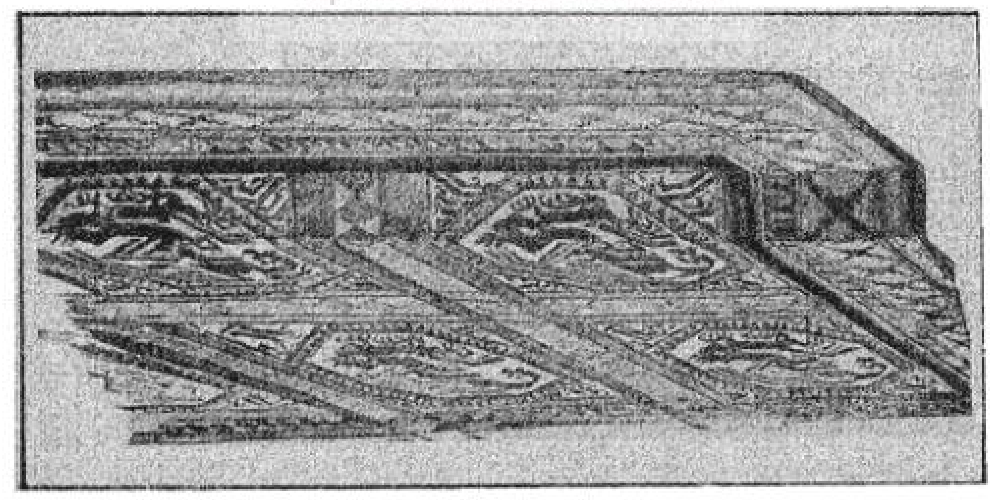
وقد احتلف علماء الآثار بصدد أصل هذه الطنافس ، وتضاربت آراؤهم فى هذا الأمر ولكن البحث القيم الذى قام به الأستاذ الأرمنى ساكسيان والذى استند فيه الى دراسة واسعة عن الفن الأرمنى قد قضى على هذا الخلاف الناشب بين العلماء ورجح كفة الأصل الأرمنى لهذه الطنافس

وتبدو فى زخارف هذا النوع تأثيرات الفن الصينى . أما التأثيرات الايرانية فتتجلى لنا فى الطنافس التى تستمد اسمها من مقاطعة قره باغ ـ أى بلاد الشمس ـ الواقعة على الحدود الفاصلة بين بلاد ايران والقوقاز حيث تصنع هذه الطنافس ، أو من مدينة شوشا أشهر مدن هذه المقاطعة . ويذكرنا تصميمها الزخرفى ووحدات زخرفتها وألوانها بالطنافس الايرانية ذات الازهار المنثورة ، أو ذات الجامتة أو التى تزدان بصور الرياض

وألوان هذه الطنافس براقة زاهية ، فيها الاحمر القانى والأصفر الفاقع ، والأزرق القاتم والأبيض الناصع . وتنفرد بين طنافس القوقاز جميعاً بأن سطحها لا يغمر بالزخرفة بل قد يكون عاطلا منها أو تزدان بنقط منثورة تجعله شبيهاً بجلد الفهد

وشبيه بطنافس قره باغ فى ألوانها الطنافس التى تنسجها قبائل القوزاق الساكنة فى شمال بحر الخزر ، وتمتاز بوضوح روح الفردية فيها ، ذلك لأنها من إنتاج قبائل شتى لكل قبيلة منها ميراث فى النسيج والرسم والتلوين ورثته عن أسلافها وعكفت به وحافظت عليه ووقفت عنده لا تحيد عنه . وعلى الرغم من أننا نلمس فى هذه الطنافس سذاجة الفن وبداوة الصناع وخشونتهم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



إحدى الطنافس الأرمينية ، تبدو فيها صورة التنين مع العنقاء وهى ترجع الى أوائل القرن الرابع عشر ، وموجودة بالقسم الاسلامى بمتحف برلين

وهو المبدأ الذى قرره المؤتمر — عند ذلك كان البرنس يظهر سروره من أن تركيا تستبعد نصف سكانها من الخدمة العسكرية . مع انه هو الذى جعل فى بلاده الخدمة العسكرية الاجبارية مبدأ سياسياً والذى يرجع اليها الفضل فى انتصاراته الكبيرة

« ولم يكن بسمرك ليعلق أهمية حقيقية على نصوص معاهدة باريس التى تدخل تركيا ضمن الدول الأوربية ، ولم يعر أهمية لحقوقها باعتبارها دولة أوربية ولم يسمع لاحتجاجاتها ضد العزلة التى يريدون وضعها فيها »

السياسة الشرقية

لم يكن الداهية الألمانى ليقبل حلولا نصفية ، وان جاز انه يحترم ويقدر سياسياً تركياً فى النظام القديم ، فلم يكن ليستسيغ السياسى التركى الذى يريد التكيف بالمدنية الأوربية — وكان يقول لنا إنه لا يثق بهذا الأخير ولا يعتقد فى صحة أقواله . .

وكثيراً ما كان يقول الى المندوبين العثمانيين : « ليست لكم مبادىء توجهكم فى سياستكم . انكم تعتقدون أن اعداء أصدقائكم هم أعداؤكم ، وهى قاعدة خاطئة فى أغلب الاحيان . ولا يمكن تطبيقها على الأخص فى تركيا حيث توجد مهب الرياح الدبلوماسية المختلفة »

وفيما يتعلق بالشعوب الشرقية ومعاملة إماراتها ودولها فلم يكن يحمل لها كثيراً من الاعتبار

ولما طالت المناقشات حول المسألة البلغارية نفد صبره وقال : « ها قد انقضى يومان والمجلس الأعلى يتناقش فى المسألة البلغارية .. وإنه لشرف عظيم لم يكن ينتظره البلغاريون .. وانى لا أخفى عليكم كممثل لألمانيا انى لا أعطى لهذه التفاصيل . . إلا أهمية ضئيلة . . لقد قررنا إنشاء ولاية بلغارية ولا نعرف هل يوجد لبلغاريا أمير ؟ فاذا وجد كان ذلك من حسن الحظ . على انى أرى أن لا محل للاهتمام بهذه المسألة . ولا ما سيكون لها من دستور .. ونظام . . »

ولما طلب اللورد سالسبورى ، أحد مندوبى انجلترا ، للمرة الثانية تعيين يوم للمناقشة فيما كان يسميه المسألة الأرمنية ، صاح بسمرك بأعلى صوته : « ما هذا ؟ أمسألة أخرى ؟ ! »

وعند ما كان المندوبون العثمانيون والروس يتناقشون فى تعداد اللاز — أحد الأقليات فى تركيا — وكان قد انضم الانجليز الى المناقشة قال بسمرك للورد سالسبوري : « لا أشك يا سيدى ان « اللاز » جزء من الشعوب الشرقية ، الا انى أتساءل هل هم يستحقون فى الواقع أن نخصص لهم جزءاً من وقتنا وقد اقتربت أيام الحر منا . . ! »

***

يقول قره تيودورى باشا : « على انه لا يسعنا الا أن نقرر بأن مرد هذا الاستعداد النفسى عند البرنس نحو هذه الشعوب لا يرجع الى آرائه الدينية . نعم قد يكون لهذا العامل أثره عند



صورة « تتويج العذراء » للرسام الايطالى رفايلنو دى جاربو ، تبدو فيها صورة إحدى الطنافس القوقازية

فان لها جمالا قوياً ناصعاً لا يدركه الا من شاعت فى نفسه روح الكراهية لهذا العصر الآلى الذى قضى بآلاته على الفردية فى الفنون وهى لعمر الحق ملاك الفن الجميل . وفى مجموعة حضرة صاحب المعالى الدكتور على ابراهيم باشا واحدة من هذا النوع تحمل تاريخ صنعها (١١٣٧ هـ) وهذا أمر قليل الحدوث فى الطنافس مما يجعل لتلك التحفة قيمة أثرية فوق قيمتها الفنية . والواقع ان مجموعة معاليه لتزخر بأمثلة كثيرة من الطنافس الشرقية على اختلاف أنواعها وعصورها ويعتبر معاليه بحق أعظم من ساهم فى العناية بهذا النوع من الفن الاسلامى فى الشرق والغرب الأمر الذى يرفع من مكانة مصر فى أعين الأمم المتمدنة

الامبراطور . ولكن المستشار لا يقيم لهذا الاعتبار وزناً . ان كل شيء عنده يرجع الى السياسة والسياسة دون غيرها »

هتلر وبسمرك

واننا نرى تكملة لهذا البحث أن نورد بعض ما قاله هتلر عن بسمرك مما يدل على استمرار الروح البسمركية فى السياسة الألمانية ، مع استعدادها للتوسع والانتشار — وذلك عند ما خطب هتلر فى حفلة إنزال البارجة الحربية « بسمرك » فى فبراير سنة ١٩٣٩ . وهى البارجة التى أغرقها الأسطول البريطانى فى الاطلانطيق أخيراً فى مايو سنة ٤١

قال هتلر خاصاً بالبرنس بسمرك مشيراً الى تسمية البارجة باسمه « — ومن بين أسماء الرجال الذين مهدوا لعظمة ألمانيا اسم بسمرك » . ثم قال عنه — « إنه قضى ثمانى سنوات وزيراً للخارجية البروسية ، وقد نجح خلالها فى جعل بروسيا الولاية صاحبة النفوذ فى ألمانيا وفى تأسيس الريخ الألمانى الجديد

« ولا صحة لما يقوله الجاهلون بالتاريخ من أن هذا العمل لم يتم إلا بمساعدة التطور السياسى فى ذلك العهد . فقد كان فى الحقيقة نتيجة جهود شخصية فذة ذات مواهب غير عادية

« وقد جاهد بسمرك للتغلب على عوامل قوية لا تحصى فى نفس ألمانيا وفى العالم

« اننا نعجب بما كان لبسمرك من بعد النظر والحكمة والعزم الثابت الذى استطاع به التغلب على كل مشكلة . وقد دفعه الشعور بالواجب الى الالتجاء للسلاح ثلاث مرات لحل المشاكل التى وجد أن قرار الأغلبية لا يكفى لحلها

« ان بسمرك أوجد ظروفاً جعلت إيجاد الدولة الألمانية الكبيرة ممكناً . واذا كان بسمرك لم يتمكن من اتمام هذا العمل فذلك لأنه لم تكن الأداة متوافره لديه للسير فى نضاله الى النتائج الاخيرة»

ثم أشار الى سقوط بسمرك واستئثار الامبراطور غليوم الثانى فقال : « ان الرجل الذى تدين له ألمانيا بكل شيء قد مرض فأعفى من منصبه . وان ما حدث بعد ذلك من موقف بعض الدوائر السياسية فى ألمانيا ازاءه (يشير الى الامبراطور غليوم الثانى) يعد صفحة غير حميدة فى تاريخ ألمانيا الوطنى . . .

« ان العناية الالهية أكثر عدلا من المخلوقات الآدمية ، فالحكام والأسرات والقسس السياسيون والديموقراطية الاجتماعية والمبادىء الحرة والبرلمانات فى الولايات الالمانية وأحزاب الريشستاج — كل هذه الاشياء قد اختفت من الوجود . . . ووجدت العقيدة الوطنية تلك العقيدة الفلسفية القومية التى يقوم عليها هذا الريخ الذى تمناه بسمرك حقيقة قائمة . . . »

راشد رستم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

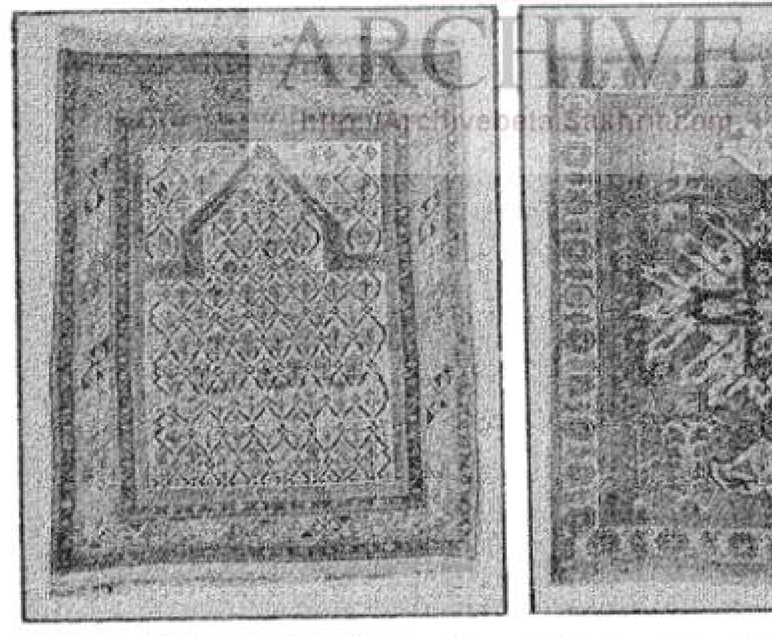
وتنتج مقاطعة شروان الواقعة فى الجنوب الشرقى من بلاد القوقاز طنافس قريبة فى روحها من طنافس القوزاق . ولكنها تختلف عنها فى أن زخارفها مزاج من العناصر القوقازية والعناصر الايرانية ، ومن أظهر هذه العناصر العقرب والشبت (أبوشدت) والزخرفة المعروفة باسم « القصر » . أما الألوان التى يكثر استعمالها فهى الأحمر والأزرق والأصفر والأبيض . واطارها يتراوح بين ثلاثة أشرطة وخمسة أحدها يمتاز باتساعه . وتصدر هذه الطنافس من ميناء باكو الذى هو أيضاً علم على طائفة من الطنافس القوقازية تمتاز بتلك الوحدة الزخرفية التى تشبه الكمثرى فى شكلها ، وباطارها الذى قد يتكون من ثلاثة أشرطة أو من ستة أو مما بين الثلاثة والستة

وطنافس مقاطعة داغستان - أى الأرض الجبلية - خير ما يمثل الطنافس القوقازية ، فقد احتفظ نساجها بتقاليدهم القديمة فى النسج والرسم والصباغة والتلوين . وتزدحم فيها الوحدات الزخرفية على عكس طنافس قره باغ السالفة الذكر فلاتكاد ترى بقعة من سطحها خالية من زخرف يزينها ، وأهم هذه الوحدات الأمشاط والوريدات ، والنجوم المتعددة الأضلاع والأشكال الهندسية الصغيرة ، وقلما نرى فى هذا النوع الزخارف النباتية وإن وجدت فمن الصعب تمييزها ، واطارها يتكون من ثلاثة أشرطة متوازية أما ألوانها فأخصها اللون العاجى الجميل

ولهذه المقاطعة عاصمة كبيرة هى دربند - أى الباب الحديدى - تنسب اليها طنافس تحمل اسمها وتشبه فى تكوينها وزخارفها طنافس داغستان ولكنها تمتاز عنها بطول خملها ، وبساطة ألوانها ،



مثال من طنافس القوزاق . ترجع الى القرن التاسع عشر وموجودة بمتحف فكتوريا والبرت بلندن



مثال من طنافس داغستان مؤرخة ١٢٨٧ هـ (١٨٧١ م) . موجودة بمتحف فكتوريا والبرت بلندن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

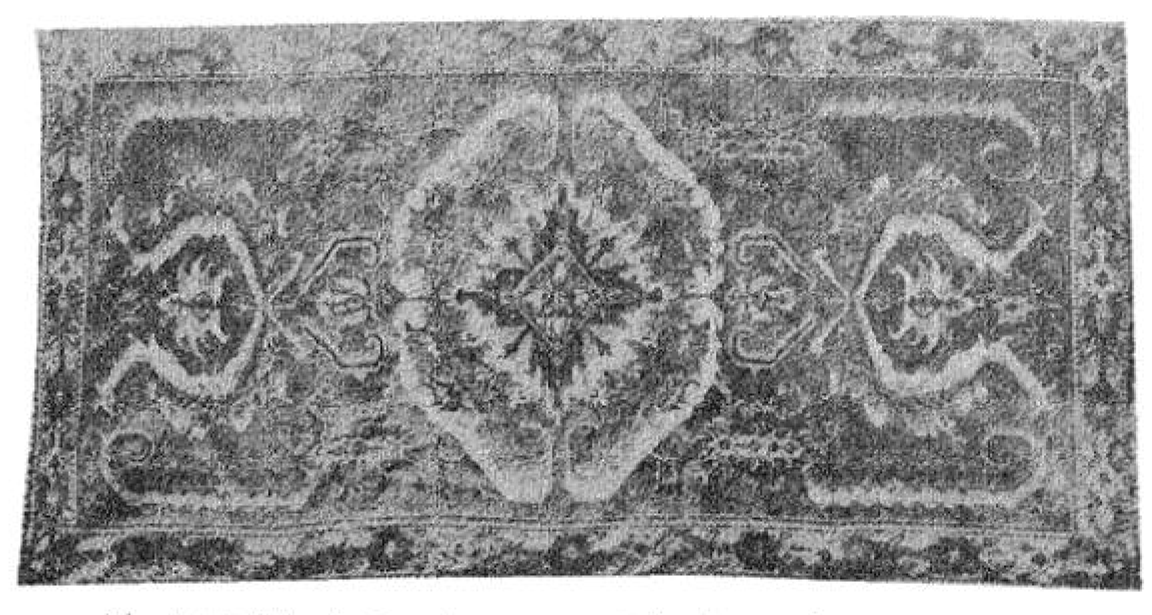
القومية المصرية فى عهد الفراعنة

(بقية المنشور على صفحة ١٧٦)

من هذا النوع . وهذه الناحية السمحة من نواحى القومية المصرية هى التي أكسبت مصر عظمتها، بدون أن تضر بوحدتها . وهى التى جعلتها تتجدد باستمرار ، وذلك بأن تجلب وتستخدم لمصلحتها ماوية النشاط والذكاء المبعثرة فى الشرق كله ، ولو قضت الاوهام العنصرية على مصر بأن تعيش منكمشة على نفسها، لأعوزتها تلك الماوية فى بعض الاحيان بصورة خطرة . وهذا المسلك المنطوى على التسامح والترحيب ، والذى سلكه معظم الفراعنة ، قد أثر فى المبادىء اللاهوتية ووسع دائرتها . فان المذهب الساذج، القائل بأن مصر ملك لهوروس ، والبلدان الاجنبية خاضعة لسيث ، بقى معمولا به فى التصاوير الرسمية الى آخر عهد الحضارة المصرية . وهو الذي أوحى - حتى فى عهد أشد البطالسة تشبعاً بالحضارة اليونانية - بالرسوم التقليدية التى تمثل الاسيويين والافريقيين مقيدين تحت عرش فرعون أو تحت موطىء قدمه ، كما أوحى أيضاً بالرسوم المنقوشة على أعمدة المعابد ، حيث يرى الملك وهو يذبح جماعة من الاجانب أمام الآلهة ، ذبح الأنعام الحقيرة . وذلك المذهب يتجلى مرة أخرى بصورة فجة ، فى زمن الدولة الوسطى ، فى تصنيف أسطورة « كتاب الليل » فان الحلقة السادسة من هذا الكتاب تظهر جميع الأجانب مقضياً عليهم بالهلاك فى العالم الآخر ، لأنهم ثائرون على أوزوريس ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان مبدأ مختلفاً عن المبدأ السابق يظهر فى زمن الدولة الحديثة ، ويتجلى فى مدافن وادى الملوك . فان الجزء الرابع من « كتاب الابواب » يرينا جميع الاجناس البشرية وهى تشترك ، بصفتها من المقربين الى الآلهة - فى موكب الشمس الشرقى ، فى العالم الآخر . فقد حدث فى خلال ذلك ، وعلى أثر فتوحات الأسرة الثامنة عشرة فى طيبة ، أن استعمرت الحضارة المصرية الشرق الادنى وبسطت نفوذها على الاقطار الافريقية المجاورة ، ودخلت هذه البلدان فى مجال نفوذ مصر السياسى والدينى، وصار سكانها يحترمون فرعون وآلهة المصريين ، ولم يعودوا كما كانوا عصاة بل أصبحوا متساوين لعباد هووروس ، أمام الآله وأمام الناس

***

لكن مصر الفراعنة لم تكن دائماً فى مأمن من المتاعب ، فى خلال تاريخها الطويل ، من جراء علاقاتها بالأجانب . فان رسالتها التهذيبية - الرامية إلى إعادة الشعوب المجاورة الى طاعة هوروس ، وإدخالها فى دائرة الثقافة المصرية ، وإدماجها فى مجموع سكان وادى النيل - قد عرفت مراراً خيبة الأمل ، وأدت أحياناً الى رد فعل عنيف . وعملت مصر على تهذيب بعض



مثال من طنافس كابستان (كوبا) من القرن السابع عشر من مجموعة حضرة صاحب المعالى على ابراهيم باشا

وغلبة اللون الأصفر عليها ، وتكرار وحداتها الزخرفية بألوان مختلفة من أحمر وأزرق وأصفر

ويعيش فى الشمال الغربى من تلك المقاطعة قبيلة قوية من القبائل الرحل اسمها تشتشى تنسج نوعاً من الطنافس يذكرنا بطنافس شروان التى ذكرناها آنفاً ، زخارفها مزيج من العناصر القوقازية والعناصر الايرانية ، ولها اطار مكون من ثلاثة أشرطة يضم زخارف نباتية وهندسية

ويقع فى جنوبها الغربى مقاطعة كابستان التى أخذت اسمها من كوبا الواقعة على بحر الخزر ، وتمتاز طنافس هذه البقعة بألوانها المتعددة من أحمر وأخضر وأزرق وأصفر وأبيض ، وهذا اللون الاخير هو المفضل عليها جميعاً . وزخارفها كزخارف طنافس شروان مزاج من العناصر القوقازية والعناصر الايرانية ، ولكننا نلاحظ هنا ان الفنان يحاول أن يخضع فى رسمه الزخارف النباتية للقواعد الهندسية ، فتراه يعامل الاغصان والفروع والأوراق والزهور كما يعامل شكلا هندسياً يجعل خطوطه مستقيمة وزواياه واضحة أي أنه لا يبدو فى تلك الزخارف النباتيه الليونة والمرونة التى نشاهدها فى الطبيعة ، ولئن كانت طنافس داغستان تميل الى التمسك بأهداب التقاليد القديمة فان طنافس كوبا أميل الى السير على نمط طنافس ايران

* * *

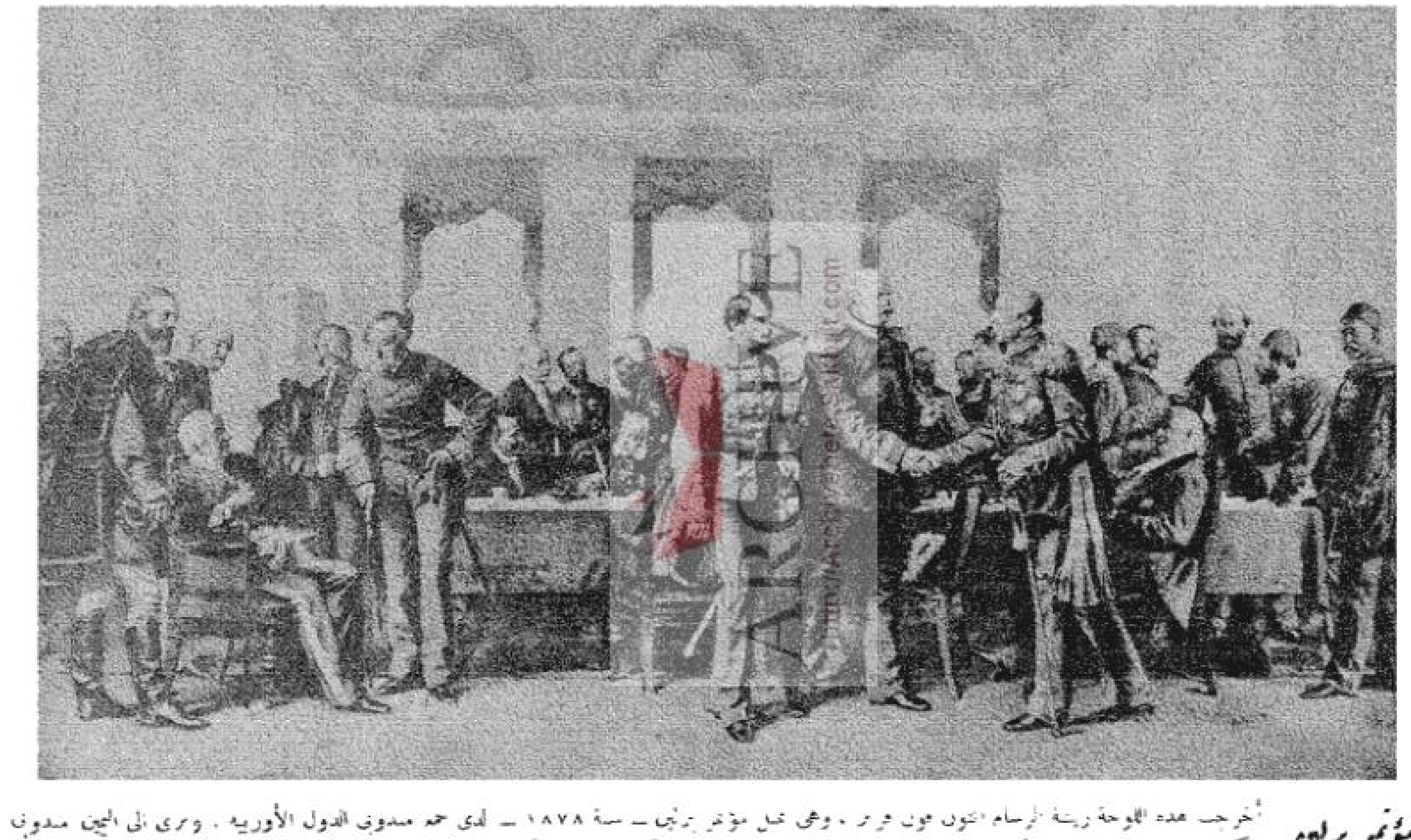
هذه الطنافس القوقازية التى أجملنا بعض خصائصها لا تخرج فى الواقع عن كونها لوحات رائعة يتجلى فيها فن نقى متوافق الألوان موزون الروى ينطق بعظمة القوقاز ويكشف عما ساهمت به فى المجد الفنى الخالد الذى سما اليه المسلمون فى العصور الوسطى

الشعوب المجاورة فأحيت قوميات انقلبت عليها فى أول فرصة سانحة . واصطدمت مصر أيضاً بنفوذ مدنيات كبيرة أخرى ، كالمدنية البابلية مثلا . وأخيراً كانت مصر دائما فريسة ممتازة، تغرى ثروتها أول من يظن نفسه قادراً من الفاتحين على الاستيلاء عليها عنوة

غير أن القومية المصرية – فى خلال تلك المصاعب – كانت دائماً تقاوم بقوة ، ولم تدع للقنوط سبيلا اليها ، بل انها قد فرضت نفسها فرضاً على الفاتحين ، من الرعاة الهكسوس الى قياصرة الرومان ، فانهم قد اضطروا جميعاً ، لكي يتمكنوا من البقاء على عرش مصر بعد أن فتحوها ، أن يرتضوا العمل بمراسيم التشريفات الفرعونية ، ويكتبوا أسماءهم بالحروف الهيروغليفية . ويتخذوا لأنفسهم أوصاف الملكية كما وضعها هوروس، ويقبلوا أن يسموا أنفسهم ورثاء عرشه ، ويظهروا أمام الناس على الطريقة المصرية وفاقاً للقوانين التقليدية . ولم يكن عملهم هذا على سبيل المجاملة ، لان فكرة المجاملة لم تكن لتخطر بالبال فى العصور القديمة ، بل كان ضرورة لازمة ؛ لولاها لاستحال حكم مصر ، ولبقيت البلاد فى حالة ثورة دموية مستمرة ، لأنها جرحت فى قوميتها ، التى لم تكن منفصلة عن دينها

ومع ذلك ، فان تلك الاحتياطات التى كان الفاتحون يستطيعون بواسطتها أن يخدروا القومية المصرية ، باعطائها ترضية ظاهرة ، لم تكن قط ناجعة تماماً ، ولم تؤد فى وقت من الاوقات الى القضاء على الوطنية المصرية الحقيقية . ونحن نجهل تفاصيل الحركات المعارضة القوية التى رافقت احتلال الهكسوس لمصر ، فى الجيل السابع عشر قبل الميلاد ، لأن جميع الآثار التى ترجع الى ذلك العصر قد اندثرت على ما يظهر ، ولكن حرب التحرير التى انتهى بها ذلك الاحتلال لا تترك مجالا للشك فى اتساع تلك الحركات المعارضة وقوتها . وأما حكم الفرس ، من الجيل السادس الى الجيل الرابع قبل الميلاد ، فان لدينا عنه لحسن الحظ معلومات أوفى . فالوثائق الباقية عن ذلك الاحتلال الاجنبي – الذي خضعت له مصر مدة جيلين ، والذى أقلقته ثورات دموية متواصلة ، وتخللته مراراً عودة أسر مالكة وطنية لم تعش طويلا ، تعطينا فكرة للمقاومة التى واجه بها الشعب حكومة فرضت عليه بقوة السلاح . وذلك بالرغم من أنها أرادت تهدئة خواطره ، فعنيت باتخاذ شكل حكومة قانونية ، وارثة لسلطة هوروس

ويلاحظ فى اطلاق الاعلام المصرية فى ذلك العهد ، وجود أسماء غريبة جداً ، موضوعة بصورة تخالف جميع القواعد التقليدية . وتلك الأعلام هى فى الواقع لعنات صريحة ، « ليكن هوروس ضدهم ؟ » – « لينتصر ايزيس عليهم ! » – « لتثرعين هوروس (أى مصر) عليهم ! » – « ليسحقهم آمون ! » – تلك هى معانى الاعلام التى كان المصريون فى ذلك الوقت يطلقونها بطيبة خاطر على أولادهم ، واذا طلب موظف فارسى ايضاحاً بهذا الصدد ، فلا أسهل من أن يجيبوه قائلين ان تلك الاعلام انما يقصد بها اقصاء الأرواح الشريرة ، أو أعداء صاحبي الجلالة الملكين



مؤتمر برلين أخرجت هذه اللوحة ريشة الرسام انتون فون فرنر . وهي تمثل مؤتمر برلين — سنة ۱۸۷۸ — لدى ختم مندوبي الدول الأوربية . ونرى الى اليمين مندوبي تركيا في هذا المؤتمر وهم من اليمين : محمد علي باشا وقره تيودوري باشا (كبير مندوبي تركيا) وسعد الله بك . وقد ظهر بسمرك في وسط الصورة وهو يصافح الكونت شوالوف وعن يمينه الكونت اندراسي . ونرى على الصفحات التالية مقالا للأستاذ رستم عن « تركيا في نظر بسمرك » .

داراواخترت اذا كان لهما أعداء . غير ان الجميع كانوا يعلمون ان المقصود بتلك الاعلام هم الفرس أنفسهم ، كما يدرك الناس ذلك فى أيامنا هذه ، فى بلد يرهقه العدو لو تراءى للسكان أن يطلقوا على أولادهم أسماء كهذه : « ليهلكهم الله ! » أو « ليذهب بهم الشيطان ! » وشيوع هذه العادة فى مصر ، فى ذلك العهد ، دليل على قوة الشعور الوطنى ، ضد الغزاة الاجانب .

وهناك ما هو أروع من هذا كله . فمنذ أقدم العصور كانت الاماكن المجاورة للمعابد المصرية تخصص للاجتماع وتمثيل المآسى الدينية ، فيهرع الجمهور لمشاهدة مغامرات آلهته القومية . وقد وجدت بين الروايات التى جرت التقاليد بتمثيلها ، رواية جديدة ترجع الى العهد الذى نحن بصدده ، ويشهد عدد القطع التى عثر عليها من الرواية بأنها لقيت رواجاً سريعاً . واسمها « عودة سيث » . وهى تمثل الاله المتمرد سيث ، الذى سبق أن طرد من مصر بقرار من الاله الأعلى ، وقد عاد اليها والسلاح بيده . واستولى بالقوة على عرش هوروس . حينذاك تضطرب الآلهة ، وتعيد الغاصب طبعاً الى بلده مهاناً ، مصحوباً بصيحات السخرية المنبعثة من الشعب ، وترجع هوروس الى الملك الذى آل اليه منذ القدم . وعودة سيث هذه لم يكن لها ذكر فى أساطير الآلهة المتناقلة قبل ذلك الوقت . فجلى إذن أن تلك التمثيليات قد أوحت بها الظروف الطارئة ، وانها مآس ذات ألغاز ، فالاله سيث لم يكن غير ملك الفرس ، الذى أصبح من السهل توجيه الشتائم اليه بغير حساب ، بحجة تمثيل أساطير الآلهة :

. . . . . .

يا سيد الجريمة ، يا أمير الكذب ،
يا قائد اللصوص !

. . . . . .

يا سيد الاختلاس ، المولع بالغدر ،
يا أستاذاً فى السلب يا مرتكب السرقة !

. . . . . .

وفى ختام التمثيلية ، كان طرد سيث يتم على لحن الردة الآتية :
انهم يرجعونك بالخزى والعار الى بلاد آسيا . ! .
إن مصر تخضع لهوروس : وهى تنفض عليك !

***

ومن السهل أن يتصور المرء مقدار الفرح الجنونى ، الذى كان يثيره فى الشعب تمثيل هذا النوع من المآسى ، التى تعبر عن ضغائنه وآماله . ووجود هذه التمثيليات الوطنية ـ ذات اللهجة الشديدة الى حد لا يمكن معه أن تسمح بها اليوم أية رقابة فى بلاد محتلة ـ يجعلنا ندرك مبلغ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهيجان الوطنى الذى كان يتأجج فى مصر ، فى عهد الاحتلال الفارسى

***

تلك هى القومية عند قدماء المصريين ، أعدناها الى الأذهان بسرد بعض الوقائع ، وهى شعور وطنى ذو أساس دينى أو جامع أو غير متساهل ، حسب وجهات النظر ، مثل الايمان الذى كان ذلك الشعور يرتكز اليه

ولم يعتور تلك القومية شىء من العنصرية ، وقد يكون ذلك لأنها ظلت دائماً محتفظة ، بصورة واضحة جلية ، بالناحية التى وجهت اليها والحكمة التى قامت عليها فى الأصل

ففى مصر الأولى ، كما فى غيرها من البلدان ، بعد أن تتابع اختلاط الشعوب منذ الأزمنة الغارقة فى القدم ، لا يمكن أن تكون نظرية نقاوة العنصر غير وهم من الأوهام . وهذا ما عرفه بالتجارب أولئك الذين جمعوا أتربة الارض المصرية ، وعملوا بصبر وأناة حقبة بعد حقبة ، خلال الأجيال بل خلال الآلاف من السنين ، حتى أوجدوا المقاطعات ، فالأقاليم ، فالامارات ، فالممالك ، الى أن برزت مصر موحدة بفضل جهودهم . وفى اليوم الذى تمكنت فيه مصر أن تكون نفسها فى حدود وادى النيل ، استطاعت أن تقرب بعضهم الى بعض — للعمل المشترك فى سبيل غاية سامية واحدة — أناساً ذوى أصول متباعدة متباينة ، من ساميين وليبيين وبيجاس وغيرهم . وقد كانوا جميعاً فى بادىء الأمر تائهين فى الصحراء الواسعة ، ثم استقروا على طول المرتفعات الصخرية المشرفة على النهر العظيم ، ثم ألقى بهم ، مخيرين أو مرغمين ، فى بوتقة الوحدة المصرية . فالايمان المشترك هو الذى أوجد الوطن المصرى ، بتأسيس الدولة الفرعونية . ولم تكن القومية فى عهد الفراعنة ، فى وقت من الأوقات ، إلا مظهراً لذلك الايمان

برناردشو يرد على خطاب فى ثلاث سنوات

أرسلت إحدى السيدات الى الكاتب الانجليزى الأكبر برناردشو تسأله أن يجيبها عن معنى الاشتراكية . فاعتكف فى مكتبه ثلاث سنوات (١٩٢٤ — ١٩٢٦) ليضع هذه الاجابة . وكان يكتب حينذاك قصصاً للمسرح فترك هذا العمل وتفرغ ليجيب عن سؤال السيدة . وكان هذا الجواب سفراً ضخما من مجلدين عنوانه «دليل السيدة الذكية إلى الاشتراكية » . وقال فى مقدمته إنه أراد أن يثبت فى كتابه أن علم الاقتصاد ليس من الغموض والتعقيد كما نرى فى كتب الاقتصاديين بل إنه سهل بسيط الى حد أن النساء انفسهن يستطعن فهمه !

قصة مصرية

اصبع القدر

بقلم الاستاذ احمد عبد القادر المازنى

عزيزتي زينب

اليوم فقط ، وبعد انقضاء اسبوعين ، أكتب اليك هذه الرسالة ، فقد كنت فى شغل عنك وعن العالم أجمع . ألست على شاطىء البحر ؟ وماذا يفعل من يرتاد شطآن البحار غير الاصطياد ؟ وكان صيدى عظيما فخما رائعا من ذلك الضرب الذى طالما تلهفت اليه ، وتحرقت ، وسهدت من أجله ، وسهرت فى التفكير فيه ، ونمت وهو يساورنى فى أحلامى

وأنا اليوم لا يخالجنى شك فى أن الله راض عنى كل الرضاء ، وانى أكاد أكون « ولية » يستجيب الله دعائى ، فاحذرينى وارهبى جانبى بعد اليوم ، فان ابواب السماء مفتوحة لدعواتى

تذكرين انى طالما دعوت الله فى صحوى ونومى وفى قعودى ومسيرى ، أن يمكننى من العثور على شاب عظيم فى ثروته وجاهه وكرم محتده ، وعظيم فيما تسمينه أنت نبل اخلاق ووداعة وما اسميه أنا بلاهة

وقد استجاب الله دعائى يا زينب وعثرت على هذا الشاب الذى يمثل مخلوق خيالى كل التمثيل والذى اشعر كأنى أنا التى صنعت طينته

هو شاب عظيم الثروة يا زينب بل لا أبالغ ان قلت لك انه من اغنياء هذه البلاد المعدودين ولا احدثك عن مكانته فانك طبعا تستطيعين ان تدركى ما تكون عليه مكانة من كان فى مثل ثرائه . والى جانب هذا وذاك فهو كالحمل الوديع ، يستكن الى أحقر رغباتى ، ويلبى أعظم طلباتى فى حمية وحماسة متعادلتين فى الحالتين . لم أر له مثيلا فى خضوعه وطاعته وحلمه . . . ومالى لا أقول بلادته ؟ لقد بذ مخلوق خيالى فى هذه الناحية وانى لسعيدة بضربه الرقم القياسى فى بلادة الطبع ، وهو ما تسمينه حلما ، وفى البلاهة ، وهى ما تسمينه كرم أخلاق وطيبة قلب

وكثيرا ما شعرت بالحنق عليه يتملكنى فأكاد أهم بصفعه ثم تركه ، ولكنى أعود فاتذكر ثروته العظيمة واتذكر بلادته وبلاهته ، فأتمالك نفسى ، وأكبت سخطى ، وابسم له بسمة ترسل الدماء حارة ملتهبة فى عروقه

هو يا زينب يهيم بحبى ، وليس فى هذا ريب أو لبس ، وهو يحسب انى أبادله الحب

وأقاسمه الغرام ؛ بل هو يظن اني أقوى منه حبا ، وأعظم غراما . وما أشد بلاهته ! أى شيء أحبه فيه غير ذلك المال المكدس فى المصارف ؟ ولكن ليذهب به هذا الظن الى أبعد مدى فان هذا فى مصلحتى ، وأى ضير لو حسب انى فتنت بحبه وكلفت بغرامه ؟

غير انه يحنقنى فى بعض الاحيان يا زينب ان يظن هذا الابله انه استطاع ان يستحوذ على قلبى ولكن . . . لا بأس من ذلك ، ليظن ما يشاء ، وخير لى ان يكون من هذا الظن على يقين

أكبر الظن انى لن أعود الا بعد اسبوعين ، وأكبر الظن انه سيكون لى ، كالكلب الامين ، فى عقبى ، فالى اللقاء ايتها العزيزة المخلصة ـ نعمات

وهبطت يد زينب بالرسالة الى ما فوق ركبتيها ، وغامت عيناها بسحابة الحزن والكمد ، وتقطب جبينها تقطب الشجن والألم ، وسهمت نظراتها ، وراحت كلمات الرسالة تتواثب أمام عينيها ، وتطن معانيها فى أذنيها ، وتدوى دويا رهيبا مفزعا

واضطرب قلب زينب بالاشفاق العظيم على ذلك الشاب المسكين الذى وقع فريسة لجمال نعمات وفتنتها والذى لا تعرفه وان كانت من مصيره على يقين

أوليست نعمات ابنة عمها وصديقتها ؟ وانها لتعرف الدقيق والجليل من اخلاقها وطباعها والدفين من ميولها واهوائها

وانها لترثى كل الرثاء ، ومن أعمق أعماق قلبها ، لذلك الشاب العاشق الذى تيمه حسن نعمات الساحر ، وفتنتها الخلابة ، وخفة روحها ، ورشاقة قدها

وعجبت زينب وتساءلت . . الا يمكن لمثل هذا الحسن الخلاب ان ينطوى على حسن مثله ؟ أوليس من المؤلم أن تكون نعمات الساحرة متقلبة الاهواء ، مذبذبة العواطف ، متغيرة الميول ، مفتتنة بالمال وبكل مظاهر الثراء ، تضحى فى سبيله بكل شيء . . وبغير استثناء ؟

ومع كل هذا فانها لتحب ابنة عمها نعمات من حبة قلبها وتعطف عليها و . . . ترثى لها من صميم فؤادها . وتخشى عليها مغبة هذه الميول والاهواء

وشردت خواطر زينب مرة أخرى ، ودارت أفكارها حول ذلك الشاب الذى تجهله والذى أصبحت تعطف عليه ، قبل أن تراه ، عطفا عظيما

***

ـــ زيزى !

ـــ أهلا نعمات ! متى حضرت من الاسكندرية ؟

ـــ اليوم وقد بادرت بالمجيء اليك على الفور

ـــ ولكنك عجلت بالحضور وبكرت عن موعدك !

ـــ كامل طبعا !

ـــ آه ! وهل . . . حضر معك ؟

فابتسمت نعمات ابتسامة شيقة ، وانثنت انثناءة رشيقة وطبعت قبلة على وجنة زينب وقالت :

ــ بل أنا التى حضرت معه ... فى سيارته

فاجتذبتها زينب واجلستها الى جانبها وقالت لها :

ــ قصى على قصتك

فضحكت نعمات وطوقت زينب بذراعها وقالت :

ــ هى القصة المألوفة . رآنى على البلاج ففتن بى ، وراح يتأثر خطواتى ويتعقبنى أينما ذهبت ، ورحت أنا من ناحيتى أبحث عنه حتى علمت انه ... عظيم الثراء ، فشجعته فى دلال وفى كبرياء ، ثم تلاقينا وكان ان رأيت منه انه مفتون بحبى ، كلف بهواى ، وانه كالحمل الوديع . زينب انه كقطعة من قطع الشطرنج احركه كما اشاء فوق رقعة هذه الارض . فأنا الى حد ما سعيدة به ولكن ...

ــ ولكن ماذا ؟

ــ من كان مثله لا يثير عاطفتى ..

فقاطعتها بقولها :

ــ اتعنين انك لا تحبينه ؟

ــ أحبه ؟

وارسلتها ضحكة ساخرة ماجنة وقالت :

ــ ان مثل هذه الاشباح لا تحرك وترا من أوتار قلبى . وهذا القلب لا يزال يا زينب يغط فى سباته . انه نائم ومستطل فى نومه الهادئ حتى يتاح لى أن أعثر على الذى يوقظه ويلهبه

فصمتت زينب ولم تجب ، وراحت نعمات تنظر اليها متفرسة ثم قالت :

ــ انى أعلم يا زينب ان هذه الآراء تفزعك وان ميولى تخيفك و تزعجك ، ولكن ماذا افعل يا عزيزتى ؟ انى طموحة انشد الثروة والجاه والرفاهية والعز ، وأحب الابهة والمكانة الرفيعة ، والمال هو وسيلتى الى كل هذا ، والى الاستمتاع بما انشده واتمناه فى هذه الحياة ، وليس الذنب ذنبى فى انى لا استطيع ان احبه فهو عاجز عن ان يثير هذا القلب

ــ ولكن ما ذنبه هو ؟

ــ ذنبه ؟ ذنبه انه أحبنى

ــ وطبعا ينتظر اما ان تبادليه الحب واما ان تكشفى له عن حقيقة عواطفك

ــ اجننت يا زينب ؟ كيف أضيع مثل هذه الفرصة السانحة وأدعها تفلت من يدى ؟ ومن أين أظفر بمثل هذه الثروة الضخمة ؟

ــ اذن فقد جنت عليه ثروته ؟

ــ كما جنى على حسنى وجمالى . ألم احتمل من جرائه كثيرا ؟ زينب ان المال كالجمال

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

قد يكون نكبة على صاحبه وقد يكون نعمة ، وأنا أريد ان اجعل من جمالى نعمة استمتع بها

فلاذت زينب بالصمت لحظة ثم رفعت انظارها فجأة الى ابنة عمها وقالت :

ـــ وماذا يكون موقفك اذا التقيت يوما بمن يستطيع ان يحرك أوتار قلبك ؟

ـــ موقفى ؟ لست فاهمة

ـــ اعنى ماذا يكون موقفك وانت زوجة لرجل يحبك ولا تحبينه ؟ اتضحين بحبك من أجله ؟ أم النقيض ؟

فبسمت نعمات بسمة خفيفة أخفت وراءها كل ما كان يجيش في قلبها من الخواطر وقالت :

ـــ هذا ما لا أريد أن أفكر فيه اليوم ، لندع ذلك الى حينه

ـــ بل واجبك ان تفكرى فيه منذ اليوم ، ولكنى أرى وراء الاكمة ما وراءها !

ـــ لا تكونى خبيثة يا زينب . دعينا نفكر اليوم فى الالوان المفرحة وفى المتع التى انتظرها . خبرينى ، هل تستطيعين الخروج مساء اليوم ؟

ـــ والى أين ؟

ـــ لست أدرى ، ولكنى ذاهبة مع كامل فى نزهة واحب ان اقدمك اليه . ولكن . .

ورفعت بنانها الرخص الجميل مهددة منذرة واستطردت قائلة :

ـــ ولكن . . حذار يا زينب ان تحولى قلبه اليك وان تفتنيه بعقلك وروحك

فضحكت زينب وقالت : وهل تعهدين فى هذا الطمع ؟

ـــ كلا ولكنى صراحة أخاف منك

ـــ تخافين منى ؟ انك أروع منى جمالا يا نعمات !

ـــ ولكن روحك قوية خلابة يا زيزى واخشى ان تسبى قلبه بقوة روحك ، ورجاحة عقلك . والى جانب ذلك فانت فتانة الحسن

ـــ شكرا لك على هذا المديح العظيم . انى اتقبله ارضاء لك ولكن كونى مطمئنة من ناحيتى ، واذا احببت فانى أمتنع عن لقائه حتى تأذنى لى

ـــ كلا . كلا . ولكنى كالبخيل أخاف على . .

ـــ المال ؟ ـــ نعم

ـــ لتهنئى به فانى فى غنى عنه ـــ اما أنا فلا اشبع منه

***

والتقت زينب بكامل مرة بعد أخرى ، واستطاعت فى هذه المقابلات ان تقف على الكثير من اخلاقه وطباعه وخصاله

وزاد اشفاقها عليه ، واختلج قلبها بالعطف عليه . وقالت يوما لنعمات :

ـــ نعمات . أود أن أعرف حقيقة شعورك نحو كامل

ـــ ما السبب ؟

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـــ سأحدثك في ذلك بعد أن أسمع جوابك

ـــ الواقع انى لا أشعر نحوه بشيء الا .. ببعض الامتعاض والملل ، وأحيانا أشعر انى لا احتمله ولا أطيقه ، وحينا أشعر انى أقضى بعض الوقت مع شبح من الاشباح وفي القليل النادر أشعر بوجوده الى جانبي . ها انت ذى قد فهمت شعورى الحقيقى فماذا تريدين قوله ؟

ـــ انى استفظع كل ما سمعته منك

ـــ ولم ؟ امكرهة أنا على حب أى انسان ؟ وان أشعر نحوه بما تريدين ان يكون عليه شعورى ؟

ـــ وهل انت مرغمة على الاتصال بمن لا تحبينه ؟

ـــ طبعا ما دام غنيا طائل الثروة . وماذا تكون عليه حياتى لو انى أحببت رجلا معدما لا يملك شروى نقير كما يقولون ؟ أنعم بفقره ؟ ايمكن ان يشبعني حبه ويشبع رغباتي واهوائي ؟ كلا يا عزيزتى ، فان من كانت لها مثل ميولى مضطرة ان تصبح ذات شخصيتين احداهما للمال والاخرى للحب

ـــ هذا نفاق !

ـــ والحياة مليئة به ، غاصة بالمنافقين . كل انسان فى هذه الدنيا منافق ولكنهم الى جانب نفاقهم خداعون يخدعون الناس وقد يخدعون انفسهم بظنهم أو بقولهم انهم غير منافقين . اما أنا فاعلن هذا

ـــ ولما لا تعلنينه لكامل كما تعلنينه لى ؟

ـــ يظهر انك فتاة غريرة . هذا ما لا يكون منى . اما .. اذا أردت ان تكشفى له حقيقتى فلك أنت ان تفعلى ذلك

ـــ أنا ؟ انك تهرفين ! انما أحدثك فى هذا الامر لانى أحبك وأعزك ، وأربأ بك ان تقدمى على عمل فيه كل هذه الانانية المعيبة . انى أريد الا تضحى مثل هذا الشاب الكريم على مذبح اهوائك ، فان أصررت على التمسك به فامنحيه حبك وحنانك وعطفك . انه جدير منك بكل ما هو جميل فيك

ـــ يخيل الى انك التحقت بجمعية وعظ وارشاد يا زيزى . كلا يا عزيزتى لن اتركه وكذلك ليس فى استطاعتى ان أحبه

ـــ اذن فاعطفى عليه على الاقل

ـــ وهذا ما فعلته . فحسبه انى سمحت له ان يحبنى ويهوانى ويخطبنى فأقبل

ـــ اخطبك؟ ـــ نعم

ـــ وهل قبلت الزواج منه ؟ ـــ طبعا

فخفق قلب زينب فى شدة ، ولكنها ظلت صامتة ، وقالت لها نعمات باسمة :

ـــ أراك لا تلفظين بكلمة تهنئة ؟!

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فانتفضت زينب وكأنما كانت فى سبات عميق ثم قالت فى تؤدة :

ـــ انى اهنئك من صميم قلبى ، فأنت الجديرة بكل تهنئة

ووقفت على قدميها وغادرت الغرفة

***

كان ثلاثتهم فى السيارة ، ونعمات الى جانب كامل ومن ورائهما جلست زينب ترنو اليهما ، وتنقل انظارها بينهما ، وقد تقطب حاجباها ، وغامت عيناها ، وتقلصت شفتاها تقلص الحزن والكمد

وكانت نعمات تتحدث الى كامل من حين الى حين ، وكامل يبادلها الحديث ، وزينب تنصت فى سكون دون أن تشترك معهما فى الحديث . وفجأة قالت نعمات :

ـــ كامل . هل رأيت السوار البديع المعروض فى متجر بشارع فؤاد ؟

ـــ أى متجر ؟

ـــ لست أذكر اسمه

فقال باسما بسمة السرور : وهل راق فى نظرك ؟

ـــ جدا

فقال فى لهجة تنم على اغتباطه بأداء مثل هذا الامر للتى يهيم بحبها :

ـــ يسرنى يا منية الروح ان أتيك به .. فى اثناء عودتنا

ـــ كيف اشكرك يا كامل ؟

فاشرق وجهه بشرا وسرورا وأدار وجهه اليها وقال :

ـــ يسعدنى يا نعمات أن أجيب لك طلبا فمرى يا حياتى

وشغله هذا الحديث عن الطريق ، فما كاد يعود بنظره الى الامام حتى رأى انه سيصدم سيدة وابنها الصغير ، فثنى السيارة الى اليسار ثنية قوية سريعة . وفى تلك اللحظة كانت سيارة أخرى مقبلة فى سرعة عظيمة لم تستطع معها ان تتفادى الاصطدام بسيارة كامل رغم محاولة السائق

وكان من أثر التصادم ان ارتطمت عجلة القيادة بصدر كامل فى شىء من العنف ، وتطايرت شظايا زجاج الباب المتكسر المتحطم فأصابته بخدوش فى وجهه

وكانت الصدمة عنيفة غير ان الله شاء ان تنجو الفتاتان من شرها والا يصاب كامل الا باصابات غير خطيرة وان كانت شديدة

وتجمع الناس حول السيارة وكان كامل قد أغمى عليه فحمل على الاكتاف الى أقرب صيدلية

وكانت زينب متيقظة الذهن فهبطت من السيارة على عجل وهمت بالعدو وراء الذين يحملون كاملا ، ولكنها سمعت صيحة عظيمة من نعمات فعادت ادراجها وقالت لها فى لهفة :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ــ نعمات ، هل أصبت بشيء ؟

والفتها تنظر في قعر السيارة كأنما تبحث عن شيء ثم قالت :

ــ مصيبة عظيمة . لقد فقدت ساعتي الماسية !

وتطاير الشرر من عيني زينب ولكنها لم تفه بلفظ ، ودارت على عقبيها وهرولت الى الصيدلية وهي تعجب كيف ان نعمات تذكر في هذه اللحظة ساعتها وتنسى خطيبها الذي رأته يحمل على الاكتاف !

***

ــ نعمات ، اعزمت على ملازمته في المستشفى ؟

ــ ملازمته ؟ وما حاجته الي ؟

ــ اظن انه لا بد من وجودك الى جانبه

ــ في المستشفى ممرضات وأنا لست ممرضة

ــ انك خطيبته . . .

ــ وما دخل ذلك في التمريض ؟

ــ يجب ان يكون الى جانبه من يهتم بأمره ويعنى به عناية خاصة ، ومن جهة أخرى يجب ان يشعر بعطفك عليه

ــ انه غني ويستطيع ان يستخدم ممرضة خاصة . اما أنا فلا أقبل مثل هذا الكلام

فصمتت زينب قليلا ثم قالت :

ــ هل تأذنين لي أن أقوم مقامك في خدمته وان انوب عنك في تمريضه ؟

فمطت نعمات شفتها وقالت :

ــ ان شئت

ــ الا يسخطك هذا ؟

ــ ولم يسخطني ؟ كلا بالطبع

واستيقظ كامل بعد منتصف تلك الليلة وهو يشعر بظمأ شديد فقال في صوت خافت :

ــ كوب ماء !

ورأى شبحا ينبعث من فوق مقعد ، وبعد برهة اضيئت الغرفة بنور ساطع ، ووقعت انظاره على زينب ، وفي يدها كوب ماء وهي تقول له في شيء عظيم من اللهفة والحنان :

ــ كيف حالك الآن ؟ كلا انتظر حتى اسند رأسك بيدي ، واسقيك الماء . . لا . . لا . . لا تأت بحركة

وانسل ذراعها تحت عنقه في عطف الام ، ورفعت رأسه في رفق ومدت يدها اليسرى بكوبة الماء

وقال لها بعد ان ارتوى :

ــ خبريني ماذا حدث ، فاني لا اذكر الا ان سيارة اصطدمت بسيارتنا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـــ وماذا يحدث من وراء هذا الاصطدام الا ان يصاب أحد الراكبين بجروح ؟ فاصبت انت بخدوش طفيفة ورضوض تافهة . وقد علمت من الطبيب انك ستشفى فى خلال أيام قلائل

ثم ابتسمت وقالت : على شريطة ان تطيعنى

ـــ لك منى الطاعة يا دكتورة ولكن .. لم انت هنا ؟

ـــ الا تريد أن أكون الى جانبك ؟

ـــ هذا تعب ما كنت لارضاه لك البتة .. هنا ممرضات ..

فقاطعته بقولها : وانا كما تقول دكتورة

ـــ واين نعمات ؟

ـــ لقد أنابتنى عنها

ـــ أفى مثل هذا تجوز الانابة ؟

وابتسم ابتسامة غامضة ..

وظل كامل اسبوعين فى المستشفى ، وزينب لا تفارقه طرفة عين حتى شحب لونها ، وغاضت عيناها وظهر الاعياء عليها ظهورا واضحا جليا

وكامل يرى ويبصر كل هذا ، وكل ما تقوم به من أجله فى نشاط عجيب ، ويرى تفانيها فى خدمته ، والى جانب هذا يرى .. نعمات .. نعمات خطيبته تحضر كل يوم ولكنها لا تجلس فى غرفته بل تسعى الى حجرة الطبيب وتجالسه الفترة التى تمكثها فى المستشفى ثم تعرج على غرفته ، فى رفقة الطبيب أيضا ، وهى تهم بمغادرة المستشفى وتودعه بكلمات موجزة لا عطف فيها ولا حنان .. كلمات ترددها كل يوم بنصها وفصها ..

وكان كلما سأل عنها قيل له انها مع الطبيب .. كأنما المريض هو الطبيب ..

***

واستيقظ كامل فى بكرة الصباح يوما ، ورأى زينب جالسة على المقعد وفى يدها كتاب تطالعه ، غير انها لم تكن تقرأ شيئا ، فقد كانت العبرات تنحدر على وجنتيها الذابلتين وهى لا تحاول تجفيفها . فاغمض عينيه نصف اغماض حتى يرى ولا تشعر بيقظته

ورأى نظراتها تنتقل اليه . فتزداد العبرات انهمارا!

وراح يفكر تفكيرا عميقا فيما رأى وسمع خلال الاسبوعين الاخيرين :

ـــ زينب !

وجفلت زينب فى مقعدها ، وعجلت بتجفيف عبراتها وقالت : هل استيقظت ؟

ـــ نعم

ـــ هل انت بحاجة الى شىء؟

ـــ الى كل شىء .. الى الحياة نفسها

فنظرت اليه مشدوهة وقالت : لست فاهمة !

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

— دعيني اوجز القول ، واختصر الطريق

وانبعث من فراشه ، وهبط الى الارض ، وامسك بيدها ثم قال :

— انظري يا زينب ! الا ترين هذا الفجر الجديد الذي ينبثق من وراء الافق فيخلق يوما جديدا ، وحياة جديدة ؟ وقد رأيت فيك فجرا جديدا ينبثق من وراء ... من وراء تلك الحادثة التي وقعت لي ، ورأيت على ضوء هذا الفجر ان .. انك فتاتي الوحيدة في هذا العالم التي استطيع ان انعم بالحياة الى جانبها بل التي استمتع في وجودها بانبل واشرف واسمى عاطفة انسانية .. عاطفة الحنان . لقد شاء القدر ان يدفع بأصبعه في حياتنا فحدث الاصطدام ، وجيء بي الى المستشفى ، ووجدت نعمات في الطبيب حبيبا ، ووجدت فيك رفيقة الحياة المرجوة ، وراح قلبي يشفى من مرضه القديم و .. وينعم الله عليه بحب جديد .. ولست أرجو حبك فهذا أمل كبير قد لا استطيع أن أطمح اليه وان كنت أتمناه ، ولكني ارجو عطفك علي وحنانك .. وارتضاءك الزواج بي ، فماذا ترين يا زينب ؟

— ولكن ...

— لا اعتراض يا زينب فنعمات ليست لي وقد اعتزمت الزواج من الطبيب ، وماخلقت أنا الا لك فماذا ترين ؟

وبرقت عيناها بريقا ساطعا قويا وهي ترنو اليه ، فما وسعه الا أن احتضنها الى صدره ، وهصرها في ضمة قوية وهو يقول :

— لست مستطيعا والله ان أحتمل منك هذه النظرة التي تصهر الحديد ، وأنا رجل مريض ...

— ألم تقل انك شفيت ؟

— من كل أدواء الدنيا الا منك فلن اشفى ، ولا أريد لنفسي الشفاء من حبك

فضحكت وقالت :

— اذن ليقض الله علينا بمرض الحب ، حب بعضنا البعض ، الى الابد يا كامل ، وليهبني من لدنه قوة لاسعادك

احمد عبد القادر المازني

استدراك : جاء في السطر الخامس عشر في صفحة ٢٨٥ عبارة « ... لم اشهد خلاله منظر الدم حتى اشتهيه » وصحتها « لم اشهد خلاله منظر الدم حتى اشتهيته »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحركة الفكرية

التوفيق بين الجسم والعقل

هذا ما يريده توماس مان !

في الارض حرب هائلة ، ولكن في الانسان حربا أشد منها هولا !

حرب بين الجسم والعقل ، بين تراثه الحيواني وتراثه العلوي !

هذه هي الحرب التي يريد ان يصفها ، ويريد ان يخمدها ، الفيلسوف القصصي توماس مان في روايته الرمزية « الرؤوس المنقولة » . هي رواية وجيزة في مائتي صفحة « يستريح » فيها تأهبا لعمل روائي ضخم يضيفه الى اسفاره الكبرى عن « جبل السحر » و « يوسف » . انتقل في هذه الرواية من حكمة « جوتيه » الانسانية ، ومن حكمة « اسرائيل » العمومية ، الى حكمة « الهند » الواقعية . فأخذ من الادب السنسكريتي خرافة بنى عليها قصته الفلسفية التي تقع حول معبد الالهة « كالي » التي تمنح الحياة كما تمنح الموت التي تهب الحرية كما تعاقب بالرق !

حدث في الازمان الخالية ، عند ما بدأ الناس يعقلون ، وبدأ التاريخ يذكر ما يجرى ، ان نشأت صداقة قوية مخلصة بين رجلين في سن الشباب . هما شريدمان وناندا . كان كل منهما يحب الآخر حبا جما ، فان ما بينهما من صور التقارب كان أقوى كثيرا مما يختلفان فيه ، وقد أرادا ان يجعلا من نفسهما وحدة تسرى فيها طباع واخلاق واحدة . كان شريدمان أكبر من صاحبه سنا ، واوفر مالا ، وأرفع أصلا ، وكان جسمه اكثر امتلاء . أما صاحبه فكان أنيق الرأس حسن الطلعة . ولم يكن يعنى كثيرا بالمسائل الروحية ، بل كان منصرفا الى العمل والمرح ، شأن ابناء العامة من الناس .

ارتحل الاثنان في شأن من شؤون التجارة حتى بلغا معبد الالهة كالي ، فدخلا اليه يصليان ويستأنفان حديثهما في مسائل الدين والفلسفة ، وبينما هما مستغرقان في هذا الحديث وقد سرت فيهما روح المعبد وسر الالهة ، اذ تبدت لهما فتاة جميلة عرفها ناندا اذ لقيها من قبل في احدى الحفلات . هذه هي « سيتا » ذات الجسم الجميل الكامل . ولكنها سرعان ما اختفت وعاد الصديقان الى حديثهما

تقابل الصديقان بعد ثلاثة أيام فأفضى شريدمان الى صاحبه بأنه مكتئب محزون لانه يحس الحب للفتاة التي رآها في المعبد ، واذ كان لا يدرى سبيلا اليها ، فانه لا يريد ان يعيش بل يتمنى الموت عاجلا . فقال له ناندا انه لا يصبر على الحياة يوم يودعها صديقه . ولكنه يعرف «سيتا» ويستطيع ان يزوجه منها ان أراد . وذهب الرجلان الى أبيها وتزوج شريدمان من سيتا

ويذهب بها الى قريته . وتمضى اشهر ستة ويأتى الثلاثة ليزوروا أبا سيتا فيمروا في طريقهم بمعبد الالهة كالي . ويهبط شريدمان من العربة الى المعبد ويقف برهة امام تمثال الآلهة حيث تنفذ رائحة الدماء في خياشيمه ، بينما هو يتأمل صورة الآلهة وقد اتخذت عقدها من الجماجم ، وامتدت من جوانبها أذرعها الثماني عشرة بأكفها الغليظة . تتراءى له حينئذ حياته مع زوجه التي تشعره في الخفاء بأنها لم تنل من السعادة التي تحبها ، والتي يرى في نظرتها الى صديقه ما يدرك منها شعورها الخفى . تكبر هذه الصورة في ذهنه فيستل السيف الموضوع امام التمثال

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتأتيه سجاعة الرجل الذى فقد سعادته ، فيفصل رأسه من جسده

يستيقظ« نانداً صاحبه فيذهب ليراه ، فما ان يقع بصره على جثته حتى يذكر ما قاله من انه يؤثر الموت على الحياة يوم يفارقها صديقه ، فيأخذ السيف ويطيح به رأسه عن بدنه . وتقبل « سيتا » فتجد الزوج والحبيب قتيلين . فيغشى عليها من الفزع حتى اذا أفاقت لقيت الالهة منتصبة امامها . وقالت لها الالهة : أتسيرين سيراً رشيداً مخلصاً ان انا بعثت الى الحياة زوجك وصاحبه ؟ اذن فاذهبى وخذى الرأسين من شعريهما وضعى كل رأس على جسده ، فيتصلان وتعود اليهما الحياة . قامت سيتا تفعل ذلك ، ولكنها اخطأت فوضعت كل رأس على الجسد الآخر . فأصبح جسد زوجها برأس حبيبها ، وجسد حبيبها برأس زوجها . فمن منهما الزوج ومن منهما الحبيب ؟

وهل الحب يتعلق بالرأس أم بالجسد ؟

وهل السعادة الزوجية تأتى من عقل الزوج أم من بدنه ؟

هذا هو هيكل القصة التى يشرح فيها توماس مان فلسفته القائمة على ان الصراع بين العقل والجسم ، بين الروح والمادة ، بين الفكرة والتنفيذ لابد ان يفسد الاثنين معا وينتهى بهما الى العبث والعطب والفناء . انما يتصلح أمر الفرد ، كما يتصلح أمر العالم ، اذا كان ثمة علاقة وثيقة تؤدى الى التعاون بين العقل والجسم — بين المبادىء والوقائع — بين الفضائل والرذائل

اوربا بعد نابليون

وأوربا بعد هتلر

توماس مان فى ألمانيا يقابله فيريرو فى ايطاليا هذا الادب المؤرخ الفيلسوف الذى أنكر الطغيان وثار بالديكتاتورية . وأبى ان يهدأ فى وطنه تحت سطوة موسولينى وعسف الفاشستية فغادر ايطاليا مطوفا فى بعض عواصم أوربا حيث يكتب ويؤلف ويحاضر مناهضا الحكم الديكتاتورى مبشرا بالديموقراطية المنشودة — الديموقراطية التى تحقق العدالة عمليا كما تفترضها نظريا — أى الديموقراطية التى لا تكون الحرية فيها سلاحا للقوى والغنى يشهره على الضعيف والفقير ، بل الطريق الذى تتخذه عامة الناس ليمكن لها ان تعيش الى جانب الخاصة منهم عيشة منتجة كريمة

أخرج هذا المفكر الكبير أخيرا كتابا عما جرى فى أوربا سنة ١٨١٥ عقب سقوط نابليون ليقدم للعالم نموذجا عما يجب ان يكون عليه أمر أوربا عند ما تحل الهزيمة بهتلر . فعرض فى ثنايا الكتاب وجوه الشبه بين الطاغيتين ، وبين ثورتيهما العسكريتين ، وبين أوربا الراهنة وأوربا فى مستهل القرن الماضى

دامت حروب نابليون عشرين عاما خرج فى خلالها من نصر الى نصر ، وفرض فى اثنائها على الشعوب المقهورة نظاما اثر نظام ، ولكنه لم يستطع خلال هذا العهد الطويل وبرغم هذا النصر المتصل ان يثق يوما ما بالفوز النهائى . كانت أوربا تزداد كرها له وتألبا عليه كلما أحرز نصرا جديدا وكلما بدا له أن يرسخ قدمه فى أرضها . أليس هذا هو شأن هتلر اليوم ؛ كلما ظهر على شعب من الشعوب ، باعد ذلك بينه وبين النصر النهائى ، اذ يضاف هذا الشعب الى قائمة أعدائه الذين يتربصون به الدوائر ؟! وكذلك كانت فرنسا النابليونية كألمانيا الهتلرية تعيش فى قلق دائم وخوف متصل ، كان رجال نابليون يعلمون ما يعلمه الآن أعوان هتلر من ان العالم كله يناصبهم العداء ويترقب اليوم الذى يذيقهم جزاءهم وفاقا فلم يستطيعوا ان يوقفوا رحى الحرب خشية ان تدور عليهم فتطحنهم طحنا ، فاستمروا فى القتال حتى استنفدوا جهد الجيش وروح الشعب ، فكان تذمر الفرنسيين اولا ، وتألب الشعوب المقهورة ثانيا صدعا خطيرا فى بناء نابليون ما زال به حتى قوضه تقويضا

كان فى فرنسا حينذاك رجل داهية لا شك ان فى ألمانيا اليوم من يماثله ، هذا هو تاليران الذى اتخذه فيريرو محورا لكتابه . كان هذا الرجل من أعوان نابليون ولكنه كان يدرك الهوة السحيقة التى يزج نابليون بفرنسا فى قرارها . وأعد العدة للثورة على زعيمه انقاذا لوطنه . فهل من داع للعجب ان اظهرت الايام ان فى ألمانيا – بل فى حاشية هتلر نفسها – من يفكر الآن فى سحق النازية انقاذا لالمانيا ؟ ان كثيرا ممن عاصروا نابليون ، وكثيرا ممن أرخوه ، يرون تاليران خائنا غدارا . ولكن فيريرو – وهو مؤرخ حر التفكير مفكر بعيد النظرة – يرى فى تاليران بطلا وطنيا ، فقد ضحى برجل لينقذ شعبا واحتمل تهمة الغدر تضحية منه فى سبيل فرنسا

ولكن هل سلم تاليران من الفتنة والخداع ؟ ان أول حافز أثاره على نابليون كان عند ما أعلن الاسكندر قيصر روسيا ان « الحلفاء » لا يريدون شرا بفرنسا برغم انها شهرت الحرب وأثارت العدوان عليهم مدى اثنين وعشرين عاما فهم لا يريدون افقارها ولا اذلالها ولا ينوون فرض غرامة عسكرية عليها ، وسيبقون على حدودها كما كانت سنة ١٧٩٢ قبل قيام نابليون ، بل انهم سيتركونها حرة فى اختيار الحكومة التى ترضاها ، ولا يقسرونها على النظام الملكى ان كانت تريد الاخذ بالنظام الجمهورى . هذه الوعود فتنت تاليران ، فقابل قيصر روسيا وتحدث اليه فيها ، فقر رأيه على ان ينفصل من نابليون وينحاز الى اعدائه متى واتته الظروف ، فلما انهزم نابليون وعقد مؤتمر ميونيخ كان ممثلا لفرنسا فيه . ولكن النتائج التى انتهى اليها هذا المؤتمر – وهى النتائج التى أرادها بطل الرجعية وعدو الثورة والتحرير «مترنيخ» – تدل على ان تاليران لم يسلم من الخديعة برغم دهائه المشهود

على ان هذا المؤتمر قد اتاح لاوربا – فى رأى فيريرو – فترة من السلم لم تنعم بمثلها منذ ان شبت الثورة الفرنسية وصار أمر الحكم بيد طبقة العامة ، فقد كان سلما صحيحا خلوا من روح التسلح والتهديد والارهاب كما شهدنا فى فترتى السلم التى سبقت الحرب القائمة والحرب الماضية

ويخلص فيريرو من هذا الكتاب الى أن أوربا فى حاجة الى من ينشئها من جديد وان على بريطانيا بفضل سياستها ومكانتها ان تصلح ما فسد من شأن أوربا . ويكون هذا الاصلاح بانشاء ديموقراطية راسخة تسود شعوب أوربا وتعلمهم معنى الحكم البرلمانى ومعنى الانتخاب الحر ومعنى حق المعارضة . فهل أصاب فى هذا أم ان « الجنرال دى جول » كان أدنى منه الى الصواب حين قال فى كتابه الحديث « جيش المستقبل » ان البرلمانية فى فرنسا ليست أقل وزرا ولا نكرا من بيتان وجماعته ؟! ان الخطأ الذى يستهدف له هؤلاء المفكرون انهم حين يؤمنون بمبدأ من المبادئ يريدون اطلاقه وتعميمه دون نظر للبيئات والاوساط . فهم لا يريدون ان يقدروا ان البرلمانية فى صورتها الصحيحة لم تتحقق الا فى شعب واحد هو الشعب الانجليزى لان له من الخصائص الذاتية ما يلتئم مع هذه الديموقراطية . وما رأيك فى شعب عاش طول حياته مكتفيا بحزبين اثنين بينهما حزب ثالث صغير مهمته ترجيح أحدهما على الثانى ؟ وما رأيك فى شعب ما يزال يؤمن بأن خير حكامه هم من انحدروا من الاوساط العالية والاصول الرفيعة وانهم أولى بالثقة مما نشأوا فى غمار الفقر وبيئة الجمهرة ؟ اما البرلمانية فى فرنسا فاخفاقها أوضح من ان يحتاج الى كلام . اما البرلمان فى امريكا فليس صاحب سلطة مطلقة ، اذ رئيس الجمهورية ليس الا ملكا منتخبا ، يقيده الكونجرس ببعض القيود وتقوم المحكمة العليا بتقييد الكونجرس والرئيس معا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العِلمُ والعالَمُ

« خيال » الاختراع

ينمو وقت الحروب والشدائد

تعودنا فى السنتين الاخيرتين ان تبدأ هذه الصفحات الخاصة بأنباء العلم والعلماء بكلمة عامة عن الحرب وأثرها فى العلم وعن موقف العلماء من الصراع الدائر . ذلك أنا لاحظنا أن أذهان العلماء تنشط الى التفكير والاختراع ، وأن آفاق العلم تتسع بعشرات ومئات من المخترعات الجديدة كلما خرج الناس عن حياة السلم الوادعة واقبلوا على حياة الحرب الجاهدة . بل لاحظنا ما هو أدعى الى التفكير حين وجدنا أن هذا النشاط العقلى الى الاختراع العلمى يشتد ويزيد كلما احتدمت الحرب وتعالت نارها ، فاذا جاء دور الهدوء والهوادة ضعف هذا النشاط وتناقص .

فقد أصدر مدير الابحاث فى وزارة التموين البريطانية خريطة بيانية عن عدد المقترحات العلمية التى تقاطرت عليه منذ قامت الحرب فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ الى شهر يونيو سنة ١٩٤١ ، فتبين منها ان هذه المقترحات التى كانت تتراوح فى أوقات السلم بين ألف وأربعة آلاف اقتراح ، قد قفزت فى سنة ١٩٤٠ الى ٣٤٥٤٠ اقتراحا . وقد ورد اليه أكثر هذه الاقتراحات فى شهر يونيو — أى عقب ان انهزمت فرنسا وبدت الاخطار مطبقة على بريطانيا — فقد بلغ فيه عدد الاقتراحات سبعة آلاف . وكذلك ارتفع هذا الرقم الى ٣٧٠٠ اقتراح فى شهر اكتوبر أى عقب الغارات الجوية العنيفة التى استهدفت لها لندن وانجلترا ، فخربت كثيرا من مدنها وابنيتها ، ولكنها زادت فيها النشاط العقلى زيادة ملحوظة . اما فيما عدا ذلك من الشهور فان هذه الاقتراحات تراوحت بين ١٢٠٠ و ٣٢٠٠ اقتراح كل شهر

وقد فتحت وزارتا الحرب والتموين فى بريطانيا صدرهما لقبول كل اقتراح مهما كان صاحبه ، فقد يوفق شخص قليل الكفاءة العلمية الى شىء نافع عن طريق الصدفة والتوفيق . وقد كان أحد هؤلاء المقترحين الذين وضع رأيهم موضع التقدير صبيا فى الثانية عشرة من عمره ارسل آراء خاصة ، مرفقة برسوم دقيقة ، عن بعض اصلاحات يراها فى تصميم الدبابات

ولوحظ انه فى كل اربعمائة اقتراح يؤخذ باقتراح واحد ، وليس هذا قليلا اذا قدرنا ان هذه الاقتراحات تبلغ عشرات الآلاف ، ترد الى الوزارتين لا من بريطانيا وحدها بل من جميع الاقطار ، فتفحص كلها جيدا ويؤخذ منها بالنافع العمل ، على أنه اذا كان عدد المقترحات قد زاد هذه الزيادة العظيمة التى تدل — على الاقل على أن الحرب تنشط التفكير وتثير الروح ، الا انه وجد أن المقترحات القيمة المهمة لا تتغير كثيرا لانها تأتى عادة من العلماء — وهؤلاء لا تزيد الحرب فى ميلهم الى العلم كما ان السلم لا ينقص شيئا من هذا الميل

تجنيد العلماء

آلاف العلماء الانجليز فى خدمة الوطن

لم تقتصر بريطانيا على فتح أبواب وزارتى الحرب والتموين لما يأتيهما من الاقتراحات ، بل حشدت كل علمائها للخدمة الحربية . وكان الامر اختياريا فى بدء الحرب ثم جعل اجباريا فلم يبق فى بريطانيا أحد من الطبيعيين أو الكيمياويين أو المهندسين أو غيرهم من العلماء الا وضع فى خدمة الحرب . فاجتمع لبريطانيا

مئات الالوف من العلماء ، لانها افترضت العلم في كل من حاز اجازات علمية بدرجة شرف . وقد وزع هؤلاء العلماء على جميع المرافق الحربية، فوضع مئات منهم في معامل البحث التابعة للحكومة ومئات أخرى في مصانع السلاح والذخيرة . كما خص اللجان الفنية في الجيش البرى وسلاح الطيران والاسطول آلاف من العلماء . وكذلك حشد آلاف منهم لاعمال الانتاج والاصلاح في مختلف الصناعات

ولم تجرد الجامعات والمعاهد العلميــة من أساتذتها ورجالها . بل ظلوا فيها ليخرجــوا افواجا جديدة من العلماء الشبان ليزيدوا في نشاط بريطانيا الحربي ، وقد رأت الحكومة ان تدفع نفقات التعليم الجامعي لطلاب هذه العلوم اللازمة للحرب اكثارا منهم وتوفيرا لجهودهم

ذلك ان هذه الحرب ان تكن حربا سياسية من حيث مبادئها ونتائجها . أو حربا اقتصادية من حيث ما تتطلبه من موارد تنظم وتستغل على خير الوجوه — الا انها لا يمكن ان تكسب الا اذا اعتدت بالعلم والعلماء كل الاعتداد . فكل ألف جندى تملأهم الحماسة وتثيرهم الشجاعة لا يساوون شيئا أمام جهاز علمى جديد قد يجعل جنديا واحدا أقدر وأقوى من هؤلاء الالف جميعا وفى العالم أربعة أقطار تمتاز بتفوق هذا الجانب العلمى الفنى فيها ، وبقدرتها على استغلال العلم فى الحرب استغلالا واسع النطاق ، وهذه هى بريطانيا وامريكا والمانيا وروسيا . ونلاحظ ان ثلاثة منها فى جانب وواحدة فقط فى جانب

الموسيقى والطب

هل تشفى الجرحى وذوى العاهات

تأثير الموسيقى فى مرضى الاعصاب معروف ، وفى كثير من مصحاتهم تعزف الالحان الهادئة . وكذلك بدأ العلم يعترف بتأثير الموسيقى فى المعدة وتنشيطها عملية الهضم . ولكنا نقرأ ان اطباء امريكا لا يقتصرون على ذلك ، بل يرون ان الموسيقى قد يكون لها أثر واضح فى علاج الجرحى وشفاء ذوى العاهات !

وليس هذا النفر من الاطباء قليلا ، بل انهم يعدون بالعشرات . وقد ألفوا من انفسهم جمعية موسيقية يذهب اعضاؤها الى المستشفيات لعلاج مرضاها بألحان الموسيقى . وقد طاف هؤلاء الاطباء الموسيقيون بثلاثة واربعين مستشفى ، ودخلوا اكثر من ألف « عنبر » فيهـا ، فبلغ عدد المرضى الذين أفادوا من هذه الموسيقى فى العام الماضى وحده قرابة ٦٦٠٠٠ مريض

كتبت عن هذه الجماعة الطبية الموسيقية مقالات شتى ، ورد فيها حالات يصعب تصديقها لولا ان كاتبيها ممن يوثق بهم فى الوسط العلمى

فمن ذلك ان رجلا فقد بصره اثر صدمة عنيفة فأخذوا يعزفون له قطعا من الموسيقى الالمانية فلم تأت بنتيجة ما لانه لم يعرها انتباها ، ولكنهم بعد ان عزفوا له عدة ايام متوالية قطعا من الموسيقى الايرلندية الشعبية التى يحبها ، اذا بالرجل يصيح مندهشا : انى أرى العالم . ذلك ان اعصاب ابصاره أخذت تسترد قوتها ، واذ بالنور يعود الى عينيه

واغرب من ذلك ان صبيا فى الرابعة عشرة من عمره كسرت ذراعه وارسل الى المستشفى حيث وضعت له الجبائر . ولكنه ظل يئن ويتألم حتى ليصرخ أحيانا . فأخذوا يعزفون له قطعا من الموسيقى التى يحبها ، فاذا به يكف عن الصياح وعن الانين ، واذا به يشارك الموسيقيين بصفير واشارات أصابعه ، وما هى الا ايام حتى شاهد الاطباء ان الكسر ينجبر بسرعة لم يتوقعوها

وهناك عشرات من امثال هذه الحوادث التى يحملنا على تصديقها ان الجمعية التى تألفت للطواف على المرضى وانعاشهم بما يحبون من الموسيقى ، لا تأخذ أجرا على عملها . ذلك انها مؤلفة من الاطباء الذين يجيدون عزف الموسيــقى ، وهم يقومون بعملهم مجانا

مدينة العمى ومدينة الخرس

ألف الكاتب الانجليزى المشهور هـ. ج. ويلز فى صدر حياته قصة عن « وادى العمى » تخيل بها منطقة فى امريكا الجنوبية نصلها زلزال حدث منذ عدة قرون عن سائر العالم فلم يعد يشرى به أحد من أهل المعمورة . وتخيل أن جميع سكان هذا الوادى مكفوفو البصر، ووصف فيها كيف تكون حياة الجمعية البشرية اذا هى فقدت النور

وبعد ظهور هذه الرواية بسنين اذا بهذا الخيال يصير حقيقة . فقد اكتشف الرحالة فى امريكا الجنوبية واديا تسكنه قبيلة من الهنود الحمر تتألف من زهاء ثلاثين أسرة عدد أفرادها قرابة ألف وخمسمائة شخص . وجميع هذا النفر عمى ، ورثوا العمى ابنا عن أب عن جد. وقد اعتزلت هذه القبيلة سائر البشر ، وعاشت محصورة فى واديها ، تمارس الزراعة البدائية

على ان امريكا الجنوبية لم تنفرد بقرية العمى بل فيها على مقربة من نهر الامزون قرية كل أهلها خرس . جنس من الانسان لا تنطبق عليه كلمة سقراط وهى أن الانسان حيوان ناطق . فهم لا يستطيعون نطق الالفاظ وانما يتفاهمون بالاشارات . وليست عندهم اية فكرة عن معنى اللغة

وقد أخذ أحد العلماء الالمان بنتا من هذا الجنس وأمضى خمس سنوات جاهدا فى تعليمها النطق فلم يفلح فى انطاقها خمس كلمات !

وقد انعزل هذا الجنس عن المجموعة البشرية من قبل التاريخ . ولم يستطيعوا أن يتطوروا تطورا عقليا يرقى بهم عن مرتبة الحيوان الاعجم . وما زالوا الى اليوم فى حالة أدنى من حالة أى قبيلة من قبائل غابات افريقيا الوسطى ، فان هذه القبائل تعرف دفن الموتى ، أما هم فيتركون موتاهم فى العراء تحت الشمس حتى تجف لحومهم أو يأكلها الوحش

الاجهاض فى امريكا

أرقام غريبة !

يحدث فى الولايات المتحدة الامريكية كل عام قرابة ٥٠٠ر٠٠٠ حادث اجهاض

ولا تلجأ الفتيات والمطلقات الى الاجهاض قدر ما تلجأ المتزوجات . فان ٩٠ ٠/٠ من المجهضات لهن أزواج

٣٠ ٠/٠ من هذه الاجهاضات لها مايبررها كانقاذ حياة الحامل أو تعرضها للموت ان هى وضعت . اما ٧٠ ٠/٠ منها فاجهاضات يحرمها القانون ، وتقوم بهـا القابلات أو الاطباء فى الخفاء

من كل مائة امرأة تموت فى اثناء الحمل أو بسبب الوضع تموت أربع وعشرون امرأة بسبب الاجهاض . وثلاثة أرباع هذه الوفيات نتيجة تسمم الدم ، واكثر الباقى بسبب النزيف الدموى

اعترف أحد الاطباء بأنه قام وحده باجراء حوالى ٢٠ر٠٠٠ عملية اجهاض . وثبت ان هذا العمل جاء بدخل يعد بآلاف الجنيهات

كذلك اعترف طبيب آخر بأنه أجرى فى سنة واحدة ٣٠٠٠ عملية اجهاض

هذه الاحصاءات الغريبة أعلنها سكرتير لجنة صحة الامومة الملحقة بأكاديمية الطب فى نيويورك ومنها ندرك الخطر الوبيل الذى تتعرض له المرأة التى تقدم على عملية الاجهاض . يضاف الى ذلك ما قرره رئيس تحرير المجلة الامريكية لعلم التناسليات من ان « أكبر مأساة يشهدها مأساة اولئك الزوجين اللذين يلجآن الى الاجهاض لانهما يقدران انليس فى وسعهما كفالة ولدهما، حتى اذا تيسرت لهما اسباب الحياة وجدا ان الاجهاض قد افسد الجهاز التناسلى فى المرأة فلم تعد تستطيع الحمل والوضع » . وحتى اذا استطاعت المرأة ان تحمل من جديد ، فانها كثيرا ما تتعرض للخطر فى الوضع بعد ذلك ، وكثيرا ما تصاب بنزيف دموى عنيف

الكتب الجديدة

رسالة الحج

للاستاذ حافظ بك عامر

مطبعة كوثر فى ٧٥ صفحة

يقول فضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى فى رسالة بعث بها الى مؤلف هذه الرسالة : « ان العبادات الاسلامية كانت هدفا للطعن من أعداء الاسلام ومن بعض المسلمين وبخاصة فريضة الحج وشعائره . وكان الواجب ان تفسر هذه العبادات وان تبين أسرارها للناس على طريقة تقرب من عقلية الجيل الحاضر وتقرب من طرق تعليمه حتى يزول استغراب الناس لها ويطمئنوا الى ما فيها من مصالح دنيوية وأخروية وهكذا فعلت فى هذه الرسالة فألممت بطرف من حكمة بعض العبادات وتوسعت فى حكمة الحج »

ذلك أن المؤلف حج البيت الحرام ثلاث مرات وشاهد الحجيج من جميع الاجناس فدرس بفكره وعينه وقلبه حين كان يستلهم كل شىء حكمته وكل مكان وحيه وكل منسك سره ، فظهر له ان الحج لا يزال مجهولا فى حقيقته وان الذين يحجون يؤدون عملا فرديا محضا ولا يعرفون الا ظاهرا من الامر . فوضع هذه الرسالة الوجيزة العميقة ليبين ان الحج هو اعظم مؤتمر سياسى اجتماعى يقام كل سنة على وجه الارض ويراد منه حياطة الاسلام حياطة عملية دقيقة بوسائل منظمة غاية التنظيم لم تصل اليها عصبة الامم ، ولا اهتدت اليها القوانين ، ولا جاءت بمثلها فنون التربية الاجتماعية

وقد لقيت الرسالة وما جاء فيها من بيان أسرار هذه العبادة ، وما تخللها من الحديث عن المساواة فى الاسلام . وعن الحج والجهاد ، وعن الحج والثقافة . وعن الحج والمنافع ، وعما تنطوى عليه مناسكه من الاسرار والمعانى — لقيت كل ثناء وتقدير من قادة المسلمين ومفكريهم فى جميع الاقطار ، فضمن المؤلف فى كتابه بعض ثنائهم ورأيهم فى مغزى الرسالة وفيما يقترحه صاحبها من تنظيم الحج تنظيما حكوميا يؤدى الى ما تنشده البلاد الاسلامية من المنافع والآمال

حياة مى

للاستاذ محمد عبد الغنى حسن

مطبعة المقتطف فى ٩٦ صفحة

كان لوفاة نابغة الشرق الآنسة « مى » أثر بالغ فى نفس كل من عرفها أو تذوق أدبها . وكان هذا الاثر أبلغ ما يكون فى نفوس أصدقائها الذين عرفوا مقامها الادبى ولمسوا نفسها الصافية ووقفوا على مبلغ جهادها فى أداء رسالتها فى سبيل بنات جنسها . لذلك لم يكن عجيبا ان يجتمع منهم المئات والالوف ليشتركوا فى تأبينها ولا ان يظل اسمها على ألسنة الناس واقلام الكتاب زمنا غير قصير .. والكتاب الذى بين أيدينا ترجمة أمينة لحياة هذه الفقيدة النابغة ، جاء المؤلف فيه على كل ما يمكن ان يتناوله المترجم من صور هذه الحياة ، فهو يحدثنا هنا عن مولدها وهناك عن أدبها ، وفى مكان آخر عن فنها وفى غيره عن حياتها الخاصة والعامة ، ثم ينتقل بعد ذلك الى سرد آراء العلماء فيها

ولا ريب ان اصدار كتاب كهذا عن « مى » انما هو صورة من صور الوفاء لذكرى تلك النابغة التى بكيناها والتى سنظل نفتقدها كلما ذكرت المرأة أو ذكر النبوغ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

دعاء الكروان

للدكتور طه حسين بك

مطبعة المعارف في ٢١٤ صفحة

منذ بضع سنوات أقام الاستاذ الكبير عباس محمود العقاد للكروان « ديوانا » فخما ، فرأى الدكتور طه حسين بك ان يقيم له بدوره «عشا» فكان هذا العش : « دعاء الكروان »

قصة مصرية ، ريفية ، أبدع الدكتور العميد فى تصوير حياة الريف على صفحاتها فكانت من أصدق ما اخرجت ريشة فنان من هذه الصور . فهى اذا كانت جديرة بأن تحتل مكان الصدارة بين ما اخرجت المطابع العربية فى السنوات الاخيرة من قصص ، فليس لانها بقلم الدكتور طه حسين بك فقط ، ولا لانها صورة صادقة من صور الحياة فحسب ، بل لانها فوق هذا وذاك ، وقبل هذا وذاك ، قطعة أدبية من أروع ما كتب الاستاذ العميد ، حرية بان توضع فى الصف الاول بين كتبه ومؤلفاته .

و « دعاء الكروان » صراع بين كثير من عناصر الحياة .. هى صراع بين العقل والعاطفة ، وبين الفضيلة والرذيلة ، وبين القدر والانسان ، ولو ان الانسان لا يملك فى هذا الصراع مهما حاول ان ينتصر ، الا ان يطأطىء للقدر هامته ويحنى رأسه لمشيئته ، حتى اذا ما فتح عينيه وافاق من غشيته تجلت له الحقيقة الابدية التى لا تتغير ، وهى ان الانسان ضعيف مهما قوى وان القدر لا يقهر ..

القضاء العشائرى

للشيخ فريق المزهر آل فرعون

مطبعة النجاح ببغداد فى ٢٢٠ صفحة

العشيرة عدد من الناس ينتسبون بالاصل الى بطن واحد ، وهى جزء من القبيلة التى تتألف من عدة عشائر تنتهى كلها الى جد واحد .

والعرب اكثر الناس عناية بتاريخ اصولهم واسلافهم ، والعربى كثير السؤال والتقدير لابيه وجده . ولهذا حافظ العرب على كيانهم الاول وتقاليدهم الاولى ، وما زال عربى اليوم كعربى الامس فى كثير من العادات والاخلاق

ولكل عشيرة عربية عادات تحترمها ونواميس تحافظ عليها . لانها بمثابة القوانين التى يخضع لها الناس ويفزعون اليها كلما اشكل عليهم الامر

وفى هذا الكتاب الذى ألفه عالم فاضل من علماء العراق ومن الرجال المبرزين فى الحركة القومية هناك ، هو الشيخ فريق المزهر آل فرعون ، بحث جامع فى الاصول والعادات التى تأخذ بها العشائر العراقية ، فى قضائهم وفى حياتهم

صدره المؤلف بمقدمة عن بعض مبادىء القانون ، تحدث فيها عن التحقيق والعقاب والمحاكم والصلح . ثم استطرد الى عرض القواعد التى تجرى عليها عشائر العراق فى قضائهم . فتحدث عن جرائم القتل وحوادثه المختلفة ، وعن دية القتيل ، وعن الحوادث الماسة بالشرف ، وعما يقع من الجرائم بسبب المرأة والزواج ، وكذلك عرض للمسائل المدنية كالديون ، وبيع الارض ، والمعاملات التجارية وغير ذلك كثير

وهو فى اثناء هذا الحديث يعرض لنواحى الحياة الاجتماعية عند العرب ، فيتحدث مثلا عن حرية المرأة ، وعن الغناء والرقص عند المرأة العربية ، وعن اخلاق العرب من الانفة والشمم والشجاعة ، وعن تقاليدهم فى الزواج والمآتم ومختلف ما يأخذون به من المجاملات

وقد لقى هذا الكتاب استحسانا كثيرا من كتاب العراق وصحفييه ، وهو جدير بقراءة العرب جميعا ليتفهموا حياة جزء كبير من اشقائهم فى العراق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تاريخ الطباعة والصحافة فى مصر

خلال الحملة الفرنسية

للاستاذ ابرهيم عبده

مطبعة التوكل فى ١١٨ صفحة

انتقلت عناصر الحضارة الفرنسية الى كل شعب اتجه اليه نابليون ، فكانت حملته على كل بلد فاصلا بين حضارة قديمة وحضارة جديدة . كان هذا شأن مصر وايطاليا وألمانيا على السواء فابتدأ التاريخ الحديث فيها منذ هبط اليها نابليون . لم يكن « جنكيزخانا » يحمل الدمار والهمجية أينما سارت جحافله تعيث فسادا وخرابا ، بل أحيا سنة « الاسكندر » الذى اتخذ الجيش وسيلة لنشر الحضارة والثقافة ، فجاء نابليون الى مصر لا على رأس جنود وقواد فحسب ، بل يصحبه مجمع من العلماء والكتاب ، معتدين بأدوات البحث العلمى واذاعة الثقافة

وكانت المطابع الفرنسية واليونانية والعربية التى أتى بها من أهم ظواهر حملته على مصر ومن أهم ما خلفته فيها من الآثار ، وقد رأى الاستاذ ابرهيم عبده ان يؤرخ هذه المطابع وما صدر عنها من الجرائد والمجلات ، فأخرج فى هذا رسالة نفيسة تناولت تاريخ الصحافة المصرية منذ الحملة الفرنسية الى نهاية حكم الخديو اسماعيل ونال بها درجة الماجستير من كلية الآداب — وقد اجتزأ من هذه الرسالة الجزء الخاص بالعهد الفرنسى ونشره على حدة فى هذا الكتاب

وقد تناول بعض المؤرخين — واكثرهم من الفرنجة — تاريخ الطباعة والصحافة فى مصر ، ولكن عامة القراء يجهلون هذا التاريخ ولاسيما ان هؤلاء المؤرخين وقعوا فى كثير من الاخطاء التى جهد المؤلف فى تحقيقها بما رجع اليه من وثائق ومراجع شتى فى الفرنسية والعربيـة والانجليزية

ويتألف الكتاب من ستة فصول : أولهـا وثانيها عن المطابع التى جاء بها نابليون ومديريها ورجالها وما أذاعته من الصحف والكتب . وثالثها عن طرق الاذاعة والاخبار فى ذلك العهد وتناول اهتمام نابليون بالصحافة فى مصر وأوربا . اما الفصول الثلاثة الاخرى فتتناول الصحيفتين الفرنسيتين اللتين صدرتا والجريدة العربية التى كان علماء الحملة قد أعدوا العدة لنشرها . وقد رجع المؤلف فى هذه الفصول الى الصحف ذاتها وهى نادرة ، ولا يحتفظ باعدادها كاملة الا المكتبة الاهلية بباريس ودار الكتب المصرية والمتحف البريطانى بلندن

ذكريات واقتراحات

بقلم قلينى فهمى باشا

مطبعة المجلة الجديدة فى ٦٨ صفحة

تطالعنا الصحف اليومية من حين لحين بما يبديه قلينى باشا فهمى من آراء فى شـؤوننا القومية ، من اجتماعية واقتصادية ، فنرى فيها اتجاها طيبا الى ما فيه تنوير الرأى العام وتوجيه أصحاب الامر الى ما فيه خير الامة

وقد رأى قلينى باشا ان يجمع هذه المقالات فى كتب تلم شعثها حتى لا تضيع فائدتها فى الصحف المبعثرة ، وحتى يمكن الاطلاع عليها جملة واحدة

وبين أيدينا مجموعة من هذه المقالات صدرت فى كتاب واحد ، فتجد فيه اقتراحات طيبة فى مسائل الامن والادارة وشؤون الاقتصاد والزراعة وبعض ما يتعلق بحياتنا الاجتماعية من الامور

ونخص بالذكر من هذه البحوث ما يتعلق بمشكلة القطن وما يجب ان نتجه اليه فى شأن زراعته وتجارته

ولا شك ان ما امتاز به قلينى باشا من اهتمام بالشؤون العامة ، ورعايته لكثير من وجوه الخير بما يغدقه من المال ويوقفه عليها من الارض — ما يستحق كل تقدير واقتداء

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

عشرون دقيقة مع الاحداث

للقس لبيب مشرقى

مطبعة النيل المسيحية فى ٢٣٨ صفحة

هذا هو الكتاب الرابع من سلسلة الكتب التى وضعها القس لبيب المشرقى متضمنة طائفة من القصص الخلقية والدينية التى يلذ للنشء قراءتها فيفيد منها توجيها خلقيا فاضلا

كان المؤلف يلقى هذه القصص على النشء فى الكنيسة التى يرعاها . فوجد انهم يقبلون على استماعها بشوق وانهم يأخذون بما تتضمنه من نصيحة ومغزى . وكانت القصة تستغرق أول الامر خمس دقائق ، فلما رأى « بركتها » زادها الى عشر ، فالى ربع ساعة ، فالى عشرين دقيقة ، واصدر اربع مجموعات من القصص متخذا من هذه الفترات الاربع عناوين لها

وقد أجاد المؤلف اختيار هذه القصص من خير ما كتبه المربون الغربيون ، فجاءت تجمع الى بساطة الاسلوب وحسن العرض ، اجمل النصائح الخلقية وأفضل دروس التهذيب . مما يجعل من الخير للآباء ان يقصوا هذه القصص لاطفالهم ، فيقدموا لهم غذاء عقليا وخلقيا ، بدلا من تركهم لانفسهم يقبلون على ما يسىء الى اذهانهم واخلاقهم . وقد احسنت مدام سابا حبشى بك اذ قالت فى تصدير الكتاب : « ان القس خطيب الشباب ومكتشف اللآلىء فى الشباب . فقد اكتشف حاجتنا الى الصحة الروحية التى يقوم عليها عماد البلاد . وما أجمل هذه الرؤية التى يضعها أمامنا : ان نرى جيلا قويا شجاعا متجملا بالاخلاق القوية »

فونتمارا

للاديب الايطالى « اجنازيو سيلونى »
ترجمة الاستاذ مصطفى كامل منيب

مطبعة المستقبل فى ٢٥٤ صفحة

فتنت الفاشستية البعض بمظاهرها الجوفاء ودعاياتها البارعة ، فظنوا انها انصفت الطبقات العاملة فى الزراعة والصناعة من اصحاب الاملاك والاموال والمصانع ، وزعموا انها أذاعت من اليسر والرخاء فى الشعب الايطالى ما يغفر لها ذنوب العسف والاضطهاد التى لجأت اليها

فاذا قرأت قصة « فونتمارا » هذه أدركت الى أى حد برع الفاشست فى الخداع

هذه القصة التى تعد من عيون الادب العالمى الحديث ، والتى ترجمت من الايطالية الى كثير من اللغات فذاعت بين الناس ذيوعا عظيما ، تصور حياة الفلاحين الايطاليين فى ظل موسولينى تصويرا هادئا بسيطا ، ليس فيه تعمل الخيال ولا تكلف الرواية ، وانما فيه عرض لهذه الحياة المجدبة القاتمة التى يحياها الشعب الايطالى بعد عشرين عاما قضاها تحت اثقال الفاشستية

والذين عجبوا لاندحار الجيوش الايطالية فى كل ميدان ، وعجبوا للجندى الايطالى الذى يسعى الى الاسر ليلقى بنفسه فى أحضان أعاديه ... عليهم أن يقرأوا هذه القصة ليروا ان لهم العذر فى ان يتنكروا للفاشستية ويتمردوا على موسولينى ، هذا الذى منّاهم بالاصلاح والعدالة فما رأوا منه الا انتكاسا بهم الى عهد الاقطاع ، بعد ان زوره وزينه فى صورة مهرجان و « مظاهرات » و « استعراضات »

وقد أحسن الاستاذ مصطفى كامل منيب بنقل هذه القصة التى لا تصور حياة الفلاح الايطالى فحسب ، بل تعرض للمشاكل الاجتماعية الخطيرة التى تستهدف لها جميع الشعوب الزراعية حين تخضع لهذا النظام « الاقطاعى » .. الذى ان كانت الفاشستية تقبله وترضاه ، فان الديموقراطية تحتم انكاره والغاءه

واسلوب المترجم سلس ، وقد قدم للقصة بصفحات قيمة عن سيلونى واسلوبه المبتكر فى فن القصة ، وانه ليحسن كثيرا لثقافتنا ومجتمعنا اذا هو اردفها بكثير من قصص وكتب سيلونى واقرانه من كتاب هذا الادب الانسانى الحديث

الحركة الفكرية فى السودان

للاستاذ محمد احمد محجوب

المطبعة التجارية بالخرطوم فى ٥٤ صفحة

تعرض هذه الرسالة الوجيزة تاريخ الحركة الفكرية فى السودان ، توضيحا للوجهة التى يجب ان يتخذها أدباؤه وكتابه تحقيقا لقومية هذا الشعب الناهض

ففيها بيان عما تتكون منه هذه الامة من الاجناس المختلفة ، وما تعاقب عليها من الاحداث والحضارات ، وما تخلف فى هذه البيئة من عناصر الدين والثقافة ، موضحا ذلك كله بما يبدو فى الادب السودانى — النثرمنه والشعر — من سمات خاصة وعلائم مميزة

وفى الرسالة ما يدل على حسن اطلاع الكاتب على الآداب والآراء العربية والغربية وما يدل على روح قومى جدير بالتقدير والثناء وجدير بأهل البلاد العربية ان يتفهموا مظاهر الحياة الفكرية فى شتى انحاء البيئة العربية الكبرى .

ثلاثون يوما فى بلاد ابن سعود

للاستاذ محمد حمدى

مطبعة عطايا فى ٢٠٤ صفحات

هذه قصة رحلة صحفية الى بلاد الحجاز فى موسم حج العام الماضى . ومن طبيعة الصحفى ان يكون متشعبا فى حديثه الى الناس كما هو الشأن فيما يكتبه للقراء . فكان طبيعيا ان يتحدث المؤلف فى كل أمر يعنى الناس فى هذه الايام . فينتقل بقارئه بين التاريخ والسياسة والفقه والاجتماع . فبينما هو يتحدث عن مناسك الحج اذ ينتقل الى الكلام عن الحرب القائمة ، وبينما هو يصف بعض مشاهد الحجاز ، اذ يرجع الى شىء من التاريخ التركى ، وهكذا

وقد أخرج المؤلف كتابه فى حلة حسنة ، من حيث عبارته السهلة واسلوبه البسيط ، ومن حيث تزيينه بمجموعة من الصور عن مشاهد الحج وعن رجال الحجاز ، وقد لقى كثيرا منهم وتحدث اليهم فيما يدور بأذهان الشعوب العربية من أمور الوطنية والسياسة . والكتاب جدير بالقراءة ليفيد منه من يريد ان يزور هذه البقاع المقدسة ، ومن يريد ان يلم بشؤون هذا الاقليم العربى

الدين الاسلامى

للدكتور احمد غلوش

مطبعة الرغائب فى ٢١٦ صفحة

منذ بضعة اشهر ، ومجلة « الازهر » تنشر فى كل عدد من اعدادها ملحقا باللغة الانجليزية تضمنه حلقات من هذا المؤلف القيم الذى عكف الاستاذ الدكتور احمد غلوش الرئيس العام لجمعية منع المسكرات على وضعه وتحقيقه بضع سنوات ، فلما ان فرغت منه جمعت هذه الفصول والحلقات فى كتاب ، اتماما لفائدته وتحقيقا للغاية

وقد وضع المؤلف كتابه باللغة الانجليزية فكان موفقا فى صيغته توفيقا جعل مفتشى هذه اللغة من ابنائها يشهدون له بسمو العبارة وسلامة الاسلوب بشكل يستلفت الانظار . . اما موضوعه فقد قصد به المؤلف الفاضل ان يطلع قراء تلك اللغة على صورة صحيحة لتعاليم الاسلام كما جاء بها صاحب الشريعة ، وان يرد على جميع الشبهات التى يثيرها ضد الاسلام من لم يقفوا على حقيقة ذلك الدين

وأهم ما تناوله المؤلف بالبحث والتحقيق مسألة « القضاء والقدر » التى بسطها بطريقة عصرية تقربها للاذهان ، وكذلك مركز « المرأة فى الاسلام » فكان كتابه بذلك أول كتاب من نوعه ، فضلا عن ان سمو الغاية التى قصد اليها المؤلف مما يزيد فى قيمة كتابه ويجعله جديرا بالمطالعة والاقتناء ، كما يجعل مؤلفه حقيقا بالثناء

حفيد دوق مارلبرو

- ١ -

فى تلك الجزيرة العجيبة التى تدعى « انجلترا » ووسط ذلك الشعب الانجليزى العجيب ولد « ونستون ليونارد سبنسر تشرشل » ، فى ٣٠ نوفمبر عام ١٨٧٤

سماه أبواه « ونستون تشرشل » احياء لذكرى جده البعيد السير « ونستون تشرشل أوف جلانفيل » أحد فرسان شارل الثانى

وقد أنجب السير ونستون هذا « جون تشرشل » (١٦٥٠ - ١٧٢٢) - أول من حمل لقب « دوق مارلبرو » من هذه الاسرة الفذة - من زوجته اليزابث ، رابعة كريمات السير جون دريك

فدماء هذا المحارب العنيد الذى كان يقاتل فى دروع ومغافر وزرد من حديد ، هى التى انتقلت من صلب الى صلب ، حتى جرت فى عروق اللورد راندولف تشرشل ، ومن اللورد راندولف الى ابنه ونستون

ورث الابن عن أبيه الخطابة وقوة الحجة والاسلوب اللاذع ، فطالما جلجل صوته فالهب قلوب مواطنيه ، « وبعث خيالهم بعثا عجيبا » على حد قول ابنه فى كتابه عنه .. وهل تشرشل الآن الا كأبيه فى « بعث خيال مواطنيه بعثا عجيبا .. »

وورث عن أمه « جينى جيروم » الاميركية حرارة العواطف وبهجة الالوان الزاهية . أمه التى رآها أبوه على ظهر احدى البواخر ، فأحبها وأحبته من النظرة الاولى

كانت هى فى التاسعة عشرة . وكان هو فى الرابعة والعشرين . وبعد يومين - على حد قول تشرشل - « تلاقيا مرة أخرى (بطريق المصادفة !) وخرجا يسيران ، وكان ثالثهما الليل الساحر الدافىء الساكن ، وأنوار اليخت تتألق على صفحة الماء ومن فوقها نجوم السماء تتلألأ » .. فهل بعد ذلك يتردد اللورد راندولف فى طلب يد حبيبته جينى ، وهو المعروف باللورد القفاز ؟

جينى المرأة الساحرة التى كانت تضع نجمة من الماس وسط شعرها الفاحم فشع منها اللألاء كنجوم الليل البهيم .. وتدبج فى المجتمع الانجليزى البارد فتكسبه حرارة وألوانا .. وتدخل بنفسها معامع الانتخابات فيتغنى المصوتون بجمالها ، ويقولون انهم يندفعون خلف ذات القبعة التى تتوجها الوردة الحمراء « كما يندفع الجنود البواسل خلف درع نافار » !

وورث عن جده لامه « ليونارد جيروم الاميركى » التجديد ، والسرعة ، وكل تلك الصفات العجيبة التى تجعل الرجل صحافيا . فقد كان يصدر جريدة « نيويورك تيمس » وينشىء أندية السباق ، ويقف فى كل شىء رمزا للتجديد الاميركى ، والسرعة الاميركية

فكأن كل هذه الصفات : بطولة جون مارلبرو ، واسلوب راندولف الفخم وخياله الخصيب ، وحرارة أمه وألوانها الزاهية ، وتجديد جده لامه ، وسرعته ، و «صحافته» . كأن كل هذه الصفات قد جرت فى عروق المولود الذى اذاعت التيمس نبأ مولده فى اول ديسمبر عام ١٨٧٤ ، والذى ولد فى الشهر السابع من حمل أمه له . .

- ٢ -

والطفل الذى ولد للورد راندولف ولزوجته جينى جيروم طفل ضخم الجرم ، أشقر الشعر ، قوى القسمات ، أزرق العينين ، عنيفا فى رضاعته وحركاته ، مجلجلا فى بكائه . .

وكلما نما الطفل وترعرع ازداد عنفا واندفاعا وعنادا ، حتى لم يعد يطيقه غير مربيته ، مسز أيفرست . .

وفى الرابعة من عمره حملته مربيته الى ايرلندا حيث كان أبوه يعمل سكرتيرا خاصا لجده ، دوق مارلبرو ، فعاش فيها عاما أو عامين روى فيهما خياله الصغير بمناظر جبلية وبحرية قوية ، واستمع الى قصص مربيته عن شعوب خرافية مرعبة !

ولما ألحقه أبواه بالمدرسة فى السابعة من عمره كرهها . . كره العلم ، والكتب ، وكره ناظر المدرسة والمدرسين . وكان يرى ان ما يدرس للتلاميذ لا يناسبه . وكان يرى الجميع اغبياء بالقياس اليه . كما كان صياح التلاميذ الذين كان الناظر يجلدهم عقابا لهم مصدر رعب دائم له ، حتى اعتلت صحته ونحف جسمه . . وفى ذات يوم رأى قبعة الناظر أمامه فظل يرفسها برجله حتى مزقها ! فجلده الناظر جلدا أليما ، واستشار المدرسين فى أمره فاجمعوا على انه شرس ، وغبى . . وفى اثناء ذلك سمع والداه ما يلقاه من عنت وارهاق فنقلاه الى مدرسة أخرى فى برايتون تديرها سيدتان

فى هذه المدرسة كان يعمل الكاتب الانجليزى الكبير هـ . ج . ويلز ابان حياته التعليمية . فانظر ماذا قال فى تلميذه المشاكس الغبى : « ان له اوقاتا يركبه فيها الروح الشرير ، فيصبح ولدا لا ضابط له . ولدا شريرا ، خطرا جدا . ولكنى بتصورى اياه على هذه الصورة كنت احبه . . »

أجل . . لقد فهم ويلز أطوار تلميذه . وادرك ان ما يركبه احيانا من روح الشر ليس الا مظهرا من مظاهر الحيوية الزخارة والعقل المتحرك الوثاب

ولقد كان هكذا حقا . . كان مندفعا ، ثائرا على النظام ، لا تراه الا أشعث الشعر ، ملتهب الوجنتين وارنبة الانف . حاولت احدى معلماته ان تعلمه الرقص فلم تفلح ،

واخيرا قالت عنه : انه اشقى طفل على ظهر الارض ! وقيل عنه ايضا انه « حيوان فى التاسعة من عمره ، ثائر كالبركان ! »

ولقد كتب مرة فى احد دفاتره : « الحكم يستأهل الاطماع ولو كان فى جهنم .. والخير لك ان تحكم فى جهنم من ان تكون خادما فى الجنة ! »

والشيئان الوحيدان اللذان اظهر فيهما شيئا من البراعة هما التمثيل والصحافة المدرسية .. فقد حاول مرة ان يخرج رواية « علاء الدين » المشهورة ولكنه اخفق . وكان مبرزا فى القاء المقطوعات التمثيلية فى كل الحفلات المدرسية .. وما كان يخجل قط من الظهور امام النظارة ، فكان يلقى دوره بصوته القوى ووجنتيه الملتهبتين وارنبة انفه المحمرة ..

وساهم جديا فى تحرير صحيفة « الناقد » المدرسية

اما الدروس فما كان يحفل بها الا قليلا . واما اللاتينية فكان يمقتها مقتا شديدا جدا .. وكلما استفتى المدرس تلاميذه فى مسألة تتطلب الاجابة بالنفى ، كان يصر دائما على ان يجيب بكلمة « ناين » الالمانية ، بدلا من « نو » الانجليزية ، غير عابىء باحتجاجات المدرس المتكررة !

وكانت حياته المنزلية صورة مكبرة لكل هذه المشاكسة والاندفاع والثورة والعناد .. يجرى ، ويقفز ، ويحطم ، ويقابل الضيوف بوجهه المحمر الملتهب وشعره الاشقر الاشعث. فكان والداه يعتذران لضيوفهما بانه « ولد شقى »

اشترى له ابوه الفا وخمسمائة « عسكرى » من الرصاص على ان يقتسمها مع اخيه « جاك » . فطمع ونستون فى اكثرية « الجيش » واحتكر لنفسه ثمانية عشر « مدفعا » وبعض مدافع القلاع « الثقيلة » .. كما حرم اخاه من « الفرسان » والمدفعية ، ولم يسمح له الا « بالمشاة » !

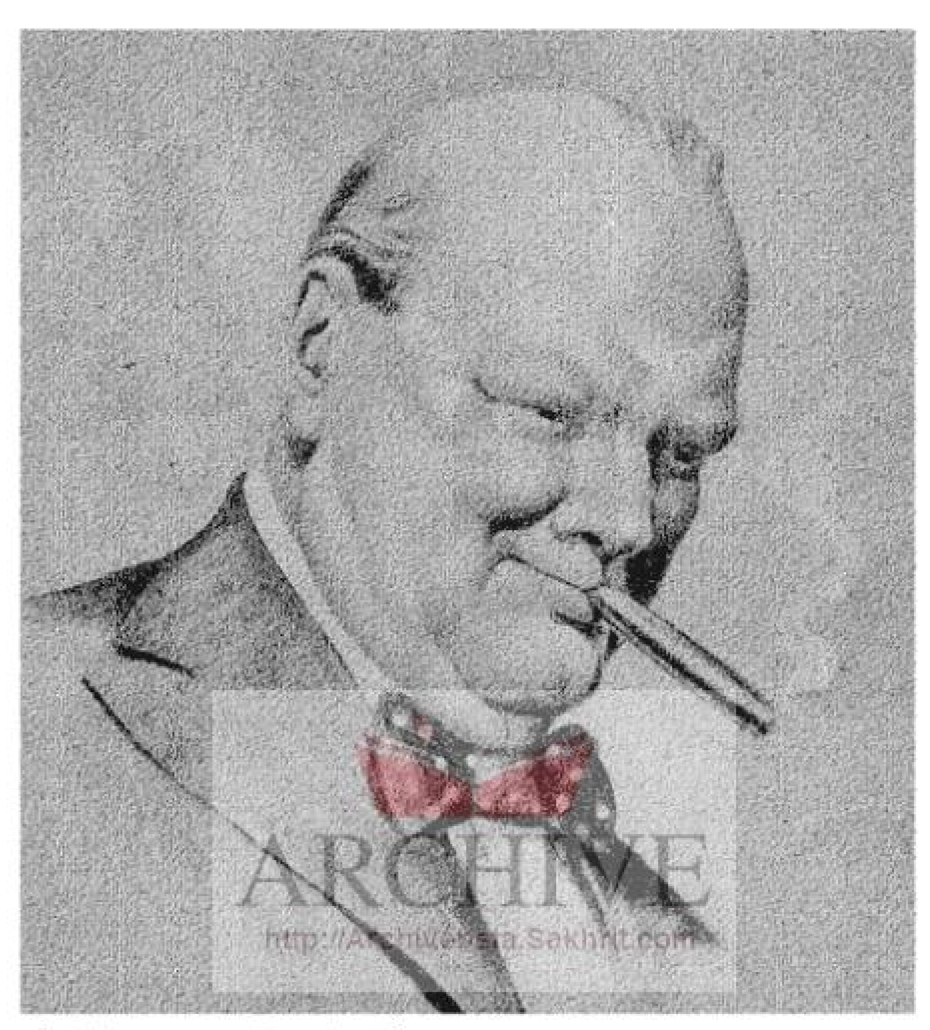
وفى ذات يوم دخل الوالد « ميدان القتال » فوجد الشقيقين على أهبة الاشتباك فى المعركة . فمكث معهما طويلا يتدبر خطط « القائدين » فما لبث ان ادرك ان ابنه الفاشل فى دروسه قد ينبغ فى الجندية فانفرد به وسأله باهتمام :

ـ اتريد ان تصبح جنديا عندما تكبر يا ونستون ؟

فهتف الولد الشقى على الفور : نعم ! ..

ـ ٣ ـ

بعد هذه المرحلة التمهيدية كان لا بد ان يلتحق ونستون بمعهد يؤهله للدراسة العسكرية. وكان ابوه يؤثر كلية « ايتون » على غيرها من الكليات لانه تخرج فيها ، بيد ان صحة ولده المعتلة نتيجة نزلة شعبية اصابته وهو فى « برايتون » ، اجبرته على الحاقه بكلية



[للرسام بيتر ماك انير — عن مجلة ماراد]

ونستون تشرشل

بقلم

محمد محمد توفيق

مؤلف « كمال اتاتورك »

« هرو » المبنية فوق تل مرتفع . فبدا مضحكا جدا فى قبعتها التقليدية المصنوعة من القش والتى تثبت فى الرأس من الخلف بخيط من المطاط !

وما كان قبوله بهذه الكلية سهلا . فقد لاحقته اللغة اللاتينية التى يعتبر الالمام بها شرطا أساسيا للقبول ، فكانت اجابته فى ورقة الامتحان بحيث اهلته للفوز بدرجة « صفر » ! ولكن التوفيق صادفه عند ما عرضت اجابته على الدكتور ولدون ناظر الكلية ـ وكان مربيا ذا رأى فى حالات الشذوذ والعبقرية ـ فقرر قبول الطالب الراسب ، لا لشىء الا لانه حصل على درجة « صفر » فى اللاتينية !

وسحبت هارو اذيالها الطويلة من العلوم التى يمقتها تشرشل طوال ستة اعوام خالها ستة قرون. حساب ، وجبر ، وهندسة ، ومبادىء علوم .. وجغرافيا ، وتاريخ .. ويونانية ولاتينية ، لا يطيق النظر فى كتبها .. حتى لقد ذهبت جهود استاذ اللاتينية سدى فى محاولة اقناعه بان يصرف كلمة « Mensa » (مائدة) بصيغة المخاطب اذكيف يخاطب الانسان « مائدة » فيقول : « يا ايتها المائدة ؟! » وما هذا العبث الفارغ . ومع ذلك فقد راح يستظهر مقطوعات بأكملها من كتابات « ماكولى » التى تحتاج الى درس طويل ودراية كبيرة بالاساليب الادبية

وحتى الالعاب الرياضية فى المدرسة لم تكن على هواه .. وكرة القدم التى تعتبر من أحفل الرياضيات بالحركة لم تكن تقنع تشرشل الثائر .. كان يريدها مجرد قفز وعراك وصياح !

اما المبارزة فنعم .. لقد نبغ فيها حتى ان حملاته بالسيف لم يكن لها نظير بين الطلاب. وسرعان ما حصل على بطولة المبارزة بين المدارس الحرة

وكذلك أظهر فى الصحافة المدرسية نشاطا ملموسا ، ولكن لذلك قصة .. ذهب ذات مرة يستحم فى حوض سباحة المدرسة . وكان يجد لذة كبيرة فى مباغتة الواقفين حول الحوض وقذفهم فى الماء والضحك منهم .. فرأى على الحوض تلميذا حسبه ـ لقصر قامته ـ من صغار التلاميذ ، فباغته بقذفه فى الماء . ولكن كم كانت دهشته عند ما تبين ان « المقذوف » لم يكن من صغار التلاميذ كما توهمه ولكنه من طلبة السنة السادسة ـ أى من « عظماء » التلاميذ وانه « ليوبولد ايمرى » بذاته .. عميد عائلته و « كابتن » الجمنازيوم المدرسى وفريق كرة القدم ورئيس تحرير مجلة المدرسة .. فيا للهول !

كانت صدمة عنيفة لتشرشل الصغير ، التلميذ بالسنة الاولى .. وتقرأ وصفه هو للحادث فيما بعد ، فترى انه هلع من المفاجأة حقا .. فراح يعتذر الى « الكابتن » بمسكنة وخجل ظاهر ، ويقول له منافقا : لا تؤاخذنى يا سيدى فان حجمك الصغير هو الذى شجعنى على قذفك فى الماء .. ولكن لا عجب أن تكون صغير الحجم كبير المقام فان والدى العظيم صغير الحجم أيضا .. وبذلك تصافى التلميذان ، ودعاه « ايمرى » الى المساهمة فى تحرير صحيفة المدرسة ، فتولى قسم النقد الرياضى ، ولكنه حمل على ادارة المدرسة حملات شعواء


ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

أعطيت القوس باريها

لم تكد الحرب الحاضرة تعلن حتى اتجهت أنظار المستر تشمبرلين رئيس الوزارة البريطانية يومئذ الى المستر تشرشل ليكون وزيراً للبحرية فى وزارة الحرب الاولى وهو المنصب الذى كان يشغله فى الحرب الماضية .. وتراه هنا عند وصوله الى وزارة البحرية عقب تعيينه

اضطر ايمرى الى حذف جانب منها ، لان الكاتب ـ كما قال ايمرى فى تعليقه على رسالته ـ قد خرج على حدود النقد السليم ..

وليوبولد ايمرى هذا الذى أخذ من تشرشل ذلك « الدش » البارد ، هو الذى أصبح فيما بعد « مستر ايمرى » وزير المستعمرات المعروف

***

وكان ابوه طوال كل هذه السنين يقرأ الدليل تلو الدليل على ان ابنه سوف يفشل فى حياته فشلا ذريعا .. ولم لا ؟ أليس التعليم هو الذى عليه المعول فى تنشئة الاطفال ، ثم أليس تشرشل ، وهو من ابناء اللوردات والعظماء ، احوج الى التعليم من عامة الشعب ، ليحتل فى مقبل حياته المكان اللائق بحفيد جون مارلبرو العظيم ..

وفشل الابناء مر مؤلم فى نظر الآباء .. الآباء الذين ينسون بسرعة انهم كانوا تلاميذ ، وانهم طالما رسبوا فى الامتحانات أو كان نجاحهم فيها نجاح حظ لا نجاح مذاكرة واستعداد ...

والوالد فى مرارته وألمه لا يكف عن تقريع ابنه كلما جلس اليه ساعة .. تقريعه بالسقوط والفشل والشقاوة ، والتنديد بعجزه المؤلم عن تلقى العلم ، وعن اجادة اللاتينية واليونانية ـ لغتى الادب الكلاسيكى وغذاء كل شاعر أو ناثر أو خطيب ، يعد نفسه لمركز رفيع فى المجتمع

والوالد فى مرارته وألمه يقرر ان ابنه لم يعد يصلح للتأهب للدراسة الجامعية . ويتذكر تحمسه للجندية ، وكيف انه تغلب « بجيشه » على « جيش » أخيه ، فيقرر الحاقه بكلية ساندهرست العسكرية ليصبح من رجال الجيش البريطانى .. ولعل لفتة منه الى احدى لوحات دوق مارلبرو العظيم ، بطل « بلنهايم » و « راميليس » و « لبلاكيت » ، تنبئه انه احسن الاختيار ..

اما هو فكان يستمع الى تقريع ابيه بصبر عجيب . وما ان يسمع انه سيلحق بكلية « ساندهرست » حتى يكاد قلبه يقفز من بين ضلوعه .. أليست فى ذلك نجاته من اللاتينية على الاقل ، ومن تصريف كلمة « Mensa » والاضطرار الى مخاطبة المائدة بقوله : يا أيتها المائدة ؟!

ـ ٤ ـ

فى اللغة التركية مثل يقول : ان الكلب المشاكس لا يخلو ابدا من جراح .. وهو مثل يقوله الآباء للابناء الاشقياء على سبيل المزاح

ذكرتنى بهذا المثل الحادثة التالية التى رواها تشرشل عن نفسه :

فانه لم يكد تتم فرحته بقرب دخوله الكلية العسكرية حتى اعترض القدر سبيله ، فقد

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

أسرة تشرشل فى خمسة أجيال

الدم الذى يجرى فى عروق هذه الاسرة هو دم الاشراف والمحاربين معاً فقد كان رأسها الاكبر « السير ونستون تشرشل اوف جلانفيل » ، أحد فرسان شارل الثانى البارزين . وكان ابنه « السير جون تشرشل » من فرسان الملكة « آن » وبطل معركة « بلنهام » التاريخية حتى لقد أنعم عليه بلقب « دوق مارلبرو » لحسن بلائه فى تلك المعركة التى سيظل اسمه مقترناً باسمها جيلا بعد جيل .. أما هو ، ونستون تشرشل ، فسيرى القارىء فيما يلى من تاريخه ، طفلا وشاباً وكهلا ، كيف استقرت فى عروقه دماء أولئك المحاربين القدماء فعشق الجندية منذ طفولته ، وخاض المعارك وقذف بنفسه فى أتونها ، محارباً تارة ، ومراسلا حربياً تارة أخرى ، كأنما كل همه أن يكون فى ميدان القتال ، بأية وسيلة وبأى ثمن !



« دوق مارلبرو » .. بطل معركة « بلنهايم »



لورد الفقار

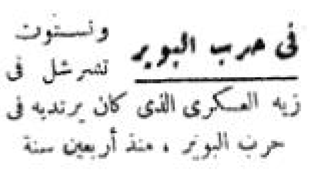
هكذا كان ابو ونستون والد تشرشل ، لورد راندولف ، الرجل الذى حير أقطاب السياسة البريطانية



أمه الامريكية

« ليدى تشرشل » التى كان الناخبون يفتنون بجمالها كلما اشتركت مع زوجها فى معركة انتخابية





فى حرب البوير

ونستون تشرشل فى زيه العسكرى الذى كان يرتديه فى حرب البوير ، منذ أربعين سنة

دعت عمته اللادي ويمبورن أسرته لقضاء الشتاء في أملاكها في بورنموث. فذهب تشرشل مع أبيه وأمه وأخيه الصغير . وهناك انضم اليهما في اللعب ابن عم لهما

وبورنموث قصر عتيق يحيط به حوالى خمسين فدانا من أشجار الصنوبر ، تنحدر فى أرض رملية الى شاطىء المانش ، وتتوسطها هاوية صخرية مخيفة عرضها حوالى خمسين قدما تنحدر فجأة الى مستوى سطح الماء ، وقد بنى فوقها جسر عتيق

واتفق الشياطين الثلاثة : تشرشل وجاك وابن العم ، على ان يطارد بعضهم بعضا فى هذه الغابة . وكان المطارد الاول طبعا : تشرشل ، الذى لم يحل كونه فى السابعة عشرة من عمره دون لعبه مع « طفلين » بالنسبة اليه .. وبعد مطاردة عنيفة استغرقت ربع ساعة ضاقت انفاس تشرشل وقرر عبور الجسر المتأرجح فوق الهاوية . فانطلق صوبه .. ولكن كم كانت حيرته عظيمة عند ما رأى وهو فى منتصفه ان مطارديه كانا اذكى منه ، فواحد منهما خلفه والآخر امامه فى رأس الجسر من الجهة المقابلة .. فماذا فعل ؟

وقف برهة كالوحش الذى فوجىء بالاسر .. ثم نظر من فوق الجسر الى الهاوية تحته فرأى الارض الصخرية على عمق ثلاثين قدما .. وقد تعلقت بالجسر اشجار مدببة الغصون قد نمت من خلال الصخر . فهل اذا قذف بنفسه من بين احضان هذه الاشجار فظل ثقله يكسر اغصانها الواحد بعد الآخر وهو يتعلق بها تباعا ، أتراه يصل الى اسفل الهاوية وقد خفف تشبثه بالاغصان من آثار سقوطه ؟

ان عقله الفائر ينبئه ان نعم .. فها هو ذا يصعد الى حافة الجسر ، ويقفز من فوقه ، ومطارداه فى اول الجسر وآخره كأنما سمرت قدماهما من فرط الذهول !

ولكن هل تشبث بالاشجار ؟ وهل خففت الاغصان المتكسرة من وهدة سقوطه ؟ سلوا فى ذلك الاطباء الاخصائيين الذين عالجوه . وسلوا الايام الثلاثة التى غاب خلالها عن وعيه . وسلوا الاسابيع ــ بل الاشهر الطويلة التى قضاها بين الموت والحياة ، ثم فى صحة معتلة عاقته على الاقل من مباهج الكلية العسكرية .. فلقد هرع مطارداه الى اسفل الهاوية ونادياه فلم يجب .. وحركاه فلم يتحرك . ففزعا الى أمه وقالا لها ان تشرشل قفز من فوق الجسر وهو الآن فاقد النطق . فهرعت اليه بالاسعافات الضرورية . وظلت هى وابوه على فراشه حتى وفد الاطباء لفحصه وعلاجه . وكأنى بهما وقد اسيا فى ولدهما الشقى ، ينسيان ماضيه الفاشل فى المدارس ، وتتحرك فى قلبيهما جذوة الابوة والامومة التى تستيقظ فجأة فى مثل هذه الحالات ...

ولا عجب فقد كان أبواه فى نجوة عنه . الوالد فى ناديه وحزبه وخطبه ومعاركه السياسية . والوالدة على هامش ذلك كله تتألق كنجمة الصباح وتعبق كزنبقة التلال فى الربيع .. والولد من كل ذلك محروم . من الاب محروم . ومن الام محروم . ومن هذا « الدفء » الذى يحسه الابناء من قربهم الى الآباء محروم . ومن عبيق زنبقة التلال ــ عبيق أمه الحارة الزاهية الالوان ــ محروم !


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فى دار الاميرالية للمرة الثانية

من التقاليد البريطانية الرسمية أن يقيم وزير البحرية فى دار وزارته ، كما يقيم رئيس الوزراء فى قصر الرئاسة ، رقم ١٠ داونينج ستريت .. وهاهى مسز تشرشل تجلس الى مكتبها الخاص بدار الأميرالية فى الفترة التى كان زوجها يشغل منصب وزير البحرية قبل أن يلى رئاسة الوزارة ، وهو المنصب الذى كان يشغله فى الحرب الماضية

فماذا على الوالد لو انه أدرك ان شقاوة ابنه تبشر بالنشاط والحماسة فى مقبل الايام . وان مقته « لروتين » الدروس ليس الا لمحة من لمحات العبقرية . وان هذه الثورة وذلك الفوران لا بد لهما من منفذ ، فترى خمول الذكر ينقلب صيتا ، وغباوة الفكر تنقلب عبقرية ، وهاتين الوجنتين الملتهبتين وأرنبة الانف الحمراء تغدو رمزا للشباب الذى لا يمشى ولكن يقفز ، ولايتأنى ولكن يطير ؟!

اجل .. ماذا على الوالد لو انه ادرك ان الولد سر أبيه .. ألم يكن هو « قفازا » كأبنه تماما ؟ ألم يكن يندفع فى كل اعماله بلا تفكير ؟ ألم يعشق زوجته من النظرة الاولى ؟ ألم يضرب بنصائح والده عرض الحائط عند ما أمره بالعدول عن هذا الزواج الاميركى « السريع » قائلا له ان فوران اعصابه يطغى على تفكيره ، وانه سيتزوج بسرعة ليتألم على مهل ؟

ان الولد المحروم من حنان الابوة يقول : « كم أود لو اننى كنت خادما يبعث بى سيدى الى هنا والى هناك .. أو صبيا لبناء . أو ابن بقال يعاون أباه فى عمله ويصف له اصناف البقالة فى واجهة دكانه .. اذن لتلقيت فى الحياة دروسا عملية ، ولعاشرت ابى عن قرب وتمتعت بمباهج هذه المعاشرة »

أو ليست هذه صيحة من صميم القلب ؟

واسمع بعد ذلك ما يقول عن أمه : « ان أمى كان لها اثر براق فى طفولتى . لقد تألقت كنجمة الليل . ولقد احببتها بكل جوارحى ، ولكن عن بعد .. وكانت دائما بالنسبة الى كأميرة الخيال »

اذن فليكفر الوالدان عن خطيئتهما . وهاهى المقادير ترغمهما على الجلوس عند سرير ولدهما طويلا . وعلى مصاحبته طويلا . وعلى ادماجه معهما فى الحياة « البوهيمية » التى يحييانها . أو ليست حياة السياسة الصارخة لونا من ألوان البوهيمية ؟

وهكذا عاش الولد فى حجر ابويه زهاء عام . فى قصر تشرشل الريفى ، وقصر بلنهايم الذى ولد فيه ، والذى اغدقته الملكة آن على جده العظيم جون مارلبرو .. عاش الولد فى هذا الجو التاريخى ، الشعرى ، السحرى ، بكل ذرة من جوارحه وكل خلجة من شعوره . وتنقل فى الحجرات ، والابهاء ، والردهات ، والاجنحة ، وصعد هذا الدرج وهبط ذاك ، وتذوق ، وأحس ، وشم ، ورأى بعينيه كما يفعل المريض المرهف الحس فى دور النقه .. رأى دروعا ومغافر من حديد علاها الصدأ فبدت خضراء كالماء الآسن . رأى سيوفا ورماحا ضخمة كان يحملها جون مارلبرو العظيم . ورأى صوره . وصور سائر افراد العائلة من حملة اللقب وغيرهم . وتأمل فى وجوههم طويلا . وجوه كلها حزم وعزم وبطش وفوران

ودخل مكتبة أبيه فوجدها زاخرة بالكتب ، فشرع يقلبها بشعور المستكشف الذى يدخل عالما جديدا . رأى مصحفا مصورة وغير مصورة . رأى كتبا جديدة وأخرى عتيقة .

راندولف الثاني

وونستون الثالث !

كان المستر تشرشل معجباً بوالده العظيم ولذا لم يكد يرزق ولده الاول في سنة ١٩١١ ـ وهو الذي تراه فوق هذا الكلام مع عروسه ليلة زفافهما ـ حتى سماه راندولف ، تخليداً لذكرى والده العظيم . . وكما حرص هو على تخليد ذكرى والده باطلاق اسمه على أكبر أولاده ، حرص راندولف على أن يسمى ابنه الأول ـ الذي ترى الى اليمين صورته بين أحضان والدته ـ باسم جده « ونستون تشرشل »



ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

فقرأ . . قرأ كثيرا . قرأ فى التاريخ ، والحرب ، والسياسة . قرأ خطب ابيه الرنانة . الخطب النارية ذات الخيال القفاز والاسلوب الماكولى البليغ . فاستظهرها . وكان كلما أتم احداها صفق اعجابا بوالده . والده العظيم

الآن فقط أدرك تشرشل لماذا كان والده عظيما . .

والآن فقط أدرك أن فى عروقه تجرى دماء عظيمة . .

وفى ابهاء القصر التقى باصدقاء والده من العظماء . وسمع من جوزيف تشمبرلين انباء المعركة السياسية بين جيلين فى السياسة ، الجيل المحافظ الذى يتزعمه جلادستون ، والجيل الديموقراطى الناشىء الذى يحمل لواءه ابوه . . سمع كيف كان الصراع هائلا بين الرجلين ، وبين العقيدتين . .

وذهب الى مجلس العموم مع أمه واستمع الى أبيه وهو يخطب ، فيا لروعة أبيه خطيبا ! ان الكلمات والجمل تدفق من فمه كالسيل . وان له فى قلوب السامعين لمكانة ، وان فى بيانه لسحرا . .

ومن خلال مناقشات المجلس ، وانتقادات الصحف ، وأحاديث صالونات ابيه ، أدرك الولد ان ثمة هجمات قاصمة توجه نحو أبيه العظيم ، وان له أعداء يعملون على ازاحته من عالم السياسة ، وان ثمة مصورين يرسمونه فى أوضاع كاريكاتورية تدعو الى السخرية . . فلينتقمن منهم أجمعين عند ما يبلغ مبلغ الرجال . وسوف يفخر به أبوه عند ذلك وينسى ماضيه الفاشل فى حياته المدرسية عند ما يكون بالنسبة اليه كأوستن بالنسبة لنيفل تشمبرلين ، وهربرت بالنسبة الى جلادستون ، وكل ولد نابغ بالنسبة الى والده النابغ

انى ليخيل الى ان هذا العام من حياة تشرشل كان أبعد أثرا فى تكوينه من أية مرحلة أخرى من مراحل حياته . فلقد تكونت فيه شخصيته ، وتبلورت مواهبه ، وعرف حقيقة نفسه . عرف انه ابن رجل عظيم . وفطن الى أن امامه مستقبلا باهرا كأبيه ، فزال ما كان قد ران على نفسه من أثر الفشل المدرسى ومقت العلوم . وزوال هذا الأثر المقيت يعد بمثابة « البعث » الجديد لمن هو فى مثل حالته

ان الطبيعة الثائرة الفائرة قد وجدت لنفسها بعد طول الاحتباس منفذا من خلال الصخور . وان فى الجيش ، ومجلس العموم ، وعوالم الكتب ، لمخرجا لهذا الولد الذى قيل انه مشاكس ، وانه خطر ، وانه غبى !

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com





الحب ينتصر

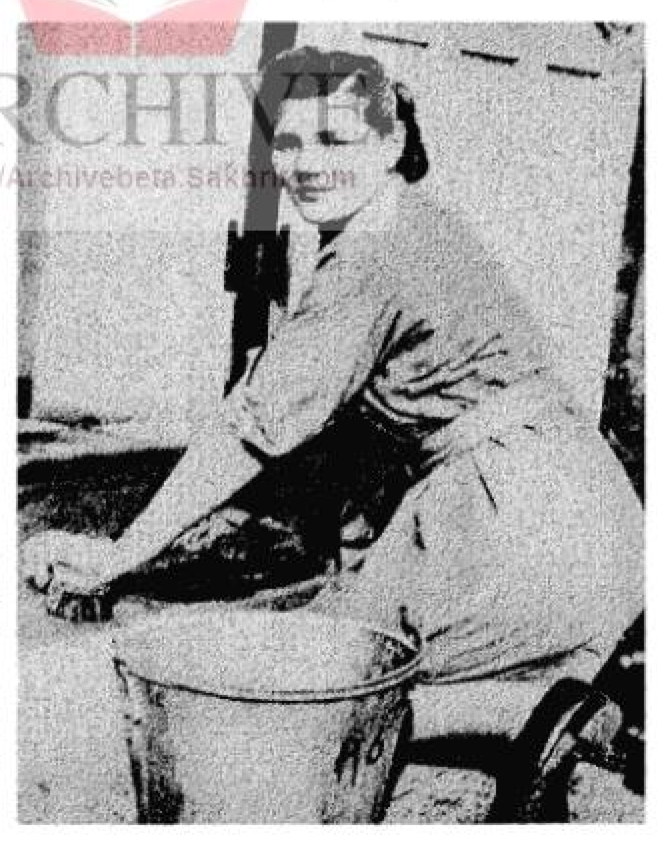
أثار زواج « سارة تشرشل » بالممثل الهزلي الأمريكي « فيك أوليفر » ضجة الصحافة البريطانية، فضلا عن أن والدها لم يكن متحمساً لهذا الزواج ، حتى ان أخاها راندولف سافر الى أمريكا عله يستطيع أن يمنعه .. ولكن الحب انتصر فى النهاية ، فتزوج الحبيبان ، ولم يلبث أوليفر أن غدا من أكبر ممثلى العالم أجراً حتى ليربو راتبه على ثلاثة أمثال راتب صهره رئيس الوزراء .. وأهم من هذا وذاك أن أوليفر استطاع أن يكسب ثقة حميه فأصبحا صديقين حميمين

حرب يعقبها حب !

كانت حرباً شعواء تلك التى أعلنتها « ديانا » كبرى كريمات المستر تشرشل على المستر دنكان سانديس الذى كان ينافس شقيقها فى احدى المعارك الانتخابية الفرعية فراحت تشهر به وتحرض على عدم انتخابه .. لكن سانديس فاز على منافسه فتقدم لديانا « يعزيها » فقالت له : « سنلتقى مرة أخرى فى المعارك المقبلة ! » ولكن لم يمض على ذلك إلا قليل حتى أصبحا زوجين من أسعد الأزواج

تمسح البلاط بيديها !

هذه احدى الصور التى تنطق بالتضحية فى سبيل الوطن .. فها هى ذى « مارى » صغرى كريمات رئيس الوزارة البريطانية وأحبهن اليه تمسح بيديها بلاط مخزن القيادة الجنوبية التى تطوعت للعمل فيها ، شأنها فى ذلك شأن أية فتاة أخرى تطوعت لخدمة الوطن . .



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

محارب يجوب القارات

- ١ -

وهكذا مر العام وتأهب تشرشل لدخول كلية ساندهرست الحربية

ولكنه فى هذه المرة أيضا اخفق فى الامتحان . فان احلامه وآماله بعثت مخيلته وغطت على تفكيره . فلم يذاكر دروسه بالقدر الذى استوعب به خيالاته

فلم يغضب ابوه . وعلم ان ابنه ما يزال فى دور النقه فلا داعى لازعاجه بكثرة المذاكرة . بل الافضل ان يذهب مع صديق له فى رحلة الى سويسرا ـ بلد الطبيعة والشمس المشرقة .. بلد الجبال والبحيرات

فنرى ونستون هو وصديقه ودليلهما فى سويسرا يتنقلان من بلد الى آخر ، ومن فندق الى فندق ، ويمشيان فى المروج ، ويتسلقان الجبال ، ويقضيان ثمة وقتا سعيدا

وفى ذات يوم يركب الصديقان زورقا ويجدفان فى بحيرة لوسرن الساحرة . والماء من حولهما ساكن متألق الاديم

ويحملهما الزورق الى جوف البحيرة . وهنا تخطر السباحة ببال ونستون ..

نعم لماذا لا يخلع الصديقان ثيابهما ويسبحان فى البحيرة ، والقارب بجوارهما يتهادى على صفحة الماء ..

فنزلا الى البحيرة . واخذتهما نشوة السباحة فنسيا الزمان والمكان ، حتى فرغا من رياضتهما ونظرا فاذا بينهما وبين القارب مسافة بعيدة .. واذا نسيم قوى يبعث المائجات فوق سطح الماء فيتأرجح الزورق من بعيد .. فالى الزورق اذن قبل ان ينتابهما التعب ..

ونستون يشرع فى السباحة نحو الزورق فيشعر أن ذراعيه قد كلتا .. وينظر الى الزورق فاذا فوقه ستر من القماش قد حل مع النسمات محل الشراع واخذ يسير بقوة الريح .. وكلما ضرب الماء بذراعيه ودنا من الزورق ، هبت الريح فابعدته عنه ..

الخوف يدب فى قلبه .. والتعب قد أخذ منه كل مأخذ .. فماذا يصنع ؟ انه يكاد يفكر فى أمر الغرق وهوله . فهل يروح هكذا ضحية فكرة صبيانية طائشة ؟

الغرق .. الغرق ! هذا ما دفع ونستون الى السباحة بجنون .. ولعل فرط الرعب بعث فيه قوة خارقة ، فراح يسبح والزورق ينزلق من بين يديه ، يدنو منه فيبتعد عنه ، حتى أمسك بمؤخرته وهو فى الرمق الاخير .. وصعد الى جوفه فتنفس الصعداء . والتفت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com


ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

الملك والملكة فى زيارة الزعيم : فى كل يوم ، بل فى كل ساعة ، يقيم صاحبا الجلالة الامبراطورية الملك جورج السادس والملكة اليزابيث ، الدليل تلو الدليل على ما يدينان به من ديموقراطية تحببهما الى الشعب وتزيده بهما تعلقاً . وقد التقطت هذه الصورة لجلالتيهما مع المستر تشرشل الذى تراه يودعهما على باب داره بعد أن تفضلا بتناول الغداء على مائدته بدعوة منه

حواليه فرأى صديقه يصارع الموج والموج يصارعه . فجذف بالقارب اليه وانتشله من الماء . .

وهكذا تشرشل على طول الخط . .

يقفز من الهاوية ولا يفكر فيما سيصيبه فى البحيرة بعيدا عن الزورق غير حاسب للغرق حسابا . .

***

ومن سويسرا يعود الفتى محمر الوجنتين كعادته قبل مرضه . ملتهب ارنبة الانف ، متألق العينين ، شيطانا . فيرى ابوه انه قد حان ان يستذكر دروسه

وفى لندن أحد رجال الجيش المتقاعدين اسمه الكابتن جيمس تخصص فى تحضير التلاميذ للمدارس الحربية ، واشتهر بانه يعد المتقدمين الى الامتحانات اعدادا لا يخفق معه الا من كان غبيا حقا . فيذهب اليه اللورد راندولف بابنه . ويتلقى ونستون من الكابتن دروسا عملية فى الاجابة عن الامتحانات . ويذاكر دروسه هذه المرة بشغف واقبال . يذاكر كما لم يذاكر فى حياته من قبل ، والمعلومات ترسخ فى عقله القلق الفائر بسرعة . ولا يبقى أمامه الا اجادة رسم الخرائط . .

وفى ليلة الامتحان بالذات يكتب التلميذ الشقى اسماء بعض البلدان فى أوراق صغيرة ويضعها فى قبعته ليسحب احداها كما يفعلون فى اليانصيب . فتخرج ورقة كتب عليها « نيوزيلندا » . . فيفرح ويهتف : هى نيوزيلندا بعينها التى سيطلب منى رسمها فى الامتحان . . ويبيت ليلته يتمرن على رسم نيوزيلندا حتى يجيده . وفى الصباح يتلقى ورقة الامتحان فاذا فيها : ارسم خريطة نيوزيلندا ! . .

وبذلك ينجح تشرشل فى امتحان القبول فى كلية ساندهرست بعد ما اخفق فيه مرتين، ولكنه لم يكن نجاحا باهرا . فصعب عليه الالتحاق بالمشاة ، ورشحته ادارة الكلية لفرقة الفرسان التى لا يكثر اقبال التلاميذ عليها لفداحة مصروفاتها وما تتطلبه من ملابس وأدوات لا يقدر عليها الا ابناء الاثرياء

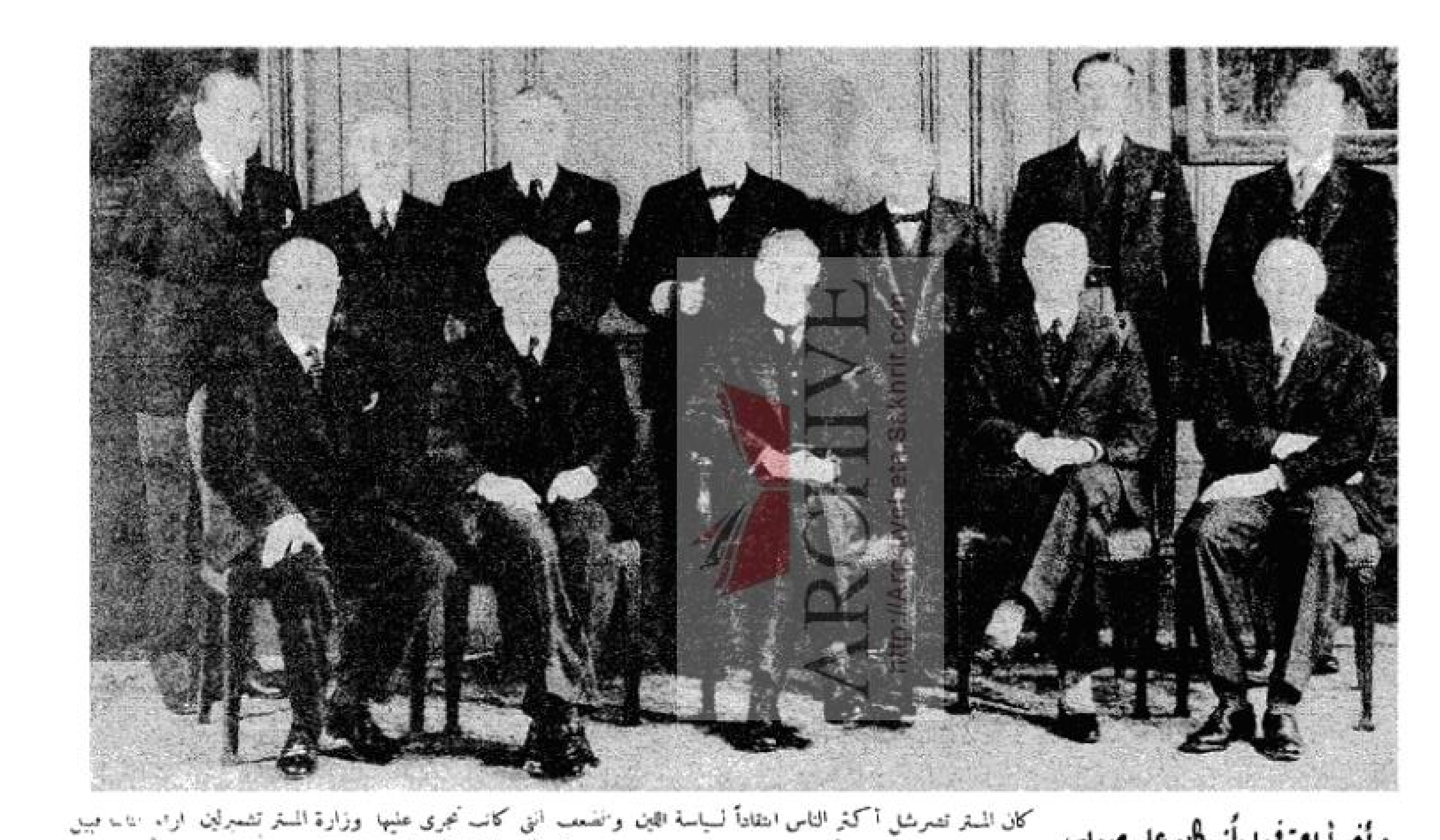
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- ٢ -

تشرشل يدخل كلية ساندهرست الحربية فى الثامنة عشرة من عمره بخلق جديد ، وعقل جديد ، وروح جديد . . .

انه لم يعد ولدا شقيا . وفكرة احتقار الدروس لم تعد تراوده بعد الآن . . والكلية الحربية ، والملابس العسكرية ، والجو الجديد الذى دخل فيه ، كل أولئك كان كافيا لاستنهاض مواهبه المكبوتة . .

وأحلامه عن جده مارلبرو المحارب العظيم ، والصور التى رآها فى ردهات قصره ،



وأخيراً اعترفوا بأنه كان على صواب

كان المستر تشرشل أكثر الناس انتقاداً لسياسة اللين والضعف التي كانت تجري عليها وزارة المستر تشمبرلين إبان نشوب الحرب، فلما استمرأ هتلر المرعى وفغر فاه يريد ابتلاع الدنيا "من الكل"، وفي مقدمتهم المستر تشمبرلين نفسه، بأن تشرشل كان على صواب، ولم يكد تشمبرلين يشرع في تأليف وزارة الحرب الأولى، حتى أسند إليه منصب وزير البحرية، وهو المنصب الذي كان يليه في الحرب الماضية. وها هي ذي صورة هيئة الوزارة المذكورة وقد توسطها المستر تشمبرلين ووقف خلفه تشرشل وقفة المتحفز، كأنه يستعد ليخلف الرجل العظيم في منصبه المقبل

والكتب التى قرأها عنه ، والخطب التى سمعها من أبيه ، والمحاورات التى كانت تدور فى صالوناته والتى انطبعت فى مخيلة الفتى الحالم ، والمستقبل الذى لا بد ان يكون متألقا ، براقا ، «فعما بأعمال البطولة والمجد .. كل أولئك تخيلها تشرشل ، فخلقت منه انسانا جديدا ...

ثم ان الكليات العسكرية لم تعد « الجو الردىء القذر » كما عرف عنها من قبل . ان يدا مصلحة هى يد اللورد ولزلى أصلحت من شأنها ورفعتها من حضيضها فغدا « شعار الجندى القتال ، وتدريبه الحق هو ملء مكانه فى الجبهة كما يفعل المغاوير الابطال » على حد قوله . وهل كان ذنب الضباط الانجليز الذين استسلموا للكسل واللهو الا ان بلادهم لم تدخل حربا منذ معركة ووترلو ..

ونستون يقبل على الدروس بشهية . وعقله يتفتح للعلم الحربى فينكب على وضع الخطط العسكرية ، والتحصينات ، وفن الخرائط ، والقانون العسكرى ، ويحفر الخنادق ، ويقيم المتاريس .. نعم .. هنا علم عملى يشغل العقل والروح والبدن معا . فاين منه دروس اللاتينية واليونانية الميتة ومخاطبة المائدة بيا أيتها المائدة ! ثم هناك الخيل والفروسية ، انبل واشرف ما يشق به الرجل طريقه فى ميادين الحرب والسلام على حد سواء

واكسبه مجرد دخوله الكلية الحربية شرف مصاحبة أبيه فى روحاته وغدواته . فسعد بصحبته حينا . واندفع فى سبر غوره بكل ما فيه من حماسة وتعشق للعظمة والبطولة . ولم يعد يتمنى لو كان ابن بقال ليتمتع بالقرب من أبيه . فها هو ذا اللورد راندولف السياسى والخطيب العظيم يأخذه معه فى اوقات فراغه ، ويقدمه الى معارفه ، ويفتح له أبواب القصور والاندية ، وهذه « العوالم الجديدة » بالنسبة لفتى محروم .. وفوق كل ذلك يفتح له قلبه ، ويشعره بهذا « الدفء » الذى لا يعرفه الا الابناء الذين حرموا من حنان الابوة ثم غمرهم هذا الحنان على حين غرة ...

ولكن القدر أبى ان تدوم هذه الحال طويلا . فشمس أبيه التى لم تكد تشرق وتضحى انحدرت فجأة نحو المغيب . واللورد الشاب الذى كله حركة ، وكله حياة ، سحب جسمه المضنى بكل مشقة فى رحلة صحية الى جنوب افريقيا . ومنها عاد فى اسوأ حالاته. فهذا العقل الجبار الذى حير الملكة فيكتوريا فى شبابها أخذ فى الركود . وهذا الوجه المتألق الصبوح الفتان ذوى كالزهرة الذابلة فى رياح السموم . وهذا اللسان .. نعم اللسان الذرب الذى كأنه حد السيف ، والذى ناهض جلادستون فى أوج عظمته ، وخلب الباب النواب فى مجلس العموم ، ودوخ الحكومات المتعاقبة .. هذا اللسان ألجمه المرض فما عاد يتحرك الا قليلا .. وفى النهاية راح اللورد الشاب فى غيبوبة طويلة ..

ونستون يلاحظ دلائل الموت فى وجه أبيه فتكاد نياط قلبه تتقطع .. وينظر الى وجه أمه ، جينى الحسناء المتألقة كنجمة الصباح ، فيراه شاحبا ، ومن عينيها تنحدر الدموع .. وفى صباح يوم من ايام يناير سنة ١٨٩٥ يهرع الفتى الى قصر جدته ، فيجد أباه على

التحية التشرشلية

التقطت هذه الصورة فى شهر نوفمبر الماضى عقب زيارة المستر تشرشل لمدينة « هل » ورفقته السير ايرل بيج ممثل أستراليا . . وتراه وقد وقف فى سيارته وأخذ يشير بأصبعيه على شكل حرف «V» علامة النصر رداً لتحية الجماهير المحتشدة فى الشوارع لتوديعه



بهذه الروح سينتصر الانجليز

هذه إحدى الصور التى تمثل قوة الروح المعنوية فى الشعب البريطانى. ففى الفترة التى كانت انجلترا هدفاً للغارات النازية المتوالية كان تشرشل يطوف المدن متفقداً وسائل الدفاع فيستقبله الأهلون بحماسة منقطعة النظير . وها هو قد رفع قبعته على عصاه ليرد تحية الجماهير المحتشدة للترحيب به أثناء طوافه ببرستول وويلز الجنوبية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فراش الموت .. وكأن قوة خارقة تنتاب اللورد الغائب عن الوجود بمجرد وصول ابنه ، فيفتح عينيه ليراه ، ويحرك شفتيه هاتفا : « هل اشتريت الخيول التى طلبتها يا ونستون ؟ »

***

نعم : الخيول .. الفنون العسكرية .. المجد .. مجد مارلبرو وراندولف .. فالى ساندهرست من جديد .. وليلتهم الفتى دروسه التهاما .. ولتكن دراسته اياما وشهورا لا أعواما ..

هذه الكلمة الاخيرة من أبيه الهبته . ومثل الفتى ونستون اذا التهب لم يقف فى سبيله شىء . فهو الطالب الناجح دائما . وهو على الجواد كأنه مسمر فيه . وهو فى لعب السيف أبرع الطلاب . وهو فى ثيابه العسكرية الجميلة رمز للشباب ، والحركة ، والخفة ، والرشاقة ، والامل .. الامل فى المستقبل .. فى المجد .. فى خدمة الوطن والملكة ..

ـ ٣ ـ

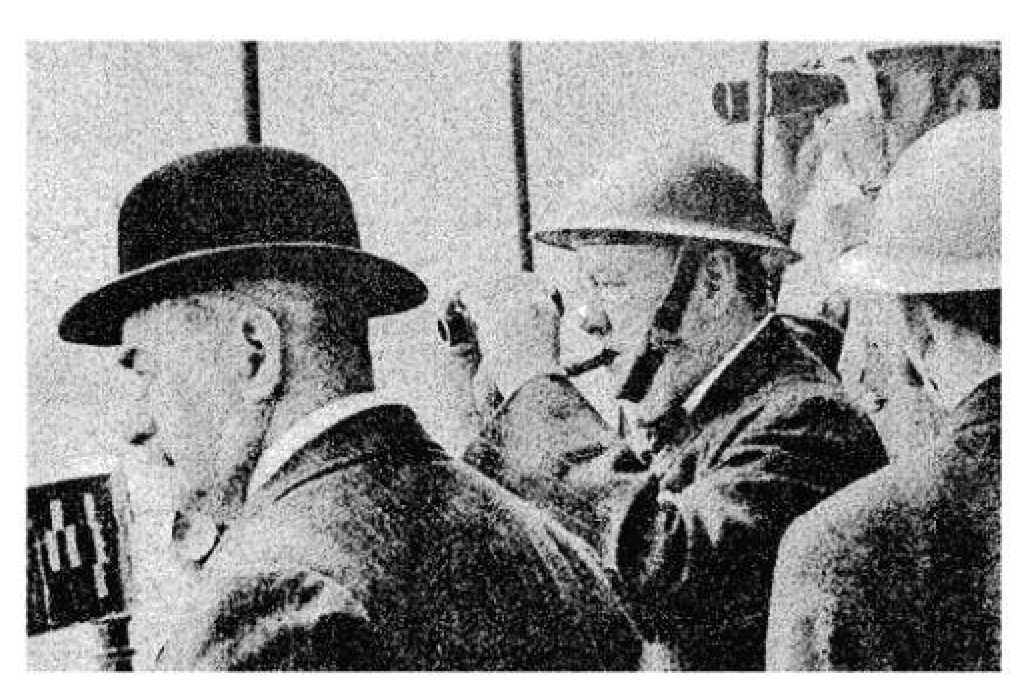
وتمضى الايام والسنون سراعا ويتخرج تشرشل ضابطا فى مارس سنة ١٨٩٥ ، ويلحق بآلاى الهوسار الرابع تحت امرة الكولونيل براباذون ..

والكولونيل براباذون هذا فارس من قمة رأسه الى اخمص قدمه . فارس بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان . يتعشق الخيل والحروب ، ويتبهنس فى الحلل الفاخرة المزركشة ، ويشرب ، ويطرب ، ويغازل المرأة ويوقرها توقير فرسان القرون الوسطى . وهو الى ذلك من اصدقاء اللورد راندولف ورفاقه فى عوالم اللهو والاندية ، فوجود ونستون تحت امرته مصادفة سعيدة بالنسبة اليه ، وهو يرى فى تنشئته وتدريبه ايفاء لحق الصداقة عليه ، فصداقته للورد راندولف لم تكن بالصداقة العادية

وتشرشل يدخل عالم الفروسية فى الحادية والعشرين من عمره . فى مستهل شبابه الملىء بالعنفوان . فوق المتوسط القامة ، ممتلىء الجسم فى رشاقة ومرونة وخفة ، أحمر الوجه ، ملتهب الوجنتين ، متألق زرقة العينين ، متوهج الشعر الذهبى ، متلألئا فى حلل الفروسية التى بلغت أوج جمالها وروعتها فى عصر الملكة الحسناء فكتوريا التى ذبل جمالها من فرط ما اعارت منه لامبراطوريتها ، ومنحت لرعيتها ..

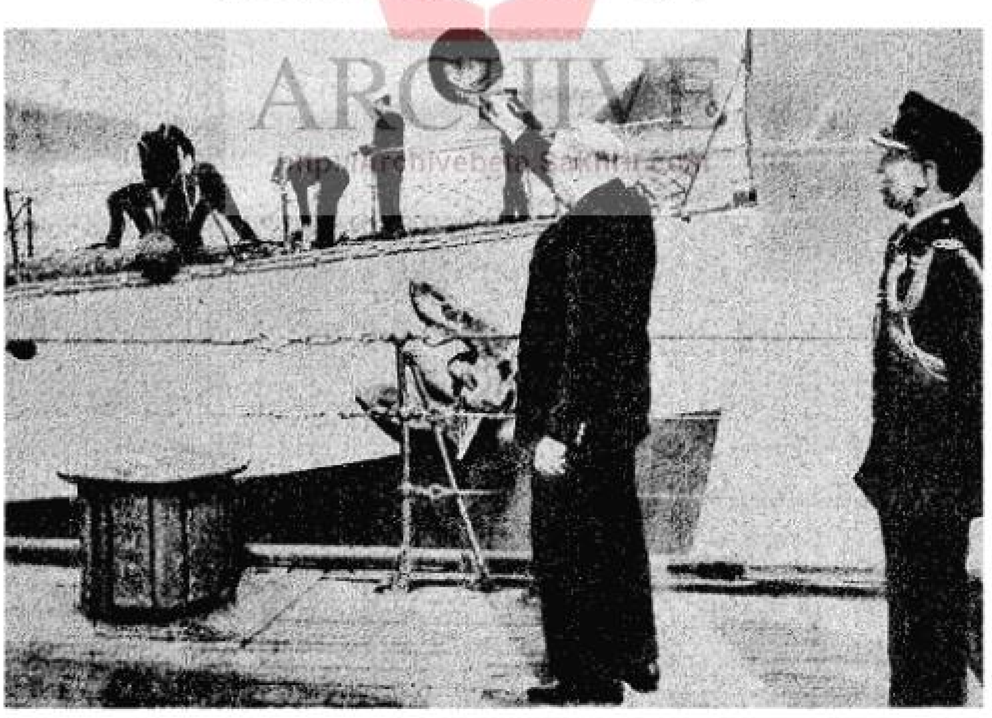
والكولونيل براباذون يتأمل فى ابن صديقه باعجاب وفخر ، ويضرب على كتفيه بيده الثقيلة فى حنان أبوى ، ويكلمه بصلف ظاهرى ينم عن عطف خفى ، ويعامله معاملة الند للند فى غير ساعات الخدمة ، والسيد للعبد ابان الخدمة ، فى وقار من الرئيس وتوقير من المرءوس ، يستأهلان أوفر الاعجاب . وأخيرا يقول له الكولونيل وقد اختبره وعرف جوهره : « انك يا بنى موهوب ، فعليك ان تذهب فى مستقبلك الى مدى بعيد .. وكل ما ينقصك هو التدريب . التدريب الصارم والنظام القاسى »

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com



يراقب وينتظر

في إحدى جولاته التفتيشية على الأسطول وأعمال الدفاع عن الجزر البريطانية وقف المستر تشرشل وقد وضع على رأسه خوذته الفولاذية يراقب بمنظاره المكبر تحركات قطع الأسطول وفي فمه سيجاره الضخم الذي لا يكاد يغادر فمه لحظة



في عرض المحيط

لم يكد المستر تشرشل يغادر المدمرة الأمريكية « ماكدوجال » عقب اجتماعه التاريخي بالرئيس روزفلت حتى وقف يلوح مودعاً زميله زعيم الديموقراطية على الشاطىء الآخر من المحيط

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

وتدريب الفرسان قاس حقا . فالفارس يجب ان يسمر فوق سرج جواده . ويخوض به المعمعة شاهر السيف يضرب به فى الاعناق ، ويبارز ، ويتفادى هذا ، ويطعن ذلك .. ثم هو فى غير القتال لايعرف الا فرسه ، يعنى به عناية الرجل باعز ما لديه ، ويدلله تدليل الحبيب ويطعمه بيده ويسقيه ..

كل رياضته على ظهر الجواد ، فمن سباق الى قفز من فوق الحواجز الى صوالجة (بولو) تعد مبارياتها فى انجلترا والهند - وبخاصة فى هذه الاخيرة - من أهم مظاهر الموسم الرياضى ، ويرتفع المبرز فيها الى ذروة البطولة الرياضية

ونستون يقبل على كل ذلك بشغف الشباب وحماسته وجنونه .. وفى ختام كل عام يمر مع آلايه فى المناورات السنوية امام المركبة الذهبية للملكة والامبراطورة الذهبية فكتوريا .. يمر متبهنسا بجواده على دق الطبول وايقاع الموسيقى ، شاهرا سيفه تحية للمليكة المعبودة .. المليكة التى يتوق الى الموت دفاعا عن شرفها وعرشها وامبراطوريتها

كل هذا جميل .. وتشرشل يحبه ويتحمس له . والمناورات وان تكن حروبا خيالية فان تشرشل يخالها قتالا عند ما يرسم له خياله الخصيب ميادين حرب حقيقية ولقاء أعداء وأهوال فى سهول « الدرشوت » وكثبانها .. ولكن الحياة لا يمكن ان تظل هكذا بدون قتال . فأين هو القتال ؟ وأين هى الاخطار التى ينطلق اليها الفرسان فيخرجون منها بالانتصار ، وأكاليل الغار ؟! ان طبيعته القلقة ودمويته تأبيان عليه مجرد التدريب والقفز فوق الحواجز ولعب البولو والمناورات والتبهنس فى الثياب المزركشة فى تيه وخيلاء ..

أجل أين هو القتال والصدام فقد طال أمد السلام .. وهل خلت الامبراطورية التى لا تغيب الشمس عنها من حرب فى قطر من اقطارها ، حرب ينطلق اليها الفارس الشاب بكل جوارحه ، ليجرب فيها حظه ، فلعل نجمه يلمع فى ميدان من ميادينها كما لمع نجم أبيه وأجداده من قبل ، ولعله يحيى ذكرى والده الذى لم يعش ليراه جنديا ، والذى مات وآخر كلمة على شفتيه : هل اشتريت الخيول يا ونستون ؟

ألا حرب فى جزء ما من الامبراطورية .. ألا ثورة .. ألا صدام ؟

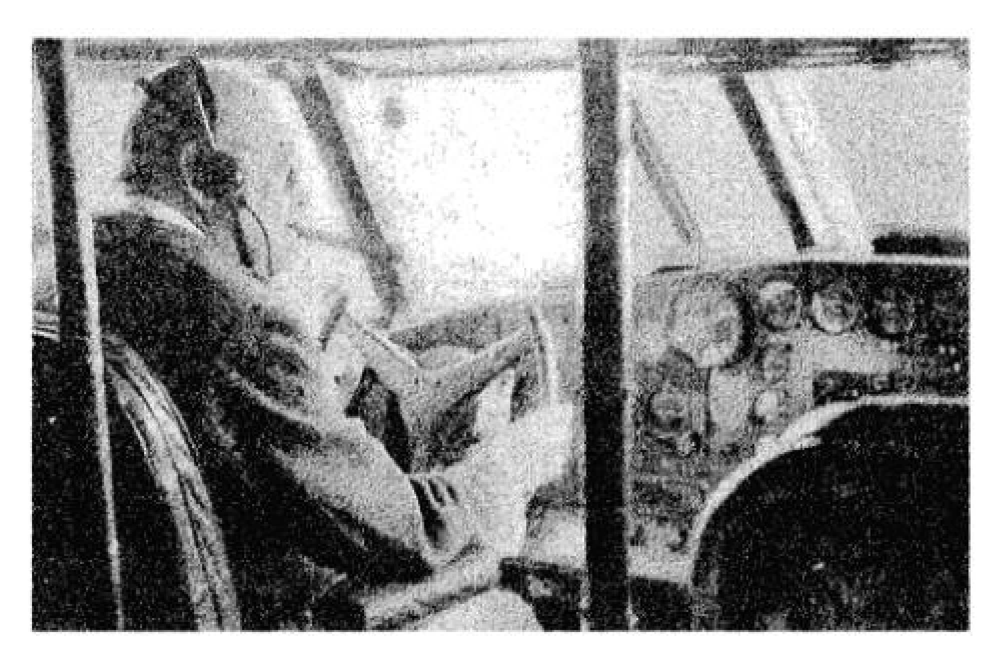
ويأخذك العجب عند ما تعلم انه لم يكد يمر على الضابط الفتى فى هذه الحال ثمانية اشهر يحس انها طويلة ومملة ، ويتحرق بعدها الى التغيير والتجديد ..

***

وفى نوفمبر سنة ١٨٩٥ تذاع أخبار ثورة فى جزيرة كوبا ضد الاحتلال الاسبانى . وهذه الثورة يبادر الى قمعها الماريشال كامبوس بجيش قوامه ثمانون الف محارب

الثورة فى كوبا . والجيش اسبانى . فما علاقة ذلك كله بونستون تشرشل الضابط الفارس الانجليزى ؟

العلاقة الوحيدة هى علاقة الحرب .. فكوبا - دون سائر اقطار الارض - قامت فيها



الى برمودا بالطائرة

المستر تشرشل فى مركز القيادة على متن إحدى الطائرات وقد وضع على أذنيه جهاز اللاسلكي وفي فمه سيجاره الضخم ، وذلك فى طريقه من الولايات المتحدة الى جزيرة برمودا حيث استأنف رحلته الى انجلترا عقب انتهاء زيارته الاخيرة لأمريكا فى يناير الماضى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



فى زيارة كندا

انتهز المستر تشرشل فرصة زيارته الاخيرة لكندا فراح يتفقد المنشآت الحربية فيها . وتراه هنا أثناء طوافه باحدى مدارس الطيران فى «ابلاندس» بالقرب من أوتاوة حيث استعرض الطيارين الذين تم تدريبهم قبل سفرهم الى انجلترا . وقد ظهر الى جواره المستر باورز وزير الطيران فى كندا



تشرشل بناء ! هوى تشرشل فن البناء كما هوى الرسم ، فأعطى كلا من الفنين قسطه من أوقات فراغه. وقد أثمرت هـذه الهواية منزلا صيفياً بديعاً بناه تشرشل بيديه منذ سنوات فى وسترهام حيث اعتاد أن يقضى عطلة آخر الأسبوع . ونراه هنا وهو يقيم لهذا المنزل حوائطه الخارجية

وحفيد دوق مارلبرو العظيم ـ بحملته هذا الاهتمام

وفى أواخر نوفمبر تصل الحملة الى هافانا ، عاصمة كوبا ودرة جزائر الهند الغربية

هافانا بلد السحر والجمال والطبيعة الفاتنة والنساء الفاتنات ، وبلد التبغ ذى النكهة الفخمة

ونستون يتمتع بكل ذلك كما يفعل الشبان . ويدخن عددا لا يحصى من السيجار الفخم . ويكرم الاسبانيون وفادته بما فيهم من بقايا دم عربى أصيل كريم

ولم يقاتل تشرشل جيوشا منظمة ، ولا هو دخل معركة كبيرة مثل المعارك التى قرأ عنها ودرس خططها الحربية . ولكن روح المغامرة فى الحملة كلها كان يكفيه .. انه احس بما يحس به الجندى فى المعمعة .. هذا الشعور الذى ليس هو حماسة كله ، ولا هو خوف كله ، ولكن قبسات من هذا وذاك .. فمن رصاصة طائشة تنطلق من جهة مجهولة ، الى أخرى تشق أغصان الغاب فتردى أحد الجنود قتيلا أو جريحا ، ومن مطاردة نفر من الاشقياء ، الى القضاء على عصابة مسلحة خطيرة ..

ولو ان جنديا محترفا اشترك فى هذه الحملة لما أولاها أدنى اكتراث . ولكن فتانا المتحرق الى القتال وجد فيها ضالته . وجد القتل والجراح ، وسمع ازيز الرصاص من فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله

وفى ختام الحملة التأديبية ينعم عليه الماريشال بوسام الجدارة الاسبانى من الدرجة الاولى .. فيعود فتانا الى وطنه وقد زين صدره العريض بوسام حربى .. يعود فيجد له قراء عديدين أعجبتهم رسائله عن ثورة كوبا وما وقع فى الجزيرة من قتال وحرب عصابات .. يعود وقد اكتسب خبرة فى الحرب عملية ، بينما زملاؤه لم يروا الحرب بعد ، ولم يعرفوا عنها الا ما قرأوه فى الكتب وما تعلموه فى ساندهرست ..

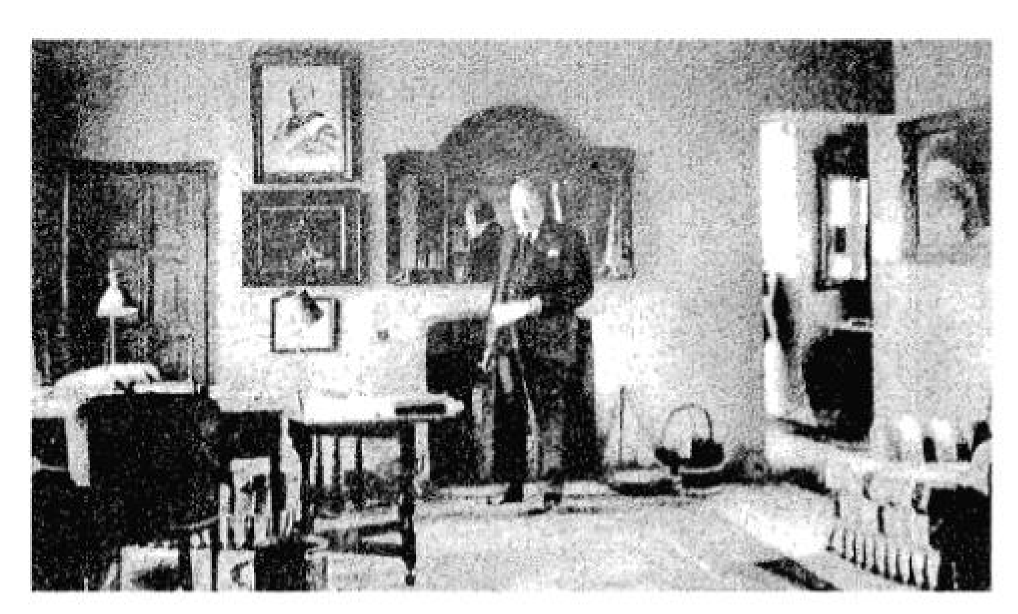
— ٤ —

لندن ، بل انجلترا كلها ، تستعد للاحتفال باليوبيل الماسى للملكة العظيمة فيكتوريا

الملكة التى تربعت على عرش الانجليز وهى بعد فتاة ، فضحت بشبابها ونضارتها فى سبيل الامبراطورية ، ولما لم تجد فى طوقها ان تهبها عزم الرجولة وهبتها قلبها .. قلبها العميق الزاخر بشتى العواطف الانثوية .. قلبها الذى نبض وما يزال ينبض لكل مزارع لكل صانع ، لكل دبلوماسى ، لكل قائد ، لكل جندى من جنودها .. وهذه الابتسامة السحرية التى كانت ترجمان قلبها ودليله ..

فيكتوريا : رمز الجلال ، وعنوان الفخار ..

ونستون تشرشل يعود الى لندن فيجدها على أهبة الاستعداد لحفلات اليوبيل . ويجد « الموسم اللندنى » فى ابانه



في منزله الخاص

أخذت هذه الصورة للمستر تشرشل في منزله قبل نشوب الحرب الحاضرة بشهور . وهي تمثله في غرفة مكتبه وقد وقف يطالع بعض ما كتبه في الليل أو قبل تناول الافطار

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في رياسة الوزارة

أما هذه الصورة فتمثله جالساً الى مكتب رئيس الوزارة في رقم ١٠ داوننج ستريت ، وعلى وجهه دلائل الحزم والتصميم . وفي يده سيجاره الضخم الذي قلما يرى بدونه

و « الموسم اللندنى » ، حتى فى القرن التاسع عشر ، كان له هذا الطابع الجميل الذى ما يزال يحتفظ به الانجليز . كان يفتتح فى أوائل مايو مع الربيع والورود والازهار ، ويختتم بيوم السبت الذى يسبق الجمعة الطيبة . فتلبس القصور زينتها وتتلألأ بالانوار ـ أنوار الثريات الفخمة التى تحيل الليل نهارا . وتسرى هزة الفرح فى النفوس عند ما يفتتح قصر بكنجهام الموسم بلياليه الفاتنات . ثم يتبعه قصر مارلبرو ثم سائر القصور . ويتدفق العظماء على الحفلات الساهرة الراقصة .. عظماء الانجليز من كل لورد انيق وسيم ، ودوق عظيم ، وسيد مهاب .. ومع هؤلاء ترى طائفة من اثرياء جنوب افريقيا ، من كمبرلى أو جوهانسبرج .. كما ترى طائفة من امراء الهند ومهراجاتها فى ثيابهم المقصبة وعمائمهم التى تتلألأ من حولها اللآلىء النادرة .. وكل واحد من هؤلاء جميعا يصطحب زوجته أو اخته أو ابنته . نساء فاتنات فى حلل السهرة الفاتنة . وفتيات ناضرات تفتحت أكمامهن مع الربيع ، وجئن الى « الموسم اللندنى » ينبئنه انهن قد نضجن وعبقت ورودهن ، فهل من مشتر ؟ وهل من مفتون ؟! والى حلقات الرقص يسير هذا الرتل الفخم جميعا ، فتدانى الخصور ، وتتعانق الصدور ، وتتشارف النحور ، وتتهادى الراقصات تلى نغمات « شتراوس » مسبلات الطرف سابحات من خلال الصفوف سبحا رشيقا ..

فلك ان تتصور « الدور » الذى يمكن أن يلعبه فتانا الجميل الرشيق فى هذا المجتمع الراقص الشادى المتلألىء المتوهج ..

هو اولا ابن اللورد راندولف الذى لم تزل ذكراه ماثلة فى الاذهان ، وما يزال صوته القوى العميق يرن فى الآذان . وكم من حسناء من اولئك الراقصات زفرت زفرة الألم والرثاء عند ما علمت بموته

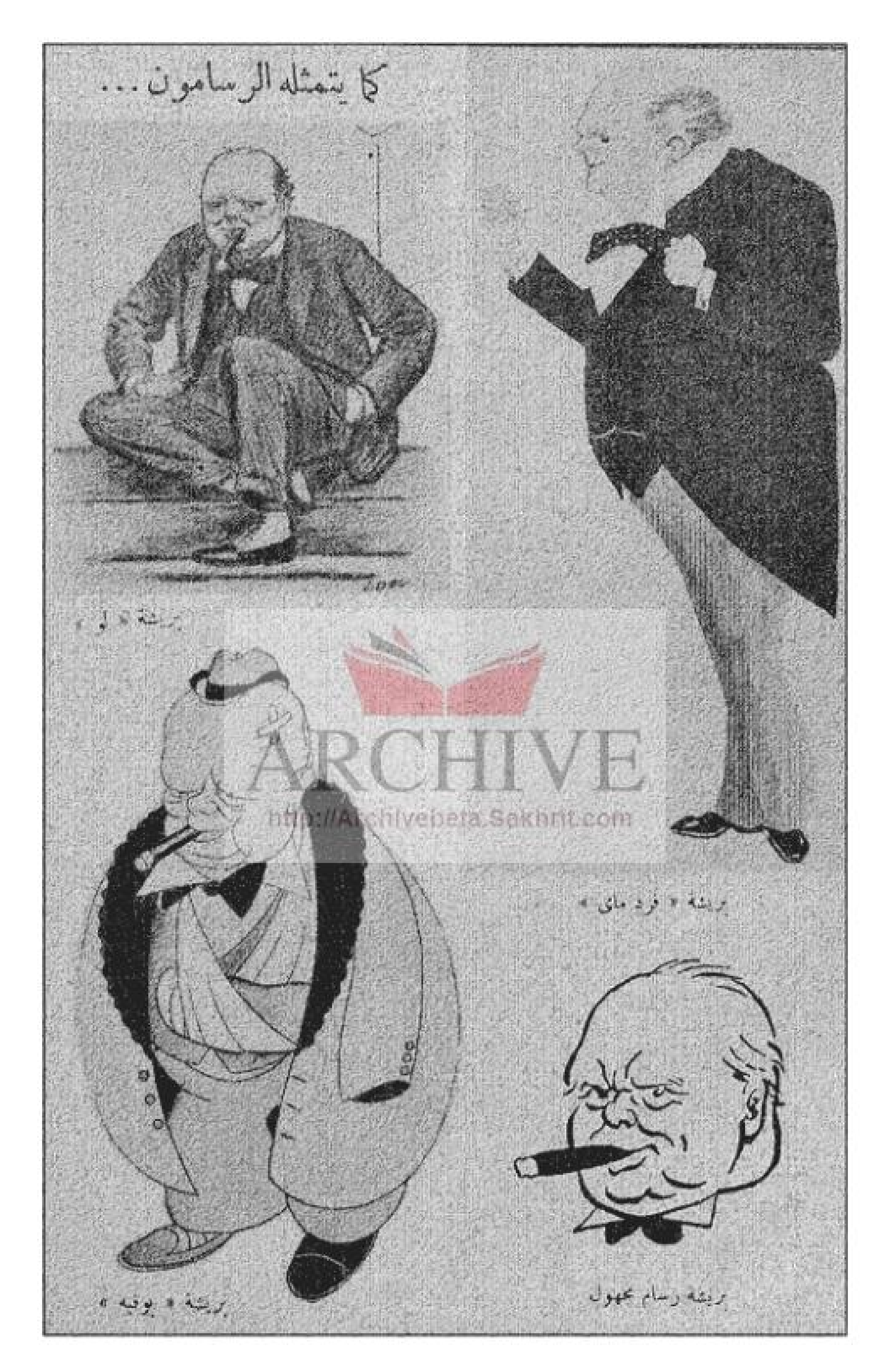
وهو ثانيا الفتى الجميل الذى يتهادى فى حلل الفرسان الزاهية المقصبة ، ويحمل فوق صدره وساما .. فاذا سئل عن هذا الوسام ما هو ، ولماذا استحقه ، راح يروى قصته ، ويحكى نبأ مغامرته ، وكيف ضرب باعتراضات رؤسائه عرض الحائط وتطوع فى جيش اجنبى ، اسبانى ، حيث الرجال فى المعاطف المخملية السود والقبعات العريضة من الجوس الابيض ، يهتفون بالشعر ، ويوقعون على الجيتار .. وحيث النساء فى حلل عليها مسحة شرقية ، يستجبن لنداء الحب والامل والشباب .. اسبانيا بلد الشمس المشرقة والازهار والجداول والاشجار السندسية ، وآثار العرب الاشاوس فى قرطبة وغرناطة واشبلية وقصر الحمراء .. وبعد اسبانيا أنباء الحملة التأديبية تشق المحيط فى طريقها الى جزائر الهند الغربية

فونستون تشرشل الذى هذه صفاته وتلك نوادره وقصص مغامراته ، شخصية محبوبة فى أى مجتمع يدخله . لذلك نراه فى كل قصر وحفل ومرقص ، محط الانظار ومستقر العطف وموضع العناية من الجميع ..

وفى كل نزهة خلوية « ويك اند » كنت ترى الملازم الشاب مع الجميع . يسوق

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

كما يتمثله الرسامون ...



بريشة « لو »

بريشة « فرد ماي »

بريشة « بوفيه »

بريشة رسام مجهول

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العربات ويحمل سلات الطعام والفاكهة ، ويتسلق التلال .. ومع ذلك كله يقهقه، ويروى النوادر والملح ، ويشيع فى جو الرحلات روحه الفتية التى تأخذ بمجامع القلوب

كان فى انتظار ابحار فرقته الى الهند ، فهلا يتزود من الموسم التدنى بما يملأ قلبه وروحه وخياله قبل الرحيل ..

وسرعان ما أبحرت الفرقة الرابعة من الهوسار الى الهند واستقرت فى بانجالور عاصمة امارة ميسور

فرأى تشرشل الهند وعجائب الهند . وغمرته حياة القشلاقات حينا فى ذاك الجو الساخن المرطوب ، وعكف على الجياد يروضها وعلى حياة الفروسية يأخذ منها بأوفر نصيب ، حتى اذا ما انتهت ساعات الخدمة واستلقى زملاؤه الضباط على سررهم وراحوا يدخنون ويقرأون الصحف والخطابات ، أو راح غيرهم يلعبون الورق ويقتلون ساعات المساء الطويلة بالاحاديث المملة التى لا تتغير ، وجو الهند الساخن المرطوب يفعل فعله فى ركود العقل وارتخاء الاعصاب ، نراه هو على عكس اخوانه ينتفع بوقته ولا يضيعه ..

ان زملاءه ضباط وكفى . ولكنه هو ضابط وابن لورد ، ومن سلالة أسرة خرجت عظماء فى كل ميدان . وهو يتطلع الى المستقبل فيرى عالمى الحرب والسياسة ، وله فى كل منهما قسط ونصيب . واذا كان قد أعد للفنون الحربية عدتها ، فماذا أعد لمستقبله السياسى ، مستقبله كرجل دولة من طراز أبيه ؟ ان النبوغ وذيوع الصيت والمجد لا يتأتى هكذا عفوا ولا اعتباطا .. انه ثمرة دراسات مضنية واستعداد ثقافى كبير . ولا بد لونستون اذا أراد أن يكون رجلا على غرار أبيه أن يقرأ . يقرأ كثيرا فى التاريخ والادب والفلسفة والسياسة ، وأن يكون عصاميا فى هذا المجال الكبير الذى حرم من التأهب له بعدم التحاقه باحدى الجامعات الانجليزية

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

لذلك نراه فى أوقات الفراغ جالسا الى كتبه يقرأها ويستوعب ما فيها . ونرى فى يده قلمه الرصاص يدون به ملاحظاته على ما يقرأ . فقرأ لجيبون ولماكولى ولبلاتون ولشوبنهور . وكانت نظريات داروين فى ابانها اذ ذاك فقرأ لداروين ، ومن ثم تفتح عقله الفتى الكبير لعوالم جديدة من المعرفة لم يكن قد توسع فيها من قبل

ولو رآه أحد زملائه من طلاب « هارو » اذ ذاك لاذهله هـذا الانقلاب الفكرى فى ونستون الذى لم يكن يطيق المعارف النظرية ويمقت كل ما عليه مسحة كلاسيكية

ومع كل بريد يأتى من انجلترا كان ونستون يحصل على كتب ثمينة تنتقيها له أمه الامريكية الحسناء . فلما هم بالعودة الى وطنه فى أول عطلة له كان قد غدا رجلا جديدا ، بافكار جديدة ، وآمال جديدة

***

وفى انجلترا يعود ونستون فيدخل المجتمع الانجليزى الارستقراطى . وهو فى هذه المرة لا يدخله بشبابه ونوادره ونكاته وحدها ولكن يدخله كرجل يعد نفسه لمستقبل

سياسى كبير . ويقابل أصدقاء أبيه فيمنونه ويعدونه بالمساعدات القلبية . ويلتقى مرة بالسير بندون بلود أحد كبار القواد الانجليز فى قصر قريب له ، ويتوقع أن يلعب هذا القائد المحنك يوما ما دورا خطيرا فى احدى المعارك الكثيرة النشوب اذ ذاك فى شمال الهند الغربى حيث القبائل الاسلامية المحاربة،فيستحلفه بكل عزيز لديه ألا ينساه عند ما يدعى للقتال ، ويأخذ عليه عهدا بأن يضعه فى قائمة ضباطه فى أقرب فرصة

- ٥ -

وفى العام التالى يستنفر بوق الجهاد قبائل شمال الهند المحاربة . وتندلع نيران الثورة فى «وادى محمود» ويقوم زعيم القبائل الفقير «أبى» داعيا الى خلع نير الانجليز ورفع لواء الجهاد عاليا من فوق قمم الجبال

ويكون تشرشل اذ ذاك فى لندن فى عطلته السنوية الثانية . وينقل اليه البرق نبأ الثورة فى جبال الهملايا ، وأن السير بندون بلود قد عين لقيادة الحملة الانجليزية التأديبية . فيكاد يقفز فرحا بأنباء القتال . .

انه شاب فى الثانية والعشرين من عمره ، يتطلع الى الحروب والى الشهرة وذيوع الصيت . ويريد أن يبنى مستقبله السياسى على شهرة مبدئية ينالها بسيفه فى ميدان القتال وقلمه فى ميدان الصحافة . وها هى ذى فرصة من أثمن الفرص يشبع بها نهمه الحربى ، والقلمى الاخبارى على السواء ، فيبادر الى ارسال برقية الى السير بندون يذكره فيها بوعده . ثم يسافر فى الحال الى برنديزى ليبحر منها على أول باخرة فى طريقها الى الهند . وفى كل ثغر ترسو فيه الباخرة يسأل : أما من برقية من السير بندون . . حتى اذا ما بلغ بومباى تلقى ردا من قائد الحملة يبدى فيه أسفه لعدم وجود أماكن شاغرة فى سلك الضباط العاملين ، ولكنه - أى تشرشل - يدعى على الرحب والسعة كمراسل حربى . .

بديع جدا . . كأن الاقدار توجهه الى الغاية التى رمى اليها فى أول الامر . .

وسرعان ما يحصل على اجازة رسمية من فرقة الهوسار الرابعة . ثم يذهب الى ادارة جريدة «الله آباد» احدى كبريات الصحف الهندية اذ ذاك ، ويبرز لرئيس تحريرها بطاقته الشخصية كمراسل حربى لجريدة «الديلى جرافيك» فى ثورة كوبا ، فيحصل فى الحال على بطاقة من الجريدة تعتمده فيها مراسلا حربيا فى الهيملايا . ثم يبرق الى أمه فى لندن أن تحتجز له مكانا فى احدى الصحف البريطانية الكبرى ، فتعتمده جريدة الديلى تلغراف مراسلا لها بأجر قدره خمسة جنيهات عن العمود الواحد علاوة على أجر البرقيات الاخبارية . .

والآن وقد حصل على هذين الترخيصين وضمن نفقاته الشخصية ، فالى العمل : الى الميدان . .

وكما قال هو في حديث له لاحق : « أنا لا اتردد قط في اختيار أحد طرفي السلك البرقي . وأؤثر صنع الاخبار على تلقيها ، وأن أكون ممثلا على ان أكون ناقدا »

ونحن الآن في سبتمبر عام ١٨٩٦

ونستون تشرشل في الميدان لا تفرق بين شخصيتيه ، وما تدرى أهو الملازم الثاني في فرقة الهوسار الرابعة ، أو مراسل جريدتي « الله آباد » و « الديلى تلغراف » ؟ كلتا الشخصيتين فيه تعتلجان . والحرب القاسية الرهيبة في سفوح جبال الهيملايا وفي مداخلها ومآزقها الصخرية تتطلب بسالة الجندى وسعة حيلة الصحفي . وكل من الجندى والصحفى يلعب فيها دوره ، في براعة واندفاع ، واشتياق الى « صنع الاخبار »

وهذه الاخبار يرسلها هو وفق هواه . فان شاء ابرق بها فكان المخبر المطبوع الذي يقفز الى الحوادث الجديدة قفزا ، وان شاء كتبها في هيئة مقالات اخبارية تزخر بالانباء الجديدة. وتتجلى فيها قدرة الكاتب الناشيء الذي ورث عن أبيه البيان وعن أمه سرعة الخاطر الاميركية .. الكاتب الذي قرأ كثيرا قبل ان يكتب ، وشحن ذهنه بشتى المعلومات الادبية والتاريخية والسياسية والفلسفية .. أضف الى ذلك عنفوان الشباب ، هذا النبع الفياض الذي يتحرق الكتاب الشيوخ شوقا اليه

وفي لندن يقرأ الناس أنباءه في الديلى تلغراف بشغف واهتمام ، ويتتبعون مقالاته الطافحة بما لا يوجد في سائر الصحف من الانباء والتعليقات . ويتساءلون عن هذا المراسل الجرىء الذي يحارب أولا ثم يحصل على أنباء القتال .. من هو ؟ فاذا عرفوا انه ولد اللورد راندولف قدروه ، وشجعوه ، واحبوه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ووزارة الحرب تتبع رسالاته وتعجب .. تعجب لامر هذا الملازم الصغير الذي لا يتردد في توجيه اللوم الشديد والنقد المرير الى قواده العظام .. وانجلترا وان تكن بلد الحرية والرأى الحر لا تخلو من ارستقراطيات في مختلف الطبقات . و « ارستقراطية الجيش » في هذه المدة لا يسرها أبدا قلم ونستون المرهف كسيفه ..

ورجال الدولة ، والوزراء ، ورئيس الوزراء نفسه اللورد سالسبورى ، بل ولى العهد ذاته ، يقرأون رسالاته في اعجاب واهتمام ..

فاذا انتقلنا الى هذا المراسل الجرىء حيث هو ، وجدناه في معترك القتال في شمال الهند . وفي يوم ١٦ سبتمبر عام ١٨٩٦ نلمس رجحان كفة الثائرين ، ونرى فيالق من الجيش البريطاني الذي لم ينجح في حملته ترتد من شواهق الجبال الى « وادى محمود » ونرى فلولا منهم يطاردهم الثوار ويرغمونهم على القتال بالسلاح الابيض ــ أرهب سلاح يجيد استعماله الهنود

وندع تشرشل يصف لنا بنفسه ما لاقاه في هذا اليوم ، قال :

« كان القائد قد أصيب برصاصة . وكان يحمله اربعة من جنوده .. كان رجلا كبير

المجرم ، وكانوا جميعا منحنين فوقه . وعلى حين غرة برز من خلال الاكواخ ستة من رجال القبائل شاهرى سيوفهم . فألقى الجنود حملهم التاعس ولاذوا بالفرار . .

« واندفع كبير المهاجمين نحو الضابط الصريع المسجى على الارض وضربه بسيفه ثلاث ضربات أو اربعا . وعندئذ نسيت نفسى . ونسيت كل شيء الا تصميمى على قتل هذا الرجل . . وكنت احمل سيفى الطويل الذى نلت به بطولة المدارس الاهلية فى المبارزة . . فعولت على مبارزته وجها لوجه . .

« ورآنى القبائلى مقبلا نحوه ــ وكنت لا أبعد عنه اكثر من عشرين ياردة ــ فالتقط حجرا كبيرا والقاه صوبى بيده اليسرى . . ثم شهر سيفه بيمناه ووقف فى انتظارى . . بينما كان آخرون غيره يتنظروننى عن كثب

« وعندئذ عدلت عن فكرة المبارزة بالسلاح الابيض . وسحبت غدارتى وصوبتها نحوه واحكمت الهدف ، ثم اطلقت النار . . ولكنه لم يصب . . فاطلقت طلقة ثانية ، فلم يصب . . فاطلقت الثالثة ، وما أدرى أأصابته أم اخطأت الهدف كأخواتها . . وكل ما اذكره انه تراجع خطوات الى الوراء واختفى وراء أحد الصخور

« وانهالت على الطلقات من كل صوب . فتلفت حولى فتبينت انى واقف وحدى فى مواجهة العدو . وما من صديق الى مدى البصر ! فاطلقت لساقى العنان والرصاص ينهمر حوالى كالمطر . . . »

وفى احد تقارير السير بندون بلود نقرأ مديحا للملازم ونستون تشرشل « الذى اثبت جدارته فى احدى الساعات الحرجة »

وانسحبت الحملة البريطانية على مراحل ، ألحق خلالها ونستون بالجيش العامل ، وعين ضابطا فى الفيلق السادس والثلاثين الهندى من فرسان « دوجراس » . وللمرة الاولى يعين ضابط فارس فى فيلق فرسان هندى . . ولقد أحبه جنوده الهنود وتعشقوا جرأته واندفاعه . وكان يتفاهم معهم ببضع كلمات هندية حفظها فى الليلة التى عين فيها ضابطا . .

ظل تشرشل فى عمله الجديد هذا ، حتى قيضت له الظروف ثورة جديدة : فقبيلة « الافريديس » الجبلية تشق عصا الطاعة وتعلن العصيان . والسير وليم لوكهارت أكفأ القواد الانجليز فى الهند يعين على رأس حملة تأديبية جديدة لابادة الثوار وازالة آثارهم ، ودك حصونهم التى شيدوها فى وادى « تيره » وتشرشل يقدم طلب التحاق بهذه الحملة ويسعى سعيه الحثيث ، ولكنه يبوء بالفشل . . لماذا ؟ لانه هو بعينه المراسل الحربى الذى انتقد رؤساءه وسفه آراءهم وخططهم فى رسائله الحربية الى « الديلى تلغراف » . . فيعود تشرشل كاسف البال الى مكانه الاول فى بانجالور . ويتلقاه زملاؤه ورؤساؤه بآرائهم المتضاربة فيه . ولكنه لا يعبأ . ويعكف فى وقت الفراغ الذى يلعبون الورق فيه ويدخنون ويتسامرون ، على وضع مؤلف حربى ضخم عنوانه « قصة جيش الملاكاند » يضمنه خلاصة

انباء القتال الاول ويبسط فيه نظرياته وانتقاداته بسط الشاب الذى لا يرى فى الصراحة من حرج ..

ثم يزور كلكتا زيارة صغيرة ، فيلتقى بصديقه « ايان هاملتون » ، ويشرح له شكاته ورفض السير وليم لوكهارت الحاقه بحملته ، فيتوسط له صديقه حتى يدخله بشخصه الى مكتب القائد .. ولك أن تتصور الحماسة البالغة والدفاع القوى الذى تمكن به تشرشل من اقناع السير لوكهارت بأنه ضابط لا غبار عليه، وبأن ما قال فى رسائله لا يعدو الحق .. ومن ثم يلحقه القائد بأركان حربه الخاص كضابط مساعد بعد ما تعييه الحيلة فى العثور له على مكان شاغر ..

ولكن الحملة لا تبشر بقتال عنيف . وتنهزم فلول الثوار أمام الجيش البريطانى الكبير انهزاما سريعا . ويعود تشرشل الى فرقة الهوسار الرابعة فى بانجالور من جديد . يعود ليتم كتابه « قصة جيش المالاكاند »

ويتم الكتاب .. ويطبع فى لندن .. ويروج رواجا عجيبا يحمل تشرشل على التفكير فى مستقبله كمؤلف . وتأتيه كتب الثناء من كل صوب وفى طليعتها كتاب رقيق من ولى العهد فيه تهنئة حارة ، وفيه ان كتابه يقرأه الآن كل انسان ، ولا يتحدثون عنه الا بالتقريظ والاعجاب ..

ونستون تشرشل يقرأ هذا الخطاب الملكى وتغرورق عيناه بالدموع .. ويهمهم : أين أبى ليرى بعينى رأسه ان شمس ولده آخذة فى البزوغ ؟!

فى أثناء ذلك كانت الانباء تترى عن الحملة المصرية الانجليزية على السودان بقيادة اللورد كتشنر . فهل يدع تشرشل هذه الفرصة الذهبية أيضا تفلت من يديه ؟

انه قناص معارك ، يريد أن يلقى بنفسه فى أتون كل حرب ولا ينتظر كغيره من الضباط حتى يصدر اليه الامر بالاشتراك فى القتال

وكما اشترك أبوه من قبل فى الحملة البرلمانية الشعواء على اللورد غلادستون من أجل مأساة غوردون وما أحاط بها من غموض ولبس واتهامات، أراد هو أن يشترك فى الحملة الكتشنرية بسيفه، ثم يعود فيحمل على كتشنر بقلمه ان وجد فى تصرفاته مطعنا أو تقصيرا

كان ما يزال فى لندن اذ ذاك فى صيف عام ١٨٩٨ ، فأبرق الى القيادة العليا فى القاهرة يعرض عليها خدماته ، فجاءه الجواب بالرفض القاطع الذى لا يرجى معه أمل ، فكتشنر يمقت مثل هذا الضابط الذى يضع أنفه فى كل شيء ، ويتعالى على قواده وسادته !

فماذا يصنع ؟

انه يحاول عبثا ان يحصل على مساعدة جدية ، حتى تهبط عليه المصادفة السعيدة ــ كما عودته دائما ــ بأن يتم اللورد سالسبورى رئيس الوزارة وزعيم حزب المحافظين قراءة كتابه عن الحملة الهندية اذ ذاك ، فيعجبه ، وبخاصة الفصول التى عقدها الضابط

الجرى، مسديا النصح فيها للقيادة البريطانية. أعجبته هذه الجرأة وهزت صراحة الشباب قلب اللورد الشيخ، وتذكر أن مؤلف الكتاب هو ولد زميله ووزير ماليته العتيد اللورد راندولف، فبعث يدعوه لمقابلته ليجدد معه عهدا ختمه اللورد راندولف قبل الاوان ..

وفى المقابلة الحارة التى استقبل بها تشرشل متسع للكلام .. وهل سيتكلم ضابطنا المتحمس الا عن حملة كتشنر على السودان، ورغبته فى الانضمام اليها،ورفض السردار الحاقه بأى مكان شاغر فى جيشه الكبير .. ؟

وناهيك بوساطة تلتمس من رئيس الوزارة البريطانية لسردار السودان . بيد أن كتشنر العنيد يجيب على برقية اللورد سالسبورى بالرفض أيضا . فتكون صدمة عنيفة تكاد تتبدد معها الآمال . ولكنه يعود فيلتمس العون من ملاذه الاخير .. من أمه التى طالما أنقذته وانتشلته فى الملمات . وأمه تتوسط له لدى السير ايفلين وود . والسير ايفلين وود لا يعبأ برأى السردار فيه ويلحقه بالفيلق الحادى والعشرين من حملة الرماح ـ ولكن بدون مرتب وبلا تعويض فى حالة الموت أو الاصابة

والى جريدة المورننج بوست يهرع تشرشل ليعرض عليها خدماته كمراسل حربى فترحب الجريدة ترحيبا حارا بالصحفى الذى أثبت جرأته وجدارته فى الحملة الهندية وقفز الى مرتبة الكتاب النوابغ بكتابه الرائع

وعلى ذلك يعد تشرشل حقائبه استعدادا لهذه المغامرة الجديدة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

***

السودان ما يزال يصطخب بالدراويش، والثورة الكبرى التى رفع المهدى رايتها تبدو كما لو كانت فى ابانها . ولكن كلا . فقد مات الزعيم الذى خال أنه مهدى آخر الزمان . والنار التى كان السودان مسرحا لاوارها توشك أن تخمد، والبركان يوشك أن يهدأ، وأصحاب القمصان المرقعة يوشكون أن ينفضوا من حول الراية المقدسة

والجيش المصرى الانجليزى الذى وكلت قيادته الى كتشنر يزحف الى السودان زحف المتمكن من نفسه، المعول على الانتقام للجيوش التى أبادها المهدى، ولغوردون

ونستون تشرشل يصل الى القاهرة بعد أن تقطع الحملة فى طريق السودان شوطا بعيدا . وسرعان ما يتحرك الفيلق الحادى والعشرون من حملة الرماح مغذين السير ليلا ونهارا ليلحقوا بالجيش الزاحف . وما يكادون يقتربون منهم حتى يروا طلائع من جيش العدو، وتهىء الاقدار لتشرشل ان يكون هو دون غيره من ضباط الفيلق أول رسول يبلغ كتشنر نبأ هذه الطلائع . !

هنا تأخذ الحملة فى نظر تشرشل لونها المحبب الى نفسه وقد كادت تفقده . ألم يعهد اليه ـ ان عمدا وان عفوا ـ فى سوق الخيول العرجاء التى حفيت من بعد الشقة ووعورة الطريق ؟ أفهذه هى المهمة التى توكل الى الضابط الشاب وابن اللورد راندولف تشرشل

الذى تطوع فى الحملة ولم يسق اليها برغم أنفه ؟

وفوق رمال الصحراء ، وعلى كثب من أم درمان يقف ونستون تشرشل أمام قائده كتشنر ، فيرفع حسامه بالتحية ، وينبه ان العدو قد ظهرت طلائعه .. وما ندرى أعرف كتشنر أن هذا الضابط الواقف أمامه هو الذى جاءت من أجله التوصيات، أم لم يعرف؟ بل لعل كتشنر لم يكن يهمه اذ ذاك أن يعرف شخصية الماثل أمامه ، ولعل عقله الكبير راح يتفتق عن خطة يلاقى بها العدو فى الغداة ...

٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ ....

ميدان القتال فى حجر أم درمان يشهد لآخر مرة حربا فى العراء على نمط فروسية القرون الوسطى . والدراويش الذين ألفوا الافراس وألفتهم ، وأجادوا الفروسية وبرعوا فى أفانين الضرب بالحسام ، يخالون أنهم سيضربون المصريين وحلفاءهم الانجليز الضربة القاصمة التى ما بعدها قيام . ويؤملون بعد ذلك فى الانحدار على أرض مصر كالجراد المنتشر . وعشرون الفا هم جيش كتشنر اذ ذاك ، يواجهون ستين الفا من الدراويش .. وثلاثمائة فارس يلاقون ثلاثة آلاف فارس من أتباع المهدى ..

ويلتحم الجيشان . ويقاتل المصريون والانجليز ببسالة . ويقاتل الدراويش ببطولة قل ما شهدها التاريخ . هؤلاء الدراويش فى القمصان المرقعة تلتمع أعينهم ببريق الجهاد وسيوفهم المقوسة يشهرونها عالية فيحزون الرقاب دفاعا عن معقلهم ، وعن القبر الذى رقد فيه زعيمهم وسيدهم رقدة الموت .. ولكن ما جدوى البسالة أمام سيل القذائف التى تنصب عليهم فتحصدهم وهم يتراصون عليها صفا صفا كأنهم بنيان مرصوص ؟

« ومرت بنا ثلاث دقائق » كما يحدثنا تشرشل نفسه ، « رأى كل منا العالم خلالها فى مرمى رمحه أو غدارته » . وسرعان ما انجلت المعمعة عن هزيمة ماحقة للدراويش لم تقم لهم بعدها قائمة . ومن هذه المعركة وما تلاها من قتال وظفر ، خرج تشرشل بكتاب له جديد . كتاب اجتمعت فيه صفات المحارب والصحفى والمؤرخ . وهو الذى سماه « حرب النهر »

فى هذا الكتاب سرد لوقائع الحملة وفيه تعمق فى مسألة السودان وكنه الثورة المهدية . وفيه أيضا نقد مرير لخطط كتشنر وتهور كتشنر . وونستون تشرشل يسلق قائد الحملة بلسانه الحاد ويرى أن صيحة الانتقام والثأر لغوردون قد أذهلت كتشنر ورجاله عن واجبهم كمحاربين شرفاء ، اذ ما ذنب هذا الجثمان المسجى فى التراب تحت القبة المهدية يفصل رأسه عن بدنه فيحمل الرأس كرمز انتصار ويقذف بالبدن التاعس فى النيل بأمر السردار وتهدم القبة فما يبقى منها أثر ؟!

« وما أتردد قط فى أن أقول ان افناء كل ما هو مقدس عندهم هو عمل شرير ، يجب أن يعبر كل مسيحى صادق الايمان - ولا أقول كل فيلسوف - عن مقته له مقتا شديدا .»

من ميدان الحرب الى ميدان السياسة

- ١ -

فى طريق العودة من السودان الى مصر ، ومن مصر الى انجلترا ، نجد ونستون تشرشل مستغرقا فى التفكير فى أمر مستقبله

ها هو ذا قد قاتل فى ثلاثة ميادين . ولكنه لم يقاتل بالمعنى الذى يفهم أنه القتال ، ولا هو رأى الحرب كما تخيلها مما قرأ فى الكتب والسير . ان الحرب التى قرأ عنها كحروب الاسكندر وهانيبال وقيصر ونابليون ، كانت أروع مما شهد ، فماذا دها فنون القتال حتى فقدت ما كان لها من جمال وما فيها من استبسال ؟ هذه الجيوش التى قاتل معها كادت تحطم قلبه .. والسلك العسكرى كما لمسه أخيرا لن يوصله الى مرتبة القيادة حتى يشتعل رأسه شيبا ، وتأخذ حياته فى الافول .. فأين العصور الذهبية القديمة ، أيام كان الاطفال يقفزون الى مدارك الرجال ، ويغادرون ميادين اللعب ، الى ميادين أخرى للقتال ، ومن تكن فيه صفة الزعامة منهم ، كانوا يتخذونه زعيما ، ومن تكن له مؤهلات القيادة كانوا ينتخبونه قائدا ؟ وكم من جندى رومانى حمله اخوانه فوق دروعهم ، ونادوا به امبراطورا عليهم ؟ وونستون تشرشل ينتظر السنوات الطوال تليها السنوات الطوال ، وما هو ببالغ مرتبة القيادة فى عصر أصروا على أن يجعلوا القيادة فيه للشيوخ ، وفى بلد لا يعترف بالشباب ، ولا يثق فى الشباب ، ويخشى أن يضع مقاليد أمره فى أيدى الشباب

ونستون تشرشل يفكر فى أبيه وفى غير أبيه من أسرة تشرشل ، ومن سلالة دوق مالبرو العظام .. ألم يكونوا كلهم قوادا ، وزعماء وساسة ، كتب التاريخ صحائف خالدات من أعمالهم الباقيات ! وكلهم قد بلغوا ما بلغوا دون أن ينتظروا حتى تشتعل رؤوسهم شيبا ، فماذا دهاه هو حتى يظل فى السلك العسكرى الذى لا يعد الشباب بشىء ، حتى يولى الشباب الادبار ؟

وفى عالم السياسة - ان يكن عالم القتال قد ضاق بفتانا - متسع للشباب ، وأمال الشباب ، وقفزات الشباب . فان حطمت السياسة قلبه أيضا فعنده عوالم الادب والصحافة ، وهو قد نجح فى كليهما ، فراسل كبريات الصحف ، وبعث اليها أخبارا لم تك لتبلغها من غيره ، وهو قد ألف كتابين نجحا وذاع صيتهما ذيوعا يبشر بمستقبل أدبى كبير ...

اذا فليغادر الجيش بخيله ورجله كما يقولون ، وليقذف بنفسه فى معمعان السياسة لعله يصيب فيه نجاحا مشهودا

وفى السفينة التى تقله الى انجلترا يلتقى بصحفى يدعى ستيفنس ، والى هذا الصحفى يسر نجواه فيمتلىء خيال الصحفى بصور شتى مما يجول بذهن ضابطنا الشاب ، حتى اذا ما بلغت بهما السفينة انجلترا ، والتقى الصحفى برئيسه الفريد هارمسورث (اللورد نورث كليف فيما بعد) عرض عليه مقالا عجيبا فى تنبؤاته عن ونستون تشرشل ، وسماه أصغر رجل فى أوروبا وقال فى جملة ما قال : انه الآن جندى . بيد ان ذلك لن يقدم فى نظر الناس اليه أو يؤخر ، فهو قد يكون موهوبا ، وقد تكون أو لا تكون فيه الصفات التى تخلق منه قائدا عظيما ، ولكنه لن يستزيد من هذه الصفات بعد الآن فانها ان وجدت فيه ، ستطغى عليها صفات أخريات سوف تخلق منه ، عند ما يريد هو ، زعيما عظيما ، أو صحفيا عظيما ، أو داعية من أكبر الدعاة

« وهو على مائدة العشاء يتكلم ، ويتكلم كثيرا ، وما تدرى متى ينتقل من الحديث عن مثله الاعلى الاول « ماكولى » ، الى مثله الاعلى الثانى « ونستون تشرشل » ! ومن يدرى ماذا سيصبح هذا الشاب فى مقبل حياته .. ان السرعة التى هو منطلق بها لن يسعه معها البرلمان فى الثلاثين من عمره ، ولن تسعه انجلترا كلها فى الاربعين ! »

كلام عجيب .. وأعجب منه أن يكون هذا الرجل الذى يتنبأ ستيفنس بمستقبله ويصوره بكل هذه الالوان الزاهيات شابا لم يتجاوز الرابعة والعشرين !

هذا الشاب هو الذى عول ــ بعد ما كاد الجيش يحطم قلبه ــ على دخول معترك السياسة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وأول باب لا بد من ولوجه للذى يهيىء نفسه للحياة السياسية هو باب مجلس العموم ومجلس العموم معناه دخول معمعة الانتخابات

اذن فليدخل هذه المعمعة غير خائف ولا متهيب . فهو أولا ابن اللورد راندولف الذى ما تزال ذكراه قريبة الى الاذهان . وهو ثانيا قد قاتل فى أكثر من ميدان . وهو ثالثا قد راسل الصحف وألف كتابين كان لهما فى عالم النقد دوى عظيم . فله اذن أن يعد نفسه معروفا ومشهورا

والدائرة الانتخابية التى يختارها لنفسه من أخطر الدوائر الانتخابية . فان «أولدهام» بلدة صناعية يسكنها عمال اصفرت وجوههم وهزلت أجسامهم من فرط ما تنال منهم مغازل القطن وأنواله . ومثل هؤلاء لا يقتنعون بالقليل ، ولا يسهل ضمان أصواتهم فى الانتخابات

ولكن تشرشل الشاب لا ينظر الى دائرته الانتخابية بمنظار أسود . انه فتى وفى عنفوان شبابه . و « أولدهام » فى نظره مكان شعرى جميل ، تسكنه جماعات من البشر تأكل الخبز بعرق الجبين ، عكفا على الانوال ينسجون عليها ما يقى الناس حر الصيف وزمهرير الشتاء . ومثل هؤلاء العمال لا بد أن يرحبوا «بأصغر رجل فى أوروبا» ويعطوه أصواتهم

لعل قلبه الفتى ان ينبض بحبهم ولعل لسانه الجريء الذى لم يتردد فى توجيه أشد اللوم الى رؤسائه وقواده لا يتردد فى الدفاع عن حقوقهم المهضومة فى مجلس العموم

وفى نوفمبر عام ١٨٩٨ يحزم تشرشل أمره ويقدم طلبا الى ادارة حزب المحافظين طالبا ترشيحه فى الانتخابات عن دائرة « أولدهام » . فتصدمه حقائق الحياة المرة : فلا بنوته للورد راندولف ، ولا ماضيه العسكرى ، ولا شهرته الصحفية ، ولا مكانته الادبية تجدى مع هيئة الحزب فتيلا .. ان الحزب لا ينظر الى مرشحيه على ضوء ما لديهم من تجارب ولا ما فيهم من مواهب واستعداد .. ان هيئته التنفيذية تسأله : كم من المال سيدفع لخزانة الحزب .. وعند ما يقول انه لا يملك الا نفقات الانتخاب نفسه ، يهز المسئولون فى الحزب أكتافهم ولا يعيرون طلبه أدنى اكتراث ..

المال .. المال .. ! قاتل الله المال ، فكم قتل من مواهب وقبر من استعداد فى الشباب مخبوء !

المال . ! لقد سعى تشرشل فى جمعه وتهافت عليه ، وألقى بنفسه فى كل معمعة من أجله ، وسمى « قناص الفرص » من أجله ، وعرض نفسه للنقد المرير من أجله ، وها هو ذا لا يملك منه ما يشبع نهم حزبه وجشعه ويضيع أمله فى ترشيح نفسه ودخول مجلس العموم ، ثم الوزارة ، ثم الزعامة ، من أجله أيضا !

اذن فليترك ترشيح نفسه جانبا ما دام المال قد قضى على آماله ، وليجرب حظه فى الخطابة الانتخابية تاركا ما بعد ذلك للاقدار التى عودته أكثر من مرة أن تهبط عليه بالفرص الذهبية من السماء

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فتراه خطيبا لاول مرة فى حياته السياسية فى أحد المحافل الانتخابية بمدينة « باث » وناهيك بخطاب يعد به تشرشل نفسه للمستقبل السياسى الذى ينتظره . وفى اليوم التالى نقرأ فقرات بأكملها من خطابه فى جريدة « المورننج بوست » التى توسع له من صدرها مكانا أكبر مما توسعه لغيره من الخطباء ، لمكانته عندها وسابق خدماته ، والتى توفد من لدنها مندوبا خاصا ليصف الحفل ويقدم الخطيب الشاب للجمهور

بهذا التقديم القوى ، وبالمقال الذى كتبه ستيفنس بعنوان « أصغر رجل فى أوروبا » يضع تشرشل قدما ثابتة فى حقل الانتخابات والسياسة . ثم ينتظر الاقدار أن تقدم له الفرصة الذهبية فيقبل الحزب ترشيحه على مبادئه

وهذه الفرصة تتاح له بعد قليل . فان دائرة « أولدهام » هى من الدوائر الكبيرة التى يتقدم عنها نائبان لمجلس العموم . واحد من حزب المحافظين يدعى روبرت اسكروفت . ومعه زميل له محافظ يقعده المرض عن الاشتراك فى المعمعة الانتخابية . ويقرأ روبرت اسكروفت عن ونستون تشرشل ، ولعله يسمعه وهو يخطب فى « باث » فيسعى لدى الحزب حتى يقبله مرشحا عوضا عن زميله المريض فيما اذا أقعده المرض نهائيا

ونستون تشرشل يقفز الى هذه الفرصة الذهبية . ويعد خطابه الاول الذى سيلقيه على ناخبيه . ولكن قبل ان تتم الرواية فصولا يموت مستر روبرت اسكروفت فجأة . . وينسحب الزميل المريض من الانتخاب . فيبقى هو المرشح الوحيد عن الدائرة . ويتقدم معه مرشح من العمال يدعى جيمس مودسلى هو سكرتير احدى النقابات العمالية

وبذلك تبدأ المعمعة . وها هو ذا ابن اللورد راندولف ومعه مرشح اشتراكى، يقفان فى وجه مرشحين قويين من حزب الاحرار ، أحدهما عين نرى له فى أولدهام مقامعتيد يدعى مستر ايموت ، والآخر مستر ولتر رنسيمان ابن صانع السفن الشهير والذى يحتل الآن مكانا خطيرا فى مجلس اللوردات

ويأخذ الطرفان فى الهجوم والدفاع والاخذ والرد ـ ولم لا نقول « السب واللعن » فى حدود الآداب الانتخابية طبعا . . ؟ ويظهر تشرشل على حقيقته فى كل المواقف . فاذا كان غيره ينافقون الناخبين فهو لن ينافق ، واذا كانوا يوافقونهم فى كل أمر ، فهو لا يوافقهم الا فيما يرى أنه الصواب . . وفى بدء المعركة نراه يختلف مع أحد كبار أنصاره على كل شىء تقريبا . بل انه ليختلف مع حزبه نفسه ويعارض فى مشروع قانون العشور الذى كان مفخرة الحزب فى تلك المعركة الانتخابية ! حتى اذا ما أعلن أعضاء الحزب سخطهم عليه وراح آرثر بلفور يسخر منه ، لم يعر سخريته اهتماما وهز كتفيه العريضين فى غير مبالاة !

قد تسمى هذه سذاجة . وقد تسميها تسرعا وتهورا وعدم تقدير للظروف . ولكن هكذا كان تشرشل ، وهكذا سيكون ، لا يصدر عنه قول الا عن عقيدة ، ولا يهمه بعد هلل له الناس وصفقوا ، أم سخروا واستهزأوا . . .

وفى حملاته على غريمه مستر رنسيمان تراه قويا عنيفا . فهو يعمل من أجل نفسه فى الوقت الذى يقاتل فيه تشرشل فى السودان وغير السودان . وهو لم يخرج من معركة الحياة بغير الهزيمة ، وتشرشل وزملاؤه المحاربون قد عادوا من ميادين القتال بأكاليل النصر

ولكن للمال سطوته ، وللمكانة الاجتماعية خطرها . ولذا يخسر تشرشل المعركة الانتخابية الاولى هو وزميله ، وتفوق عليهما غريماهما بأكثر من ألف صوت

على أن ابن اللورد راندولف الذى اتبع سيرة أبيه لم يخسر سوى الاصوات التى فرقت بينه وبين غريمه . أما الخبرة السياسية ، والتجارب الانتخابية ، فقد ربحها . وسترى عما قليل أن ربحه كان عظيما

ـ ٢ ـ

فى أكتوبر سنة ١٨٩٩ هيأت الاقدار لونستون تشرشل مغامرة جديدة

فالبوير قد بعثوا انذارهم الاخير لبريطانيا على لسان زعيمهم كروجر ، هذا الرجل

الذى وهب بلاده وشعبه كل ما يملك وأذهل العالم بشتى ألوان تضحياته وبطولة شعبه
وسرعان ما تندلع نار الحرب فيتحمس لها تشرشل وينوى أن يقذف بنفسه فى أتونها. ولا عجب . فهو قد أخفق فى الانتخابات ، ورام مقعدا فى مجلس العموم فلم يبلغه ، فليحقق اذن ما لم يتحقق من آماله ، فى هذا الميدان الجديد الذى فتح له ذراعيه . والى جريدة المورننج بوست يتوجه ، ويحصل على بطاقة كمراسل حربى ، وهو يعلم أن مغامرته لن تقف عند حد المراسلة الصحفية
وهكذا يلقى بنفسه فى المعركة الخامسة وهو ما يزال فى الخامسة والعشرين
وحرب البوير يحسبها الانجليز حربا محلية صغيرة . ووزارة الحربية تحسب أنها بصدد مصادمات خفيفة لن تلبث الا قليلا ، والجيش الذى أعدته لها بقيادة القائد الكبير الجنرال السير ريدفرس بولار فى نظرها يكفى لوقف الثوار عند حدهم
بل ان الرأى العام كان يحسب ان الحرب ستنتهى فيما لا يزيد على ثلاثة أشهر . وانها لن تكلف الخزانة أكثر من عشرة ملايين من الجنيهات . وتشرشل يأسف لشىء واحد هو أنه لم يتمكن من السفر الى جنوب أفريقيا قبل ذلك . ويخشى ان يصل الى ميدان القتال بعد فوات الوقت ـ مع أنه يستعد للسفر على نفس الباخرة التى ستقل قائد الحملة السير بولار . فكأنه كان يحسب ان القوات الخفيفة التى كانت تتلقى صدمات الحرب الاولى هى التى ستقضى على مقاومة البوير ، وان الجيش الكبير سيصل الى الميدان فلا يلقى حربا ولا صداما .
مع أن حرب البوير استمرت ثلاث سنوات ، وكلفت الخزانة أكثر من مائتى مليون من الجنيهات !

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وأقلعت الباخرة « دونوتاركاسل » بالجنرال بولار وهيئة أركان حربه ومراسل المورننج بوست فى ١١ اكتوبر متجهة الى جنوب أفريقيا . وكان الرأى السائد بين ضباط أركان الحرب ان البوير لن يجعلوا للحرب لونها الذى يتمناه تشرشل ، فهم ـ على حد قولهم ـ هواة قتال ، والمحارب الهاوى لا يطيق القتال طويلا . .

وما تكاد الباخرة تلقى مرساها فى « مدينة الكاب » حتى تتهاوى أنباء الهزائم التى حاقت بجيش السير جورج هوايت على الجنرال بولار كالمطارق ، فالبوير ـ هواة القتال ـ قد صمدوا للانجليز فى الناتال وردوهم على أعقابهم منهزمين ، وطوقوهم تطويقا تاما فى « ليدى سمث » . . كما هزموهم فى نواح أخرى . .

اذن فالحرب قد لبست ثوبها البهيج بالنسبة للمراسل الحربى . وستمده لا ريب بأنباء مثيرة سوف يبرق بها الى جريدته . وسيعود اسمه فيلعلع فى انجلترا كما لعلع من قبل
ومن ثم تبدأ المغامرة الكبرى التى كان يحلم بها تشرشل . فان القيادة البريطانية ابتدعت فى هذه الحرب ـ لاول مرة فيما نعلم ـ فكرة القطار المصفح ، وهى التى أفضت

فيما بعد الى فكرة الدبابة المصفحة

في أحد هذه القطر المصفحة التى أطلقها الانجليز فى طريق « ليدى سميث » لمحاولة انقاذ حاميتها ، يلتقى تشرشل بزميل له قديم من رجال الجيش يدعى الكابتن هالدين . ويعرض الكابتن على صديقه المراسل ان يصحبه في عربته . ويتوقع تشرشل ان يكون في هذه المغامرة ما يصلح مادة لمقال صحفى ملىء بالحوادث فيقفز الى جوف العربة ضاحكا متفائلا ، وما يلبث القطار المصفح ان يتحرك فى طريقه ، والجنود يضحكون ويصفرون وينشدون الاناشيد وهم عن الخطر غافلون . وعلى حين غرة اذا هم يفاجأون بالعدو عند مفرق الطرق بين « استكورت » و « كولنسو » . . واذا مدفعان من مدافع البوير تنصب قذائفهما على القطار . . واذا سائق القاطرة يسوقها بأقصى سرعتها ليتخلص من هذا المأزق ، فتصطدم العجلات بقطع من الحديد مثبتة بمهارة على الشريط الحديدى ، وتخرج العربات التى فى مقدمة القطار عن القضبان . !

وندع وصف الدور الذى لعبه تشرشل فى هذا الحادث لزميله مستر اتكنز مراسل « المانشستر جارديان » الذى وصل الى قرب مكان الحادث بعد بضع ساعات فبعث الى جريدته يقول : « لقد سمعنا ان تشرشل جعل يطوف حول القطار (الغريق) والطلقات تنصب من حوله وتصطدم بجوانب العربات المصفحة وتلتصق بها . . وانه راح يصرخ طالبا المساعدة لانقاذ القاطرة من الاسر بأبعاد العربات الامامية عنها ، وسمعنا انه راح يشجع الجنود بقوله : لا تفزعوا واحتفظوا ببرودكم . ثم يحدث نفسه قائلا : ستكون رسالتى الى جريدتى مسلية وشائقة . . وعند ما أصيب سائق القاطرة وهم بالفرار قفز تشرشل الى جواره وهتف به : ان الرجل لا يصاب فى اليوم الواحد أكثر من مرة واحدة . ! »

وتظل الطلقات تنهال على القطار المصفح أكثر من ساعة . وبعد جهود شاقة ودفاع مجيد تتمكن الحامية من صد المهاجمين ، عن القاطرة وعن العربات الخلفية ، ويعودون بها الى مدينة استكورت فى سلام . . ويروى الجنود ما شهدوا من بسالة تشرشل وسرعة خاطره فى انقاذ القاطرة . ويقول أحدهم : « لو لم يكن تشرشل معنا لما نجا منا رجل واحد . . » فاذا سئلوا عن تشرشل أين هو،قالوا انه أسر مع بقية الجنود الذين خلفوهم وراءهم ، اذ أخذ على عاتقه انقاذ القاطرة والعربات الخلفية ، ولم يعبأ بنفسه ولا هو فكر فى سلامته فوقع فى الاسر . .

– ٣ –

وسرعان ما يبرق المراسلون الحربيون بأنباء هذه المغامرة الى صحفهم ويضفون عليها ألوانا من عندهم ، وهذا هو ما يريده تشرشل بالضبط . . انه يريد الشهرة . . يريدها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من كل سبيل ، لعلها ان تعوضه عن فقره ، وتخفف عنه أعباء الحملات الانتخابية التى لا تنجح الا بأحد أمرين : المال ، أو الشهرة !

ومن تظنه يكون آسر تشرشل ؟ انه « لويس بوثا » نفسه .. لويس بوثا الذى لم يكن اذ ذاك الا مقاتلا بسيطا ، والذى قفز بعد ثلاث سنوات الى مقام الزعامة ووفد على انجلترا ليتكلم باسم البوير وباسم القضية البويرية ... ويتكلم مع من ؟ مع تشرشل نفسه الذى وقع فى يده أسيرا ، والذى قفز بعد ثلاث سنوات أيضا الى مقام وكالة الوزارة ، وزارة المستعمرات وراح يفاوض بوثا باسم بريطانيا العظمى .. فما أعجب مصادفات القدر .. !

ولقد كان فى طوقه ان يقول لآسريه انه رجل مدنى لا شأن له بالقتال ، وان يبرز بطاقته التى تثبت انه مراسل حربى فيطلقوا سراحه فى الحال . ولكن تشرشل ليس بالرجل الذى يفعل ذلك .. انها مغامرة . فلتكن مغامرة الى أقصى حدودها ..

وفى المعتقل ، وهو مدرسة نموذجية حكومية فى بريتوريا ، يقيم ستون ضابطا بريطانيا فى الاسر – وفى جملتهم تشرشل . وتنقضى أيام الاسر الاولى فى توتر وهموم . ثم يألفون حياة الاسر ويخيم عليهم هذا الخمول الذى لا يعرفه الا الاسير أو السجين ، ويقطعون الوقت بلعب الورق والتدخين . وفى غير أوقات اللعب يتناقشون فى السياسة والحرب « ويتكلم كلهم فى وقت واحد وفى مقدمتهم تشرشل » على حد قول ضابط ارلندى كان معهم أسيرا . وأحيانا يفكرون فى الهرب ويرسمون له الخطط ، فيكون من رأيهم ان يفروا فرادى ويرى تشرشل ان يفروا كلهم مرة واحدة .. حتى اذا ما يئسوا من وضع خطة محكمة عادوا الى لعب الورق والتدخين ، وتركوا تشرشل يحرق الارم من الغيظ ..

وبتكرار هذا (البرنامج) كل يوم ، وبتكرار رسم الخطط للهرب وعدم تنفيذه ، يمل تشرشل هذه الجماعة فيعول على الفرار وحده ، ولا يرسم لهذا الفرار خططا ولا يجادل فيها ، بل يتحين الفرصة فى الظلام ويراقب الحراس وهم يروحون ويجيئون من فوق المدرسة ، حتى اذا ما أعطوه ظهورهم فى احدى روحاتهم تعلق بالجدار وقفز من فوقه ، وأطلق ساقيه يسابق بهما الرياح ..

ست وثلاثون ساعة يمضيها تشرشل فى مشى حثيث وعدو وقفز من فوق الحواجز وتعلق بعربات السكك الحديدية ومحاولات شتى لعبور منطقة الخطر والاتصال ولو بجماعة هائمة من الانجليز . ست وثلاثون ساعة يمضيها فى قلق وخوف وأمل لا يكاد يبدو حتى يتبدد ..

وأخيرا يبدو له كوخ من بعيد فيقبل عليه ، واذا هو نزل مبنى بالحجارة ، واذا صوت انجليزى رائق يجيب عن طرقه على الباب ! انه مستر « جون هوارد » المشرف على شئون المناجم ، ومعه فى النزل مستر « ديوسناب » المواطن العزيز من مقاطعة أولدهام .!! أولدهام دائرته الانتخابية دون غيرها من البلاد !!

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وبديهى أن يطعم الرجلان مراسلنا الذى كاد يقتله الجوع .. وبديهى أن يعملا على اخفائه عن أعين الرقباء أو المطاردين .. وما أسهل اخفاؤه فى منجم الفحم القريب ، والزج به بين مختلف الاجهزة حيث تراب الفحم يملأ الصدور وتسود منه الوجوه .. وحيث الجرذان تدب حول الاسير الفار وما ترعى حرمة الجوار !

وبعد بضعة أيام يدبر الصديقان أمر ترحيل المراسل المسكين الى ثغر «لورنزوماركس» على خليج ديلاجوا ، فيودعونه احدى مركبات السكة الحديدية محملة ببعض بالات الصوف ! وفى فجوة أعدت بين هذه البالات يجثم تشرشل ومعه بعض الزاد فى انتظار ساعة الفرج . وهذه الساعة لا تأتى حتى يقطع ثلثمائة ميل فى هذا المخبأ الذى يخنق الانفاس !

وفى أثناء ذلك كان رجال البوليس من البوير يتشممون أخباره فى كل مكان ، ويحاولون عبثا ان يلقوا القبض عليه وتعلن ادارة الامن العام عن مكافأة لمن يقبض عليه حيا أو ميتا . وتذاع نشرة بأوصافه ، وفيها انه انجليزى يمشى فيحجل قليلا مندفعا الى الامام ، شاحب اللون ، أحمر الشعر داكنه ، ذو شارب قصير ملفت للنظر ، يتكلم من أنفه ولا يحسن التفوه بكلمة فيها حرف السين! وكلما مر يوم ولم يعثر على الاسير الفار زادت حماسة البوليس فى التنقيب عنه .. فالبوير المتمصرون اذ ذاك يأنفون أن يضللهم انجليزى ، وتأخذهم العزة أن يضحك المراسل الشاب على ذقونهم ويسخر منهم كل هذه السخرية ..

أما الانجليز فقد تلقوا الاسير الفار بالمواكب والاعلام والاكاليل والهتاف والتهليل .. مواكب حقيقية حمل فيها تشرشل على الاعناق والقيت عليه باقات الزهر والرياحين .. وألقى الخطباء خطبا رنانة رد عليها تشرشل بخطب أكثر منها رنينا ، فلقد طفح السرور بالانجليز وعدوا فرار الاسير عملا من أمجد أعمال البطولة ، رفعوا تشرشل من أجله الى مصاف الابطال القوميين ! ومراسلو الصحف الذين وجدوا فى وقائع الاسر ، ثم فى مغامرات الفرار مادة حية غزيرة لصحفهم ، أبرقوا اليها بالمقالات الحماسية الفياضة عن (زميلهم) الذى دوخ البوير وحده وفر منهم بعد ما قطع مئات الاميال وسط أرضهم وعلى كثب منهم . فنشرت صحفهم تلك المقالات وجعلت قراءها ينظرون الى تشرشل نظرة البطولة والتمجيد . ! بينما قامت فى غيرها حملات على هذا التمجيد (الصبيانى) — فى نظرهم — وطال الاخذ والرد بين الطرفين المتضاربين : أحدهما يمجد والآخر يسخر ويستهزىء ، ويرى ان جسامة الخسائر وتوالى الانهزامات لا تبرر كل هذا السرور بفرار فردى ...

ومن خلال كل ذلك ينال تشرشل أمنيته الكبرى : الشهرة ! ويتحقق شطر من نبوءة ستيفنس — الذى مات فى ليدى سمث بكل أسف — فقد أثبت تشرشل انه داعية من أكبر رجال الدعاية ...

ARCHIVE
http://Archive.Sakhrit.com

- ٤ -

تشرشل يتأمل فيما وقع له بعد أن تهدأ عواصف التهليل والتمجيد
ما هذا القدر الذى يهيىء له فى كل يوم حادثا ضخما يضع به حجرا ضخما فى صرح عظمته المقبلة . ؟ انه وفد على الميدان كأى مراسل آخر . فما الذى حمله على ركوب العربة المصفحة ؟ ثم لماذا يأسره بوثا - الذى بدأ نجمه فى الالتماع - دون غيره من البوير ؟ وكيف فر ؟ وكيف التقى برجلين من الانجليز وسط منطقة نفوذ البوير وأحدهما من دائرته الانتخابية بالذات ؟ وما هذا التمجيد الذى قوبل به . والهتاف بأنه بطل ؟ وما هذه الاكاليل - أكاليل النصر والظفر ؟ أليست هذه يد القدر تسوقه سوقا الى مستقبل ذى خطر ؟!

اذن فليدع يد القدر تصنع به ما تشاء . ولينطلق على سجيته فى كل عمل يهم به ، فلعل له رسالة فى الحياة سيؤديها ، ويكون ابن اللورد راندولف بحق سر أبيه

وليسر فى رسالاته الحربية الى جريدته على النهج الذى اختطه لنفسه من قبل . وليكن فى كل أقواله صريحا ، لا يداجى ، ولا يوارب ، ولا يحتكم الا لضميره هو ، ولا يعبأ برأى عام ولا بقائد ولا بزعيم .. وليقل فى احدى رسالاته للمورننج بوست : « ان الرجل الواحد من البوير اذا امتطى صهوة جواده فى أرضه التى يعرفها وتعرفه ، يساوى ثلاثة جنود مدربين الى خمسة جنود . ان البنادق الحديثة من القوة بحيث ترد كل الهجمات بالهزيمة . وان السرعة الفائقة التى يتحرك بها العدو تحمى خطوطه . ولن تتغلب على هذا العدو الا بأحد أمرين : فاما مقاتلته برجال يماثلونه خلقا وذكاء ، واما محقه بجيوش كبيرة جرارة ..

« ان لدينا هنا مكانا مهيأ لربع مليون جندى ... ونحن فى حاجة الى قوات غير نظامية كثيرة .. فهلا يزال السادة الانجليز فى بلادهم يتفكهون بقنص الثعالب . ؟! »

وفى مارس عام ١٩٠٠ يقول : « من الغريب ان تكون نظرة المحاربين فى الميدان أصوب من النظرة العامة فى انجلترا .. ألا حذار من اثارة الناس أكثر مما يحتملون .. ان الفار - وهو صغير وحقير - ينقلب وحشا اذا ما هوجم واستثير .. اننا نريد سلما عاجلا .. وان آخر شىء نريده من هذه الحرب هو ان تنقلب فى نهايتها الى حرب عصابات لا تنتهى .. قل للذين ينادون منا بأن العين بالعين والسن بالسن : هل يساوى ما سنخسره فى هذه الحرب تضحياتنا الجسيمة من أجلها طوال خمس سنين .. »

ويعرض عليه القائد العام وظيفة عسكرية كضابط مراسلة فيعود تشرشل الى خدمة الجيش حينا . ويقاتل مع فيلق عجيب من رجال المستعمرات وبعض المتطوعين يلبسون قبعات ثبتت فيها ريشات طويلة ، ويطلق عليهم اسما مشتقا من الديكة وعرف الديكة ..

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويجمعهم كل ليلة حول نار المعسكر فيقضون ساعات بهيجة فى « مجلس النار » .. ويدخل معركة « سبيون كوب » فلا يصاب بجرح واحد . ثم يزحف مع الزاحفين على ليدى سمث ويكون فى طليعة من يدخلونها من الجيش البريطانى الظافر ويلتقى هناك بصديقه الحميم ايان هاملتون . ثم توفده القيادة الى بريتوريا .. الى المدرسة النموذجية حيث الاسرى الذين كانوا يتناقشون فى أمر الفرار وما يجرأون على الفرار .. فيفتح بيده مغلق الابواب، ويطلق بيده ستين ضابطا أسيرا وسط عاصفة من التصفيق والهتاف !

- ٥ -

هذه الانتصارات وان تكن كلفت الانجليز ثمنا غاليا فى الرجال والعتاد ـ ولم لا نقول وفى السمعة أيضا ـ تشجع الحكومة البريطانية على اجراء انتخابات جديدة تقوم على امجاد الحرب والبرامج المقترحة لما بعد ذلك فى أفريقيا

وهذه الانتخابات تسمى « انتخابات الكاكى » لانها تقوم كما قلنا على فكرة حربية

وحزب المحافظين يقف فى مطلع القرن فخورا بأعماله ورجاله ، وعلى رأسه زعيمه ورئيس الوزارة الماركيز سالسبورى خادم فكتوريا الامين وسادن التراث الدبلوماسى الانجليزى الذى ازدهر فى عصر النهضة وما تلاه الى ختام القرن التاسع عشر ، سالسبورى خليفة دزرائيلى فى زعامة حزب المحافظين ، ورجل الدولة الذى ساهم الى حد كبير فى رسم اتجاهات السياسة الامبراطورية ووضع تقاليدها على أسس ما تزال قوية الى الآن وقاد سفينتها طوال خمسة عشر عاما أو تزيد فما ارتطم خلالها الا بصخرة البوير

ويدنو موعد الانتخابات . فيتقدم اليها المحافظون داعين الى مواصلة القتال حتى النصر الاخير . ويجعلون سلاحهم الاول فى المعمعة الانتخابية اتهام الاحرار بأنهم يعطفون على البوير ويهمون بمد أيديهم اليهم بعد الذى كان منهم . ويقول جوزيف تشمبرلين فى احدى خطبه : « ان كل مقعد فى مجلس العموم تفقده الحكومة هو مقعد للبوير .. »

والى هذه المعمعة الانتخابية يتقدم تشرشل فى صيف عام ١٩٠٠ ، وهو الآن ليس تشرشل الذى تقدم الى « أولدهام » فى انتخابات الدورة المنصرمة وفشل فيها . لقد كان اذ ذاك ما يزال مجهولا الا من قراء مقالاته وكتابته . وكان فقيرا الا من مواهبه . وكانت تنقصه التجارب . أما الآن .. فانه يكاد يكون رجلا آخر خلقته حرب البوير خلقا جديدا ..

انه يعود الى وطنه « رمزا » للبطولة القومية وللرجل القدرى الذى تخدمه الاقدار وكأن له رسالة سوف يؤديها فى الحياة

وتفرح دوائر كثيرة لان تشرشل قد يكون من نصيبها . ولكنه يؤثر « أولدهام » على

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أخواتها ، ويريد أن يتقدم الى نفس الرجال الذين أبوا أن ينتخبوه ، لعلهم ان يوقنوا في هذه المرة بأن له في اعناقهم حقا مهضوما

ويكتب عنه صحفي اميركي مقالا في جريدة « الديلي ميل » فيقول : « ان مستر تشرشل قد بدأ رأسه ينحني شأن الذين يجهدون انفسهم في القراءة والدرس الشاق . انه عند ما يفكر يميل رأسه الى الامام منحدرا بين كتفيه كأن له ثقلا لا تحتمله رقبته . هكذا تراه في احدى حالاته . وهو طابع يرتسم عليه وينبىء عما ستؤول اليه حاله في منتصف سني حياته . بيد انك تحتاج للوحتين عند ما تهم برسم صورة فوتوغرافية له ، فانك عند ما تنظر اليه مرة ثانية تراه وقد وثب على قدميه بخفة الاطفال ، وتألقت عيناه الزرقاوان الباهتتان ، وانفرجت شفتاه ، وراح يقذف بسيل من الكلمات ويداه وذراعاه تحسنان التعبير عما يقول .. »

وللمرة الثانية يدخل تشرشل « أولدهام » في موكب تحفه الاعلام ، والموسيقى تعزف أناشيدها الحماسية والجمهور يغني نشيد الابطال ويهتف للبطل الذي جاء يخطب فيهم .. والمركبة التي تقله مفتوحة السقف يكاد يغمرها بحر من اللوحات الانتخابية والاعلام ، وقد كتب فوق احداها : « انبل ابطال بريطانيا » ..

والمحافظون الذين يتقدم تشرشل للانتخابات على مبادئهم يتفاءلون بأن معهم الشاب الذي يكاد الانجليز يعبدونه . وماذا عليهم لو كانت بطولة تشرشل ليست الا من نسج الشعر والخيال ، وكان ما أتاه من الاعمال قد لا يعد من جلائل الاعمال اذا قيس بالبطولات الاخرى ؟ .. ان الاقدار نفسها قد رفعته الى مصاف الابطال في نظر الجمهور الذي يفرح بتمجيد البطولة . وهو — كمرشح للانتخابات في هذه المعركة الانتخابية التي جعل أساسها انتصارات الجيش البريطاني على البوير — يعتبر « ورقة رابحة » في يد حزب المحافظين . أليس هو الذي قاتل البوير ، وفر من أسر البوير ، وكتب في ضرورة اعداد قوات كثيفة لمحق البوير ؟

وفي الطرف الآخر من المعمعة الانتخابية حيث الاحرار نجد مقالات الصحف وخطب الخطباء مفعمة بالتهكم على هذه « البطولة » التي خلقها تشرشل لنفسه أو خلقتها له الاقدار .. هذه البطولة في نظرهم لا تساوي شيئا . وهي لا تعدو كونها دعاية انتخابية رخيصة في بلد لا يقر الدعايات الرخيصة ..

تشرشل يسمع كل ذلك فيسره قدح الاحرار فيه وطعنهم في بطولته . انه يحب ان يتكلم الناس عنه ، قادحين أو مادحين . انه يطمع في الشهرة فهي غذاء السياسة والزعامة والقدح كالمدح عند من يتصدر للسياسة والزعامة ، فكلاهما يجعله محط الانظار وموضوعا للقيل والقال

ها هو ذا يصعد الى منبر الخطابة فيقول : « لقد كنت حتى ساعة اعلان الحرب أنادي

بالسلام بأى ثمن . فلما أعلنت الحرب فعلا رأيتمونى أنادى بالنصر بأى ثمن ! »

ومنافساه القديمان فى الدائرة مستر ايموت ومستر رنسيمان لا يقدران على مواجهته ، ويقولان معه ان حرب البوير حرب عادلة ، ويناديان بأن كروجر يجب القضاء عليه . فيرد عليهما تشرشل متسائلا : فعلام اذن اختلفا مع الحكومة ؟

ويجىء الى الدائرة الانتخابية عظماء المحافظين للدعاية لمرشحهم . ويقف جوزيف تشمبرلين بشخصه خطيبا فيدعو الناخبين الى انتخاب تشرشل . ويقول : « انى اخال ان ابن اللورد راندولف قد ورث بعض صفات والده العظيمة ، وفى مقدمتها انه فى كل أمر نسيج وحده ، وانه كوالده شجاع .. » فيهلل مؤيدوه ، ويزمجر مؤيدو خصميه ، ويتصايحون بأن تشرشل جبان .. جبان لانه ترك زملاءه الضباط فى السجن وفر هو وحده .. فينطلق من بين الجمهور أحد الضباط الذين كانوا مع تشرشل فى المعتقل ليرد على هذه الفرية ، ويشهد لتشرشل بالشجاعة ، وبانه لم يفر وحده الا بعد ما استوثق من أن الضباط لم تعد خططهم عن الفرار حدود المناقشة .. ويبرز تشرشل خطابا جاءه من السير ايفلين وود نفسه وفيه يقول القائد الكبير : « ان الضابط الذى كان يقود حملة القطار المصفح الذى أسره البوير أثنى فى تقريره ثناء حارا على سرعة الخاطر والبسالة الملحوظة التى ابديتها اذ ذاك عند ما طلب هو منك ان تحل محله فى قيادة الجنود » .. فيكتسح بذلك معارضيه ، وينزل خطيب المحافظين العظيم من فوق المنبر واثقا من نجاح مرشحهم

وفى يوم الانتخاب تدور المعركة على أشدها وتبذل الجهود الجبارة من الطرفين . فيفوز تشرشل بأحد مقعدى الدائرة الكبيرة .. فلا تسعه الدنيا من فرط فرحه واستبشاره وتنهال عليه التهانى من جميع الانحاء ..

ولما كانت الانتخابات فى مطالع هذا القرن لا تتم كلها فى يوم واحد بل توزع على عدة أيام ، وكان فوز مرشحى حزب فى اليوم الاول دليلا على اتجاه الرأى العام اليه ، فقد كثرت الطلبات على تشرشل ليخطب فى دوائر زملائه من مرشحى المحافظين مؤيدا اياهم داعيا الى التمسك بمبادئهم ، مضفيا على حفلاتهم الانتخابية لونه الصارخ بالشباب والبطولة الرمزية . فذهب أولا الى « برمنجهام » ليخطب مؤيدا أستاذه الاكبر « جوزيف تشمبرلين » . وفى الطريق الى برمنجهام دعى للخطابة فى مانشستر دائرة مستر بلفور الانتخابية .. ولك ان تتصور زهو النائب الشاب وحماسته .. ان شيوخ السياسة ودهاقين الامبراطورية الذين أيدوه من قبل جاءوا يلتمسون منه التأييد . وصوته الفتى يدوى مع أصواتهم التى نالت منها الكهولة . وهتاف الناس باسمه يختلط بهتافهم بأسمائهم ، فأى طالع سعيد ، وأى بشرى بمستقبل مجيد ..

وتتم العمليات الانتخابية كلها وتظفر حكومة المحافظين بتأييد الرأى العام لها ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويستعد النواب لتمثيل دوائرهم فى مجلس العموم . فماذا ترى تشرشل فاعلا فى هذه الفترة ؟

انه هو تشرشل كما نعرفه على طول الخط . انه يقوم بجولة كبيرة فى مختلف انحاء الجزيرة البريطانية ، فيحاضر الناس فى مختلف موضوعات السياسة والحرب ، ويظهر براعة الخطيب الذى ورث عن أبيه تلك الموهبة العظيمة ، ثم يبحر الى العالم الجديد . الى اميركا، وطن أمه السعيد ، تجذبه اليها دماء تجرى فى عروقه ، ونسب تفخر به أمه ، وأمل فى المستقبل يرى تشرشل معها العالمين القديم والجديد يقفان معا فى وجه الطغيان .. فهل أدرك أحد إذ ذاك ان المقادير انما تسوقه الى وطن أمه ليمهد للدور الخطير الذى يلعبه على مسرح المحيطات وما وراء المحيطات فى هذه الحرب العالمية الطاحنة ؟

والى اميركا تسبقه شهرته كخطيب من الطراز الاول ، وكبطل من ابطال حرب البوير، فيستقبله الاميركان بحماسة يعود بعدها من رحلته مطمئنا الى ان العالم الجديد له وطن ثان ولأمانه سكن .. يعود وقد هيأ نفسه لمجلس العموم بهذه الجولة الخطابية ، وشحذ لسانه ، وارضى قلبه ، وملأ جيبه بعشرة آلاف من الجنيهات ، واشبع نهمه الى الشهرة وذيوع الصيت ، غذاء الزعامة ..

— ٦ —

ويفتح مجلس العموم أبوابه التاريخية فيدخله تشرشل للمرة الاولى فى حياته

هذه القاعة الصغيرة التى تنطق بمعان ضخمة كبيرة .. وهذه المنصة التى طالما ضربها غلادستون وغيره من عظماء الانجليز بقبضات ايديهم فى حرارة الانفعالات الخطابية .. وتلك المقاعد التى جلس عليها ساسة بريطانيا وزعماؤها وكهانها .. وهذا الجو العجيب من التقاليد وآداب السلوك البرلمانية .. وكل ذلك التلاد المعرق الذى يعبق به جو المكان ، يقف أمامه تشرشل شارد اللب مسحورا ..

هنا بيته الذى ما منه محيد . وهذا المنبر سيكون له . وتلك الارواح الهائمة فى جو المكان تدعو ابن اللورد راندولف أن يعيد ذكرى أبيه ..

هنا ، ومن هذا المنبر ، سيكلم تشرشل بريطانيا ، وسيكلم العالم

وتشرشل نسيج وحده بين الانجليز .. تشرشل الذى لا يعجب اللوردات ذوى العوينات والانوف الارستقراطية ولكن يعجب الشعب . والذى لا يتكلم بدهاء الدبلوماسيين وخبثهم ولكن بصراحة يحبها الشعب ..

تشرشل الذى يسبح فى بحر الخيال وينسج حوله خيوطا شعرية صارخة الالوان ، ويؤمن بأن له يوما سيتنفس فيه صبحه وتبزغ شمسه

تشرشل هذا يدخل القاعة الصغيرة التى تنطق بمعان ضخمة كبيرة ، ويقف فيها شارد اللب مسحورا ..

ويستعد لالقاء خطابه البرلماني الاول والمجلس من حوله فريقان : فريق يرى ان شابا في مثل سنه يجب الا يقفز الى منصة الخطابة بمثل هذه السرعة . فهو يجب عليه ان ينصت الى غيره عاما أو أعواما ، ثم يتكلم فيوجز أعواما ، ثم يحق له أن يلقى المطولات . . وفريق آخر لا يرى هذا الرأى ــ وهم أصدقاء والده ومريدوه . فهم لا يجدون حرجا فى أن يقوم الولد الى المنصة التى طالما قام اليها أبوه ، فلعل فيه قبسا منه ، أو لعل الايام تثبت ان الولد قد فاق أباه فى مضمار الخطابة البرلمانية

والموضوع الذى اختاره تشرشل للكلام فيه أحب الموضوعات الى قلبه . فهو عن افريقيا والحرب الافريقية . عن حرب مارسها بنفسه وكان له فيها نصيب ملموس . وهو يعد خطابه بعناية ويملؤه بالعبارات الحماسية الضخمة ويحفظه عن ظهر قلب ، فما كانت التقاليد البرلمانية اذ ذاك تبيح الاستعانة بالورق المكتوب عند الخطابة . ثم يجلس فى صفوف نواب حزب المحافظين مستعدا لدوره

ويخشى تشرشل المفاجآت البرلمانية التى طالما طوحت بالنوابغ الى زوايا الاهمال . فكلمة نابية ، أو اشارة غير مستحسنة ، أو اعتراض مهيج ، قد ينسى الخطيب ما حفظ وما أعد ، أو قد يبلبل أفكاره فما يعود فى طوقه أن يهز العواطف بكلماته الحماسية المنتقاة ؛ وبخاصة فى مجلس العموم حيث دهاقين الانجليز وكهان الحياة البرلمانية ذات التلاد المعرق.

وبمجرد انتهاء الخطيب الذى سبقه من كلامه ــ وهو لويد جورج نائب « كارنارفون باروز » ــ يدعو رئيس المجلس تشرشل للكلام . .

فيقوم وهو لا يكاد يعرف ماذا سيقول أولا . والعبرة دائما باول كلمات تصدر من الخطيب . . ويكاد حرج الساعة يذهله عن افتتاح خطبته بكلمة تناسب ما قال الخطيب السابق ، لولا مبادرة أحد كبار النواب الى اسعافه بكلمات فيها غمز للويد جورج وقلب لاوضاع خطبته . . فيقولها تشرشل ، ويشعر انه وقد قالها خرج من المأزق الحرج . ثم يتدفق فى الخطابة ويلقى ما أعد على النواب ، ويطالب الحكومة بوضع حد لحرب البوير « بأن تجعل تسليمهم سهلا ومشرفا ، واستمرارهم فى الحرب أليما ومفعما بالاخطار » . .

ثم ينعت البوير بانهم « الشجعان التعسون » ، ويود ان يحملهم على ادماج حريتهم فى دائرة الحرية الواسعة للامبراطورية البريطانية . ويختم خطابه بقوله : « ولا أريد أن أغادر المنبر قبل أن أعبر للمجلس عن مقدار عرفانى للجميل على ما اظهره نحوى من الحنان والصبر . وقد فعل هذا ، لا من أجل شخصى ، ولكن لذكرى مجيدة ما يزال يحتفظ بها عدد كبير من النواب القدماء » يعنى ذكرى أبيه . . فيقابل بتصفيق حاد من جميع الاعضاء . ويثنى الخطيب الذى يتلوه على مواهبه ، ويعبر عن سرور المجلس بأن النائب الشاب قد ورث الكثير من مواهب أبيه الفذة . ثم يقول جوزيف تشمبرلين « ان

المجلس قد يرى الاب معادا فى الابن » . . ويصف اللورد اسكويث فى اليوم التالى خطابه بأنه « أول خطاب فى حياة برلمانية من الطراز الاول »

***

هكذا دخل تشرشل مجلس العموم . وهكذا القى خطابه الاول فوضع حياته البرلمانية على اساس وطيد

والذى يعرف تشرشل ويعرف أطواره يدرك ان حياته البرلمانية ستكون مفعمة بالاحداث مليئة بالمفاجآت

وأول مفاجآته انه من أول خطاب له لم تنج الحكومة ـ وهى محافظة ـ من نقده وملاحظاته . والمعروف فى الحياة النيابية ان النائب الذى ينتخب على مبادىء حزب معين لا بد أن يكون بوقا لهذا الحزب ونصيرا له ولو اخطأ أو حاد عن جادة الصواب . ولكن تشرشل لم يعبأ بهذا ، وراح ينقد حزبه بين آونة وأخرى . . وعند ما تعلن الحكومة البوير بأن زعماءهم الذين لن يستسلموا فى بحر شهر سينفون من بلادهم مدى الحياة يثور على هذا التحكم البغيض الذى لن يزيد الثورة الا اشتعالا ، وينادى بضرورة تسيير حملة كبيرة الى جنوب افريقيا بدلا من هذا العبث الذى لا طائل تحته . وبعد ذلك بنحو عام يطلب رئيس تحرير جريدة انجليزية فى جنوب افريقيا التصريح له بالعودة الى وطنه بعد ما قضى عاما فى السجن من أجل مقال نشره فى جريدته ، فلا تجيز السلطات الحربية طلبه . وتثور ثائرة حزب الاحرار على هذا الاجراء التعسفى ، وينادى بان فيه جورا على الحرية البريطانية التى كفلها الدستور . وعند ذاك يقوم تشرشل ـ وهو من حزب الحكومة ـ فيؤيد الاحرار ويلوم الحكومة أشد اللوم على ما اقترفت من جناية على الحرية ، ويقول انه من الوحشية ان تتحكم السلطات الحربية فى رقاب العباد وتقرر من سيكون حرا ومن سيكون عبدا . .

ويجىء « مشروع برودريك الحربى » فيؤيد هذا الاتجاه الثورى فى النائب المحافظ . فهذا هو مستر سانت جون برودريك وزير الحربية يتقدم الى مجلس العموم بمشروع ضخم لبعث الجيش البريطانى وانشاء قوة برية عظمى تعادل القوة البحرية الجبارة للامبراطورية البريطانية . فيجد النائب الشاب فى هذا المشروع ضالته ففيه أولا مطاعن كثيرة يستطيع ان يوردها بألفاظ حماسية تزيد من شهرته وتوطد من مكانته . وهو ثانيا يتيح له فرصة ذهبية للاخذ بثأر أبيه . .

فقد كان أبوه من قبل محافظا أيضا . ولكنه خرج فجأة على مبادىء حزبه وراح ـ وهو فى مقاعد المحافظين ـ يطعن فى المحافظين ويسفه أحلامهم . وألف هو وفريق من ناشئة السياسيين اذ ذاك جبهة فى الحزب تناهض الحزب مناهضة يعجز عنها الحزب المعارض . وارهقوا غلادستون نفسه وحملوه اكثر من مرة على العدول عن مواقف له مشهودة . ثم

أدخله سالسبورى فى وزارته وزيرا للمالية لعل اللورد الشاب يقلع عن تهوره ، ولكن اللورد راندولف خيب ظنه ، وانتهز أول مشروع لزيادة الاعتمادات المالية المخصصة للقوات البرية والبحرية ووقف يناهضه فى مجلس الوزراء . فلما لم يأخذ سالسبورى برأيه قذف فى وجهه باستقالته قائلا انه لا يقبل الاشتراك فى حكومة يرأسها رجال لا مواهب لهم .. وترك المجلس ولم يعد اليه بعد ذلك أبدا .. بل لم يعد الى المعترك السياسى كله ، فقد اعتلت صحته على الاثر وكان ما كان مما أفضى الى موته الباكر

والآن يقوم الابن ليتم ما بدأه أبوه منذ خمسة عشر عاما .. وها هو ذا وزير الحربية « برودريك » يقدم مشروعا لزيادة عدد الجيش البرى . وها هو ذا ونستون تشرشل يقف للمرة الثانية كما وقف أبوه أول مرة ، ليسفه رأى حكومته وأقطاب حزبه ، ولينصر أباه ولو فى عالم الذكرى .. فيقدم اقتراحا الى المجلس مؤداه ان النمو المطرد فى اعتمادات الجيش يهدد بانصراف الامة عن نشاطها التجارى والبحرى الذى عليه قوام الامبراطورية . وان الحكومة عليها ان تؤجل النظر فى مشروعها ريثما تنجاب الحرب الافريقية ويعود الى الديار السلام ..

الحكومة تفاجأ بهذا الاقتراح الذى يدل على منتهى التهور من نائب محافظ . والحزب تذهله تلك الجرأة . وأحد النواب يقول : « لكأنى باللورد راندولف قام من قبره وتكلم بصوته المعهود ، فهذا هو بعينه الاتجاه الذى قضى على مستقبله .. » وجريدة التيمس تقول ان مستر تشرشل يعود الى ارتكاب الغلطة الفاحشة التى ارتكبها أبوه من قبل . ولكن تشرشل لا يعبأ بهذا كله .. ويقوم فى مجلس العموم ليقول انه سعيد اذ أتاح له المجلس حمل اللواء الذى سقط من يد أبيه منذ خمسة عشر عاما . وان أباه لما أبوا عليه كلمة الحق ترك وزارة المالية وهوى فما قامت له قائمة بعد ، ولكن هوت معه أيضا كل رغبة فى الاصلاح والادخار ثم يطلب خفض الفرق الثلاث المهيأة للقتال فى الخارج الى فرقة واحدة ، فان الفرقة الواحدة تكفى لقتال « الهمج » والفرق الثلاث لا تكفى لمحاربة الاوربيين . ثم ان صيانة الامبراطورية لا ترتكز على الجيش البرى ولكن على الاسطول . وتقوية الجيش على حساب الاسطول معناه اسطول ضعيف لا خير فيه ، وجيش قوى لا فائدة منه مهما كثر عدده ، لان أمامه قوى أوربا بأكملها .. والمجلس ازاء هذا النقد الصارخ متقلب الرأى رجراج ، ففريق يرى ان الموقف لا يسمح بالتفاخر بتراث الآباء والاجداد على حساب مصالح الدولة ، وفريق آخر يرى عكس ذلك ، واحد النواب الايرلنديين يقول فى تحمس : « انى لم أر قط فى حياتى عضوا شابا يقفز هكذا فجأة الى الصدر فى معترك المناقشات السياسية .. » أما صاحب المشروع فيقف متوتر الاعصاب ليقول ان المجلس الذى لم يتردد فى التخلص من السياسى الفذ فى عام ١٨٨٦ لن يتردد فى التخلص من ابنه الذى ينهج على منواله الآن !

بيد ان تشرشل يفوز فى هذا المعترك الحامى الوطيس . يفوز بتأخير المشروع عامين كاملين فى مجلس العموم . ثم يفوز بحمل الحكومة على العدول عنه نهائيا عند ما يعتزل مستر برودريك وزارة الحربية ويعين نائبا للملك فى الهند ..

وبذلك ينتصر نائبنا الشاب ويحق له ان يفخر بانه قد أخذ بثأر أبيه !..

- ٧ -

ثم ماذا ؟

ثم يعيد تشرشل صفحة اخرى من حياة أبيه . فأبوه كما قلنا كان قد خرج على حزبه وألف « حزبا داخل الحزب » على حد تعبير عصره اذ ذاك . فلم لا ينضم هو الى جماعة المتذمرين من حزب المحافظين ويعمل على تأليف جبهة معادية فى داخل الحزب ..

هذه الجبهة ـ عرفت بجبهة « الهوجليجانز » نسبة الى اللورد هوج سيسل أحد اعضائها البارزين . وكانت مهمتها تنغيص المحافظين بما عجز عن اتيان مثله الاحرار انفسهم

وفى مستهل عام ١٩٠٣ يقع فى انجلترا حادث سياسى خطير . فجوزيف تشمبرلين يعود من رحلة له فى جنوب افريقيا داعيا الى العدول عن مبدأ التجارة الحرة والاخذ بنظرية التجارة المقيدة فى غير المستعمرات البريطانية واقطار الدومنيون . فتقوم قائمة الاحرار وتتوحد صفوفهم بعد تشتت ويهبون لمناهضة هذا المذهب الذى عليه تقوم حياة بريطانيا العظمى فى نظرهم . ونستون تشرشل يهب بدوره لمناهضة هذا المذهب أيضا .. فيتساءل أعضاء حزبه : ما الفرق اذن بينه وبين أى رجل آخر من حزب المعارضة ؟ بل ان دفاع تشرشل عن مبدأ التجارة الحرة وتسفيهه جوزيف تشمبرلين واقطاب حزبه ليفوق دفاع الاحرار ومعارضتهم . بل انه ذهب الى برمنجهام نفسها ـ دائرة تشمبرلين الانتخابية ـ ليهاجمه فيها . وبذلك خرج تشرشل بمعارضته من بين جدران مجلس العموم الى حلقات الجماهير هنا وهناك . وفى خلال كل ذلك تتبلور مواهبه كخطيب له من القدرة على تحريك عواطف الجماهير برغم شبابه ما يناهض به رجلا عريقا فى الخطابة عتيدا فى السياسة كجوزيف تشمبرلين

ويهاجمه خصومه اعنف هجوم . ويصلون الى حد الطعن فى كفاءته ، وفى شرفه العسكرى . ويرمونه بالجبن وخيانة الوطن . فيرد عليهم بانه جاهد وهم نائمون ، وقاتل البوير بالحديد والنار وهم قاتلوهم بالكلمات الجوفاء يلقونها من مجلس العموم ومن حلقات الخطابة . فمن هو الجبان ؟ ومن هو الذى خان وطنه ؟

وعند مايعود المحافظون الى الوزارة يسوق تشرشل معارضته الى آخر حدودها، ويدعو الى تأليف جبهة من انصار التجارة الحرة ضد الحكومة الآخذة بسياسة تقييد التجارة ، وعندئذ لا يطيق الحزب احتماله فتجتمع لجنة دائرة اولدهام المحافظة وتقرر سحب ترشيحه من

الحزب .. ولكنها لا تتجاسر على مطالبته بالاستقالة من النيابة خوفا من رد الفعل الذى قد يحدث بعد ذلك بين جمهور الناخبين

وعندئذ يعلن تشرشل خروجه على حزب المحافظين ، وينتقل الى صفوف الاحرار فى المجلس ، فيخسره حزبه ، ويعبر جوزيف تشمبرلين عن هذه الخسارة بقوله لمدام اسكوث: « ان ونستون هو أبرع شباب اليوم قاطبة . ولقد اخطأ آرثر (آرثر بلفور) بان تركه يفلت من يده .. » يعنى انه كان يجب على مستر بلفور أن يكسب تشرشل الى صفه بادخاله وزيرا فى وزارته

وتظل المناقشات حامية الوطيس حول مبدأ حرية التجارة . وتظل الحرب دائرة بين الرجلين المتنافسين تشمبرلين وتشرشل .. هذا شيخ جليل القدر حنكته التجارب ورفعته الى مقام الزعامة ، وذاك شاب ما يزال فى مستهل شبابه .. بل ان تشرشل لينساق فى معارضته لدرجة لا يعود يحتملها النواب المحافظون ، فيقررون الانسحاب من الجلسة بمجرد وقوفه للكلام .. وهكذا يقفز النائب الشاب الى أوج المكانة البرلمانية ، ويقرن اسمه باسماء كبار رجالات الانجليز فى كل منتدى ، وفى كل حلقة ، وفى كل جريدة ..

وأخيرا يضطر آرثر بلفور الى الاستقالة . ويؤلف « كامبل بانرمان » وزارة من الاحرار . والى هذه الوزارة يدعى تشرشل وزيرا للمستعمرات ، وهو فى الحادية والثلاثين وبذلك يحق له ان يكون أصغر وزير دخل الوزارة فى انجلترا ، بل فى أوربا كلها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

— ٨ —

والآن وقد دخل تشرشل الوزارة مشلوحا من هيئة المحافظين فى اولدهام ، وجب عليه ان يختار دائرة انتخابية أخرى يرشح نفسه عنها . ولقد كانت أمامه دوائر عديدة ترحب به ويسهل له الفوز فيها ، ولكنه يرفضها ، ولو انه قبلها لما كان هو تشرشل الذى عرفناه وسنعرفه فى المستقبل . ويختار دائرة شمال غربى مانشستر التى ليس للاحرار فيها خطر ويعد له خصمه فى الانتخابات كتابا مليئا بالعبارات الحماسية التى كان قد ألقاها فى مدح المحافظين والحض على اتباع مبادئهم . يريد بذلك ان يحرجه أمام ناخبيه . فاين الذى قال هذه الكلمات الفخمة من الوزير الذى خرج على حزبه ، وعلى مبادئه ، ولم يرع الوفاء فى حياته السياسية .. ويبعث بمن يحمل نسخة من الكتاب ويقدمها الى تشرشل نفسه اثناء خطابته .. ويصرخ فى وجهه : بماذا تجيب عن هذا الكتاب ؟

فماذا تراه يصنع ازاء هذا الموقف المثبط للعزيمة ؟

انه يتبع طريقته التشرشلية ولا يحيد عنها قط . فهو يأخذ الكتاب فى يده ويقول انه لما كان فى حزب المحافظين قال اقوالا كثيرة حمقاء ، ثم رأى الا يستمر على حماقته فترك الحزب بمن فيه .. ثم يمزق الكتاب اربا ويقذف به فى الهواء ، بين هتاف الجماهير وتصفيقهم ،

وبذلك يفوت على غريمه فرصة من أثمن الفرص لخضد شوكته !

وحول هذا الكتاب والطريقة التى عالجه بها تشرشل تقوم ضجة صحفية تزيد من شهرة الوزير الشاب . هذه الضجة وامثالها يحبها تشرشل ويعمل على اذكائها دائما أبدا ، فانها غذاء شهرته ودعامة مكانته على الدوام . وهو بهذه الضجة يجعل لدائرته الانتخابية اهمية تفوق أهمية دائرة رئيس الوزراء الاسبق نفسه . وفى يوم الانتخاب يفوز على خصمه باكثرية ١٢٤١ صوتا .. وتؤثر هذه النتيجة فى بقية الدوائر الانتخابية التى يخرج منها حزب الاحرار ظافرا باغلبية مقاعد مجلس العموم ..

ثم يجلس الوزير الشاب على كرسى الوزارة مع طائفة من أقدر ساسة الانجليز . فوزير المالية هربرت اسكوث . ووزير الخارجية السير ادوارد جراى . ووزير التجارة لويد جورج . ووزير الهند جون مورلى فيلسوف حزب الاحرار . وفى الحربية هالدين وكلها اسماء لها دوى ولها خطر

والوزير البرلمانى للمستعمرات يعمل معوزيره الاصلى على وضع نظام جديد لمستعمرات جنوب افريقيا يكفل لها السلام والاستقرار ووحدة الهدف فى ظل الامبراطورية . ومن ثم يظهر فى عالم الوجود « اتحاد افريقيا الجنوبية » كاثر من أروع آثار حزب الاحرار ووزارته الجديدة . وتتجلى قيمة هذا الاتحاد ومتانة القواعد التى أقيم عليها فى حرب عام ١٩١٤ ، ثم فى هذه الحرب ، عند ما يقاتل جنود افريقيا الجنوبية فى صفوف البريطانيين وكأنهم منهم ..

ثم تعتل صحة رئيس الوزارة فيعتزل الحكم ويشكل الوزارة الرجل الموهوب مستر اسكوث . ويقع تعديل فى الوزارة يغدو معه تشرشل وزيرا للتجارة . ولكن هذا التعديل يتطلب معركة انتخابية جديدة كما جرى العرف الدستورى اذ ذاك . وفى هذه المعركة يهاجم فيها تشرشل وحزب الاحرار أعنف هجوم ، ويتهمون بانهم قد باعوا المستعمرات ، واضعفوا الجيش والاسطول معا ، وارهقوا الشعب بالضرائب الفادحة .. فى هذه المعركة يسقط تشرشل ، ويتذوق مرارة الفشل .. وعند ذاك يتهلل المحافظون فرحا ، ويعلنون على الملأ ان تشرشل البغيض قد سقط .. تشرشل الحقود ، المتلون ، الخطر .. وتقول جريدة الديلى تلغراف بلسان محررها : « وأخيرا خرج تشرشل .. فأين انت يا كلمات السرور ونحن احوج ما نكون اليك الآن .. ان الارقام لا تهمنا أبدا . ان تشرشل قد خرج ، وفى هذا الكفاية ! » ولكن دائرة « دندى » الاسكتلندية لا تلبث ان تدعوه اليها ، فيخوض غمارها ، وينتصر . ويعود الى كرسى الوزارة ظافرا برغم انف اعدائه وهو فى الرابعة والثلاثين

وتشرشل وزير التجارة تذكره انجلترا على الدوام . يذكره الرأسماليون لانه قاوم طغيانهم . ويذكره العمال البؤساء فى المصانع أو المناجم لانه احيى موات آمالهم . ويذكره

الفلاح فى كوخه بدموع عرفان الجميل لانه كان أول مناد بالعدالة وانصاف الضعيف

واصلح تشرشل السجون . وعمل على تقليل عدد المسجونين . وفى ساعة من ساعات قلبه نظر فى حكم صادر على راع هرم فى احدى مدن ويلز بالسجن الطويل لانه سطا على أحد صناديق الاحسان . فاشفق على شيخوخته واصدر آمرا باطلاق سراحه والحقه باحدى الوظائف .. وأوحى الى الصحف فراحت تحض على الاكثار من هذا العمل الخيرى وتنادى بضرورة اصلاح المجرمين بدلا من عقابهم . ولكن الراعى الهرم لم يلبث ان ترك عمله وعاد الى السرقة .. فانتهزتها صحف المعارضة فرصة للتشنيع على وزير الداخلية الذى ينساق وراء أهواء قلبه ..

مسكين تشرشل ! أراد الاصلاح فلم يثمر الخير فى أرض الاجرام ..

ولتشرشل غير هذا وذاك أعمال أخر فى وزاراته الثلاث . له مواقف فى الميزانية كان فيها بمثابة رئيس اركان حرب للويد جورج وزير المالية . وله موقف فى مجلس اللوردات كان فاتحة عصر جديد طغت فيه موجة الديموقراطية على حملة الالقاب من لوردات ودوقات . فانه وقف ينادى بالحد من ميزانية مجلس اللوردات . ووسم المجلس بانه بشكله القائم يتحدى ارادة الشعب . ووصف حياة اللوردات بانها ترف فمىء لا حظ له من السعادة . وقال ان الشعب سيسأل حملة الالقاب يوما ما عما جمعوا من مال وثراء ، وكيف جمعوه .. فصرخ الدوق أوف ر.. وتلاند فى وجهه : انكم فراعنة ! فأجابه تشرشل على الفور : بل انتم الفراعنة !.. فان احد اللوردات القدامى ممن يحملون اسمك قال ذات يوم : فلتمت الثروة والتجارة ويقبر القانون والمرافق ، ولنبق نحن كما كان نبلاؤنا الاقدمون !

ومن الذى يقول هذا ؟ تشرشل ابن اللورد راندولف وحفيد دوق مارلبرو !..

ثم نراه وهو وزير للداخلية يتلقى نبأ تليفونيا وهو فى الحمام بأن بعض الفوضويين لروس المتهمين بقتل عدد من الشرطة محاصرون فى جهة ما من لندن ، فيجفف بدنه ويلبس ثيابه ويهرول الى الجهة المعينة .. فيرى مئات من الجنود ورجال البوليس المسلحين بالمسدسات وبمدفع صغير .. ويرى الطلقات تنهال صوبهم من نوافذ البيت المحاصر .. فلا يكترث لكل هذا ويقود « حملة » البوليس ضد الفوضويين بنفسه ، ولا يغادر المكان حتى يحترق البيت ويعثر على جثث الفوضويين وقد أكلتها النيران .. فبالله أى وزير داخلية يصنع ما صنع ؟

فهو اذن تشرشل على طول الخط . مزيج من الطفولة والفتوة وشتى النوازع النفسية التى تستعر فى القلب النقى . لا الحروب تصقله ، ولا السياسة تحنكه ، ولا الوزارة تنال من تهوره واندفاعه . مزيج من الشقاوة والبسالة والشعر والخطابة والزعامة . يريد ان يقفز من ههنا الى هناك قفزات عنيفة هائلة وما يعنى بالنتائج ، فقد توكل على بارئه وعقد بينه وبين نجم طالعه ميثاقا غليظا

الربان الأول ...

- ١ -

عام ١٩١١

بريطانيا العظمى تفاجأ بنبأ رهيب . فألمانيا عدوتها اللدود أعدت فى أعوام قليلة اسطولا ضخما لغزو الانجليز . ارمادا جديدة تفوق الارمادا الاسبانية هولا وخطرا . والنمسا حليفة المانيا قوت اسطولها . والدبلوماسية الالمانية راحت تنسج خيوطها استعدادا للحرب القادمة

وحادث « اغادير » المشهور يقيم الدنيا ويقعدها . والادواردان ـ الملك ادوارد ووزير خارجيته ادوارد جراى ـ يريان أن الخطر قد أصبح محيقا بالامبراطورية ، واسكوث رئيس الوزراء يتطلع فيمن حوله باحثا عن الرجل الذى سيكل اليه اخطر مهمة فى تاريخ بريطانيا: مهمة اعداد اسطول ضخم لمقاتلة ألمانيا ..

والحادثات تتوالى بسرعة مخيفة . والكل يشعرون بان ساعة الحرب آتية لا ريب فيها. فمن يا ترى سيكون رجل الساعة . رجل الأسطول ؟

ونستون تشرشل ينتفض كالوحش الذى يشم الخطر من هبوب الرياح . ويقرر فجأة ان يكون هو رجل الساعة . رجل الاسطول !

وفى ١٣ اغسطس عام ١٩١١ يقدم تشرشل الى لجنة الدفاع الامبراطورية خطة تخيل ان الالمان سيتبعونها فى غزو بلجيكا وفرنسا . ويقرر ان الالمان سيصدون فى اليوم الاربعين لزحفهم المفاجىء

ويزور وزارة الخارجية زيارات متكررة يلهب فيها وزير الخارجية بحماسته وما يتوقعه من اخطار

وفى الخريف يسافر الى اسكتلنده . لا للصيد كما تعود . ولكن لصيد من نوع جديد. صيد وزارة البحرية واقتناص الاسطول .. واسكوث كان قد استأجر منزلا هناك فى « ارتشرفيلد » . وهالدين وزير الحربية كان يحوم حوله ليفوز بالصيد المبكر .. ولكن هل يدعه تشرشل يتفوق عليه ؟

ان الاسطول قد غدا مسألة الساعة . هو الذى يتوقف عليه النصر . وتشرشل ، كعادته دائما ، قد اتجه الى الاسطول كأضخم شىء يصبو اليه أضخم رجل من رجال الاحلام .. بيد أن هالدين يرى غير ذلك . فتشرشل رجل ذو مواهب . ولكنه خالى الوفاض من

الخبرة الفنية البحرية . أما هو فوزير للحربية ورجل مختص . وقد نهض بالجيش نهضة عظيمة . فلم لا ينهض ايضا بالاسطول فيكون بطل البر والبحر معا ؟

تشرشل يتحرق شوقا الى ان يكون هو رجل الاسطول . ولا يدع مثقال ذرة من قواه العصبية الا بذله لاقناع اسكوث بوجهة نظره . وفى اليوم التالى لوصوله يلعب مع رئيسه الجولف . وفى نهاية الشوط الاخير يسأله اسكوث : اترغب حقا فى أن تذهب الى وزارة البحرية ؟ فيجيبه تشرشل وقد أخذ قلبه ينبض بسرعة : طبعا أرغب !.. وان القلم ليعجز . عن تصوير مشاعره وهو واقف مع اسكوث وقد أطلق لخياله العنان ، وميناء فيرث أوف فورث تعج أمامه بقطع الاسطول البريطانى المتهادية على صفحات الماء ..

ويصعد ليغير ثيابه . فيلمح على المنصة انجيلا . فيفتح صحيفة منه . فيقرأ : انه سيفتح الممالك .. ممالك ذوات مدائن تصل اسوارها الى عنان السماء .. فليعلم ان الرب آلهه هو الذى سيذهب معه مشرفا عليه من عل .. وسيدمر المدائن تدميرا . ويحرقها امام عينيه

وفى اليوم التالى يعود هاندين لمقابلة اسكوث طامعا فى الاسطول . فيستقبله تشرشل وعلى شفتيه ابتسامة الظفر . فقد ظفر اضخم رجل من رجال الاحلام باضخم شيء : الاسطول !

— ٢ —

وتشرشل وزير البحرية الجديد يعرف ان رجال البحر من أبناء نبتيون وبروتيوس وترايتون لن يرضوا عن امبرالاتهم بديلا . ويدرك أن كرسيه على الماء لن يكون الا رجراجا . فيصنع له قواعد يستقيم عليها ، ويرسم برامج تتلخص فى خلق اسطول ضخم قهار يكفى مع اسطول دولة حليفة كفرنسا لسحق اية قوة بحرية أخرى تقف فى سبيله . ومن أجل هذا ينشيء اركان حرب للاسطول على غرار اركان حرب الجيش . ويشرع فى العمل فورا جاعلا نصب عينيه ان ثمة قلبا للامبراطورية هو الجزر البريطانية مكشوف لسهام الاعداء ، وان الاسطول الذى سينشئه سيكون بمثابة الدرع الفولاذية لهذا القلب ..

ومن يا ترى سيكون رفيق تشرشل فى هذا المعترك الرهيب ؟

انه فيشر .. هذا الاميرال المتقاعد فى مجلس اللوردات . والثورة المستعرة بين عظام واضلاع . رجل الاندفاع والتهور والجنون كتشرشل نفسه . لا يبالى بشيء طالما كان اسطوله جبارا قهارا فوق داميات البحار . فى هذا الرجل فكر تشرشل وآثره على غيره ، برغم انه يعرف ان شبورة بركان فى عنفوان ثورته اخف وطأة من مجاوزة فيشر ، كلب البحر المخيف ..

فبعث اليه برسالة تشرشلية تفيض باسمى معانى التضحية . فالاسطول لن يقوى الا على يديه . والاسطول يناديه : انك قد عشت من أجلى وستموت من أجلى .. وهو — أى تشرشل — يناشده باسم الاسطول ان يجيء الى وزارة البحرية فورا . فيجيئه رد عاجل

من فيشر يخاطبه فيه بياونستون الحبيب . ويختمه بانه سيكون رهن اشارته حتى تجمد الجحيم المسعره . .

ويجلس تشرشل على منصة الهيئة التنفيذية لمجلس اركان حرب الاسطول . فيجد من الاعضاء تبرما وجدلا ، وتعصبا للقديم ، واناة تنكرها الظروف الحرجة . فيقرر استبدال غيرها بها . ويتخلص من الاميرال السير آرثر ولسون الذى لم يكن يعنى الا بالتدريب والمظاهر التقليدية ، ومن غيره من رجال العهد القديم ، ليحل محلهم رجالا يعرفون ان مهمتهم العظمى هى التأهب لقتال الالمان . .

ومن ثم نرى معه السير فرنسيس بردجمان ، والرير اميرال بريجز ، والكابتن باكنهام ، والبرنس لويس اوف باتنبرج ، هذا الاميرال الالمانى الذى التحق بخدمة الاسطول البريطانى فى عام ١٨٦٨ فأخلص له الخدمة ونسى انه ألمانى . ولك ان تتصور هذا الامير يعد اسطولا لقتال المانيا !

عامان كاملان يقضيهما تشرشل فى اعداد الاسطول . عامان ما ندرى كيف مرا به دون أن يصاب فيهما بصدمة عصبية من فرط ما أنهك قواه . انه لا يفتأ يفكر فى الاسطول . الاسطول فى الوزارة . والاسطول فى البيت . والاسطول فى النادى . فى الاحلام ! لن يهدأ له بال حتى يطمئن على الاسطول وتطمئن معه بريطانيا على درعها التى ستتقى قلبها سهام الاعداء . ويروح يتصور معركة مفاجئة يضرب فيها الالمان الاسطول البريطانى ضربة قاضية ، فماذا يبقى امام بريطانيا بعد ذلك ؟ التسليم ! التسليم وضياع الملك والامبراطورية والتلاد التاريخى العظيم ! ثم يتصور هجوم الاسطول على الموانىء الالمانية فيجده نكبة أخرى . فلا يبقى اذن الا محاصرة الاسطول الالمانى بقطع قوية بحيث يجثم فى مياهه فاقد الحركة ، فتصاب المانيا بالشلل وتضطر بعد طول الحصار لقبول معركة بحرية يكون للاسطول البريطانى فيها الظفر الاكيد . .

هذا ما حزم عليه تشرشل أمره . ومن ثم يلغم مضيق دوفر ويبث حوله المدمرات البريطانية . وتبرز قطع الاسطول من ميناء سكاباغلو الى بحر الشمال استعدادا لضرب الحصار على سفن الاعداء

ومن أجل الاسطول تنفق الملايين ، ومن أجل الاسطول يضع الانجليز يدا حديدية على آبار البترول فى ايران . ومن أجل الاسطول يقيم تشرشل وفيشر وزارة البحرية ويقعدانها ، ويقيلان رجالا ، ويحملان على الاستقالة رجالا ، ويلغيان الترقية بالاقدمية ويرقيان الضباط الشبان المتحمسين المندفعين . فالمانيا قد آثرت الحرب على السلام

وفى ٢٤ يولية سنة ١٩١٤ يفد الى لندن الهر بالين الالمانى ليسأل الانجليز هل ثمة ما يدعو الى دخول انجلترا الحرب فيما لو شبت بين برلين وفينا من جهة وباريس وبطرسبرج من جهة أخرى ؟ وعند ما يودع تشرشل هذا المندوب فوق العادة يقول له

والدموع تنهمر من عينيه : يا صديقي العزيز .. بالله عليك لا تحملونا على دخول الحرب!

***

أجل .. الحرب !

الحرب الطاغية الباغية الرهيبة لم يعد منها محيص ..

وتمر الايام القليلة الباقية قلقة مرعبة تحطم الاعصاب . وجراى يصر على ضرورة عدم السماح للاسطول الالمانى بالمرور من المانش . وتشرشل فى عالم آخر من الآمال فى الظفر .. يفكر فى هل يأمر الاسطول بالبروز الى عرض البحر فى انتظار الحوادث المفاجئة .. وهل يا ترى سيقتنص « جوبن » و « برسلاو » من مياه البحر الابيض .. أم ماذا ؟

وفى ليلة السبت أول أغسطس تعلن ألمانيا الحرب على روسيا . ويكون تشرشل اثناء ذلك منهمكا فى لعب البردج . فيسمع النبأ الفظيع . فيترك اللعب بكل هدوء ويهرع الى وزارة البحرية عاقدا العزم على مخالفة أوامر مجلس الوزراء بالتريث ، وحشد الاسطول فى الحال ..

والاسطول يتحرك فعلا بقيادة الاميرال السير جون جليكو فى انتظار الطلقة الاولى أو الطوربيد الاول ..

وفى ليلة ٤ أغسطس تعلن بريطانيا الحرب على المانيا . فيصدر تشرشل أمره الى الاسطول بقتال الالمان

وسرعان ما تنشب المعارك ، مفاجئة ، غادرة ، مدمرة .. وتشرشل يجلس على كرسيه فى وزارة البحر ، يحرك قطع الاسطول الى هنا والى هناك ، ويقذف بها فوق أمواج البحر الصاخبة التى تستر أخطر سلاح تحتها : الغواصات ، رسل الموت ..

فيشرف أولا على ترحيل الجيش الانجليزى الى فرنسا دون خسارة رجل واحد . ثم يبدأ الزحف الالمانى الهائل صوب باريس . فتتحقق نبوءته التى تنبأ بها قبل ذلك بثلاثة أعوام .. ولكن هل يوقف الزحف فى اليوم الاربعين .. أجل والله لقد أوقف فى اليوم الاربعين — تقريبا — فى معركة المارن !..

وكما تنبأ قبل ذلك أيضا ، كانت الحرب العظمى وبالا على الظافر والمغلوب .. وكانت حرب الشعوب افظع وأشد تدميرا من حروب الملوك ..

— ٣ —

ومن ثم تبدأ الصدمات العنيفة لهذا الرجل العنيف تشرشل

فأول صدمة هى افلات «جوبن» و«برسلاو» من مطاردته العنيفة ودخولهما المياه التركية

ويبيعهما بيعا صوريا للاتراك. ثم غرق ثلاث قطع من الاسطول فى ٢٢ أغسطس بطوربيدات الغواصات . فتثور ثائرة خصومه السياسيين ويتهمونه بانه يستبد بشئون وزارة البحر ولا يأخذ بآراء رجاله الاخصائيين

وعند ما يوقف الزحف الالمانى فى المارن وتستنقذ باريس يتجه الزحف فجأة الى جهة البحر لاحتلال موانىء المانش . ويتوقف الامر كله على درجة احتمال انتورب للزحف الالمانى

وفى ٢ أكتوبر يبرق الوزير البريطانى هناك بأن الاسرة المالكة والوزارة البلجيكية رحلت الى أوستند . وان المدينة لن تقاوم المدافع الالمانية الضخمة أكثر من يوم أو يومين . فيجتمع مجلس الوزراء البريطانى فى منزل كتشنر وقد أفزعتهم البرقية

ويدخل عليهم تشرشل فيراهم واجمين .. فينطلق بكل قوة ينادى بوجوب الدفاع عن انتورب . ويقول لزملائه : دعونى أنا أذهب اليها وأنا كفيل بوقف الزحف . . ويتجه بحرارة ايمانه كلها صوب كتشنر .. وفى لحظة من لحظات التحمس يصرح له كتشنر بالذهاب الى انتورب . ولكن كيف ؟ وبأية صفة ؟ هـذا ما لم يفكر فيه المجتمعون فقد وقعوا تحت تأثير الساحر

وتدق الساعة الاولى . وفى نصف ساعة يكون تشرشل فى محطة فكتوريا . وفى ظهر اليوم التالى يرى المارة فى انتورب سيارة ضخمة تقل رجلا ضخما وحوله نفر من أركان حرب الاسطول . وتشق السيارة شوارع المدينة بسرعة جنونية محذرة المارة ببوقها المزعج ثم تقف بباب الفندق الرئيسى فى ميدان « بلاس دى مير » محدثة عند وقوفها صوتا مفزعا

ويفتح باب السيارة بحركة عنيفة .. ويبرز منها رجل عنيف ينطلق كالقنبلة مادا ذراعيه الى الامام فى حركة اندفاع .. ذلك هو تشرشل رجل الساعة فى انتورب !

ولكن بأية صفة جاء أهو قائد ؟ كلا ! أهو وزير الحربية ؟ كلا ! فأى شىء اذن ؟ لاشىء الا انه تشرشل . ومثل هذه المفاجآت والمفارقات العجيبة لا تحدث الا فى أخطر الازمات التى يكون فيها تشرشل وحده الممثل الاول ..

. وفى دقائق معدودات يقف يستقبل رئيس الوزارة البلجيكية وقائد حامية انتورب . فيسألهما : ماذا بكما ؟ فيقولان ان الذخيرة أوشكت على النفاد ، والماء قطعت أنابيبه ، والمدافع الالمانية الضخمة تدمر المعاقل وتدك الحصون الواحد تلو الآخر . واذا ظفر الالمان ببغيتهم انهارت بلجيكا كلها وهددت انجلترا بخطر الغزو . فلا يعبأ تشرشل بكل ذلك . ويتسلم القيادة بنفسه . وسرعان ما ينساق البلجيكيون والانجليز لارادته الحديدية ويتشربون روحه المغامر .. والمعجزة ان ملك البلجيك وملكتها يعودان الى انتورب ليشاطرا رجل الحرب آماله وثباته ..

وتجىء فرقتان انجليزيتان فيقذف بهما فى المعركة . فيذهل الالمان ويحسبونها طليعة

جيش كبير وصل على حين غرة ، ويتراجعون عن المدينة .. فيطفح قلب تشرشل سرورا وينسى الزمان والمكان ويتصور نفسه دوق مارلبرو فى الدزع والبيضة الفولاذية .. ويبرق الى الوزارة عارضا استقالته من وزارة البحرية طالبا تعيينه قائدا للحملة البريطانية فى بلجيكا .. فينساق رجل الاحلام كتشنر وراء رجل الاحلام تشرشل ويقترح منحه رتبة ليفتنانت جنرال .. ولكن اسكوث يرفض مؤثرا بقاءه فى البحرية . فيعود تشرشل الى موقفه الشاذ من المعركة كرجل غير حربى ، وغير رسمى ، يقود معركة من أخطر المعارك التى يتوقف عليها كيان انجلترا نفسها !

وتظل معركة انتورب ناشبة حتى يوم ١٠ أكتوبر . ولكن كيف صمدت المدينة ؟ هذا ما يعجز أبرع الخبراء العسكريين عن تأويله . والجواب عن ذلك لن يكون الا : تشرشل وشخصية تشرشل .. وتهور تشرشل وجبروته !

ويتأخر الزحف الالمانى حوالى أسبوع ضمنت فيه القيادة الفرنسية عدم التفاف الالمان حول شمال فرنسا بحركة تطويق . ونجت موانىء المانش من خطر محيق

ومع أن العمل مجيد يستأهل الشكر ، نرى الصرخات والانتقادات تنهال على رأس تشرشل : بأى حق يتولى قيادة برية وهو وزير البحرية ؟ وبأى حق يرغم كتشنر على قبول قيادته بألحاحه واندفاعه ؟ ثم بأى حق يتسبب فى موت آلاف الضحايا من الانجليز فى دفاع لا جدوى له .. ولكن اسكوث رئيس الوزارة البريطانية يهب لنجدة صديقه ووزيره ، فيعلن ان أسبوع انتورب لم يذهب سدى !

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

— ٤ —

١٥ نوفمبر سنة ١٩١٤

الاميرال فون سبى — أخطرقرصان عرفته الحرب العظمى الاولى — يجوب مياه الشرق الاقصى بأسطوله حول ساموا وتاهيتى .. وهناك يلتقى بثلاث قطع من الاسطول معقود لواؤها للسير كرستوفر كرادوك . والمفروض ان تسير القطع فى حماية أكبرها وأبعدها مرمى « كانوبوس » التى بمثابة قلعة لها تحتمى وراءها . ولكن كرادوك عند ما رأى القرصان الاميرال فون سبى أخذته نشوة الظفر وسرت فيه روح البحرية الانجليزية المغامرة . فخلف الكانوبوس وراءه وانطلق صوب القرصان الالمانى .. فلما دنا من أسطوله وجده أقوى منه وأبعد مرمى .. ولكن هل يعود من حيث جاء .. وأين هى شهامة البحرية البريطانية ؟ فليشتبك مع العدو اذن فى معركة انتحار وليكن بعد ذلك ما يكون ..

الشمس آخذة سبيلها نحو الغروب . والانجليز قبل المشرق فهم هدف طيب للالمان .. وعقب غروب الشمس يلتمع الشفق القانى فيزيد انكشافهم . والاميرال فون سبى يصوب

مدافعه الضخمة نحو الانجليز بأحكام عجيب . فلا تمضى الدقائق حتى تشتعل كل من « الجود هوب » و « المامونث » نارا ، ثم تتناثر الجود هوب أشلاء عقب انفجار مدمر . وتغوص المامونث فى اليم بعدها رافعة علمها بكل فخار .. ويغوص مع الطرادتين رجالهما أجمعون من القبطان الى أصغر بحار . ثم يطلق الاميرال القرصان لسفنه العنان فتحتجب وراء الافق ..

ضربة أليمة جدا لتشرشل وللاسطول البريطانى . والانتقادات المرة توجه اليه من جديد . وتثور ثائرة خصومه ويتهمونه بأن روحه المتهورة قد سرت فى رجال الاسطول فراحوا يلتحمون بالعدو لمجرد الفخار لا أملا فى الانتصار . فيضطر ازاء حملاتهم الشعواء الى اقالة ربانه الاول البرنس لويس .. يقيله وفى قلبه حسرة عليه وعلى خدماته المجيدة للاسطول . ويحل محله فى الربانية اللورد فيشر ، كلب البحر الرهيب .. وكمساعد له يعين السير آرثر ولسن

وكلب البحر فيشر يعود الى ربانيته مكشرا عن نابيه عاقدا عزمه على الانتقام السريع

والاميرال فون سبى بعد هذه الضربة القاسية يدرك انعمله فى مياه الباسفيك قد انتهى وان الاسطول البريطانى سيتعقبه حتما كما تتعقب كلاب البحر الجائعة جثة طافية على الماء . فيعبر مضيق ماجلان معتزما مهاجمة جزر « فالكلاند » البريطانيه ليتزود منها بشحنة من الوقود ، ثم ينتقل بعدها بقرصنته ومغامراته الى الاطلنطيق

فيبلغ جزر فالكلاند فى ٨ ديسمبر .. وما يكاد يعبر الرابية التى تحتضن ثغر الجزيرة حتى يرى عجبا : خمس قطع من الاسطول البريطانى رابضة هناك .. وعلى رأسها البارجة كانوبوس التى جاءت لتثأر لاخواتها فى الباسفيك ! ومع كانوبوس طرادتان من أحدث وأسرع ما بنت ترسانات بريطانيا ، ومدافعهما تفوق مدافع الطرادات الالمانية مرمى وثقلا ..

الاميرال فون سبى يوقن بالموت . ويدرك انه قد ساق أسطوله وقراصنته الى الهلاك حتما . ومع ذلك يحاول محاولة اليائس الفرار . فيدير دفة سفنه غربا بحركة التفاف عنيفة . فلما تتبعه الطرادات الانجليزية السريعة وهى فى أقصى سرعتها ، يعود أدراجه ويقف فى وجه مهاجميه كأنما يقول لهم : هيا اضربوا .. وسنرى الآن ان الانجليز ليسوا وحدهم الذين يعرفون كيف يموتون بشرف !

وتدور المعركة الرهيبة بضع ساعات تهوى بعدها سفينة الراية الى قاع البحر محتملة معها ربانها العظيم . وتتبعها زميلتها « جنيسناو » الى قاع اليم وبحارتها ينشدون نشيدهم المعروف .. ثم تتوالى بقية القطع الالمانية الى القاع الا واحدة تدعى « درسدن » تتمكن من الافلات ..

وبذلك ينتقم تشرشل لشرفه وشرف الاسطول البريطانى ، ويطهر مياه الباسفيك من

قرصان رهيب . . ينتقم على يدى ربانه الاول « فيشر » الذى أثبت بهذه الضربة القاصمة ان « كلب البحر العتيق » ما تزال فيه بقية من عبقرية نلسون ، وجبروت نلسون

— ٥ —

ولكن سرعان ما يحل الخصام محل الاعجاب والوئام بين كلب البحر العتيق ووزيره الشاب . ففيشر يرى انه أولى من تشرشل بالنظر فى الشئون البحرية البحتة . وطبيعته التى لا تقل عن طبيعة تشرشل الحارة الصارخة تجعله لا يطيق تدخل تشرشل فى شئونه . ثم ان تشرشل لم يبادله وفاء بوفاء ، واخلاصا باخلاص . فها هو ذا وقد يئس من الانتصار فى الميدان الغربى يريد ان يهاجم الالمان بحرا فى مكان ما ليحول مجرى الحادثات . فيقدم اليه فيشر خطة محكمة لمفاجأة الاسطول الالمانى فى قناة كيل وضربه الضربة القاضية ، ثم احتلال احدى الجزر حول « هليجولاند » ، ومن ثم غزو «شلزويج» و « هولشتين » وولوج بحر البلطيق بحيث يتمكن الروس من انزال جيش كبير فى نقطة لا تبعد عن برلين بأكثر من تسعين ميلا ، فيفاجأ الالمان بحركة تطويق تخفف الضغط حتما عن الميدان الغربى . . وتشرشل يعد ربانه الاول بالدفاع عن هذه الخطة فى مجلس الوزراء وحمله على اقرارها . ولكن مجلس الوزراء يرفض الاخذ بها ويعتقد باستحالة تنفيذها . فيتهم فيشر وزيره بانه لم يتحمس لمشروعه التحمس الكافى . وانه لو كان متحمسا له لما فشل فى حمل مجلس الوزراء على الاخذ به فقد عوده دائما التشبث بآرائه حتى تنال قبولا

ويزيد من سخط فيشر على تشرشل انه سرعان ما تحمس لخطة أخرى من وضع السير موريس هانكى مؤداها القيام بحملة بحرية وبرية قوية على مياه الدردنيل بقصد احتلال غاليبولى والاندفاع منها صوب استانبول للاتصال بروسيا الحليفة وتطويق المانيا من جهة الشرق وشطر السلطنة العثمانية الى شطرين بحيث لا تقوم لها بعد قائمة . .

فيشر يعلن عن سخطه ويتميز غيظا من وزيره الذى لا يحسن اختيار الخطط البحرية . ويعتقد بما عنده من تجارب ان مشروع الدردنيل سيفشل فشلا ذريعا . مع ان تشرشل ينظر الى الدردنيل كالجسر الفاصل بين عالمين ، وان الذى يتحكم فيه يتحكم بسرعة فى مصائر أوروبا والشرق الاوسط ، فيقصر أجل الحرب ويضمن الظفر السريع للحلفاء ، ويؤدى الى انهيار امبراطورية معادية هى سلطنة آل عثمان ، والى تحطيم جانب عظيم من قوات العدو البرية والبحرية ، وسقوط عاصمة كاستانبول لها صيت بعيد ويكون لسقوطها أثر معنوى كبير فى العالم كله . . « وسيكون الصراع عنيفا ، والمخاطر جمة ، والخسائر فادحة ، ولكن النصر اذا جاء سيعوض كل هذه الخسائر » على حد قوله عن تلك الحملة

ولك ان تتصور تشرشل اذا تحمس لامر وعقد عليه العزم . انه يقيم الدنيا ويقعدها .

انه يحرك الاسطول ، ويدفع بالجيوش الى النـار ، جيوش من الانجليز والاستراليين والنيوزيلانديين والهنود وكافة المستعمرات . جنود يعدون بمئات الالوف

ولكن فيشر الذى قاد سفينة حربية فى الدردنيل فى عام ١٨٧٨ ، وكان اميرالا لاسطول البحر الابيض ابان حرب البوير ، يعرف عن الدردنيل ما لا يعرف تشرشل .. يعرف هذه الشطآن التى يسهل تحويلها الى حقول نيران . يعرف التلال التى سترمى الاسطول بالسعير والنكال . ويعرف أبناء الترك الاشاوس الذين لن يجدوا عن دردنيلهم مصرفا حتى يموتوا دونه أو يظفروا بصد الحملة الجبارة .. ولكنه يعرف أيضا ان تشرشل صديقه الحميم والصداقة لا تذهب هكذا عبثا . ويعرف ان المناقشة والاعتراض سيؤديان به حتما الى الاستقالة . فيؤثر الصمت العميق . ولا ينبس فى مجلس الحرب عند ما يقوم رجل الاحلام تشرشل ليبسط حلمه الرائع الذى سيقصر أجل الحرب ويدنى الظفر ..

وفى كل ليلة ، وبعد تناول العشاء يتبعه الشراب القوى والتدخين الدسم اللذيذ ــ ولك ان تعرف ان تشرشل أعظم مدخن فى العالم ــ يدون تشرشل وقد أخذته نشوة الفتوة ولذة الشراب مشروعاته ويصدر أوامر الامسية . ويقوم كلب البحر فى الخامسة من اليوم التالى فيقرأ ما كتب وزيره فى نشوة الليل ويعجب .. يعجب لان الخيال التشرشلى يلعب فى تعليماته دورا لا تحتمله المقاييس الفنية والمعايير البحرية . ولكنه يظل على احتفاظه بالود لصديقه وينفذ أوامره دون مناقشة . حتى اذا ما فاض الكيل ، وظهر ان الحملة فاشلة برا وبحرا ، لا يطيق كلب البحر المخيف السكوت ويبعث الى اسكويث رئيس الوزارة يشكو تصرفات وزيره . وعند ما يرى من تشرشل صلابة وتشبثا بالقاء أعظم القطع البحرية الانجليزية فى مياه الدردنيل التى تزخر بالالغام وتتأجج بقذائف الطوابى التركية القوية ، يصدر أمرا الى اميرال البحر الابيض بعدم القيام بأية حركة جديدة حتى تصدر اليه الاوامر منه رأسا .. فيعرض هذا الامر على تشرشل . فيرفضه ويبعث بأمر جديد يقضى بمضاعفة الهجوم البحرى على غاليبولى . ويذيل أوامره بالعبارة التالية : « يعرض هذا الامر على أمير البحر بعد تنفيذه .. »

اذن لقد تجاهل تشرشل صديقه كلية وأخذ على عاتقه وحده أخطر مهمة بعد ما أعلن أمير البحر فشلها المحقق . فماذا بقى لفيشر بعد هذا التجاهل الصارخ ؟ لم يبق أمامه الا الاستقالة . وهو يقدمها فعلا فى يوم ١٤ مايو سنة ١٩١٥ عند ما يرى الاوامر تترى الى اسطول البحر الابيض دون علمه .. ثم يكتب الى وزيره يقول : « الى وزير البحرية . لا يسعنى بعد الآن ان أكون زميلا لكم » . ويبادر الى السفر الى اسكتلندة بقلب كسير مؤثرا ذلك على لقاء صديقه فى تلك الساعات الحرجة .. فيرد عليه تشرشل برسالة حارة يلومه فيها على تركه وحده يتلقى الصدمات والطعنات . فيجيبه فيشر بقوله : « انك ستظل وزيرا للبحرية . أما أنا فسأذهب .. » فيوسط تشرشل رئيسه فى الامر . فيبعث اليه

اسكوث وقد صدمته الكارثة : « باسم الملك آمرك بالاحتفاظ بمركزك ! » ولكن الربان الانجليزى العتيق لا يمتثل . .

ثم تتابع الحوادث بسرعة مخيفة . وتفشل حملة الدردنيل وينحاز الخصوم السياسيون الى صف فيشر ويكيلون الطعنات الى قلب تشرشل المسكين . وسرعان ما تطيره الحادثات من وزارة البحرية وهو لا يكاد يتبين مراميها ومداها . ويقلب له الناس ظهر المجن وينعتونه بالتهور والجنون . . الا صديقه الحميم كتشنر . الرجل الذى صب من فولاذ . فانه يقول له مواسيا ودموعه تترقرق فى عينيه : « ان شيئا واحدا لا يقدرون على أخذه منك يا تشرشل . فانك عند ما أعلنت هذه الحرب كنت قد أعددت لنا أسطولنا العتيد ! »

ولقد كان حظ تشرشل تاعسا حقا فى حملة الدردنيل . ورئيس الوزارة لم يؤيده التأييد الكافى . وفيشر لم يساعده . وكتشنر لم يحشد جنوده فى الوقت المناسب . ووقعت مخالفات صريحة لبعض الاوامر . ولكن كل هذا لا يكفى لتصوير هذه الكارثة الحربية التى أوشكت ان تودى بسمعة بريطانيا البحرية والبرية . .

ان الحملة البريطانية كانت قوية حقا . والقوة التى نزلت فى غاليبولى كانت جبارة صدقا . حتى ان القائد الاعلى للجيش العثمانى هناك آثر الانسحاب لانه لا طاقة له بصد الغزاة ، فأزاحه مصطفى كمال وأخذ على عاتقه وحده هذه المهمة .

فما هو العنصر الفرد فى تلك الكارثة اذن ؟

انى لا أتردد قط فى ان أقول انه كان الجندى التركى الباسل الذى وقف يلبى نداء قائده الاعظم « مصطفى كمال » أكبر بطل حربى فى العصر الحديث . . وقف يحرس أرض آبائه وأجداده . فلما هم الغزاة بالنزول فيها هتف الاتراك هتاف حربهم المقدس: الله . . الله . . ! وقذفوا بأنفسهم فى أتون من حمم الاسطول فما أفاقوا من نشوة الجهاد والاستشهاد حتى صدوا الغزاة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فى الميدان الغربى

- ١ -

تشرشل الآن أتعس أهل الارض

انه فشل .. انه صدم صدمة عنيفة .. انه أصبح هدفا لطعن الطاعنين وسخرية الساخرين ..

ومثل تشرشل يقتله الفشل ويقضى عليه . فهو ليس من حملة الالقاب . ولا مال عنده . وقد ألف الحياة الارستقراطية فما يطيق عنها بديلا . وجاهد جهاد المستميت طوال كل هذه الاعوام ليبنى له مجدا يعوضه عما فقد من لقب ومال . فهل يذهب كل هذا الجهاد هباء منثورا فى تلك الحملة المشئومة : حملة الدردنيل ؟..

أهكذا تكون نهاية الرجل الذى راح يقطع مراحل الحياة قفزا ، ويثير ما حوله تألقا واحتراقا ، وينطلق صوب اهدافه بسرعة النيازك وانقضاض الصواعق ..

ان مجرد وقوف النيزك فجأة يحطمه شذر مذر . ووقوف تشرشل الفجائى قد حطمه حقا وسحق فؤاده .. اما نسمعه يقول : « وكما تكون الحال بالنسبة الى حيوان بحرى ألف حياة الاعماق ثم صادوه ، أو سائق سيارة مندفع بسرعة هائلة ثم أوقفوه ، خيل الى ان شرايينى ستنفجر من صدمة السقوط ! »

ماذا يصنع يا ترى ؟ وأين يذهب ؟

ان بقاءه بدون عمل ضخم يصرعه . انه لا يطيق السكون والعزلة . انه يؤثر لقاء الشياطين فى قرارة الجحيم على الاعتكاف المرير

أجل .. ماذا يصنع ؟ أيجلس فى مجلس الهموم وسط سخرية الساخرين وطعن الخصوم السياسيين ؟ لا .. بل فى الميدان الغربى عزاؤه وسلواه . هناك فى خط النار مثواه . وفى الخنادق مغناه . وفى النيران المستعرة وسط القذائف والطلقات حماه . وفى الموت - ان قدر له الموت - حاداه ..

ثم ماذا .. ان المخيلة التشرشلية تبعث من جديد . وجهازه العصبى الجبار ينطلق من احتباسة الفشل . وتنحل العقدة النفسية التى كادت تشرف به على البوار . أجل .. ماذا فى الميدان الغربى ؟.. ان تشرشل بدأ يتحرك . انه يفيق من دوار السقطة شيئا فشيئا .. انه يقوم على رجليه .. انه ينبش أوراقه بسرعة هستيرية .. هذه الورقة . أجل .. ان فيها نبأ جديدا هائلا سيقيم الدنيا ويقعدها .. ان فيها اختراع الدبابة الذى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لم يعره أحد اهتماما وكان هو وحده الذى فطن الى أهميته القصوى فى كسب الحرب اثناء وزارته البحرية فأمر بصنع سبعين منها .. الدبابة العظيمة . الفولاذ المتحرك .. القلاع الزاحفة تتضاءل أمامها أهول الزاحفات .. غرف من حديد يجثم فيها رجال صناديد ويندفعون بها صوب خنادق العدو فيلين تحتها الحديد ويهرس الجنود تحت عجلات كأمثال الجلاميد ..

ويتناول تشرشل الرهيب قرطاسا وقلما ويروح يسطر ما تراءى له من آمال واحلام عن هذا الاختراع الجديد . ويبعث بتقريره الى قائد الحملة البريطانية فى فرنسا الماريشال فرنش . وينتظر وهو على أحر من الجمر . فلا يلبث الا قليلا حتى يبعث صديقه فرنش فى طلبه . ويمنحه قيادة كوكبة من الفرسان فى الميدان الغربى . ثم يمنح قيادة كتيبة من الرماة برتبة كولونيل

- ٢ -

فرسان ، أو رماة ، أو شياطين .. ماذا يهمه ؟

انه جاء لينسى ..

وهذه الخنادق الملأى بالطين والحميم ، والاشجار التى هشمت اغصانها الطلقات ، والحفر التى فتحت أفواهها لتنام القذائف ، والومضات الحمر للطلقات الحائنة فى جنح الليل البهيم ، والبرد القارس والجليد المختلط بالوحل ، وصرخات المصابين وحشرجة المائتين ، والدماء التى تقطر من قلوب اخترقها الرصاص الغادر .. كل هذا برغم هوله ، أطيب وأسعد من كرسى الوزارة الرجراج والفراش الوثير وسكنى القصور ..

ازأرى يا بنادق العدو وشقى الاجواء ثم الصدور برصاصك . ودوى يا أيتها المدافع المدمرة .. فتشرشل جاء ينشد العزاء والسلوى فى خط النار !

وكما وقف من قبل فى « انتورب » وأتى بالمعجز الخارق فى صد الزحف الالمانى اسبوعا بأكمله ، يقف تشرشل الآن وقد غلت فى عروقه دماء دوق مارلبرو العظيم ، ويتساءل : لم لا أكون رجل حرب وقد كان جدى الاكبر أعظم قواد انجلترا على الاطلاق؟ ثم ينغمس فى مصارع الميدان بكليته وقد عاد اليه انطلاقه النيزكى وخياله العبقرى ..

ونجم طالعه يأخذ فى البزوغ من جديد . فها هو ذا صديق له يدعوه الى اللقاء فى مكان معين ، فيذهب اليه ويقف فى انتظاره ساعة كاملة دون جدوى ، فيعود الى معسكره وهو يتميز غيظا وحنقا . ولكنه لا يلبث الا قليلا حتى يصله نبأ يسكن من ثورته . فالحفرة التى كان واقفا فيها أصابتها قنبلة بعد رحيله عنها بدقائق قليلة . والضابط الذى كان فيها طار رأسه .. فيا للطالع السعيد !

وفى عام ١٩١٦ يعين قائدا لفصيلة من حملة البنادق الاسكتلنديين . فتطيب نفسه بهم

ويحبونه حبا جما . ويتبهنس بينهم على ظهر جواده الاسود الضخم ويأمرهم ان يغنوا ويطربوا - ولماذا لا يغنون ويطربون برغم كل هذه الاهوال والجحيم .. ويحدثهم ان الحرب لعبة مسلية يجب ان يمارسها الرجال بثغور بسامة ..

وفي ذات يوم يجلس في غرفته الخاصة في مركز قيادته - وكان في دير قريب من خط النار - وبين يديه أوراق كثيرة يستوعبها

وبين هذه الاوراق نسخة من تقريره عن الدبابات . الدبابات التي أوصى بصنع سبعين منها ورسم لها خطة مؤداها أن توزع في الجبهة على مسافات متقاربة ، وتبدأ المدفعية عملها أولا في تمهيد الطريق ، ثم تزحف هذه القلاع الفولاذية وكل منها مزودة بمدفعين صغيرين ونار محرقة متدفقة من مقدمتها . فتهرس حواجز الاسلاك الشائكة ، وتعبر الخنادق وتهصر الجنود أو تشتتهم .. ومن خلفها يهجم المشاة فيجدونها قد نظفت لهم الميدان ..

تشرشل يتأمل هذا التقرير . واذا بمدفعية العدو تصب على القرية التي هو فيها وابلا من قنابلها . فيهرع الى أحد المخابىء ريثما تهدأ العاصفة . ثم يعود الى غرفته وقد وصلت اليها شظايا القنابل . فيجد أوراقه مبعثرة هنا وهناك . وفي تلك اللحظة يتذكر تقريره الثمين فتسرى في بدنه رعدة الخوف .. ويرتمي على ما تبقى من الاوراق باحثا منقبا دون جدوى .. فيدب الرعب في قلبه .. ترى هل انتهز أحد الجواسيس الالمان فرصة غيابه عن الغرفة لسرقة التقرير الثمين ؟ وهل يصل التقرير الى القيادة الالمانية فتفسد الخطة التي اقترحها ؟ بل هل سيسبق الالمان الانجليز في صنع عدد هائل من الدبابات فتنعكس الآية ويكون الاختراع الانجليزي وبالا على الانجليز ؟

تشرشل يظل أياما عديدة في قلق ممض ومخاوف ووساوس تكاد تخرجه عن طوره . وأخيرا .. وبينا هو يفتش في أحد جيوب سترته ، يعثر على الاوراق الثمينة فيتنفس الصعداء ، وتنجاب الغمة التي اقلقته !

ولكن كيف وضعها في جيبه ؟ هذا ما لم يتذكره تشرشل اطلاقا . ولكنه العقل الباطن والغريزة توحي الى الناس بحركات لا ارادية . وقد أوحى اليه عقله الباطن ان أثمن ما في الغرفة هو هذه الاوراق . فأخذها . ولم يلتفت الى انه أخذها ..

***

ولكن هل تحقق أمله في ان يصل الى رتبة القيادة ويحيي مجد دوق مارلبرو ؟

هذا ما أجابت عنه الاقدار بلا .. فكتيبته الاسكتلندية تتضاءل شيئا فشيئا . وصديقه فرنش يترك القيادة ويتولاها هايج . وهايج لا يحب هذا الصنف من هواة الحروب ولا يحبذ ترقيته . فيفقد تشرشل أملا عظيما . ومثل تشرشل يكره المقام بغير أمل . فهو لذلك يطلب اجازة ليعود الى كرسيه في مجلس العموم

- ٣ -

ومثل هذه الاجازات لا يعرفها الجيش بنظامه الدقيق . والقواد يرون فيها عودا الى طرق تشرشل القديمة عند ما كان يلتحق بالجيش العامل اشباعا لاهوائه ، ويغادره في اللحظة التي يجد فيها هواه متجها الى سمت جديد .. ولكن اصدقاءه في لندن يريدونه معهم . وينتظرونه قلقين ليمدهم بطاقته الحيوية وقوته الديناميتية . ثم ان تشرشل في حاجة الى المال . وهو عند ما ترك وزارة البحرية وعرضت عليه وزارة بلا عمل ـ وهي التي يسمونها دوقية لانكستر ـ رغب عنها واجتواها مع ان لها راتبا سنويا قدره أربعة آلاف جنيه . وهو الآن يتقاضى من الجيش اربعمائة جنيه في العام . فماذا يصنع بهذا المبلغ التافه ؟ انه يريد ان يجمع بعض المال ليستعين به على الظهور بالمظهر الفخم الذي يحبه . وهذا المال في متناول يده اذا عاد الى لندن . وما عليه الا ان يكتب بضع مقالات في الصحف فيربح خمسمائة جنيه في المقال الواحد !

ويعود تشرشل الى لندن . ويلقى في مجلس العموم خطابا مثيرا عن الشئون البحرية كما تراءت له . خطابا أعده تشرشل بكل عناية وعصر فيه الخطيب الجبار كل مواهبه الخطابية . ولكنه يفشل في احداث أي تأثير في المجلس .. لماذا ؟ لانه يتهم خليفته في وزارة البحرية المستر بلفور وامبرالاته بالتقصير الشنيع ، وينادي بوجوب استدعاء فيشر من جديد برغم ما كان بينهما من اختلاف وتباعد !

المجلس يقابل هذه الرغبة العجيبة بتحفظ شديد . ويتساءل : هل نسي رجل الدردنيل فاجعة الدردنيل ؟ وهل معنى ذلك ان فيشر كان مصيبا وتشرشل كان مخطئا عند ما اختلفا على خطط الحملة ؟ ثم ما هذا التناقض الذي قد يفهم منه ان الوزارة كلها ، بل انجلترا كلها ، كانت مخطئة عند ما قبلت استقالة فيشر ، وان انجلترا لم تنجب غير فيشر من رجال البحر .. فيخرج تشرشل من المجلس وقد باء بالفشل الذريع ، مع انه كان يحسب انه سيستعيد مكانته بخطابه الحار القوي بعد طول احتجاب عن الأفق اللندني ..

فماذا يصنع الآن يا ترى ليستعيد مكانته في الوزارة ، وفي المجلس ، وفي القلوب ؟

لم يبق الا تحرير المقالات في الصحف . وناهيك بالقلم التشرشلي اذا جرى ، والبيان التشرشلي اذا تدفق ..

انه يكتب عن ذكرياته ، عن نظراته في السياسة والحرب ، عن آماله السعيدة واحلامه . يكتب بصراحة ، وبقوة ، وبايمان ..

ولم يبق الا الفن يناشده تشرشل ان يخلي له مكانا وسط جناته وعيونه . ولك ان تعلم ان تشرشل في قرارة نفسه فنان بعيد الغور صادق النجوى

ومظهر الفن الذي أحبه تشرشل على حين غرة ـ كما هي عادته دائما ان يحب على حين

غرة - هو الرسم .. رسم اللوحات الزيتية للاشخاص والمناظر الطبيعية .. ولك ان تدهش اذا علمت انه لم يكن رساما من صغره ، وانه يبدأ الآن - فى الاربعين من عمره - يتلقى دروسه الاولى فى هذا الفن الجميل .. ولك ان يزيد اندهاشك عند ما تعلم أنه فى بحر اشهر قليلة امتلك ناصية هذا الفن وابرز لوحات أطراها فريق من اساطين الرسم فى انجلترا !

مسكين تشرشل .. ماذا يصنع ؟ ان طالعه السعيد قد خانه فى السنوات الاخيرة . ونجمه الساطع حجبته غيوم دواكن كثيفات . وقد ذهب الى الميدان الغربى لينسى ، ولكنه لم ينس . وعاد الى انجلترا ليجرب حظه من جديد ، فاذا حظه ما يزال تاعسا .. فهلا يجرب حظه مع الفن ذى الريشة والالوان واللوحات لعله ينسيه مرارة الفشل ، ويبسم له ببارقة من أمل !

وكتب تشرشل فى هذه الفترة طويلا .. كتب بآلاف الجنيهات .. كتب باعصابه ودمه وروحه . ورسم تشرشل كثيرا .. رسم لوحات لجده ولبعض أصحابه وابرز كوامن نفسه فى الالوان الصارخات . ومن خلال كتاباته ولوحاته أخذ قراؤه والمعجبون به الذين يعدون بالملايين يحبونه من جديد ، ويعطفون عليه ، ويألمون لما لقى من عنت وطعن وتشريد . وبدأ قلب انجلترا القاسى يخفق بحنان نحو هذا الابن البار الذى ان يكن قد فشل مرة فقد نجح مرات ، والذى ان يكن قد حاول الاستبداد برأيه ، وتسلق سلم الزعامة فى بلد يمقت الزعامة والزعماء ، فقد روضته الصدمات القاسية ورققت من حاشيته وشذبت من اطماعه

***

وتشرشل الذى عزاه الفن فى مصائبه ، واعادت اليه كتاباته اعجاب مريديه ، يلج معترك الحرب والسياسة من باب جديد . فمسائل التموين وضرورة تسيير الجهاز الحربى بالسرعة التى يتطلبها الموقف تعتبر من أمس شئون الحرب . وهذه الخسائر الفادحة فى الاموال والانفس لا داعى لها بكل هذا الاسراف . وتشرشل يلقى فى ٢٣ مايو سنة ١٩١٦ ثم فى ٣١ منه ، خطابين حادين قاسيين يهاجم فيهما وزارة الحرب هجوما عنيفا . ويروح يطعن فى القيادة التى أضاعت فى معارك « السوم » عددا هائلا من الجنود بنسبة ثلاثة من ضحايا الحلفاء الى واحد من الالمان . ويظل يخطب ، ويكتب ، وهو موقن انه سيعود الى الوزارة فى يوم قريب . حتى تسقط وزارة أسكوث فى أواخر عام ١٩١٦ ويؤلف الوزارة الجديدة صديقه وصفيه لويد جورج .. ويشكل وزارة الحرب من كرزون وهندرسون وملنر وبونارلو وبلفور . فهل يصح فى الاذهان ان تخلو هذه الوزارة من تشرشل الذى يقول فيه لويد جورج : « ان عقله الخصيب وبسالته التى لا جدال فيها ،

وطاقته العملية التى لا يتطرق اليها الوهن ، ودرسه الشامل لفنون الحرب ، كل أولئك تجعل منه وزيرا مفيدا جدا فى وزارة الحرب » . .

ولكن أعضاء الوزارة يخشون بأس تشرشل ويخافون تهوره واندفاعه فيرفضون انضمامه اليهم . ويتسامع تشرشل بهذا الرفض وهو يتناول الطعام في ضيافة صديق له . فتثور ثائرته ويتناول قبعته وعصاه ويهرول عائدا الى منزله وقد ايقن ان الدنيا قد نضب فيها معين الوفاء . ويظل يقاسى مرارة هذا الفشل الجديد عدة شهور تحرم خلالها الوزارة الوحيدة التى توائمه ويوائمها : وزارة التموين ، من وزير ديناميتى نيزكى . .

ولكن لويد جورج يعود فيقاوم تيار السخط على صديقه . وينتهز أول فرصة ليرشحه لوزارة التموين برغم سخط الساخطين وانتقاد المنتقدين . يرشحه وهو عالم باندفاعه وتهوره ، وخطره أحيانا . ولكنه يرى ان نفعه أكثر من ضره ، وخيره أكثر من شره . وان رجلا له مواهبه يجب ان تنتفع البلاد به . فيعود الى الوزارة فى ١٦ يوليه سنة ١٩١٧ بروح جديد ، وايمان جديد بان فى طاقته أعمالا ضخمة جديدة . .


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وزير التموين

- ١ -

عاد تشرشل الى الوزارة موقنا ان فى وسعه ان يؤدى لبلاده خدمات عظيمة . وأخذ جهازه العصبى الجبار يعمل بقوة وعنف ، مطلقا العنان لخياله الخصب يتدفق كل يوم ، كل ساعة ، كل لحظة ، بالمشروعات والتدابير الجهنمية لكسب الحرب . ونزل الى الميدان كالمحارب وقد تأججت الحماسة بين أضلاعه . وعاودته آمال الماضى وأحلامه فما عدنا نرى فيه تشاؤما ولا سخطا ، ولكن تفاؤلا بأنه سيكون عاملا فعالا فى انتصار الحلفاء

وتشرشل يفرح بوزارة التموين فرحا عظيما . فهى من أدخل الوزارات فى صميم الشئون العسكرية . وهناك مسائل التبذير ، والاسراف ، وتوفير الأقوات للمحاربين والمدنيين على حد سواء ، وصنع الاسلحة والذخائر بكميات هائلة ، والتوفر على استحداث أشد المخترعات فتكا وتدميرا ، وتزويد الجيوش بعدد عظيم من الدبابات .. أجل الدبابات التى يعود الفضل فى ظهورها فى الميدان الغربى الى سرعة ادراكه مدى بطشها وفتكها بالعدو ..

ثم هناك أخيرا مسألة الاتصال الوثيق بقواد الجيش والاسطول والطيران . وليس الاتصال بهؤلاء الجبابرة ــ انصاف الآلهة ــ واشباع بطونهم النهمة الى أدوات الفتك والتدمير من هينات الامور

وتشرشل رأى وعرف عن هؤلاء القواد ما جعله يحسب لهم الف حساب . فهم هناك فى الميدان ، وكل حركة من حركاتهم، وكل أمر من أوامرهم ، قوامه الاسلحة والذخائر التى لا حصر لها

رأى جوفر الذى كان يصدر أوامره الى الجنود بالموت .. فيموتون بعشرات الالوف ومئات الالوف . ثم يتناول طعامه بشهيته المعتادة وينام نوما عميقا وكأنه لم يرسل مئات الالوف الى الجحيم

رأى مانجان المثل الاعلى للبطولة الفرنسية . مانجان المتوحش، القاسى، المتهور، الذى لا يكتفى بقذف مئات الالوف الى الموت بل يروح يحارب بنفسه مع جنوده فى الصفوف الامامية وقد حمل بندقيته بيده ..

رأى نيفل الخجول ، المتواضع ، البشوش ظاهرا ، وان يكن فى الحقيقة من أخطر القصابين الذين يعيشون على القتل والمجازر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هؤلاء وغيرهم عرفهم تشرشل وأعجب ببطولتهم كل الاعجاب . ولكنه الآن وقد تولى وزارة التموين يعرف رجلا من طراز جديد : فيليب بتان .. وما أدراك ما بتان .. وقور . صبور . هادىء الطبع . يعتمد على العلم والنظريات العسكريه دون غيرها . ولا يحب المجازر ولا يمجد القصابين . ينادى بأعلى صوته : كفى مجازر وكفى ذبحا .. ان أصلاب الفرنسيين لن تعوض كل هذه الملايين من القتلى والجرحى والمشوهين !

بتان الذى يختلف عن جوفر فى كل شىء : فجوفر لم يكن يعلق الخرائط فى مركز قيادته ولا يحب ان ينشرها على مائدته . انه كان لا يعرف الا الكتائب يسوقها سوقا الى خط النار لوقف تيار الالمان . اما بتان فغرفته مملوءة بالخرائط . وعلى الخرائط علامات واشارات بمختلف ألوان المداد . وبنظرة واحدة يعرف القائد المحنك موقف جنوده ، وموقف عدوه ، وأين هى الامدادات،وكيف ستصل ، ومتى ستصل ، وعلى أى الخطوط الحديدية ستنقل . وبتان هذا لم يكن يلقى أقواله على عواهنها ليرضى رجال السياسة . وكفيشر بالضبط كان هذا الرجل ـ وما يزال ـ لا يؤمن الا بالفن الحربى الخالص ، ولا يجازف بشىء الا وهو ضامن نتيجة المغامرة . ويود من صميم قلبه لو تأتى صاعقة من السماء فتنسف هؤلاء القوم الذين يتكلمون ولا يعملون . هؤلاء الثرثارين الذين يسمونهم بالسياسيين وأعضاء المجالس النيابية ..

وفى الطرف الانجليزى كان على تشرشل ان يتصل باستمرار برجلى بريطانيا «هايج» و « روبرتسون »،كما كان عليه أن يكون وثيق الاتصال برجلى الدولة الرهيبين : الرجل الديناميتى لويد جورج ، والنمر كليمانصو

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- ٢ -

وسرعان ما يشرع الالمان فى حرب الغواصات التى اعتزموا ان يضربوا بها الحلفاء الضربة الاخيرة . فتصعد نسبة خسائر الحلفاء من ۳۰۰٫۰۰۰ طن من السفن الغارقة فى يناير سنة ۱۹۱۷ الى ۸۰۰٫۰۰۰ فى ابريل . وهذه ضربة قاسية يصفق من أجلها ولهلم ويشد على يدى هندنبرج بحرارة . ويشعر بها وزير التموين الانجليزى أكثر من غيره .. فمعظم هذه الاطنان تحوى ذخائر وأطعمة ومؤنا . فيحاصر الاسطول البريطانى مستودع الغواصات فى زيبروج ، وتستعمل قذائف الاعماق كأمضى سلاح للفتك بهذه الوحوش الضاريه فى جوف البحار

وعلى حين غرة ، يفقد الايطاليون المحاربون مع الحلفاء روحهم المعنوية . ويلقون السلاح لانهم تنقصهم الذخائر .. وهذه ضربة أخرى لوزير التموين.فيهرع الى فرنسا ويقابل القائد الايطالى دالوليو . وبما يشبه المعجزات يدبر له ما يلزمه من ذخيرة . ويبعث

لويد جورج بعشر فرق من جنود الحلفاء الى ايطاليا ، فينقذون الموقف ، ويمهدون للنصر الحاسم فى الخريف التالى بمعركة فيتوريو فنيتو

ويحل السير هنرى ولسون محل السير وليم روبرتسون فى رياسة أركان حرب الانجليز وهذا المحارب الايرلندى الجديد يحبه تشرشل ، لصراحته ، ولين طباعه ، ودهائه وفرط ذكائه . ثم ان ولسون يمجد الدور الذى لعبته - وتلعبه - الدبابات فى الحرب ، وهذا يرضى تشرشل بصفة خاصة . ويزيد فى سروره انه يوصى بأنشاء ...ر٤٦ دبابة بدلا من ...ر١٨ ، ثم انه فنان . وطريقته فى بسط المواقف الحربية ظريفة للغاية . وهو أول من يلقب كليمانصو بالنمر الفرنسى ..

ومع كل ما أصاب الالمان من خسائر فادحة،ومع ان الروسيا كانت قد اشتعلت فيها نار الثورة فغدت حليفة لا خير فيها ، وايطاليا كذلك أرهقها طول الحرب ، وفرنساوانجلترا كلتاهما أصيبتا بفقر الدم من فرط ما نزف من شرايينها من دماء ، والغواصات الالمانيـة ما تكاد تدع مؤونة تفلت من براثنها وتصل الى الانجليز الذين غدوا شبه محصورين فى جزيرتهم ، ومع أن المدد الاميركى الموعود لم يصل بعد.مع كل هذا راح الالمان يهجمون من جديد بكل عنف وقسوة ، وراح لودندورف يقذف بالفرقة تلو الفرقة فى أواخر مارس سنة ١٩١٨ ، قاصدا الى هدف واحد هو ابادة الجيش البريطانى فى الميدان الغربى حول « اميانز » ، ثم الكر على المواقع الفرنسية وخرقها بتضحيات هائلة جسيمـة .. وسرعان ما يبيد الجيش الالمانى عددا كبيرا جدا من الجيش الانجليزى . ويغنم منه الف مدفع . ويحمله على التقهقر الى حيث كان قبل ذلك بنحو عامين . فتسوء الحال . ويطلب الانجليز المدد من الفرنسيين . فيظهر الفرنسيون شيئا من الاستهزاء ازاء هذا التقهقر ويرفض بتان ان يمدهم بالرجال .. وكيف يمدهم وهو يتوقع هجوما أخر على قواته فى شامبانيا .. فيثور تشرشل لتصرفه هذا . ولكن بتان لا يعبأ بشىء .. انه فرنسى أولا ، وحليف ثانيا . وليس يهمه الا ان تبقى فرنسا . اما ابادة القوة الانجليزية أو بقاؤهافقى المرتبة الثانية ..

وفى ٢٦ مارس يجتمع القواد جميعا فى قرية دولان ، ويقررون تولى فوش القيادة العليا . فيوزع قواته على الجناحين الانجليزى والفرنسى على حد سواء ، وبذا يمحو الاثر الذى تركه تعنت بتان ..

وفى ٢٨ مارس يستدعى لويد جورج وزير تموينه الى مخدعه فقد كان ملازما الفراش . فيدخل عليه تشرشل فيجد الفراش مغطى بعشرات من التقـارير والبرقيات . فالحالة أصبحت حرجة جدا . ولويد جورج غير واثق من قدرة فوش على توحيد القيادة . وغير واثق أيضا من ان الفرنسيين يقذفون فى المعركة بالعدد الكافى من وقود الحرب . فبتان العنيد واقف هناك بالمرصاد .. فهل يا ترى يستطيع تشرشل أن يذهب الى باريس على

جناح السرعة ، ويعود اليه بالنبأ اليقين عن موقف الجيش الفرنسى من معركة فرنسا ؟

تشرشل يستقل القطارفورا من محطة فكتوريا ومعهدوق وستمنستر . ويعبران المانش على احدى المدمرات . ومن ثم الى مركز قيادة الجيش الانجليزى . فيجدان هايج فى نزهته على ظهر جواده . وينبئهما رئيس أركان الحرب ان الجيش الفرنسى قد التحم بالعدو فعلا . ولكن الى أى حد كانوا يقذفون بالقوات ؟ هذا ما لم يكن موقنا منه .. ولذا يهرع الرجلان الى باريس فيلغانها فى منتصف الليل . ويقضى تشرشل سحابة اليوم التالى يعالج مشاكل التموين الكثيرة ، وفى اليوم التالى ٣٠ مارس يأخذه كليمانصو بنفسه الى حيث القيادة الفرنسية ليرى كل شيء بنفسه . فيلتقى ثمة بفيجان لاول مرة كرئيس لاركان حرب المارشال فوش . ثم يدخلون غرفة القيادة .. فيهب فوش واقفا ويتناول قلما ضخما ويتجه صوب الخريطة المعلقة بالجدار .. فيكلمه تشرشل بفرنسيته التي يلقيها على طريقته الخاصة فى التعبير والاجرومية .. فيفطن فوش الى الموقف ويروح يشرح له مراحل الهجوم الالمانى العنيف على الخريطة معلقا على تقدم كل يوم بكلمات صوتية .. وينتهى الى ان يقول ان هجوم لوندورف الجبار قد أوشك على النهاية . وجيشه العظيم قد ضعضعته المقاومة الفرنسية الباسلة .. ويختم كلامه بقوله : « لقد أوقفناهم يقينا وبسرعة ، اما ماسيتلو ذلك فسننظر فيه فى الوقت المناسب .. »

هذا ما أفضى به القائد الفرنسى العظيم . فكان رده حاسما على مخاوف لويد جورج . ولقد وقف فوش بعد أن أدلى ببيانه الرائع لحظات صامتا يتأمل وجوه زائريه . فتقدم اليه النمر الفرنسى كليمانصو وعانقه عناقا حارا طويلا .. وفى لحظة من لحظات الاعجاب نسى الرجلان ما بينهما من خصام ولم يتذكرا الا شيئا واحدا : فرنسا ..!

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقف تشرشل يتأمل وجه هذا القائد الذى لك ان تتصوره أحد بطارقة الكنيسة ولا حرج عليك .. ثم انتقل منه الى رئيس أركان حربه فيجان ـ الذى يقال ان فى عروقه تجرى دماء الملكية الفرنسية ـ بقامته الصلبة وهدوئه العجيب . ثم تناول الجميع غذاء بسيطا واصداء المدافع تصل الى آذانهم من بعيد . وأقبل عليهم هايج طالبا المزيد من الجنود الفرنسيين . وكان يحسب انه لن يظفر ببغيته . وكم كانت دهشته عظيمة عند ما رأى وسمع بأذنيه ان جنود فرنسا ما يزالون على بسالتهم التى لا حد لها ، وعند ما وجد من كليمانصو كرما وسخاء فى بذل الجنود ..

ثم يجيء دور كليمانصو ليزور الميدان الانجليزى بدوره ليرى هل ما يزال الانجليز على ولائهم ؟ فيمرون بالضباط والجنود الذين ناءت كواهلهم تحت جسامة التضحيات المتوالية . ثم يتسلقون رابية يستطيعون منها ان يروا ويسمعوا عجيج الحرب وضجيجها . وفى نزولهم تسقط قنبلة على مقربة منهم فتصيب شظية منها أحد الخيول .. فيعدو الجواد الجريح صوبهم وقد جن جنونه . ويصبح الموقف حرجا وخطيرا .. عند ذلك يتجلى

« النمر » على حقيقته . النمر الفرنسى الذى لا يعرف الخوف الى قلبه سبيلا . ولعله قد أحس من زائريه البريطانيين ان حليفته فرنسا بدأت تشك فى قدرة فرنسا على الدفاع احساس الوحش فى الغاب بكل خلجة من خلجات ما حوله من الكائنات ، أراد ان يعبر عما فى نفسه بعمل مشهود .. فيقفز نحو الجواد الجريح الذى يعدو نحوهم وقد جن جنونه ، ويتعلق برقبته فى خفة أبناء القبائل من لدات الجياد . ويوقفه لحظات تنزف خلالها دماؤه فى شبه بحيرة ثم ينفق الحيوان المسكين

برافو كليمانصو ، أيها النمر الفرنسى العنيد !

***

وسجا الليل . وركب الوفد عربة خاصة فى قطار من قطر الميدان . وتناولوا العشاء الفاخر الذى قدمه جنود فرنسا كما لو كانوا لا يعنون بما حولهم من قتال . وجلس معهم بتان ، الذى أخذ على عاتقه أخطر التبعات فى الجبهة الغربية زهاء عام كامل . بتان بقامته المديدة وشاربه الكث الفخم،وقد راح يحدثهم بايمانه الذى لايتزعزع فى الجيش الفرنسى فيقول انهم الآن يحاولون حشد جبهة من الرجال . وان المرحلة التاليـة هى جبهـة المدافع ، وقد أوشكوا يبلغونها . فهم فى خلال ثمان واربعين ساعة ستكون لديهم مدفعية منظمة . ثم تأتى مهمة الذخائر التى لا آخر لها . وهذه الذخائر تتطلب تعبيد طرق عديدة أحدثت فيها القنابل فجوات لا عداد لها . وعلى هذا المنوال يروح بتان يقدم مطالبـه الكثيرة . ومعظم هذه المطالب من وزير التموين ، وبتان لا يقبل التسويف . انه يعرض مطالبه من أجل ضمان صد آخر هجوم المانى كبير كاد يفنى قوة الحليفتين . هذا الهجوم الذى أعده لودندورف بكل مكر ، ونفذه بكل تضحية ، والذى استنزف من دماء الحليفتين انهارا ..

وأخيرا .. وفى ساعة متأخرة من الليل ، يصل تشرشل الى باريس فينام فيها . ينام؟ بل يرتمى على أقرب فراش أو مقعد ويحاول ان يسترجع فى مخيلته حادثات هذا اليوم الحافل ؟ كليمانصو النمر الاشقر .. بتان الرجل الحديدى الذى يتكلم بأدق لغة للارقام والجداول .. هايج .. الجواد الجريح .. وانجلترا الجريحة .. وفرنسا الجريحة !

- ٣ -

وتمر أسابيع خمسة أليمة كلها كوارث ومحن . والجيشان الانجليزى والفرنسى يلوم أحدهما الآخر لوما عنيفا ويتهمه بالتقصير والجمود ونضوب معين التضحية . وينسى الكل ان علة العلل هى قوة الهجوم الالمانى وجبروته . هجوم اليائس واستهتار القانط بالموت ..

وفى ٢٧ ابريل يعود تشرشل الى فرنسا صباحا ويتناول طعام الافطار مع هايج . ومايكاد القائد الاعلى يمتص جرعة من فنجان قهوته حتى يدخل عليه جندى مراسلة برسالة من خط النار : الالمان قد حطموا خط دفاع الفرنسيين الاول بالقرب من خطوط الدفاع الانجليزية . . فيهرع هايج الى مكتبه قائلا جملته المعهودة : ان الموقف ليس من الخطورة ولا هو من السهولة بالقدر الذى تنبىء عنه التقارير الاولى . . ويترك تشرشل وحده ليتم قهوته . فيشربها تشرشل بسرعة ، ثم يتجه صوب مركز القيادة الانجليزية متسائلا عن حقيقة الموقف . فيعرف ان الفرنسيين قد عادوا فردوا الزحف الالمانى

ويمر شهر آخر . واذا بالفرنسيين يعلنون نبأ كارثة جديدة . الزحف الالمانى الهائل الذى كان قد تنبأ به بتان من قبل . ويتراجع الفرنسيون بسرعة أمام ضربات لودندروف الماحقة . وينذر الموقف بالخطر الشديد . ويتهامس القواد الانجليز بأن باريس مهددة بالسقوط . ويكادون ينتهزون الفرصة ليقولوا ان الجيش الانجليزى ليس هو وحده الذى يذوق مرارة الانهزام . . وتشرشل الذى طالما آنس من بتان شيئا من الاستهزاء بالحملة البريطانية ، يود لو يلاقى غريمه ليقول له كلمات معينة أعدها له . ولكنه يؤثر الصمت ، فالموقف ليس موقف تفاخر ولا تنابذ بالالقاب . ان الموقف جد خطير

ويكاد زحف لودندورف الساحق يحيل الموقف الى هزيمة ساحقة تعيد ذكرى سيدان وسقوط باريس . لولا وصول الجيش الاميركى فى اللحظة التى كاد الفرنسيون يقولون فيها : كفى . . لم تعد تجرى فى عروقنا دماء ! . . الجيش الاميركى بجنوده الفتيان الذين لم يكتمل تدريبهم ، وكان هذا وحده كافيا لجعلهم من أكفأ الجنود ، فسخاء الجندى (الخام) بالدماء أجود من سخاء المدرب المحترف ! . وفرنسا كانت تريد دماء جديدة لتسفك ، لا مواهب لتتجلى . دماء تغرق لودندورف وجنوده الجرمانيين فى أنهارها

ومرة أخرى يعبر تشرشل المانش الى فرنسا فى ٨ يونية . فيجد فرنسا التى تجود فى الصيف بأجمل ما عندها من نبت وأثمار ، تجود بآخر قطرات من دمائها القليلة الباقية . . ويكلم الضباط والجنود تختبرا قواهم المعنوية ، فيجدهم مرحين ، هادئين ، لا ينظرون الى الغداة التى سينقلبون فيها الى لحودهم مصابين مهشمين ، ولكن يتمتعون بما يتيحه يومهم من دقائق طيبة أو ساعات . . ويزور معامل الذخيرة ومعظمها حول باريس . فيتساءل : ترى ماذا تكون الحال لو سقطت العاصمة الفرنسية ؟ أتذهب كل هذه المعامل معها ، ومن أين يمكن تموين الجيوش بالذخيرة . . حقا ان سقوط باريس هو الكارثة التى تودى بالحليفتين الى الدمار

ولكن الاسابيع تتوالى ولا تسقط باريس . ويعود تشرشل الى فرنسا ليزور عماله ومصانعه . انه ليس رجل حرب ، ولكنه فى الحقيقة روح الحرب ، غذاء الحرب ، نار الحرب . . انه يورد للجيوش الفولاذ والفحم ، والبترول ، والنترات ، والبنادق ، والمدافع ، والغازات ، والدبابات ، والطائرات . .

ويقابل مانجان الذى عرفه قصابا من قبل لا يحسب للارواح حسابا . مانجان الذى أعادوه الى الجيش ليقود طليعة الزحف الفرنسى الذى كان آخر ما فى طوق فرنسا تقديمه . وما يكاد مانجان يراه حتى يهتف : ان فوش وضع الخطة وغورو أدخلها فى حيز الامكان . ثم وكلوا الى تنفيذها ..

وسرعان ما تصل المدفعية البريطانية الى أقصى قوتها . وكذلك سلاح الطيران . وتشرشل يمد هذه وذاك بغذاء يعجز هندنبرج ولودندورف عن تقديم مثله . ويكتب فى ٢٠ سبتمبر : استمروا على خطتكم هذه وأنا ضامن لكم انهيار المدفعية الالمانية . اننا الآن فيما أعتقد قد أوشكنا نبلغ مرحلة الحرب الاخيرة ..

ويتوالى الهجوم الفرنسى الانجليزى الاميركى بأقصى عنف وشدة وتضحية . ويزحف الحلفاء شمالا من خلال غابات بيكاردى وشمبانيا ويزحزحون العدو من الارض الفرنسية فيا للمعجزة !

وفى ٢٧ سبتمبر تنهزم بلغاريا وتتوالى الانباء بقرب انهيار الميدان الشرقى وبعد بلغاريا تنهار النمسا ..

وفى ١١ نوفمبر يسمع نبأ هائل : فرار القيصر ولهلم ، وانهيار المانيا ..
أى والله المانيا الكبرى تخر صرعى وتضع نفسها تحت رحمة الحلفاء !

ويكون تشرشل اذ ذاك فى لندن مطلا من شرفة مكتبه على ميدان ترافلجار . فلا يكاد يصدق ما رأى

أهكذا تنهار المانيا اللدود أخيرا ويفر القيصر !
يا الله ....

ونستون تشرشل يقف مطلا على الميدان . ويرى الجماهير المحتشدة ويسمع تهاليلها وهتافها : ليحفظ الله الملك .. وتقرع أذنيه أجراس الكنائس معلنة النصر .. وتتخايل الصور أمام ناظريه : صور أبيه وأمه والمدرسة والجيش وكوبا والسودان والهند . صور ماضيه الحافل بالاعمال الجسام والصدمات الماحقات . صور الدردنيل والميدان الغربى وبحار الدماء والاشلاء . صور جوفر وهايج وبتان وفرنسا . ثم يفكر فى الثلاثة الملايين من العمال الذين حشدهم فى المصانع لانتاج غذاء الحرب وأوارها ..

أحقا انتهى كل ذلك وزال الكابوس الالمانى الرهيب ؟

وتدخل عليه زوجته فيقبلها فرحا ويهرع معها الى رئيس الوزراء ليهنئه . فيمران وسط الجماهير المهللة وهى تبكى من فرط السعادة والتأثر .. فيبكى معها ويقول : « وسمعت هتافاتهم وفى نفسى عواطف شتى يعجز القلم عن تصويرها .. هتاف الانجليز الابطال الذين تحملوا كل شىء ، وجادوا بكل شىء ، وما ترددوا قط ولا تقاعسوا ، ولا ضعف ايمانهم فى وطنهم وما يخبىء لهم المستقبل .. »

الويل للمغلوب ...

- ١ -

ماذا جنى الغالب فى هذه الحرب الشعواء ، وماذا خسر المغلوب ؟

ان الغالب جنى القتاد . والمغلوب لم يجن ما هو أسوأ من القتاد

ان الغالب شلت حركته من الضربات الماحقة التى أصابته . وعميت عينه من فرط ما نزف من دم رأسه . ولم يعد يفكر — وأنى له التفكير ! — الا فى الانتقام . الانتقام الوحشى من العدو الوحشى . الانتقام بدرجة لا يعود معها العدو قادرا على معاودة الحرب من جديد

ولم يعد فى فرنسا نمر واحد هو كليمانصو . ان كل فرنسى — ولم لا نقول كل انجليزى أيضا — انقلب الى نمر جريح . وما أبشع وثبة النمر الجريح !

وفرنسا بصفة خاصة هالتها فداحة الخسائر لهزيمة الالمان . فرنسا هذه دخل الموت كل بيت فيها ، وكل مخدع .. وهول الحرب تملك الاصلاب نفسها فما عادت تتدفق بماء الحياة . ولماذا ينجب الفرنسى ؟ ولماذا يكون كل شاب فرنسى أبا ؟ أللحرب الضروس التى ستجيء لا ريب فيها يقدم الآباء طعاما ؟ ولقد كسبوا الحرب أجل . ولكن بمعونة هائلة من الاميركيين ، وبمعجزة من معجزات القدر . فهل تتكرر المعجزة فى كل عصر من العصر ؟

ولقد وقف جهاز الحرب لا شك وتحطم . ولكن كان على جبابرة الحرب ألا يحطموا لها جهازا ، بل يشنوها شعواء لا ترحم ، على الانانية ، على الجشع ، على الانتقام أخذا بثأر كفته ويلات الحرب دية وثأرا .. على الشيوعية التى تمخضت بها الروسيا المهزومة والتى هبت على أوروبا جامدة كريح الشتاء ، نارية كهبيب السموم فى الفيفاء .. نعم كان على لويد جورج وكليمانصو وولسون وتشرشل وكل هؤلاء ان يشنوا على كل هؤلاء حربا أشد هولا من الحرب العظمى . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث . فكان السلام وبالا على الغالب والمغلوب ، والسالب والمسلوب !

ان أوروبا كلها غدت سفرا من الرجولة ، والصبر ، والشجاعة ، وروح العدالة . كل أولاء استنزفتها الحرب الضروس . فواأسفاه !

وتشرشل يقف فى فبراير عام ١٩١٩ يقول : « إن عظمة الشعوب تتجلى فيما يمكن ان تصنعه فى اعيائها ونصبها » . ذلك ان أمجد ما كانت تنتظر الانسانية المعذبة من لداة الحرب

أن يوقظوا الفضيلة التي نامت وبدت عليها علائم الموت طوال أربع سنوات قاسية باغية ..

وتشرشل مخلص فيما قال . لا حبا في الالمان ولكن عقلا وبعد نظر . والا فما معنى بقاء الحصار مضروبا على ألمانيا بعد الهدنة في انتظار البت في مصيرها ؟ وهل كان معناه الا تعمدا مع اصرار على اذلال المغلوب ، وتجويع المغلوب !

وتشرشل كان الوحيد بين عصبة الظافرين اذا رأى جائعا قال : أطعموه .. أو عاريا قال : أكسوه .. ولكن حصار التجويع والتعرية والاذلال دام ثمانية أشهر طوالا . فما أبشع ظلم الانسان لاخيه الانسان !

وفي انجلترا أفضت الهدنة الى انتخاب برلمان ينادي بالثأر من المغلوب ، والى وزارة تنادي بسحق المغلوب . ولا عجب . فالشعب كله يصرخ من صميم قلبه وأعصابه ان درس الحرب كان أليما ، فلا تدعوه يتكرر ..

ونستون تشرشل وحده ، أجل وحده ، يقف في وجه هذا التيار الصاخب وكلمته العظيمة على شفتيه : ايها الناس .. هل عولتم على الانتحار ؟

وكالنافخ في عاصفة شديدة الهبوب ضاعت انفاسه ، واحتجب عن المنادين بالثأر هديه ونبراسه

ان المنتصرين لم يكونوا مستعدين لسماع مثل هذه الاقوال . انهم كانوا يريدون من زعمائهم ونوابهم أن يقولوا لهم : اننا انتصرنا واننا سننتقم .. وان يمجدوا العمل الضخم الذي قاموا به ، والضحايا التي قدموها على مذبح الديموقراطية . أما المغلوب ، فالويل له والثبور ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

— ٢ —

وفي ١٩ يناير سنة ١٩١٩ ينتقل تشرشل الى وزارة الحرب والطيران . ويروح يحلم : ماذا على ولسون لو انه أصر على فرض مبادئه الانسانية .. وماذا على كليمانصو لو انه عول على كسب ألمانيا كصديقة بمعاملتها معاملة المحارب الذي غلب على أمره فاستحق الرأفة والصفح ؟ وماذا على لويد جورج لو انه أودع العقل السليم في جسم الديموقراطية الظافرة ؟ ثم ماذا عليهم جميعا لو أنهم جاءوا بفوش وكل عبقري من عباقرة الحرب وسألوه بكيف نطهر روسيا من وطأة البلاشفة السفاكين .. وجاءوا بألمانيا وسألوها ان تساهم معهم في انهاض أوربا من كبوتها وخلق عالم جديد .. ثم جعلوا عصبة الامم مجمعا انسانيا عاليا للسلام والعدالة والطمأنينة والرخاء ، وجعلوا في طوقها وحدها ان تحشد الجيوش وتستخدم العلم والفنون العسكرية في وجه كل مستبد جديد يحاول ايقاظ الفتنة النائمة ؟!

لك الله يا تشرشل يا رجل الاحلام .. ثم ماذا ؟

« ثم استيقظنا من حلم الهدنة .. » على حد قوله هو : « فوجدنا انفسنا ما نزال نخوض

فى المياه الراكدة ، الداكنة ، المره ، الجليدية ، التى ما نزال نخوض فيها الى الآن ..»

لم يبق اذن الا الاعتكاف ونبذ هذا التيار الجارف الذى يتدفق على غير هدى ويرتطم بالصخرة الالمانية محاولا تحطيمها نهائيا .. فانطوى وزير الحرب على نفسه ، واكتفى بصداقة حبيب قلبه الايرل أوف بركنهد وزير المالية ، وزمالة كرزون وبلفور واوستن تشمبرلين وهربرت فيشر ، المؤرخ النابغة الذى طبع مناقشات الوزراء بطابعه الجامعى التاريخى .. وظل على ذلك عامين كاملين . ثم انتقل الى وزارة المستعمرات

وعند ما ينحل عقد الوزارة الائتلافية ويتقدم لويد جورج الى الانتخابات عن حزب الاحرار ، يتقدم تشرشل معه عن الحزب نفسه ! ولكن الاحرار كانوا قد فقدوا مكانتهم لما أصاب وزارة لويد جورج بعد الحرب من نقد وما لقيت من مصاعب فى حل المشاكل الاوربية ، ثم فى حرب الروس البيض ضد البلاشفة ، وأخيرا فى موقف انجلترا من تركيا الجديدة التى أفاقت من ضربة الحرب بسرعة وبعثت بعثا جديدا فصدت اليونانيين الذين هجموا عليها وقذفت بهم الى البحر .. وتشرشل نفسه كان مريضا اذ ذاك . فسقط فى الانتخاب عن دائرة دندى . وانك ليغمرك التأثر حقا لو انك رأيته وقد أصابته الضربة الجديدة فى الصميم . فقد رأى ان نجم طالعه آخذ فى الافول

« وفى طرفة عين ، ألفيت نفسى بلا وزارة ، بلا مقعد فى مجلس العموم ، بلا حزب ! » وتساءل : أفى الثامنة والاربعين من عمرى ، وبعد كل هذا الجهاد الذى جاهدت ، اخرج من الحياة صفر اليدين !

ثم ان انجلترا فى عام ١٩٢٢ وما بعده لم تعد انجلترا التى عرفها وساهم فى وضع قواعدها . انها غدت مسرحا للتناحر الحزبى على مسائل تافهة ، وظهر دعاة الانقسام وتجار الكلام ، وانتهزوا الفرص الكثيرة ليباعدوا بين احزابهم ومثلها العليا . فلينبذ تشرشل كل هذه الاحزاب حتى تعود الى صوابها . ان الجيل الجديد الذى ولدته الحرب قد هبط مستواه الخلقى والمثالى . والكثيرون من رجال العهد الماضى قد اندفعوا مع التيار . اما هو فلن يندفع معهم ..

انه يحزم حقائبه استعدادا للرحيل الى شواطىء الريفييرا .. فهناك على الاقل الشمس والضياء والطبيعة الصارخة الالوان يقبس منها ما يريد بفرشاته ويرسم لوحات تسلية وتعزية .. اما السياسة ، السياسة القذرة الهوجاء ، فهو يهجرها مليا ..

ثم يعود الى بلده بعد عام فى خريف ١٩٢٣ ويشترك فى الانتخابات الجديدة ، فيفشل فيها أيضا . ويكون لهذه الصدمة الثانية وقعها الأليم جدا فى نفسه الشاعرة . فيقف مكانه حيث هو ويحاول ان يسترجع ماضيه ويناجى حاضره ومستقبله ، ليعرف هل هو حقا ما يزال يعيش مع العصر ، أم انه مات واندثر كذلك الجندى المجهول الذى لحدوه ، ومجدوه حينا ، ثم نسوه ..

فيتساءل : ما هو لونه السياسى ؟

انه حر من الاحرار . ولكن أين هم الاحرار ؟

لقد اندثروا أو كادوا . والمحافظون الآن اقتربوا من مبادىء الاحرار فى جوهرها . ولولا هذه الحماية الجمركية لكانوا هم الاحرار اكثر من الاحرار . ان تطور الحوادث والنظم الجديدة التى تمخضت عنها الحرب قد ساقت المحافظين معها فلم يعد لهم من المحافظة الا الاسم . اما الاحرار فقد اندفعوا فى تيار اشتراكى لا يكاد يفترق عن البلشفية . والبلشفية يمقتها هو أشد المقت ويعد نفسه نذرسا هيأته الاقدار لمحاربتها . فليتقدم اذن الى دائرة وستمنستر كدستورى حر يعطف على حزب المحافظين اكثر من غيره من الاحزاب . فيضمن مساعدتهم المعنوية . ويعود الى مجلس العموم حيث يلعب دوره الجديد ، دور الانجليزى الصميم الذى يعمل على اعادة انجلترا الى صوابها ، والسير بها نحو شاطىء النجاة وسط عواصف أوربا الهوج

ولكنه يسقط أيضا فى هذه الانتخابات الجديدة . فكأن الاقدار قد قضت عليه ان ينضم الى المحافظين من جديد . وعلى ذلك يدعوه الحزب الى الالتحاق به ، ويقدم له دائرة مضمونة فى انتخابات سنة ١٩٢٤ هى دائرة « ابنج » فينجح فيها . ويدخل وزارة بلدوين كوزير للمالية فى نحو الخمسين من عمره . ويظل فيها خمس سنوات . وبهذا يعود الظاعن الى أهله ، والشريد الى وطنه . أليس هو قد بدأ حياته السياسية محافظا ، كما كان أبوه من قبل محافظا أيضا ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

— ٣ —

فى تلك الاثناء يموت أحد أقاربه فيرث عنه ارضا تغل خمسة آلاف جنيه فى العام . وتموت أمه جينى الحسناء قبل أن تضيع الشيخوخة الهامدة معالم حسنها الاخيرة .. تموت الزهرة العبقة ذات الجبين الذى تكلله غدائر الشعر المتهدلة تتألق وسطه النجمة الماسية الشعشاعة .. تموت فتخلف فى قلبه الحسرة على أمومتها وعلى جمالها الذى خلب الباب الانجليز . ويرث منها ما يزيد فى دخله . ويرث ما هو أثمن من كل ذلك : رداء أبيه المخملى الاسود المقصب الذى قدم به الميزانية ابان وزارته للمالية ، فيلبسه تشرشل ليقدم به خمس ميزانيات متواليات

ويحس تشرشل بالرغد الذى هو فيه . فيشترى بيتا فى لندن ، وآخر فى كنت يسميه « تشارتول جرانج » . ويقضى هنا وهناك أياما وليالى يمثل فيها الحياة الانجليزية الرفيعة التى تعود بالاذهان الى عهد فكتوريا الذهبى .. حياة يقف فيها تشرشل بن اللورد راندولف وحفيد دوق مارلبرو رمزا للسيد الانجليزى الجنتلمان

وتنقضى سنو وزارته الخمس . فلا يعود تشرشل الى الوزارة زهاء عشر سنوات أخر ! انه يحتفظ بكرسيه فى مجلس العموم . ويعتمد على مكانته المغلمى فى بقائه محافظا حرا ،

لا يندفع وراء الاحزاب ولكن يزن الامور بميزان الحكمة والحنكة والتجارب ، وله من القدرة الخطابية التميستوكلية ما يستطيع به ان يغير من اتجاهات المجلس

وفي غير أوقات العمل الملح ، وعند ما يريد الخطيب الحار ورجل الدولة الجبار ان يهدأ قليلا ، نجد تشرشل سيدا من سادة القرون الوسطى فى قصره فى « كنت » ، يشرب ، ويدخن سيجار هافان الفاخر ، ويكتب ، ويملى على سكرتيريه السنة .. يملى ذكرياته ، ومؤلفاته فى التاريخ ، والادب ، والسياسة . ويرسم بريشة الفنان الموهوب .. وتجده بناء يضع الحجر فوق الحجر واللبنة فوق اللبنة . وبستانيا ينبت الازهار ويتعهد المروج الخضر ويحفر الغدران والبحيرات وتنبثق من بين أنامله النافورات

والطريق الى قصره الريفى جميل ، شعرى ، تكتنفه الحدائق والغابات وتسقسق العصافير وتغرد الاطيار . غابات رطبة غزيرة الانبات تتراوح اشجارها قصرا وطولا ، ابتنها الطبيعة الصناع ، فجمالها أخاذ وسحرها نفاذ

وفى الطريق لا ترى سيارات ولا شيئا من صنع المدنية المادية . كل ما تراه دواب تسعى وأخرى على العشب الندى ترعى ، وثمة فارس ممتط صهوة جواده ، ومركبة تجرها الخيل يتنزه فيها رواد المكان الشعرى،ضاحكين،مرحين ، فالبقعة كلها قد اختلسها تشرشل من العالم المادى الصخاب اختلاسا فلا هى منه ولا هو منها . ولو ان شاعرا رآها خلدها فى قصيدة من روائع آياته

وتلتوى بك الطريق فجاة فاذا بك امام قصر تشرشل ، كأنما انشقت الارض وبرز من جوفها على حين غرة . قصر نبتت حوله الاعشاب وسمقت الاشجار . والورود المتسلقات تشبثت بكل ما نتأ من الجدران فاكسبتها جمال الريف الانجليزى البديع

ويفد عليه رسام امیرکی - ولندعه مستر وولف مثلا - ومن ذا الذى يفد على مثل هذا المكان الا الرسامون والشعراء والفنانون .. فيستقبله رئيس الخدم فى ثياب من المخمل الجميل . فيطلب اليه أن يقوده الى سيد القصر . فيسأله الخادم أهو على موعد مع سيده ، معتذرا بانه فى الجانب الآخر من الحديقة يضع تخطيطا لبحيرة جديدة من بحيراته ، وهو يخشى ان يترك سيده مباهج أعماله دون ان يكون على موعد مع الزائر .. فيقول الرسام ان سيد القصر ينتظره وهو معه على ميعاد . فيدخله رئيس الخدم الى حجرة الاستقبال ويذهب فى طلب سيده

وحجرة الاستقبال صغيرة مؤثثة بطراز جميل من الاثاث الريفى ، ونوافذها الفرنسية تطل على شرفة تفضى بدورها الى منظر ريفى ساحر يسيل له لعاب الرسام . وعلى الجدران لوحة لسيد البحار نلسون ، وأخر يظنها الرسام بريشة « سارجنت » وما هى بريشته

وبينما الرسام غارق فى تأملاته اذا بخطى سريعة تطرق أذنيه ، واذا بونستون تشرشل يندفع الى الحجرة اندفاع طفل يعود من اللعب

ولكن منظره لا ينبىء عن طفولة . فها هو سيد القصر في ثياب فضفاضة علق بها تراب الحديقة وعلى رأسه قبعة مزقتها اشواك الاغصان ـ يتمعن فى ضيفه بعينيه الزرقاوين الصافيتين ومن فوقهما تشرف جبهة عريضة ناتئة ، وشفتاه تنبئان عن عزم وارادة وقوة ، فالشفة العليا صغيرة دقيقة والسفلى ضخمة متراخية ، كأنما العليا تملى الارادة والسفلى تنطق بها وتفصح عنها

ولا عجب فهذا السيد الانجليزى من نسل جون مارلبرو تقمصته ستة أجيال أفضت مع الجيل السابع اليه . وهذا هو بعينه ونستون تشرشل الذى يئس أبوه من اصلاحه فى أول أمره وخشى ألا يكون فى مقبل الايام شيئا مذكورا . هذا هو بعينه خريج كلية ساندهرست الذى لم يلبث فى حياة الجندية الا قليلا حتى راح يقفز من انجلترا الى كوبا ، ومن كوبا الى الهند ، ومن الهند الى السودان ، الى الترنسفال . . هذا هو بعينه ونستون تشرشل الذى دخل مجلس العموم فتى ، ودخل الوزارة شابا ، وبنى لبريطانيا أسطولها الضخم فكان درعها وحصنها الحصين فى الحرب العظمى الاولى . . وهذا هو بعينه ونستون تشرشل الذى كان وما يزال رجل بريطانيا فى ساعات الخطوب . .

ويعجب الرسام لهذه الحيوية والحماسة والنشاط الدافق والقهقهة الصادرة من صميم القلب والبساطة التى تأخذ بمجامع القلوب والتى ترتسم أمامه فى حجرة الاستقبال الصغيرة فيحاول ان يوفق بين ونستون تشرشل رجل الحديد والنار وبين ونستون تشرشل الماثل أمامه بثيابه الفضفاضة المتربة وقبعته التى مزقتها الاشواك . . فيعجز عن التوفيق . .

ويدخلان مكتبة القصر ، غرفة تراكمت فيها قطع الاثاث العتيقة وتراصت الكتب ، تلك الصحائف العجيبة من صنع الانسان ، التى لو تمثلتها حية لوقفت تأمل فى بعث من الناس ونشور . وعلى الجدار لوحة كبيرة لسيد القصر بريشة الرسام أوربان . . . هنا يغوص تشرشل فى مقعد وثير وينطلق فى حديث ممتع عن نفسه ، عن مباهج حياته ، عن آثار ريشته ، عن آماله وأحلامه . ويتنهد لان الحياة الصاخبة لا تتيح له التوفر دائما على ما يحب ـ ان لم تكن أياما مختلسات يسترقها من دورة الزمن ليقضيها فى « كنت » بعيدا عن لندن ، عن مجلس العموم ، عن مؤامرات السياسة وختلها وبسماتها الصفر .

ويرمى سيد القصر ببصره الى الغرفة المجاورة فيشير الى لوحات معلقات هناك ويدعو الرسام الى مشاهدتها . فيمر بها الرسام متأملا معجبا . ثم يقوده مضيفه الى غرفة نومه التى تتألف من مخدع ومائدة بسيطة . فيرى معلقا على الجدار لوحة لامه جينى جيروم الاميركية ، ويتساءل : أهو جمال المرأة أنطق الرسام ، أم عبقرية الرسام انطقت جمال المرأة . . .

ويكلمه تشرشل عن الحرية والسعادة . عن أصحاب الملايين الذين يقطر العرق من جباههم فى جمع المال وما يدرون بعد كيف ينفقونه ليقتنصوا هذا الحلم الشارد : السعادة . .

ويقول : هأنذا لست من أصحاب الملايين وما خلف لى أبى ـ عدا خبوله ـ الا الاسى والترحم .. هأنذا أكاد لولا دنو شبح الحرب من وطنى أقول انى سعيد .. ألا ترى هذا الجدار الذى يسور جانبا من الحديقة هناك ؟ انى بنيته بيدى لبنة فوق لبنة،ووضعت تصميم كتابين من كتبى وأنا أبنيه ..

ويقوده الى ما يسميه « الاستديو » ـ قاعة عجيبة منزوية فى أحد أركان الحديقة ،يرى الرسام فيها أدوات الفنان وألوانه الزيتية وريشاته ، والنور يشع عليها من جهة الشمال. ثم يتكلم تشرشل عن أسرار الفن وعن أثر « الهيكل » والالوان فى مختلف اللوحات . ويقول انه اذا ضمن هيكل الصورة ودقق فى تصويره أفلتت منه بهجة الالوان بتحرك الشمس عن موضعها .. فاذا اقتنص بهجة الالوان قبل ان تفلت لم يدرك أثرها فى الهيكل وأشعاعها عليه. ومن أجل ذلك آثر ان يبادر الى اقتناص الالوان وأشعاعها ومواطن الظلال بضربات سريعة من ريشته ، فى الوقت الذى يلتقط فيه صورة الهيكل بعدسته الفوتوغرافية . فيتم التوفيق بين عنصرى الصورة وجوهريها ..

وفى المساء يجلس الصديقان على نور الثريات العتيقة يشع منها ضوء الكهرباء.ويروح تشرشل الفنان يعب من أجود ما تجود به بنت الكروم وينفخ دخان سيجاره فى الهواء، ويتأمل ، ويحلم ..

ولكن هل تراه سيظل فى جنته هذه وسط كتبه ولوحاته طويلا .. ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يقظان والناس نيام

- ١ -

عشرة أعوام كاملة لا يعود فيها تشرشل الى الوزارة . فلماذا ؟

السبب جد بسيط : فتشرشل كما قلنا رجل ضخم ولا تناسبه الا الاعمال الضخمة . وقد بنى لانجلترا أسطولها كما رأينا . واستعمل الدبابات بكثرة ومون جيوش الحلفاء حتى كسبوا الحرب . وبعد الصلح ماذا فى الجو الاوربى من أعمال ضخمة غير ما كان يجب عمله ولم يجرؤ على عمله أحد ؟ . .

وسرعان ما يقع ما لم يكن فى الحسبان . فألمانيا الذليلة الصرعى أخذت تنهض من كبوتها والضباط الألمان أخذوا يعملون سرا على احياء الجيش الالمانى المحطم . الجيش الذى ترك لهم هندنبرج خميرة صالحة له بتعجيله فى طلب الهدنة

وهذا البعث للجيش الالمانى يتم سرا ، بعيدا عن أعين الرقباء . فى السهول القصية ، فى الاحراش ، وفى كل مكان سرى ، كنت ترى ضباطا من جيش القيصر يدربون جنودا ويظهر فى ألمانيا جيش كثيف تحت ستار أسماء مختلفة ، كالحرس الوطنى ، ورجال الحفظ ، وما الى ذلك ، وفى الجو تحلق أسراب من الطائرات على اعتبار انها مدنية . وهل يمانع أحد فى أن تبنى ألمانيا أسطولا جويا تجاريا ؟ والشبيبة الالمانية يحببونها فى الطيران ، ويغمرونها بدعايات مؤداها ان المجد عمل للشباب هو الانخراط فى سلاح الجو والمصانع الالمانية كلها تعد بحيث يسهل تحويلها الى مصانع حربية . فضلا عن مصانع السلاح والذخيرة التى تعمل ليل نهار تحت الارض وفى وسط الغابات لانتاج الدبابات والسيارات المصفحة والمدافع والقنابل بكثرة لا يتصورها العقل . .

فأين كانت فرنسا وانجلترا طول ذلك العهد الذى ينذر بالشر كل الشر ؟ نعم ان الالمان تعمدوا اخفاء استعداداتهم . ولكن الجواسيس لا بد كانوا واقفين على بواطن الامور . أفلم يكن فرضا لازما على الحليفتين ان تحولا دون هذا الحشد السرى والتجمع الكثيف المخيف ؟

أجل . ولكن فرنسا وبريطانيا كانتا نائمتين . والنوم شأن الشعوب اذا انتصرت ، فربحت ، فشبعت . . ولا على العدو الجائع اذا راح ينهش من كل ما حوله . فغريمه الظافر يغط فى نوم عميق !

والى عام ١٩٣١ كانت وزارة ماكدونالد ما تزال تحلم بالسلام وتحسب ان عصبة الامم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وما يظللها من غصون الزيتون حقيقة وليست خيالا . وأدهى من ذلك ان تستعمل بريطانيا نفوذها فى محاولة انقاص التسلح الفرنسى ، فى الوقت الذى أيقنت فيه فرنسا ان عدوتها ألمانيا بدأت تتسلح ، وما تكترث بالجهر بهذا التسلح .. فهل عولت الحليفتان على الانتحار؟

ومن ثم يبدأ عمل تشرشل الذى يوصله فيما بعد الى رياسة الوزارة ، بل الى زعامة العنصر الانجليزى . فهو فى هذه الاثناء يأخذ على عاتقه تنبيه الاذهان الى الخطر القريب ، وينادى بأنعاف ألمانيا بحيث تعدل عن التأهب الحربى وترضى بنصفة الحلفاء . والا فلا محيص من وقوع حرب عالمية ثانية تكون أشد من الحرب الاولى هولا وتدميرا . ومن خلال ذلك تتبلور عواطفه الوطنية ، وكل عرق فيه ينبض بحب الكفاح ، وكل جارحة انحدرت اليه من آبائه الامجاد أو نبتت فيه طوال سنين عديدة قضاها فى خدمة الوطن والملك

بل ان الدور الذى يقوم به هذه المرة يكاد يكون فيه شىء من الالهام . الهام القلب النبيل والعواطف الوطنية السامية ، فى عصر كثر فيه الملهمون .. وتستمع اليه فتجد أقواله الشىء الوحيد الذى عليه مسحة من العقل والتدبر ، فى وسط هذا الطوفان الاوربى من المساخر التى تصدت لها عصبة الامم برجالها المرائين

وتسمعه يتكلم عن ضعف ماكدونالد وزير بريطانيا الاول اذ ذاك فيروى قصة لطيفة من ذكرياته أيام الطفولة . اذ أخذه أبواه ذات يوم الى « سيرك » ليقضوا مع ابنهما الطفل ثمة ساعات مسلية . فكان الشىء الوحيد الذى استرعى انتباه الطفل فى برنامج الالعاب مشهدا لرجل بلا عظام .. تشوق الطفل تشرشل لرؤية هذا الرجل ، وكيف يكون يا ترى .. ولكن أبويه آثرا ألا يرى ابنهما هذا المشهد الاليم ، فغادرا « السيرك » قبل أن يراه .. ويحدثنا تشرشل فيقول : « لقد انتظرت خمسين عاما لارى هذا الرجل الذى ليست له عظام » ! ..

وهناك فى ألمانيا يشرف هندنبرج على التسعين من عمره . هندنبرج بطل تاننبرج الذى أوهنت الشيخوخة من قواه فلم يبق له الا المظهر الفخم الرائع ، بينا راح من حوله من القواد يديرونه وفق هواهم ــ وماذا يكون هواهم سوى بعث ألمانيا ــ والشيخ بينهم ينظر ويتعجب ، ويتمنى من صميم قلبه لو يرى هذا البعث بعينيه الكليلتين ، ولكن آخرمايرى فى هذه الحياة !

وهناك أيضا فى ألمانيا ــ فى حانة البيرة فى ميونيخ ، يظهر رجل نحيل ، شاحب الوجه عصبى المزاج ، عنيف القسمات ، كث الشارب قصيره ، ذو خصلة متهدلة على جبينه ، ويقف وسط جماعات من فقراء العمال ولداة الحرب الكبرى خطيبا : بصوت حاد مدو وكلمات هستيريه ..

صوت لم يفطن اليه الالمان أول الامر ، الا قليلا منهم . وتسامع به الانجليز فلم يعيروه من الاهتمام الا بالقدر الذى يعيرونه لاى خبر عجيب عن ساحر فى أفريقيا أو فقير فى

الهند ! الا تشرشل ، الرجل الواقف لالمانيا بالمرصاد .. فانه يصيخ السمع ، ثم يقطب جبينه ويقول : هذا الصوت .. انه ينذر بهبوب العاصفة ..

وسرعان ما يعلو الصوت ويجلجل . فينساق وراءه الالمان زرافات زرافات فى بساطة ونظام وطاعة وخيلاء

وهنا يقف المؤرخ حائرا : ترى أهو هتلر الذى بعث المانيا ، أم المانيا هى التى أظهرت هتلر ؟ ومهما يكن من حكم التاريخ فمما لا جدال فيه انه ما من أحد فهم هذا الانبثاق الجديد على حقيقته أكثر من تشرشل ..

وهكذا تشرع المانيا من عام ١٩٣٣ تستعد للحرب . واستعدادها لا يقف عند المصانع الحربية وحقول التجارب والمعسكرات والمطارات ، بل ان المدارس ، والجامعات ، وبيوت الناس كلها تنقلب الى معسكرات للشبيبة واكنان للنشاط الحربى يلقنون فيها مبادىء الوطنية ويحقنون فى شرايينهم بحب المانيا وتمجيد الفوهرر .. وما يهل عام ١٩٣٥ حتى يكون الفوهرر قد تسلح أو كاد ، وتكون طائراته تملأ الجو بأزيزها ، ومياه البلطيق تماوج بغواصاته وقطعه الحربية ، ومصانعه تقذف بالدبابات الهائلة استعدادا لقلب الخطط الحربية رأسا على عقب ، وتحويلها الى حرب دبابات وكتل هائلة من الحديد ، بينا ظلت فرنسا تحلم بالخيالة وعربات الذخيرة تجرها الجياد والثيران !

— ٢ —

وتشرشل الآن يوشك أن يلج العقد السابع من عمره ، عقد الشيخوخة والراحة بعد النصب عند بالغيها من بنى الانسان . ولكنه يرى ان عليه واجبا ضخما جديدا يجب ان يؤديه ، ودنيا جديدة من الصراع تفتح أبوابها له ، وتؤثره على غيره ، فما من أحد يدرك خطورة الموقف غيره . فما أمجد هذه التضحية عنده وعند امثاله من العظماء ..

وعند ما يتربع هتلر على كرسى المستشارية فى ٣٠ يناير سنة ١٩٣٣ ، ينقلب تشرشل من معتكفه وقصوره وحدائقه وبحيراته وريشته ولوحاته ودنياه الجميلة ، مندفعا نحو مجلس العموم بكل قواه ، مطالبا بتأهب بريطانيا للدفاع عن نفسها بالتسلح اولا ، ثم بعقد تحالف قوى من الدول الاوربية يوقف هتلر عند حده ثانيا

لم يعد تشرشل بعد الآن ينادى بانصاف الالمان . فقد مضى زمن الانصاف وما أصاخ اليه أحد سمعا . ودنا زمن الطغيان وثوران البركان . فهو ينادى بوجوب تقوية الاسطول البحرى ، وانشاء قوة هوائية تبارى قوة المانيا النازية ، واعداد المصانع بحيث يسهل تحويلها الى مصانع حربية عند ما تتحرج الظروف . ويقول ان بريطانيا فى عام ١٩١٤ لم تهتم بغير الاسطول البحرى . اما الآن وقد ظهر الطيران أخطر سلاح فى الحرب الحديثة ، فلا بد لبريطانيا من اسطول هوائى أيضا ، والا لغدت — كما وقع بعد ذلك فعلا —

هدفا سهلا للطائرات تحوم فوقها كأسراب النحل وتهددها في صلب حياتها أخطر تهديد، وتصليها نارا وتخربها مصانع وديارا . ويتكلم عن فرنسا فيقف في وجه كل سعى في تخفيض تسلحها . وكيف يصح في الاذهان ان تخفض فرنسا من تسلحها وعدوها الاكبر مسلح من قمة رأسه الى اخمص قدميه ؟

ويروح تشرشل يدعو للتسلح في مجالس العموم ، متخذا حليفا له من بين الوزراء اللورد لندندري . ويحمل حملات كبيرة لايقاظ بريطانيا النائمة وحملها على انشاء سلاح طيران قوى . فيفشل فشلا تندم عليه بريطانيا أخيرا ـ ولا ساعة مندم !

ان رجالات بريطانيا كلهم نيام . والحكومة تستمد قوتها من الشعب . والشعب نفسه لا يريد الحرب ، ولا يطيق أن يذكر امامه أحد هذه الكلمة الممقوتة . ومستر بلدوين يصرح ان أية انتخابات تقوم على فكرة التسلح من جديد لن تجد من الشعب تأييدا ، بل تسقط الحكومة في الحال .. ومتى يحدث هذا ؟ في الوقت الذى يطلب فيه الشعب الالماني الحرب ، ويحب الحرب ، ويمجد الحرب ، ويقضى الايام والساعات على أحر من الجمر في انتظار الحرب !

ونستون تشرشل يتلفت حوله فلا يجد له سميعا ولا بصيرا . ويتكلم في مجلس العموم فلا يسمع الا سخرية وصفيرا . ويضرب المنصة بقبضته فاذا الضربة هواء ، واذا القضية ما فيها قبس من رجاء

وعلى عكس ما كان يريد تعلقت الآمال كلها بعصبة الامم السلام في جنيف : هذا الاثر المتداعي الذى غرر بالدنيا طويلا والذى لم يعد كما كانت الانسانية ترجو معقلا للسلام ولكن مباءة للمطامع الشعوبية والنفاق والرياء تحت نقاب العدالة والمساواة والتحكيم

وسرعان ما ينكشف الغطاء وتحتقر الشعوب المغلوبة على أمرها هذه العصبة المرائية المتداعية ، وتروح ايطاليا تتحداها وتثير حربا على اثيوبيا تبتلع فيها تلك الامبراطورية العتيقة المجيدة .. وحتى انجلترا وفرنسا تعقدان الصفقات الكبيرة خارج جدران العصبة تاركة لها اتفه الشئون . ومن ثم نرى اتفاق هور ـ لافال ، وارتماء فرنسا بين احضان البلشفية ، وكل هذا الغليان الذى شهدناه في ايطاليا واسبانيا وشعوب البلقان من جراء سياسات خرقاء ترتجل ارتجالا .. وأخيرا نرى هتلر يحتل الرين متحديا معاهدة لوكارنو فيبدو للعيان أن حملان فرساى : النمسا وتشيكوسلوفاكيا وبولندا وشعوب الدانوب ، قد دنا ذبحها .. ولكن انجلترا وفرنسا ظلتا نائمتين ، تحلمان بعصبة السلام وتعيشان في وادي الاحلام وجهاز الحرب الالماني يتأهب للضربة القاصمة القاضية ..

هنا لم يطق تشرشل صبرا وهب كالمحارب ساعة المعركة وقذف بكل قوته في طوفان جارف من المقالات للشعب ، والخطب لمجلس العموم .. هب يقول ان ساعة الفصل يجب الا تتأخر . وان انسب الاوقات لتلافي الكوارث القادمة هو الشروع في الحرب فعلا قبل

ان يتم اعداد جهاز الحرب الجرمانى .. هو جمع كل هذه الشعوب التى أصبحت مكشوفة أمام الغزو الالمانى تحت راية واحدة ، لوقف تيار جرمانيا المدمر .. ولكن انجلترا لم تكترث . وفرنسا احجمت عن العمل وحدها لعجزها عن التجنيد العام بسبب ازدياد قوة الشيوعيين . فانتهكت حرمة المعاهدات وكأنها لم تكن ، ولا هى سطرت بنودها على أوراق ..

وبعد ذلك تكفى خطبه لسرد حادثات هذه الاشهر القليلة التى بقت على اعلان الحرب . فلنستمع اذن الى تيمستوكل البريتون ، أو بالاحرى الى كاتو البريتون ، لنرى ماذا قال وماذا فعل ، وبأية معجزة توصل الى زعامة الانجليز فى بلد كان الى وقت قريب لا يطيق مجرد كلمة الزعامة والزعيم ..

٥ مايو سنة ١٩٣٨ : انه يتكلم عن المعاهدة مع ايرلنده ، فيقول ان فيها قوات خفية سوداء تعمل فى باطن الارض ، تعمل لضربنا من الخلف فى أحرج ساعات الصراع .. ان ٤٥٫٠٠٠٫٠٠٠ فم انجليزى يأكل مما تحمله السفن البريطانية المارة بثغور كوينزتاون وبيرهيفن ولوج سويللى الايرلندية ، فماذا تكون الحال لو اتخذها الالمان قواعد لهم واعشاشا لضرب التموين الانجليزى ضربات قاصمات ؟

٣-٩ مايو : هتلر يزور موسولينى فى روما . فيقول الخطيب الجبار ان عليه واجبا مقدسا هو ايقاظ وطنه ليقف وجها لوجه امام الخطر الماثل ، فيستعد لدفع الطغيان عنه ، وعن الدول الاخرى التى تتطلع اليه ، متعاونا مع جميع الديموقراطيات فى العالمين القديم والجديد .. ان ميزان القدر يتأرجح بعنف .. وأواه للمثل العليا كيف تنهار من عليائها ! وهذه الدول التى اجمعت أمرها على مبادىء عصبة الامم ، حنث بعضها بأيمانها ، وراودت أخريات أنانيتها واستسلمت لرجالها الطغاة المردة ، وشعرت دول بالوحدة والمسكنة بعد ما رأت قوتنا فى نجوة عنها فهوت الى درك الحقارة والمذلة والهوان .. فلماذا لا ننشىء عصبة أمم مثقلة بالسلاح لا تلين ولا تستسلم ؟! ان هذه الجزيرة البعيدة لا تكاد تحس بما حولها ، وبان حولها عالما قاتما تزأر فيه العواصف .. ففى الشرق الاقصى غول يلتهم شعبا صابرا باسلا كل ذنبه انه غير مسلح .. وفى أوربا رجلان دكتاتوران ، ذوا قوة خارقة ، يتعانقان تحت ظلال أطلال روما .. فهل يا ترى رأى هذان الرجلان من خلال مباهج اللقاء واعيادهما كيف رأى بلشاذار من قبل اصابع تكتب على الجدران بأحرف من نار ؟!

٢٥ مايو سنة ١٩٣٨ ... من منبر مجلس العموم : حملة شعواء من الخطيب الرهيب على الحكومة ، على تشمبرلين ، لانه لم يصنع شيئا يدفع عن انجلترا خطر الغارات الجوية ، فى حرب سيكون أرهب مظاهرها الغارات الجوية ... عن كل الامور تقولون انتم يا معاشر الوزراء : نحن مهتمون .. سننظر فى الموضوع بعين الرعاية .. وعند التنفيذ : لا شىء ! والا فلماذا فعلتم وقد بدأتم برنامج التسليح منذ ثلاثة أعوام ؟ ثم كيف تسبق المانيا الآن

الطائرات وعددا لا يحصى من قطع التغيير ، وتعد جيشا قوامه أكثر من سبعين فرقة بأحدث الاسلحة الميكانيكية ، ونحن لا طائرات عندنا ، ولا اسلحة ، وجيشنا المرابط في حالة يرثى لها ، وجيشنا العامل لم يكد يزيد نفرا واحدا ، ومدافعنا لا تزال تعد بالعشرات ، بينما ألمانيا أعدت في العام الماضي وحده ثلاثين وحدة متحركة تتألف من حوالى ألف وثلثمائة مدفع ، فضلا عن أربعة آلاف مدفع مثبت في الارض .. مدافع جديدة صنعت منذ عام ١٩٣٣ لا مخلفات صدئة من تراث الحروب الماضية !

٢ يولية سنة ١٩٣٨ . من منبر جامعة برستول : ان المدنية لن تدوم ، والحرية لن تعيش ، والسلام لن ينشر ظلاله ، حتى تتعاون الشعوب البشرية على حمايته ، معلنين عن وجودهم بقوة جبارة ترغم القوى المتبربرة ، قوى الجاهلية الاولى ، على الوقوف أمامها وقفة المشدوه !

وبقية يولية وأغسطس كلها جو مكهرب ، زيارة ملكي انجلترا لفرنسا ، مناورات المانية كبرى تستغرق نصف شهر ، الروسيا تعلن حمايتها لتشيكوسلوفاكيا لصد أي عدوان .

٢٧ اغسطس سنة ١٩٣٨ : ان خطر الحرب لن يزول حتى تخرج الجيوش الالمانية الضخمة .. ان حشد اكثر من مليون ونصف مليون جندي في قطر لا يهدده أحد ولا يخاف أن يغدر به أحد ، أمر جد خطير ! ان من الخطر المحتوم أن يكون المتحكم في السلام الاوربي رجلا واحدا . نعم ان الشعب الالماني لا يريد الحرب ، ولكن الطاغية الرجل الخارق للعادة ، الذي يتربع فوق قمة المانيا الكبرى ، هل هو يريد الحرب ؟ لقد انتشل أمته من وهدة الهزيمة نعم ، ورفعها الى أعلى درجات القوة نعم ، فهل يعتزم أن يضحي بكل ذلك ويدفع بأمته الى حرب ستتطور حتما الى حرب عالمية ثانية ؟ [illegible]

٢٨ ابريل سنة ١٩٣٩ : انه يخاطب الولايات المتحدة في اذاعة خاصة ، [illegible] ويدافع عن الديموقراطية ، ويطعن في الدكتاتورية ، ويحاول لفت انظار الرأي العام الامريكي لما هو آت ...

١٩ مايو سنة ١٩٣٩ : في خطبة في كمبردج : ان الظروف في ايطاليا والظروف في المانيا ، قذفا الى مسرح الحادثات برجلين دكتاتوريين ، ولقد حكما فيه لخير البلدين أول الامر . ولكن الاستبداد والطغيان وشهوة الفتح والسيطرة العالمية قد [illegible] الجيوش لوقف تقدم الحرية في العصر الحديث ، والآن [illegible] واستخذاء ، همت بريطانيا باعداد جيش كبير لمقاتلة الطاغيين ، [illegible] يسمع الاصم ، ونطق الابكم : فهل تعمل الحكومة [illegible] أوربا المهددة لوقف جحافل هتلر ، ومن ورائها الجيش الفرنسي [illegible] والاسطول البريطاني الذي اذا ضمن عطف الولايات المتحدة فهو أعظم قوة حربية لا تقهر .

وما تلك الدعاية الخبيثة التي تقول ان انجلترا ستحارب الى آخر جندي فرنسي [illegible]

ان محاولات الالمان لبذر بذور الشقاق بين الحليفتين التاريخيتين انجلترا وفرنسا سيكون فيها القضاء العاجل على بريطانيا لو تحققت .. فهل سيستمع اليها الفرنسيون ، أم تراهم يدركون أن مثل جزيرتنا التى لم تقف وجها لوجه امام قوة برية معادية فى أرضها منذ ألف عام لا تطيق التفكير فى اعداد جيش برى جبار ، ولكن فى طوقها اعداد اسطول بحرى جبار ..

٢٨ يونية سنة ١٩٣٩ : بقى على اعلان الحرب شهران أو ثلاثة ـ وقد كان ! ـ ونحن الآن أمام خطر محقق . فاننا عند ما اجتيحت تشيكوسلوفاكيا فى العام الماضى لم نكن ضامنى سلامتها . ولكننا الآن قد ضمنا سلامة بولندا وقررنا أعلان الحرب على ألمانيا اذا اعتدت عليها . فهل ثمة مفر من الحرب والعدو يواصل استعداده لاجتياح هذه الدولة البائسة بقوات ميكانيكية جبارة من الغرب ومن الجنوب ؟ انهم يقولون ان الحرب لن تعلن حتى يحصد الالمان غلالهم . اجل .. ولكن ماذا تكون الحال لو دخلوا الحرب قبل ذلك ؟ ان يولية واغسطس وسبتمبر اشهر رهيبة يجب ان نتأهب للقتال فى كل يوم منها . ولو ان كلماتى تصل الى اذنى هذا الرجل الذى قفز من عالم المجهول الى قنة المجد وفى يده مصائر الحرب والسلام لقلت له : قف ! فمن أدراك ان هذا البنيان الذى بنيت ، والمجد الذى شيدت ، سيذهب كله أدراج الرياح اذا كنت لا تعول الا على القتال والدمار .. ولطالما نادى جوبلز ودعاته بأن انجلترا وفرنسا لم تعودا تستطيعان القتال . ألا فليعلموا اننا لم نعلن الحرب الى الآن ـ لا لاننا جبناء ـ ولكن لاننا نألم أن يحيق بالانسانية الدمار من أجل نزوات جشع وشهوة .. لاننا نرى بأعين البصيرة مستقبل العالم متلألئا مفعما بالفتوح العلمية والثقافية لا فتوح الخراب والدمار . لأجل ذلك لم نحارب الى الآن .. ولكن ليعلم هتلر ان لنا برنامجين : فنحن نسعى فى تجنب الحرب ما وسعنا ذلك ، ونحن فى الوقت نفسه نعد انفسنا للحرب ما وسعنا ذلك أيضا .. ثم دعونى اتساءل : ماذا يريد هتلر ؟ أيريد ان ينفخ فى الدنيا كلها فيسفيها ؟ ان الكرة الارضية فيما اعتقد اثقل من ان تسفيها نفخة هتلرية .. ان رجلا فذا فى قوته يستطيع ان يولد انفجارا مدويا رهيبا . ولكن العالم المتمدن سوف لا يزلزله هذا الانفجار . ان شظايا هذا الانفجار قد ترتد اليه فتصرع المحيطين به قبل ان يختلج العالم أو يتزحزح عن مكانه قيد شعرة . ان المدنية لن تتعثر بعد الآن . وان الطبقات العاملة لن تستعبد . وأنا على يقين من فوز الديموقراطية فى حربها مع النازية ، ولكن بعد أهوال وكوارث جسام .. ولقد حسب هتلر اننا لن نحارب من أجل دانزج . وما هى دانزج ؟ أليست مدينة لا تقدم ولا تؤخر ؟ بلى .. ولكنها قد اصبحت الآن رمزا واحيطت الآن بهالة من تقديس ..

٢٨ اغسطس سنة ١٩٣٩ : انه يخاطب اميركا من خلال موجات الاثير ، ويهمس فى اذنيها : أن أنصتى يا اميركا .. ألا تسمعين ؟ الا تسمعين وقع اقدام مليونى جندى المانى

ومليون ايطالى يمشون بخطاهم الثقيلة على دقات الطبول ، طبول الحرب ؟! وماذا تصنع هذه الملايين ؟ انهم يقولون انهم يقومون بمناوراتهم السنوية . فهل سمعت يا اميركا عن مناورات تقام بملايين الجنود ؟

ان الدكتاتورين يمرنان جيوشهما . ولهما الحق كل الحق . أليست بلادهما مهددة (كذا !) من الهولنديين ، والبلجيكيين ، والسويسريين ، والالبانيين ، وكل هذه الشعوب (الجبارة !) .. ومن يدرى ، فلعل أمامهما (مهمة انسانية عظمى !) يلتمسان تحقيقها بالسلاح .. ألم (ينقذا !) النمسا في العام الماضى ؟ ألم (يحررا !) تشيكوسلوفاكيا في مارس الماضى ؟ ألم يمنح موسولينى الحبشة (الماجناكارتا !) الايطالى و (يحررها !) من نير ملك الملوك هيلا سلاسى ؟ ألم (يحرر !) البانيا أيضا ؟ وهلا يستوجب ذلك كله اعداد الملايين من الجنود ما دام الامر تحريرا فى تحرير ؟ وكيف لا تقف أوربا كلها محتبسة الانفاس متطلعة الى الشعب الذى (سيتحرر !) قبل غيره ؟!

يا اميركا يا بلد الديموقراطية والحرية : ان فوق قمة أحد الجبال فى المانيا رجلا فردا يستطيع فى يوم واحد أن ينقذ العالم من حالة الفزع التى تكاد تقتله ، ويستطيع فى يوم واحد أيضا ان يقذف بنا جميعا فى بركان من الدخان والنار !

فأى اليومين يا ترى سيختار : أيوم السلام والاستقرار ، أم يوم الدخان والنار ؟!

بلى ان هتلر الدكتاتور حزم أمره وعقد الرايات لفيالقه على يوم الدخان والنار

***

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ودارت عجلة الزمن دورتها السريعة التى نعرفها ونذكرها جميعا ، واذا بالحرب على الابواب .. الحرب الشاملة الدمار . حرب البوار . حرب الفناء . وأفاق البريتون من احلامهم ، والفرنسيون من أوهامهم ، وتشرشل يقول لكليهما : ألم أقل لكم من قبل ان الحرب آتية لا ريب فيها ؟

اجل . انه قال لهم ذلك . وبشرهم بالموت الذى سيأتيهم من امامهم ومن خلفهم وعن يمينهم وعن شمالهم فما يستطيعون له دفعا ولا ردا !

ألم يحذرهم عواقب الانتقام ، والطغيان ، وحبس السيول البشرية وراء كل عتيق ومتداع ومتهدم من الجدران ..

ألم يقل لهم : يا قوم لا تضغطوا على ألمانيا اكثر من اللازم ، فشدة الضغط آخر الامر تولد الانفجار !

ألم يقل لهم : يا قوم لا تجيعوا الالمان ، فعضة الجوع قد تدفع الجائع الى التعويل على الانتحار ، فاما الفوز بلقمة العيش ، واما الفناء

ثم ألم يقل لهم وقد عولوا على المضى فى طريقهم : يا قوم ان كنتم قد حزمتم أمركم

على قتال الالمان فلماذا لا تستعدون ، بل لماذا لا تستيقظون ، والعدو قد هب من رقاده وراح يفعل الاعاجيب ويأتى بالمعجزات فى عوالم التدريب والتسليح والتأهب للقتال باخطر فيالق ميكانيكية مصفحة ما كان يحلم بها احد ، وباخطر سلاح طيران يعد بالالوف وعشرات الالوف ما كان يتصور حشد مثله أحد . .

بلى . . انه قال كل ذلك . وضميره هو وحده ـ دون سائر الانجليز والفرنسيين ـ مرتاح لانه قال كلمة الحق . ولكن ماذا تجدى راحة الضمير وهذه هى الحرب البغيضة تعود الى أوربا ولما تلتئم جراحات الحرب العظمى الاولى ، ولا كف النائحون والنائحات عن البكاء على ملايين القتلى من ساكنى القبور . .

الحرب المخربة المدمرة التى قد تأتى بما عجزت عنه الحرب الماضية فى ابشع صورها وافظع ايامها وأشد اسلحتها هولا وفتكا وتدميرا

الحرب التى يتخيلها تشرشل فى هذه المرة فناء لا قيام بعده . .

الحرب التى قد تذهب بكل معالم المدنية بعد ان تشمل بنارها الكرة الارضية من اقصاها الى اقصاها

الحرب التى لا يمكن تصويرها الا بانها نقمة الله العلى القدير يسوقها الى بنى آدم عقابا صارما لهم على ما جنوا من سيئات وما اقترفوا من حرمات

فلتكن اذن مشيئة الله . ولن تكون الا وبالا على الغالب والمغلوب !

ولتدفع الاقدار بتشرشل الى المكان الذى تهيأ له فى مقعد قيادة جهاز الحرب الانجليزى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عود على بدء

- ١ -

الانجليز وحدهم يستطيعون ان يصفوا هزة الفرح التى شعروا بها بمجرد اعلان دخول تشرشل الوزارة التشمبرلينية كوزير للبحرية

نعم ان الاسطول كان قد تهيأ للعمل . وحمولته وعيار مدافعه وسلاح غواصاته وحاملات طائراته وكل مبتدعاته ومخترعاته كانت قد وصلت الى أوج الكمال . ولكن « عاملا نفسيا » كان يحدث الانجليز ان ثمة شيئا ناقص .. فماذا هو ؟

طال تساؤل الانجليز عن هذا الشيء الناقص حتى عاد تشرشل ربان الامبراطورية الأول ونبتيون البحار الى كرسيه الرجراج على صفحات الماء ، فاندفعوا كلهم يهتفون : هو تشرشل الذى كان ينقص الاسطول !

وبما يشبه السحر ، اطمأن الانجليز ، وهدأوا ، وتطلعوا فى أمل الى ربانهم الاول الذى عرفوه فى الحرب الماضية ماكرا ، عنيفا ، قاسيا ، لا يرحم !

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- ٢ -

وبدأ العدوان الالمانى باجتياح بولندا ..

وما كان أحد يتصور انه سيكون بهذه السرعة وبهذه المفاجأة . ولا تصور أحد ان يصاب الجيش البولندى فى الصميم من الضربة الاولى ، فتسحق مطاراته قبل ان يتهيأ للقتال . وتمحق جيوشه بسرعة وتتحطم فى أيام معدودات . وما كان يخطر ببال أحد ان تنتهز الروسيا التى طالما أمل الانجليز فى انضمامها اليهم فى الحرب ومساعدتها لبولندا فى ساعة المحنة ، هذه المباغتة فتطعن بولندا المسكينة من الخلف طعنة قاتلة ..

بريطانيا تهولها المفاجأة . ومجلس الحرب ينعقد كل صباح . ومجلس الوزراء يوالى الاجتماع تلو الاجتماع . وتشرشل يحضر كلا المجلسين . وفى الساعة العاشرة مساء يحضر مجلس الاسطول علاوة على ذلك ويباحث اميرالاته فى الموقف . ثم يظل الى ساعة متأخرة من الليل يصدر أوامره الى هنا والى هناك .. ثم ينام ساعات قلائل ليعاود العمل من جديد

أجل . ان وزارة تشمبرلين ضمت اليها عنصرا فعالا كانت فى مسيس الحاجة اليه .

فبانضمام تشرشل الى السير جون سيمون وصمويل هور واللورد هاليفاكس واللورد تشاتفيلد والسير كنجسلي وود والمستر هور بليشا واللورد هانكي والسير ادوارد بردج اكتمل لانجلترا مجلس وزراء من الطبقة الاولى من اعظم ما خرجت المدرسة الانجليزية في الحرب والسياسة . وتشمبرلين .. هذا الكاهن الاعظم لبريطانيا أمة الكهنوت ، بعينيه الحادتين المتألقتين كعيني النسر ، سره احتشاد هذا المجلس حوله من بعد ما رأى انهيار آماله وعظاته ..

وتشرشل من أول يوم يلج فيه باب وزارة البحرية يعود الى خطته القديمة التي بدأ بها الحرب الكبرى الماضية : اعني ضمان حرية البحار للاسطول البريطاني ، وحبس الاسطول الالماني في مياه البلطيق . ومهمته في هذه المرة اسهل من المرة الاولى، فالاسطول الذي بناه هتلر كان هزيلا . ولولا بوارج الجيب التي أسرع في بنائها قبيل اعلان الحرب لما كانت له قطع يعول عليها في القرصنة . ثم ان قنابل الاعماق سلاح مضمون النتائج تقريبا بالنسبة للغواصات . وها هو ذا في ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٣٩ يعلن في مجلس العموم ان خسائر البحرية الانجليزية كانت في الاسبوع الاول من الحرب ٦٥٫٠٠٠ طن، فنقصت في الاسبوع الثاني الى ٤٦٫٠٠٠ ، ثم الى ٢١٫٠٠٠ ، ثم الى ٩٫٠٠٠ طن ، « ولكن يجب الا نعول كثيرا على هذه الارقام المشجعة . ان الحرب ملأى بالمفاجآت الأليمة المفجعة »

وقد كان . وفوجيء الانجليز بأخبث عمل في تاريخ حرب الغواصات كله : تسلل غواصة المانية من خلال حقول الالغام في ميناء سكابافلو البريطاني ، وانفرادها بالبارجة « رويال أوك » وتدميرها بطوربيد موفق ، ثم تسللها مرة أخرى من خلال حقول الالغام وافلاتها من مطارديها بين امواج اليم ..

وثمة مفاجأة أخرى : افلات بارجة الجيب « جراف سبي » من الحصر البريطاني وبروزها الى عرض المحيط لتلعب في الاطلانطيق دور اسطول « جراف سبي » في الحرب الماضية

حادثان في منتهى الخطورة . فماذا يصنع تشرشل ؟ وأين هم اميرالات اسطوله ؟ وكيف تتسلل الغواصة الالمانية الى ميناء محصنة ان لم يكن في الامر خيانة عظمى ؟ وكيف تفلت « جراف سبي » من الحصار ان لم يكن هناك تقصير خطير أو خلل في الجهاز البحري ؟

ولكن كلا .. ان تشرشل لا يلبث ان يرتقي منبر مجلس العموم في ١٨ ديسمبر ليعلن نبأ يثلج صدور الانجليز . نبأ الانتقام لرويال أوك وكل ضحايا جراف سبي في الاطلانطيق فان الطرادة « اكستر » تلمح قرصانة البحار في فجر يوم ١٣ فلا تعبأ بضخامة عدوتها وعيار مدافعها الكبيرة بل تنشر حولها بسرعة ستارا من الدخان الكثيف ثم تدنو منها وتشرع في قذفها بالقنابل .. وسرعان ما يبادر الى نجدتها طرادان آخران هما « أجاكس » و « أشيل » . وتتملك حمى القتال أعصاب البحارة الانجليز فيطبقون على البارجة الخطيرة

بكل ما يجرى فى عروقهم من دماء نلسون ، ويصابون وتتهشم طراداتهم فى القتال ، ولكنهم يفوزون على بارجة العدو ويلجئونها الى ولوج ميناء مونتفيديو المحايدة وقد حاق بها عطب كبير .. ثم ينتظرونها خارج الميناء يومين كاملين تصلح جراف سبى فيهما من شأنها . ولكن هيهات ! فانها ما تكاد تغادر الميناء مرغمة على الجلاء حتى ترى خصومها رابضين لها بالمرصاد . فينسفها بحارتها نسفا بأوامر من هتلر ، ويعود قبطانها الى الميناء لينتحر كما انتحرت بارجته الحبيبة !

تشرشل يدلى بهذا النبأ الى انجلترا ، الى العالم ، فخورا بما صنعت يداه . فيهتز العالم الديموقراطى طربا ، والدكتاتورى أسى وجزعا ، ويبتسم الانجليز ابتسامة الظفر مطمئنين الى ان مقاليد الاسطول قد وضعت بين يدى بطل صنديد .. وفى تلك الاثناء يستقيل اللورد تشاتفيلد من منصبه كعميد لمجلس الحرب البريطانى فيحل محله تشرشل ويصبح عمليا صاحب الكلمة الاولى والاخيرة فى تصريف شئون الجيش والطيران والاسطول جميعا

وتدور رحى القتال الالمانى بسرعة ، فبينما الفرنسيون معتصمين وراء خط ماجينو وهم يحسبون انهم سيقضون ايام الحرب مدافعين ، اذا بالهجوم الالمانى يتجه فجأة نحو النرويج . ويقف تشرشل فى مجلس العموم فى ١١ ابريل عام ١٩٤٠ ليدلى بالنبأ الخطير . فالالمان قد اجتاحوا الدانمرك التى سلمت فورا ، وقبل ان يحاول الاسطول الانجليزى سد مياه النرويج برز الاسطول الالمانى من مياهه ، وانطلق بسرعة البرق فطوق السواحل النرويجية ، وملأها بالجنود والدبابات وغمرها بالطائرات ما بين عشية وضحاها .. وحاول الانجليز محاولاتهم التى تذكرها جميعا ، وسجلوا مشاهد عظيمة لاسطولهم المجيد ولكن العدو كان أسرع واحكم ، فضاعت النرويج وطوق شمال أوربا تطويقا نهائيا

ومرت أربعة أسابيع كانت وزارة تشمبرلين خلالها تترجح .. وأخيرا ، وفى ٨ مايو ، وقف شيخ الدبلوماسية تشمبرلين ، صاحب مواقف ميونيخ وبرخستجادن وحامل المظلة رمز السلام يرد الطعنات القاسية الموجهة اليه . ويعد المجلس بانه سيجعل من تشرشل دكتاتورا فعليا لجهاز الحرب كله .. تشمبرلين حامل لواء الكهانة الانجليزية كلها ، الذى لم يعد شعبه يطيق تحمله اكثر من ذلك .. انه جاهد من أجل السلام ، أجل . وادار جهاز الحرب فى خطواته الاولى ، أجل . ولكن الحرب قد دخلت فى مرحلة جديدة . الحرب التى تنذر بالانهيار ، والتى لا يتحمل اعباءها الا رجل جبار .. فليذهب اذن رجل ميونيخ وبرخستجادن ومظلة السلام ، وليأت تشرشل عدو الاوهام ليطبع الحرب بطابعه الدكتاتورى ، الفدائى .

ولقد قرأنا نصوص مناقشات المجلس طوال يومين عصيبين فلا موجب لاعادتها هنا . ولكن يكفى ان نقول ان تشرشل وقف يدافع عن رئيسه دفاع المستميت ، وكاد يخرج عن طوره فى اليوم الثانى من المعركة البرلمانية . والقى خطابا حوى من روائع كلماته ما هو

أهل له . وقال : « استأصلوا بالله عليكم ما كان بينكم من خلاف قبل الحرب ، وانسوا منازعاتكم الشخصية ، واختزنوا بغضكم كله ، وحقدكم كله ، للعدو المشترك . . وتجاهلوا الخلافات الحزبية . واشحذوا قواكم واقذفوا بكل ما فى وسع الشعب فى المعركة . فانى لست أذكر يوما من أيام الحرب الماضية كنا فيه أدنى الى الخطر واقرب الى الزوال مما نحن اليوم ! »

ولكن الشعب الانجليزى كان قد صمم على استبعاد تشمبرلين . فضاعت كلمات تشرشل فى الدفاع عن رئيسه هباء ، ودعى هو فى مساء يوم الجمعة ١٠ مايو سنة ١٩٤٠ الى قصر بكنجهام ، وقابل ملك الانجليز ، وخرج من لدنه رئيسا للوزارة ، ودكتاتورا للشعب الانجليزى . .

***

وتشرشل فى تأليفه وزارته . يبذل المستحيل لتكون ممثلة لمختلف احزاب البرلمان ، ومختلف نزعات الامـة . ويهم بمواجهة هتلر بدكتاتوريته الدستورية . . ولكن نسر برخستجادن يحزم أمره على عدوان جديد ، ففى فجر اليوم الذى يتسلم فيه تشرشل زعامة الانجليز ، يروح هو يهجم على هولندا والفلاندر ، ويحطم فرنسا بضربات ماحقات من طائراته ودباباته وسياراته المصفحة

فأى عبء فادح يقع على كاهل تشرشل المسكين وقد دنا من السبعين فى شيخوخته التى حرمته الحرب من التمتع براحتها

انه يقف فى يوم ١٩ مايو فوق منبر الاذاعة فيكلم شعبه لاول مرة كرئيس للوزارة ، فى ساعة حرجة من تاريخ بلده ، امبراطوريته ، حلفائه ، وفوق ذلك كله قضية الحرية . ان حربا هائلة تدور فى فرنسا والفلاندر . ان الالمان بقاذفات القنابل والدبابات الثقيلة قصموا خط الدفاع الفرنسى فى شمال خط ماجينو . وفيالق قوية من سياراتهم المصفحة تنتهب الارض الفضاء التى ظلت فى اليومين الاولين بدون دفاع . انهم توغلوا بعمق فى الارض الفرنسية وبذروا فى كل مكان بذور الرعب والفزع

ولكن يجب الا ترعبنا هذه السيارات المصفحة . قد تظهر المعجزة الفرنسية فى الساعة الاخيرة . وقد يقاتل الانجليز قتالهم المشهور فتنقلب الحال الى شىء من الصمود فى وجه العدو فينقذ الموقف

من الحمق اخفاء خطورة الزحف الجرمانى . ولكن اكثر حمقا الخوف والجبن ، أو الظن بأن جيشا مصفحا يتألف من اربعة ملايين جندى يمكن قهره فى بضعة اسابيع ، أو بضعة اشهر

ثم يطمئنهم . . لا تخافوا . ان قواتنا الجوية اوشكت ان تتعادل مع قوات العدو وسيأتى اليوم الذى ـ عندما تصل التجربة المريرة الى بلادنا ـ ستر تاح فيه ضمائرنا ونشعر

بالفخار لاننا نشارك فى الحرب ابناءنا الذين فى الجبهة الاخطار ، من كل جندى باسل وبحار عنيد وطيار ..

ان مهمتنا ليست كسب المعركة ولكن كسب الحرب . وبعد معركة فرنسا ستأتى معركتنا نحن . معركة جزيرتنا . معركة كل ما هو بريطانى ، وكل ما تعنيه بريطانيا . وفى هذه الحال لن نتردد فى اتخاذ اية خطوة ـ مهما تكن ـ لنطالب شعبنا بآخر رطل وآخر بوصة من الجهود التى فى طوقهم بذلها . ان حب التملك وعدد ساعات العمل ، ليست شيئا اذا قيست بالجهاد من أجل الحياة ، من أجل الشرف ..

ونحن الآن اذا كنا قد اختلفنا فى الماضى وتشاحنا ، فان رابطة واحدة تجمعنا جميعا ، لنشن الحرب شعواء حتى النصر ولا نستسلم ابدا للعبودية والعار ، مهما يكن الثمن ، ومهما تكن الآلام ..

ان هذه ساعة من أهول الساعات فى تاريخ فرنسا وانجلترا . وهى بدون شك أجل الساعات واسماها . وخلفنا ـ خلف الجيوش والاساطيل الفرنسية والانجليزية ـ تتكأكأ جمهرة من الشعوب المحطمة ، وعليها جميعا سيسجو ليل البربرية الطويل ، ليل لن يلتمع فيه كوكب واحد للأمل ، اذا لم ننتصر ، كما يجب ان ننتصر ، وكما سننتصر يقينا ..

تسلحوا .. كونوا ابطالا . وتأهبوا للقتال . فانه خير لنا ان نموت ونهلك من ان ننظر جامدين الى ضياع وطننا ، وهيكلنا ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تشرشل الزعيم

- ١ -

أحقا شعرت بريطانيا بعد ضياع حليفتها فرنسا بالخطر الداهم الذى يهددها بالزوال ؟ أحقا أحست هذه الجزيرة السعيدة التى لم تر جيشا غازيا منذ ألف عام ، والتى عاشت فى نجوة عن الاخطار التى تهدد شعوب أوربا باستمرار ، بأن الجرمان قد يدوسون بأقدامهم أرضها وينتهكون حرمتها وهم بلقاء عدوهم فرحون ، وبالسيادة العالمية مؤمنون ؟

أحقا آمنت بريطانيا بعد طول جحود وكفران بما كان يقول تشرشل طوال ربع قرن من الزمان ، عند ما راح يصيح بأعلى صوته : ايها القوم ! هل عولتم على الانتحار ؟

أحقا ندمت بريطانيا على ما فرطت ولات ساعة مندم ، ودعت تشرشل الى زعامتها وقد كاد صرحها يتهدم ، وقوتها تتحطم ؟

تشرشل الازرق العينين كزرقة أمواه البحر المالح . الناتىء الجبهة . الضخم الانف والفم والشفتين . الذى اذا التحى كان قرصانا من قراصنة عهد العصابات ، والذى يتألق كالنجم الثاقب فيعشى الابصار ، ويبعث فى القلوب الرواكد الهوامد الآمال الكبار ، ويتكلم بصوته العميق الزخار ، فيفتح القلوب بما يفتح غريمه هتلر المدائن والامصار .. تشرشل المارد الجبار الذى لا يقف الا فى وجه كل مارد جبار !

تشرشل الذى نال اعجاب هتلر نفسه اذ قال انه يؤثره — مع صراحته ومجاهرته بالعمل على القضاء على ألمانيا وعلى النازية — على سلفه تشمبرلين الذى يبدى العطف والمودة والانصاف والبر ، ويضمر أفظع عناصر العدوان والشر ..

تشرشل هذا الذى يعبده الانجليز ويمجده الامريكان : هل فى عظمته من شك ؟

انه بطل الانجليز . هذا الشعب الذى لا يمجد الابطال الا عند ما يهدده خطر الزوال فالانجليز شعب لا يطيق الابطال وان يكن يعبد الابطال . وكل رجل من رجالاتهم فيه ذرة من جوهر البطولة يتركونه همىلا بين الرجال ، لا يدنون منه ، ولا يستمعون اليه ، ويدعونه يحرق الارم من الغيظ ، حتى تحين ساعة الخطر الشديد فيدعونه من « منفاه الاجتماعى » ويولونه مقاليد أمورهم ويهيبون به : هات اقصى ما عندك من حرارة وتهور ، انك كنت فينا مغيظا ، فاحترق ، وتألق ، واندفع فى جنون ، وقامر بالهزيمة أو النصر ونحن وراءك ، فاما الى الصدر واما الى القبر !

أجل .. قامر بكل شىء .. اقذف العدو برجالك ، وعتادك ، وطائراتك ، واساطيلك .

أقذف في وجهه بالامبراطورية كلها . وأمطره وابلا من قذائفك وطرابيدك .. وحطم مصانعه ودمر موانيه ، وأوهن من قواه المعنوية وجاوبه على حرب أعصابه بحرب اعصابك وعلى خطبه بخطبك . وعلى دكتاتوريته بدكتاتوريتك . وعلى قرصنته بقرصنتك !

ولكن لا تنس انك لست تشرشل كما هو هتلر .. وانما انت بريطانيا ممثلة في شخصك المرعب .. بريطانيا التي كشرت عن انيابها في ساعة الهول العظيم . ولتنزلنك من مقامك في اللحظة التي تكسب لنا فيها الحرب ـ ان كنا سنكسبها ـ ثم نعيدك الى «منفاك الاجتماعي» لتحرق الارم كما كنت ، ليتولى مقاليدنا « الدبلوماسي » الجامد البارد الهامد الذي لا يعرف الصراحة ولكن يراوغ ، ولا البطش ولكن يلبس ثياب الحمل ، ولا الدمدمة ولكن يهمس بأعذب الالفاظ والاماني ، ليكسب لنا « معركة الصلح » كما كسبت لنا « معركة انجلترا »

أجل .. كأني بانجلترا تهيب برجلها تشرشل : انك ايها الرجل لا تخرج عن كونك أحد رجالاتنا الذين نهيئهم لامبراطوريتنا ، وأحد الحجارة التي نبني بها صرح قوميتنا ، واحد العجلات التي يدور بها جهازنا الجبار .. انك ايها الرجل لا تخرج عن كونك « ممثلا » يلعب دور البطل ، والزعيم ، والدكتاتور ، على مسرح طالما ظهر عليه «ممثلون» على غرارك من امثال كرومويل وولنجتون ومن عداهما من قائمة « ابطالنا » التاريخيين . فحذار ثم حذار ان تنسى دورك ، أو تأخذك نشوة الحماسة وحرارة التمثيل فتنسى انك « ممثل » وان الارض التي تمشي فوقها هي « خشبة المسرح » المتحرك الرجراج .. حذار والا اسقطناك من علياك ، وخسفنا الارض بخيلائك !

وكأني بتشرشل البطل ، والزعيم ، والدكتاتور ، يسمع كلام « ملقنته » بريطانيا ، ويوقن انها فيما تقول جادة اكثر من جدها مع هتلر ، مرعبة أكثر من ارعابها لهتلر ، فيدرك هو وحده البون الشاسع بينه وبين غريمه ، فهنا على صخرة بريطانيا يقف « ممثل » له كل الحول والطول والقوة ، وما له في عالم الحقيقة حول ولا طول ولا قوة ، وهناك في وكر برخستجادن نسر حقيقي هو « وحده » الحول والطول والقوة .. هنا فوق صخرة بريطانيا شبح يمثل دور الدكتاتور ، وهناك في وكر النسر رجل حقيقي ودكتاتور !

فأية تضحية عظمى يقوم بها هذا الرجل تشرشل

ان أول صفات الانسانية « الانانية » . كل انسان يقول « أنا » . وكل انسان يتعشق المجد وخلود الذكر . وكل انسان يتشبث بمقاعد الحكم وعروش الملوك اذا ما جلس عليها لحظة واحدة . وهذا ـ وغيره من الانجليز ـ لا يقول « أنا » قط ، ولا يمكنه شعبه من ذلك قط . يدعى الى الجلوس فيجلس . ثم يدعى الى القيام فيقوم . وقد يسخر الشعب منه بعد قيامه . وقد يسبه أو يلعنه . ولكنه لا يغضب ولا يقنط . وقد ينساه الشعب بعد هذه الحرب فلا تقرأ له حرفا ولا تسمع له صوتا . فهل تراه ينقم من شعبه أو يحقد عليه كما نفعل نحن معاشر الانانيين ؟ كلا ! انه يعود الى « منفاه » راضيا مرضيا ، ويقضي بقية العمر مطمئن البال مرتاح الضمير ، فقد أدى واجبه ، وسوف لا ينساه شعبه طويلا

فأجل النسيان الى موت الزعيم ، ثم يضمه التاريخ البريطاني الى عداد ابطاله الخالدين ..
وكأني بتشرشل عند ما ينساه شعبه بعد هذه الحرب يعود الى بيته فيدون مذكراته وخطراته ، ويرسم بريشة الفنان صوره ولوحاته ، حتى ترتعش يداه من أثر الشيخوخة فيستسلم الى مرحلة نهاية العمر ، وعلى ثغره ابتسامة القناعة والرضا والسعادة الروحية ..
في الوقت الذي يتحشرج فيه صوت رجالاتنا خارج الحكم بالقدح والسب واللعنات ـ لماذا ؟ لان مصر لم تقدرهم ولم ترفعهم الى مصاف الآلهة ..
فسبحان الله !

- ٢ -

ولكن لننس الآن أننا ازاء « ممثل » يلعب دوره على خشبة « المسرح البريطاني » . ولنفرض جدلا انه زعيم مفرد ، ورجل مطلق التصرف في مصائر الامبراطورية ، الجيش قبضته ، والطائرات زفيره ، وحمم الاسطول والغواسات خطبه المدمدمة ، والحرية البريطانية التي ذهبت مثلا في التقديس قد أحاطها بالاغلال .. نعم لننس « الممثل » ولنفرض اننا نتكلم عن « الزعيم » وعن « الدكتاتور » . فماذا نرى ؟

نرى رجلا في قوة هتلر . وعزم هتلر . ووحدانية هتلر . وقداسة هتلر

هتلر يقول من وكر النسر ببرخستجادن : أنا وحدي .. وتشرشل يقول من برج لندن : أنا وحدي ..

هتلر يهتف : زعيم واحد وشعب واحد .. وتشرشل يهتف : زعيم واحد وشعب واحد ..

هتلر يخطب ويجلجل بخطبه فيهز أعصاب الديموقراطية . وتشرشل يخطب ويجلجل بخطبه فيهز أعصاب الدكتاتورية

هتلر يصيح متوعدا بقبضة يده : لاحطمن بريطانيا اليهودية .. وتشرشل يصيح متوعدا بقبضة يده : لابيدن ألمانيا النازية !

وتشرشل هذا : ما هو ؟

هو زعيم أمسك بيمينه صفحة ولنجتون البرية ، وبيساره صفحة نلسون البحرية ، وعيناه تتألقان ببريق قراصنة البحر القدامى ..

يؤمن بالقضاء والقدر : ان يكن موتا وفناء لقد متنا كراما وفنينا ابطالا وهكذا شاء القدر . أو حياة ومجدا لقد انتصرنا بسواعدنا وبيد القدر ..

زعامته تتلخص في كلمتين : اثارة الرعب .. فالانجليز يجب ان يرعبهم ويفزعهم بعجلة النازية التي تهرس كل ما تلاقيه في طريقها . العجلة التي هرست بولندا وهولندا والبلجيك وفرنسا وكل هذه القائمة الطويلة من الدول . ثم هرست الروسيا ، وهي في طريقها الى الجزر البريطانية

ولكن حذار من الهلع الذى يطغى على التفكير وسلامة التقدير . اقلقوا ، وانهلعوا ، ولتنخلع قلوبكم من الرعب . ولكن حافظوا على سلامة تفكيركم ، واحتفظوا بألمعيتكم وجهازكم العصبى سليما وسط كل هذه الاهوال والهزائم

وأى جهاز عصبى ؟

الجهاز الذى قال عنه بلدوين انه أخص خصائص الانجليزى ، الذى يضحك والعالم كله عبوس ، ويهز اكتافه والدنيا ترتعد رعبا ، حتى اذا ماحاقت به الاخطار وابطل الضحك والاستهتار ، دخل المعركة بأعصاب كأنها ـ لسلامتها ـ فولاذ !

وبعد الرعب : الاندفاع الجنونى الى القتال . .

الاندفاع بدون تفكير ولا درس ولا تأمل . .

أهل انهارت فرنسا عضد انجلترا القوى وضاع الامل فى كسب الحرب ؟ أهل اعتقد العالم كله ان الخطوة التالية هى غزو بريطانيا نفسها ؟ اذن فلنحارب وحدنا . ولكن كيف؟ هذا ما لم يفكر فيه تشرشل أبدا . . اذن فلنقف فى وجه العدو وغزوه . . ولكن هل لنا به طاقة ؟ أجل ـ ولكن بدون تفكير ـ اننا سنقهره ونحطمه على صخرة جزيرتنا تحطيما . . وبأى جيش وعتاد ؟ أبالفلول الراجعة من دانكرك وقد قصمت الطائرات ظهورها ؟ لا . . برجالنا ونسائنا ، بشيوخنا وشبابنا وفتياتنا ، أن لم يكن لنا جيش معد للقتال . . وبكل ما تصل إليه ايدينا سنحاربه . فى البحر سنحاربه . فى البر . فى الجو . فى الحقول . فوق التلال . فى الشوارع . من فوق اسطح المنازل سنحاربه . . ان لندن وحدها تبتلع جيشا قوامه ثلاثة ملايين جندى ! . .

ولكن هل هذا معقول ؟

أجل . انه معقول . لان تشرشل الساحر يقول انه معقول . فنصدق انه معقول . ويؤمن العالم انه معقول . ويتردد هتلر فى الغزو لانه يخشى ان يكون هو وحده مخطئا والعالم كله مصيبا . فلا يغزو انجلترا ويضيع فرصة ذهبية للغزو بعد تحطيم فرنسا . وبذلك تنجو انجلترا لتستعد . ويربح تشرشل المعركة « بغير المعقول » !

ولطالما اتهمه أعداؤه ومنتقدوه بانه ضحل التفكير وانه بلغ مراتب العظمة بما يشبه ألاعيب الصبيان . وحاول اللورد اكسفورد ان يبرر قول الناس فيه « انه عبقرى مجرد من التفكير » . . أجل انه هكذا . بل انى أقول ان عبقريته هى فى غرائزه الحية قبل تفكيره . انه كالوحش الفتى المكتمل الحواس فى الغاب ، يشم الهواء بأنفه الحساس فيتلمس مكامن الخطر ، بحاسة الشم أولا ، وبغريزة البقاء ثانيا . وقد يكذبه الذين لا يؤمنون بدقة الغرائز البشرية . ولكن انبعاث الخطر بعد أمد طويل من المكان الذى توقع انه فيه يجعله بعد ذلك صاحب الكلمة الاولى والاخيرة

ان أعمق العباقرة تفكيرا لا يساوى قلامة ظفر اذا وقف فى الغاب جنبا الى جنب مع وحش فتى أو كلب من كلاب الصيد والخطر محدق به . والذى تحتاجه بريطانيا الآن

لم يعد الدبلوماسي الانجليزي المفكر ولا غيره ، ولكن الرجل الذي لا يمتد تفكيره الى أبعد من أرنبة انفه ، ولكن تمتد « حاسة الشم » و «الغرائز البهيمية» فيه الى ابعد مكامن الخطر . الرجل الذي لا يفكر ولا يقيس ولا يمحص ولكن يقول : نعم ! وليس في يده شيء يعطيه ، و : لا ! وما يكاد يكون لديه جيش ولا عتاد يحميه .. يقولهما بعنف ، بقوة ، بقسوة ، باندفاع ، بتهور ، بجنون !

ان « التفكير » في حالة الخطر الشديد التي حاقت بانجلترا عقب انهيار فرنسا ، كان يقضي بالاستسلام وطلب الصلح حالا ، قبل ان تنزل جحافل هتلر التي كسرت خط ماجينو الى الشاطيء الانجليزي نفسه . اما « عدم التفكير » واما الاندفاع الجنوني ، «الحيواني» فهو الذي انقذ بريطانيا ، وجعلها تحارب عاما وعامين والشعوب كلها تصطخب وتتهاوى وتزول ، حتى تنال ثقة اميركا فتمد اليها يد التحالف وتقاسمها مصيرها الذي اليه تسير .. وهو الذي يجعلها تحارب في أمة اليابان أيضا عدوا جديدا لا حد لقوته ، واستعداده ، وجبروته

- ٣ -

هاكم ونستون تشرشل كما يراه الانجليز . تعمدت ان اتحدث عنه على هذا الوجه لانصف الرجل أولا ، ولاطبع ما كتبت عنه بالطابع الذي يراه ابناء « البون » ثانيا ، فتشرشل ليس زعيما من زعمائنا ، وانما هو زعيم الانجليز ، ومن حق الانجليز ان يمجدوا من يرونه اهلا للتمجيد

وليس الفرق بين صورة تشرشل كما يراها الانجليز ، وصورته كما يراها غير الانجليز كبيرا ، ولا البون شاسعا :

فالانجليز يحبون في الرجل السذاجة ، والصراحة ، والايمان بشعبه ، وروح المغامرة وحب الكفاح . ويبعدونه كما قلنا عن الحكومة والحكم في سني السلام ، حتى اذا ما دخلوا غمار الحرب دعوه ، ومجدوه ، واتبعوه

وغير الانجليز يحبون فيه هذه الصفات نفسها . ويعجبون به اكثر من اعجابهم بسائر عظماء الانجليز المعاصرين . والصورة التي يصور عليها شعبه اذ يضعه في صفوف الشعوب المعتدى عليها تجعل غير الانجليز وبخاصة الاميركان يعطفون عليه وعلى شعبه المنكوب . وكلما بالغ تشرشل في وصف اهوال الحرب باسلوبه الفخم القوي الصارخ الزاهي الالوان ، وكلما هول في جبروت جهاز الحرب الجرماني ، والياباني ، واظهر شعبه في صورة الذي يوشك ان يغلب على امره ، ازداد عطف الاميركان وتحمسهم ظهورا ، ثم انطلقوا الى القتال معه بكل ما في عروقهم من دماء ، و كل ما في نفوسهم من استعلاء ، وكل ما في خلقهم من وفاء

ويقدر غير الانجليز تشرشل لسبب آخر لا يحتاج اطولا عرض وتحليل :

فتشرشل ليس هو انجلترا بحذافيرها . انه يمثل ناحية من نواحي العظمة البريطانية كرجل كفاح من الطراز الاول . اما ما يمثله بقية رجالات الانجليز من دعاة الامبراطورية والاستعمار فليس من تشرشل في شيء ، وكم من مرة تبرأ فيها تشرشل من اعمال من لا قلب لهم من المستعمرين أو المستبدين

ثم هناك هذا الشيء العجيب الذي ان شئت سميته بيانا ، أو شئت سميته سحرا .. هذا الشيء الذي يحرك العواطف ويثير الوجدان .. وهذه الخطابة القوية المؤثرة التي امتلك تشرشل ناصيتها فغزا بها القلوب ، والشعوب ..

هذه الخطابة كما قلنا ورثها عن ابيه . واضفى عليها من عنده صورا شتى لم تتيسر لابيه من قبل . صور العالم التي زارها ، والحروب التي خاض ميادينها ، والصدمات والمآسي التي لقيها في حياته الحافلة بالمآسي والصدمات

والخطابة عنده حرارة ايمان ، ونقاء ضمير ووجدان ، وصراحة ـ على حد قولهم ـ تتحدث بها الركبان ، بصوت عميق مختلج النبرات رنان

يرتقي المنبر ليعرض وقائع الحرب فيصدمك بما لا تتوقع قط ، ويتحدث عن الهزائم الماضية والكوارث المقبلة . ويقول ان الماضي كان قاتما والمستقبل سيكون اشد قتاما . وينعى على شعبه الاهمال ، والتكاسل ، والتفريط ، ويسم عدوه بالنشاط والتأهب للحرب بكل ما في وسعه من قوة . ويبالغ في جبروت العدو مبالغة لا تخطر ببال العدو نفسه اذا ما هم بالتحدث عن نفسه . وعلى هذا النمط يسير في خطابته وانت تحسب ان شعبه سيخرج منها مهدم الاعصاب ، مثقل الضمير ، واهن القوى نزاعا الى القنوط والتسليم ، فاذا بك ترى عكس ما تحسب وما تتصور : ترى الشعب بعد خطابه وقد نشط من عقاله وانحلت عقدته النفسية ، وبرز الى القتال كأنما لمسته عصا سحرية . وتلك هي بعينها الخطابة العبقرية

فما السر في ذلك يا ترى ؟

السر في ذلك ان تشرشل الخطيب يقول ما يهم كل الانجليز بقوله ، ولا يجرؤ أحد منهم على قوله ..

الانجليز كلهم يهمون بان يعترفوا بقوة عدوهم ، ونقص تسلحهم ، وثقل وطأة الحرب عليهم . ولكن أحدا منهم لا يقدر على الافضاء بما يعتلج في نفسه . الا تشرشل . فانه وحده يعترف بالنقص ، والتقصير ، وقوة العدو التي لا تقهر ، فينجاب الكابوس عن صدر أمته ، وينشط الكل الى اصلاح ما فسد من أمورهم

ـ ٤ ـ

وأخيرا ها هو ذا تشرشل ، في سذاجة البولدوج ، وانقضاض كلب البحر ، وسرعة النيزك ، وانفجار الديناميت ، وله بعد كل ذلك قلب من ذهب ونفس شاعرة وريشة رسام

تشرشل الذى ينعته الانجليز « بقائدنا وزعيمنا العظيم » فيظفر من شعبه بما لم يظفر به أحد قط من الانجليز منذ كانوا أمة دستورية ، ويفوز باجماع لم ينله انجليزى قبله فى كل تاريخ انجلترا المعروف مذ كان لبريطانيا تاريخ ..

تشرشل الذى يقول للانجليز فى أول خطبة له كرئيس وزارة وكدكتاتور : « ليس عندى غير الدماء ، والعمـل ، والدموع ، والعرق المتصبب من الجبين .. تسألوننى عن سياستى ، فأقول انها شن الحرب شعواء فى البحر ، فى الارض ، فى الجو ، بكل ما فينا من قوة ، وبكل ما وهبنا الله من استبسال .. وتسألوننى عن هدفى . فأقول فى كلمة واحدة : هو النصر ! »

تشرشل الذى يهتف بشعبه : « هلموا الى الواجب ، الى الميدان ، الى العمل ، كل فى دوره ، وكل فى مكانه .. املأوا الجيش رجالا . سودوا الجو ابطالا . اسكبوا الذخائر . اقتنصوا الغواصات . التقطوا الالغام . احرثوا الحقول . ابنوا السفن . احرسوا الطرقات اسعفوا الجرحى . انهضوا باليائسين . مجدوا الشجعان . هلموا جميعا الى الامام فى كل قطر من أقطار الامبراطورية . فى كل شبر من الجزيرة البريطانية . فليس لدينا متسع من الوقت ، فلا أسبوع ، ولا يوم ، ولا ساعة يمكن ان نعوضها اذا فقدناها »

تشرشل الذى يقول :

« ليس فى ساعات القتال وحدها ، تلك الساعات القليلة المتألقة ، التى تعشى الابصار ، يعمل رجال البحرية .. انهم يقاسون أكثر من ذلك فى الاسابيع والشهور الطوال التى يقضونها فى امتحانات قاسية ، وترقب فى تطلع الى البحار .. البحار الباردة ، القاتمة ، العاصفة، التى من خلال مائجاتها قد يقفز الموت والدمار ، فى أية لحظة، بدوى وانفجار .. »

وأخيرا .. تشرشل الذى يقول : سندافع عن جزيرتنا مهما يكن ثمن هذا الدفاع .. سنقاتل فوق رمال الشاطىء . فى المراسى . فى الحقول . فى الطرقات . فوق التلال سنقاتل . ولن نستسلم أبدا ..!

فيا له من رجل ..

ويا له من شعب بارد ، جامد ، سعرته الحرب فغدا شعلة من نار ، ولبس عدة الحرب وقد عول على الانتصار ، وراح يقذف بنفسه الى الهلاك على ظهر الارض ، وعلى متن الهواء ، وفوق مائجات البحار ..

أجل ..

يا له من رجل !

ويا له من شعب !

أهم المراجع التى أستعين بها فى هذا البحث

— Sir George Arthur : Concerning Winston Spencer Churchill. London. 1940
— Robert Sencourt : Winston Churchill. London 1941.
— Hugh Martin : Battle : The Life story of Winston S. Churchill. London 1940.
— C. Lewis Broad : Winston Churchill. London.
— Into Battle : Speeches by the Right Hon. Winston S. Churchill P.C., M.P. Compiled by Randolph S. Churchill, M.P. London 1941.
— From Chamberlain to Churchill. The Penguin Hansard. London 1940.
— The Government Blew Book : Documents concerning German-Polish relations and the outbreak of hostilities between Great Britain and Germany. London 1939.
— Hugh Dalton : Hilter's War. London 1940.
— Churchill Said : being a little book giving little parts of Churchill's speeches.

هذا عدا المراجع العامة كدائرة المعارف البريطانية وثلاثة كتب عن معركة الاطلانطيق و « ماين كامف » لهتلر ومراجع أخرى عن الحركة النازية ، واكثر من ثلاثين مقالا عن تشرشل نشرت فى امهات الصحف العالمية.




ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فرانكلين روزفلت

بقلم

عبد الحميد عبد الغنى

أمريكا ...

قال الايطالى :

« ما أقل وفاء أمريكا ! نحن الذين عرفنا طريقها وكشفنا أرضها ، فكان أول أوربى رسا على شاطئها بحاراً ايطالياً من مدينة جنوة هو كريستوف كولومب ، الذى هام وسط البحار فى سفن أمده بها فرديناند وايزابلا ملكا أسبانيا ، حتى هبط أرضها يوم ١٢ أكتوبر سنة ١٤٩٣ وهو يحسب أنه ينزل بأرض الهند ، فلما أوغل فى مجاهلها وتعرف الى قبائلها لتى فيها أقواما حمر الجلود فسماهم الهنود الحمر ، ومات قبل أن يعرف انه كشف عالماً جديداً أفسح من الهند أرضاً ، وأوفر ثراء ، وأعظم مستقبلا . .

« فكيف جزتنا أمريكا عن هذا الجميل ؟ أخذت تنظر شذراً الى من هاجر اليها من أبناء ايطاليا ، ثم أخذت تعوق سبيل الايطالى اذا أراد أن يسعى الى حياته فيها ، ثم قر رأى الكونجرس على ان يوصد بابها فى وجه الايطاليين جميعاً ، حتى لايهجنوا دماء الجماعات « النوردية » التى وفدت الى أمريكا فى أعقاب الايطاليين !

« وهذه مجلة Forum التى تقرأها الصفوة المثقفة فى أمريكا تستفتى قراءها : ما هى أحط الجماعات الاجنبية التى ولد أفرادها خارج أمريكا ثم رحلوا اليها وأقاموا فيها وصاروا جزءاً من مجتمعها العام ؟ فاذا بنتيجة الاستفتاء أن أحط هذه الجماعات هم الايطاليون ! أجمع على ذلك ٢٢٫٥٪ من قرائها بينما لم يوافق على انحطاط اليهود سوى ٦ فى المائة والالمان سوى ١٫٤ فى المائة واليابانيين سوى ٤٫٥ فى المائة واليونانيين ١٫٤ فى المائة والصينيين ١ فى المائة . وعند ما جعلت المجلة موضوع الفتوى عن أرقى هذه الجماعات كان نصيب الالمان ١٣ فى المائة من مجموع القراء ، والانجليز ١٠ فى المائة ، والاسكندناويين ٩٫٧ فى المائة والايرلنديين ٦٫٤ فى المائة واليهود ٢٫٨ فى المائة . أما الايطاليون — الذين اكتشفوا أمريكا — فلم يظفروا بأكثر من ٢٫٢ فى المائة من القراء

« وأنتم تعلمون ان كولومب التى بنفسه فى غمار بحر الظلمات أربع مرات لا لأنه كان بحاراً مغامراً بل لأنه كان كاثوليكياً مخلصاً . فقد نشأ فى أسرة تدين باليهودية ثم ارتدت عنها الى المسيحية فتمسكت بها وتعصبت لها شأن الدخيل الذى يسرف ويغلو ليكون كالأصيل إيماناً وإخلاصاً . فكان كولومب شديد التعصب للمسيحية الكاثوليكية ، فأراد أن يبسط ظل البابا على مافى هذه الارض


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الرئيس روزفلت فى طفولته

صورة تذكارية طريفة للرئيس روزفلت عندما كان فى الثانية من عمره

الجديدة من أقوام وجماعات كبيرة العدد وافرة الغنى، وأراد أن ينشر لواء ملك أسبانيا الكاثوليكي على هذه الأقاليم الفسيحة ليصيب منها أسباب القوة والثراء .. فما لأمريكا تتنكر اليوم للكاثوليكية بالذات بينما هي تضرب في التسامح الديني أحسن الامثال ؟ انها تأبى أن يكون أحد الكثالكة رئيساً لجمهوريتها ، وتتخذ من هذا المذهب سلاحاً تحارب به « سميث » منافس « روزفلت » في انتخاب سنة ١٩٣٣ فيتكفل هذا السلاح وحده بهزيمته وإقصائه !

« ثم تجيء هذه الحرب الفاصلة في أمر ايطاليا ، فتقف أمريكا منها موقف الانكار فالعداء فالنضال ، ثم تشهر عليها حرباً لاهبة من العتاد والرجال ، فتجازيها شراً بخير ، ونكراً بعرف ، وسيئة بحسنى ! »

قال الانجليزي

« إنك على حق فيما تقول أيها السيد الايطالي ، وكذلك كان شأن أمريكا معنا معشر الانجليز . فنحن الذين كشفنا مجاهلها ، وعمرنا فيافيها ، وأقمنا مدائنها ، وأهلنا أنحاءها . ونحن الذين أنطقناها بلغتنا ، وهذبناها بشريعتنا ، وغذيناها بآدابنا ، ونظمناها بقوانيننا . وفيها أنفقنا أوفر المال ، وبذلنا أقصى الجهد ، وكرسنا ألمع الذكاء ، لحرثنا أرضها وأنبتناها ، ونجمنا عن معادنها وأخرجناها ، وجعلناها أعظم منا ثراء وأوفر رخاء . فلما بلغت ما تريد من القوة والثراء والحضارة جحدت يدنا وأنكرتها : ثارت بنا وتألبت علينا وناصبتنا العداء ، ثم أصلتنا نار الحرب تحت إمرة واشنجتون شهوراً عدداً ، ولم تضع وزر الحرب إلا بعد أن حطمت امبراطوريتنا الأولى[1] التي أنشأناها في قرنين من الزمان

« وعنا أخذت الزراعة والصناعة ، ومنا فهمت التجارة والاقتصاد . ولكن ها هم رجالنا يضربون في مناكب الأرض يلتمسون الرزق ويسعون الى الحياة ، فيجدون رجال أمريكا قد أخذوا عليهم السبل وسدوا في وجوههم الأبواب ، بما يرسلونه من غلال وثمار وبضائع رخيصة تستأثر لهم بكثير مما كان لنا من أسواق آسيا وأوربا . وهم يضربون في الأرض أحراراً كيف شاءوا ، أما نحن فلا نكاد نلقي البصر هنا أو هناك حتى يقولوا : أنظروا ! إنهم يريدون أن « يستعمروا » ليستبدوا بأمور الناس ويستأثروا بخيرات الدنيا . . .

« وتأبى أمريكا أن تعرف لنا أي جميل ! حتى اللغة التي أخذتها منا تأبى أن تسميها « الانجليزية » بل تنتحل لها اسم « الأمريكية » وتضع لها معاجم خاصة تملأها بآلاف وآلاف من الكلمات والعبارات التي لم تعرفها المعاجم الانجليزية . وهذا نفر من أساتذة جامعة شيكاغو

(١) يطلق المؤرخون اسم الامبراطورية البريطانية الأولى على الولايات الأمريكية التي استعمرها الانجليز الأوائل ابتداء من سنة ١٦٠٦ وانتهت بمعاهدة فرساي سنة ١٧٨٣ التي أعلنت استقلال أمريكا



الرئيس فرانكلين روزفلت

أسرة روزفلت

عند ما وفد « كلايس مارتنز » الى العالم الجديد فيمن وفد اليه من أرجاء أوربا سعياً وراء الرزق منذ ثلاثة قرون ، أتراه كان يخطر بباله أو ببال أحد ممن وفدوا معه أو عاشروه أن سيخرج من صلبه اثنان تسند اليهما رئاسة الجمهورية فى أغنى دول العالم وأعظمها وأرقاها ؟ وفرانكلين روزفلت هو ثانى من تولى رئاسة الجمهورية من أبنائها ، إذ سبقه الى ذلك منهم تيودور روزفلت (١٩٠١ — ١٩٠٨) الذى يتحدث عنه معظم الكتاب على أنه « عم » فرانكلين ، لأنه هكذا كان يدعوه ، فى حين هو لا يلتقى معه إلا فى الجد الخامس أو السادس ، وإن كان فى الوقت نفسه عم زوجته ، فهو لذلك فى منزلة عمه وحميه على السواء

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



جيمس روزفلت : والده



سارة روزفلت : والدته



تيودور روزفلت

يعملون منذ سنة ١٩٢٥ فى إعداد قاموس لهذه « الأمريكية » يتألف من عشرين مجلداً أنجزوا منها عشرة مجلدات ، وقصروه على ما ابتكرته أمريكا - أدباؤها وعامتها - من ألفاظ وعبارات قدروها بألف ألف ، أى بما يربى على أمثال اللغة الانجليزية عدة مرات . وانك لتسمع الأمريكى يجابهنا : أين لغتكم من لغتنا ، شاعركم « شكسبير » ذاته لم تزد عدد الكلمات التى ألفت منها دراماته وأشعاره عن ستة آلاف كلمة ، أما أديبنا « مارك توين » وحده فابتكر اثنى عشر ألف كلمة أو عبارة توارثها من بعده الكتاب والقراء ؟

« ثم انظروا موقف أمريكا منا حين جد الأمر وأتى اليوم العصيب : فأما إن أخذنا الأمر فى عهد تشمبرلن بما ينبغى له من الحلم والصبر والأناة ، عسى أن يجنح الباغى الى السلم ويثوب الضال الى الهدى ، قالت أمريكا : ما بال هؤلاء الانجليز قد هرموا وشاخوا ، وجبنوا وخافوا ، فباعوا مجدهم وتاريخهم بيع السماح ؟ وأما إن ألقينا بأنفسنا تحت إمرة تشرشل فى ساحة القتال ، فبذلنا للوطن أرواحنا وسفحنا دماءنا ، ونذرنا للحرية رجالنا ونساءنا وأطفالنا جميعاً ، حفاظاً على الحضارة والكرامة فى بريطانيا وفى أمريكا على السواء ، رأيت فى أمريكا من يقول : ما شأننا فى هذه الحرب ؟ إن هى إلا حرب استعمار تتطاحن فيها شعوب دأبها السطوة وقصدها العدوان ، فدعوها تتقاتل وتتناحر حتى تدور عليها جميعاً دائرة الخذلان !

« هذا موقف أمريكا منا ، لولا أن فيها رجلا اسمه روزفلت يعرف أن أمته إن ظلت غافلة لاهية فستصلى غداً النار التى تصلاها اليوم أوربا ، ويعلم أن لا عاصم من بأس ألمانيا وأذاها إن قدرت لها الغلبة على بريطانيا ، فأوعد وأنذر ، وجاهد وكافح ، صابراً صامداً ، حتى حمل أمريكا على أن تنتصر - بأموالها وبمالها ويجنودها - لحرية الفكر وحرية العمل وحرية الضمير »

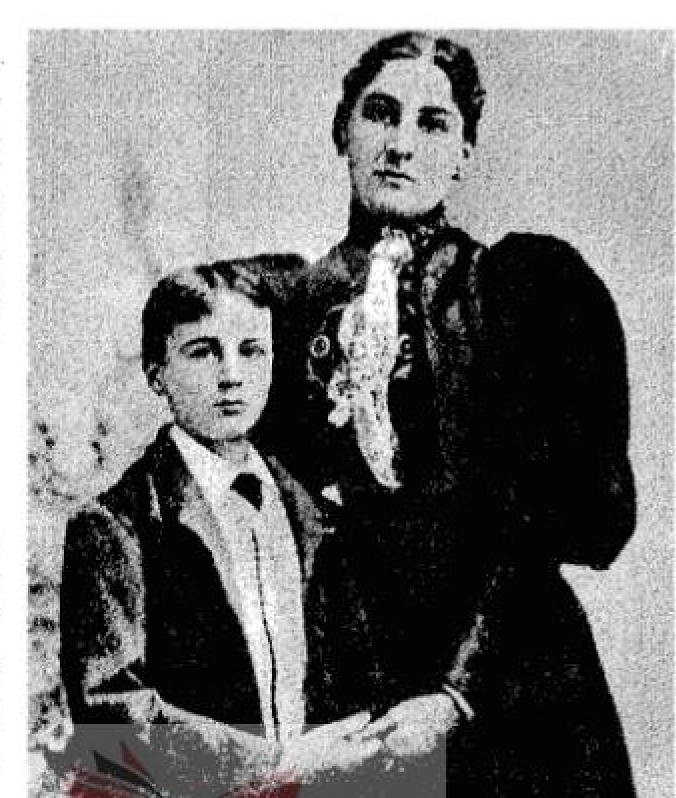
قال الفرنسى :

« وكذلك كان أمر أمريكا معنا . أسدينا اليها خيراً جزيلا ، فلما أردنا عونها صدفت وأعرضت جانباً

« ان فرنسا هى التى أوجدت هذه الولايات المتحدة الامريكية . فقد كانت ولايات متفرقة تستعمرها بريطانيا فتستبد بأمورها وتستغل خيراتها وترهقها بالمكوس والضرائب . فأرسلت اليها فرنسا جماعات من المبشرين أخذوا يبثون فى الناس معانى الحرية ويبصرونهم بمنافع الاستقلال . ثم أتبعتهم بجماعات من الأدباء والصحفيين والسياسيين فأذكوا هذا الروح وألهبوه ، فلما ثار الناس بالانجليز وجدوا منها عوناً سخياً ، عوناً من الذهب والدم معاً ، فأرسلت المال والسلاح تشد أزر الثوار ، وأرسلت أفواجاً من أبنائها الأبطال فوهبوا أنفسهم لحرية أمريكا

منذ ٥٠ سنة في باريس، في سنة ١٨٩٣،

التقطت هذه الصورة للطفل فرانكلين روزفلت مع والدته، في إحدى الرحلات التي كان يقوم بها مع والديه كل صيف في أرجاء أوربا ←



« كابتن » مدرسته

الجسم النامي والصحة النابضة، وحياته الأولى بين الحقل والنهر، كل ذلك كان كفيلا بأن يهيء الطالب فرانكلين روزفلت لرئاسة فريق كرة القدم في مدرسة « جورتون » ↓

ARCHIVE
http://archive.sakhrit.com

« فلما ظفرت أمريكا بحريتها نسيت أن عليها لفرنسا ديناً واجب الأداء . فعند ما ثار أبناء فرنسا بعد قليل ثورتهم الكبرى يريدون أن يتحرروا من إسار المظالم والتقاليد ، تألب عليهم الأعداء الأشداء من كل جانب ليخمدوا ثورتهم ويرغموهم على الذلة إرغاماً ، فاتجهت الى أمريكا فاذا بها تسمع « واشنجتون » ينصح للناس ألا يلقوا بالا الى ما فى أوربا من أحداث وخطوب ، فتلك قارة لا تنفك فى شجار ونضال ، ويدعوهم أن يذروها تلغ فى الدم وتصلى النار كما تشاء ، وينصرفوا هم الى زراعتهم وصناعتهم وتجارتهم يصيبون منها الثراء والقوة والمتاع

على أن روح فرنسا كان زاخراً بالقوة دافقاً بالحماسة ، فثبتت ثورتها وأتت على عهد الاقطاع وأقرت حقوق الانسان دون حاجة الى أن تمدها أمريكا بعون من مالها أو رجالها . ولكن عندما دارت الحرب بينها وبين بريطانيا أيام نابليون ، انتظرت من أمريكا أن توفى دينها فتعينها على العدو كما أعانته عليه منذ سنين عدداً ، فتغافلت امريكا ولم تلق اليها بالا ، فكانت هزيمة فرنسا واندحارها

« ولكن أمريكا ردت الدين بعد قرن وربع قرن . ردته فى الحرب الكبرى الأولى حين أمدت فرنسا بسلاحها وعتادها تقاتل بهما عدوها الرهيب ، ثم حين أرسلت جنودها يحاربون ويموتون فى أرض فرنسا . ولكن ما أن انتهت الحرب حتى رأت أمريكا أن تقطع كل صلة بينها وبين فرنسا ، حتى أبناءها الذين ماتوا فى أرضها أبت أن تقيم لهم قبوراً حيث ماتوا ، بل استرجعت أجداثهم وعظامهم عبر المحيط ، وكأنها تقول لفرنسا : هذا فراق بينى وبينك !

« وقد صدقت أمريكا وعدها أو وعيدها . فلما قامت الحرب الكبرى الثانية وهم العدو الرهيب يريد قتل فرنسا ، استصرخ « رينو » روزفلت أن انجدنا « بسحابة من الطائرات فى ظرف أسبوع » فأخذت أمريكا تتناقش وتتجادل شهوراً وشهوراً ذلت فيها فرنسا أمام الألمان كسيرة مدحورة !

« إن أمريكا تعرف أن الحرية أثمن ما يملك الفرد وأعز ما تحرص عليه الجماعة ، فكان حقاً عليها أن تنقذ حرية فرنسا اليوم كما أنقذت فرنسا حريتها فيما مضى »

قال الالمانى :

« فما عسى أن نقول نحن الألمان فى أمريكا ، ولنا عليها أفضل الحسنى وليس لنا منها إلا أقسى الجزاء ؟

« نعم ليس لنا فضل السبق الى كشف أمريكا وسكناها ، فقد كنا فى شغل بما بين أمرائنا وجماعاتنا من حرب وشجار ، فأعرضنا عما انصرف اليه الانجليز من الرحلة والهجرة والاستعمار . وليس لنا ما لفرنسا من فضل إثارة الشعب الامريكى وتحريره من ربقة الاقوياء ، فنحن قوم لم



في ثياب العرس في السابع عشر من شهر مارس سنة ١٩٠٥ زفت « تيودور » الى « فرانكلين » وكان عمها « تيودور روزفلت » رئيساً للجمهورية ، وكان في الوقت نفسه بمثابة العم للعريس الشاب ، ولذا فقد كان احتفاله بزواجهما عظيما ورائعاً ←

أسرة سعيدة وها هما بعد عشر سنوات من زواجهما يجلسان بين أولادهما ، الذين هم ثمرة ذلك الزواج الموفق السعيد ↓

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

نحن بحريتنا ذاتها فكيف نعنى بحرية سوانا من الأقوام ؟

« ولكن أمريكا لا تنكر أن ألمانيا – بمهندسيها وكيمياويها – هى التى أنشأت فيها الزراعة الحديثة. كان سوانا من المهاجرين يزرعون أرض أمريكا وفق الأساليب العتيقة التى عرفوها من أوربا ، أما نحن فزرعناها زراعة علمية يسيرة الأداء وفيرة الانتاج ، فمكنا الفلاح الامريكى الحديث من أن يزرع من الارض أضعاف ما كان يزرع الفلاح القديم ، وجعلنا انتاج الولايات الامريكية المتحدة وحدها يرجح انتاج سائر العالم جميعاً

« وكذلك لا تنكر علينا أمريكا أثرنا وفضلنا فى تعليمها الجامعى ، فقد أخذت منذ منتصف القرن الماضى تنظم جامعاتها على أساليب الجامعات الألمانيـة ، وأخذت تستورد لمعاهدها العلمية أفواجاً من أساتذتنا وعلمائنا ، حتى غدا الطابع الألمانى واضحاً فى الحركة العلمية فيها الى عهد قريب

« والحق أن لنا فى كل ناحية من مناحى النشاط الامريكى أثراً واضحاً وفضلا مشهوداً ، فانظروا ، يا سادة ، كيف كان الجزاء والوفاء ؟

« وقفت لنا أمريكا كالرصد العنيد . كلما أشرفنا على النصر وأوشكنا على الغنيمة ، تدفقت أموالها الى أيدى أعدائنا وتدافعت جنودها من أقصى الارض لقتالنا . هكذا فعلت فى الحرب الكبرى الاولى حين أمدت عدونا بمليونين من الرجال وبثلاثة عشر الف مليون دولار ، فخلع هذا قلوبنا وثبط عزائمنا ، فاذا بالشعب يثور فى المدن ، وبالجند يتمردون فى الميدان ، واذا بالأعداء – الذين كادوا أن يجثوا أمامنا – قد تمكنوا منا وأجهزوا علينا .. وهكذا تفعل فى الحرب الكبرى الثانية ، فعند ما انبسطت أرض أوربا أمام جيشنا القلاب ، قال « الفوهرر » : قد انتصرنا ولو خرجت أمريكا من عزلتها ونزلت الى ساحة حربنا . فقالت أمريكا : كلا ! فعندى من المال والسلاح والعتاد والرجال ما هو كفيل بهزيمتكم ، وسأطيل الحرب أمداً حتى أريكم الهزيمة المنكرة مرة أخرى ، ولتكونن هذه المرة هزيمة فاصلة فلا يساوركم حلم السيادة على العالم أبداً . .

« لولا أمريكا لكان لألمانيا اليوم المكان الأعلى . . . فليت أمريكا لم تكن ؟ »

فأجابهم الامريكى :

« على رسلكم أيها السادة ! فما أرى الا أنكم تتجنون علينا وتسرفون

« وهذا دأبكم معشر الأوربيين كلما أخذتم فى الحديث عن أمريكا . تسيئون دائماً وصفها وتشوهون تصويرها . تذكرونها وعلى شفاهكم ابتسامة من يريد أن يهزأ ويسخر .. تكتبون عنها وقصدكم أن تروحوا عن قرائكم بالغرائب والطرائف الشاذة . ولا تنطلق أخيلتكم وتتجلى ملكاتكم إلا إذا جاء ذكر أمريكا ، كأن ليس فيها الا عجب تؤلف فيه القصص وتساق الروايات !

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

روزفلت السباح

أحب الماء من طفولته ، وأبى القدر إلا أن يكون الماء سبب ألمه ، ومصدر مجده . . حتى الشلل لم يكن ليقعده عن رياضته الحبيبة التى كان فى صباه من أبطالها المبرزين . .

ARCHIVE
http://Archive.Sakhrit.com



يقود سيارته بنفسه

وهى سيارة أعدت خصيصا لزعيم الشعب الامريكي ورجله الاول . . وقد صنعت بحيث يستطيع الرئيس أن يقودها دون أن يجهد نفسه أو يستخدم رجليه فى قيادتها

« أ كل من فيها فطر على الغرابة وبرىء على الشذوذ ؟ أ كل ما فيها يقابل بالدهشة ويلاق بالانكار ؟ اليس فيها إلا عجائب وتقائض ومفارقات ؟

« أدباؤكم يصفوننا بأننا آلات من لحم ودم تدير آلات من حديد وكهرباء ! ويقولون إنما هم شعب يؤمن بالدينمو ويعبد الكهرباء ويؤله الدولار ، فلا ذوق ولا فن ، ولا دين ولا روح ، ولا تفكير ولا ابتكار! اذا رأى أحدهم رسماً أو سمع شعراً تساءل : أيزيد هذا دخلي ويربي مالي؟ وان ذهب المليونير منهم الى متحف «اللوفر» ورأى تمثال « فينوس » سأل : بكم دولار تبيعون هذا التمثال ؟ واستغرقتهم حياة المادة وجنون السرعة فلم يبق لهم وقت للتأمل والتفكير ، ولم تبق فيهم ملكة للخلق والابداع . فكتبهم أرقام وتواريخ ومعارف تملأ الرأس علماً ولكنها لا تروض الذهن على التفكير . . وصحفهم صور وكلمات تمر بها العين في دقائق خاطفة فلا وقت للروية والثقافة .. طغت فيهم الفكرة الخاطفة على التفكير العميق ، فصار « الفيلم » أهم من «الدراما» ، والراديو أحب من الكتاب . . لا يصبرون على قراءة كتاب جدي أو قصة عميقة ، بل ولا على قراءة مقال ، فابتكروا مجلات تلخص لهم المقالات !

« هذا قليل مما يقول كتابكم عنا . فكيف يكون رأى جمهرتكم فينا ؟ إنها لا تعرف شيئاً عن أساتذة الجامعات عندنا بينما تعرف كل شيء عن عصابات شيكاغو ! انها لا تصدق أن في أمريكا ملايين من الأسر الموفقة السعيدة وتحسب ان الزواج عندنا لا يمكن أن يجاوز الأيام أوالأسابيع! انها تتخيل كل أمريكي إما ممثلا أو مخرجاً ، وإما ملاكما أو مصارعاً ، وإما من رجال العصابات ، وإما من أصحاب الملايين ! وعسير عليها ان تتصور أن في أمريكا عشرات الملايين من الناس يحيون حياة عادية بسيطة ، في مصانعهم أو حقولهم ، وفي بيوتهم وبين أولادهم ، دون أن يكون فيهم شيء من العجب أو الشذوذ

« ان المجتمع الامريكي ـ ككل مجتمع انساني ـ حافل بالحسنات والسيئات ، بالفضائل والرذائل ، بالاخيار والاشرار بالعاملين والخاملين .. ولكن قلب صحف العالم لترى كيف تصور أمريكا : تر فيها صورة ممسوخة شوهاء كتلك التي تبديها المرايا المقعرة ، وكأن هذه الصحف جميعاً ، الجاد منها والهازل ، قد ائتمرت معاً على ان تضحك الناس منا وتثير سخريتهم بنا !

« لم هذا ؟ ماذا بيننا وبينكم حتى تتفقوا جميعاً على النيل منا والتعريض بنا ؟ ماذا جنينا عليكم حتى تقفوا منا هذا الموقف واحداً واحداً

« ألم نؤد أي عمل ، ألم نسد أي خير ، يستحق ان يذكر ذكراً حسناً ؟ إنا لا نريد أن نمن بما أدينا وأسدينا ، فان المن يفسد الخير ويشوه الجميل ..

« ولكن ليس من ينكر ان أمريكا ظلت مدى تاريخها معتصمة بشمائل وفضائل لو اعتصمت بها سائر الشعوب لجرت أمور العالم مجرى الخير والعرف والاحسان



الحملة ضد السل

لم يكد الرئيس روزفلت يتولى رئاسة الجمهورية حتى كان فى مقدمة برنامجه الاجتماعى الجبار مكافحة السل الذى كان قد أخذ يفتك بالكثيرين . . وتراه يتحدث الى الدكتور « ترود » ابن بطل مكافحة السل ، فى تفاصيل الحملة التى ستحملها الحكومة على هذا الداء الوبيل ، وكانت مع الدكتور إحدى الممرضات تحمل نموذج بيت أحمر هو رمز مكافحة السل لتهديه للرئيس

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



فى الينابيع الدافئة

فضلا عما رصده روزفلت من إيراده للانفاق على « الينابيع الدافئة » التى يرجع اليها الفضل فى شفائه ، فقد اعتاد أن يقيم كلما قصد الى تلك الينابيع مآدب يدعو اليها المستشفين فيها من الفقراء كمظهر من مظاهر شكر الله على نعمته . . وتراه وعن يساره طفل مريض اختير ليكون ضيف الشرف فى إحدى هذه المآدب

« هل رأيتم أمريكا يوماً من الأيام تلق على العالم نظرة البغض والأثرة والايذاء ؟ أرأيتموها ترسل جيوشها الى شعب ضعيف فتقهره وتستذله وتستبد فيه بالأمر ؟ أو تلجأ يوماً ما الى التهديد والتخويف والانذار لتفرض أمرها وتبسط سلطانها ؟ أو تتخذ من تجارها وأموالها أحبولة تتصيد بها الشعوب الغافلة ، حتى اذا أرهقتها عسراً وفقراً ،وثبت عليها بالجند والسلاح فأذلتها ؟ ألم تروا الى الشعوب الضعيفة تأمننا على استثمار مرافقها وتعمير مجاهلها ، لأن لنا تاريخاً يدعو الى احسان الظن بنا وتعزيز الثقة فينا ؟ إنا لا نريد فى الأرض فتحاً ولا غلبة ولا استعماراً ، فلنا من خير الطبيعة وسخائها ما يغنينا عن الجشع والأثرة والعدوان . . .

« بل إن أمريكا لا يكفيها أن تقف من العالم موقف المهادن المسالم ، وتأبى إلا أن تتخذ سبيل المحسن السخى الكريم

« وما أحسب أننا نمن اذا قلنا إنها تخرج كل سنة عن اثنىعشر مليوناً من الجنيهات تجود بها على أقطار العالم ، فى إذاعة التعليم ونشر الثقافة ، وفى تيسير البحث واعداد الجامعات ، وفى كفاح المرض وصون الصحة ، وفى صلة الفقير والضعيف بما يهون عليهما بأساء الحياة . هذا اذا لم تقع فى العالم نكبة من نكباته الكبرى ، أما ان حدث زلزال ، أو ثار بركان ، أو طغى سيل ، أو انتشر وباء ، فان هذه الملايين تتضاعف مراراً ، حتى ليرجح ما تجود به أمريكا وحدها ما يأتى من سائر الأنحاء . . .

« ولسنا فى هذا نؤثر جنساً على جنس ، أو نقدم شعباً على شعب ، أو ننظر الى دين دون دين . بل لعل أضعف الشعوب أقربها الينا مودة وأدناها الينا معروفاً . فهناك فى أقصى الأرض ، فى مصر ولبنان ، وليس لنا بهما صلة من أصل أو ثقافة أو دين ، ترون لنا جامعتين حاشدتين بالأساتذة والطلاب ، نرسل اليهما فى كل سنة آلافا من الجنيهات . . . لماذا ؟ لأننا نشعر أن لهذه الشعوب التى تريد أن تتعلم وترقى حقا فى أعناقنا واجب الأداء ! وهناك فى تلك المدينة القاصية فى أفريقا ، مدينة القاهرة ، مؤسسة يعالج فيها المرضى ويعان فيها الضعفاء ، بفضل مارصده عليها غنى من أغنيائنا هو « روكفلر » الذى خرج عن معظم ملايينه لشؤون الخير والاحسان فى شتى الأقطار . . أذكر هذا على وجه المثال فلا سبيل الى حصر ما لنا من جامعات ومدارس ومعاهد ومصحات ومؤسسات فى أرجاء الأرض جميعا

« على أنا اذا كنا نذكر هذا الجود والاحسان فى تردد واستحياء ، فانا لنذكر موقفنا من قضية الحرية والطغيان فى زهو وإعجاب . لقد أخذنا على أنفسنا مهمة الحفاظ على الحرية وألقينا على عاتقنا واجب الرعاية للأحرار . فنحن أبناء أولئك الذين هجروا أوطانهم وديارهم حينما أنكرت عليهم الحرية وأريد بهم الهوان ، وعبروا البحار وضربوا فى الفياق ليلتمسوا فى رحابها حرية الفكر وحرية الضمير ، فنشأ أخلافهم على كراهة البطش وايثار الحرية ، وعلى تسفيه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



اسرة روزفلت فى ليلة عيد الميلاد

التقطت هذه الصورة لأسرة الرئيس روزفلت مجتمعة حوله فى البيت الابيض ليلة عيد الميلاد الأسبق ، وهى تمثله فى الوسط وقد جلست عن يمينه زوجته مسز إليانور روزفلت زوجة ابنه فرانكلين — الواقف خلفها — ومعها طفلها يبادل جده النظرات ، فالسيدة سارة ديلانو والدة الرئيس التى توفيت من شهور ، فمسز اليانور روزفلت سيدة البيت الابيض ، والى يساره كريمته « أنا بوتيجار » وخلفها زوجها « جون بوتيجار » . فمسز جيمس روزفلت زوجة أخيه الاكبر ، فمسز « أنا روزفلت » زوجة ابنه « جون » الواقف خلف والده مباشرة بين أخيه وزوج أخته . . أما الجالسون على الارض فهم « أنا اليانور » و « جون بوتيجار » الصغير و « كورتير » — وكلهم من أحفاد الرئيس روزفلت — ومعهم صديقتهم « ديانا هوبكنز » كريمة المستر « هارى هوبكنز » صديق الرئيس ومبعوثه فى الشرق ، وقد كانت فى ضيافة الأسرة ليلة عيد الميلاد

الطغيان وتمجيد الأحرار ، فكانت أمريكا دائماً معقل الحرية ومعتصم رجالها كلما تنكر لها العتاة واشتد بها بأس الأقوياء

« ألم تروها تفتح أبوابها لأولئك المفكرين والفنانين والعلماء الذين ضاقت بهم أوطانهم ذرعا ، لأنهم آثروا حريتهم . وأكبروا رأيهم ، وأبوا أن يكونوا أداة فى أيدى الطغاة ، فاتجهوا الى أمريكا حيث وجدوا فى رحابها من اكرام الوفادة واحسان المثوى ما سرى عنهم آلام الغربة والحرمان ، وهيأ لهم أسباب العمل والانتاج ؟

« وهذه جامعاتها ومعاهدها تحفل بأولئك الاعلام الذين اضطهدوا فى أوطانهم لأنهم لم يقروا المستبدين بأمرهم على سطوتهم العادية وأطماعهم المسرفة ، أو لأنهم لم يؤمنوا بمبدأ « تفاوت الاجناس » الذى بلغ فى بعض الشعوب درجة الهوس والجنون

« أنظر أيها السنيور الايطالى ، وأيها الهر الألمانى ، الى أعظم مفكريكم وعلمائكم وفنانيكم ، أين هم الآن ؟ أين البرت اينشتين ، وتوماس مان ، وإميل لودفيج ، وفيريرو ، وتوسكانيني ؟ انهم فى ضيافة أمريكا ، فى معقل الحرية ومثابة الاحرار . . .

« كان هذا شأن امريكا وقت السلم فأحرى بها أن تتخذه وقت الحرب . لقد أخذت منذ أربد الجو وتبدت النذر وأطلت الحرب بجمجمتها ، تسعى فى كل طريق يجنب العالم هول الحرب ويبقى له نعمة السلام ، وراح رئيسها يذيع الخطب وينشر الأحاديث ، ويبعث الرسائل ويوفد الوسطاء ، عسى أن يجنب العالم ما يحف به من فواجع الموت وأهوال الدمار . فلما أخفق سعى دعاة الحرية ، وأدار الطغاة رحى القتال ، كان حقاً عليها أن تبذل للحرية ما يسعها من الجهد والمال والتأييد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

« إنها لا تؤيد الانجليز لتخذل الألمان ، بل تؤيد الحرية لتنقذها من هول الطغيان

« إنها لا تحارب المستبدين لتقهر شعوبهم ، بل تريد أن تخلص الجماهير من ربقة العتاة . .

« إنها لا تقاتل ألمانيا وإيطاليا ، بل تقاتل النازية والفاشية . .

« إنها تناضل موسولينى وهتلر لتطلق إيطاليا وألمانيا من ربقتهما وإسارهما . .

« وان بريطانيا لا تعنيها قدر ما يعنيها دستورها وبرلمانها

« إنها تجشم نفسها الشدائد والاهوال لتجعل العالم آمناً للحرية : حرية المرء فى أن يرى أى رأى يشاء ، وأن يعبر عنه ويذيعه كيف أراد ، وحريته فى أن يؤمن بأى دين يؤثره أو يكفر بالأديان والعقائد جميعها ، وحريته فى أن يتخذ من سبل الحياة ووجوه النشاط ما يفضل دون قسر أو إرغام

« أفلستم تتجنون إذن حين تتهمون أمريكا بأنها جحدت الأيدى التى انبسطت اليها بالفضل والحسنى، ووقفت منكم موقف المناضل المعادى ، أو موقف المتشكك المرتاب ؟ فانما تريد أمريكا أن



منذ ٢٥ سنة

هكذا وقف المستر فرانكلين روزفلت « وكيل وزارة البحرية » فى ذلك الحين يرفع العلم على إحدى قطع الاسطول الامريكي فى اليوم السابع من شهر أبريل سنة ١٩١٧ وهو اليوم الذى قررت فيه حكومة الولايات المتحدة أن تخوض غمار الحرب الماضية إلى جانب الحلفاء .. والمستر فرانكلين روزفلت هو رابع من ولى منصب وكالة البحرية من أبناء هذه الأسرة التى سطرت لنفسها فى تاريخ أمريكا أنصع الصفحات

تهيء لكم جميعاً ، من تناصره ومن تناضله على السواء ، ما تهيأ لها من معنى الحرية ، والعدالة ، والرخاء

« ولا يماثل موقف امريكا من « الحرية » إلا موقفها من « الاصلاح » وإنها لتقدم للعالم من موقفها هذا أعظم الدروس وأجدى التجارب

« تقدمها لهذه الشعوب التى تفرق نفسها أشياعاً وأحزابا ، وتغمر أرضها دماء وأجداثا ، كلما أرادت أن تحدث تغييراً أو تقيم اصلاحا ، بينما امريكا تحدث فى سنيها الاخيرة ثورة من أخطر ثورات الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى دون أن يسمع لها العالم صوتا ، فليس فى ثورتها مذابح ومعاقل وضحايا ، ولا كتائب وقمصان و « استعراضات » ، ولا هذا الأسلوب العجيب من « الزعامة » الشاذة ، التى ألفتموها تتخرج فى غيابة السجن وظلمة الحياة ، وتنهض على أجداث الضحايا من الخصوم والأتباع ، وتنظر الى الناس نظرة الراعى الى القطيع ونظرة السيد الى الرقيق !

« وانما أقامت أمريكا ثورتها وأحدثت اصلاحها بفضل رجل واضح بسيط ، هادىء ضاحك ، لا يعنف ولا يقسو ولا يثور ، وليس من إلفه أن يتآمر ويسعى فى الظلام . . زعامة رجل تخلو حياته مما يثير من صور العنف واحداث المغامرة ، وان كانت تحفل بما يعجب من مواتاة التوفيق وألوان الكفاح . زعامة رجل له من شخصيته وإيمانه ما يجمع حوله قلوب أغنى الشعوب وأرقاها ، ويحملها على أن تضحى فى سبيل الحياة التى ارتضتها والحرية التى أعزتها »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



يطوف دائرته الانتخابية كان ذلك فى سنة ١٩٣٢، وكان الرئيس روزفلت يومئذ محافظاً لمدينة نيويورك ، فلما بدأت المعركة الانتخابية كان هو فى طليعة المرشحين. وتراه هنا يلوح بقبعته وهو يبتسم رداً لتحية الآلاف المؤلفة التى احتشدت لاستقباله والحفاوة به أثناء طوافه بدائرته الانتخابية .. وكان الرئيس يومئذ مرشح الحزب الديمقراطى . فخرج من المعركة منتصراً ، وبأغلبية ساحقة

اجنحة التوفيق

-١-

سأل الصبي أبويه عن طائفة من صور الرجال تزين غرفة المائدة ، فبدأت أمه تقص عليه قصة أسلافه : فهذه صورة « ديلانو » الذى هاجر من هولندة منذ ثلاثمائة عام وأقام فى أمريكا حيث امتهن الملاحة والتجارة فأصاب جانباً من المال اشترى به أرضاً عاش فيها وأبناؤه عيشة السراة . . وهذه صورة أبيها الذى أبحرت معه فى صباها الى الصين ليملأ منها سفينته الكبيرة بأحمال الشاى، فماجت بها الانواء وعصفت بها الأعاصير فأغرقتها فى عرض المحيط . . وكان أفراد هذه الأسرة أولى عزم وطموح فأصابوا ثراء واسعاً وصيتاً بعيداً ، فلما ذهب الصبي مع أمه الى فرنسا رآها تدعى الى حفل فى قصر فرساى وتقدم الى نابليون الثالث وزوجه ريوجينى . وقد صهرت الأسرة الى كثير من الأسر التى وفدت من أرجاء أوربا . فكان الدم الجارى فى عروق الصبى مزيجاً من الدماء الهولندية والانجليزية والألمانية والفرنسية

ثم أنشأ أبوه يقص على ابنه سيرة أسرته ، فقال إن كلمة «روزفلت» اسم قرية وفد اليها جده « كلايس مارتنس » فى منتصف القرن السابع عشر ، وأقام فيها يزرع الارض ويحيا حياة جاهدة عسيرة حتى مات عن جمع من الابناء والأحفاد . فارتحل أحدهم الى مدينة نيويورك يعمل فى تجارة الملابس وحيا كتها ، فجمع مالا وعمر طويلا . وتوارى فى قبر كان حفر عليه رسماً لثلاث ورود تحتها الحكمة اللاتينية القائلة : « من زرع زرعا تعهده ورعاه »

فكر الصبى فى هذه الحكمة : أيريد بها جده ان ينصح ذريته أن تتعهد ما أورثها من الاسم والمال ، أم يريد ان يقول إن الله الذى أغناه من فقر كفيل بأن يرعى بنيه ؟ إنها حكمة مزدوجة فيها نصيحة بالعمل والحرص ، ونصيحة بالتوكل والايمان

واستطرد الأب فى قصته فذكر جده اسحق الذى أقام معملا لتكرير السكر ثم اختير رئيساً لبنك نيويورك ، فذاع اسمه وأثرى لولا انه كان يؤثر الحرية على المال فترك معمله ومصرفه وساهم فى حرب الاستقلال ، ثم هجر المدينة الصاخبة ليحيا حراً طليقاً فى رحاب الريف . . وكان خليقاً بالصبي أن يسخط على هذا الجد الذى أضاع على أولاده تراثاً ضخماً حين باع أرضه فى المدينة بثمن زهيد ، ولكنه ، على النقيض ، أحس ان هذا الرجل أسدى اليه خيراً حين أطلقه مما فى المدن من ضجيج وتناحر ومشاق ، وجنح به الى هذه الحياة الوادعة على ضفاف النهر وفى أرجاء

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



أمام الميكروفون

كانت ولاية « كانساس » إحدى الولايات التي طاف بها روزفلت في انتخابات سنة ١٩٣٢ ، وتراه هنا يلقي إحدى خطبه أمام الميكروفون في إحدى الحفلات الانتخابية التي أقيمت لتأييد ترشيحه . .



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

روزفلت الكشاف

وهذه صورة طريفة للرئيس روزفلت أثناء زيارته لمعسكر الكشافة في ناردسبورج سنة ١٩٣٣ حيث قوبل بحماسة منقطعة النظير . وتراه فيها وقد زين رأسه بزينة مما يزين به زعماء الهنود الحمر رؤوسهم ، ومد يديه يتناول نموذج خيمة من خيامهم أهدى اليه تذكاراً لهذه الزيارة

الحقول . وكذلك فعل أبوه حين كره أن يبقى طبيباً فى المدينة وآثر ان يعود الى القرية ، فينعم فيها بحياة رضية بين زوجه وولده وكتبه فى الأدب والدين

وأراد الصبي أن يكمل هذه القصة بنفسه فرأى ان أباه ورث هذا الميل الى الحياة فى الهواء الطلق والأرض المنبسطة ، فتعود أن يمضى الشتاء فى نيويورك حيث يعمل وكيلا لاحدى شركات السكك الحديدية ويجمع ثروة من ثلاثمائة الف دولار ، ثم يمضى الصيف فى الريف حيث أقام بيتاً جميلا يجرى من تحته النهر وتنبسط حوله الحقول وتقوم الى جانبه أجمة من الأشجار

وأخذت أسارير الطفل تنفرج وتنبسط وكأنما بدا عليه انه فخور بهؤلاء الآباء الذين أسدوا اليه الخير والجميل ، إذ جمعوا له من المال ما يمكنه من الحياة الرضية الوادعة ينطلق فى رحابها فرحا ضاحكا مستمتعا ، ونأوا به عن المدينة حيث لا هم للناس سوى المال يسعون اليه جاهدين متدافعين، ذلك انهم لم يريدوا من المال الا القدر الذى ييسر لهم سبيل الحياة ويهيىء لهم جو الحرية ، فان أراد أن يسترقهم لسحره وسطوته انصرفوا عنه وأغفلوه ، وجنحوا الى الريف يلتمسون فيه حياة بسيطة طليقة فيها راحة ومتاع

وطافت ذاكرة الصبي بالسنين القلائل التى أمضتها فى الحياة فلم تذكر الا طفلا ولد سعيداً ، وصبيا نشأ ضاحكا ، ومرت بهما الايام تفيض مرحا وأملا وجمالا . فلم يكن للصبي أخ ولا أخت فى سنه فنشأ مدللا منعما . كان أبوه يمضي أكثر وقته بصحبة ولده يتريضان على ضفة النهر ويجوسان خلال الحقول ، ويتحدثان عن الشجر والثمر والطير والحيوان وأمور الناس ، ويركبان النهر من حين الى حين ليريا القرى والمدن والغابات، فعرف الصبي عن طريق البصر والسمع كثيراً وان لم يجلس الى المدرس ولم يقرأ الا قليلا ، ذلك أنه بلغ الخامسة عشرة دون أن يدخل مدرسة ما ، الا حين سافر أبوه الى المانيا يستشفى فى مياهها فأرسله الى المدرسة بضعة شهور . وكان الصبي ينبض بالصحة والنشاط ، فتعلم ركوب الخيل وما زال فى سن السابعة ، وأهداه أبوه حصانا صغيراً ، وتعلم رياضة الرمح والسهام وأخذ يمارسها ساعة كل يوم ، وجاء له أبوه من أوربا بعصي وكرات ليلعب بها رياضة النبلاء الجديدة « الجولف » ، ثم أتى له ببندقية لا ليقتل الطير بل ليصيد من كل طائر زوجا يتعهده ويداعبه . .

وبدأ الصبي يدرك فى هذه السن الباكرة ما بين الغنى والفقير من الجفوة والنفور ، فهؤلاء أقرانه من أولاد الاغنياء يختالون عليه بما لآبائهم دون أبيه من القصور والمزارع والعربات ، وهؤلاء صحبه من أولاد الفقراء ينظرون اليه نظرة فيها من التهيب والتردد ما يشبه النفور والعداء . ومع أن الصبي لم يعتزل أحداً لأنه يسكن قصراً ، أو لأنه يأوي الى كوخ ، بل كان يشارك أبناء السراة رحلاتهم وألعابهم ويرتع مع أولاد الزراع فى أرجاء الحقول ، الا أن ظلا من الأسى كان يطوف بذهنه كلما فكر فيما يديه الغنى من الكبر والخيلاء ، وفيما يكنه الفقير



الأسرة تتقبل التهانى

على شرفة منزله الخاص فى «هايدبارك» وقف الرئيس روزفلت بين أفراد أسرته يرد تحية الجماهير المحتشدة لتهنئته والهتاف له لمناسبة انتخابه للرئاسة فى انتخابات سنة ١٩٣٦ . وتراه وعن يمينه والدته وزوج ابنته وعن يساره ابنة فرانكلين ، فمسز اليانور روزفلت عقيلة الرئيس

يقسم اليمين للدستور

الرئيس روزفلت ، يقسم اليمين للدستور عقب انتخابه رئيساً للجمهورية . . وهذه اليمين هى إحدى التقاليد الدستورية التى لا يمكن لرئيس الجمهورية أن يباشر سلطته قبل أن يقوم بأدائها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من النقمة والبغضاء . وأخذ هذا الشعور يشمله ويغمره كلما ذهب صباح الأحد الى الكنيسة واستمع الى الواعظ ينذر الغنى أن لن يدخل الجنة الا أن يدخل الجمل فى سم الخياط ، ويعد الفقير أن له فى نعيم الجنة خير العوض وأحسن الجزاء . فاذا عاد الى البيت أخذ أبواه يلقيان اليه أن ليس الغنى الا وسيطاً بين الله والفقير ، وأن للمحروم فى مال الغنى قسطاً ونصيباً ، وأخذا يتلوان عليه آيات من هذا الأنجيل الذى توارثته الاسرة عن أسلافها منذ مئات السنين ، فبذرا فى صدره الغض بذوراً من التدين والتقوى أخذت تنمو وتزكو حتى آتت ثمارها فى قابل الايام ..

وكان أبوه لا يفارقه الا لماما ، فهذه لحيته المرسلة على عارضيه تريد أن تضرب الى البياض ومع هذا لم ينجب سواه الا ابنا من زوجه الأولى التى أمضى معها عشرين عاما وظل بعد موتها أرملا حزينا سبع سنين . وكان هذا الابن قد جاوز سن الشباب واستقل بأمره عن أبيه ، فانصرف الرجل الى ابنه الصغير يعلمه ويهذبه بما يلقيه اليه من الدروس ، وما يدور بينهما من الاحاديث ، وما يقومان به من الرحلات . فهذا « اليخت » الصغير يقوده الصبى بنفسه ويروح بهما ويغدو فى نهر الهدسون ، فيرى الصبى كثيراً من أرجاء أمريكا وما فيها من مشاهد التاريخ ، ويسمع من أبيه قصصا شائقا عما دار فى هذه الارض من معارك وشب من ثورات ، ويمر أمام هذه الدور التى تقرر فيها تحرير أمريكا من ربقة الانجليز واطلاق الرقيق من يد البيض ، ويشرئب بنظره الى هذه التماثيل الرائعة التى أقامها الشعب رمزاً لمثله العليا وتمجيداً لأبطاله الخالدين . .

ثم ها هو يذهب مع أبويه الى أوربا ثمانى سنين متتالية فيمضون شهور الصيف فى أرجاء انجلترا وفرنسا والمانيا ، فيرى الصبى بعينه كثيراً من مشاهد الارض وشعوبها ، ويتعرف الى كثير من العادات والاخلاق ، ويلم بطرف من بعض اللغات . ويبدأ الصبى فى هذه السن يقارن بين أوربا وأمريكا ، فيرى أن العالم الجديد على حق حين ينظر الى الدنيا القديمة معجبا حينا ، مغضبا حينا ، متحيراً دائما . ويأخذ كذلك يقارن بين الانجليز وحريتهم والالمان ونظامهم ، فأولئك أباحوا له أن يدخل متحفا كان يزوره « البرنس اوف ويلز » وحاشيته من الاعيان والوزراء ، وهؤلاء عاقبوه بالزجر والتأنيب أربع مرات فى يوم واحد ، مرة لأنه تسلق سور بستان يقتطف منه الكرز ، ومرة لأنه دخل بدراجته غرفة الانتظار فى إحدى المحطات ، ومرتين لمثل هذا وذاك من عبث الاولاد !

هكذا تكون تفكير الصبى وشعوره خلال هذه الرحلات بين ضفتى نهر الهدسون أو فى عرض المحيط الاطلسى ، فأحب منظر الماء الجارى والتيار الدافق والموج الصاخب والزبد الرابى ، وأحب حياة البحر على ظهر القوارب والسفن وبين البحارة والسفر ، وأخذ خلال ذلك يفكر فى أسلافه الذين احترفوا الملاحة والتجارة ، وشرع يقرأ من كتب أبيه ما يتناول قصص الملاحين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

بإبهامه

فى إحدى المآدب الرسمية التى أقيمت فى واشنطون سنة ١٩٣٩ ، مال الرئيس روزفلت على وكيله المستر جون نانس جارنر يهمس فى أذنه ويشير بإبهامه الى ناحية اليسار كأنه يريد أن يلفت اليها أنظار جاره ، فسجلت « العدسة » لها هذه الصورة فى هذا « البوز » الطريف

دكتوراه فخرية

فى سنة ١٩٣٦ قررت جامعة « تمبل » بفلادلفيا منح الرئيس روزفلت الدكتوراه الفخرية فى القانون . . وتراه هنا يتسلم اجازتها من عميد الجامعة المذكورة فى الاحتفال الذى أقيم إحياء لذكرى تأسيسها والذى كان الرئيس خطيبه وضيف الشرف فيه

والرواد : وكأنما كان يدرك أن تاريخه سيرتبط بالنهر والبحر دائما ، وأن الماء سيكون سبب أمله ، ومصدر مجده ، ومدار حياته !

على أن المرء لا يمكن أن يمضى حياته بين أبيه وأمه وصحبه ، وألا يعرف من العالم سوى الرحلات والرياضة والكنيسة ، بل لا بد من المدرسة تقيد من حريته وتفرض عليه الطاعة وتعلمه أداء الواجب

- ٢ -

كان مفروضا أن ينعم الصبى بحياته الجديدة فى مدرسة « جورتون » ، فهو على جانب من الذكاء ييسر عليه الدرس ويحبب فيه الدرسين ، وهو يمتاز على أقرانه بما تعلم أثناء رحلاته من مبادىء الفرنسية والالمانية ، وله من الجسم النامى والصحة النابضة وحياته الاولى بين النهر والحقل ما يفوقه على منافسيه فى العدو والسباحة ورمى السهام ، هذا الى أن له من ثراء أبيه ورعايته ما يمكنه من أن يزهو باللباس القشيب والمال الوفير . ولكنه مع هذا يضيق بحياته ذرعا : لعله سىء بها أن حرمته من الحرية وفرضت عليه من الطاعة ما لم يألفه طول صباه ، ولعله كره منها ما يدور بين أقرانه من الحديث التافه السخيف ، وخصوصا بين أولئك التلاميذ الذين لايتباهون إلا بما لآبائهم من الاموال والاملاك ، ولا يختالون إلا بما يرتدون من الملابس والازياء . . فكر اذاً فى أن يترك المدرسة فغادرها سراً ليعمل بحاراً فى الاسطول الامريكى ويساهم فى الحرب القائمة بين أمريكا واسبانيا ، فلا يغضب أباه لأنه لم يدع المدرسة الا ليكون بطلا وطنيا مقداما ، ولكنه وجد أن المرء لا يمكن أن يكون بحاراً فى سن السادسة عشرة ، فعاد الى المدرسة آسفا !

وأمضى فى المدرسة ثلاث سنين ذهب بعدها الى جامعة « هارفارد » ، وهناك بدأ الشاب حربه على أولئك الطلاب الاغنياء الادعياء . كانت حرب البوير حينذاك قائمة بين الانجليز والهولنديين ، وكان هؤلاء الاغنياء فى صف الانجليز النبلاء الاثرياء لأن دمهم هو الدم الانجليزى الارستوقراطى ، بينما انحاز التلاميذ الفقراء الى الهولنديين البحارة الصيادين لأن دمهم شبيه بالدم الهولندى المتواضع . . . فانحاز الشاب الى الهولنديين لأنهم أجداده ، ولأنهم محقون ، ولأن صفهم هو صف الفقراء ، وأخذ يتحدث الى الطلاب منددا مزريا بمن يؤيدون الانجليز ، مجافين روح العدالة ، ليقال إنهم من أبناء الأثرياء النبلاء !

وتبدى هذا النفور من الاغنياء حين جاء انتخاب نادى الجامعة الذى استأثر بعضويته نفر من الطلاب امتازوا بملابسهم وعرباتهم وان لم يمتازوا بشىء من الكفاءة والذكاء فكتب رسالة يقول فيها « ان الطلاب يتفاضلون بملكاتهم لا بأملاكهم ، فيجب ألا يمثلهم إلا أكفؤهم وأذكاهم » فنجح فى تمثيل الطلاب الفقراء فى الجامعة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



الرئيس يستعرض الاسطول

كانت أمنيته وهو طفل أن يغدو بحاراً بالاسطول الامريكي ، حتى لقد هرب من مدرسته ذات مرة ليلتحق بالاسطول لولا أن سنه لم تكن تسمح يومئذ بقبوله . . وها هو ذا يستعرض الاسطول الذى كان يحلم به ، لا كبحار ، ولكن كرئيس أعلى للدولة والاسطول والجيش على السواء

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

روزفلت الخطيب

صورتان طريفتان للرئيس روزفلت فى بعض مواقفه الخطابية الرائعة . والرئيس من أقدر الناس على الخطابة وأكثرهم تأثيراً على سامعيه

كان المفروض أن يكون هذا الشاب فى صف أبناء السراة لا أبناء العامة ، فله من ثروة أبيه وأمه ما يباهى به أولاد الاغنياء ، ولكنه رأى نفسه نافراً من أبناء طبقته جانحاً الى أبناء الطبقة الفقيرة ، ورأى نفسه فى خصام وشجار مع من كان ينبغى أن يصالحهم ويصافحهم . فكان هذا بدءاً لحياة متصلة من الكفاح ـ الكفاح الذى لم يفرض عليه ولم يدفع اليه ، وانما سعى اليه من تلقاء نفسه وبمحض اختياره . وألف الناس أن يؤثروا الدعة والعافية ويلتمسوا السلم والسلامة ما وجدوا الى ذلك سبيلا ، أما هو فيشق بيديه طريق الكفاح ، ويأتى بنفسه الى ساحة العراك ، ويهيىء لنفسه أسباب الهجوم والنزال . وهذا نذير بأن كل معركة يخوضها ستكون من خلقه وصنعه دون أن تفرض عليه ويكره عليها ، ذلك ان فيه من فيض القوة وقوة النشاط ما يحمله على إيثار العمل المتصل والحركة الدائبة والكفاح العنيف ، على ما فى ذلك من الجهد والعنت والعناء

برز اسم هذا الطالب وأخذ يدور على ألسنة الطلاب ، فأصدر مجلة صغيرة أنشأ فيها فصولا تدل على متجه تفكيره ، فهذا ميله الى السياسة يبدو فى مقال يشير على الجامعة أن تدعو رجال السياسة البارزين ليحدثوا الطلاب عن شؤون السياسة الجارية وآرائهم فيها ، وهذا ميله الى الاصلاح يظهر فى مقال آخر كتبه أثر حريق وقع فى الجامعة عما يجب أن يتخذ من وسائل الوقاية والاطفاء . وألقى اليه مدير الجامعة بحديث عن أمر من أمور السياسة فنقلته عن مجلته الصغيرة جميع صحف أمريكا الكبرى ، وبدأ الطالب يدرك ما لاسم الأسرة من فضل فى تيسير الشهرة لأبنائها يوم جاء عمه « تيودور روزفلت » رئيس الجمهورية ليزور معهده القديم ، جامعة « هارفارد » ، فسمع الشاب اسمه يدور يومها على ألسنة الطلاب والمدرسين

وأخذ يتجه منذ ذلك الحين الى الحياة السياسية فدرس تاريخ أمريكا وعلم السياسة وأصول القانون ، وكذلك كان قيام عمه فى رئاسة الجمهورية حافزاً له على التفكير فى السياسة والطموح الى مناصبها

ـ ٣ ـ

تهيأ لهذا الشاب من الصفات ما يؤهله للفتاة التى ينشدها ، فصحته البادية تعدها بأطفال أصحاء أقوياء ، وصورته الوسيمة تحمل صديقاتها على الغبطة لها أو الغيرة منها ، والشاب من أسرة عريقة الاسم ذائعة الصيت وعلى رأس الجمهورية رجل منها ، هذا الى انه ورث عن أبيه الذى مات عنه فى الثامنة عشرة أملاكا تدر عليه كل سنة خمسة آلاف دولار ، ولأمه من الثروة زهاء ما ورث عن أبيه

ولكن الشاب ظل الى سن الثالثة والعشرين مستكناً تحت جناح أمه منعزلا عن الفتيات والنساء . فان هذه السيدة التى ترملت فى سن الأربعين انتقلت مع وحيدها الى حيث تتعهده



ابن بار

كان فرانكلين روزفلت باراً بأمه في جميع أدوار حياته ، يرجع الى استشارتها في كل الأمور ، ولا يتوانى عن زيارتها بين الفترة والفترة . ومن زياراته التاريخية لها تلك التي حدثت بعد نشوب الحرب الحاضرة بأيام ، فقد سافر روزفلت لزيارة والدته ليجد في قربها بعض ما ينشده من راحة على أثر عمله المضني ومحاولته في منع الحرب.. وها هو ذا مع والدته في السيارة التي اقلته من المحطة الى منزلها في تلك الزيارة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



الرئيس المتدين

يعد الرئيس روزفلت في مقدمة المتدينين الامريكيين رغم ما تفرضه الرياسة عليه من أعباء. وقد التقطت له هذه الصورة في أثناء عودته وزوجته من الكنيسة الى دار الرياسة

وترعاه أثناء دراسته فى الجامعة ، فاقتصرت صلة الشاب على فتيات أسرته ، وهى صلة ليس فيها من الحب والرغبة قدر ما فيها من المودة والقربى . ولكنه القدر - كما يقول جوتيه - يحقق رغائبنا وآمالنا ، وان كان على الصورة التى تتراءى له دون حاجة الى نصيحتنا ومشورتنا ، وهذا الشاب قد أوتى ما يمكن أن نسميه «غريزة السعد» التى تهديه سبل الخير وأسباب السعادة ، فلماذا لاتوفقه الى ابنة عمه « اليانور » التى كأنما أعدها له القدر إعداداً ؟ فقد ورثت عن أسرتها كثيراً مما ورث من الفضائل والسجايا يعززها الزواج وينميها ، كما انفردت دونه بطائفة أخرى من الخصال والطباع تكمل ما ينقصه وما يفتقده منها

أمضت « اليانور » ، كما أمضى فرانكلين ، عهد الصبا بين الحقول والاشجار فى كفالة جدتها فى ريف انجلترا ، وورثت عن أمها التى ماتت عنها وهى فى الثامنة وعن أبيها الذى لحق بأمها بعد سنتين ، إيراداً يوازى ايراد الشاب ، ونشأت ، كما نشأ ، فى وسط يحفه روح من الدين والتقوى يعطفها على الفقير الضعيف وينفرها من الجشع المختال . ولكن يتمها الباكر نأى بها عن حياة المجتمع النابضة النشيطة ، وحبب اليها الحياة المنعزلة المنفردة تنصرف فيها الى القراءة والتفكير . وقد مرت الحياة بالشاب هادئة وادعة بين أبيه وأمه وهما يعرضان أمامه الدنيا ويشرحان له الناس ، أما الفتاة فلم تجد من جدتها الفانية ومن مربيتها الفرنسية ما يغنيها عن تقليب ذهنها وفكرها فيما يعرض لها من الأمور ، فكان للفتاة من نشاط الذهن مثل ما للفتى من نشاط الشعور ، وبقدر ما كان الشاب يؤثر حياة المجتمع والحركة ، كانت الفتاة تجنح الى العزلة والتفكير . وان هذا الفارق بينهما ليبدو فى نبرة صوتيهما ، أما هو فصوته مشرق مبتهج واضح الرنين ، أما هى فى صوتها من الخفوت والهدوء ما ينم عن الألم الدفين . ثم ألم يجد الشاب ان هذه المشاعر الغامضة التى يحسها قبل الاغنياء والفقراء تتمثل فى ذهن الفتاة آراء واضحة ناضجة استقتها من القراءة الطويلة ، فعندها مكتبة حافلة بالكتب التى تبحث علاقة الغنى بالفقير ، أو كما قالت له ، علاقة المال بالعمال ؟ . إنه إذاً لمن التوفيق والبشرى أن يقترن فرانكلين باليانور ، فيكونا « زوجاً » مكتمل الفضائل متوافر الشمائل

وتزوجا فى حفل رائع عظيم أعده عمهما رئيس الجمهورية وكان يحبهما حباً جماً وينزلهما من قلبه منزلة الابن والابنة ، فوقف الى جانب العروس الحيية المتهيبة يهنئها قائلا : « أحسنت صنعاً يا إليانور ؟ إذ احتفظت باسم روزفلت مدى الحياة »

ولا شك ان هذا العم الذى تلتقى عنده الأبصار وتدور عليه الأحاديث ، والذى أرسل اسم « روزفلت » ذائعاً مدوياً فى أرجاء أمريكا وأقطار الدنيا ، والذى ينظر اليه الشباب الامريكى معجبين بتاريخه الحافل وشخصيته المتألقة ، قد أثار فى هذا الشاب كثيراً من الآمال والأحلام ، فأخذ فيما بينه وبين نفسه يسأل ويجيب : أليست هى السياسة التى مكنته من الشهرة الدائمة وأحلته



دار الامة في واشنطون

هذه هي سراى « الكابتول » حيث يجتمع مجلس الأمة الامريكى «الكونجرس» الذى يستمد منه رئيس الجمهورية سلطته. وقد التقطت هذه الصورة فى سنة ١٩٣٠ إذ انتهز مصور المنطاد الامريكى الكبير «لوس انجلوس» ، اعظم منطاد عند الولايات المتحدة فى ذلك الوقت ، فرصة تحليقه فوق العاصمة الامريكية فالتقط لها طائفة من الصور من الجو ، ومن بينها هذه الصورة لمجلس الأمة

هذه المكانة الرفيعة ، فلم لا يلق بنفسه فى غمارها وله من الاسم ومن المال ما يمهد له سبيلها ؟ وهل يمتاز عنه هذا العم إلا بفهمه لشؤون الحكم والسياسة مما تمكن معرفته بالقراءة والكتابة ، وبمقدرة فى الخطابة يمكن اكتسابها بالتدريب والممارسة ، وبجماعة حوله من الانصار والدعاة يمكن تأليف جماعة مثلها من الأصدقاء والزملاء ؟ ولكن الشاب يثوب الى نفسه ويفيق من حلمه ، فيجد الأمور أشق مما يقدر والطريق أطول مما يري ، فان عمه لم يرق هذا المكان إلا عن طريق المغامرة والحظ ، والمغامرة تصيب حيناً وتطيش أحياناً ، والحظ يصادف رجلا ويخطيء سائر الرجال . فقد ترك عمه حياة الدعة والسلم ونزل الى ساحة الحرب حيث امتطى صهوة جواد لينازل الأسبان ، فأخذ يتمثل للناس فى صورة البطل الذى نذر نفسه ذوداً عن الوطن ودفاعا عن الحرية ، ولما رأوه يخطبهم ويثيرهم وهو على متن الجواد الذى خاض به عثير المعارك رفعوه الى منصب وكالة الجمهورية . ثم واتاه الحظ فرفعه الى منصب الرئاسة دون سعى وكفاح حين خلف بحكم الدستور رئيس الجمهورية « ماكنلى » الذى أرداه القدر بيد احد الجناة . فهل يجد الشاب فى نفسه القدرة على أن يلقى بنفسه فى معترك هذه الحياة السياسية مغامراً مجازفا ، فاما واتاه التوفيق وإما انتهى الى الاخفاق ، وهل ثمة ما يكفل له أن الحظ سيوافيه فى الساعة التى تتهيأ فيها فرصة الوثوب الى حيث يريد من المنصب الرفيع والشهرة الذائعة ؟ أم هل يخلد الى حياة الراحة والهدوء التى آثرها أبوه وجده فى هذه المزرعة الجميلة الوادعة ، فلا يرهق نفسه عسراً وعنتاً ، ولا يرهن نفسه بمصير غامض مجهول ، ولا يحرم نفسه مما تهيئه له الحياة من البهجة والمتاع ؟

جاشت هذه الخواطر بذهن الشاب بضعة أيام فتحدث عما يساوره الى عروسه حديثاً غامضاً ، ولكنها لم تعلق بذهنه طويلا فان الحياة من حوله تضج وتدور وهو يلقى بنفسه فيها مبتهجاً بها مقبلا عليها . وكذلك لم تلق اليها الفتاة بالا فما كانت تفكر فى أمور السياسة قدر ما كانت تفكر فى أمورها الخاصة : تفكر فى هذا الزوج الذى يحبها ويرعاها ولكنه يتركها من حين الى حين ليذهب فى رحلة طويلة مع صحبه ورفاقه ، وتفكر فى هذا الجنين الذى ينشىء فى دخيلتها حياة أفسح وأبهج من الحياة التى تموج حولها وتضطرب

وأخذ الشاب يستأنف دراسته فى مدرسة القانون بكولومبيا ، ولكنه وقد أمضى حياته الاولى بين الحقل والغابة يصيد السمك والطير لاهياً ، لم يحس فى نفسه رغبة فى الدرس وإقبالا على الكتاب ، فمكث فى المدرسة حتى سن الخامسة والعشرين دون أن ينال إجازتها وان أبيح له أن يمارس المحاماة ، فاتصل باحدى شركاتها فى المدينة وقام بدراسة بعض القضايا ، على أنه لم يبد ميلا الى هذا العمل الجاف الذى كان ينظر اليه على انه مجرد وسيلة للاتصال بالمجتمع ودراسة شؤون الناس أكثر مما يرجو أن يجمع منه مالا أو ينشىء عليه مستقبلا ، فكان يترك مكتبه من آن لآن إلى مزرعته يتعهدها وينميها ، ويتجول فيها بصحبة أطفاله الثلاثة كما كان يتجول مع أبيه منذ سنين

— ٤ —

لو مضت الحياة فى طريقها المألوف لأمضى هذا الشاب حياته فى هذه المزرعة يلقى فيها الحياة السعيدة بين حقول الغلال وأشجار الغابة وحظائر الماشية ، وبين هذا القارب الذى ينقله وزوجه وأطفاله ساعة فى كل صباح ، ولكن ليس كل من يحيا حياة الدعة والهدوء ضيق الأفق راكد الأمل مبتور الطموح ، فقد تكون دخيلة النفس أفسح مراداً وأشد تعقيداً من الحياة الظاهرة ، وقد تخفى السمات المرسلة الساجية نفساً مسترسلة الأمانى مضطربة الآمال ، وهكذا شأن هذا الشاب الهادىء ، فما أن يسمع أصدقاءه يشيرون عليه ان يرشح نفسه نائباً فى ولاية نيويورك حتى يأخذ برأيهم وينزل الى معركة الانتخاب رغم أن احتمال الفشل أدنى من احتمال النجاح ، فان الحزب الذى سيرشحه هو الحزب الديمقراطى وقد أخفق جميع من رشحهم الحزب فى ولاية نيويورك خلال السنين الخمسين الماضية ما عدا عمه تيودور ، وهو وان كان لا يفرق بين الحزب الديموقراطى والحزب الجمهورى فى شىء لأن الاسباب التاريخية التى أدت الى قيامهما والى تشيع الناس بينهما زال أمرها منذ عهد بعيد ولم يعد من خلاف بينهما فى المبادىء والأنهاج ، الا أنه يجارى أسلافه ويستأنس بعمه وينضم الى الحزب الديموقراطى

وازن الشاب بين دواعى النجاح وعوامل الاخفاق فى هذا الانتخاب فلقى فى احدى الكفتين شاباً فى الثامنة والعشرين لا يحسن خداع المنافسين وإغراء الناخبين ، ولكنه وجد فى الكفة الاخرى اسماً ذائعاً وثروة وافرة وصلات بالناس من الود والحب ، فرجح هذه على تلك وألقى بنفسه فى معترك الانتخاب قائلا : إن نجحت فستكون هذه هى الخطوة الاولى فى الطريق الذى شقه عمى من قبل . فقد بدأ حياته السياسية نائباً عن ولاية نيويورك ، أما ان فشلت فلا بأس علىّ ، فسيهيىء لى هذا جواً من الكفاح الذى أوثره على الهدوء ، وسأشبع نهمى الى معرفة المجتمع والاتصال بالناس

وأخذ يقلد فن عمه فى التأثير فى الناس ، كان تيودور يخطبهم على صهوة جواده ، فليخطبهم فرانكلين على ظهر سيارته ، وكانت السيارات حينذاك – سنة ١٩١٠ – شيئاً جديداً فى أمريكا لا يراها أهل القرى الا قليلا وتجفل الخيل كلما دنت منها ، فأخذ ينتقل فى أرجاء الولاية فى هذا المنظر الغريب الذى يجتذب أفواج الناس ، فيخطبهم عشرين مرة ويصافح مئات منهم كل يوم . على أنه أراد أن يتمثل بعمه حين يخطب فى التلويح بيديه يميناً ويساراً ، وتغيير أسارير وجهه دلالة على الحزم والبأس ، فبدت صورته تكاد تضحك منه الناس ، فعدل عن هذا الاسلوب من التجهم والاستثارة ، وظل الى اليوم يخطب متئداً متزناً وقوراً ، مكتفياً بما تؤديه شخصيته وآراؤه من التأثير والاقناع

ويقال إنه ذهب الى احدى القرى متنكراً فى هيئة رجل مرسل اللحية كث الشارب وعلى عينيه نظارة سوداء ، ووقف وسط الجمهور يقول ان روزفلت قعد به المرض عن شهود هذا الحفل فندبنى لأنوب عنه فى عرض برنامجه السياسى ، ثم تدفق فى بلاغة وذلاقة ، وأخذ يجيب السائلين بسرعة خاطر وطلاقة لسان ، فأنصتوا له فى إعجاب وإكبار حتى اذا فرغ من خطابه صاح به بعضهم : «ولماذا لا ترشح أنت نفسك ؟ فانا نريد أن ننتخبك بدلا منه » . فرفع روزفلت عن وجهه لحيته وشاربه ونظارته قائلا : « ان الذى تؤيدونه وتعاهدونه بالانتخاب ليس إلا روزفلت نفسه ! »

وكان مدار كلامه الى الناخبين على واجب الحكومة قبل الشعب ، وحق الفقير فى مال الغنى، أى انه تحدث اليهم ـ كما قال بعد عشرين سنة ـ « عما يجب أن ينالوه لا عما يمكن أن ينالوه » . فلما جاء يوم الانتخاب أعاد روزفلت ولاية نيويورك الى حظيرة الحزب الديموقراطى ، فقد نال خمسة عشر الف صوت متفوقا بألف صوت على منافسه الجمهورى، فكان هذا النصر لشخصه لا لحزبه ، لشخصه الذى يستمد قوته ونفوذه من التواضع والسماحة والوضوح ، لا من الكبر والخيلاء والتعقيد

وكان من عادة النواب أن ينزلوا فى فنادق « البانى » عاصمة الولاية خلال الفترة الوجيزة التى يقوم بها المجلس النيابى ، أما روزفلت فانتقل الى العاصمة مع زوجه وأطفاله وأقام فيها قريباً من « الكابيتول » ذلك انه رأى ان « الانتخاب » قد يكون دعاية ولهواً ، أما « التمثيل » فيجب ان يكون عملا وانتاجاً ، فهو يقول : « قد تكون لحظة النجاح الأولى أخطر أزمة فى مجرى حياة المرء الذى يريد أن يتخذ السياسة ، فان عمله قبل هذه اللحظة قائم على النظريات والوعود ، أما الآن فهو مطالب بالعمل والتنفيذ » . فهو ليس بالرجل الذى يعد الناخبين ويمنيهم حتى اذا ما فاز بأصواتهم أخلف وعده وأغضى عن واجبه ، فاذا جاء الانتخاب الثانى عاد يقسم ويؤكد أن سبق بما أخلف وأن سيذكر ما نسى ، فان كان ماكراً خدع الناس وان كانوا أمكر منه خذلوه . .

على أن روزفلت الذى صدق وعده مع ناخبيه خيب ظن حزبه فيه . ظن زملاؤه أن هذا الشاب الذى يصغرهم سناً وتجربة ، والذى يبدى الفرح بفوزه والغبطة بمكانته الجديدة ، سيكون مرناً ليناً يوجهونه كيف شاءوا ، فاذا به يفاجئهم بحرب لا مبرر لها ولا هوادة فيها . ثارت فيه غريزة النضال التى تدفعه الى تلمس وجوه الصراع وابتكار أسباب الكفاح ، فى حين أن كل ما حوله يدعوه الى السلم ينعم فيها بالراحة والعافية ويحظى بالرضى والثناء . أراد الحزب أن يرشح رجلا اسمه « شيهان » عضواً عن الولاية فى مجلس « الكونجرس » ، وكان الرجل محامياً صاحب الضجة شديد الدعوى ، وكان محدثاً جمع مالا من مغامراته فى أسواق المال ، وكان ينفق على الحزب ورجاله بسخاء . فهو من هذا الطراز الذى ينفر منه روزفلت ويزدريه منذ حداثته

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الاولى . وكان من رأى روزفلت منذ بدأ يفكر فى المسائل العامة أن تفصل السياسة من المال ، فلا تلق أمور الناس الى أولئك الذين يتاجرون فى المال ، فكثيراً ما يضحى هؤلاء بالمصلحة العامة تحقيقاً لمنافعهم الذاتية . فقر رأيه على أن يعارض قرار الحزب وأن يخذل مرشحه ، وأخذ يجمع حوله نفراً من زملائه فاستجاب له عشرون منهم كلهم يكبرونه سناً ، لأنهم رأوه بريئا من المأرب والهوى ، سديد الرأى والاتجاه . .

ثارت ثائرة الحزب على هذا النفر المتمرد المنشق ، وأخذت صحفه الصفراء تلمزهم وتجرحهم فى عنف وقسوة ، وعرضت لحياتهم الخاصة في بذاءة وإسفاف ، وقالت إنه خير لروزفلت الانيق الوسيم أن يدع السياسة لأهلها وليكن ممثلا يستهوى الفتيات والنساء . وأخذ أعوان « شيهان » يرساون لروزفلت وصحابته منذرين متوعدين ، ويبثون حولهم العيون ترصد حركاتهم وتسترق أخبارهم ، وبدأ بعض المصارف والدائنين يرهقونهم باستيفاء ما عليهم من الديون . وكانت هذه الحرب الشعواء كفيلة بأن تفل عزم الشاب الذى لم يألف حياة السياسة الا منذ شهور ، ولكنه ثبت وصمد واستحلف أعوانه ألا يتفرقوا حتى يأتى يوم الانتخاب . وأخذ الحزب يسوف فى الامر أسابيع تلو أسابيع ، دون أن تبدو على روزفلت ورجاله علامة من الردة والتخاذل ، فذهب « شيهان » الى خصمه وأراد أن يسوى الامر بينهما فلم يزد روزفلت الا عناداً واصراراً . فلما جاء يوم الانتخاب استطاع أصغر رجال الحزب سنا وأحدثهم به عهداً أن يفوت عليه غرضه وأن يخذل رجله ، واضطر الجميع الى أن ينزلوا على رأى هذا الشاب ويختاروا رجلا آخر يقبله ويرضاه . . .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

— ٥ —

جاءت سنة ١٩١٢ وأقبل انتخاب الرئاسة ، وتقدم « ويلسون » يرأس الجمهورية . ولم يكن روزفلت قد رأى ويلسون وان كان قرأ شيئا من كتبه ورسائله ،فرأى فيها تعبيراً وتحليلا لما يحس من المشاعر ويقول به من الآراء ، وأحس أنه وجد فى هذا المفكر مثله وأستاذه . وقد قال عنه فيما بعد « انى أدركت من بادىء الامر أن ويلسون نبي . يرى أن قوة المال هى الخطر الذى يهدد الفرد ، وأن تركز الاموال والمصانع فى أيدى نفر قليل هى الصورة التى يتخذها الطغيان فى القرن العشرين ، وأنه اذا لم تتول الدولة الاشراف على المال والصناعة وتوجيههما استرقا واستذلا ملايين الناس »

سافر روزفلت اذاً ليرى ويلسون ويتحدث اليه ، فوجد من سجاياه وذكائه وثقافته ما أسره واستهواه ،لم يلق فيه شيئا من الخصال القوية الاخاذة التى كان يمجدها فى عمه تيودور : هذه الجرأة التى تدفعه الى ساحة القتال مرحا مقبلا ، وهذا الجسد الفارع الاسمر ينبض بالقوة

والفتوة . ولم يجد فيه هذا السيد الريفي النبيل الذي يعيش بين أرضه وزراعه عيشة الرزانة والوقار ، فلا يصرفه حب المال عما يجب لنفسه وللناس من الحقوق . وانما وجد رجلا في الخامسة والخمسين يعيش مستكنا بين الكتب والاسفار ، منصرفا الى الدراسة والتفكير ، فان أقدم على العمل فليس بدافع ذاتي كما هو شأن روزفلت المبتهج بنفسه المغتبط بشبابه المقبل على حياته ، وليس بدافع ما يراه من مشاكل الناس وما يسمعه من شكاياتهم وأمانيهم كما هو شأن روزفلت الذي يحب أن يري أمور الناس قائمة على العرف والمودة والحسنى ـ وانما هو يعمل وفق ماتمليه دراساته المتصلة العميقة في مسائل السياسة والاجتماع . .

وجد روزفلت في ويلسون اذن كل شيء ينقصه : هذه الثقافة الحافلة الشاملة ، وهذا المنطق النافذ الناقد ، وهذا الاعداد النظري الفلسفي . ووجد عنده عرضا وشرحا لما يراه من ضرورة توزيع طيبات الحياة بين الناس توزيعا أكثر عدلا وقسطا . فقر رأيه على أن يلقي بنفسه في معركة الانتخابات انتصاراً لويلسون رغم أن احتمال فوزه كان بسيطا ، فألف جماعة تنادي باسمه وتدعو لاختياره ، وكان لهذه الجماعة الفضل الاول في فوز ويلسون بالرئاسة . .

توثقت الصلة بين الرئيس ويلسون والشاب روزفلت ، فدعاه لبعض المناصب الكبرى فأبى قبولها ، وكان منها منصب مدير جمارك نيويورك ومنصب وكيل وزارة المالية ، ذلك ان الشاب كان ينتظر منصباً آخر لا يرقى عن هذه المناصب ولكنه أدنى الى رغبته وأوفق لاتجاهه ، وهو منصب الوكالة في وزارة البحرية ، فهو يتصل بهذا الماء الذي درج على ضفته وسبح على أثباجه طويلا ، وهو الذي شغله عمه تيودور عندما كان في سنه ، فلما دعاه اليه ويلسون لبى الدعوة مبتهجاً ، وكان في عامه الواحد بعد الثلاثين ، أي أصغر من أقاربه الأربعة الذين تولوا هذا المنصب من قبل !

***

من عادة المرء أن يضحك من أولئك الذين لا يرسلون أنفسهم على سجيتها وفطرتها ويأخذون أنفسهم بالتكلف والتصنع ، ليوهموا الناس بمظهر مزيف لا يلائم طبعهم ولا يجري مع سليقتهم . ولعل هذا شأن من ينظر الى صورة روزفلت حين تولى هذا المنصب العسكري ، فان وجهه المرسل المشرق يريد فيها أن يعبس ويتجهم ، دلالة على الحزم والبأس وإشعاراً بالقوة والهيبة ، ولكن من يرجع النظر في الصورة قليلا يرى روحه الطيب وطبعه الهادىء باديين من خلال هذه السمات المرهفة ، ويرى ان الامر لايعدو هيئة الرجل الواثق من نفسه المعتد بكفاءته ، ذلك أن روزفلت في هذا المنصب المشرف على السفن والبحارة كان « في بيته » كما يجري التعبير الانجليزي ، فله من قراءته ورحلاته ما يمكنه من المناقشة في خرائط البحر وبناء السفن وإعداد الأسطول

وقد أحس روزفلت في أول عهده بهذا المنصب شيئاً من الحرج والضيق ، اذ رأي لأول

مرة فى حياته ــ ولآخر مرة فيها ــ ان عليه من ينقض رأيه أو يلقى اليه أمراً ، وهو الذى تعود أن يطلب فيجاب ، ويأمر فيطاع ، وألا يسأل إلا أمام نفسه وحدها . وهناك مثل يقول ان من لا يعرف كيف يطيع لا يعرف كيف يأمر . ولكن روزفلت الذى لم يعتد الطاعة من قبل أثبت انه خير من يلقى الامر النافذ ، ويصدر الكلمة المطاعة . والواقع ان أكثر رجال التاريخ الذين عرفوا كيف يأمرون ويوجهون لم يعرفوا إلا فى فترة وجيزة من حياتهم كيف يلبون ويطيعون ، ومنهم من لم يستمع أمراً ولم يعرف رئيساً مدى حياته ، وقلما تجد ممن ألفوا الاذعان والقبول من يحسن الرئاسة المجدية والتوجيه السديد . وقد أبدى روزفلت فى عمله بوزارة البحرية نشاطاً دائباً وحركة متصلة ،وكاد أن ينفرد بالأمر فى وزارته اذ كان وزيرها ، دانيلز، من رجال السياسة لا من رجال البحر فكان ضباط الأسطول ومهندسوه يتخطونه الى وكيله . وخرج روزفلت فى وظيفته عما ألفه الموظفون من الأساليب والتقاليد ، فلم يحجم عن كتابة مقالات يقول فيها ان سواحل أمريكا التى تمتد مدى الفين من الأميال ليس فيها سوى مائتى ميل معدة بوسائل التحصين والدفاع ، وان تجارة أمريكا تقتضى حمايتها وتعززها بأسطول أكبر حجماً وأكمل عدة من أسطولها الحالى ، وان أمريكا تخطىء أشد الخطأ إذ تحسب أن ما حولها من البحار عاصم لها من أخطار الأعداء شرقا أو غربا . .

— ٦ —

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العالم القديم فى حرب ضروس ، حشدت الجيوش وعبأت الشعوب ، وفجرت الدماء وراكمت الأجداث ، وأرهقت الناس من أمرهم شدة وعسراً وتقتيراً . والعالم الجديد يرى من وراء الأفق المترامى ألسنة اللهيب تقبل عليه وتمتد اليه رويداً رويداً . وروزفلت يحس ويرى أن ستأتى الساعة التى تبدى نشاطه وتثيره فيثب فى أثنائها الى حيث يرجو من الكلمة النافذة والشهرة الذائعة . ها هو يرى أمريكا تشرف على المعركة وتوشك أن تخوض غمارها ، ولكن الأسطول لم يتخذ أهبته وعدته ولم يكتمل رجاله وسلاحه . فيتخطى وزيره ويذهب رأساً الى ويلسون فى خريف ١٩١٦ ، فيقول له إن أمريكا تدنو من الحرب غير معتدة بسلاحها غير متهيئة للقائها ، ويسأله إعداد الأسطول وتعبئة البحارة . فما كان من ويلسون المتأنى الرزين إلا أن أومأ برأسه رفضاً وانكاراً ، فانصرف روزفلت آسفاً كسيفاً ، فلما كان بالباب ناداه ويلسون قائلا : « أقبل يا روزفلت واجلس أمامى لأشرح لك رأيى هذا : ان عين التاريخ تشخص اليوم الينا . نعم ، من المحتمل أن تنزل الى ساحة الحرب غداً ، ولكن انظر : فى سنة ١٩٨٠ سيقوم مؤرخ ليؤرخ هذه الحرب ، وقد يكون ألمانياً أو روسياً ، فيجب أن نحمله على أن يقول : إن أمريكا لم تعمل شيئاً لاثارة هذه الحرب . بل انها لم تعتد لها ولم تتأهب .ولكنها أكرهت على أن تخوض غمارها»

قص روزفلت هذه الحادثة على أحد الكتاب بعد عشرين عاماً قائلا : « إنه ما كان يدرك أن ثمة سن يعرض وطنه وشعبه للخطر والأذى ليحظى بعطف التاريخ ورضاه » . فلما سأله الكاتب : « وهل يمكن للمرء أن يقدم على أي عمل دون أن يفكر فى رأى التاريخ وقضائه ؟ » أجاب : « كلا ، ولكن دون مغالاة واسراف ، فما أحسن التاريخ قدر ما كان يحسه ويلسون » .
إن هذه القصة الوجيزة تبدى ما بين الرجلين من فارق : الفارق بين الرجل المثالى والرجل العملى ، الفارق بين أستاذ الجامعة وصاحب المزرعة ، الفارق بين من يهتدى بذهنه ومن يعمل بوحى شعوره . ولعل روزفلت كان على حق حين سئل فيما بعد عن موقف أمريكا من عصبة الأمم: هل أبت المساهمة فيها لعجز ويلسون أم بحكم سياستها ، فأجاب : ان الامر كان يتطلب سياسياً « مثلى » ينظر الى الأمور نظرة واقعية تختفى فيها التقاليد والنظريات وراء الوقائع والحقائق

— ٧ —

وجدت أمريكا إذن نفسها فى أتون الحرب دون أن تعد سوى ثلث سفنها ، ودون أن تدرب من البحارة ما يعىء أكثر من عشرها ، ودون أن تستطيع المضى فى القتال بأقصى قواها إلا بعد انقضاء تسعة شهور ، وقد ظل خصوم روزفلت يتخذون من هذا التقصير سلاحاً يشهرونه عليه فى كل معركة انتخابية خاضها ، ويلقون عليه وزر الهزائم الأولى التى أصابت الأسطول الامريكى وأودت بكثير من بحارته وسفائنه ، فأبى أن يتبرأ من هذه التبعة ويلقيها على عاتق ويلسون الذى آثر الأخطار والهزائم ، زلفى للتاريخ والمؤرخين !

فلما نزلت أمريكا الى المعركة لم يفتر عن تنفيذ البرنامج الكبير الذى رسمه للاسطول الامريكى وانهالت أوامره على المصانع يطلب منها المدافع والذخائر ، وعلى المدارس يخرج فيها الضباط والبحارة ، متخطياً حدود وظيفته وسلطته تخطياً يعاقب عليه — على حد قوله — وفق القانون الامريكى بتسعمائة وتسع وتسعين سنة ! فقد بلغ ما أنفق على الأسطول خلال السنين الأربع التى دارت فيها رحى الحرب قدر ما أنفق عليه من يوم إنشائه منذ مائة وثلاثة وعشرين عاما ، وزاد عدد رجاله من البحارة والضباط فى الفترة الأولى التى تولى أمره فيها روزفلت من ثلاثة وأربعين ألفا الى خمسمائة ألف رجل . وأهم من ذلك وأجدى ما بثه فى رجاله من العزم وما أشاعه فيهم من الجرأة ، فعندما غرقت أول غواصة أمريكية أبى أن ينزل الى البحر إلا فى غواصة أخرى يجوس فيها خلال المحيط متفقداً سفن الأسطول وقواعده

ان هذه الحرب تهيء له ما يؤثره من حياة الكفاح — الكفاح الذى لا يشفق منه ولا يعيا به ولا يلقى فيه عناء ، بل يقبل عليه وينغمر فيه ويستمد منه بأسا وعزما . فها هو يضرب على ظهر مدمرته فى عرض البحار متفقداً السفن والبحارة متنقلا بين الجزائر والقواعد ، دون أن

يمكث فى مكان أكثر من ساعات ، كأنما هى رحلة ممتعة فى بحثه الجميل وليست عملا عسكرياً يحفه الهول والردى . انه فى عرض المحيط حيث قد تنقض عليه فى أية لحظة بارجة قاصفة المدافع ، أو ترسله الى السمك غواصة غدارة ، أو يذهب به غريقا طوربيد هائم فى الماء — ومع هذا يكتب الى زوجه ضاحكا : « أحب أن تكتبي لى عن أى شيء تريد « ماما » أو يحب « الكتاكيت » أن آتى به . وأرجو أن تكتبى لى عما تريدين أنت ، وان كنت أخشى ألا تطلبي إلا مفارش للمائدة أو منافض للغبار . أما ان تذكرت نفسك — عن طريق الصدفة — فسأجد ما تريدين فى لندن أو باريس . قبلى لى الأطفال ، وقولى لهم إنى أحتفظ بصورهم فى « كابينى » ، وأفكر فيهم دائماً . وأرجو أن نقوم بمثل هذه الرحلة الممتعة معاً عند ما تعود الدنيا آمنة هادئة ، ولكنى لا أريد أن تكون رحلتنا فى مدمرة وان كانت كل دقيقة فيها تلذ لى » . أليست هذه رسالة رجل يرى فى الخطر والهول مرحاً ومتاعاً ؟ أليست تنبيء عن قلب يصرفه الأمل والمرح عن الخوف والاشفاق؟

وهبط أرض أوربا الموقدة ، وقابل ساستها وملوكها ، وتحدث معهم فى أمور الحرب والاساطيل ، وانه ليروى من هذه الاحاديث على سبيل التفكهة مادار بينه وبين أورلندو رئيس وزارة ايطاليا ، فقد ذهب الى روما ليفاوض حكومتها فى أن يقف الجيش الايطالى حائلا دون البلقان ، ليتيسر لأمريكا إنزال جيوشها فى غرب أوربا ، فلما حضر اجتماع مجلس وزرائها قال لهم « أيها السادة إن أسطولكم لم يغادر ميناء تورنتو منذ سنة كاملة » . فكان جواب أورلندوا : « وأى شيء فى هذا يا سيدى ؟ فان الأسطول النمسوى لم يخرج الى البحر طوال هذه الشهور » ، كأنما أعلنت ايطاليا الحرب لتقف موقف المتفرج المستكين ، فان لم يهاجمها العدو فلا بأس من التوارى فى الخفاء ! وهذه هى روح ايطاليا دائما ، وهذه هى الروح الكفيلة بالهزيمة والخيبة دائماً . . .

— ٨ —

أمضى روزفلت فى أوربا شهوراً تعرف فيها بأكثر ساستها وزعمائها ، وعرف منها كثيراً من مشاكل الاجتماع والاقتصاد ، وظل فيها حتى عقد مؤتمر الصلح ، فخرج منها بصورة واضحة عن مشاكل الشعوب ومناورات السياسيين . ولا شك أن هذا الرجل الذى لم يجاوز السادسة والثلاثين كان يؤمل أن يلقى عليه يوماً ما من أمور السياسة والاصلاح ما يقتضيه أن يحتفظ فى ذاكرته بهذه الدروس الثمينة ليهتدى بها فى علاج ما سوف يواجهه من الأمور أو يصادفه من المشاكل . وعاد فى مارس سنة ١٩١٩ فى معية بطل العالم ونبي المستقبل كما كانوا يسمون «ويلسون» فى تلك الأيام ، حين كان يتراءى فى صورة منقذ العالم ومنجد الانسانية ، وان كان كلنصو الساخر الماكر قال عنه — مرتاباً فى صدقه وإخلاصه — انه كان يتكلم كالمسيح ويعمل كلويد جورج ! وأخذ

ويلسون على ظهر السفينة « واشنجتون » يشرح لروزفلت آراءه فى « عصبة الامم » ووسائل إيجادها وتدعيمها ، وأن لابد من اشتراك أمريكا فى تأليفها وأعمالها ، لتؤدى وظيفتها وتنفذ كلمتها، فيصغى اليه روزفلت مفكراً فى هذا المستقبل البهيج الذى يتراءى فى خيال ويلسون مبرءاً من المعارك والاهوال ، وينفذ كلام ويلسون الى قلبه ويترك فى ذهنه أثراً بليغاً . حتى انه ليحفظ إلى اليوم فى بيته الريفى على سبيل الذكرى بالمقعد والمنضدة اللذين جلس اليهما ويلسون وهو يعد مشروع « عصبة الأمم » أثناء رحلته عبر المحيط الأطلسى

وما إن يهبط روزفلت الأرض حتى يلقى بنفسه فى الدعوة الى مشروع ويلسون ، فيجوب أرجاء أمريكا ويتنقل بين أنديتها ليخطب الناس فى واجب الشعب الأمريكى حيال العالم والسلام . فانه ان جاز لأمريكا أن تعتزل العالم ذا المشاكل والخطوب ، فلا يجوز لها ان تعتزله حين يريد الغاء الحرب وتحقيق السلام

كان ويلسون أستاذ الجامعة وواضع النظريات يشرح فكرة « عصبة الامم » للناس شرحا نظريا قد يعجب عقلهم وتفكيرهم ولكنه لا يستثير حميتهم وشعورهم ، أما روزفلت رجل المجتمع وصديق الناس ، فيضع أمامهم هذه العصبة فى صورة مجسمة ، يرونها بأعينهم ويلمسونها بأيديهم ، فهو يشرح لهم الأمر شرحاً واضحاً ، « فان اعتزال أمريكا عصبة الامم يجعل منها اتحاداً أوربياً قد يعادى أمريكا ويناضلها ، أما مساهمة أمريكا فيها فيكفل لها ألا تتخذ من السياسة الا ما يوافق خطة أمريكا ويلائم منافعها » . ثم يعود فيقول : « ان هذه العصبة قد لا تلغى الحرب الى الابد ، ولكن الشعوب تريد القيام بهذه التجربة عسى أن يصادفها التوفيق ، الا أن نجاح هذه التجربة واخفاقها رهن باشتراكنا فيها أو باعتزالنا عنها »

ولكن أمريكا التى اندفعت الى الحرب بمليونين من أجنادها وبآلاف الملايين من دولاراتها كانت تؤثر دائما أن تأخذ بنصيحة بطلها « واشنجتون » فى أن يكون بينها وبين العالم القديم من العلائق التجارية أكثر ما يمكن ، ومن الصلات السياسية أقل ما يمكن . كذلك كان مؤتمر الصلح وما أسفر عنه من النتائج صدمة عنيفة للشعور العام الذى خاض الحرب برجاله وماله لينشىء عالماً أفضل وأهنأ من العالم الذى أثار الحرب وأوقدها ، فاذا به يلقى أوربا لم تتعلم شيئاً ولم تنس شيئا ، فما برحت متأججة بأحقادها مسترسلة فى أطماعها ، فكان من المقدر إذن أن تخفق الدعوة لعصبة الامم وان يخفق معها ويلسون وروزفلت

وجاء الانتخاب لرئاسة الجمهورية ووكالتها ، ورأى الحزب الديموقراطى أن يرشح « كوكس » للرئاسة ، ولم يستقر رأيه على مرشح للوكالة . فلما أزف يوم الانتخاب دون أن ينتهى الخلاف بين أعضاء الحزب فى أمر الوكيل ، إذ « بالتوفيق » يسعف روزفلت . فيسمع فى اجتماع الحزب على حين غرة صوت جماعة تنادى : فليكن روزفلت مرشح الوكالة ! قال عن ذلك فيما بعد : « سمعت

اسمي يتردد فجأة ، فلم أصدق سمعي أول مرة ، فرجعه أصدقائي مراراً ، وبعد عشر دقائق قرر الحزب اختياري . وقد سررت بطبيعة الامر ، إذ كنت فى الثامنة والثلاثين ، أى أصغر من كل من تولى وكالة الجمهورية فيما عدا وكيل واحد ، أما عمي فتولاها فى الثانية بعد الاربعين »

وكان خليقاً أن تتمثل لروزفلت حينذاك صورة عمه تيودور الذى مات منذ شهور ، وأن يتراءى له أن القدر العجيب يسيره فى الطريق الذى سلكه عمه من قبل فيتأثره خطوة خطوة ، فقد انتقل من وزارة الحربية الى وكالة الجمهورية التى أسلمته الى رئاستها دون عناء ودون انتخاب . ووكالة الجمهورية أشبه بولاية العهد ، فالوكيل لا يؤدي عملا ولا يبرم أمراً ، وانما هى خطوة تزكي المرء اذا ما تقدم فيما بعد للرئاسة . ومن يدرى فقد يحدث اليوم ما حدث بالأمس حين اغتيل رئيس الجمهورية ، فقفز تيودور من الوكالة الى الرئاسة بين عشية وضحاها . إذن فليلق بنفسه فى المعترك ، فى كل نحو واتجاه . وها هو يشرق ويغرب ، ويشمئل ويجنب ، وهاهو يلقى ألف خطبة بمعدل عشرين خطبة فى اليوم الواحد ، وها هو يزور آلاف الاندية والمحافل ويصافح آلاف الرجال والسيدات ، وها هو يرى أن أكثر سامعيه من النساء ، فقد سعى لهن حتى فزن فى عهد ويلسون بحق الانتخاب

على أن أمريكا وقد خاب رجاؤها فى الحرب التى قادها اليها الحزب الديموقراطى كانت متأهبة لنصرة الحزب الجمهورى وتغليبه ، فلما دارت المعركة الانتخابية بين الحزبين حول اشتراك أمريكا فى عصبة الامم أو اعتزالها ، فاز بالرئاسة المرشح الجمهورى « هاردنج » وفاز بالوكالة « كوليدج »

ما أعجب القدر ! لقد أعاد تمثيل الرواية بعد أن غير الاسماء والرجال ! فما هي الا شهور حتى قتل « هاردنج » كما قتل « ما كنلى » ، فوثب كوليدج — كما وثب تيودور — الى الرئاسة دون عناء ودون انتخاب . . .

ولكن روزفلت لم يأسف على تركه الحياة العامة وعودته الى حياته الخاصة ، فهو لم يكن وزيراً وسياسياً قدر ما كان صاحب أرض ورب بيت وأب أطفال . لم يكن من هذا الصنف من الرجال الذين اذا تركوا مناصبهم ووظائفهم ظنوا أن قد انتهى أمرهم أو أخفقوا فى حياتهم ، بل أحسوا الدنيا من حولهم تافهة عقيمة ليس فيها ما يثيرهم نشاطاً ويحفزهم اقبالا ، فلم يبالوا أن يضحوا بالضمير والانفة ، وأن يتخذوا الملق والزلفى لاقتناص المناصب مرة أخرى . . كلا ، فان طبعه المرح ونشاطه الدافق مكناه من أن يوازن بين كفتى حياته : كفة الحياة العامة التى أثقلها نشاطاً وضجيجاً ، وكفة حياته الخاصة التى ملأها مرحاً ومتاعاً ، فلا ترجح إحداهما ولا تشيل الاخرى . . .

الشلل ...

— ١ —

عاد بعد عشر سنوات الى مزارعه : الى النهر والحقل والغابة ، الى الماشية والخيل والطيور ، الى الرحلات على ظهر جواده أو على سطح الماء ، الى الحياة المرحة الطليقة الوادعة

ولكن القدر يشرف من وراء ذلك بما ليس فى الحسبان : القدر الذى ظل أربعين سنة باسما مواتيا باسطا له أجنحة التوفيق ، يريد الآن أن يربد ويعبس ويقسو عليه قليلا ليختبره ويبلوه . .

كان هذا فى رحلة ممتعة دعاه اليها أحد أصدقائه فى « يخته » البخارى ، فاقترح أن يذهبا الى إحدى جزر الشمال البهيجة حيث تعود أن يذهب مع أبيه فى سن الصبى ، وتولى قيادة السفينة حتى بلغ مياه الشمال المثلوجة ، نخلع ملابسه ونزل يستحم فى الماء . . . فلندعه يقص قصته : « لم أشعر بشىء أقرس برداً من ذلك الماء ، فشق على حين دلفت اليه ، واشتد بى حين غمست رأسى فيه ، فقد كان الماء قارسا مثلجا حتى ليكاد يشل البدن . وفى اليوم التالى رسونا على أرض الجزيرة وكانت النار مشتعلة فى أشجار غابتها فأمضينا اليوم كله فى كفاح الحريق واطفائها . فغشى الدخان عيوننا ، وأضنى الجهد قوانا ، فاستلقينا متعبين مجهدين ، ثم نهضنا الى بركة عذبة الماء فنزلنا اليها عسى أن ننتعش ونستريح . ثم أخذنا نركض فى لباس البحر على طول الطريق الترب حتى بلغنا البيت المعد لنا والعرق يتصبب منا . فلم أحس شيئا من النشاط والراحة كما ألفت عقب السباحة . فجلست متعبا أطالع بعض الصحف دون أن أستطيع النهوض لارتداء ملابسى . لم أشعر يوما ما بمثل هذا التعب السارى فى أطراف جسمى . ونهضت فى الصباح التالى فلما أردت النزول من فراشى أحسست أن ساقى متعبة متصلبة . ولكنى أردت أن أتحامل على نفسى وأوهمها أن ليس فى الامر أكثر من تعب عضلى لا يلبث أن يزول . . . ولكن ساقى أبت أن تتحرك وتبعتها ساقى الاخرى . . .

لقد أصيب بالشلل ! »

يا للقدر اذا قسا ! هذا الرجل الدافق صحة ، النابض شبابا ، الزاخر حركة ونشاطا . . هذا الرجل المشرق وجها ، المتلىء أملا ، الحافل مرحا واقبالا . . يستلقى اليوم على فراشه لا يملك فيه حراكا ولا يستطيع منه فكاكا . هذا الرجل الذى كان منذ سنة واحدة يذرع أرجاء

أمريكا قويا فتيا ، تسفعه شمس الجنوب ويقرسه زمهرير الشتاء ، ويقطع الاشواط وسط الريح العاصف والمطر المنهمر والليل المدلهم ، حتى اذا جاء الصبح وقف يخطب جهير الصوت بادى النشاط ، فيثير الجماهير ويؤلف حوله الافواج - يرتمى الآن بين يدى أمه وزوجه وأطفاله كسيحا مقيداً . يا عجبا ! من أيام كان فى هذه الصحة الناضة وهذا الشباب المشبوب ، فلا يجهده أن يرقى أربعة آلاف قدم حتى يبلغ ذروة أحد الجبال ، ولاينال منه أن يسير « بخته » تجاه الريح الهائجة فى الشتاء المكفهر مئات الاميال - وها هو اليوم يغدو أضعف وأضأل من طفله الدارج الذى يحبو حول الفراش !

انه لينظر الى زوجه فيرى وجهها مغبراً بالأسى الغامر ، وعينيها تفيضان بالدمع السخين ، وإنه لينصت فيسمع أمه من وراء الباب تجهش بالبكاء وتشهق بالنحيب ، وان أطفاله من حوله لا يضحكون ولا يمرحون ، بل منهم الحزين ومنهم الباكى ، ومنهم من سيحزن ويبكى بعد سنين !

انه أمضى أربعين سنة على قدمين مجنحتين ، فلم يخلد يوما الى الحياة الخاملة ولم يسأم أبداً الحركة الدائبة .. كان لا يضيق الا اذا انبسط من حوله الهدوء ، ولا يبتهج الا اذا ماجت وصخبت الحياة . . فيا للقدر حين يسخر ويمكر ، وحين يعنف ويقسو ! انه كان يكره أن يجلس ، فليكره على النوم ! انه كان يضيق بالهدوء فليقسر على الهمود ! انه كان يؤثر الحياة النشيطة الصاخبة ، فليمض سائر حياته فى عزلة تمضه وتضنيه ووحشة تأخذ منه بالخناق !

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- ٢ -

ولكن ما خطب هذه الآمال المبسوطة : هل قدر عليها أن تقبض صفحتها وتطوى ؟ وما أمر هذه الأمانى المشبوبة : هل كتب عليها أن تخمد جذوتها وتطفأ ؟ وهل هذه الحياة المشرئبة للغد ، المتهيئة للمجد ، الزاحفة الى الامام ، قد قضى فى أمرها بالردة والرجعى ؟ أحسب هذا الرجل من حياته نظرة حسيرة الى المستقبل تفيض ألماً ، ونظرة بعيدة الى الماضى تسترجع الذكريات ؟

ذكريات حياة موسومة بالسعد مؤزرة بالتوفيق ، درج فيها من الطفولة السعيدة الى الصبى البهيج الى الشباب المشرق ، ونعم فيها بالزواج الموفق والابوة الكريمة والحياة الحافلة المليئة . . ذكريات حياة نابضة بالنشاط حاشدة بالكفاح ، صادف فيها جموع الاصدقاء ولاقى أفواج الخصوم ، وذرع فيها الأفاق يلقى الخطب وينثر الاحاديث . . ذكريات رجل ركب البحار وسط الأهوال ، وذهب إلى العالم القديم حين كان مؤصداً بالنار ، وساهم فى خذلان أعظم القوى ونصرة أكبر الشعوب . . ذكريات سنين أربعين كلها قوة ونشاط ، وجهاد وإقدام .. لماذا ؟ لأنه كان يحس فيضاً غامراً من الصحة والفتوة ، بل نهراً دافقاً من النشاط والحيوية ، ينبعان من هذا الجسم الحى النابض الجائش الذى يواتيه كلما القى بنفسه فى معترك أو القى على عاتقه عبئاً . هذا الجسم الذى كان

يعجب صاحبه قدر ما كان يعجب من يراه ، والذى يستلقى الآن على الفراش عصياً متصلباً منهوكا!.. فالنصف الأدنى منه كقطعة الخشب لا تحس ولا تتحرك ، وذراعاه كفرعين جافين يتدليان من شجرة شاخة !

وفحصه الاطباء فانصرفوا عنه وهم أدنى الى اليأس منهم الى الرجاء ، فانتحت أمه وزوجه جانباً وأجهشتا بالبكاء ، ووجم من حوله جميعاً فقد قضى فى أمر هذا الرجل بالمرض مدى الحياة . ولكن شخصاً واحداً أبى ان يجاريهم يأسهم وحزنهم وأن يصدق أن لا خلاص له ولا شفاء . هذا هو المريض ذاته . ظل بالأطباء حتى صارحوه بمرضه وبيأسهم . وإذ به يفاجئهم قائلا : «حقاً إنه لعجيب أن يقال إن رجلا مكتملا لا يستطيع البرء من هذا المرض ! ألستم تسمونه شلل الأطفال ؟ ! »

هذه هى الكلمة الحاسمة فى تاريخ روزفلت ، فقد أبت عليه ان ينتهى أمره الى هذا المصير الفاجع الاليم، بل جعلت من مرضه مجرد فرصة يستجم ويتجمع فيها لمستقبل أوسع من الماضى أفقاً وأكثر منه نشاطاً

ونقل من الجزيرة الى السفينة طريحاً على النقالة ، وأنزل من السفينة فى نيويورك وأرسل الى مستشفاها

وأخذ من حوله يضللون الصحفيين الذين توافدوا الى المستشفى ، فان عامة الناس يزعمون ان مرض الشلل يصحبه دائماً خلل عقلى ، فاذا شاع بينهم ان روزفلت أصيب بهذا المرض انتهى أمره كرجل من رجال الحياة العامة ، هذه الحياة التى يعتقد فى قرارة نفسه انه سيعود اليها يوماً ما صحيحاً معافى . .

وكانت أمه لا تريد شيئاً الا ان يبقى ابنها على قيد الحياة ، وتستوى عندها فى هذه الساعة الأليمة الحياة العامة والحياة الخاصة ، فألحت على ابنها ان يصحبها الى بيتها فى الريف حيث تلازم فراشه ما بقى لها من الأيام ، وتسرى عنه بما تقرؤه له وما تكتبه عما يليه عليها ، ولكنه أبى . . أبى ان تنتهى حياته على هذه الصورة الفاجعة !

— ٣ —

ودخل المستشفى فوجد فيها بضع مائة مشلول ، منهم من تصلبت أطرافه فلا يملك حراكا ، ومنهم من انعقد لسانه فلا يدرى نطقا ، ومنهم من سرى المرض الى عقله فأذهبه أو أذهله ، ومنهم من شاهت خلقته وتهافت قوامه وتخاذلت قواه ، ومنهم من يئن ويتوجع أو يهرف ويهذى، فليس فيهم الا ما يملأ القلب ألماً وإشفاقا ، ويثير النفس يأساً وتشاؤماً . ولكن هذا المريض يأبى على نفسه ان تشفق أو تتخاذل أو تتشاءم ، ويصر على أن يبرأ وينهض ويسترجع قواه ، وعدته

الى ذلك أمل لا يساوره اليأس ، وعزم لا يخالجه الوهن ، وإقبال على الحياة لا يصده شيء من الزهد والاحجام . .

إنه يقول لزوجه والمرض فى شدته وعنفه : « لابد ان أضرب هذا الشيء » . انه يصر على أن يقهر المرض ويستعيد صحته وقوته ، بل هو كالشعب المقهور ، لا يكفيه ان يأخذ بثأره ويسترجع حقه ، بل يريد ان يزيد قوته السابقة وينميها . وما هذا المرض الا معركة من قبيل تلك المعارك التى خاض غمارها ، فلم لا يقهر الشلل كما كان يقهر الخصوم ، وهو الذى لم يخذله التوفيق بل حالفه دائما وواتاه ؟

فلما قال له الطبيب ان دواءه ليس الا « جهاداً » متصل الايام والاسابيع والشهور ، أجابه : ومتى يبدأ هذا الجهاد ، فاني أريد ان أؤدى دورى فيه ؟ فهل على الطبيب إذاً الا أن يعزز هذا الروح ويثبت هـذا الجنان ؟ ؟ وأخذ المريض يمارس هذا الجهاد المضنى ، معتداً بالأمل القوى متذرعا بالصبر الجميل . كان يتناول «عضلة» من عضلاته المتصلبة ويأخذ فى رياضتها وعلاجها أياماً تلو أيام فلا يدعها حتى تنبض وتلين وتستعيد حياتها . وكانت تجهده هذه الرياضة وتوجعه ، حتى ليئن من ألمها المبرح، وليأرق منها الليل المسهد ، ولكنه لا يبرح يمارسها صابراً متجلداً . فلما زايلته آثار الصدمة الاولى عاودته طبيعته المرحة الطليقة ، حتى لتسمع ضحكاته ترن من حين الى حين كأنها تصدر من أصح الناس جسما وأخلاهم قلبا

قالت زوجته فيما بعد : « كل ما كنا نعمله ان نعامله كما لو كان رجلا صحيح البدن كامل القوة ، لا فرق بينه وبين الاصحاء الأقوياء ، ذلك انه كان يشعرنا بأنه مبرء من أى نقص أو عجز أو شذوذ ، وبأنه لا يرهق نفسه جهداً ولا يكلفها فوق ما تطيق ، ولم أسمعه يذكر يوما ما انه تغير عما كان قبل مرضه ، بل لم يقل أبداً انه لا يستطيع ان يسير »

ثم غادر المستشفى الى منزل اتخذه فى قلب نيويورك ، ذلك انه يألف « الحركة » ويؤثرها ، فاذا كان المرض قد أقعده عن أدائها . فما يجب ان يحرمه رؤيتها وسماعها ، فأقام فى أكثر أحياء المدينة حركة وصخبا وضجيجا

ولما أفاق من حدة الشلل الأولى أخذ يستأنف حياته العامة قدر ما تواتيه قواه . فهذه الصحف تصل بينه وبين حياة المجتمع وشئون السياسة . وهـذا الجهاز الجديد الذى يسمونه الراديو ينقل اليه الأخبار من أنحاء أمريكا وأقطار العالم . وهذا فيض من الرسائل يأتيه كل يوم من مئات الناس الذين يأسون له فى مرضه قدر ما كانوا يعجبون به فى صحته . وهذه زوجه وأمه تقصان عليه من أنباء المجتمع وشئون الناس ، ما يشعره ان المرض لم ينل شيئا من صلته بالحياة

بل انه ليتساءل : أفى الحياة شر مطلق مجرد من الخير ؟ فقد بدأ يرى ان المرض لم يكن أذى صرفا آلمه وأضناه ، بل فيه جانب من الخير يعود عليه بالنفع والجدوى . فهو كالرجل الذى ضاع

أكثر ماله يحرص على ما بقى منه حرص الحذر الشحيح ، فينأى به عن أبواب المجازفة والاسراف، ولا يستثمره الا فى أوثق الامور ربحا وأوفرها خيراً . . انه يدرك الآن انه طالما أضاع الأيام والسنين هباء ، متنقلا بين المآدب والمحافل ، مندفعا مع الأصدقاء والمعارف ، مشغوفا بهذه الحياة الاجتماعية الصاخبة العنيفة . فلم يبق له الوقت الفسيح الرتيب ، ينصرف فيه الى القراءة الدقيقة المتزنة ، ويفرغ فيه الى التفكير العميق المتئد .. إنه لم يتح لنفسه وسائل الموازنة بين ما يمتاز به من الحركة الدائبة والنشاط الدافق ، وبين ما ينبغى ان يكون لمثله من النظر الثاقب يرجعه ويردده فى الأمور ، والروية الوئيدة التى تبحث وتصرف المشاكل . فليتخذ من هذا المرض إذن سبيلا الى إعداد نفسه الاعداد « النظرى » الذى لا غنى عنه لمن يهيىء نفسه لولاية الامور العامة

ها هو ينصرف أكثر يومه الى القراءة الجدية ، متنقلا بين الكتب والصحف والرسائل ، متخيراً من ذلك ما يتصل بشئون السياسة والاقتصاد والاجتماع ، شاعراً ان فهمه شئون أمريكا وأمور العالم يزداد كل يوم صحة ووضوحا

ثم هو لم يعد يذهب الى الناس ، بل أخذ الناس يفدون اليه . فكل من أراد حديثه أو لقاءه جشم نفسه مشقة المجىء اليه ، كما يجىء التلميذ الى المدرس ، والمريض الى الطبيب ، والمريد الى « ولى الله » . فيزداد شعوره بمكانته بين الناس كلما رأى أفواجهم تفد الى بيته وتجلس بين يديه وتتحدث اليه فى صوت خافت لا يرتفع على صوته تأدبا . ومن دأب الناس ان تستخف بمن يأتى اليهم ويقبل عليهم حتى لينفروا منه أو يزدروه ، ومن دأبهم ان يوقروا ويجلوا من لا سبيل الى لقائه الا ان يسعوا اليه ويقصدوه ، فكيف بهم مع من يحجون الى بيته ،الى غرفته ، والى فراشه كلما أرادوا ان يروه ويكلموه ؟

— ٤ —

ومضى روزفلت يكافح الشلل ثلاث سنين ، حتى ألان عضلاته وراض أطرافه ، وان ظل يتألم كلما أراد ان يمد ذراعيه أو ينهض على ساقيه . وأشار عليه شاب عوفى من ضربة الشلل ان يذهب الى « الينابيع الدافئة » فى جنوب امريكا حيث ينبجس من الصخر ماء دافىء كثيف يطفو فيه جسم الانسان . فارتحل مع زوجه وأطفاله الى هذه الينابيع ، وأخذ يمضى فى مياهها الساخنة أكثر النهار . فلم تنقض بضعة اسابيع حتى أحس بعضلاته تلين وتطرى ، وبأطرافه تتحرك وتنثنى. وما هى الا شهور حتى امكنه ان ينهض متوكئا على عصوين تحت إبطيه ، معتمداً على زوجه او خادمه حين يهبط السلم او يركب السيارة

بدأ المرض يزايله وأخذت الصحة تعاوده . فلمن الفضل فى هذا ؟ الى روزفلت هذا السؤال

على نفسه وراح يجيب عنه قائلا : دع قوة الأمل وشدة العزم جانبا ، فما كانا يجديان نفعا لو لا ما بيدى من مال مكنني من التطبب فى احسن المصحات والمستشفيات ، ومن الرحلة الى هذه الينابيع الدافئة ، ومن التفرغ من مشاق العمل والرزق والتوافر على علاج المرض وتعهد الجسم بالراحة والدواء . وما كان يغنيني شيئا ان اسرح مع الامل وأنطلق مع الخيال ، او ان أعتد بضروب العزم وأتذرع بأسباب الارادة ، لو انى كنت فقيراً لا املك نفقة الطبيب البارع والدواء الناجع عدداً من السنين ، ولا اجد سبيلا الى هذه الينابيع الدافئة وما تقتضيه الحياة حولها من المال والفراغ

ترددت هذه الكلمات فى ذهنه مراراً فاستجاب لها ما يكمن فى نفسه منذ عهد الصبى من بر بالفقير وعطف على الضعيف ، فلم يتردد فى أن يؤدى واجب الزكاة عن هذا المال الذى يسر له سبيل الشفاء والعافية . ولم تكن هذه الزكاة أقل من نصف إيراده جميعاً ، فاشترى بها ألفاً ومائتى فدان رصدها للانفاق على هذه الينابيع ليبسر للمرضى من الفقراء أن يفدوا اليها ويستشفوا بمياهها ، وأقام حولها عدداً من المنازل أعدت لهؤلاء الفقراء بفضل هذا الرجل الذى لم ينس يوماً ما حق الفقير فى عنق الغنى . .

كذلك أقام عند هذه الينابيع بيتا له ليمضى فيه شهوراً من كل عام ، وسماه « البيت الأبيض » . . . أفكان يدرى هذا الأشل المريض أن سيسكن « البيت الأبيض » حقا بعد أن يبرأ من مرضه ويسترجع قواه ؟ !

ولم ينس روزفلت مدى حياته أن يشكر لله نعمة الشفاء ، فقد حدث بعد سبع سنين أن سرت فى أمريكا موجة من شلل الأطفال ، ونهض جماعة من الأطباء لدراسة هذا المرض العنيف ومقاومته ، فأرسل اليهم روزفلت بعضا من دمه قائلا : « أظن أنكم تجدون « عينة » طيبة فى هذه القطرات » !

وذاع نبأ شفاء روزفلت من هذا المرض الجبار ، فتوافدت أفواج المرضى اليه تسأله رأيه وتأخذ بنصيحته ، كأنما هو « قديس » أظهر الكرامة وأقام المعجزة ، فجاءوا يلتمسون منه البركة ويستهدونه سواء السبيل . .

— ٥ —

أنظر الى صورة روزفلت بعد أن أبل من الشلل وعوفى من الهزال ، تر رأسا كبيراً ، ووجها مستديراً ، وعينين شاخصتين ، وفما مطبقا حازما ، وذقنا بارزة مرهفة ، وعنقا راسخا مثبتا ، ومنكبين عريضين ممتلئين

سماته جميعا تدل على الثقة واليقين ، ومخايله تنبىء عن العزم والارادة . . . ألم يقهر أعنف

مرض ؟ أم يخذل أعتى عدو ؟ أم يفجر الأمل من صخرة اليأس ؟ أم يرسل النور من ظلمة القنوط ؟ . كان مقضيا عليه بالهزيمة فاذا به يخرج ظافراً غلابا . وكان أهله فى يأس وحزن وإشفاق ، فغدوا اليوم فرحين آمنين مستبشرين . . لقد خاض غمار المعارك وأحس فرحة النصر مراراً ، ولكن معركة المرض أعنف المعارك جميعا ، فالغلبة فيها أحق بالفرح والاغتباط . كان النصر فيما مضى يأتيه بمنصب أو مال أو صيت ، أما النصر فى هذه المرة فيأتيه بالحياة ذاتها ؟

كان له أن يفرح حقا . ألم يقل الناس منذ سنين أن قد قضى فى أمره بالمرض والعجز مدى الحياة ؟ ألم يسمع أن صديقا له يقول : حسبه ما أصاب من اسم وما بلغ من صيت ؟ ألم تنصحه أمه أن يجنح الى الريف حيث يمضى ما بقى له من العمر بين القراءة والاملاء ؟ ألم ينصحه الاطباء ان يخلو الى الدعة والراحة ليصد تيار الشلل عن باقى الأطراف والأعضاء ؟ ألم يكن المفروض ان يستلقى على فراشه مسترجعا ما غبر من الأيام مستعيداً ما مر من الذكريات ؟. . . فما بال حزبه يدعوه الى منصب من اعظم المناصب شأنا واخطرها عملا ؟ وما بال « السعد » كما كان العهد به فيما مضى ، يقبل عليه على غير موعد ويواتيه دون جهد وعناء ؟

كان فى رحلة الى « الينابيع الدافئة » حيث اعتزم أن يمضى سنة كاملة يروض فيها ساقه اليمنى ، فاذا بصديقه « سميث » يخاطبه فى التليفون قائلا : ان الحزب الديمقراطى يختارك ويرشحك محافظاً لمدينة نيويورك . فيريد أن يعتذر عن هذا العمل الشاق وهذا المنصب الخطير ، فيقطع عليه صديقه الأمر بأن الحزب لا يجد مرشحاً أقدر منه على غلب الخصوم ، وأولى منه بالمنصب الكبير . . .

وجد روزفلت نفسه بين أمرين : « الراحة » يتمتع بها فى هذه الينابيع الدافئة ، وفى مزارعه الوادعة فى الريف ، وفى حياته الهادئة فى نيويورك ، و « المجد » يسعى اليه ويقبل عليه يوماً فيوماً ، فما بعد هذا المنصب الرفيع الا أن يثب الى الذروة العليا

وعاودته صورة عمه تيودور ، وارتسم فى ذهنه مجرى حياته . بدأ تاريخه نائباً فى ولاية نيويورك ثم تولى وزارة البحرية ، ثم اختير محافظا لنيويورك ، ثم وكيلا للجمهورية فرئيسا . واتخذ روزفلت طريق عمه وتأثر خطاه ، فقطع أكثر الشوط دون أن يجهد وينصب كثيراً ، فلم ينحرف الآن ويتخلف ، وما بقى من الطريق يمتد أمامه منبسطا ممهداً ؟

قبل إذاً ترشيحه محافظا للمدينة الكبرى ، وكان الانتخاب هادئاً وخرج منه ، كما ألف ، ظافراً

— ٦ —

ها هو يعود الى « الكابيتول » فى أول يوم من سنة سنة ١٩٢٩ بعد أن جاوز عهد الشباب وبلغ سن السابعة والأربعين ، وبعد أن أقعده المرض عن الحركة السريعة النشيطة وأكرهه على

الهدوء والأناة والاتزان ، فيلقى أمامه مدينة مترامية الأنحاء ، حاشدة بالملايين ، معقدة الحياة ، قد ألقت اليه أمورها ليحسن تصريفها ، وعهدت اليه بمرافقها يتولاها بالاصلاح

ألقى ببصره من نافذة « الكابيتول » على المدينة الفسيحة الهائلة ، ثم ألقاه على أرقام أمامه تمثل بعض أنحاء النشاط فيها ، فهالته حياتها الصاخبة المعقدة العنيفة . كانت هذه الأرقام تمثل بعض ما يقع فى المدينة كل يوم ، فوجد أن فى كل أربع وعشرين ساعة يولد ٢٧٥ طفلا ويموت ١٨٢ فرداً ، ويقتل ٣٤ شخصا فى حوادث الطرق والصدام بين وسائل النقل ، وتشب ٧٣ حريقا ، وينتحر أربعة أشخاص ، ويودى المجرمون بحياة فرد ، ويقبض على أربعة أشخاص بتهمة اقتراف الجرائم الخطيرة ، ويشخص أمام المحاكم المختلفة ١٧٣٠ فرداً ... واستمر فى قراءة هذه الأرقام ، فارتسمت فى ذهنه صورة هذه الحياة الحافلة العنيفة ، وتمثل له ما يقتضيه الامر من الجهد والنضال ، وأحس فى نفسه زخراً من القوة والنشاط ادخره خلال سنى المرض التى أمضاها فى تجمع واستجمام ، وأحس فى قلبه فيضا من روح الخير والعرف والاحسان زكته قسوة المرض وعززته نعمة الشفاء ، وكذلك رأى ان هذا المنصب الجديد خطوة لها ما وراءها من الخطر ، فعليه أن يبدى فيه من الحزم والجهد ما يؤهله للمنصب الأعلى

فأذاع على أهل نيويرك مناهجه خلال السنين التى سيلى فيها أمورهم ومرافقهم ، فوجدوا فيه ضروبا من التفكير والاصلاح لم يشهدوها من أحد من أسلافه ، فمن ذلك تيسير الماء لهم بأزهد ثمن فما ينبغى أن يكون ماء المدسون عزيزاً غاليا ، الى تهيئة ضروب من التأمين الاجتماعى الذى يكفل للمرء ألا يقذف به الى الجوع والعرى اذا قعد به المرض عن أداء العمل وكسب القوت ، الى منح العمال معاشا يكفل لهم ولأهلهم شيئا من الحياة فى سنيهم الفانية ، الى اقراض الزراع بعض ما يلزمهم من أدوات الزراعة ، الى تعديل قانون العقوبات واصلاح السجون

لم يكن روزفلت مجدداً مبتكراً فى هذا المنهاج ، فطالما تحدث الناس بضروب كهذه من الاصلاح ، ولكن حكامهم لقوا من الصعاب ما صدهم وأعجزهم ، الصعاب التى تقيمها « الرأسمالية » العاتية التى تقبض بيديها على زمام السياسة والحكومة والأحزاب والصحافة والرأى العام . . .

ولكن روزفلت الذى يفكر منذ صباه فيما يجب على الغنى قبل الفقير ، والذى آثر حياة السياسة والكفاح على جمع المال وإصابة الثراء ، والذى ناضل مراراً ليمنع تجار المال من تولى أمور الناس ـ أبى أن يقف هؤلاء حائلا دون تنفيذ مناهجه لاصلاح مرافق الفلاحين والعمال . .

لم يكن روزفلت فى يوم ما « اشتراكيا » يحارب رأس المال ، ولكنه كان رجلا يحب الخير والعرف ويريد أن يقيم أمور الناس على أساس المودة والحسنى فكان يقول « ان المرافق العامة يجب أن تكون خادمة الجمهور تؤدى له حقه ولا ترهقه عسراً » . « وان عمل الفلاح والعامل ليس سلعة يتاجر فيها من يملكون العمل والمال فيبخسونها حقها بالمساومة والمناورة » . « وان

واجب الحكومة أن ترعى الفقير الذى يفتقر اليها فى جميع شؤونه ، قبل أن ترعى الغنى الذى يستغنى عنها فى كثير من الأمور »

هذه الكلمات وأمثالها تنبىء عن الروح الذى تولى به روزفلت أمر نيويورك أربع سنين شهدت فى أثنائها لوناً جديداً من ألوان الحكم المستنير ، الحكم الذى لا يفرق بين الاحزاب أو يفاضل بين الطوائف ، والذى يقيم بين الحاكم والمحكوم صلات المودة والحسنى . . فلم يكن من إلف رجال الاحزاب أن يعهدوا بالاعمال المهمة الى خصومهم ومناوئيهم ، ولكنهم وجدوا روزفلت يعهد بكثير من ادارات المدينة الى رجال الحزب الجمهورى . . ولم يكن للناس عهد بأن تلى النساء المناصب الكبرى ولكن روزفلت عهد « بادارة العمل » الى مسز بركنز التى عرفت ببحوثها وجهودها فى مسائل العمال . . وكذلك كان روزفلت أول من وصل بين الحكومة والجمهور عن طريق الصحافة التى كان يدعو ممثليها مرة أو مرتين فى كل أسبوع ، وعن طريق الراديو الذى كان يتحدث فيه من حين الى حين ، ليبصر الناس بأمورهم فى لغة واضحة بسيطة . وأهم من ذلك هو هذا الاتجاه الى الحدمن شوكة رجال الاعمال ليأخذ منهم حق الجمهور ، وهذا التوجيه للأداة الحكومية قبل تعهد مرافق الناس ورعاية ما لهم من الحقوق . فهيأه ذلك كله، فى أعين الناس لولاية المنصب الاكبر الذى يجد فيه مجالا أفسح ونفوذاً أوفى

ولكن عند ما قيل لوالدته أول ما انتخب محافظاً لنيويورك ، ان على ابنها أن يقفز قفزة أخرى ليرق الى الذروة العليا ، وهى رئاسة الجمهورية ، قالت : « كلا ، ما أريد أن يقفز فرانكلين الى منصب ما » فلعلها كانت تريد ان ابنها تعود أن يواتيه التوفيق عما شاء من المناصب دون ان يسعى اليها جاهداً كادحاً ، الا ان يكون السعى حسن البلاء فى أداء الواجب

— ٧ —

وجاءت سنة ١٩٣٢ التى تنتهى فيها رئاسة « هوفر » ويجرى فيها الانتخاب للرئاسة الجديدة وكان أبرز رجال الحزب الديموقراطى حينذاك هو « سميث » وهو رجل عصامى ، والشعب الامريكى يؤثر وضع أموره فى أيدى اولئك الذين نشأوا فى غمار الفاقة وقسوة الحياة ، اذ يرى انهم أدرى بشؤون الشعب وأقرب الى تعهدها ورعايتها ، على نقيض الشعب الانجليزى الذى يؤثر الرجل الأصيل الثرى ويرى فى عراقته وثرائه ضمانا لنزاهة الحكم وترفع رجاله

وكان المفروض ان يرشح للرئاسة كما رشح لها منذ أربع سنين فتغلب عليه « هوفر » مرشح الحزب الجمهورى . وكان مرجع هزيمة « سميث » الى عاملين : اولهما ، ان الحزب الديموقرطى كان قد فقد كثيراً من تأييد الرأى العام ، نتيجة السياسة التى جرى عليها ويلسون فى الزج بأمريكا الى ساحة الحرب الأوربية ، والتى تنظر اليها جمهرة الامريكيين الآن نظرة أسف وندم .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

منذ وجدت ان الحرب التى ضحت فيها أمريكا بعشرات الآلاف من رجالها وآلاف الملايين من دولاراتها لم تجعل العالم « أمناً للديموقراطية » كما وعدها ويلسون ، بل ظل كما كان نهباً موزعا بين اطماع الاستعمار وحزازات الشعوب وأحقاد رجال الحكم والسياسة ، وثانيهما ، ان«سميث» على كفاءته الممتازة وتاريخه المجيد لم يكن من « صميم » امريكا ، ونعنى بهـذا « الصميم » ان يكون منحدراً من العنصر الانجلو سكسونى الذى ينحدر منه ستون مليون نسمة من سكان الولايات المتحدة ، وأن يكون « بروتستانتى » العقيدة التى دفعت بالامريكيين الأوائل الى هجرة اوطانهم عبر البحار الى فيافى امريكا حفاظا عليها من الفتنة والعسف والاضطهاد ، اما سميث فكان ينحدر من أصل غير انجليزى كما كان كاثوليكى المذهب ، فتعاون الأمران على هزيمته فى انتخابات سنة ١٩٢٨ . فلما جاء الانتخاب الثانى خذل الحزب رجله الأول «سميث» ورشح بدلا منه «روزفلت» مع ان الرجلين سارا شوطا طويلا من حياتهما صديقين حميمين يتبادلان العون والتأييد : يعين روزفلت صاحبه على تولى المنصب الأول . ويعين سميث صاحبه على تولى المنصب الذى يليه ..

نزل روزفلت اذاً الى ساحة الانتخاب ، فوجد خصومه ومناوئيه يثيرون عليه دعاية عنيفة شعواء ، اذ يقولون: « وكيف نلقى امورنا الى رجل يعانى الشلل ، الذى لا يعفى صاحبه من تعهده ورياضته بالراحة والفراغ ، والذى لا تؤمن نكسته فجأة وقلما يسلم من تأثيره ذهن المريض ! »

كان فى وسع روزفلت أن يتخذ من سنيه الحافلة بالعمل والنشاط فى نيويورك أدلة يدفع بها دعاية الخصوم ، وكان فى وسعه ان يقول للناس ان كثيراً من ابطال التاريخ أدوا اعظم اعمالهم وبعض اطرافهم أو أعضائهم مشلول بل مبتور ، وكان يمكن ان يذكرهم بقول ابيقور : «ان الشلل مرض فى الساق لا فى العزم » ، وأن يقول لهم ان تيمورلنك خاض أكبر معاركه يزك على ساقه اليمنى العرجاء ، وان الفارس الألمانى فون برليشنجن كان يحارب بذراع من الحديد ، أما كريستيان أمير برنزويك فبذراع من الفضة ، وثمة من حارب بغير ذراع وبغير ساق ! وكان يستطيع ان يعدد لهم اسماء عدداً اقربها اليه ـ وقد وعى تاريخ البحار والبحارة ـ اسم نيلسون الذى فقد ذراعه فى سن الحادية والعشرين ، وأصابه العرج بعد قليل ، وفقد عينه اليسرى فى السادسة والثلاثين ، وكادت اليمنى أن تكف ، وشجت رأسه بالجراح الغائرة ، ومع هـذا كان أقوى من ناضل نابليون وأول من قهره ! ولـكن روزفلت أبى ان يقول شيئا من ذلك

فعند ما أثار أحد منافسيه مسألة الشلل أجابه : « إني واثق من حسن قصدك وسلامة نيتك ، فأنا مستعد إذاً ان أسمح لك بفحص سلامتى الجسمية كما تشاء ، وان أيسر لك الأمر ليكون هذا الفحص شاملا كاملا ، وأن أمنحك كذلك الحق فى ان تذيع نتائج الفحص على ملأ الناس »

لم يسبق فى التاريخ على طوله أن فرض على أى رجل ان يفحص طبياً قبل أن يعهد اليه بمنصب الملك أو الرئاسة أو بمرتبة الحكم أو الوزارة ، ولو طبق هذا على من توكل اليهم المهام الكبرى ،

بدلا من أن يطبق على من لا يلق اليهم إلا أتفه الأعمال ، لخلت صفحة التاريخ من أسماء نفر من الملوك والحكام والساسة طالما أساءوا وأخطأوا وأجرموا بتأثير أمراضهم ونقائصهم الجسمية . ولكن كم فى التاريخ من الرجال من هم كروزفلت سماحة وتواضعاً ، وثقة بالنفس واطمئنانا ؟ !

وعينت لجنة من الأطباء ألفها رئيس أكاديمية الطب فى نيويورك من المختصين بأمراض الشلل والاعصاب ، وكانت نتيجة فحصهم : « أنهم يعتقدون أن عند روزفلت من قوة الاحتمال ما يمكنه من ان يقابل كل مطالب الحياة الخاصة والحياة العامة على السواء »

على ان الناس كانوا فى غنى عن فحص الاطباء وقرارهم ، فهم يرون روزفلت يذرع أرجاء أمريكا شرقا وغربا فى قوة ونشاط ، ويقرأون لأحد الصحفيين الذين يرافقونه : « انه قلما ينجو من الصداع أو الزكام أو الاعياء أحد من مرافقيه من الأعوان أو الصحفيين فى أثناء رحلاته الانتخابية المضنية ، أما هو الذى ينفرد دونهم بالقاء الخطب والاحاديث ، وبلقاء الوفود والافراد ، فما أحس يوما تعباً ولا شكا ألما »

كذلك كان من الأمور التى دار عليها الانتخاب مسألة الخمر التى حرمت أمريكا منذ سنة ١٩١٧ صناعتها وتجارتها وتداولها . وكانت الشعوب المتحررة تعجب لهذا التحريم وترى أن تقييد حرية المرء فى شرب الخمر لا يفترق عن تقييد حريته فى تقبيل زوجته ، وان كان لودفيج قد اتخذ تعبيراً أوضح واعنف ! ولكن الحزب الديموقراطى كان يرى ان التحريم لم يؤد فى أمريكا الا الى هذه العصابات التى تهرب الخمور الرديئة وتجمع من ورائها الملايين ، والا الى هذه الرشى التى ذاع ان العصابات اشترت بها كثيراً من رجال الادارة ، ومع هذا ظلت الخمر ذائعة فى الاندية والبيوت

وكان مبتكراً فى دعايته الانتخابية ، فمن ذلك ان أعوانه أرسلوا الى كل نائب من نواب أمريكا أسطوانة جراموفون تبدأ بهذه الجملة : « صديقى العزيز ، كنت أود ان يكون فى وسعى أن أتحدث اليك وجهاً الى وجه » ثم تذيع خطابا انتخابيا بسيطا واضحا . وكذلك الف « عصبة الذهن » من نفر من الاساتذة والمثقفين وضع كل منهم رسالة وجيزة فى بضع صفحات ، عن مشكلة من المشاكل المهمة التى تواجه أمريكا . ووزع هذه الرسائل فى أنحاء أمريكا . و « عصبة الذهن » هى التى عهد الى كثير من رجالها فيما بعد بالاشراف على تنفيذ « نظام التعامل الجديد »

وجاء يوم ٤ نوفمبر سنة ١٩٣٢ فظفر روزفلت بنصر عظيم لمنصب الرئاسة ، لا يعدله الا خذلانه العظيم فى سنة ١٩٢٠ لمنصب الوكالة .. فما هو أول عمل ينبغى ان يؤديه الآن ؟

إنه ذهب فى يخته الى تلك الجزيرة التى أصابه الشلل فى مياهها ليمضى فيها فترة من الراحة والاستجمام ، وليقول لمائها المثلوج : « أيها الشيطان ! لقد قهرتك ، وكان نصرى عليك عظيما »

وفى مارس من العام التالى ، ذهب الى واشنجتون ، ليقيم فى البيت الأبيض أربع سنين . ومن يدرى فقد تكون ثمانى سنين ، ولكن من المؤكد ان لن تكون اثنتى عشرة سنة !

فى البيت الأبيض

— ١ —

أقبل روزفلت على مدينة واشنجتون فرأى لواء امريكا يرفرف فوق أشجار فارعة خضراء ، وتقدم تجاه العلم فوجد هذه الاجمة تلتف حول بيت ابيض وادع كبيوت السراة . هذا هو البيت الابيض الذى يشق على من يراه من أبناء العالم القديم أن يصدق أنه مقر الحكم فى أغنى شعوب العالم وأرقاها ، فقد ألف أن يتخذ الملوك والرؤساء قصوراً عالية الذرى فسيحة الأرجاء ، ترتفع عليها القباب والأبراج ، ويقوم على أبوابها الجند والحجاب ، ويحفها جو من البذخ والرهبة والجبروت . ذلك ان العالم القديم لم يبرأ من « عقلية القصور » وما تمثله من الترف الباذخ والمظهر الخلاب ، حتى فى شعوبه التى أوقدت الثورات وأدارت المذابح ، لتهدم العروش وتخلص من الملوك . أما أمريكا التى لم ترق قطرة من الدم فى سبيل اصدار الدستور واقامة البرلمان ، فتأبى أن تقيم رئاستها فى قصر بل فى بيت ، فى بيت يختلف عن القصر قدر ما تختلف هيبة الزعيم عن رهبة الحاكم

ان الرئاسة فى العالم القديم ما برحت متسمة بسمات الملك والبأس والسطوة ، فمن حقها أن تقام حيث ألف الناس أن ينظروا متوجسين الرهبة والتهيب والاشفاق . أما الرئاسة فى أمريكا فلا تعدو ادارة عمل او شركة ، فيجب أن تسكن فى بيت انشىء على الطراز الحديث الذى ييسر أداء العمل ويهيىء جو النشاط

فهذا البيت أبيض ناصع ، وتلك القصور قاتمة غبراء . وهذا البيت من طابقين اثنين ، وتلك القصور ترتفع شاهقة شامخة . وفى ساحات القصور تروح وتغدو كتائب الحراس شاكى السلاح أيقاظ العيون ، أما ساحة هذا البيت فتعبث فى أرجائها طائفة من « السناجب » آمنة هادئة ! . وأمام تلك القصور تقوم تماثيل الملوك والزعماء والقواد عابسة متجهمة غاضبة ، شاهرة سيوفها أو ملوحة بأيديها ، أمارة على ما كان لها من بأس وملك وسلطان ، اما التمثال القائم امام هذا البيت فوديع ضاحك « مؤدب » ، هو تمثال الرئيس جاكسون الذى تنفرج سماته عن ضحكة عريضة مليئة ، وترتفع يده بقبعته فى الهواء ، وكأنما يقول لمن يمر به : « صباح الخير يا أخى ! لا تؤاخذني أن أكون على ظهر جواد وأنت راجل . . ! »

وتلك القصور لا يدخلها إلا من يرتدى ملابس وأزياء خاصة ، منها ما هو أسود قاتم ومنها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ما هو أبيض ناصع ، وبعضها قط معقود ، وبعضها ذيل ممدود . أما هذا البيت فيدخله اعضاء « الكونجرس » ورجال الصحافة وموظفو الحكومة ليقابلوا رئيس الجمهورية فى بذلاتهم العادية . . وفى تلك القصور قواعد وأصول لمن « يتشرف بالمقابلة » عينوا لها موظفين اختصوا بهذا الفن المربك المعقد ، أما فى هذا البيت فتتم المقابلة فى يسر وبساطة لا تتوافر فى مكتب وزير أو مدير فى الدنيا القديمة . .

تلك القصور قلاع ترهب وتخشى . أما هذا البيت فمنزل يقصد ويزار . . هناك الكلام همس والحركة لمس ، وهنا تتردد دقات الآلات الكاتبة تقطعها ضحكات الموظفين والزائرين . . هناك الحراس والحجاب والأمناء والرقباء ، وهناك لا يفصل بين حجرات الزائرين ومكتب الرئيس سوى حواجز من الخشب والزجاج . . ويقول « إميل لودفيج » إنه كان فى إحدى هذه الحجرات يسمع صوت روزفلت وهو يتحدث الى أحد مديرى البنوك ولولا صوت الآلات الكاتبة لسمع ما دار بينهما كلمة كلمة !

على أن البيت الابيض ليس خلواً من العيون والرقباء ، ففى ردهاته وأركانه « زواردائمون » يرقبون الداخل والخارج بنظرات حذرة مرتابة من وراء الصحف والكتب التى يبدون منصرفين الى قراءتها . .

وفى البيت الأبيض تحف وصور وتماثيل . . . ولكنها كلها تلائم روح المرح والضحك السارى فى غرفه وأرجائه . . . فمن تحفه سمكة مجففة ومجموعة من طوابع البريد ، ومن صوره رسم كاريكاتورى للرئيس روزفلت عثله وهو يصيد السمك بشصه الطويل غارقاً فى ضحكة عريضة حافلة ، ومن تماثيله مجموعة من تماثيل الحمير . . نعم الحمير . . مصفوفة على مكتب الرئيس !

ان الملوك والحكام لا يرسمون فى بلادهم رسماً كاريكاتورياً ، لأن المفروض أن لهم من السمات الدقيقة والملامح المرهفة ما لا يحتمل عبث الفن الكاريكاتورى ! أما هذا البيت الأبيض فلم يجد لروزفلت رسماً خيراً من هذا الرسم الضحك الساخر !

— ٢ —

لم يكن روزفلت غريباً عن البيت الابيض فقد دخله وما زال طفلا فى سن الخامسة . وانه ليذكر اليوم وهو يرقى درج هذا البيت ما قاله الرئيس كليفالند منذ خمسين سنة حين جاء مع أبيه لزيارته اذ قال له مداعباً : « سأقول لك كلمة أرجو أن تذكرها يا بنى مدى حياتك : هى أن تدعو الله ألا يجعلك يوما رئيساً للولايات المتحدة » !

مرت بذهنه هذه الكلمة التى طالما رددتها أمه على سبيل المداعبة والرجاء معاً ، فارتسمت على وجهه ابتسامة واضحة كادت أن تنفرج عن ضحكة حافلة ، فانه يعلم أن من الناس من يجهد

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويمضى سعياً الى منصب ، فاذا بلغه أخذ يتحدث عن الأعباء الثقال والتضحيات الكبار ، فان أفلت منه عاد يسعى اليه من كل سبيل جاهداً ناصبا . اما هو فيقبل على البيت مبتهجا مستبشراً ، ففيه يلقى من سعة المجال وقوة النفوذ ما يستثمر ملكاته وقواه ، ويلائم خصاله وسجاياه ، ويحقق آراءه وأمانيه . وفيه تواتيه القوة على أن ينصف الفقير من الغنى ويأخذ للعمل حقه من المال ، وفيه تتاح له الفرصة ليجعل أمريكا أوفر رغداً وآمن حياة وأقدر على أداء رسالتها للحضارة والانسانية ، وان كان يرى أنه يلى الأمر فى ايام عصيبة خطيرة ، تتبدى فيه لأمريكا نذر الخطوب والشدائد ، وتقتضى من رئيسها كفاح الأبطال والمضحين . . .

فما ان دخل البيت الابيض حتى بدأت مئات من المصارف توصد أبوابها وتحجز أموالها ، فلما توافدت أفواج الناس الى واشنجتون لتشهد احتفالها بالرئيس الجديد أبت المتاجر والمطاعم والفنادق أن تقبل « شيكاتهم » فأكثرها ضاع رصيده فى المصارف ، فوقع فى المدينة أول ما جاءها شيء من الفوضى والارتباك ، وقد عهدت أن يكون قدوم الرؤساء موسما للرواج والرخاء

كان هذا نذيراً بما يترقب روزفلت من الشدائد والأحداث ، فان موجة « الذعر الاقتصادى» كما يجرى تعبير علماء الاقتصاد كانت تسرى فى أرجاء امريكا ، فأفلست آلاف من المصارف وأوصدت آلاف من المصانع ، وفقد ملايين من الناس ودائعهم وأموالهم التى ادخروها لأيام الشدة ، وتعطل عن العمل والكسب ملايين من العمال والموظفين ، وكذلك أخذ الزراع لا يجدون سوقا لتصريف غلالهم وثمارهم ، فان وجدوها فبأسعار لا توازى نفقات الانتاج . وهكذا كانت الامة الامريكية فى جملتها تحس الخوف والقلق على مصادر رزقها وأسباب حياتها ، وتشعر أنها مقدمة على هاوية سحيقة يتعذر الخلاص منها

وأخذ الناس يقولون : ان الرئيس السابق « هوفر » أمضى سنيه فى البيت الأبيض يضع البرامج وينثر الوعود ، بينما الأزمة تشتد عنفا وبأسا يوما فيوما ، مع انه كان رجلا حاداً عابساً حازماً ، ولم يغادر عمله ومكتبه يوما واحداً . فكيف يكون الامر والرئيس الجديد « روزفلت » يبدو عليه أنه رجل مرح لين وادع لا يحب العمل كثيراً ولا يصبر على الجهد طويلا ، فانه يغادر عمله من حين الى حين ذاهباً الى تلك « الينابيع الدافئة » ليروض فيها ما خلف الشلل فى جسمه من آثار المرض والعجز ؟ ؟

هكذا كان يتحدث الناس فيزدادون قلقا وخوفا وتشاؤما ، بينما روزفلت وسط هذه المظاهر كما كان العهد به دائما : مرحا ضاحكا ، واثقا آمنا ، متفائلا مستبشراً

ها هو يبدأ عمله بأن يقسم أمام ممثلى الأمة فى الكونجرس ، على هذا الانجيل القديم الذى جاء به جده الأعلى من هولندة منذ مئات السنين ، يقسم على الاخلاص للوطن وللدستور ـ للوطن الذى لا ينقذه من الكارثة التى تتهدده الا رجل شديد البأس حازم الرأى ، يقبل على العمل جريئا

حاسما لا يصده عرف ولا قانون ، ، ولا يبالى فى سبيل الأمة الكبرى بأس الأفراد وغضب الجماعات – وللدستور الذى يفرض عليه من قيود القانون وأوضاع النظام ما يشق عليه أن يتخلص من اساره ، والذى يريد روزفلت فى قرارة نفسه أن يسير وفق نصوصه وقواعده حتى لا يفسد على الشعب الامريكي تقاليده المرعية ومثله العليا ، وهى تتلخص فى أن تطلق للافراد حريتهم ما لم تؤذ المجموع أذى واضحا مباشراً . . .

– ٣ –

أقسم روزفلت هذا القسم الذى يكاد شقاه أن يتضاربا ويتناقضا ، ثم أخذ يتحدث الى الشعب القلق الحائر فينصت له فى صبر ووجوم . كان الشعب يخشى ان يكون كلام الرئيس الجديد من قبيل هذا الكلام الذي ألف سماعه . عبارات غامضة ووعود مبهمة ترضى العواطف وتتملق المشاعر ، بينما أمور الشعب تزداد كل يوم ضيقاً وعسراً وإرهاقا . ولكن روزفلت فاجأ الناس بكلام جديد جرىء صريح ، فلم يشأ أن يخدعهم عما يعانون من المشاق والآلام وما يتهددهم من الخطوب والصروف ، ولم يشأ أن يخدرهم وينومهم ريثما يأتى الفرج فى أثناء غفوتهم وغفلتهم من أى سبيل ، وأخذ يبصرهم ويحذرهم ليحيي أملهم ويثبت عزمهم ويوحى اليهم روح الثقة والتفاؤل

سمعوه يبدأ خطابه قائلا : « هذا هو الوقت الذى يجب أن يقال فيه الحق الصراح ، وأن يقال فى جرأة ووضوح . إن الشىء الوحيد الذى يجب أن نخافه هو الخوف ذاته ، فيجب ان نحذره ونتفاداه . وبهذا الروح الذى يملأ قلبى ويملأ قلوبكم نواجه مشاقنا المشتركة ، هذه المشاق التى لا تمس ، بفضل الله ، الا أمورنا المادية . وإنا إذ نقارن ما نلق من المشاق بتلك الاخطار التى قهرها آباؤنا وأسلافنا ، وجدنا ما يوجب الشكر لله كثيراً . . »

وما منشأ هذه المشاق ؟ منشؤها أولئك الافراد القلائل الذين يقبضون بأيديهم على زمام الاموال والأعمال ، فيوجهونها الى حيث تتحقق منافعهم وأطماعهم ، دون أن ينظروا الى واجب المنتج تجاه المستهلك ، وواجب المال قبل العمل ، وواجب الفرد حيال الوطن والمجتمع . فلا يخشى روزفلت أن يقول عن هذا النفر الذى ألف رجال السياسة والاحزاب أن يرهبوه أو يمالئوه هذه الكلمات العنيفة القاسية : « أولئك المتجرون فى المال يقفون اليوم فى ساحة الحكم أمام الرأى العام ، متهمين ، مدانين ، آثمين . هذا قضاء الرجال عليهم يصدر عن قلوبهم وعن عقولهم على السواء . . فهذا النفر لم يعرف الا أوضاع ذلك العصر الغابر ، عصر الباحثين عن أنفسهم . . لقد خلوا من كل مثل أعلى ، هذا المثل الذى لا حياة للناس إذا فقدوه . . إن تجار المال هؤلاء يجب أن يتركوا اليوم مقاعدهم العالية فى معبد الحضارة ، لنعيد الى هذا المعبد مبادىء الحق والعدالة . . »

ثم ينحي على المال ، كما أنحى على تجاره ، بالزراية والامتهان ، معبراً فى ذلك عن ميله واتجاهه

فى جميع أطوار حياته ، إذ أبى أن يغنيه التماس المال عن أداء الواجب أو يصرفه عن متاع الحياة ، فيقول : « إن السعادة لا تقوم على مجرد امتلاك المال ، بل على ما يهيئه العمل من المرح والابتهاج ، وما فى بذل الجهد من اللذة والمتاع . إن فى ممارسة العمل ، وفى اتخاذ الفضيلة من دواعى المرح والغبطة ما يجب أن يكون أولى بالسعي والايثار من مجرد هذه الأرباح الزائلة الفانية التى يتسابقون اليها سباق الجنون . إن الظن الزائف بأن الثورة المادية هى مقياس النجاح يماثل الظن الزائف بأن العمل السياسى الرفيع لا يقدر إلا بقدر ما يهيئه من المنصب والكبرياء والفائدة الذاتية »

أما وقد غذى القلوب وأثارها ، وأعد العقول وهيأها ، فانه يصل الى الهدف الذى يرجو : الى حيث يأمل أن يطلق الشعب يده فى وضع ما يريد من الأنهاج وسن ما يرى من القوانين ، فيقول : « إنا فى حاجة الى درعين نتق بهما سيئات النظام القديم ونأمن على أنفسنا من عودتها ونكستها : فيجب أولا أن تكون هناك رقابة حاسمة كاملة على أعمال المصارف وشؤون الاستثمار ، ويجب ثانياً أن يقضى على الاتجار والمضاربة بأموال الناس »

إن ما يطلبه روزفلت ليس يسيراً . فهو يناقض المبدأ الأول الذى قامت عليه الحياة الأمريكية منذ بدايتها ، فان أمريكا نشأت وتألفت من أفراد وأقوام هجروا أوطانهم لأنها كانت تنكر عليهم الحرية فى الرأى أو فى العمل ، وقدموا هذه القارة الجديدة يلتمسون فى رحابها الحرية المطلقة فى اتخاذ أى رأى ومزاولة أى عمل يشاءون . فاذا جاء اليوم روزفلت يطلب الى الشعب الأمريكى أن يطلق له النفوذ فى الاشراف على كثير من شؤون الاقتصاد والمال ، فانما يطلب اليه أن ينزل عن تلك الحرية التى احتمل فى سبيلها مشاق الهجرة والغربة والكفاح . ولكن أمريكا تنظر اليوم فترى ان الازمة التى تتهددها بالفاقة والفوضى والدمار ، انما نشأت لأن بعض أفرادها وجماعاتها اتخذوا من هذه الحرية أداة يجمعون بها من المال والنفوذ ما ينالون به من الشعب ، من أمنه ورخائه وحريته جميعاً . فلماذا لا يستجيب الشعب لروزفلت الذى لا يريد أن يمس الحرية الا بالقدر الذى يكبح جماح هذا النفر الخطر العابث ، حتى اذا ما استقر الامر كانت هذه الحرية أحسن مما هى اليوم صورة وأكمل معنى ؟

— ٤ —

ويستطرد روزفلت فى خطابه الى سياسة أمريكا الخارجية ، فليست أمريكا بالشعب الضئيل الصغير الذى يصح أن تغنيه أموره ومشاكله عن النظر الى ما حوله من القرى والشعوب ، أولا لأن أمنه ورخاءه مرتبطان بما تجرى عليه سياسة الحكم فى سائر الأقطار ، ولأنه بحكم مكانته وتكوينه ومبادئه يشعر بواجبه قبل العالم والسلام . فيقول روزفلت : « انى أوجه هذا الشعب ،

فى مجال السياسة العالمية ، وجهة الأخذ بسياسة الجار الطيب ، الجار الذى يحترم نفسه احتراماً كاملا حازماً ، لأنه ان احترم حقه فقد احترم حقوق الآخرين ، الجار الذى يأخذ على نفسه أن يؤدى واجبه ويفى بوعده ، والذى يقدس ما بينه وبين سائر الجيران من العهود والمواثيق »

فى هذه الفقرة التى تدعو الى سياسة الجوار ، بل سياسة الاخاء ، بين أجزاء العالم وشعوبه ، ينكر روزفلت على الديكتاتورية المعاصرة ما تنادى به وتسعى اليه من تفويق شعب واحد على سائر الشعوب ، ومن الأخذ بسياسة الاكتفاء الذاتى فى شؤون الاقتصاد . ولكن من المؤكد أن ملايين من الذين سمعوا هذا الكلام منذ تسع سنين لم يفهموا هذه الفقرة حق فهمها ، اذ أن جمهرة الناس لا تلقى بالها الى شؤون السياسة ، ولا تفتح ذهنها لمشاكلها وأخطارها ، الا بعد أن تقترن السياسة بالحديد والنار ، وتشرف بالشعوب على ساحة الحرب والقتال . واذا كان يقال ان الساسة يتأخرون عن المفكرين بجيل ، فمن الحق أن يقال ان الشعوب تتأخر عن الساسة جيلا آخر . . .

ثم يعود روزفلت ليبث الأمل ويثبت العزم فى قلوب الملايين الذين يرهفون له الآن آذانهم ، فيقول : « ان العمل على هذه الصورة ، وان السعى الى هذه الغاية ، كلاهما ميسر ممكن مع الابقاء على مبادىء الحكم التى ورثناها عن أسلافنا . فان دستورنا سهل مرن عملى ، مما يمكننا دائماً من أن نواجه الطوارىء والمشاكل بشىء من التعديل والتحوير دون أن نفقد شيئاً من مبادئه وقواعده الأولى »

ماذا يعنى وماذا يريد ؟ انه يجيب على هذا السؤال الذى لا شك قد ساور سامعيه بهذه الكلمات الحاسمة : « هناك طريقان : أولهما انى سأقوم ، بحكم واجبى الدستورى ، باقتراح ما يفتقر اليه هذا الشعب المريض الذى يعيش وسط هذا العالم المريض ، وثانيهما أن هذه المقترحات مضافا اليها ما يقترحه الكونجرس بناء على ما مر به من التجارب وبفضل ما يمتاز به من الحكمة والتبصر ، سأسعى فى نطاق سلطتى الدستورية الى تنفيذها تنفيذاً سريعاً كاملا ، أما ان حدث ان أبى الكونجرس أن يسلك طريقا من هذين الطريقين ، وظلت الطوارىء القوية التى نعانيها قائمة بمشاكلها ومتاعبها ، فانى لن أحجم عن السير فى طريق الواجب الذى ألقاه أمامى . سأطلب حينئذ الى الكونجرس أن يمنحنى الأداة الأخيرة لأواجه الازمة ــ أعنى ان أمنح سلطة تنفيذية واسعة كهذه السلطة التى تمنح لى لو ان البلاد واجهت عدواً غازيا . وبفضل ما أمنح من القوة والنفوذ أستطيع ان أواجه الأزمة بما ينبغى من الجرأة والاخلاص . وليس فى وسعى ان أفعل أقل من هذا »

إنه يريد إذن ان يكون ديكتاتورا وان كان يسعى الى ذلك عن طريق الدستور ، فهو إذن أول من ابتكر هذه الديكتاتورية الدستورية ــ ابتكرها بحكم المشاكل القائمة والخطوب المنذرة ،

وبفضل الشخصية النافذة والسياسة البارعة ، فبعد ان القى هذه الكلمات الحازمة العنيفة التى ربما استفزت الكونجرس الى المناوأة والتحدى، عاد الى الاسلوب اللين الوادع الذى يؤلف الكونجرس ويعطفه ويستميله ، فيقول : « إنا لا نريد ان نعبث بالديموقراطية . ولكن شعب الولايات المتحدة يريد بدافع مشاكله القائمة ان يوضع نظام دقيق وتقام ادارة قديرة ، توجهها زعامة يوثق بكفاءتها وإخلاصها ، وقد أراد الشعب ان أكون أنا الأداة الحالية لتحقيق هذه الرغبة . وانى لآخذ على نفسي هذا العبء ، سائلا الله فى خضوع وخشوع أن يباركنا .. اللهم اشمل برعايتك كل فرد منا . اللهم خذ بيدى فى غمار الايام العصيبة التى تقبل علينا »

هذا خطاب روزفلت : استمعه الشعب معجبا ان يكون هذا الرجل الذى أقعده المرض سنين عدداً حافلا بهذه القوة البادية دافقا بهذا الروح الغلاب ، واستمعه رجال الكونجرس معجبين ، ان يجابههم الرجل بما يقيد من سلطتهم ويغل من أيديهم ليملك ما يشاء من القوة والنفوذ ، فلا ينتهي من خطابه حتى تدوى قاعة المجلس بما لم تسمع مثله من قبل من التصفيق والهتاف ، فقد استل تأييده ومؤازرته فى براعة فذة ودهاء ماكر

وعاد روزفلت من دار الكونجرس الى البيت الابيض حيث وقف فى شرفته ثلاث ساعات كاملة يعرض كتائب الجيش ويحييها ، وكان الشتاء قارساً والريح عاصفا فأشار عليه من حوله أن يختصر الحفل فأبى إلا أن يظل هذه الساعات واقفا فى العراء ، لأن « كبرياء الجند لا يجوز أن تجرح بسبب البرد والريح ، ولا رفقا بالرئيس أن يصيبه الانتكاس » ! كأنما كان يريد أن يقول للناس ان أمركم ألقى الى رجل ما زال كما كان العهد به دائماً قوياً ، حاسماً ، باسماً ، جريئاً . . .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

— ٥ —

عند ما سرى الشلل فى أطرافه وأعضائه قال : « لا بد أن أضرب هذا الشىء ! » ، فلم لا يقول هذه الكلمة مرة أخرى وقد سرى الشلل فى حياة أمريكا الاقتصادية ؟

كان أول ما اعتد به فى كفاح ذلك الشلل البدنى « الأمل » يلهمه الصحة ويغلبه على المرض ، فلم لا يبثه ويثبته فى الشعب الامريكى ليكافح به هذا الشلل الاقتصادى فيقهره على أمره ؟

ولكن الامل لا يسرى فى الشعب إلا إن رأى عملا حاسماً نافذاً ، تطالعه أخباره الجديدة كلما فتح صحف الصباح ، وتترى عليه أطواره المتعاقبة كلما جلس الى أجهزة الراديو ، ويشهد بعينيه دلائله وأماراته كلما رأى المصارف الموصدة تفتح ، والشيكات المرفوضة تقبل ، والآلات الموقفة تدور ، والاسواق الكاسدة تروج ، والأندية الحاشدة بالمتعطلين تخلو منهم قليلا . . . فهذا شعب حى نابض لا « يؤمل » إلا اذا رأى الحياة وسمع نبضها ! فليلتمس روزفلت إذن مظاهر الحياة إن أعوزته حقيقتها ، وليسمع الناس صوتها إن أعجزه أن يريهم حركتها !

أخذ الشعب يقرأ فيما يقرأ من أنباء الحكومة انها أعدت قانوناً للمصارف من اثنتي عشرة صيغة، وان الصيغة الأخيرة وضعت قبل تقديمها الى الكونجرس بنصف ساعة، وانه لم يكن ثم متسع من الوقت لطبعها وتوزيعها على الأعضاء، ومع هذا فقد أقر الكونجرس القانون الخطير فى خمس وثلاثين دقيقة! فمن حق الشعب إذن أن يؤمل خيراً وبشرى، فقد كانت أبسط القوانين تستغرق شهوراً وراء شهور فى إعدادها وصياغتها ومناقشتها وتعديلها، أما اليوم فانه يرى لأول مرة فى حياته ان أهم القوانين وأخطرها يعد ويصاغ ويقر فى أيام بل فى ساعات!

ويدعو روزفلت رجال الكونجرس على عجل الى جلسة استثنائية، فيتدافعون من أرجاء أمريكا الى واشنجتون فى القطارات بل فى الطائرات، ويطلب اليهم أن يكون مطلق التصرف فى موازنة الميزانية، فيمنحونه هذا الحق الخطير. فما هو إلا يوم واحد حتى يصدر قانونا يختزل من نفقات الدولة خمسمائة مليون دولار!

ويمنحه الكونجرس يوم ١٠ مارس حق فتح المصارف التى أغلقت أبوابها ووضعها تحت رقابة الحكومة أو اشرافها. وفى يوم ١٢ مارس يجلس الى ميكروفون اللاسلكى ليقول للشعب مباشرة: لقد فتحت المصارف الموصدة، فاذهبوا اليها واصرفوا منها شيكاتكم. وضعوا فيها ودائعكم، وائتمنوها على استثمار أموالكم...

وروزفلت يعنيه الشعب قبل أن يعنيه الكونجرس، يهمه ان يشعر الشعب بالامل والثقة والتفاؤل، قبل أن يهمه ما يدور فى الكونجرس من جدال ومعارضة واتهام، فهذه رسالته الى الكونجرس فى اثنتين وسبعين كلمة، ولو كان يريد بها الكونجرس لجعلها خطابا مفصلا مسهبا، تدعمه القوانين وتوضحه الارقام وتؤيده الأسانيد، وانما يريد بها ان تكون كلمة وجيزة واضحة قرأها الشعب فى يسر وسهولة، لأنه يؤثر ان يحيي موات الشعب قبل ان يقنع رجال الكونجرس!

ولكن الكونجرس يرى ان روزفلت قد غمره فى طوفان من القوانين والمشاريع التى يستل منه الموافقة عليها فى ساعات وفى دقائق، حتى بدأ الناس يتحدثون بان رجال الكونجرس لايؤدون عملا ولا يبرمون أمراً، وبدا لرجال الكونجرس ان الناس يتجهون الى روزفلت مباشرة قبل أن يتجهوا الى ممثليهم ونوابهم، وأخذ نفر من الناس يقول إن شؤون الحكم فى امريكا يمكن أن تستقيم ولو لم يكن الكونجرس قائماً ... فأراد الكونجرس أن يثبت وجوده ويبرر قيامه، وكان الشيوخ من رجاله أكثرهم غضبا لأسمائهم التى قل ذكرها أمام اسم روزفلت الذائع المدوى..

فلما طلب اليه روزفلت أن تباح «البيرة» التى لا تحتوى على أكثر من ٣ر٢ فى المائة من الكحول، وكانت امريكا حين ذلك «جافة» كما كانوا يصفونها عندما كانت تحرم الخمر، قام مجلس الشيوخ وقرر رفض هذا القانون ما لم يعدل.. فما هو هذا التعديل؟ هو ألا تزيد نسبة الكحول فى البيرة عن ٣ر٠٥ فى المائة..! ولكن مجلس النواب رفض قرار مجلس الشيوخ

ووافق على صدور القانون ، الذى أراد الشيوخ ان يتخذوه فرصة لاثبات وجودهم وتبريره !

ولم يطل انعقاد الكونجرس أكثر من أربعة عشر يوما أصدر فيها روزفلت من القوانين ووضع فيها من المشاريع ، ما أحدث فى حياة أمريكا ثورة اجتماعية واقتصادية ليست أهون أمراً وأبسط أثراً من تلك الثورات التى أقامها موسولينى فى إيطاليا أو هتلر فى ألمانيا . وسط المذابح والمعاقل والسجون ، وبقوة العنف والعسف والارهاب !

— ٦ —

كأنما أرادت الظروف أن تقيم من روزفلت مثلا على ان الديموقراطية اذا أتيح لها الرجل الكفء والزعيم القدير لا ينقصها شىء مما تدعيه الديكتاتورية لنفسها من الكفاءة والانتاج والتفكير السريع والتنفيذ الدقيق ، دون أن تحمل وزراً من تلك الاوزار الخطيرة التى تقارنها الديكتاتورية ، دون أن تلقى بشعبها الى مجازفة ما من تلك المجازفات الطائشة التى يقذف الحكام المطلقون بشعوبهم الى هواتها . .

كأنما أرادت الظروف أن تهيىء للناس وجوها مشهورة بين الديموقراطية والديكتاتورية تكون مجالا للمفارقة والمقارنة والمفاضلة . . فى شهر مارس من سنة ١٩٣٣ قام روزفلت زعيما ديموقراطيا فى امريكا ، بينما قبض هتلر على زمام الامر فى ألمانيا . وكانت المشاق والمشاكل التى تحيط بالرجلين حينئذ متشابهة أو متقاربة ، لتشهد العالم كيف يكون أمر كل من الرجلين ـ الديموقراطى منهما والديكتاتور ـ قبل ما يواجهه من الأزمات والأحداث .

تولى كلا الرجلين أمر شعبيهما بالطريق الدستورى ، أى طريق الانتخاب والبرلمان . ثم أعلنا انهما يواجهان مشاكل خطيرة وظروفاً استثنائية تقضى بمنحهما سلطة واسعة ونفوذاً قويا . وقال كل منهما إنه يلى الحكم فى بلد أشرف على الخراب الاقتصادى بسبب العابثين فيه من تجار المال ، وبسبب ضعف المشرفين عليه من رجال الحكم والسياسة .. الى هنا اتفق الرجلان ، وبعد هذا أخذا يفترقان :

قال روزفلت : انا نواجه حالة من حالات الطوارىء تقتضي حشد القوى وتعبئة الموارد

وقال هتلر : انا نقوم بثورة عنيفة تتطلب أن نفوق الرصاص الى الصدور التى تخشاها . وتقيم السجون والمعاقل لمن نتهم وندين..

وأخذ روزفلت يبعث الى الكونجرس بمشاريعه وقوانينه ، والكونجرس يقرها ويقبلها بعد أن يبيح القول لمن يشاء من أعضائه ان ينقدها ويعارضها . فخول الكونجرس لروزفلت الحق المطلق فى أن يفتح ما أوصد من المصارف ، وفى ان يسحب الذهب من السوق ويرصده فى خزائن المصارف ، وفى ان يخفض مرتبات موظفى الحكومة وضباط الجيش كيف يشاء ، وفى ان يختزل

من نفقات الدولة قدر ما يريد ، وأبقى روزفلت الكونجرس منعقداً حتى أتم عرض مشروع الانعاش الاقتصادى كاملا واضحاً . ولم يلجأ فى خلال ذلك الى الحد من حرية صحيفة واحدة ولا الى اضطهاد حزب سياسى ، ولم يلق القبض على احد ، أو يغير حرفا من الدستور

فماذا فعل هتلر خلال هذه الشهور ؟ انه لم ينل فى الانتخاب أغلبية كاملة بل ظل للاحزاب الاخرى عشرات من الممثلين أنابهم ملايين من الأفراد ، ولكنه ألغى جميع الأحزاب الغاء ، وأبقى على حزبه منفرداً بالأمر ، وألقى القبض على أربعة آلاف من رجال هذه الاحزاب ، وفوق الرصاص الى صدور نواب الحزب الشيوعى فى الريشستاغ ، وحرم على أية هيئة ان تجتمع وتأتمر فان أبت فجزاء المؤتمرين إطلاق النار . وقبض على أكثر من مائة رجل من رجال الريشستاغ ، ووضع الصحافة كلها فى أصفاد رقابته العنيفة ، وأحال فرقة « المليشيا » المؤلفة من رعاع حزبه حرساً أهلياً رهيباً ، وجعل لعقوبة الاعدام أثراً رجعياً فأودت بحياة أناس لم يفعلوا إلا ما كان عملا مباحا

حدث هذا فى خلال الشهور الخمسة الاولى من قيام هتلر على أمر المانيا ، وفى خلال هذه الشهور ذاتها كانت الحكومة الأمريكية التى ولى روزفلت أمرها قد قامت بالاشراف على حركة الانتاج ومرافقه الكبرى ، وأخذت تقرض المزارعين ما يلزمهم من المال ، وتعيد ملايين العمال العاطلين الى المصانع التى أعادت الحكومة فتحها أو أعانت على إنشائها ، وشرعت الحكومة تصلح من نظام الأداة الحكومية وتركز كثيراً من مصالحها وتختزل من نفقاتها ، وأنشأت أكثر من عشرين هيئة لاصلاح مرافق أمريكا وتوجيه شؤونها وجهة الأمن والرخاء

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حدث كل هذا الاصلاح بفضل الضرائب التى فرضتها حكومة روزفلت على الاغنياء لتأخذ منهم حق الفقراء ، دون أن تحرم فرداً ماله فى عنق الدولة من حق الرعاية والحماية والعون على الحياة ، ودون أن تفرض قانوناً واحداً ينافى روح الدستور أو تنقده قواعد الاخلاق ، بل كان أغنياء أمريكا أكثر من فقرائها ترحيباً بهذه القوانين والمشاريع ، فان كان الفقراء قد وجدوا على رأس الحكومة من يمثلهم ويدافع عنهم وينتصف لهم ، فقد وجد الاغنياء الرجل الذى يجنبهم تلك الثورة الجامحة التى كانوا منذ شهور مستهدفين لأخطارها متوجسين أهوالها

فى خلال تلك الشهور الحافلة بالعمل والاصلاح فى أمريكا كان هتلر فى المانيا يصب سيلا من الغضب وينزل سوطا من العذاب بملايين من الرجال والنساء والاطفال . كان وزيره للعدالة يعلن مبدأ جديداً . أو على الأصح يرجع بألمانيا الى شريعة الغاب اذ يقول : «ان العدالة هى التى تنفع المانيا وكذلك تقول القبائل الهائمة فى الآجام كما تهيم الوحوش والسوائم ، إذ تنكر على أفرادها أن يؤذى بعضهم بعضاً ، وتبرر وتحبذ لهم أن ينالوا بالأذى أهل القبائل الأخرى . فكانت ألمانيا فى أثناء تلك الشهور لا ترى بأساً فى أن تغلق الكنائس الكاثوليكية وتطرد قسسها وأحبارها ،

إذا أبوا أن يغفلوا العهد القديم وينكروه ، ومن أن تلقى بكثير من كبارهم ومعمريهم فى غيابة السجن أو تدفع بهم الى ساحة التعذيب والتنكيل . كذلك جرد اليهود الألمان فى تلك الفترة من جميع حقوقهم وحرياتهم ، ومنها حق التعلم فى الجامعات ، وحق ادارة المستشفيات ، وحرم عليهم أن يكونوا كتاباً أو صحفيين أو موسيقيين أو ممثلين أو فنانين . ولم يستثن من هذا العسف الرهيب أحداً ولو كان آباؤه وأجداده ممن أبلوا فى خدمة ألمانيا مئات السنين أحسن البلاء ، ولو كان أبوه أو أخوه ممن سقطوا صرعى فى ساحات الحرب الماضية دفاعاً عن ألمانيا . وفى خلال هذه الشهور كانت الحرائق مشبوبة فى المدن الألمانية الكبرى ـ الحرائق التى تلتهم أثمن وأعظم ما أنتج الفكر الألمانى ، بينا الكتاب الألمان الأحرار ، ونصفهم على الأقل من المسيحيين لا من اليهود ، قد جردوا من حقوقهم وسلبت أملاكهم ، وزج بهم فى المعاقل أو شردوا من وطنهم ليضربوا فى فجاج الأرض يعانون العسر والغربة والارهاق . وكذلك قضى فى أمر الحرية فى ألمانيا قضاء مبرماً ، فالجامعات تجعل من ترهات الأخبار حقائق وعلوماً ، والصحافة أداة طيعة فى يد الحكومة ، والاجتماعات العامة محرمة ، والمناقشة فى الريشستاغ من ذكريات الماضى ، وكلمة « الجستابو » ترهب وتطاع ، وهكذا . . .

فاذا وثب خيالك فى برهة خاطفة الى أمريكا وجدت روزفلت يهاجم فى الكونجرس كأعنف ما تكون المهاجمة ، ويجرح فى الصحافة كأقسى ما يكون التجريح ، وينال منه رجال الأحزاب والسياسة فى اجتماعاتهم ومؤتمراتهم بكلمات مسرفة فى العنف والقسوة ، دون أن يصده أو يعوقه شىء من ذلك كله عن تنفيذ البرنامج الضخم الذى أعده لاصلاح شؤون الاقتصاد والاجتماع فى هذه الأمة الضخمة المعقدة إصلاحاً شاملا خطيراً . .

هذا مضرب الأمثال بالديموقراطية والديكتاتورية ، وهذه وجوه المقارنة بادية لمن يريد أن يتحدث عن قصور الديموقراطية وتخاذلها ، وكفاءة الديكتاتورية ونشاطها الى التنفيذ . . .

ان روزفلت شهادة لا تنقض ولا تناقش على أنه اذا تيسر للديموقراطية رجل قوى الشخصية ناضج التفكير وافر الاخلاص ، فارتقب منها خيراً دونه ما يتأتى على يد الديكتاتور مهما توافر له من المواهب والملكات ، ولا تخش منها شراً من هذه الشرور التى تترى فى أثناء الحكم الديكتاتورى وفى أعقابه . . .

***

كان روزفلت كالقائد الذى يطلب اليه فى وقت واحد أن يعيد تنظيم جيش تفككت عراه وتخاذلت قواه ، وأن يخوض به ساحة الحرب فيقهر العدو ويكسب المعركة . كان عليه ، أولا ، أن يوقف الشلل السارى فى مرافق الاقتصاد الأمريكى ويعيد اليها الحياة والنشاط ، وأن يؤدى هذا فى ظرف أيام وأسابيع لا على مدى الشهور والسنين . وكان عليه ، ثانياً ، أن يضع منهاجاً

كبيراً يوجه شؤون الاقتصاد والاجتماع فى أمريكا وجهة ترضى الطبقات وتؤمنها جميعاً

إن ثروة الولايات المتحدة الأمريكية موزعة توزيعاً لا يتفق كثيراً مع مبدأ « المساواة » الذى ترتكز عليه الحياة الديموقراطية قدر ما ترتكز على مبدأ « الحرية » . . . كان دخل الولايات المتحدة فى سنة ١٩٢٩ ثلاثة وتسعين بليون دولار ، ومع هذا كان هناك ستة ملايين من الأسر ، أى أكثر من ٢١ ٪ من مجموع الشعب ، يعيش على دخل أقل من ألف دولار فى السنة وهو مبلغ لا يكاد يفى فى أمريكا بضرورات الحياة الأولى . وفيها اثنا عشر مليون أسرة ، أى ٤٢ ٪ من مجموع الشعب ، دخل كل منها ١٥٠٠ دولار فى السنة . وعشرون مليون أسرة . يكون أعضاؤها ٧١٫٥٪ من مجموع الشعب متوسط دخلها السنوى ٢٥٠٠ دولار ... بينما هناك ١ ٪ من أسر أمريكا ، أى ٣٢٧٫٠٠٠ أسرة ، دخل كل منها فى السنة يزيد عن خمسة عشر ألف دولار ، أى ان دخلها السنوى يوازى دخل ٦٠ ٪ من الشعب . بل ان من كل ألف أسرة أمريكية أسرة واحدة دخلها ٢٧١٫٩١٧ دولاراً بينما ٤٢ ٪ من أسر أمريكا تعيش على دخل سنوى لا يزيد عن ٩١٩ دولاراً لكل أسرة . ومعنى هذا أنه فى تلك السنة التى لم تشهد أمريكا سنة مثلها فى الرواج والرخاء كان نصف الشعب يعيش عيشة لا تتيسر فيها حياة الراحة والأمان

تمثل هذه الأرقام صورة الحياة المعقدة التى تواجه روزفلت بما يحتدم فى ثناياها من ضروب النزاع والصراع . وهذه الحياة هى التى أقامت الثورات الجائحة فى أرجاء أوربا منذ عهد قريب ، وقد جاء روزفلت ليؤمن الناس أهوال الثورة ويجنبهم شرورها ، وليحقق لهم فى الوقت ذاته ما تغريهم به الثورة من المنافع والمصالح . فعليه اذن أن يكون ثائراً فى كلامه ، هادئاً فى عمله . فهو يسمى « تاجر المال » ذئباً ، ولكنه لا يقتله بل يستأنسه ، إذ يقول : « ان الفرد الذى يسير معتزاً بماله ، معتداً بنفوذه ، سيرة الذئب ، يجب على الحكومة أن تتعقبه وتروضه حتى يستأنس ويغدو أليفاً » !

ويتمثل هذا الاتجاه أو هذا الروح فى كل ما اشتمل عليه نظام « التعامل الجديد» من وجوه الاصلاح والتعمير ، فقد نظر روزفلت أول ما نظر الى سوق المال فوجدها تضطرب بالألاعيب والمناورات التى يمارسها ويجيدها نفر من المغامرين والقامرين ، ووجد أن هذه السوق أغرقت فى خلال السنوات الاثنتى عشرة الماضية بخمسين (بليون) دولار من الأسهم والسندات ، نصفها على الأقل « زائف » إذ أصدرتها منشآت دأبها الاحتيال والتزوير . فلم يغلق هذه السوق ولم يمنع المضاربة فيها كما حدث فى المانيا مثلا ، وانما فرض عليها رقابة الحكومة ليأمن الناس على أموالهم التى تسرب الكثير منها فيما مضى الى بيوت المغررين والقامرين ، وصار المضارب فى سوق المال — على حد التعبير العنيف الذى اتخذه لودفيج — « كالبغى » تمارس الرذيلة ولكن باذن الحكومة وتحت رقابتها !

وكذلك قرر روزفلت أن يكون الذهب خاضعاً لاشراف الحكومة وتوجيهها ، فنى الأسبوع الأول من رئاسته منع المصارف من الدفع بالذهب ، ثم قرر منع اخراج الذهب من أمريكا ، وأخذت الحكومة تشترى وتختزن كل ما فى السوق ، وكان فى تلك الفترة يتدفق من أوربا التى قام فيها النازى الى حيث يجد ملاذاً ومجالا فى أمريكا ، حتى بلغ ماورد منه اليها فى السنة الأولى من رئاسة روزفلت أكثر من مليون دولار ، فلم تمض بضع سنين حتى صار الذهب المحشود فى الولايات المتحدة أكثر من الذهب الباقى فى سائر الاقطار

وكان إنشاء المصارف قبل روزفلت حراً ميسراً لكل من يملك قليلا من المال أو شيئاً من الخداع والدهاء ، فصار إنشاؤها يتطلب من الضمانات ما يأمن به عملاؤها على أموالهم ومدخراتهم

كذلك أراد أن يفرض رقابة الحكومة على الصناعات الكبرى ، فوجد تجاهه بضع مئات من ملوك الصناعة يتلخص تفكيرهم واتجاههم فى هذه الكلمة التى قالها « شواب » ، ملك الحديد ، سنة ١٩٢٨ وسط حفل مشهور : « أتظنون أني هنا لأنتج الحديد ؟ انى هنا لأجمع المال ! » وفى الولايات المتحدة ألفا رجل — وان كان من الاحصائيين من لا يراهم أكثر من أربعمائة ، بل ان منهم من قال انهم ثمانون رجلا فحسب — يقبضون بأيديهم على رقاب العمال أولا ، والمستهلكين ثانياً . . ووجد أيضاً ان هؤلاء الأربعمائة الذين يملكون ويشرفون على مرافق الانتاج الكبرى تضخمت أرباحهم خلال ست سنوات (١٩٢٣ — ١٩٢٩) تضخماً كبيراً يبلغ ٢٣٤٫٥ فى المائة ، أما أجور العمال فلم تزد خلال هذه الفترة الا زيادة طفيفة قدرها ٤٫٩ فى المائة . فاستصدر القوانين التى تحرم الاحتكار ليكف عن الشعب أذى المحتكرين الذين اتخذوا ما منح لهم من الامتيازات والحقوق وسيلة لأرهاق الناس . . وجمع ممثلى الصناعات الست الكبرى ليتحدث اليهم حديثاً خاصا ، اتخذ فيه من نصائح الدين وقواعد الاخلاق تارة ، ومن أصول الاقتصاد وأرقام الاحصاءات تارة أخرى ، ما حملهم على ان يقرروا رفع أجور العمال الى الحد الذى تبرره أرباح الصناعة ، لتزداد مقدرة جمهرة الناس على شراء منتجات هذه الصناعات كلما زادت أجورهم ودخولهم كما قرروا انقاص ساعات العمل بما يتفق مع التقدم الاقتصادي والاجتماعى العام فصار أسبوع العمل الامريكى أربعا وثلاثين ساعة أى ما لا يزيد كثيراً عن نصف أسبوع العمل فى المانيا رغم التفاوت العظيم فى مستوى الاجور

ومع هذا فان ما احتملته الصناعة لم يكن شيئاً يذكر الى جانب ما أفادته من الرواج العظيم ، فزادت أرباحها فى السنة الاولى وحدها من رئاسة روزفلت بمعدل ٧٦ فى المائة . وكذلك زاد ربح المساهمين فى مرافق الصناعة الكبرى ، وكثير منهم من الطبقة الوسطى ، بمعدل ١٧ فى المائة فى هذه السنة

ونظر روزفلت الى الزراعة فوجد أن تجاوز الانتاج مستوى الاستهلاك أدى الى كساد سوق الغلال والثمار أو بيعها بأسعار لا تفى بنفقات الانتاج ، ووجد ان فترة الرخاء السابق قد أغرقت

الزراع فى الديون والرهون ، إذ الزارع فى أمريكا ، كالزارع فى كل مكان ، يندفع متفائلا أثناء الرخاء الى التوسع فى أملاكه عن طريق الاستدانة والارتهان ، فقرر روزفلت ان يوفق أولا بين كمية الانتاج وحاجة الاستهلاك ، وأخذ الزراع أول الأمر بالنصيحة والاقناع ، فحرثوا ملايين من الافدنة المزروعة قطناً مع انه كان فى طور النور والثمر ، ثم قرر ان تنقص من الأرض التى تزرع قطناً عشرة ملايين فدان ، ومنح الزراع تعويضاً مالياً عما أتلف من زرعهم أو أنقص من محصولهم ، وكذلك اتبع الموازنة بين الانتاج والاستهلاك فى سائر المحصولات المهمة وأخصها القمح والذرة والطباق والبطاطس وقرر ان تقام مذبحة كبرى تلتهم ملايين من الماشية والانعام والخنازير. ومع ان الزراع أنكروا أول الأمر هذه السياسة فلم ينفذوها إلا مكرهين، إلا أنه لم تمض شهور حتى بدت لهم مزاياها ، فعند ما نقص ربع قطنهم ونصف ماشيتهم ، وجدوا أن الباقى من المحصول والحيوان أوفر ثمناً وأجدى عليهم ربحاً . فقد تعادل الطلب والعرض تعادلا روج سوق الانتاج الزراعى ورفع أسعاره كثيراً ، وكذلك يسر على هؤلاء الزراع سداد ديونهم ورهونهم ، حين حملت الحكومة عنهم ١٫٥٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار تعهدت بسدادها للدائنين . وبذلك استفادت طبقة الزراع التى تتألف من ثلاثين مليون فرد ، أى أكثر من ربع مجموع الشعب كثيراً ، من أسباب الرخاء والاطمئنان

وأعاد روزفلت نظره الى الصناعة ، فذكر قول « لنكولن انى أومن بالرجل والدولار معاً ، ولكن إذا تنازعا وطلب الىّ ان أفضل بينهما وأفاضل ، فانى أفضل الرجل » . فوجد روزفلت ان الدولار قد طغى على الرجل كثيراً ، وانه مما زاد فى سطوة رجال الأعمال ان حركة العمال فى أمريكا واهنة القوى قليلة التنظيم ، فمن الأربعين مليون عامل وموظف فى الولايات المتحدة لم تؤلف سوى نقابتين لا يزيد عدد أعضائهما عن بضعة آلاف ، ذلك ان رجال الأعمال دأبوا على تفكيك أواصر العمال وتحطيم نقاباتهم ، وكانت حربهم على هيئات العمال تثار فى العلن تارة وتدبر فى الخفاء تارة أخرى ، حتى أن احدى الشركات الكبرى ألفت هيئة كبيرة من الجواسيس بلغ عدد رجالها ١٢٢٨ شخصاً ، منهم ثلاثمائة رجل مشتركين فى نقابات العمال ذاتها ، ومنهم مائة رجل يشغلون وظائف كبيرة فى أعمال الشركة ، كما ان شركة أخرى أنفقت فيما بين يناير ١٩٣٤ ويوليو ١٩٣٦ مبلغ مليون دولار على التجسس على العمال والنقابات ، بل ثبت أكثر من ذلك أن من رجال الاعمال فى أمريكا من تلوثت يداه بمثل ما تلوثت به أيدى النازى والفاشست فى أوربا من الدماء ، فكثيراً ما اختفى بعض زعماء العمال ولم يعثر لهم على أثر ما وكثيراً ما وجد بعضهم صريعاً فى بيته أو عمله وذهب دمه هدراً . . فوجه روزفلت همه الى تأييد العمال بنفوذه وبكلامه ، فقويت جبهة الأيدي العاملة وصارت الحركة النقابية فى أمريكا لا تعدلها الا قرينتها فى بريطانيا ، إذ تضم ما لا يقل عن ستة أو سبعة ملايين من العمال

يقول روزفلت فى إحدى خطبه : « ان العمل الذى يعتمد فى بقائه على بخس العمال ما ينبغى لهم من « أجور العيش » ليس له الحق فى أن يستمر فى هذا البلد . . ولا أعنى بأجور العيش تلك التى لا تتجاوز عيش الكفاف ، بل أعنى بها الأجور التى تكفل للرجل ولأسرته حياة محترمة » . وقد كان للرواج الذى أذاعه نظام « التعامل الجديد » فى أمريكا أثره فى رفع أجور العمال ، فضلا عن تيسير العمل لثمانية ملايين أو يزيد من العمال العاطلين . . . ولكن روزفلت يرى أن ثمة ما هو أهم من الأجر : يرى هذا الشبح الذى يبدو للعامل كلما فكر فى أمره ، وأمر زوجه وولده ، اذا قعد به المرض أو بلغ سن الشيخوخة أو حلت به البطالة ، فأوصد فى وجهه باب العمل والارتزاق . فأخذ روزفلت يتوسع فى نظم التأمين الاجتماعى توسعاً كبيراً ، وصار العامل الأمريكى يقبل على عمله آمناً على أيامه القادمة ، ولكن عبء التأمين الاجتماعى لم يلق على عاتق أصحاب الاعمال ، بل تحملت الحكومة أكثره مستعينة بما تقتطعه من أجور العمال

— ٧ —

أراد روزفلت بنظام « التعامل الجديد » ما هو أكثر من الانعاش الاقتصادي ، بل سعى من طريقه الى اصلاح كثير من جوانب الحياة الاجتماعية فى أمريكا ، كما يبدو من هذه الأعمال العامة التى خصص لها ٣٫٧٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار ، فنمرت مدن أمريكا وقراها بمشاريع غيرت من صورتها فى سنين قلائل . .

كان طبيعياً أن يتجه تفكير هذا الرجل الهانىء فى حياته البيتية الى هذا المشروع الضخم الذى أعده لتشييد أو تجديد البيوت فى أمريكا ، فأقرضت الحكومة الطبقة الوسطى من أهل المدن والقرى ما لا يقل عن ألف وخمسمائة مليون دولار ، ترد على أجل طويل بفائدة زهيدة ، فبلغ عدد البيوت التى أقيمت أو جددت فى عشرين ألف مدينة أو قرية زهاء مائة وستين ألف بيت ، مما أدى الى تنشيط كثير من الصناعات والاعمال الكبرى ، فكانت من أسباب الرواج والرخاء ، فضلا عما للبيت من أثر اجتماعى وأخلاق مشهود

وغيرت هذه « الاعمال العامة » وجه الريف الأمريكى . فصارت تشقه الطرق المعبدة التى تمتد آلاف الأميال ، وصارت الأنهار التى كانت تهدده بالطوفان من حين الى حين مدعمة بالجسور والسدود ، وقامت عليها الخزانات الكبيرة والقناطر ، فكان هذا من الاعمال التى أعادت الى العمل ملايين من العمال المتعطلين

كذلك رمى روزفلت الى مثل هذا الاصلاح الاجتماعى حين أنشأ « ادارة الرقي فى العمل » التى أرسلت مئات الألوف من الشبان الى الغابات يجتثون أشجارها وينشرون أخشابها ، ويعيشون فى الخيام عيشة رياضية تهذب الخلق والجسم معاً ، مقابل أجر قدره ثلاثون دولاراً فى الشهر

يرسل نصفها الى ذويهم ، وينفق النصف الثانى فيما يهيىء لهؤلاء الشباب أسباب الصحة والمرح أثناء التدرب على العمل والحياة

بل ان تفكير روزفلت يبدو فى هذا الجيش الذى ألفه من المؤلفين والموسيقيين والممثلين المتعطلين ، وقد جاوز عددهم خمسة عشر ألفاً ، بثهم فى أرجاء القرى ليقدموا لأهلها على نفقة الحكومة ما لا عهد لهم به من فن الموسيقى والتمثيل !

هذه بعض جوانب نظام « التعامل الجديد » الذى وفق به روزفلت الى أن يرضى جميع الطبقات ، طبقات العمال والزراع ، وطبقات أصحاب الاعمال ومديريها على السواء ، وان كان لم يسلم من النقد المر العنيف ، يوجهه من سلبهم بعض حقوقهم وفوت عليهم بعض منافعهم ، أو يوجهه خصومه فى أمر السياسة أو نظام الاجتماع . فمنهم من قال ان هذا النظام خطوة خطيرة فى طريق الاشتراكية . بل ان منهم من قال ان روزفلت فى أمريكا يؤدى دور كيرنسكى فى روسيا ، أى انه يمهد لحركة شيوعية واسعة النطاق خطيرة الآثار . . . أما الاشتراكيون فقالوا انما هو « فاشستية » أريد بها الحد من أطماع أصحاب المال والعمل ليدفع عنهم الاخطار التى يستهدفون لها اذا ظلوا فى طريق الجشع والاسراف

ومن علماء الاقتصاد من قال ان هذا النظام ليس نظام اصلاح ، بل عملية انعاش . وان أمريكا معرضة فى أى وقت لأن تنتكس الى الوراء نكسة عصبية خطيرة ، لأن روزفلت سكن الداء ولم يستأصله ، وكان الواجب أن يضع نظاماً وطيداً يقوم عليه الاقتصاد الامريكى ، وأخذ عليه بعضهم ان ادارة هذا النظام اقتضت نفقات باهظة جداً بلغت ثلاثين مليون دولار

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وأما « المحكمة العليا » - هذه الهيئة الخطيرة التى تتألف من تسعة شيوخ وضعت كلمتهم فوق كلمة الكونجرس والرئيس معا ، فقد قررت فى بعض أحكامها ان فى نظام « التعامل الجديد » قوانين تناقض الدستور الامريكى ، فكان لهذه الاحكام أثرها فى الحد من برنامج روزفلت شيئا ما

على ان ما نخلص به من عرض ما عرضنا من صور هذا النظام هو ان روزفلت الرئيس كروزفلت الصبى والنائب ، فقد خرج على طبقته وانضوى الى طبقة أخرى . فهذا رجل ايراده ، من ملكه ، يبلغ خمسين ألف دولار فى العام ، ولكنه يأبى الا أن يخلق معركة فى وسعه ان يتقيها ويصر على أن يشق طريقا للصراع وفى امكانه أن يتخذ طريقا آمنا هادئا ، وذلك ليأخذ للطبقات المحرومة حقها من طبقته التى خرج عليها وناصبها العداء !

وبهذه الوسائل وأمثالها أعاد روزفلت الحياة الى الاقتصاد الامريكى ، ومكن لعشرات الملايين من العمال والزراع أن يعيشوا عيشة آمنة متمدينة ، وحد من نفوذ رجال المال والاعمال وقضى على ألاعيبهم ومناوراتهم ، وأخذ يخوض معركة جديدة تجاه تلك القوى التى عاثت وطغت طويلا فى أوربا وآسيا ، والتى بدأ الآن صوتها يعلو ويدوى ، وجهازها العسكرى يدور . . .

من السلم إلى الحرب

— ١ —

منذ ثماني سنين كانت أمريكا تعاني أزمة في الاقتصاد نشأت في داخلها ، واليوم تواجه أزمة في السياسة تزحف اليها عبر البحار. هكذا قال روزفلت حين جلس الى جانب المدفأة في مساء ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٤٠ يتحدث الى الشعب الأمريكي الملتف حول أجهزة اللاسلكي عن « الازمة الجديدة التي تواجه أمريكا ، والخطر الذي يتوعد أمن شعبنا بالارهاب ، ويتهدد وحدة أمتنا بالتفرقة . . » فما هو هذا الخطر الذي يواجه أمريكا بالخطوب ؟

لندع « مصدر الخطر » ذاته — أدولف هتلر — يقص على هرمان روشننج [1] أحد رجال النازية الأوائل ، آراءه وأغراضه في أمريكا إذ يقول : « سأجعل لألمانيا المركز الرئيسي في أمريكا » ، فيسأله جوبلز : « على أية صورة يا زعيمي ؟ » فيجيبه هتلر في نشوة وحماسة : « هل نسيت ان مشروع إعلان اللغة الالمانية لغة قومية في أمريكا لم يرفض في المؤتمر الا بصوت واحد فقط ؟ إن العنصر الالماني في الشعب الامريكي سيكون مصدر بعثها السياسي والأدبي . وليس الشعب الأمريكي أمة بالمعنى الجنسي ، انما هو تلفيقة من العناصر البائسة . إن الأمريكيين فشلوا في أن يخلقوا من أنفسهم أمة ، وبدلا من ذلك أبقوا أنوفهم غاطسة في أكياس نقودهم . فاليوم يؤخذ منهم الثأر ، وستكون متاعبهم عصية على الحل »

هـذه الثورة التي يريد هتلر إن يوقدها في الولايات المتحدة الامريكية يوم تتهيأ له أسبابها ، ليست إلا خطراً واحداً من الاخطار التي تزحف الى أمريكا من الغرب والشرق عبر البحار !

فثمة الخطر الزاحف الى أقطار أمريكا ، وثمة الخطر العابث الصاخب في المحيط الهادي

فأما القارة الامريكية فللولايات المتحدة فيها سياسة تحددها مجموعة من التقاليد والاوضاع والمصالح والسوابق تسمى مبدأ « مونرو » الذي يتفكه أهل أمريكا قائلين ان أحدهم قبض عليه يوما بتهمة انه ينتقده ويعارضه ، فأخذ ينفي عن نفسه هذه التهمة قائلا : كلا ! هذا غير صحيح . . فاني أومن بمبدأ مونرو . . اني أعجب بمبدأ مونرو . . اني أموت دفاعاً عن مبدأ مونرو . . وكل ما قلته هو إني لا أدري ما هو مبدأ مونرو !

فلننظر ماذا يدبر هتلر لأقطار أمريكا ، على ما يرويه عنه « روشننج » في كتابه الذائع ، فهو

---

(١) من الترجمة العربية لكتاب « هتلر قال لي » لهرمان روشننج الرئيس الاسبق لمجلس شيوخ دانزج

يقول عن البرازيل انها أرض المستقبل ففيها « سنخلق المانيا جديدة وسنجد فيها كل ما نريد » زاعماً انه تتوافر فيها جميع الظروف التى تهيىء الثورة وتقيمها ، وهى الثورة التى لا تلبث فى مدى سنين أن تحول بلاداً سكانها ملفقون من دماء مختلفة الى مستعمرة المانية . ثم يقول : « ان بهؤلاء القوم لحاجة الينا ... فقد طفح بهم الكيل من الولايات المتحدة التى أرهقتهم بالتسخير والاستغلال ، وهم لا ينتظرون منها أن تفعل أى شىء لمصلحة بلادهم ... أما نحن الألمان فسنقدم لهم رأس المال ، وروح العمل . بل سنقدم لهم هبة ثالثة هى فلسفتنا . واذا كان فى الدنيا مكان يبدو فيه انتحار الديموقراطية فهو أمريكا الجنوبية . فيجب علينا أن نقوى ضمير هؤلاء القوم حتى يطرحوا وراء ظهورهم مبادىء الحرية والديموقراطية » . فما سبيله الى ذلك ؟ إنه يرسمه قائلا : « يجب أن نرسل اليهم قوماً منا ، ويجب أن يتعلم شباننا الاستعمار . وليست بنا حاجة الى موظفين وحكام لبلوغ هذه الغاية ، بل كل ما نحتاج اليه هو الشباب الجرىء المغامر . وليس من داع لأن نرسلهم الى الأدغال والفيافى ، بل نريد منهم أن يختلطوا هناك بالبيئات الاجتماعية الراقية »

بل ان أطماعه لتسرف وتغلو حتى تبلغ أرض المكسيك التى تجاور الولايات المتحدة وتلاصقها، ولكنه لا يسعى اليها فى الطريق التى اتخذها « بابن » فى الحرب الماضية إذ دفعتها دسائسه الى قتال الولايات المتحدة ، بل يقول عن هذه السياسة إنها « مجرد بلادة وسخف » . انما هو يستنزل « الوحى » ويستلهم مشروعاته وإجراءاته ، فهو يعتقد أن المكسيك أطيب وأغنى بلاد العالم وان شعبها أكثر الشعوب كسلا وتفرقا وتفككا ، وانه لا يوجد سوى شعب واحد له من الجد والنشاط ما يمكنه من الاستفادة من هذه البلاد ، وهذا هو الشعب الألمانى . ويقول : « لو أننا أخذنا هذه البلاد لحللنا جميع مشاكلنا . . . ان المكسيك تصرخ مطالبة بيد كفء قدير ، فقد خربتها حكومتها . فلم لا نضطلع بهذا الواجب ؟ إنى لن ألجأ الى الدعاية الاستعمارية فانهم يشهرون هذا السلاح ضدنا على كل حال . ولكننا نحتاج الى شىء جديد . إنك لتستطيع أن تملك المكسيك هذه بمائتى مليون جنيه . فلم لا أحالفها حلفاً دفاعياً وحلفاً جمركياً ؟ . . ولكن هؤلاء الحير — يعنى وزراءه أمثال نورات وشاخت — يظنون أن ما لم يعمل من قبل لا يمكن عمله الآن ! »

— ٢ —

أما الساحة الثانية من ساحتى السياسة الامريكية ، فهي المحيط الهادى ، فللولايات المتحدة فى شاطئه الشرق ، ثم فى الصين ، روابط تجارية ومالية ، وصلات أدبية ومعنوية ، تحتم تعهدها وتوثيقها . فقد اتجهت منذ تخلصها من الاستعمار وقيام الجمهورية فيها الى استثمار أموالها فى أرض الصين البكر السخية ، وكانت سفنها تغدو وتروح بين موانىء أمريكا وموانىء آسيا . وكذلك أوفدت أمريكا الى الصين أفواجاً من مبشريها كان لهم من التأثير السياسى والتأثير العاطفى فى

الشعب الامريكى أكثر مما للممولين والبحارة والتجار . وأخذت طوائف من الشباب الصينى تفد الى امريكا التى رصدت حكومتها مبلغاً طائلا للانفاق على طلاب الصين فى جامعاتها ومعاهدها ، فوثق هذا بين الشعبين بوثاق تبدي فى خلال الثورة الصينية الكبري التى أقامها صن يات صن سنة ١٩١٣ ، بتأثير أولئك الرجال والشبان الذين تعلموا فى أمريكا وعرفوا فيها الحرية والجمهورية وما زال أكثر رجال حزب « الكيومنتانج » الصينى متأثرين بتوجيه أمريكا ونفوذها ، ذلك أن ملايين من رجال أمريكا ونسائها يحسون أن عليهم قبل الصين وحريتها ورخائها مسئولية معنوية لا يحسون مثلها قبل أية أمة أخرى

ولكن اليابان التى ظلت الى منتصف القرن الماضى تقيم بينها وبين سائر العالم سداً منيعاً ، الى أن زج بها البحار الامريكى « بيرى » سنة ١٨٥٤ فى الأسرة العالمية الكبرى أخذت تهدد مصالح أمريكا فى الصين وما جاورها من الجزائر والاقطار ، بالمنافسة التجارية والمالية أولا ثم بالتدخل العسكرى والسياسى ثانياً . فصارت أموال اليابان المستثمرة ستة أو سبعة أمثال أموال الولايات المتحدة، وأصبح نصيب هذه من تجارة الصين الخارجية لا يتجاوز نصف نصيب اليابان ، وأخذت قوة اليابان العسكرية أثناء ذلك تنمو نمواً سريعاً يزيد من خطرها شعب ضخم العدد محارب بطبعه

وأخذت اليابان تنفذ مشروعها الاستعمارى الكبير الذى رسمت سياسته منذ القرن السادس عشر عند ما ظهر فيها قائدها الشهير « هيديوش » الملقب بنابليون اليابان . وكانت أول خطوة فى هذا السبيل غزو كوريا وقهرها فى سنة ١٩١٠ . وتلاها اشتراكها فى الحرب الماضية الى جانب الحلفاء ، الذين كافأوها فى معاهدة فرساى بوضع بعض الجزر فى البحار الجنوبية تحت الانتداب اليابانى ، وتقرير حقها فى منطقة « شانتنج » الصينية ، وبذلك انفسح أمامها المجال لمنافسة القوات الكبرى فى مضمار الاستعمار ، فسيرت جيوشها الى غزو منشوريا وقهرتها فى سنة ١٩١٣ وكونت منها دولة اسمها منشوكو . ولما همت أمريكا تريد صدها وحربها رأت بريطانيا مترددة ، وعصبة الامم قانعة بالاحتجاج ، والرأى العام فيها متفرق الكلمة . وانتهزت اليابان هذا الظرف السانح فأعلنت سنة ١٩٣٢ أنها تطبق فى آسيا الشرقية مبدأ كمبدأ مونرو الذى تطبقه الولايات المتحدة فى القارة الامريكية ، فلا تسمح لأية دولة أن تتخذ سياسة أو تكون نفوذاً فى هذه المناطق يتنافى مع سيادة اليابان وخططها السياسية أو الاقتصادية . كذلك أعلنت أنها تنقض المعاهدات البحرية التى أقرت فيها حق أمريكا وبريطانيا فى التفوق البحرى عليها

ولما اضطربت شؤون أوربا أمام « السياسة المسلحة » التى اتخذها هتلر وموسولينى ، ووقفت بريطانيا وفرنسا أمام ما يثار عليهما من النذير والارهاب مشفقتين مترددتين تريدان التهدئة والمصالحة ، انتهزت اليابان الفرصة وسيرت جيوشها الى الصين سنة ١٩٣٧ ، فاستولت على مقاطعات الشمال الغنية بمناجمها ومعادنها وخيراتها ، وأخذت تجاهد خمس سنين متتالية لتحطم قوة الصين

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

العسكرية والمعنوية ولتبسط لواءها على آفاقها الحصينة المأهولة . ثم كانت الحرب الكبرى فعاهدت ألمانيا يوم ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٤٠ على أن تدخل الحرب الى جانبها اذا دخلتها أمريكا الى جانب بريطانيا ، لتثب فى هذه المرة الوثبة الكبرى على آفاق الصين وما يجاورها من جزر المحيط ، ثم لتطلق لنفسها العنان فى أرجاء آسيا الشرقية . وبذلك تقف قواها العسكرية ، كما يقف نظامها الاقتصادى ، حائلا بين أمريكا وأسواقها فى آسيا الفسيحة ، وفى جزر المحيط الغنية الخصيبة

— ٣ —

هذه هى الاطماع والاخطار التى تتوعد أمن أمريكا بالارهاب ، وتتهدد وحدة أمتها بالتفرقة ، يريد روزفلت أن يبصر الشعب الامريكى بها ليوحد كلمته ويجمع أمره على لقائها واتقائها

على أن روزفلت يعلم أن وراء ما تثيره هذه الاطماع من شدائد مادية ، وما تقيمه هذه الاخطار من متاعب سياسية ، آثاراً اجتماعية أو ثقافية أعنف وأقسى . . . وهو يعلم أن هذه الآثار إن كانت تمس أمريكا فى سياستها فتربكها ، أو فى اقتصادها فتأزمه ، أو في كيانها الاجتماعى فتثير فيها الفتنة والفوضى — فانها تمس قبل هذا آراءه ومشاعره : تمس عقيدته فى الحرية التى يراها أثمن ما يؤثر الفرد وأجدى ما تملك الجماعة ، وتمس عقيدته فى الديموقراطية التى يعدها ضرورة من ضرورات الحياة إن أريد لها أن تصلح وتستقيم ، وتمس إيمانه فى الدين الذى لا يراه مجرد صلة بين الله والانسان ، بل الروح الذى يجب أن يسود سياسة الحكم وتقوم عليه الصلة بين الافراد وبين الطبقات وبين الشعوب . وهى تتصل بعد هذا كله بتاريخه الذى ألف فى جميع أطواره أن يقف فيه الى جانب الضعيف تجاه القوى وأن يأخذ فيه حق الفقير من الغنى ، فمن حقه أن يقف الآن تجاه تلك القوى التى تسير الجيوش فى الارض تستذل بها الشعوب ، وترسلها فى السماء تنزل الهلاك والموت بالآمنين ، ومن واجبه أن يشد اليوم أزر أولئك الذين يريدون أن يعيشوا ، ويعيش الناس الى جوارهم ، فى سلام وتعاون ، تيسيراً للحياة وتمكيناً للحضارة

يرى روزفلت أن هذه القوى إن سادت فى الارض فقد قضى فى أمر المبادىء الثلاثة التى تقوم عليها حياة أمريكا وحضارتها وثقافتها

« أول هذه المبادىء هو الدين . ومن الدين ينبع المبدءان الآخران : مبدأ الديموقراطية فى حياتنا الداخلية ، ومبدأ العقيدة الطيبة فى صلاتنا الخارجية

« إن النظام الذى يهمل الدين ، والديموقراطية ، والعقيدة الدولية الطيبة ، لهو النظام الذى لا يمكن أن يأوى اليه ملاك السلام ، بل لابد أن ينبعث منه شيطان الحرب

« والولايات المتحدة تأبى هذا النظام وتقاومه ، وتصر على أن تناضل عن مبادئها الثلاثة : عن الدين والحرية والعقيدة الطيبة بين الشعوب ، وان الدفاع عنها لحرب متصلة الحلقات ، فيجب أن

نعد قوتنا ونشد أزرنا لننقذها جميعاً مما يهددها من الاخطار . . »

فاذا جاوز روزفلت الاخطار « المعنوية » التي تبثها الديكتاتورية في العالم القديم والجديد على السواء ، وجد ثمة أخطاراً اقتصادية واجتماعية توجب عليه أن يوقظ الشعب الأمريكي لقائها . .

إنه يعلم انه يوم يتيسر لألمانيا أن تبسط يدها على أوربا كلها فتجعل منها وحدة جمركية ومالية واقتصادية مركزها برلين وعملتها المارك وزمامها بيد النازى ، أمكنها أن تتخذ من الضغط الاقتصادى بدلا من الغزو العسكرى ، طريقاً تعبر به البحر الى أمريكا فتنتشر فيها نفوذها ونظامها. وحسب ألمانيا أن تقفل فى وجه أمريكا باب الأسواق التى تصرف فيها الآن ما تنتج من المواد الخام وما تخرج مصانعها وحقولها ، فتنزل بها راغمة عن مكانتها الاقتصادية والاجتماعية ، فاما ان يكون الاقتصاد الامريكى فى يد الحكومة كما هو الشأن فى الاقتصاد الألماني . فتتخلى أمريكا بذلك عن مبدأ الحرية الذى تتخذه أولى دعائم حياتها وحضارتها ، ويضطر عاملها أن ينزل الى الأجر الذى يعمل به العامل الألمانى ، وترجع فى مستوى معيشتها واجتماعها عشرات السنين الى الوراء - إما هذا ، وإما أن يفرض الكساد والفوضى على اقتصادها وأن تفرض البطالة على عمالها !

ولن تكون ثمة قيمة كبيرة لرصيد الذهب الضخم المكدس فى الولايات المتحدة الامريكية ، ذلك أن العملة الدولية لن تكون سوى المارك الالمانى ، تقدر له برلين قيمته وكميته كيف شاءت

وسيتطلب هذا العالم الاقتصادى الفسيح الذى تريد النازية أن تؤلفه من أربعمائة مليون نسمة من الجنس الابيض ، كثيراً من المواد الخام التى تنتجها أمريكا . ولكن ما عساها أن تستفيد والمانيا لن تدفع لها ثمناً سوى بضائعها المصنوعة ، إذ سوف تقيم التجارة الخارجية على أساس المقايضة كما كان الشأن فى بدء قيام الحضارة الانسانية ؟

— ٤ —

أيمكن لهذه الاخطار « المعنوية » و « المادية » أن توحد كلمة الشعب الامريكى على السياسة التى يريد روزفلت أن يأخذ بها فى نصرة الديموقراطية وكفاح الديكتاتورية ؟

نعم ، ولكن على روزفلت أن يشق طريقاً طويلا قبل أن يبلغ غايته

فليس الأمر بيسير وفى الولايات المتحدة زهاء عشرين مليون نسمة ينحدرون من أصل ألمانى ، وخمسة ملايين أخر من أصل ايطالى .وهم وان كانوا قد ذاقوا الحرية وعرفوا قدرها وخيرها ، إلا أن رابطة الدم ليست هينة يسيرة ، والدعاية التى تغريهم وتفتنهم جادة نشيطة ، فهم يريدون - على الأقل - أن تقف أمريكا من ألمانيا وايطاليا موقف المحايد المسالم

وثمة أربعة عشر مليون فرد ولدوا خارج أمريكا ونزحوا اليها فى السنين الاخيرة ، وكثير منه وفد من إيطاليا وألمانيا فما زالوا مشبعين بروح الولاء لأوطانهم الأولى

وثمة اثنا عشر مليون نسمة من الزنوج وليس بينهم وبين شعوب أوربا صلة ما تحملهم على النضال والكفاح ، وهم وان كانوا فى درك الحياة الامريكية فان لهم رأيهم وصوتهم على أى حال

وخبراء الاجناس يقولون أن ليس فى الولايات المتحدة أكثر من ستين أو سبعين مليون نسمة ينحدرون من المهاجرين الانجليز الأوائل ، وان كان كثير منهم قد تسربت الى دمه قطرات من دماء الأجناس الأوربية الاخرى . وصار أكثرهم يعيش فى مناطق الجنوب الزراعية ، فى مستوى معنوى واقتصادى — على حد قول صحفى انجليزى عاش فى أمريكا طويلا — يوازى أو ينخفض من مستوى أحط الزنوج ، وهم وان كانوا يتكلمون الانجليزية التى توصف « بانجليزية شكسبير » إلا أن أفقهم الثقافى ضيق جداً ، حتى ان أكثرهم — كما يقول هذا الصحفى — لا يصدق أن بينه وبين بريطانيا رابطة من الدم والقربى ، بل أن مئات منهم لم يسمعوا قط باسم بريطانيا !

هذه صورة للشعب الامريكى يبدو فيها من عوامل الفرقة ودواعى الخلاف ، ما يهم رجال التفكير وقادة السياسة فى أمريكا ، إشفاقاً على ما يجب للشعب من الوحدة والمناعة ، فيجاهدون ليجمعوا الكلمة ويوحدوا الرأى على تمجيد أمريكا ، ولو كان هذا بالانتقاص من أوربا وتحقيرها !

والواقع أن الامريكى العادى يعتقد أن ليس من شعب فيه من الديموقراطية الصحيحة ، والحرية الكاملة ، والعدالة الحقة ، سوى شعب أمريكا . فهو الشعب الوحيد الذى يتيسر للفقير فيه أنْ ينال قسطاً وافراً من التعليم فى المدارس والجامعات ، ونصيباً كبيراً من فرص النجاح فى الحياة . . ومن الكلمات الشائعة هناك أن كل أمريكى يستطيع أن يرأس الجمهورية ! ولهذا يعتقد الامريكى أن ليس عليه أن يناضل عن الحرية ويدافع عن العدالة إلا إن تعرضتا فى أمريكا — لا فى أوربا — للخطر والأذى . .

ومن شأن هذا الاتجاه أو هذا الشعور أن يكره روزفلت على أن يسير فى طريقه الى تأييد الشعوب الديموقراطية وكفاح القوى الديكتاتورية سيراً وئيداً متزناً ، ليبصر الشعب الامريكي يوماً فيوماً ، بأن الديموقراطية لا تحيا فى أمريكا إن قضى عليها فى أوربا ، وأن هزيمتها فى العالم الجديد رهن بخذلانها فى العالم القديم

على أن روزفلت يرى بين أمريكا وأوربا حاجزاً من العزلة ، بل من النفور ، أقامته دواع شتى من التاريخ والسياسة والاقتصاد . . أول هذه الدواعى « سياسة العزلة » التى أخذت بها الولايات المتحدة الامريكية منذ ظفرت بحريتها واستقلت بأمرها ، وأوصاها واشنجتون ألا تزج بنفسها فى مشاكل أوربا . فلأمريكا من البحار المترامية على جانبيها آلاف الاميال ما يوقيها خطر الغزو ويعصمها من بأس العداة ، وكان لها من تراثها الطبيعى والصناعى ما يكفيها شر الحرب والفتح لتقهر شعوباً تستبد بأمورها وتملك أرضاً تستأثر بخيراتها

والواقع أن تاريخ أمريكا الحربى ينحصر فى حربيها القوميتين : حرب الاستقلال والحرب

الاهلية . أما ما خاضته فى الخارج من حرب أسبانيا وحرب المكسيك ، ومن مساهمتها فى كفاح ألمانيا فى الحرب الماضية ، فلم ترج من ورائها فتحاً ولا غزواً ، بل ذوداً عن نفسها ما يتهددها من فتن الثورة أو خطر العدوان ، وتأييداً وانتصاراً لمن يناضلون عن صورة الحياة التى تحياها وتؤثرها . ولم تجن أمريكا من هذه الحروب ما ألف الغالب أن يجنى من الأملاك والغنائم ، بل لعلها كانت تنظر اليها فيما بعد نظرة الرجل حين تتقدم به السن الى نزواته وأخطائه فى سنى الشباب !

تريد أمريكا إذاً أن تعتزل هذه الدنيا المحتدمة بأحقاد الشعوب والطوائف ، وأطماع الزعماء والساسة ، ومتاعب السيادة وأهوال الحروب . . وقد قوى فيها روح العزلة هذا بعد أن وضعت الحرب الماضية أوزارها ، وأفاق شعبها من الأحلام التى مناه بها ويلسون ، فلم ير بعد يقظته إلا صورة قاتمة سوداء ، فيها مائتا ألف قتيل سقطوا من بين مليونين من الجنود أرسلتهم أمريكا لنصرة الحلفاء . وفيها ديون ضخمة هائلة تماطل دول الحلفاء فى سدادها وتسوف . . . وليت أوربا مع هذا أفادت شيئاً ، فغدت مكاناً آمناً للحرية والعدالة ، ولكنها ما برحت كما كان العهد بها فيما مضى ، مثابة لأحقاد الشعوب وضغائن الأجناس ، ومثوى ساسة مخاتلين وحكومات متآمرة ومصدر أزمات وأحداث تهدد العالم فى رخائه بالشدائد وفى أمنه بالحوادث . . فاتجه الرأى العام الامريكى بعد الحرب الى الأخذ بسياسة العزلة فى كثير من الاسراف ، كأنه اسراف من يتوب توبة نصوحاً عن ضلالة آثمة كبرى .

وكان من مظاهر هذه العزلة أن استرجعت أمريكا كثيراً من أجداث جنودها فى ساحات أوربا ، حتى لا تدعوها قبور أبنائها فى هذه القارة الى صلتها ، مرة أخرى ، بصلة المودة والحنين!

ثم قامت مشكلة ديون أمريكا على الحلفاء فجعلت هذه العزلة فرضاً واجباً . .

أقرضت أمريكا الحلفاء فى الحرب الماضية سلاحاً وذخيرة ومؤونة بلغت قيمتها ١٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠ دولار . . أى أن دين أمريكا الخارجى كان قدر دينها الأهلى فى سنة ١٩١٨ بأكثر من ثلاث عشرة مرة ، وهذا يدلك على مدى الصدمة النفسية العنيفة التى وجهت لأمريكا عند ما عجز ، أو امتنع ، مدينوها عن الوفاء

فروسيا السوفيتية قالت إن القيصر هو الذى اقترض ، فاستوفوا منه ، لا من الشعب ، ديونكم ! . وبريطانيا وفرنسا قالتا إن ديون أمريكا علينا مرتبطة بما لنا من التعويضات على ألمانيا ، فاذا كانت هذه عاجزة عن الوفاء فمن أين نأتى لأمريكا بكل ما علينا . ومع هذا فقد كانت بريطانيا ـ باستثناء فنلندا التى وفت لأمريكا بجميع ديونها ـ أكثر دول الحلفاء وفاء بما عليها

ومع أن ديون أمريكا وتعويضات ألمانيا خفضت مراراً فى مشروعى « داوز » و « يونج » ، إلا أن المدينين عجزوا عند ما اشتدت أزمة سنة ١٩٣٢ عن الوفاء بأكثر ديونهم ، فأصدرت أمريكا فى سنة ١٩٣٤ قانون جونسون الذى يحرم إقراض الدول التى لم توف ديونها . . فقويت بذلك حركة العزلة واشتد ساعد دعاتها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولم تغفل بعض صحافة الحلفاء فى تلك السنين ما يجب عليها تقديراً للعرف ووفاء بالجميل . بل أخذت تقول إن أمريكا لم تدخل الحرب دفاعاً عن حرية أو عدالة ، بل تثميراً لأموالها وتنمية لصناعاتها ، وجمعاً للثروة على حساب أوربا .. وكثيراً ما كان بعض صحف أوربا الجادة يطلق على أمريكا اسم « العم شايلوك » بدلا من « العم سام » !

— ٥ —

هذه جملة الدواعى التى حملت أمريكا على اعتزال أوربا فى أمور السياسة ، ثم لم تر جمهرتها فيما وراء البحر من صراع بين القوى والشعوب إلا ما يدعوها الى الاسراف فى عزلتها ، ولم تتبين وراء المبادىء المتناحرة فى أوربا إلا سبيلا من سبل السعى الى السيادة والاستعمار . وقوى فيها هذا الرأى ، وكبرت الريبة عند ما أخذت بريطانيا وفرنسا بسياسة ميونيخ ، هذه السياسة الحائرة العقيمة المنكودة التى رأى فيها الأمريكى — المفكر والعامى على السواء — صورة مشوهة منكرة للديموقراطية الأوربية ، فأمعن فى قطيعتها وإنكارها

رأى روزفلت إذاً أن عليه أن يتئد ويتأنى فى ابداء رأيه فى سياسة أوربا حين أخذت ترتبك وتضطرب أمام « السياسة المسلحة » التى ابتكرها هتلر . ذلك أن الديموقراطية تقضى عليه أن يتكلم بلسان شعبه ، وهذا الشعب ما برح مفرق الرأى موزع الميل تجاه السياسة الأوربية . كما أن واجبه — كرجل عالمى — فى الحفاظ على السلم ودفع عادية الحرب يحتم عليه أن يقف بين الأخصام موقف الحكم ، يفصل بينهما بالحق ويؤلف بينهما بالحسنى . أما آراؤه وميوله الخاصة فعليه أن يخفيها ويكبتها الآن ، حتى لا يبدو فى أمريكا متجهاً وجهة لا يقرها الشعب ولا يرتضيها مجمعاً موحداً ، وحتى لا يبدو فى العالم متحيزاً الى جانب متجنياً على جانب ، فلا يجدى قضاؤه أو وساطته بينهما نفعاً . .

ولكن أحقاد الساسة وأطماع الزعماء ومظالم الماضى ذهبت بجهود روزفلت هذه بدداً وسدى وقامت الحرب فكان حتما على روزفلت أن يتخذ السياسة التى تعبر عن الرأى الامريكى العام : أى سياسة الحياد التى تتفق مع خطة العزلة ، فأذاع فى مساء يوم الحرب ، ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، رسالة يقول فيها : « ليس لأى رجل أو لأى امرأة أن يظن ، عن تفكير أو عن غباء ، أن أمريكا سترسل جيوشها الى ساحات الحرب فى أوربا »

أيريد روزفلت أن تقف أمريكا على الحياد حقاً ؟ أيريد أن تغفل واجبها قبل الحرية التى سيقت عليها الجيوش ، وأن تنسى مهمتها فى الحفاظ على الديموقراطية التى يأتمر عليها العداة الأشداء ، وأن تترك أولئك الذين يناضلون عن صورة الحياة وعن مبدأ الحضارة اللذين يقوم عليهما تاريخها ويرتبط بهما مصيرها ، فرائس لهذه الأسود الكاسرة التى يسمونها النازى الفاشست ؟

كلا ! انه إذ يعلن حياد أمريكا يقول : « إن هـذا الشعب سيبقى شعباً محايداً ، ولكنى لا أستطيع ان أطلب الى كل أمريكى ان يكون محايداً فى تفكيره . . ان المحايد لا يمكن ان يكره على ايصاد عقله وضميره . . . »

إذاً لقد تركت سياسة أمريكا للعقول والضمائر !

وانه لكفيل بأن ينير هذه العقول حتى يوحدها ، وبأن يثير هذه الضمائر حتى يوجهها ، فيكون من ورائه الشعب الاكبر الذى ينتصر للحرية ويناوىء العدوان بدافع من الرأى وبوحى من الشعور . وقد اتخذ روزفلت فى هذا الطريق خطى تجب دراستها على أنها نموذج من السياسة الفذة القديرة . واذا كان روزفلت « المصلح » قد أثبت أن الديموقراطية اذا أتيح لها الرجل الكفء المخلص ، أمكن ان تكون أقدر من الديكتاتورية على العمل والانتاج والاصلاح ، فقد أثبت روزفلت « السياسى » أن الزعيم الديموقراطى يمكنه أن يؤلف وراءه شعباً أكمل وحدة وأقوى عزماً وأوفر ولاء من هذا الشعب الذى يجمعه الديكتاتور بسوط العسف والارغام

على أن روزفلت أراد قبل هذا أن يبذل آخر جهد فى سبيل السلام ، فلما ركدت الحرب بعد هزيمة بولندة وبدا على المعسكرين التخاذل والاشفاق ، أرسل رسوله ، سمنر ويليز ، الى أوربا يجمع آراء ساستها وقادتها عسى أن يجد فيها اتجاهاً يتخذه لكف الحرب وعرض الصلح . ولكن هذه الخطوة لم يصادفها من التوفيق أكثر مما صادف الخطى السابقة ، فأعلن روزفلت أن لا سبيل الى الصلح بين المبدأين المتناحرين ، بين الفلسفتين المتقاتلتين . .

فليتخذ روزفلت إذاً الطريق الاخرى ، فينبه الرأى العام الى واجبه قبل الحضارة والانسانية ، ويثير الشعور العام تأييداً للجانب الديموقراطى ونضالا للقوى الديكتاتورية . وهذا الطريق على طوله وشقته ممهد أمامه مبسوط . ذلك أن روزفلت فى أفق تفكيره ، ومتجه شعوره ، ومرمى آماله « أمريكى » صرف خالص ، فكل ما يراه يتسق ويتجاوب مع عاطفة الجمهرة الامريكية

فليتخذ روزفلت إذن هذه المبادىء الراسخة فى عقول الامريكيين وقلوبهم سبيله الى تأليفهم حول هذه الشعوب التى تتكلم لغتها السياسية ، لغة الديموقراطية بما فيها من رعاية للدين وتقديس للحرية واتجاه الى المساواة وايثار للتسامح

ولكن اذا كان روزفلت يلقى فى الشعب آذاناً تستمع آراءه التى يذيعها عليه كلما سنحت فرصة ما ، وعقولا يفكر بها فى كلماته التى يلقيها الى الصحفيين الذين يلقاهم مرة كل أسبوع ، فانه يلقى كثيراً من الجهد والعناء فى عطف رجال السياسة على قضية الديموقراطية ، والتغلب على الصعاب التى يقيمها الكونجرس كلما أراد أن يخطو خطوة الى تأييدها ومناصرتها

وهذا ما يفسر تلك الخطى الوئيدة التى خطاها روزفلت منذ خرج بأمريكا من عزلتها المطلقة التى تحرم عليها أن تنشىء صلة سياسية أو تجارية ما بأى شعب من الشعوب المتحاربة ، وتدرج بها

الى سياسة « ادفع واحمل » التى مكنت بريطانيا ـ دون المانيا ـ من أن تحصل من أمريكا على كثير من السلاح والذخيرة والمؤونة ثم الى إقراض بريطانيا خمسين مدمرة أمريكية مقابل نزولها لامريكا عن بعض القواعد البحرية والجوية ، ثم قانون « الاعارة والتأجير » الذى كان حيلة دبلوماسية من حيل روزفلت مكنته من أن يضع تحت تصرف بريطانيا وكل من يناصرها فى الدفاع عن النظم السياسية والاقتصادية التى تؤثرها أمريكا كثيراً من موارد أمريكا ومنتجاتها الحربية . هذا الى جانب التوسع فى برنامج امريكا الحربى حتى لا تؤخذ على غرة وهى غير متأهبة للحرب تجاه الديكتاتورية الهائجة فى أوربا أو الديكتاتورية المتربصة فى آسيا

— ٦ —

وبينما كان روزفلت يناضل تأليفاً للشعب وللكونجرس حول قضية الحرية وتأليباً لهما على قوى الطغيان ، كانت السنة الثامنة من حياته فى البيت الابيض تشرف على نهايتها . وليس فى تاريخ الجمهورية الامريكية من تولى رئاستها أكثر من دورتين ، رغم أن من رؤسائها من كان أدنى من روزفلت إلى قلب الشعب وأكبر فى رأيه . ذلك أن حرص الامريكيين على الحرية أبى عليهم أن يعدوا لفرد ما فى حبل القوة خشية أن يستبد بأمرهم ويطغى . وهذا دأب الشعوب التي تؤثر الحرية وتحرص عليها أكثر من حرصها على الرجال . ونجد هذا على أشده فى الاغريق قديماً وفى الانجليز حديثاً . كان الاغريق يعرفون « نظام المحار » يتخذونه كلما قام فيهم رجل عظيم أحبه الناس وأعجبوا به حتى يخشى عليهم أن يفتنهم فى حريتهم ، فيستفتى الشعب فى نفيه من الارض وإقصائه ، ويعطى كل فرد « محارة » يكتب عليها نعم أو لا جواباً على هذا السؤال : هل يجب نفى هذا الرجل أم لا ؟ وكذلك الانجليز الذين يخشون على حريتهم من أولئك الافراد الذين يبرزون فى الشعب بروزاً عظيما قد يفتن الناس ويأسرهم ، فيضحون بالحرية قرباناً لهؤلاء الابطال. ودليل هذا ما لقائديهم الأوحدين : دوق مارلبرو الذى سموه بعد أن هزم لويس الرابع عشر ، بالخائن مرة وباللص مرة أخرى، وويلنجتون قاهر نابليون وقد رجمه الناس يوم احتفالهم بذكرى واترلو فاحتمى منهم فى بيته وراء قضبان من الحديد!

كان مفروضاً إذاً أن يغادر روزفلت البيت الابيض مشكوراً على ما بذل من جهد فى الاصلاح . . ولكن « العربة » كانت فى وسط النهر كما قالوا : « فهل نطرد سائقها فيذهب من فيها غرقى ، أم نصبر عليه قليلا حتى تعبر الماء وتبلغ أرض السلام ؟ »

فقر الرأى الأمريكى على أن يبقى على « سائق العربة » ، وجدد انتخاب روزفلت رئيساً لأمريكا أربع سنين أخرى

وان رضى الشعب الأمريكى لأول مرة فى تاريخه بأن يدع أمره لرجل واحد اثنتى عشرة سنة

ليس له من معنى الا أنه يريد أن يطلق لروزفلت العنان في سياسته لتأييد الديموقراطية وكفاح الطغيان . فأخذت أمريكا ترسل سلاحها وعتادها الى كل ميدان تنزل اليه أجناد الديموقراطية يذودون عن بلادهم ويدفعون عن مبادئهم . . ثم نزل أجناد الديموقراطية جميعاً ، تجمعهم أخوة السلاح كما جمعتهم أخوة المبدأ ، يوم دخلت اليابان هذه الحرب غيلة وغدراً

وفي ساعة من ساعات التاريخ الفاصلة حدث هذا التحالف المنشود بين بريطانيا وأمريكا ــ هذا « الزواج » الذي اقترحه الرئيس جيفرسون يوم أن انبسط ظل نابليون على أرض أوربا ، والذي صار أمراً مقضياً وقد طغى على الأرض ظل أشد نكراً وأكثر قتاماً . . .

وسيزداد هذا التحالف قوة وثباتاً ، « فليس في وسع أحد ــ كما يقول تشرشل ــ أن يوقف تياره الدافق . . ان هذا الاندماج يسير في طريقه سير المسيسبي في مجراه ، سيراً مطرداً متدفقاً ، فدعوه يطرد ويتدفق ، حتى يغمر فيضه الذي لا تدافع أمواجه أرضاً أوسع آفاقاً ، فتنبثق إذاً أيام أجمل وأرغد من أيامنا . . »

. . وغداً عندما ينحسر عن العالم قتام النار الموقدة في فجاج الأرض وأطباق السماء ، سيلقى الانسان أمامه دنيا مؤسسة على مبادىء الحرية الانسانية التي يرويها اليوم روزفلت وتشرشل معاً بدماء القتلى والجرحى ، ودموع الثكالى واليتامى ، وعرق المجاهدين المكافحين ، لتنبت وتزكو شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، فتظل غداً الأجناس والشعوب جميعاً ، والطبقات والأفراد جميعاً ، بظل وارف من الأمن والرغد والرخاء . .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أهم المراجع

— Roosevelt : A study in Fortune and Power — by Emil Ludwig.
— Franklin Roosevelt — by Maine.
— The Economic Consequences of the New Deal — by Benjamin Stolberg and Warren Jay Vinton.
— Practical Economics : Chap. IV « The New Deal » — by S.D.H. Cole.

اعتمدنا عليها في كتابة سيرة روزفلت

— American Foreign Policy — by D.W. Brogan.
— America Our Ally — by H.N. Brailsford.
— Will America Fight — by John Walters.
— America Chooses ! in the Words of President Roosevelt — by Gordon Beckles.
— Mr. Roosevelt speaks.

ــ مجلة الهلال : مقالات ونبذ شتى كتبها أو ترجمها الكاتب عن روزفلت وامريكا
ــ اعتمدنا على هذه المصادر في عرض سياسة امريكا الخارجية